

سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى



**السيرة النبوية والدعوة
في العهد المكي**

تأليف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق

جامعة الأزهر

(۲)

سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى

— ٢ —

السيرة النبوية والدعوة

في العهد المكي

(٤)

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

الطبعة الثانية

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

مزيدة ومنقحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آل وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ،،،

فبعد نفاذ الطبعة الأولى كان لازماً إعادة طبع الكتاب طبعة جديدة ، وهنا رأيت إجراء بعض التنقيح في الطبعة الجديدة على النحو التالي :

أولاً :

الاهتمام باستنباط الركائز المفيدة للدعوة ، والدعاة ، عقب أى مبحث يفيد فى هذا الجانب ، وأشعر أنى بذلك أحقق غاية رئيسية من دراسة السيرة النبوية ، وهى ضرورة الاستفادة بكافة جوانبها فى إعداد الدعاة ، وتنظيم حركة الدعوة ، وتهئية المسلمين للحياة . ولعل مما يؤكد هذه الضرورة الوضع الذى يعيشه المسلمون فى هذا العصر ، فهم يعيشون ضعفاً شاملاً فى كافة جوانب حياتهم ، وحاجتهم إلى دروس السيرة ماسة .

ثانياً :

فى الطبعة الأولى كنت اكتفى بالإشارة الموجزة للفوائد المستفادة من السيرة ، أما فى هذه الطبعة فقد جعلت لهذه الفوائد مباحث مستقلة .

ثالثاً :

قسمت بعض المباحث إلى مسائل وضعت عنواناً لكل منها بعد أن كانت

(٨)

مبحثاً واحداً شاملاً ، خالياً من أى تقسيم داخل المبحث .

رابعاً :

قمت بحذف بعض المباحث ، إما لأنها مكررة مع غيرها ، أو لبعدها
العضوى عن موضوع الدراسة ، ولذا رأيت حذفها هنا على أن أجعلها
مؤلف خاص بها ، وذلك مثل مبحث (أسلوب القرآن والسنة فى الدعوة إلى الله
تعالى) ، ومبحث (صفات الدعاة) .

وقد لاحظت التماسك التام بين السيرة الشخصية لرسول الله ﷺ ، ودعوته
ﷺ الناس للإسلام ، لدرجة أنى وجدت أنه ما من عمل قام به رسول الله ﷺ إلا
وهو تأسيس لحركة الدعوة إلى الإسلام ، فصمته ، وابتسامته ، ونومه ، ومشيه
، وتوقفه ... وسيرته ﷺ قبل البعثة ، والبيئة التى ولد بها ، ونشأ ، وتربى فيها ،
وجدتها وثيقة الصلة بالدعوة ، لأنها تمثل المحيط الذى وجد فيه رسول الإسلام
، وتعرف بالواقع الذى تعامل معه رسول الله ، وتصور المعوقات التى واجهها
محمد ﷺ ، وهو يدعو إلى الله تعالى ، والدعائم التى استند إليها .
ورأيت كثرة الدروس ، وعظمة العبر التى يمكن استنباطها من فترة ما قبل
البعثة . وأهمها :

- . اكتشاف الواقع الذى واجه الرسول ﷺ ، ويمكن أن يواجهه الدعاة بعده .
- . أصالة نسب النبى ، وطهارته ، وأهميته لمن يقوم بالدعوة .
- . التمهيد للدعوة بالمنبهات الحسية ، والأحداث الخارقة للعادة .
- . دور الاستقرار العائلى فى نجاح الإنسان فى مهمته .
- . أهمية التنشئة العلمية ، والعملية فى تكوين الرجال .
- . إيجاد الرجولة المبكرة فى الشباب ، وتعويدهم على تحمل المسؤولية .
- ... وأمثال ذلك دروس دعوية كثيرة ، وعبر يستلهم منها العلماء ،
والفقهاء ، الفوائد ، والأحكام .

ومع هذا ...

فقد آثرت الإبقاء في هذه الطبعة على الكتابة عن السيرة ، والدعوة معاً كخطين متوازيين ، يكمل أحدهما الآخر ، وتصورت الأمة الإسلامية قطاراً يحتاج إلى الخطين معاً ... وفي وقت واحد لتسير ، وتتقدم .

أريد بهذا التناول التأكيد على أن تكون حركة الدعوة في حياة المسلمين هدفاً مقصوداً لكل مسلم ، فما وجد الرسول ﷺ إلا للدعوة ، وما كانت رسالته إلا البلاغ ، والإرشاد ...

وفي نفس الوقت أتمنى أن تستمر سيرة المصطفى ﷺ ناصعة في العقول ، شاهدة على عظمة محمد ﷺ ، ودليلاً على كينونته قرآناً في صورة عملية تطبيقية .

إنى هنا أكتب عن الدعوة متخصصاً ، ولأقدم المسيرة من خلال هذا التخصص ، فلقد كتب كثيرون عن (الطب النبوي) ، و(علم النفس في حياة رسول الله ﷺ) ، و(الجانب الحركي للسيرة) ، و(بناء الدولة المسلمة في العهد المدني) ، و(الحياة الأسرية لـ محمد ﷺ) ... وكل هذه كتابات متخصصة في فرع من فروع العلم .

وقلت لنفسي :

ألا يجوز لي في إطار هذا التنوع :

- . أن أكتب عن الدعوة في حياة رسول الله ﷺ !!؟
- . وأن أكتب عن الرسول ﷺ نموذجاً للإنسان العظيم !!
- . وأن أبرز الركائز الدعوية من سيرة المصطفى ﷺ !!
- . وأن أضخم فيما أكتب تعظيماً للسيرة والدعوة معاً !!؟
- . ولم لا تكون السيرة دعامة الدعوة ، وتكون الدعوة نتيجة السيرة !!

(١٠)

إن حبي للإسلام ، واعتزازي برسول الإسلام محمد ﷺ حثماً على أن تكون الكتابة عن الإسلام ، ومحمد ﷺ معاً في إطار متناسق جميل .
وللحب ثمنه ، وقد وافقت على دفعه ، والإقدام عليه .
فكرت ذكر بعض الحوادث تبعاً لتغير المنطلق . وحاجة كل موقف للاستشهاد بنفس الحادثة ، ولم أشأ أن أشير إلى ذكر الحادثة في مكانها الأول لأهميتها ، ورغبتى استحضارها مرة أخرى .
وابتعدت بعض الأحداث عن سياقها التاريخي أحياناً . تقدماً أو تأخراً .
واحْتَاجَ البحث أحياناً إلى التمهيد ، أو التعليق بمستحدثات العلم ، وتجاوب الناس .

ودافعي في كل ذلك هو حبي لديني ، ولمصطفى ﷺ .
فليس لي إلا آل أحمد مطلب .: . وليس لي إلا مذهب الحق مذهب
وأملى أن يعي المسلم المعاصر مسئوليته .، ويعود إلى دينه بصدق .
ويحب رسوله ﷺ بكل كيانه فهو ﷺ بالمؤمنين رعون رحيم .
إن السيرة النبوية يجب أن تستمر في حياة المسلمين نشاطاً ، وحيوية تعلمهم الطريق ، وتأخذ بيدهم إلى الحق ، وتعودهم التضحية من أحل المبدأ ، والنهوض .
لقد قدم المسلمون في العهد المكي تضحيات بالغة من أجل إيمانهم ،
وحماية عقيدتهم :

. لقد أؤذوا حتى القتل ، وصبروا .
. وتركوا أوطانهم ، وأموالهم ، وأهاليهم ، وهاجروا .
. تعرضوا للاستهزاء والسخرية مواجهة ، ومن وراء ستار ، ولم ييأسوا .
. لقد ثبت المسلمون ، وهم قلة أمام الأغلبية الطاغية حتى حقق الله لهم النصر ، والتمكين .

والمسلمون اليوم فى أمس الحاجة إلى أن يعيشوا ظروف المرحلة المكية فالضعف أصابهم ، والعدو نال منهم ، والفكر الضار أحاط بهم من كل جانب ، وسبل الهوى ، والشهوة تتحرر فيهم ظاهراً ، وباطناً ... ولا نجاه لهم إلا بتتبع ما فعله المسلمون. مع رسول الله ﷺ فى مكة قبل الهجرة . فقد واجهوا. ولقعههم بشجاعة ، وتمسكوا بمبادئهم بقوة ، وتحملوا كل الأذى بصبر ، وقدموا طاعة الله على هوى النفس ، وجعلوا حب الآخرة أولى من التمسك بالدنيا .

إن أمر الأمة الإسلامية صار فى أيدي أعدائها ، يستوردون طعامهم منهم ، ويأخذون دواءهم من إنتاجهم ... وكل ما يحتاجون إليه من مركب ، ومسكن ، وملبس ... إلخ ... هو من إنتاج الأعداء ...!!

وحين نتساءل ...

أين المسلمون ؟!

وأين الأمة ؟

وأين العلماء ؟

وأين النشاط والحركة ؟

... نرى طحنا بلا دقيق ... وضجة بلا أثر !!!

نسأل ... ولا مجيب ... وينادى المصلحون ... ولا مطيع ... والأمر لله

من قبل ... ومن بعد .

إن سلبية المسلمين تجاه نصره الحق ، وإعزاز الدين محير .

وكأن ما نراه من تسيد الصهيونية الباغية ، واستعلاء الصليبية المبشرة

أرباح المسلمين على تنوعهم فعاشوا. هادئين . وروضوا بالدنو وللدنية . وهم

آمنون!!!

نتمنى أن تعود الأمة لربها فتؤمن بدينه ، وتلتزم بشرعه ، وتجتهد لتتجح ،

وتعتز بما يقضى به الله تعالى ، ويقدره .

(١٢)

نتمنى أمة مستقلة ، ترفع راية الحق ، وتتقدم الصفوف ، وتبذل النفس ،
والنفيس لتعيش بمنهج الله ، وتعمل بمنهج الله ، وتنصر دين الله تعالى .
نتمنى أمة يلتزم أبناؤها بحبها ، وحب العمل لرفعتها ، ويشعر كل فرد
فيها بمسئوليته أمام غيره من الناس .
نتمنى أمة تعمل لخدمة أبنائها ، لا أن تكون سيفاً خادماً للأعداء .
وسط هذه الأمانى وغيرها أعود إلى المسلمين ، وهم فى مكة قبل الهجرة
مع رسول الله ﷺ ، وأضعهم منارات أمام كل مسلم معاصر عسى أن تحدث
يقظة للأمة كلها . لتعود أمة . كما كنا . أمة تعمل للخير . وتقرر الحق ،
وتنادى بالسلام ، والأمان ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر .
وتعلم أن عين الله لا تنام ... وحسابه أليم شديد .
والله أسأله التوفيق ، والسداد ، وأرجوه القبول والرضى ... فهو حسبي
عليه توكلت ، وإليه أنيب .

أ.د / أحمد أحمد غلوش

أول ربيع الأول سنة ١٤٣٠هـ

مدينة نصر

٢٦ فبراير سنة ٢٠٠٩م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،،،

فإن دين الله واحد ، ورسله جميعاً يتحركون بعقيدة واحدة ، يعلنون كلمة الله ، ويعملون لنقل الناس من الضلال إلى الهدى ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

والدين الذى جاء به الرسل عليهم السلام جميعاً دين واحد ، وهذه الوحدة بادية فى أركان العقيدة ، فهى عقيدة واحدة معلومة من لدن آدم ﷺ إلى محمد ﷺ تناسب الفطرة البشرية ، وتتسم بالصدق ، والحق ، والواقعية .
ولو كان الإنسان واحداً ، والواقع البشرى ثابتاً ، لجاء للناس رسول واحد صالح للناس أجمعين .

لكن الإنسان ليس واحداً ، وإنما هو متعدد النزعات ، متنوع الفكر ، يتأثر واقعه دائماً بعوامل جغرافية ، وبيئية ، واقتصادية ، وثقافية ، واجتماعية ... إلخ ولذلك قضى الله بحكمته أن يبعث رسولاً لكل أمة ، يبلغها بالعقيدة الدينية الواحدة ، وبأسلوب يتلاءم معها ، وبمنهج يقربها من دعوته ، مع تكليف الناس بأعمال .، وتطبيقات .، تطهر حياتهم .، وتقوى عقيدتهم .، وتساعد فى القضاء على مواريث الجهل والضلال ، وبناء الحياة على الحق والصواب .

وقد رأينا فى الكتاب الأول الخاص بدعوة الرسل عليهم السلام أن كل رسول دعا قومه بمنهج خاص ، وبطريقة خاصة ، مع اتحادهم فى العقيدة الواحدة .
ورأينا . كذلك . أن كل رسول بعث لقوم معينين سواء تتابعوا زمنياً ، أو بعثوا فى وقت واحد كإبراهيم ولوط عليهما السلام .
ورأينا . أيضاً . أن كل رسالة كانت تراعى أحوال المدعوين ، وتلاحظ مستواهم العقلى ، والحضارى فى التوجه ، والمناقشة .
إن هذا الموكب الطويل من الرسل جاءوا للناس بصورة واحدة للاعتقاد الصحيح ، القائم على التوحيد الخالص ، التوحيد المطلق ، الناصع ، القاطع ، توحيد الألوهية التى يجب أن يتوجه إليها البشر جميعاً ، كما تتوجه إليها سائر الخلائق بالتسليم والخضوع ، والعبودية .
إن هذا التوحيد يعنى أن القوامة المطلقة لله لازمة على خلقه جميعاً ، فلا يقوم شئ إلا لله ، ولا سيادة على الخلق إلا من الله ، ومن ثم فإن الاستسلام كله من البشر يجب أن يكون لله ، صاحب الحول والطول ، ورب العالمين .
وقد علم الله رسله أن يتلاءم كل منهم مع واقعه فى الشريعة ، وإن اختلفت عن الشرائع الأخرى ، يقول تعالى ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾^(١) .
وقد رأينا لكل رسول- شريعته ، المناسبة لقومه ، فيها المحلل . وفيها الحرام ، وفيها التكاليف العملية المتنوعة . وهى مع اختلافها مع كل رسول منزلة من الله ، ولذلك اتسقت مع العقيدة الربانية الواحدة ، التى تلزم المعتقد بضرورة المتلقى من الله الواحد . وللتحاكم إلى الوحي المنزل . ولأخذ من توجيهات النبى المبعوث ، وبذلك يتحد الضمير الخفى مع الواقع العملى ، ويعيش الناس مع رسلهم ، مؤمنين مخلصين ، مطيعين لله رب العالمين .

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

وكما اختلف الرسل فى الشريعة اختلفوا كذلك فى المنهج ، والأسلوب
ليتحقق المراد. من الدعوة يقول تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ
قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴾^(١) .

إن طريقة التوجه لقوم ما لا تتناسب مع التوجه لغيرهم ، لما بين الفريقين
من اختلاف ، وتنوع ، وتلك دروس مستفادة من تاريخ دعوة رسل الله تعالى .
وقبل بعثة محمد ﷺ أقرب الناس فكراً ، وترقت عقولهم حتى وصلت
إلى التصور المجرد ، والقدرة على مناقشة الدليل ، إلا أنهم مع ذلك كانوا
مختلفين واقعاً وسلوكاً ، وعقيدة .
ووسط هذا الحال بعث محمد ﷺ رسولاً للعالم كله ، بالعقيدة الإلهية الواحدة ،
والشريعة الملائمة للناس أجمعين ، والصالحة للتطبيق فى كل زمان ، ومكان .
إن الواقع البشرى يلتقى مع العقيدة الإلهية لأنها نفس العقيدة التى نادى بها جميع الرسل ،
وخطب بها سائر الأقوام ، وآمن بها الكثيرون فيما مضى من الزمان .
ورسالة محمد ﷺ هى خاتمة الرسالات فلا دين بعده ، ولا رسول بعده ،
ولذلك جاء الإسلام بعقيدته ، وشريعته ، صالحاً لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة .
وحتى تلتقى الشريعة الإسلامية الواحدة مع جميع الناس ، وعلى امتداد
الزمن جعلها الله على نوعين :

النوع الأول : ما يتصل بالعبادات المشروعة ، والأعمال النامة ،
والأحكام الثابتة ، وهذه فصلها الإسلام تفصيلاً ، لا يقبل تغييراً أو تبديلاً ، وقد
شرعها الله بهذه الدقة ، والدوام لتنظيم حياة الناس جميعاً إلى يوم القيامة ، وهى

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٤ .

المعروفة بالثوابت فى الإسلام ، كالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وأحكام النكاح ، والطلاق ، والميراث ... وهكذا .

النوع الثانى : وهو ما يتصل بالأعمال التى تختلف من مكان إلى مكان ، وتتغير من زمن لزمان آخر ، ومن جماعة لغيرها كصورة الشورى ، ومناهج العمل اليومى ، والطبائع المرتبطة بالعادات والتقاليد ، ومع هذا النوع كان وضع القواعد العامة المنضبطة بالأصول الشرعية ، لتكون إطاراً للمتغيرات ، نأخذ الحكم منها بواسطة اجتهاد علماء الإسلام ... ومن أمثلة ذلك القوة فهى تختلف نوعاً ، وصورة ، فهناك القوة الخلقية ، وهناك القوة الإيمانية ، وهناك القوة العلمية ، وهناك القوة العسكرية ، من سيف ، ورمح ، ومدفع ، وصاروخ ، وطائرة ... الخ ... وأمام هذا التنوع للقوة يضع الله تعالى مبدأ كلياً حيث يقول تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (١) . وعلى مثال ذلك وضعت المبادئ الكلية للمتغيرات العملية .

وهكذا ملكت الشريعة القدرة على الالتقاء مع الناس جميعاً ، وهى تنظم لهم كافة جوانب الحياة مع اختلافهم وتنوعهم .

والعالم كله لا يجتمع على منهج واحد ، ولذلك احتاجت الرسالة المحمدية إلى عديد من المناهج لتتوجه إلى الناس ، أينما كانوا ، وكيفما كانوا ، وبخاصة أنها تمتد إلى آخر الزمان ، وتشمل العالم كله ، ولم يكن المطلب عسيراً أبداً ، فقد قص الله تاريخ الأنبياء ، وسجل حركة الدعوة الإسلامية من خلال الوحي

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .

المنزل. على محمد ﷺ ليقدم العديد من المناهج ، والوسائل ، للقاءمين بأمر الدعوة إلى الله تعالى .

إن. مناهج المرسل تعد طرقاً عملية ، تطبيقية للدعوة ،. تحتاج إلى من يفهمها ويطبقها في حركة الدعوة للناس .

ولم يبق تعدد اللغات ، واللهجات عائقاً أمام الدعوة ، بعدما هيا الله من المسلمين دعاة يتقنون كافة اللغات ، ويعرفون الجوانب النفسية ، والفكرية التي تساعد في نجاح الدعوة .

وهكذا ...

جاء الإسلام للناس صالحاً لكل زمان ومكان ...

ومحمد ﷺ هو الرسول المختار لتبليغ دعوة الإسلام للناس ، ولذلك أنزل الله عليه القرآن الكريم محكماً ، مفصلاً ، قيماً ، مهيمناً ، لا عوج فيه ، ولا ريب .
وقد استمرت البعثة المحمدية ثلاثاً وعشرين سنة ، أقام خلالها رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة ، والمدة الباقية عاشها في المدينة المنورة بهجرته ﷺ إليها .

في مدة المبعثة نزل. وحى الله للناس. ، وكمل الدين ،. وتمت النعمة ، وأصبح الإسلام دين البشرية جميعاً ، في كافة أرجاء الأرض ، وعلى طول الزمن إلى يوم القيامة .

وقد هيا الله تعالى محمداً ﷺ للدعوة ، وصنعه للرسالة ، وأمهه بكل ما يحتاجه لتصل الدعوة إلى الناس على وجه صحيح ، واضح قطعاً للأعداء ﴿لَعَلَّأ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(١) .

(١) سورة النساء ، الآية ١٦٥ .

وقد ترك الرسول ﷺ لأُمَّته رصيذاً هائلاً ،. يمكنهم من نشر الدين ،
وتبليغه إلى العالم ، والتعامل مع كل إنسان بواقعه ولغته ، لأن هذا الرصيد
كما يقدم موضوعه يقدم معه الأسلوب الأمثل ، والطريق السديد .
وقد أعاننى الله تعالى فكتبت فى تاريخ دعوة الرسل عليهم السلام ، وفيه
حاولت إبراز منهجهم فى الحركة بالدعوة ، وتوضيح أهم الركائز المستفادة من
تاريخهم ، من أجل أن تكون أسساً للدعاة إلى الله من بعدهم ، وإلى يوم القيامة
وأصبحت أمام الدعوة المحمدية لأكتب بعون الله فيها ، ورأيت ضرورة
إتباع المنهج الذى أتبعته مع تاريخ الرسل حيث الأسس التالية :

أولاً :

المتعريف بقوم الرسول من ناحية موطنهم ،. وحضارتهم ،. وأديانهم
ومستواهم الفكرى ، لأن هذا يساعد على اكتشاف الجوانب الفنية التى واجه بها
الرسول قومه ، منهجاً ، وأسلوباً ، وحتى يتمكن دعاة العصر من الاستفادة بهذه
الناحية كاختيار الموضوع المناسب ، والطريقة اللائقة ، والأسلوب المفيد ...
وهكذا .

ثانياً :

المتعريف بالرسول نفسه من ناحية أصله ،. ونشأته ،. ورحلاته ،. وكافة
المؤثرات فى شخصيته ، وصفاته ، وكلها عوامل نجاح فى تكوين الدعاة ، لأنه
ﷺ قائدهم ورائدهم ، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾^(١) .

ثالثاً :

تتبع حركة الرسول بالدعوة ، وإبراز كيفية مواجهته للناس على اختلافهم،

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

فمنهم المملأ ، ومنهم المضعفاء . ، ومنهم السادة . ، ومنهم العبيد . ، دعا الرسول قومه جميعاً ، ووصل إلى عقولهم ، وناقش حججهم ، وهدم ضلالهم ، وبذلك ظهرت. منهجية الدعوة . ، وللمطريقة المثلثي للحركة بها مع الطوائف المختلفة وأصحاب المذاهب الوضعية ، والممل المحرفة .

رابعاً :

استنباط أهم الركائز المستفادة من دعوة الرسول ﷺ لتكون ركيزة يستفاد بها في الدعوة إلى الله تعالى .

خامساً :

المحافظة مع الأسس المذكورة على ذكر الوقائع ورواية الأخبار وتصحيح الخطأ للمحافظة على التاريخ ، وأحداثه ، وبخاصة أنه تاريخ الدعوة .
إن إتباع هذا المنهج مع الدعوة الإسلامية دفعني إلى عدة أمور :
الأمر الأول : التعريف بأمم العالم كله ، فإليها جاء الإسلام ، ومن أجلها بعث محمد ﷺ .

يقول- الله تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (١) .

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

ويقول عز وجل ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

(١) سورة الفرقان ، الآية ١ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .

(٣) سورة سبأ ، الآية ٢٨ .

(٢٠)

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ^(١) .
ويقول النبي ﷺ : " كان كل نبي يبعث لقومه خاصة وبعث إلى الناس
كافة " ^(٢) ...

ويقول الرسول ﷺ : "إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة" ^(٣) ...
وهذا التعريف بالعالم له أهميته ، لأنه يعرف بمدى حاجة العالم إلى
الدعوة ، ويبين الحكمة في تنوع المناهج ، والطرق ، والأساليب ، التي وجه الله
رسوله ﷺ إلى استخدامها في مجال الدعوة . ويشير إلى المسر في تكليف
الرسول أصحابه بحمل الدعوة في حياته ، وتحميلهم مسئولية التبليغ من بعده
إلى أن تقوم الساعة .

الأمر الثاني : في قضية التعريف بالرسول وجدت نفسى أمام السيرة
النبوية ولاحظت أن مرحلة ما قبل البعثة حيث التنشئة ، والتربية ، والتكوين
الشخصي لرسول الله ﷺ لها ارتباط وثيق بالبيئة والواقع ، ولذا كان الاهتمام
بدراستها ، لما لهما من تأثير في التربية الإسلامية ، ولإظهار قيمة الحق ،
والصواب ، ومكارم الأخلاق الذي عاشه رسول الله ﷺ وسط واقع ملئ بالفساد ،
والضلال ، وليكون طريقاً نربى به الدعاة إلى الله تعالى .

إن مرحلة ما قبل البعثة المحمدية تعد دراسة للسيرة ، ولها صلة مباشرة
في التعريف بالرسول ﷺ ، ومن الممكن الاستفادة بأحداث هذه المرحلة وأثرها
في نشأة رسول الله ﷺ في اختيار الدعاة ، وتربيتهم ، وتكوين شخصياتهم

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٩ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب التيمم ج ١ ص ٤٣٦ بشرح فتح البارى .

(٣) صحيح البخارى - كتاب التفسير . باب سورة المسد ج ٨ ص ٧٣٧ .

النفسية ، . والاجتماعية ، . والخلقية ، . والقيادية ، . ليتمكنوا. من حمل الدعوة ،
وتبليغ الإسلام على الوجه المطلوب .

أما مرحلة ما بعد البعثة ، فقد لاحظت أن تاريخ السيرة وتاريخ الدعوة متداخلان. بحيث يصعب الفصل بينهما ، . فقد كانت حياة الرسول ﷺ خلالها حركة دائمة للدعوة ، حيث عد نومه ﷺ ، ومشيه ، وصمته ، وحياته في بيته ، ومع الناس جزءاً من حركته ﷺ بالدعوة ، وقد أعتبرها المسلمون ركائز يأخذون منها ، ويستفيدون من توجيهاتها ، وإيحاءاتها .

وتبعاً لهذه الحقيقة سأعيش مع السيرة النبوية في مرحلة ما قبل البعثة ، وأدرسها دراسة تفصيلية ، . وأخذ منها الركائز التربوية في مجال. التكوين ، والتثنية .

أما مرحلة ما بعد البعثة فسأوردها مجملة ، مع التركيز على الأحداث المتصلة بشخصية محمد الرسول ﷺ تاركاً تفصيل الجانب المحركى لمبحث حركة الرسول. بالدعوة ، . مع أن. هذه الحركة جزء. من شخصيته ﷺ العملية ، وإظهار لرسالته مع الناس .

الأمر الثالث : سأحاول مستعيناً بتوفيق الله تعالى إبراز الركائز التي فيها فائدة للدعوة والدعاة ، متصلة بكل دراسة سواء كانت الدراسة للواقع البشرى ، أو في السيرة قبل البعثة ، أو الحركة بالدعوة بعد البعثة بصورة مجملة على أن أوضح هذه الركائز في فصل مستقل يجمعها جميعاً ... وبذلك التزم نفس المنهج الذي اتبعته مع تاريخ رسل الله تعالى .

ونظراً لطول دراسة تاريخ الدعوة خلال البعثة المحمدية فقد قسمتها إلى قسمين :

القسم الأول : ويشمل دراسة المرحلة المكية قبل الهجرة ، بحيث يتكون منه الكتاب الثانى من سلسلة تاريخ الدعوة .

القسم الثانى : ويشمل دراسة المرحلة المدنية التى ستصدر بإذن الله تعالى فى كتاب مستقل ، يمثل الكتاب الثالث فى سلسلة تاريخ الدعوة .

وسيتضمن تاريخ المرحلة المكية بعون الله تعالى النقاط التالية تبعاً للمنهج الذى رجوته فى دراستى لتاريخ الدعوة ، وهى كما يلى :

الأولى : التعريف بالعالم قبيل ظهور الإسلام وسيشمل دراسة أوضاع أقاليم العالم المختلفة ، لأن موطن الدعوة الإسلامية هو العالم كله .

الثانية : التعريف بالرسول ﷺ من الميلاد إلى الهجرة .

الثالثة : الحركة بالدعوة فى مرحلة ما قبل الهجرة .

الرابعة : إبراز الركائز المستفادة من سيرة الرسول ﷺ وحركته بالدعوة ، وبخاصة ما لها صلة بالدعوة والدعاة فى العصر الحديث .

وسوف أورد كل نقطة من هذه النقاط فى فصل مستقل ، لما لكل منها من دراسة مطولة ، وعمق علمى ، وفوائد عديدة .

وبهذا التقسيم أكتب فى السيرة ، وهو الأمل الذى كنت أتمناه ، كما أكتب فى تاريخ الدعوة الذى أتصوره علماً ، شامخاً بين سائر العلوم الإسلامية ، وأكتب للدعاة الذين هم أمل الأمة فى النهوض ، والتقدم ، ولسوف أستفيد من سائر العلوم الإنسانية والدينية ، لأن الدعوة فى الحقيقة هى غاية كل العلوم ، والحركة بها تحتاج لدراسات عديدة .

إن الدعوة إلى الله تعالى من أهم علوم الإسلام فى كل جانب من جوانبها ، ويكفى شهادة على ذلك موقف القرآن الكريم معها ، فهو الذى حدد موضوعها ، ورسم مناهجها ، وقص تاريخها ، وأنزل العديد من أساليبها ، ووسائلها ... وقدّم صوراً مثلى للدعاة مستفادة من رسل الله عليهم السلام .

ومن المعلوم أن كل المعلوم الإسلامي نشأت لخدمة القرآن الكريم ،
 وخدمة أهدافه ، والدعوة هي هدفه الأول ، وغايته الأساسية ... وأملى في الله ،
 ودعائى له أن يهيئ العلماء المخلصين ، وييسر لهم العمل لإبراز علوم الدعوة
 ، متميزة بموضوعها ومنهجها ، وغايتها ، وشرفها ليستفيد بها ، المؤمنون
 المخلصون ... ويسير على منهجها الدعاة الجادون الصادقون .

يقول الله تعالى ﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً ۖ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي
 وَبَيْنَكُمْ ۖ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۖ ﴾^(١) .

ويقول سبحانه ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ
 لَهُ عِوَجًا ۖ ۝ فَيَمَّا لِيُذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
 يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ۝ مَكْثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۖ ۝ وَيُنذِرَ
 الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ ﴾^(٢) .

يقول سبحانه ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ
 لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۖ ﴾^(٣) .

فالقرآن الكريم هو كتاب الدعوة ، ولا جديد في الدعوة بعد القرآن الكريم ،
 اللهم إلا بعض اجتهادات عقلية في مجال التطبيق ، والملاءمة بين القضية
 والواقع في إطار مفهوم القرآن الكريم .

والرسول ﷺ بعث للدعوة ، فهي مسئوليته ، ووظيفته . يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٩ .

(٢) سورة الكهف ، من الآية ١ : ٤ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية ١ .

رِسَالَتُهُ^١ وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ^٢ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾^(١)
ويقول- سبحانه ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾
وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٩﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا
كَبِيرًا ﴿١٠﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ^٣ وَكَفَى
بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١١﴾^(٢) .

ويقول سبحانه ﴿يَتَأْتِيَ الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ^٤ وَإِنْ لَمْ
تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ^٥ وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ^٦ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ ﴿١٢﴾^(٣) .

هذا التزاوج الواضح بين القرآن الكريم وبين رسول الله ﷺ مع الدعوة يحتاج
لتوضيح الترابط بينهما ، فالقرآن الكريم دعوة تعليمية ، توجيهية ، ورسول الله ﷺ
دعوة تطبيقية عملية ، وبهذا التلاقى تحققت المثالية الإسلامية فى مجال الواقع
، وللتفتت المفطرة البشرية مع الوحي الإلهي العظيم ، وتجسدت فى شخصية
رسول الله ﷺ الإسلام كله بعدما جعل القرآن تطبيقاً عملياً فى خلقه ، وسلوكه ،
فلقد تقرأ القرآن ﷻ وصار قرآنا يتحرك ويرى .

يروى مسلم بسنده عن سعد بن هشام قال: .: " قلت لعائشة رضى الله
عنها : يا أم المؤمنين أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ .

قالت : ألسنت تقرأ القرآن ؟

قلت : بلى .

(١) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .

(٢) سورة الأحزاب ، من الآية ٤٥ : ٤٨ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .

قالت : فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن ^(١) .

ومن هنا تكون السيرة إبرازاً لشخصية الرسول ﷺ في خصائصها وكمالاتها ، ويكون تاريخ الدعوة إظهاراً لجهاد الرسول ﷺ ، وتحمله مشاق الدعوة وهو يتحرك بها مع الناس .

ولى قصة مع السيرة أحب أن أذكرها هنا :

فلقد كان- شيخاى- المذاين- حفظت القرآن- المكرم على يديهما وهما الشيخ/ عيسى أحمد طه ، والشيخ/ إبراهيم ويح^(٢) ، يحكيان لى ولزملاى نتقاً من سيرة رسول الله ﷺ حين نقرأ على أحدهما سورة من السور التى تتحدث عن رسول الله مثل سورة (الضحى) و (الانشراح) و (الفيل) ، وكان الشيخ يشرح لنا خواطره بأسلوب مبسط ، مما حبنى فى السيرة منذ الصغر . حيث كنت مع زملاى الصغار . نتداول- كلام- الشيخ . ونسعد معه بحب رسول- الله ﷺ ونتمثله حركة معجبين بها .

ولما انتسبت للأزهر الشريف ، ودخلت المرحلة الابتدائية على النظام القديم^(٣) ، صارت السيرة مقررأ دراسياً ، يعيش تاريخ رسول الله ﷺ ، من مولده

(١) فيض القدير ج ٥ ص ١٧٠ .

(٢) ولد الشيخ عيسى أحمد طه ونشأ بقرية (منية مسير) من أعمال محافظة كفر الشيخ ، وأسس بها كتاب القرية ، واهتم به مع زميل له هو الشيخ/ إبراهيم ويح عليهما رحمة الله ، وقد بارك الله فى عملهما ، وتخرج من هذا الكتاب علماء أفذاذ ، وظهر جيل من علماء القرية يدين لهما بالفضل ، ويكفى أن قرية ريفية صغيرة هى قرية (منية مسير) تخرج من أبنائها أكثر من ثلاثين أستاذاً بجامعة الأزهر يدينون لكتاب القرية بالفضل ، ومن الواضح أن أبناء هذه القرية قد بارك الله لهم وحبب أبناءهم فى العلم والتعلم .

(٣) كان النظام القديم فى الأزهر يقصر الدراسة قبل الجامعة على مرحلتين ، المرحلة الابتدائية ومدتها أربع سنوات ، والمرحلة الثانوية ومدتها خمس سنوات ، على أن يكون التحاق الطالب بالمرحلة الابتدائية بعد امتحان للقبول فى مستوى نهاية التعليم الأساسى ، وحفظ القرآن الكريم كله

إلى لقائه ربه ، ونالت مقررات السيرة إهتمامى ، إذ كنت أحفظها مع بداية الدراسة ، وأذكر أن بعض زملائي كان يشيد بذلك عند الأساتذة .
ولما بدأت فى دراسة المرحلة الثانوية القديمة ، لاحظت أننا فى الدراسة كلها نعيش مع رسول الله ﷺ .

فالتفسير بيان لوى الله إلى الرسول ﷺ .
والحديث شرح لأقوال رسول الله وأفعاله ﷺ .
والفقه أحكام مأخوذة عن رسول الله ﷺ .

وعلوم اللغة تدور كلها حول القرآن . لمعرفة معانيه ، وبيان إعجازهم ، وإظهار سمو الوحي إلى رسول الله ﷺ .

وأذكر أن مدرس الخط كان يورد الآيات ، والأحاديث ، ويكلفنا بكتابتها (رحمه الله) ويشرح لنا معناها ، وما يستفاد بها ، وبذلك عملت المقررات كلها فى بناء الصورة الإسلامية ، وكان الأساتذة خير من يتفاعلون مع أهداف هذه المناهج ، وتحولها إلى عنصر يتفاعل معه الطالب الأزهرى فى النظام القديم .
ومن هنا لم تعد السيرة مجرد تاريخ ، وإنما صارت الدين كله ، مما رغبتى فى أن أكتب فيها منذ صغرى ، وأذكر هنا أنى كتبت عن محمد اليتيم ، وعن غزوة أحد ، وغزوة الحديبية ... وغير ذلك وأنا فى المرحلة الثانوية .

وكلما تقدم بى السن كبر معى الأمل ، وأخذت أتصور نفسى أمام مؤلف ضخم عن رسول الله ﷺ ، أتناول فيه كافة جوانب شخصية ﷺ ... فأخذت أقرأ ، وأطلع ...

ومع القراءة ، وعمق النظرة ، وتكشف الحقيقة ، أخذت أستشعر ضالة همتى أمام هامة المصطفى ﷺ ، وبأن لى أنى كنت فى أمنية حالمة ، صعبة المنال ، لكنى لم أفقد الرغبة ، ولم يملكنى اليأس والقنوط ، عشت مع أمنيتى راجياً مؤملاً فى توفيق الله أن يسد الخفى ، ويبسر الصعب ، ويقرب البعيد

والله على كل شئ قدير .

وزاد من تباعد الأمنية بروز المؤلفات الضخمة ، العديدة ، حول شخصية المصطفى ﷺ متتالة أهم جوانب عظمتة ﷺ ، حتى خيل إلى أن هذه المؤلفات لم تترك لى ولمن يأتي بعدى مجالاً نبرزه فى حياة رسول الله ﷺ .

وحمدت الله ، ولجأت للسكوت الهادئ ، واكتفيت بالقراءة ، والتعلم ، وقلت لنفسى : **لَأَكُنْ مُتَعَلِّماً مَا دُمْتُ قَدْ عَجَزْتُ عَنْ أَنْ أَكُونَ عَالِماً مُعَلِّماً .**

ولم يطل بى الحال إذ وقع أمر قدرى أعاد لى الأمل مرة أخرى ، حين حدث حوار علمى مع بعض الزملاء ونحن نضع مناهج كلية الدعوة الإسلامية ، حول الفروق بين السيرة النبوية ، وبين تاريخ الإسلام فى عصر النبى ﷺ ، أو بين فقه السيرة النبوية ، وبين الدعوة فى عصر النبوة ، ووجدت نفسى فى خضم المناقشة أؤكد أن السيرة النبوية ، لا بد معها من فقه يعيش مع الحدث ويأخذ العبرة حتى لا تروى السيرة فى صورة جامدة خامدة ، لا تليق برسول الله ﷺ الذى أفنى حياته فى خدمة الإسلام .، وتبليغ الدعوة ، والدفاع عن دين الله تعالى .، وتلك كانت مهمته . يقول الله تعالى ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمِينِ ﴾ (١) .

ووافق الزملاء على هذه النظرة ، ورأوا أن السيرة النبوية هى تاريخ الرسالة المحمدية .، وما محمد ﷺ إلا . صناعة ربانية .، ولصطفاء . إلهى لحمل أمانة الإسلام . وتبليغها إلى الناس وعلى ذلك قرروا . أهمية التمازج بين السيرة والدعوة ، وفتحوا بذلك أمامى باب الأمل .

إن السيرة النبوية إذا درست مع التحليل ، واستنباط المعبر ، فإنها تعد تاريخاً للدعوة فى عصر رسول الله ﷺ وإذا درست الدعوة الإسلامية بمصادرها

(١) سورة العنكبوت ، الآية ١٨ .

، وأصولها ، وحركتها فإنها تقدم السيرة النبوية .

وفى زيارة لمسجد رسول الله ﷺ وقفت أمام قبره ﷺ ، وجاشت الخواطر فى ضميرى ، ودارت تصوراتى دورة سريعة حول حياة وجهاد المصطفى ﷺ ، وقلت لنفسى : إنى أقف الآن أمام قبر محرك البشرية كلها ، وأرى الآن التاريخ مجسداً فى قوته النابضة ، وألفت ضميرى يلتصق بعالم اللاشعور الخفى ، متنقلاً بين روابى مكة ، وبادية بنى سعد ، وفى غار حراء ، وأمام غار ثور ... وعند بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وتبوك ، وأخذت أتصور المسلمين مع رسول الله ﷺ يواجهون الطواغيت ، وهم يعملون للقضاء على الإسلام ، وتضليل المسلمين .

وسرح خاطرى بعد ذلك إلى واقع المسلمين المعاصر ، ورأيت ما فيه من تباعد عن المجتمع الإسلامى الذى رباه محمد ﷺ وتألمت من قصور الدعاة وهم يعرضون الإسلام أمام الناس ، حزنت لكثرة المشاغل والصوارف الموجودة فى المجتمع المسلم المتى تبعد المناس. عن الإسلام. وتصرفهم عن المحق والصواب ، وقلت متسائلاً :

. لم هذا. المتباعد المذى. ألحقه المسلمون. بأنفسهم !؟

وما أسبابه ؟

. وهل من عودة مرة أخرى إلى حيوية الإسلام ، وعظمة

الحياة فيه !؟

. ألم يتأكد المسلمون من فشل كافة السبل اللا إسلامية ؟

. وهل يتصور المسلمون نهضتهم بغير الإسلام ، وهم

مسلمون !؟

. وهل يضع مجد الإسلام غير المسلمين !؟

. وما هى العراقيل ؟ وكيف نتغلب عليها !؟

- . ومن للإسلام فى عالم اليوم !؟
- . ولم تنشط الصوارف بين المسلمين ؟
- . وهل نهدم ديننا بأيدينا ؟
- . وأين شباب الأمة . ورجالها ؟

وهكذا ...

عشت الإسلام كله ، وتأملت الواقع على حقيقته فى لحظات خاطفة ، ونظرت أمامى إلى قبر حبيبى ، وسيدى المصطفى ﷺ ودعوت الله أن يجزيه عن الإسلام والمسلمين الجزاء الأوفى .

وعشت مع المسلمين ودعوت لهم بالفوز والفلاح ...

فى هذه اللحظات عشت السيرة كلها ، بأحداثها ، وحركتها ، وقيمتها ، وقيمتها ... وتأكدت أن أملى القديم ضرورة نفسية تسرنى ، وتسعدنى . وهو فى الوقت نفسه ضرورة إيمانية ، لأن العصر النبوى . سيرة ودعوة . هو منهج الإسلام ، وعبرة التاريخ للمؤمنين ...

كما أنه ضرورة اجتماعية يحتاجها الناس فى وقت تتنازع فيه المذاهب ، وتكثر المعارضات ، وتشتد الحاجة إلى العلم والمعرفة بالإسلام ، لأن به وحده النصر ، والفوز ، والفلاح .

إن عرض السيرة بصورة حركية ، ومنهجية ضرورة حتمية ليعيش الناس السيرة ، ويحيوا بها ، ويعيدوا الإسلام للحياة كما حققه النبى ﷺ للناس . وزاد إقتناعى بهذا التصور بعد أن اطلعت على مناهج أقسام ، وكليات الدعوة فى الجامعات التى قمت بالتدريس فيها^(١) ورأيت أنها تهتم بدراسة

(١) قمت بعون الله تعالى بتدريس مقررات تاريخ الدعوة فى قسم الدعوة بكلية أصول الدين . جامعة الأزهر ، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، وجامعة الملك سعود بالرياض ، وفى كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر بالقاهرة .

تاريخ الدعوة ، وتخص عصر النبوة بالدراسة الموسعة .

وشرفنى الله تعالى فقامت بتدريس مقررات. تاريخ الدعوة الإسلامية لسنوات عديدة فى جامعات مختلفة الأمر الذى أحيا الأمل القديم مرة أخرى فى أن أكتب عن رسول الله ﷺ من هذه الزاوية المنهجية ، وبذلك أكتب سيرة رسول الله ﷺ ، ولأورخ للدعوة فى عصره ﷺ ، وأقدم للدعوة وللدعاة الفوائد والمعبر المأخوذة من المسيرة النبوية . وتاريخ عصر النبوة . ولأوضح منهج المتقدم للمجتمع كله .

إن سيرة الرسول ﷺ غنية بالأحداث ، مليئة بالوقائع ، متنوعة فى العطاء ، رائدة فى التربية والتوجيه ، وعلى دارسها أن يوسع اهتمامه ليشمل جوانبها جميعاً ، من شخصية ، وسياسية ، ودعوية ، واجتماعية ... إلخ . وسأحاول بإذن الله تعالى أن أكتب فى الجوانب كلها إيفاء لحق السيرة النبوية ، وإبرازاً للدعوة فى إطار السيرة الكاملة ...

وسوف أعمل على إبراد الحقائق المدعمة بالدليل ، الخالية من المبالغة ، أو التهويل ... ولن أقف موقف الدفاع أمام أكاذيب أعداء الإسلام ، وسأترك الحقيقة التاريخية تعلو بصدقها ، وأحقيتها ، فليس أقوى من الحق نصراً للحقيقة فى مجال المنازعة العلمية ، وفى كل مجال .

ولن أجرى وراء المبالغة والتهويل فى ذكر الحوادث ، والوقائع ، حتى لا أتعارض مع مسلمات العقل ، وأكون كالدبة التى قتلت صاحبها ، وهى تحبه . لقد كان ﷺ فى حركته بالدعوة وإقناعاً . ربه أصحابه على الصبر ، وتحمل المشاق ، وتحمل ﷺ من أذى أعدائه ما لا يتصوره عاقل ، وبذلك بنى أمتة على الإيمان بسنن الله فى الحياة والأحياء ، وأبعدها عن الجرى وراء الخيال والأوهام .

إن الحقيقة يجب أن تعرض فى ثوب يليق بها ، ثوب خال من المبالغة

، والتهويل ، بعيد عن الإخفاء ، والصمت ، لأن كل ذلك يبعدها عن صورتها المستقيمة .

والسيرة النبوية هي شخصية رسول الله ﷺ الحقيقية ، وتاريخ الدعوة هو الحركة الصحيحة بدين الله تعالى وتبليغه للناس .

وهاتان القضيتان . السيرة وتاريخ الدعوة . من أمهات الحقائق التي يجب أن يعيشها الناس ، بعقل مفتوح ، وتأمل دقيق ، وتفهم واع ، من أجل أن تظهر فترة الدعوة المكية والمدنية . كما كانت . بنبضها الحي ، وقوتها المتدفقة .

ومن أفضل السبل لعرض حقائق السيرة والدعوة أن نأخذ من المؤرخين القدامى والمحدثين ما يفيد ، فمن القدامى نأخذ حشد الآثار ، وتمحيص الأسانيد ، وحقائق الوقائع والأحداث ونأخذ من المحدثين التفحص ، والتحليل ، والموازنة ، واستنباط الدروس ، والعبر .

وبذلك نعرض أحداث السيرة .، ووقائع الدعوة بوساطة حية ، محببة ، يتأسى بها ، من كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً .

إننى أكتب فى السيرة كمؤمن محب لصاحب المسيرة ، سيدى محمد ﷺ تدفعه عواطفه المحبة إلى مواصلة المديح ، والإشادة ، ويدفعه إيمانه إلى التزام الدقة والصدق ، الذى دعا إليها رسول الله ﷺ ، والحمد لله أن رواية الصدق لا تظهر إلا عظمة رسول الله ﷺ .

وأكتب فى الدعوة كذلك كعالم شرفه الله بالتخصص فى علوم الدعوة ، وقدّر الله تعالى بفضله ، ومننه ، أن أكون أحد علمائها الأكاديميين ، ولذلك فإننى أود أن آخذ من السيرة الدروس المفيدة للدعوة والدعاة ، وأحبب الدعاة فى أن يعيشوا مع السيرة فهماً ، واستفادة ، وعملاً .

وليس من اللائق أن يبقى رسول الله ﷺ بين الكتب حبيساً ، أو فى ثنايا الألسنة ذكراً فقط ، وإنما الواجب أن يصير عملاً وسلوكاً ، وقدوة ، لتحيا

الأمة مرة أخرى ، ويعيش الإسلام حاضره العظيم .
 لقد عاش أصحاب النبي ﷺ حياة رسول الله ﷺ وتمثلوها في نومهم ،
 ويقظتهم ، وحركتهم ، وسكونهم ... وهو الأمل الذي أرجوه لنفسى ، وللمسلمين
 أجمعين ، ولذلك جعلت دراستي للسيرة والدعوة في إطار واحد .
 وبذلك أكون قد سلكت منهجاً وسطاً ، لا إفراط فيه ، ولا تفريط ، لتحقيق
 الفائدة ، ويبدو الإسلام بواقعيته وشموخه .
 وبهذه الوسطية المنهجية أشعر أنى مع الحق والصواب ، أورده بدليله
 الصحيح بعيداً عن الشطط الذى لا أرتضيه ، سواء كان مدحاً ، أو ذماً ...
 وبذلك التزم مع السيرة والدعوة بالصدق والأمانة ، واضعاً أمام عيني قول النبي
 ﷺ : " من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " (١) ...
 أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى فى مقصدي .، ويبارك لى فيه ،
 ويتقبله منى ، وينفع به غيرى ، ويجعله نوراً لى فى الدنيا ، ودخراً يوم القيامة
 يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا وإليك المصير ،،،

أ.د / أحمد أحمد غلوش

١١ ربيع الأول سنة ١٤٢٤هـ

مدينة نصر

٢١ مايو سنة ٢٠٠٣م

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى . كتاب العلم . باب إثم من كذب على النبي ﷺ ج ١
 ص ٢٠٢ .

الفصل الأول
الواقع العالمى
قبيل مجئ الإسلام
” التعريف بأمة الدعوة ”

(३४)

تمهيد :

العالم كله وعلى طول المكان والزمان هو أمة الدعوة ، فإليه بعث محمد ﷺ ، وأمر بتبليغ الإسلام إلى الناس أجمعين .

فمن أجاب . ، ودخل فى دين الله تعالى صار . من أمة الإجابة . ، التى عرفت الحق ، وآمنت به ، واستقامت على الصراط المستقيم .
ومن لم يدخل فى الإسلام يكون من أمة الدعوة التى تلتزم أمة الإجابة بتعريفهم الإسلام ، ودعوتهم إلى دين الله تعالى .

والتعريف بهذا العالم ضرورة مهمة . ، لأنه يبين واقعه ، وما ساد من انحراف وضلال ، ويظهر المناهج التى دعا بها الرسول ﷺ والمسلمون بعده الأمم كلها على اختلافهم ، وتنوعهم ، ويوضح طريقة المواجهة بين الإسلام ومعارضيه فى هذا الزمان السحيق ... وبذلك تستفيد الدعوة ، ويأخذ الدعاة الدروس ، والعبر ... من خلال تحديد القضايا التى يحتاج إليها الناس ، ومعرفة المعوقات التى تعترض انتشار الإسلام ، والوقوف على مدى تغلغل الضلال بين الناس ومدى تمسكهم به وتفهم الأسلوب الأمثل للبلاغ والدعوة .

لقد انقسم العالم فى هذا الزمان إلى أمم كبرى . هى الفرس . ، الروم . ، والعرب . وللهنود . وكان لكل منها وضعه . ونظامه . ، ودينه . ، ولنضوت . بقية الأقاليم تحت سلطان إحدى هذه الأمم ، كولايات تابعة لها ، تعيش بنظمها ، وتنمذهب بمذهبها ... وهكذا .

وفى هذا الفصل سأتناول هذه الأمم بالدراسة ، وأعرف بواقعها ، وأوضح أهم نظمها ، وأديانها ، وأخلاقها ، وسأعقد لكل أمة مبحثاً على أن أعقد مبحثاً آخر أبين فيه مدى حاجة العالم يومذاك لحمل الإسلام ، وكيف تهيأت الظروف

(٣٦)

العالمية لاستقباله ، وفى الأخير أورد مبحثاً يتناول ركائز الدعوة فى فهم الواقع ، والتعامل معه ، وبذلك سيكون هذا الفصل مكوناً من ستة مباحث هى :

- المبحث الأول : " واقع العرب " .
- المبحث الثانى : " واقع الرومان " .
- المبحث الثالث : " واقع الفرس " .
- المبحث الرابع : " واقع الهنود " .
- المبحث الخامس : " ملائمة الواقع للحركة بالإسلام فى هذا العصر " .
- المبحث السادس : " ركائز دعوية فى فهم واقع المدعوين " .

وبذلك ينتهى الفصل بتوفيق الله تعالى ،،،

المبحث الأول

” العرب ”

- ١ -

الموطن الجغرافى

العرب هم أبناء إسماعيل عليه السلام ، نشأوا فى مكة أولاً ، وبعدها انتشروا فى شبه جزيرة العرب^(١) ، وهاجروا إلى البلدان المجاورة. وتتقسم الجزيرة العربية إلى خمسة أقاليم تبعاً لجغرافية الأرض ، وطبيعة المكان ، ذلك أن جبل السراة بدأ من ثغر اليمن جنوباً ، وأمتد حتى بلغ أطراف الشام شمالاً ، فسمى بإقليم ” الحجاز ” لأنه يحجز إقليم ” تهامة ” الواقع فى غربه على ساحل البحر الأحمر ، عن إقليم ” نجد ” الواقع شرقه ... وتسمى المنطقة الواقعة جنوب جبل السراة بإقليم ” اليمن ” ، والمنطقة الواقعة شرق نجد بإقليم ” العروز ” .

وهذه الأقاليم تتمايز عن بعضها على النحو التالى :

١ . تهامة : إقليم يشمل الأرض المنخفضة ، الساحلية ، المحاذية للبحر الأحمر بدءاً من ينبع فى الشمال ، إلى نجران فى جنوب السعودية ، وسميت تهامة لشدة حرها ، وركود ريحها ، كما تسمى ” الغور ” لانخفاض أرضها بالنسبة لغيرها .

(١) يسمى العرب بلادهم بـ ” جزيرة العرب ” على سبيل التجوز ، لأن المياه تحيط بها من ثلاث جهات فقط هى : الشرق ، والجنوب ، والغرب ، ويحدها من الشمال بلاد الشام ، والعرب يدخلون فى جزيرتهم برية سيناء ، وفلسطين ، وسوريا الكبرى .

- ٢ . **الحجاز** : يتكون إقليم الحجاز من عدد من الوديان التى تتخلل جبال السراة ، الممتدة من الشام شمالاً إلى نجران جنوباً ، وسميت بالحجاز لأنها تحجز تهامة عن نجد ، وفى هذا الإقليم تقع مدن " مكة " ، " والمدينة " ، و " الطائف " ، ويرتبط هذا الإقليم بالبحر الأحمر بعدة طرق عرضية كما يرتبط بسائر الجهات بطرق أخرى
- ٣ . **نجد** : يمتد إقليم نجد من اليمين جنوباً ، وبادية السماوة والعروض والعراق شمالاً ، والخليج العربى شرقاً ، والحجاز غرباً ، وسمى " نجد " لارتفاع أرضه .
- ٤ . **اليمن** : يمتد إقليم اليمن من نجد شمالاً إلى المحيط الهندى جنوباً ، والبحر الأحمر غرباً إلى حضر موت ، والشمر ، وعمار شرقاً ، وقد أقيم باليمن سد مأرب ، وقصر غمدان .
- ٥ . **العروض** : يشمل إقليم العروض اليمامة ، وعمان ، والبحرين ، والإمارات العربية ، وقطر وسمى بـ " العروض " لاعتراضه بين اليمن ، ونجد ، والعراق .
- وبلاد العرب صحراوية ، شحيحة المياه ، نادرة الزرع ، إلا فى بعض المناطق كالطائف ، واليمن ، ولذلك اتجه الناس إلى الرعى ، والتنقل ، والتجارة ، طلباً للرزق والمعاش ، وساعدهم على ذلك تعدد الطرق الممهدة التى تربط الشمال بالجنوب ، والشرق بالغرب .
- وكانت الجزيرة قبيل البعثة معبر التجارات المختلفة الآتية : من وإلى الهند ، وروما ، والحبشة ، ومصر ، وغيرها .
- وتعد مدينة " مكة " ، حاضرة الجزيرة العربية ، لوجود الحرم بها ، وقد حفظ العرب لمكة حقها ، وصانوا حرمتها ، وتعارفوا على الأشهر الحرم ، لينتشر السلام فى الحرم ، ويحج الناس إليه آمنين .

وكان- العرب- على اختلاف قبائلهم ، ولأديانهم يؤمنون- بأن- دعوة إبراهيم عليه السلام الواردة فى قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ فُؤِمَتْهُ كَفَرَ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ 》^(١) . قد استجيب ، حتى صارت مكة التى دعا لها إبراهيم عليه السلام بلداً ، يأمن فيه الخائف ، ويشبع الجائع ، وتأتيها الثمرات من كل الآفاق ، ويخيب فيها الظالم ، ويهلك المعتدى .

وقد رأوا " أبرهة " يهلك أمامهم بجيشه ، وفيله^(٢) ، عندما جاء لهدم الكعبة ، وصرف الحجيج عنها إلى الـ " قليس " الذى بناه فى اليمن ليقصده الناس بدل الكعبة .

وقد سمي العرب مكة بـ " ناسة " لأنها تطرد من يظلم فيها ، كما سموها " بكة " لأنها تبك أعناق الجبابرة^(٣) .

يقول جصاص بن عمرو بن الحارث لقومه الجراهمة : " لا تستخفوا بحق الحرم ، وحرمة البيت ، ولا تظلموا من دخله ، وجاء معظماً لحرمة ، أو آخر جاء بايعاً لسلعته ، أو راغباً فى جواركم ، فإن فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا منها خروج ذل وصغار " ^(٤) .

ومن أقوال سبيعة بنت الأحب بن عيلان توصى ولدها بإحترام مكة وبأهمية تجنب الظلم فى الحرم ، تقول :

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٦ .

(٢) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ١١٣ .

(٣) سيرة النبى ﷺ لابن هشام ج ١ ص ١٢٦ .

(٤) عقبة خالد ص ١٧ .

(٤٠)

أبنى لا تظلم بمكـ	ة لا الصغير ولا الكبير
وأحفظ محارمها بند	ى ولا يغرنك الغرور
أبنى من يظلم بمكـ	ة يلق أطراف الشرور
أبنى يضرب وجهه	ويلح بخديه السعير
أبنى قد جربتها	فوجدت ظالمها يبور
الله أمنها وما	بنيت بعرضتها قصور
والله أمن طيرها	والعصم تأمن فى ثبير
ولقد غزاها تبع	فكسا بنيتها الحبير
وأذل ربى ملكه	فيها فأوفى بالندور
والفيل أهلك جيشه	يرمون فيها بالضخور
فاسمع إذا حدثت وافهم	كيف عاقبة الأمور ^(١)

إن هذه المرأة العربية تشير فى نصيححتها تلك إلى مقام مكة فى ضمير أبنائها ، والعرب جميعاً منذ القديم .

وقد أعتبر العرب مكة حاضرتهم ، ومقصدهم ، ولذلك سموها بأمر القرى .
وقد ازدادت أهمية " مكة " بعد الإسلام بمبعث محمد ﷺ فيها ، وشروق الإسلام من بين جنباتها ، وتوجه المسلمين فى كافة أنحاء الكون إليها ، قاصدين الكعبة فى صلواتهم ، وحجتهم .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٦ ، يبور : يهلك ، وثبير : اسم جبل بمكة ، بنيتها : الكعبة .

الأوضاع السياسية والاجتماعية والأخلاقية عند العرب

اختلفت الأقاليم العربية فى أنظمتها السياسية ، وأوضاعها الاجتماعية والأخلاقية .

ففى إقليم اليمن قامت مملكة " حمير الثانية " التى ضمت إلى سلطاتها مناطق كثيرة ، وكان ملكها يسمى بملك "سبأ" ، وذى ريدان ، وحضر موت ، ويمنات ، وعربهم فى الجبال ، وفى تهامة ^(١) .

وكان هذا الإقليم محل صراع ، وتنافس بين الفرس والروم ، خلال القرن السادس الميلادى ...

حكمهم " ذونواس " الحميرى ، وكان يهودياً ، متعصباً ، حاول فرض يهوديته على أهل نجران النصارى ، فلما أبوا خد لهم أخدوداً ، وأحرقهم بالنار ، وأعمل فيهم السيوف ، فاستجدوا بإمبراطور الروم ، فأعانهم بجيش نصرانى حبشى بقيادة " أبرهة " قوامه سبعون ألف جندى ، فقضى على دولة " حمير " الثانية ^(٢) وسار فى اليمنيين بجبروته ، وطغيانه حتى ملوا من ظلمه ، وعدوانيته وبخاصة بعدما بنى " القليس " ليصرف العرب إليها ، ويهجروا الكعبة الموجودة بمكة ، فاستعان اليمنيون بالفرس الذين أسسوا دولة لهم بقيادة " وهرز " الفارسى ، وقد استمرت هذه الدولة حتى ظهور الإسلام .

وقد سار ملوك اليمن التابعون للفرس أو للروم ، على نظام سياسى واحد

(١) عصر ما قبل الإسلام ص ٧٩ .

(٢) سيرة النبى ﷺ لابن هشام ج ١ ص ٣٦ .

، قائم على وراثة الحكم بين الأبناء والإخوة ، وكان يساعد الملك مجلس من شيوخ القبائل ، الذين يتولون شئون الأقاليم ، حيث يرأس كل قبيلة شيخها على أن يقدم الأموال التي يكلف بجمعها من قبيلته إلى حاكم اليمن .

وكان المجتمع فى اليمن ينقسم إلى طبقات أربع هى :

١. طبقة الجند : وتتكون فى أغلبها من جنود الفرس ، أو الروم .
٢. طبقة الفلاحين : وهم الذين يقومون بالزراعة والرعى .
٣. طبقة الصناع : وهؤلاء. يقومون. بالصناعات. المطلوبة التى يحتاجها الناس .

٤. طبقة التجار : وهم جماعات فى المدن والقبائل كثيرو السفر والتنقل .

وقد أدى المثرء. المادى. فى إقليم اليمن إلى تعاون. الناس. .، وإلى قيام حضارة مزدهرة. .، وإلى بعدهم عن الشحناء. والمتحارب. .، كما ساعدهم على الحركة وركوب البحر ، والانتقال إلى أقاليم العالم المختلفة ، وكانوا دائماً حلقة وصل بين العرب وسائر الأمم فى الشرق ، أو الغرب ، أو الشمال ، أو الجنوب ، وكان لهم نشاطهم الواسع مع أقاليم الجزيرة الغربية .

وقبيل ظهور الإسلام تأثر اليمنيون بحادثة محاولة أبرهة هدم الكعبة ، وبناء القليس ، وشعروا بأن هذا يتعارض مع مشاعرهم القومية ، ويتناقض مع توجه عرب الجزيرة جميعاً إلى الكعبة بيت الله تعالى الذى بناه إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام .

وقد تبدلت أوضاعهم الاقتصادية بهدم سد مأرب ، الذى حدث بسبب بغيمهم ، وظلمهم ، وإعراضهم عن الحق ، والصواب . يقول الله تعالى ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ كُلٍّ خَمٍ وَأَثَلِ

وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿٦٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا^ط وَهَلْ تُجْزَى إِلَّا
 الْكَفُورَ ﴿٦٧﴾^(١) . وهكذا انقلبت أوضاعهم ، وعاشوا فى اضطراب ، وضجر
 حتى جاء الإسلام .

وفى شمال الجزيرة العربية ، حيث قرب قبائلها من الفرس والروم ،
 تأسست مملكتان ، هما مملكة الحيرة فى الشرق تابعة للفرس ، ويحكمها المناذرة
 ، ومملكة الغساسنة فى الغرب تابعة للروم .
 وقد اتخذ الفرس والروم هاتين المملكتين حائلاً بشرياً لكل منهما ، يتقى
 به هجوم الدولة الأخرى .

وقد تشبه ملوك العرب فى كل دولة بأسيادهم ، وساند كلاً منهم جيش
 كبير مدعوم من الفرس أو من الروم .
 وكثيراً ما قامت الحروب بين الغساسنة ، والمناذرة ، وبذلك تحقق للدول
 الكبرى ما أرادت ، حيث كان الصدام بين العرب والعرب ، ولم يقع صدام بين
 الفرس والروم بصورة مباشرة .

إلا. أن. هذا. الحال. أدى. فى الوقت نفسه إلى عدم العدول. على داخل
 الجزيرة العربية ، حيث لا مطمع لأحد من الفرس ، أو من الروم فيها ، لأنها
 بدت فى نظرهم أماكن صحراوية ، متباعدة ، خالية من الخير والنفع ، وتحتاج
 لجهد كبير من أجل السيطرة عليها .

أما أقاليم " نجد ، والعروض ، والحجاز ، وتهامة " فقد عاشت حياة بدوية ،
 تعتمد على الرحلة ، والتنقل ما عدا أهل مكة ، والمدينة ، والطائف ، فقد سكنها
 أهلها وعاشوا حياتهم بين الحضارة والبداءة ، فقد أخذوا الحضارة من الحجاج ،
 والزوار ، والتجار ، وتمسكوا ببدائتهم التى ورثوها ، وعاشوا نظامهم عليها .

(١) سورة سبأ ، من الآية ١٦ : ١٧ .

ومن هنا كان لهم شئ من الحضارة ، ففي مكة أنشأ " قصى بن كلاب " نظاماً سياسياً ، بعدما أسس " دار الندوة " ، وجعل بابها يؤدي إلى الكعبة ، وخصصها لاجتماع كل من بلغ أربعين سنة ، متمتعاً بالحكمة ، والفصاحة ، وتدبر الأمور من أهل مكة ، ولا يثنثنى من شرط السن فقط إلا أبناء قصى^(١) حمل قصى قومه على دفع ضريبة سنوية تسمى بـ " الرفادة " ... ينفق منها على الحجيج ، ضيوف الله ، فهم أحق الناس بالكرم .

وقد اتفق القرشيون فيما بينهم ، منذ عهد قصى ، على توزيع مناصب المسؤولية العامة ، على مختلف القبائل ، مع استقلال كل قبيلة بشئونها^(٢) .

استمر هذا النظام إلى ظهور الإسلام حيث كانت توزع المناصب على النحو التالي :

- ١ . الحجابة والسدانة : وللمقصود بها حراسة مفاتيح الكعبة ، وكانت فى بيت " عبد الدار " .
- ٢ . السقاية : وهى الإشراف على بئر زمزم ، وكانت فى بيت هاشم .
- ٣ . الديات : وتسمى الأشناق ، وكانت فى بيت " تيم " .
- ٤ . السفارة : وتختص بالبت فى الصلح ، وكانت فى بيت الخطاب " .
- ٥ . اللواء : وحامله كبير القواد إذا هوجمت مكة ، وكان فى بنى أمية .
- ٦ . الرفادة : وهى الإشراف على جمع الأموال ، وكانت لـ " عبد المطلب " .

(١) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ٦١ .

(٢) سيرة لابن هشام ج ١ ص ١٣٨ .

- ٧ . **الندوة** : وهى الإشراف على دار الندوة ، وكانت لأبناء عبد العزى .
- ٨ . **الخيمة** : وهى حراسة دار الندوة وتولاها بنو مخزوم .
- ٩ . **الخازنة** : وهى إدارة أموال الكعبة وكانت لبنى كعب .
- ١٠ . **الأزلام** : وهى الاستخارة لمعرفة رأى الآلهة فى القضايا العامة ، وكانت فى بنى أمية^(١) .
- وقد أَرْضَى هذا التقسيم قبائل مكة ، فعاشوا فى استقرار ، وتعاون ، واستقلت كل قبيلة بشئونها ، ونشاطها ، وحركتها .
- وظهرت فى الجزيرة طبقات اجتماعية متعددة أهمها :
- ١ . **الصرحاء** : وهؤلاء يتكونون من أبناء القبائل المعروفين بانتسابهم إلى آبائهم الموالين لهم ، ولقبيلتهم .
- ٢ . **العبيد والموالى** : وهم الأسرى الذين ملكتهم القبائل ، أو الرقيق المشترون ، أو الموالى الذين لجأوا إلى القبيلة ، أو المحررون من العبيد .
- ٣ . **الصعاليك** : وهم الأحرار الذين فروا من قبائلهم ، واجتمعوا فى الصحارى ، وكونوا مجتمعات جديدة معارضة لقبائلهم الأولى وتعتمد على السلب ، والنهب^(٢) .
- وأغلب نشاط العرب قائم على الرعى ، والتجارة ، وبخاصة بعد أن نظم هاشم بن عبد مناف رحلتى الشتاء ، والصيف ، وعقد محالفات عدة ، ضمنت الأمن للتجار ، كما أخذ الأمن (الإيلاف) من القبائل المنتشرة على الطرق فى مختلف أرجاء الجزيرة .

(١) عصر ما قبل الإسلام ص ١٧٨ .

(٢) الشعراء الصعاليك ص ١٠٣ . ١٠٦ بتصرف .

وقد استفاد أهل مكة من الحركة التجارية كثيراً ، لأن التجارة مدرسة تعلم السياسة ، والكياسة ، وحسن الجوار ، وعمق الفهم ، فتعلموا من الحيرة القراءة والكتابة ، وأخذوا من الروم السياسة ، ونقلوا من الفرس ما للسلطة من سيادة وطاعة .

وفى . يثرب . كثرت الآبار ، والأشجار ، واعتدل ريحها عن مكة ، سكنها اليهود منذ القرون الأولى بعد الميلاد ، ونزل عليهم الأوس والخزرج ، وكان لكل من اليهود ، والأوس ، والخزرج ، وضع خاص ، ونظام معين ، فاليهود انطوا على أنفسهم واهتموا بالزراعة ، والتجارة ، وتحصين المساكن ، خاصة وأنهم رأوا قبيلتي الأوس والخزرج ، فى قتال دائم جعلهما يقدمان شبابهما ، وأموالهما ، للحروب الطويلة المستمرة بينهما ، وأغلب أيام العرب كانت فى يثرب .

وقد أدت هذه الحروب. إلى اضطراب. الحياة فى المدينة ، فاقتصادهم مهلهل ، وأفراد القبائل كلهم محاربون ، ورؤساء القبائل لا يعدون إلا للحرب ، وطالت الأليام. بين الأوس. والخزرج. مما جعلهم ينتظرون. الخلاص. من هذا التنافس .، وقد حاولوا. أن. يتوجوا. " عبد الله بن أبى " المخزرجى ملكاً عليهم يخضع له الجميع ، لكنهم فوجئوا بالبعثة المحمدية فى مكة فوجهوا أملهم إليها .

ولما . الطائف . فإنها تتمتع بخصوبة التربة ، وجودة المناخ ، وحسن الثمر^(١) وجمال. الموقع .، حيث يمر بها طريق التجارة القادم. من الجنوب. ، وترتبط الطائف بمكة ، وبالمدينة بأكثر من طريق ، وقد نشأت بها صناعات عديدة بدائية ، كل هذا جعل أبناء الطائف يتمتعون بما فيها ، فعاشوا فى رغد ، ورفاهية ، مع تمسكهم ببداوتهم فكانوا يرعون الإبل ، والغنم ، ويهتمون بالزراعة ، وكانت القبيلة هى النظام. المسائد فيها حيث يدبر شئونها رؤساء. القبائل بالتشاور فيما بينهم ، وقام بالطائف نظام يشبه المزارعة فى العصر الحديث إذ

(١) مرصد الإطلاع ص ٢٦٥ .

تتأزل " بنو عامر " وهم البدو المجاورون للطائف عن أرضهم ، وسلموها لمن يعمرها ويحييها ، بالغرس والزراعة ، على أن تقسم الثمار بينهم نصفين^(١) وقد اكتسبت الطائف شهرة عظيمة عند ظهور الإسلام.

وأما سكان المناطق الصحراوية في وسط الجزيرة ، فهم مجموعة من القبائل الرحل يتولى شئونهم مشايخهم بلا دولة ، أو جند ، أو حصون^(٢) .
وعاشت هذه المناطق الجذب ، والحر ، وقلة المطر ، وكان أهلها دائماً في تنقل وراء رعيهم ، ومعاشهم^(٣) .

وعاش أهل هذه البوادي حياة فقيرة ، لبعدهم عن رحلات التجارة ، وخلو موطنهم من المياه ، وقد أدى الفقر الشنيع بهم إلى قتل أولادهم ، أو بيعهم ، ليستعينوا بأثمانهم على مطالب الحياة^(٤) .

وكان مجال العمل أمام البدو ضيقاً جداً ، لأن الخير فوق رمال الصحراء القاحلة نادر ، ومن هنا لم يكن أمامهم إلا أن يعملوا للأغنياء في رعي الإبل ، أو في خدمتهم ، فإن أبت ذلك نفوسهم تحولوا للغزو والإغارة^(٥) .

وقد وقعت بين قبائل البدو المتناثرة في الجزيرة حروب ، ومنازعات ، هي أيامهم ، ورغم كثرتها فإن الدم لم يرق فيها كثيراً ، لأن البدوى لم يكن يرمى إلى سفك الدماء بلا مبرر^(٦) ، وكثيراً ما كانت هذه المنازعات بسبب دفاع البدوى عن خلق كريم ، أو رد لظلم واضح .

(١) معجم ما استعجم . البكري ج ١ ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) العرب قبل الإسلام ص ٢٤٠ .

(٣) الشعراء الصعاليك ص ٦٢ .

(٤) الكامل . للميرد ج ٢ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٥) الشعراء الصعاليك ص ١٤٧ .

(٦) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ١٨ .

وتعتبر " حرب البسوس " وهى أطول حروبهم صورة رائعة لاحترام البدوى لواجب الضيافة المقدس^(١) عند العرب ودفاعه عن الأضياف .
وقد اشتهر البدوى بالشجاعة ، والكبرياء منذ القديم ، وقد أكسبتهم الصحراء صفات جعلتهم أشجع من الحضر^(٢) ، وعودتهم الاعتماد على أنفسهم .
وكان لعرب الجزيرة تصرفات أخلاقية راقية ، فالوفاء بالوعد صفة بارزة لا تنقص ، حيث يرون أن الغدر من كبائر الأمور .
ذكروا أن الحارث بن عباد مر على عدى بن ربيعة ، وهو قاتل أبيه فى يوم " قضية " وكان يبحث عنه ليثأر منه لأبيه .
فلما لقيه وهو لا يعرفه قال له : " دلنى على عدى بن ربيعة .
فأجابه عدى : إن دلتك عليه أتؤمننى ؟!
قال الحارث : نعم .
فقال له عدى : أنا عدى بن ربيعة فخلاه " (٣) ، احتراماً لكلمته ، ووفاء بوعد .

وكانوا أهل حلم ولين ، ويكفيهم عند الغضب كلمة يقولونها فتهدأ ثائرتهم وهى " إذا ملكت فاسجح " وما كانت حروبهم إلا لحماية المنزل ، والمحافظة على المجد والشرف ، وكانوا يتحرزون من سفك الدم بقدر إمكانهم ، ولذلك ندر عدد القتلى فى معاركهم ، وفى يوم " شمطة " ، وهو أول أيام الفجار لم يقتل أحد من قريش ، كذلك لم يقتل أحد من بنى بكر بن عبد مناف ، وفى يوم " الشعب " وكان أهله ثلاثين ألفاً ، وكان أعداؤهم أضعاف ذلك ، فى هذا اليوم لم

(١) سيرة النبى ﷺ لابن هشام ج ١ ص ٢٠٠ .

(٢) ابن خلدون . المقدمة ج ١ ص ١٢٥ .

(٣) بلوغ الارب ج ١ ص ١٣٦ .

يقتل إلا رجل من كل طرف^(١) ، ولم تكن الحرب تقوم ، أو تتوقف ، إلا بعد أن يجتمع أهل الحل والعقد من القبائل ليقرروا ما يستقر عليه الأمر^(٢) .

وأما سخاؤهم وكرمهم فهو مضرب الأمثال ، ويكفى أنهم كانوا يوقدون ناراً تسمى " نار القرى " توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل . وكانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة لتكون أشهر وأوضح ، وكثيراً ما أوقدوا معها عطراً يطير مع الريح ليهتدى إليها العميان^(٣) .

وقد اشتملت أخلاقهم على صرامة وجدية ، والناظر لأسباب حرب الفجار وقيام حلف الفضول ، يدرك ذلك .

إن سبب حرب الفجار كان قتل رجل في الحرم^(٤) الأمر الذي أدى إلى ثورة القبائل وتجمعها في مواجهة من فجر في الأشهر الحرم ، لتنتقم للقتيل ، ولتبقى درساً بعدها لكل من يفكر في هتك حرمة مكة ، أو التعدى في الأشهر الحرم ، وحتى لا يفجر أحد بعد ذلك في الحرم ، ويظلم غيره .

وأيضاً فإن قيام حلف الفضول كان لصيانة حقوق المظلومين الضعفاء وضرورة الانتصار لمن وقع عليه عدوان من أهل مكة ، أو من يقصدها من العمار والزوار .

(١) بلوغ الأرب ج ١ ص ٧٠ ، ٢٦٨ .

(٢) بلوغ الأرب في معرفة كلام العرب ج ١ ص ٢٧١ .

(٣) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ١ ص ١٩٩ .

(٤) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ١ ص ١٩٩ .

أوضاع العرب الدينية

يشير ذلك الحشد الهائل للأصنام التي شيدها العرب. ، ولأقاموها حول الكعبة ، وفي جوفها ، إلى وجود عقيدة دينية ، وانتشار أفكار مقدسة عند العرب جميعاً ، فلقد وجد يوم فتح مكة حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً^(١) .

يمثل هذا العدد بكثرتة ، آلهة القرشيين الثابتة عند الكعبة ، وفي جوفها ، حيث كان يأتيها أصحابها للطواف حولها بين الحين والحين ، وكانت كل قبيلة تعرف صنمها الذي تعبده عند الكعبة ، أما ما وراء هذا العدد فهو كثير بعضه أقيم في البيت ، وبعضه في مكان العمل ، والبعض الآخر ينتقل مع قوافل السفر ، وكان لأهل كل بيت صنم يعبدونه^(٢) وينحتون على صورته أصناماً صغيرة يصطحبونها معهم في الرحلة والسفر ، ويلازمونها حتى يعودوا إلى مكة^(٣) .

وقد اشتهر العرب بتقديسهم لما اتخذ من حجر ، أيا كان شكله ، فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن كان يعجز منهم عن بناء البيت ، ولتخاذ المصنم ينصب حجراً في مكان يستحسنه ، ثم يطوف به ويسميه النصب^(٤) . ومن بيوت العرب المقدسة " يرنام " وكان بيتاً لأهل اليمن يعظمونه ، وينحرون عنده^(٥) ، ومنها " رضاء " وكان بيتاً لبنى ربيعة بن كعب^(٦) .

(١) أخبار مكة ج ١ ص ٧٠ .

(٢) الأصنام ص ٣٣ .

(٣) الأصنام ص ٦ .

(٤) الأصنام ص ٧ .

(٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤ .

(٦) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٩٢ .

ومن أصنامهم " هبل " وهو أول صنم أقيم فى الكعبة بعد أن أحضره عمرو بن لحي من " مآب " ونصبه على البئر الذى حفره إبراهيم عليه السلام فى جوف الكعبة ، وأمر الناس بعبادته فعبدوه ، وكانوا ينادونه " يا إلهنا " ^(١) وكان من تقديس أهل مكة لـ " هبل " أن أظهره فى المشاكل الكبرى ، حتى أنهم هتفوا باسمه لما رأوا أنفسهم انتصروا على المسلمين فى يوم أحد ^(٢) .

ومع أن " هبل " هو أقدم الأصنام فإن قريشاً ومن سكن مكة كانت تعظم " العزى " أكثر من " هبل " وبعدهما " مناة " .

وقد أشار الكلبي إلى أن " مناة " أقدم الثلاثة ، وهى المنصوبة ناحية البحر عند المشلل والمتمتعة بتعظيم العرب جميعاً ، وكان الأوس والخزرج أكثر تعظيماً له واختصاصاً به .

وذكر الكلبي أيضاً أن " اللات " أحدث من مناة ، وكان تعظيمه عند أهل الطائف أكثر ، و " العزى " أحدث الثلاثة ، وهى شجرة بوادى نخلة قرب مكة ، ولها منزلة خاصة ، عند أهلها فهى أعظم الأصنام عند قريش جميعاً ، يزورونها ، ويهدون إليها ، ويذبحون عندها ^(٣) .

وتقسمت القبائل أصناماً عدة ، واختصت كل قبيلة بصنم ، وعلى سبيل المثال نرى أن هذيلاً اتخذت سواعاً ، وكنلباً اتخذت ودأ ، وأنعم وأهل جرش اتخذت يغوث ، وحيوان اتخذت يعوقا ، وحميرا اتخذت نسرأ ، وطينا اتخذت الفللس وبنى الحارث اتخذت ذا الشرى ^(٤) .

وهكذا توزعت الأصنام على القبائل ، وليس المجال هنا لحصرها فما

(١) أخبار مكة ج ١ ص ٦٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٧ .

(٣) الأصنام ص ١٣ . ٢٧ .

(٤) سيرة النبى ﷺ لابن هشام ج ١ ص ٨٣ . ٩١ ، الملل والنحل ج ٢ ص ٢٤٧ .

هى إلا نماذج نعرف منها دين العرب ، ومعتقداتها قبل الإسلام .
وقد عظم العرب أصنامهم بأشكال متعددة ، فكانوا يسمون أولادهم باسمها
فباسم " مناة " سمي تميم بن مر ابنه " زيد مناة بن تميم " . وباسم اللات
سمى ثعلبة بن عكابة ابنه " تيم اللات " ، وباسم العزى سمي كعب بن سعد ابنه
" عبد العزى " وحمل عوف بن عذرة " وداً " معه إلى دومة الجندول وسمى ابنه
" عبد ود " .

وكانوا يذبحون ذبائحهم عندها ، ويهدون لحومها من حضر عند الصنم
ويأتونها بالهدية والزيارة^(١) .

وكانوا يهتمون بالتمسح بها فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى
منزله أن يتمسح بالصنم ، وإذا رجع كان تمسحه بالصنم أول ما يفعله ، وكانت
الحائض لا تقربه ، ولا تتمسح به ، بل تقف بعيداً عنه حتى ينتهى حيضها^(٢) .
وكانوا يحلقون رؤوسهم عنده ، ويلقون حوله شعرهم ، ومعه كمية من دقيق .

وكانوا يحلفون به ، يقول عبد العزى بن وداعة المزنى :

إنى حلفت يمين صدق برة .: بمناة عند محل آل الخزرج
ويقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دونها .: وبالله إن الله منهن أكبر^(٣)
أكبر^(٣)

وكانوا يصطحبون أصنامهم معهم فى الحروب ، فنرى العربى فى يوم "
أحد " يستغيث ويستتصر بـ " هبل "^(١) ، وكان أبو سفيان فى هذه الغزوة يحمل
اللات والعزى ، وكانوا يستهمون عند الصنم ، ويضربون الأقداح لديه

(١) الأصنام ص ١٨ ، ٥٥ ، ١٣ ، ١٦ ، ٣٤ ، ٥٩ .

(٢) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ٦٦ .

(٣) الأصنام ص ٤٨ ، ١٤ ، ١٧ .

فى شئون كثيرة كالعقل إذا اختلفوا فيمن يتحمله ، ولعمل ما ، أيفعل أم يترك ، يقول ابن هشام^(٢) : كانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً ، أو ينكحوا منكحاً ، أو يدفنوا ميتاً ، أو شكوا فى نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل ، وأجروا القداح ، ونفذوا المراد .

يشير الأزرقى إلى أن عبادة الحجر نشأت فى بنى إسماعيل بسبب تعلقهم الشديد بالحرم ، وبمكة ، لدرجة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، وصباية بمكة ، وبالكعبة ، وحيثما حلوا وضعوا. هذا الحجر أمامهم ، ليبقى رمزاً لبית الله أثناء غيبتهم عن مكة ، يطوفون به ، كطوافهم بالكعبة ، وظلوا على ذلك حتى عبدوا ما استحسنا من الحجارة^(٣) .

ولعل هذه البداية سهلت للعرب تقدير الرمز نيابة عن أصله ، وجعلوا ذلك مبدأ ينطبق على كل الأصنام مهما كانت بدايتها ، وهو الذى جعلهم يتقبلون ما أتى به عمرو بن لحي من أصنام . حين أحضرها من بلاد الشام لقومه ، ونصبها عند المكعبة . وذكر لهم أنها تنزل المطر . وتنصر فى الحروب . وأمرهم بعبادتها فعبدها^(٤) ، وهو الذى أمرهم كذلك بعبادة " أساف " و " نائلة " هذين الصنمين اللذين كانا فى الأصل رجل وامرأة فجراً فى الكعبة فمسخا حجرين للزجاج والعظة ، ولكنهما بتقادم العهد صارا صنمين فلما أمر " عمرو بن لحي " بعبادتهما عبداً^(٥) .

(١) تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ١٣٩٥ .

(٢) سيرة النبى ﷺ لابن هشام ج ١ ص ١٦٥ .

(٣) أخبار مكة ج ١ ص ٦٧ .

(٤) الأصنام ص ٨ ، أخبار مكة ج ١ ص ١٢٥ .

(٥) أخبار مكة ج ١ ص ٤٤ ، ٦٩ .

وكان العرب لهذا المبدأ يستحسنون بعض أصنامهم مع علمهم أنها فى الأصل صورة لقوم صالحين ، معظمين من السابقين ، لكنهم مع طول العهد تأولوا وقالوا : ما عظم الأولون هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله ، فعبدوا صورهم ، وعظموا أمرهم ، واشتد كفرهم^(١) وما عبدوا الصورة إلا لاعتقادهم أنها رمز يستشفعون به نيابة عن صاحبه ...

وكان- تعلق العربى المشديد بصنمه يشير إلى ارتباط عجيب معه ، وتحمس من أجل دوام عبادته ، فلقد دخل أبو لهب على أبى أحيحة (وهو سعيد بن العاص بن عبد شمس) ، وهو فى مرضه الذى مات فيه فوجده يبكى .

فقال له : ما يبكيك ، أمن الموت تبكى ولا بد منه ؟

قال : لا ، ولكنى أخاف أن لا تعبد العزى بعدى .

فقال أبو لهب : والله ما عبت حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك

لموتك .

فقال أبو أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة^(٢) .

ويبدو أن العرب كانت تعتقد أن لهذه الأصنام أثراً جعلهم يتمسكون بها ويطلبون نصرتها ، ويرحلون بها ، ويرون أن الأصنام احتوت روحها التى صورت فى الأصل على شاكلتها ، ولولا الروح التى احتوت ما كانت تستحق شيئاً^(٣) .

من ذلك ما عرف عن " اللات " فإنها كانت فى الأصل صخرة يجلس عليها رجل يلت السوق ، فلما مات اعتقدوا أن روحه تقمصت الحجر ، وسكنته

(١) الأصنام ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) الأصنام ص ٢٣ .

(٣) أخبار مكة ج ١ ص ٤٤ ، ٦٩ .

فاتخذوه إلهاً هو " اللات " ، ومنه ما عرف عن " العزى " فإنها ثلاث شجرات
أعتقد العرب أن الجن سكنتها ، وأن التأثير فيها للجن الساكن فيها^(١) .

وعلى الجملة كانت العرب تعتقد أن لكل صنم شيطاناً ، فمن عبد الصنم
قضى الشيطان- حوائجه .- بأمر الله- الأكبر .- وإلا- أصابه الشيطان- بنكبة
عظيمة^(٢) وأكد لهم هذا الاعتقاد ما كانت تصدره بيوتهم المقدسة بفعل الريح ،
أو بفعل الكهنة من أصوات خفية ، جعلتهم يصدقون أن الأرواح والشياطين
تكلمهم^(٣) .

ورغم صور تعظيم الأصنام السابقة ، وعقيدة العرب فيها ، لم تنشأ طبقة
كهنوتية لها مميزاتها ، وخصائصها ، كما حدث في البلاد الأخرى ، بل بقي
كهنة العرب- بين الناس- كأحدهم .- يقومون- بسائر الأعمال- .- ويشتركون- في
الحروب .

كذلك لم يحدث صراع من أجل الأصنام رغم تعددها ، ولم تحاول قبيلة
ما ضم أخرى لتعبد صنمها ، بل وجدنا العكس ، فالقبيلة تقدر صنمها ، وفي
نفس الوقت تحترم أصنام الآخرين ، ولكنها لا تتقرب إلا إلى صنمها .
كذلك لم تنشأ لدى العرب عاطفة دينية تربطهم بالأصنام ربطاً نفسياً ، فيه
الحماس ، والاندفاع ، ومعه الغيرة والانفعال ، ولذلك نراهم يتركون أصنامهم في
الكعبة يوم قدوم أبرهة ، ولا يفكرون إلا في البيت وحده دون معبوداتهم .

ولعل تفسير ذلك هو اعتقادهم أن كل هذه المقدسات من بيوت ، وأصنام
، ونصب ما هي إلا آلهة صغرى فوقها إله أكبر هو الخالق للجميع ، وما عبادة
المظاهر الطبيعية المادية إلا لتكون قربى للإله الأكبر ، لأنه هو المالك لكل

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٥ ص ٣٤ .

(٢) بلوغ العرب ج ٢ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) الأصنام ص ١٢ .

الآلهة الصغرى ، وهو رب الحرم ، وحاميه ، وكانت التلبية السائدة عندهم تشير إلى أن الله هو المالك للأصنام فهم يقولون فيها " لبيك اللهم لبيك ... لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك " ، وهكذا كانوا يوحدون الله فى التلبية ويدخلون معه آلهتهم ، ويجعلون ملكها بيده^(١) . وأيضاً فإنهم يوم قدوم " أبرهة " تركوا مكة . ورحلوا عنها إلى شعاب الجبل المحيط بها ، على أمل أن ينقذ رب الحرم حرمة ، ولم ينتظروا معونة من هبل ، أو اللات ، أو غيرهما ، ولم يفكروا فى إنقاذها من الهدم ، والتكسير . يروى ابن هشام أن عبد المطلب لما أمر قريشاً بالخروج من مكة أخذ بحلقة باب الكعبة وهو يقول :

لاهم إن العبد يمنع	رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبههم	ومجالهم عدواً مجالك
إن كنت تاركهم وقبل	تنا فأمر ما بدا لك

ولما حدثت المناقشات بين أبرهة وعبد المطلب قال أبرهة متسائلاً :
تسألنى عن الإبل ، وتترك البيت الذى هو دينك ودين آبائك !!؟
فأجابه عبد المطلب : أما الإبل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه^(٢) .
ولم يرد ذكر للأصنام فى حوار عبد المطلب وأبرهة .
وقد كان العرب يذبحون ، وينحرون ، ويتقربون إلى الأصنام ، وهم مع ذلك عارفون بفضل الكعبة ، ورب الكعبة ، يقول أوس بن حجر :
وباللات والعزى ومن دان دونها .: وبالله إن الله منهم أكبر^(٣)

(١) الأصنام ص ٧ .

(٢) سيرة النبى ﷺ ج ١ ص ٥١ .

(٣) الأصنام ص ١٧ .

يرى " ورنركاس " أن الله هو الإله الذى كان فوق آلهة القبائل جميعاً ،
ولهذا ذكره شعراء مختلف القبائل لأنه لا يختص بقبيلة واحدة^(١) .

فهذا امرؤ القيس فى معلقته يقسم بالله فيقول :

فقلت يمين الله مالك جبلة .: وما أن أرى عنك الغواية تنجلي

ونراه يذكر الله بالحمد فيقول :

أرى إبلى والحمد لله أصبحت .: ثقلاً إذا ما استلهمتها صعودها

ويقول عبيد بن الأبرص :

حلفت بالله أن الله ذو نعم .: لمن يشاء وذو عفو وتصفاح^(٢)
وتصفاح^(٣)

ويقول زهير بن أبى سلمى :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة .: وليس وراء الله للمرء مذهب

وهكذا نراهم يعرفون الله بأنه الخالق ، القادر ، المدبر ، الحكيم ، المسخر
لكل شئ فى الوجود ، وقد سجل القرآن الكريم لهم هذه المعرفة بقوله تعالى:
**﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾^(٣) .**

ويقول تعالى **﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ
الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾^(٤) .**

(١) الشعراء الصعاليك ص ٣٠٥ .

(٢) نفس المرجع ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية ٦١ .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية ٦٣ .

ويقول ﷻ ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ .^(١)

ويقوله سبحانه ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ .^(٢)

ويقول سبحانه ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٨٦﴾﴾ .^(٣)

إنهم يعرفون أن الخالق هو الله ، ومسخر الفلك هو الله ، ومنزل المطر هو الله ، ومحیی الأرض هو المالك لكل شئ .
وهذه النظرة إلى الله بما فيها من قداسة ، وسمو ، لم تصل إلى التوحيد الخالص بسبب إنعدام التعاليم الثابتة ، الأمر الذي جعلهم يبحثون عن واسطة تربطهم بهذا الإله الأعلى .

ويبدو أن " ابن الحی " كان يتمتع بعقلية فذة استغل بها أحوال العرب فقدم لهم الأصنام كرمز على شئ آخر عظيم ، لتكون واسطتهم إلى الله فعبدوها وقالوا ما حكاه الله عنهم بقوله سبحانه وتعالى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾^(٤) ، لدرجة أن بعض الجاهليين كانت أصنامهم على صورة تخيلوها

(١) سورة المؤمنون ، من الآية ٨٤ : ٨٥ .

(٢) سورة المؤمنون ، من الآية ٨٦ : ٨٧ .

(٣) سورة لقمان ، الآية ٢٥ .

(٤) بلوغ الارب في معرفة كلام العرب ج ٢ ص ١٩٧ .

للملائكة ، لا اعتقادهم أن الملائكة ذو منزلة عند الله ، فهم أولى أن يكونوا واسطتهم إليه^(١) .

ومما زاد من ضلال نظرة العرب في الواسطة ما كانوا يسمعون من أصوات تصدر من الأصنام ، والبيوت ، ومن رؤيتهم لخيالات الجن قرب معبوداتهم ، وبذلك تأكدت فكرتهم عن الواسطة .

وبمرور الأيام أصبحت هذه الفكرة عقيدة أساسية ، وما استبعدوا أن يكون الرسول بشراً إلا لاستحالة اتصال البشر بالله من غير واسطة في نظرهم ، وكأنهم كانوا يريدون واسطة بين الرسول والله ، من نوع معبوداتهم الموضوعة عند الكعبة وحولها ، رغم صغر مساحتها لتكون في رعاية الله الأكبر ، وعلى مقربة منه .

وكانت هذه العقيدة ، وذاك الخلط يعيشان عادة عند العرب ، فهم يحجون الكعبة ، ويطوفون بها ، وبعدها يختمون حجهم بالتقرب للصنم ، فيحلقون رؤوسهم عنده ، ويذبحون عتائرهم أمامه^(٢) ، ويبدو أن سبب ذلك هو بقايا بقيت من مناسك دين إبراهيم عليه السلام تقادم بها الزمن فشابتها بعض العبادات المبتدعة ، هذه البقايا جعلتهم يعظمون البيت ، ويطوفون به ، ويحجون ، ويعتَمرون ، ويقفون بعرفة ، ويهلون بالحج والعمرة^(٣) .

ولعل في تسمية مكة " أم القرى " على الرغم من وقوعها في واد غير ذي زرع إشارة إلى اهتمام العرب بقداسة الكعبة ، أول بيت وضع للناس ، وأحد موارث إبراهيم عليه السلام .

(١) سورة الزمر ، الآية ٣ .

(٢) أخبار مكة ج ١ ص ٧٣ .

(٣) الأصنام ص ٦ .

وقد سخر بعض عقلاء العرب من هذا الخلط فنظروا إلى مسلك أقوامهم مع الأصنام ، فوجدوه لهواً لا يفيد ، وعبثاً من غير فكر دقيق ، وعندئذ أخذوا يلتمسون الصواب في الدين .

ولقد حكى ابن هشام عن أربعة منهم هم ورقة بن نوفل ، وعبد الله ابن حبش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، اجتمعوا في عيد لهم عند صنم من أصنامهم ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به ، لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يضر ، ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم على شيء^(١) .

وقد وقف " قس بن ساعدة الأيادي " قبيل البعثة بسوق عكاظ ، وقال : أيها الناس اسمعوا وعوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبراً ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لن تغور ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، أقسم قسماً ، حقاً حتماً ، لئن كان في الأرض ليكونن بعده سخطاً ، وأن الله عزت قدرته ديناً أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه^(٢) .

وهكذا وصل فكر هؤلاء النفر إلى أن ما عليه قومهم ليس شيئاً يذكر ، وأن دين الله الحق هو من نوع ما جاء به إبراهيم فبحثوا عنه ، وانتظروا في الوقت نفسه رسولاً يبعثه الله إليهم ، وقد انتشر هذا الفكر بين عدد من العرب^(٣) مع اختلاف طرقهم التي سلكوها بعد ذلك .

فمنهم من لم يهتد إلى شيء محدد حتى مات كـ " زيد بن نفيل " .

(١) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٣) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥٠ . ٢٥٣ .

ومنهم من تنصر وقرأ كتب النصرانية كـ " ورقة بن نوفل " .
 ومنهم من بقى على فكرة حتى جاء الإسلام وأسلم كـ " عبد الله بن جحش " (١) .
 ومن هؤلاء المفكرين كانت طائفة " الحنفاء " التى عبدت الله على ما
 بقى من دين إبراهيم ، وبحثوا عن كل ما غاب عنها .
 وهكذا لم يقتصر نشاط العرب الدينى على الأصنام والأوثان فقط ، بل
 اتجه مفكروهم إلى الإله الحق كما بدأ من الحنفاء .
 وكذلك ظهر فى العرب عدد من " الحكماء " الذين امتازوا بالخبرة
 والتجربة وكانوا مرجع القوم فيما يعرض لهم من مشاكل ، يقضون لهم فيها ،
 وقد تتوقلت عنهم كلمات قصيرة موجزة ، لكنها تحمل المعنى الكبير مما جعلها
 تخلد بين الناس ، ومن أمثالهم :

- " مقتل الرجل بين فكيه " .

- " إن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى " .

يقول الشهرستاني عنهم : " ومنهم الحكماء وهم شذمة قليلون ، وأكثر
 حكمهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر " (٢) .

وقد اتجه الحكماء أيضاً إلى فكرة ضرورة الخالق ، وربط المعلول بعلمته ،
 ورأوا استحالة وجود هذا الكون بلا موجد له ، قدير .

يقول عامر بن الطرب الحكيم مفكراً فى سبب الخلق : " إني ما رأيت
 شيئاً قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، ولا جائياً إلا ذاهباً ،
 ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء " (٣) .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٣ . ٢٥٠ .

(٢) الملل والنحل ج ٢ ص ٦٤ .

(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة ص ١١٠ .

ومن حكماء العرب كذلك (عبد المطلب) جد النبي ﷺ الذى وصلت به الحكمة إلى سن أمور أقرها الإسلام بعد ، فقد منع نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، ونهى عن قتل الموعودة ، وجعل دية القتل مائة من الإبل ، إلا أن الحكمة مهما دقت ، فإنها لا تصل إلى الحقيقة بكمالها ، وأصولها ، ولذلك كانت حاجة الحكماء ، وغيرهم إلى وحى يقنعهم ، ويأخذهم إلى دين الله تعالى ، ضرورة لابد منها .

ويبدو أن الفرق بين الحنفاء والحكماء أن الحنفاء بذلوا الجهد كله لمعرفة الدين الحق ، الذى كان عليه إبراهيم عليه السلام وأهملوا عبادة الأصنام . أما الحكماء فكان تفكيرهم فى الخلق والخالق عارضاً ، وكانوا بمثابة قضاة مجتمعتهم ، ومع ذلك عبد بعضهم الأصنام مثل أقوامهم ... وقد وصل الاضطراب الدينى عند بعضهم إلى ابتداء رأى الحمس ، وهو اتجاه مبتدع ، سببه حماسه العرب تجاه حرمة البيت ، ووجوب إبراز هذه الحرمة فى منهج عملى ، وكان هذا المنهج شديداً ، ويحتاج إلى مال كثير ، فلقد كانوا يلتزمون بإطعام الحجيج ، وكسائهم ، فلا يأكل الحاج إلا من طعام الحمس ، ولا يلبس إلا أثوابهم ، فإذا لم يجد من ثيابهم طاف عرياناً ، ولو طاف بثوبه فإنه يخلعه مباشرة ولا يستعمله أبداً ، وذلك لظنهم أن الحجيج عصوا الله فى أثوابهم ، ولذلك لا يصح الطواف بها .

هذا وقد وجدت عند العرب عقائد أخرى وردت إليهم من أقاليم العالم التى اتصلوا بها خلال التجارة ، أو الهجرة .

ومن هذه العقائد **المجوسية** التى أخذها العرب من بلاد فارس ، وجعلوا النور والظلمة آلهة تعبد وكانوا يتخذون لهما رموزاً مقدس، يقول الألويسى: "كانت

المجوسية فى تميم ، ومنهم الأقرع بن حابس ، وكان مجوسياً ، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان كان مجوسياً^(١) .

ويقول فى مكان آخر : " كانت الزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة "^(٢) .

وقد ثبت أن النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر^(٣) ويذكر أبو عبيدة أن النبى ﷺ قبل الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوساً^(٤) .

ومنها أيضا " عبادة الكواكب " وكانت موجودة فى العالم على ندرة أصحابها ، وهم الصابئة ، وقد نقلها بعض العرب عنهم فعبدت " طى " الثريا^(٥) ، وعبد لخم وجذام " المشتري " وعبد أسد " عطار " وعبد كنانة " القمر "^(٦) .

ومنها عبادة الحيوان والطيور : وهذه العبادة أتت من قبل الهند ، وقد اتخذ بعض العرب أصنامهم على صورة الحيوان ، والطيور .

فصنمهم " نسر " كان على صورة النسر .

وصنمهم " يغوث " كان على صورة الأسد .

و " يعوق " كان على هيئة الفرس^(٧) .

ومن عبادات العرب عبادة الشجر ، فلقد روى النبى ﷺ خرج إلى حنين وقومه حديثه عهد بجاهلية ، فلما رأى أصحابه شجرة فى الطريق ، يقال لها ذات أنواط ، كانت العرب تقديسها ، فنادوا وقالوا : يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : سبحان الله هذا كما قال قوم

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٣) نيل الأوطار ج ٨ ص ٦٣ .

(٤) الأموال ص ٣٣ .

(٥) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٦) التاريخ الإسلامى العام ص ١٧٧ .

(٧) تفسير الزمخشري ج ٤ ص ١٦٤ .

موسى لموسى ﷺ إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، والذي نفسى بيده لتركبن سنن من كان قبلكم^(١) .

ومن العرب ظهر بعض الدهريين الذين أنكروا الخالق ، ويوم القيامة ، وقالوا بالطبع المحيى ، والدهر المبنى^(٢) وقد أخبر القرآن عنهم بقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾^(٣) وقد أشارت الآية إلى عقيدة هؤلاء الأفراد الذين جعلوا الدهر إلهاً ، يحيى ، ويميت .

ولقد أدت المحاولات التبشيرية للفرس والروم إلى وجود عدد قليل تابع لإحدى الدولتين ، على منهج الولاء السياسى ، أو الدينى ، ومن هنا وجدت المسيحية فى شمال الجزيرة ، وجنوبها ، وشرقها .

كما أن اليهودية وجدت فى جنوب الجزيرة ووسطها ، وسكن اليهود " يثرب " بهجرتهم إليها ، ولم تكن اليهودية دين أمة ، وإنما دين جماعة متعصبة من الرجال المغامرين .

وكان اليهود يسكنون عند الميلاد فى فلسطين ، فلما تعرضوا لاضطهاد الرومان وخاصة على يد " تيطس " الذى دمر لهم " أورشليم " فى المرة الثانية ، رحلوا إلى البلاد المجاورة كالعراق ، ومصر ، والجزيرة العربية^(٤) ، فسكنوا أولاً أولاً بلاد اليمن حيث الازدهار والغنى ، إلا أنهم وقعوا فى صراع مع المسيحية ، كاد يقضى عليهم لولا أن الفرس ساعدوهم ضد الروم ، فلما اشتد اضطهادهم

(١) سنن الترمذى . كتاب الفتن . باب لتركبن سنن من كان قبلكم ج ٤ ص ٤٧٥ .

(٢) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٣) سورة الجاثية ، الآية ٢٤ .

(٤) التاريخ الإسلامى العام ص ١٥٨ .

فى اليمن ، وانهدم سد مأرب مصدر الغنى ، هاجروا إلى يثرب ، وأسسوا فيها لأنفسهم المزارع والحصون ، وفى يثرب باشروا مناسك دينهم فى حرية ، ونشطوا فى أعمال التجارة والصناعة وغيرها .

وقد أشار ابن قتيبة إلى تهود عدد قليل من العرب ، حيث وجد أفراد من اليهود العرب فى حمير ، وبنى كنانة ، وبنى الحارث بن كعب ، وكندة^(١) .

ويبدو أن السبب فى عدم انتشار اليهودية هو عنصرية اليهود القائمة على فكرهم الدينى ، وإيمانهم بأنهم شعب مختار من الله على الخصوص ، حسب ما تعلموا من نصوص كتابهم المقدس ، فلقد أيقنوا أنهم أعلى من سائر الشعوب ، وأن دينهم وقف عليهم كما جاء فى سفر التثنية الذى بين أيديهم : " أنت شعب مقدس للرب إلهك ، إياك قد اختار الرب إلهك ، لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب ، الذين على وجه الأرض "^(٢) .

وهذا ما جعلهم يعيشون مستقلين ، ومنطوين على أنفسهم ، ودفعهم كذلك إلى التفوق فى كافة الشئون ، وخاصة الشئون الاقتصادية ، كما أسسوا القرى المحصنة ضماناً لمصالحهم ، وحفاظاً على هذه العنصرية ، التى آمنوا بها ، وأيضاً فإن من طبيعة العربى الاستعلاء ، والثقة ، والرضى ، رغم ما فيه من نقص ، وحاجة ، ولذلك أبى أن يكون تابعاً لهؤلاء المتعصبين .

وقد انقسم اليهود إلى طوائف متعددة ، أشهرها الفريسيون ، الذين ينادون بالتمسك بنص التوراة من غير تأويل ، ويسمون أنفسهم بالأصوليين ، والصدوقيون وهم الذين ينكرون الآخرة .

وتؤكد آيات القرآن الكريم وجود اليهود فى الجزيرة العربية . حيث خاطبتهم الآيات المنزلة ، وتحدثت كثيراً عنهم .

(١) المعارف ص ٣٠٥ .

(٢) سفر التثنية - الإصحاح السابع .

ويفهم من دلالة الآيات أن اليهود فى الجزيرة كانوا من بنى إسرائيل لا من العرب ، حيث كان النداء لهم ببني إسرائيل . يقول تعالى ﴿ يَبْنِىْ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتَى الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾^(١) .

ويقول سبحانه ﴿ سَلِّ بَنِى إِسْرَءِيلَ كَمَآ آتَيْنَاهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ﴾^(٢) . يذكر الأستاذ عزت دروزة أن اليهودية لم يعتنقها أحد من العرب فى يثرب ، ويبدو أن من تهود من العرب كانوا أعداداً لا تذكر لقلتها ، وعدم تأثيرها فى الناس ، كما أنها لا تستحق نداء باسمها على الخصوص ، ولذلك فهى مندرجة فى نداء الله لبنى إسرائيل^(٣) .

هذا ...

وللمطلع على هذا المتنوع فى أديان العرب يدرك. حكمة الله تعالى فى جعل الإسلام ينبع أولاً بين العرب ، حيث يمكن مناقشة سائر المذاهب والأديان ، ومناقشة أصحابها بسهولة ممكنة ، وشمول تام ، وبذلك يرى الدعاة فى سائر العصور. فى القرآن الكريم حواراً شاملاً لكل ما سيجد فى العالم إلى يوم القيامة ... وصدق قوله سبحانه وتعالى ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾^(٤) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٤٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١١ .

(٣) سيرة الرسول ص ٥١ ، ٥٢ بتصرف .

(٤) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤ .

المبحث الثانى

” الروم ”

- ١ -

الموطن الجغرافى

سكنت . الروم . غرب. أوروبا ،. ولتخذت. روما^(١) حاضرة لها ،. ومدت
سلطانها على مساحات شاسعة ، شملت سائر البلاد المطلة على البحر الأبيض

(١) مرصد الإطلاع ص ١٩٦ .

من جميع جوانبه ،. وكان. الشمال. الأفريقي ابتداء. من مصر حتى المحيط الأطلسي تحت السيطرة الرومانية^(١) .

أدى الاتساع الكبير للإمبراطورية إلى أخطار كثيرة ، واجهتها من جيرانها في عدد من النواحي^(٢) ، فمن أطرافها الشرقية عند نهر الفرات أتاها خطر الفرس ، ومن حدودها الشمالية ، كان خطر القبائل الجرمانية ، ومن حدودها الجنوبية الشرقية على حدود الشام كان خطر القبائل العربية الغازية^(٣) ، ولم يسلم من حدودها إلا الجنوبي في أفريقيا ، حيث كان الأحباش وولايات الشمال الأفريقي قوة تحمي هذا الجانب .

وأصبح لهذه الأخطار المتعددة أثر كبير في تفكك الدولة الرومانية ، وانقسامها إلى شطريها الشرقي ، والغربي .

ذلك أن تجمع هذه الأخطار جعلت الإمبراطور " قسطنطين " سنة ٣٢٣م ، والإمبراطور " دقلديانوس " سنة ٢٨٤م يشعران بأن روما لم تعد تصلح لأن تكون مركزاً لإدارة الإمبراطورية ، ومنذ عهدهما بدأ الاتجاه نحو الشرق ، وصار غرب البحر الأبيض المتوسط في المرتبة الثانوية^(٤) .

وبالفعل فلقد عين " دقلديانوس " قسيساً له مقره " رافنا " بشمال إيطاليا يشرف على إدارة القسم الغربي.

وتعتبر سنة ٣٩٥م بداية الانفصال العملي بين الشطر الشرقي ، والشطر الغربي لهذه الإمبراطورية الكبرى ، إذ صار إمبراطور كل قسم يعمل على حماية

(١) المسلمون والجرمان ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) الإمبراطورية البيزنطية ص ١ ، ٢ .

(٣) الدولة الجرمانية الشرقية ص ٣٦ .

(٤) المسلمون والجرمان ص ١٣ .

ممتلكاته دون اعتبار لوحدة الإمبراطورية^(١) ، وأصبح للإمبراطورية عاصمتان هما " القسطنطينية " عاصمة القسم الشرقى و " روما " عاصمة القسم الغربى ، وأخذ الانفصال فى تزايد بينهما حتى القرن السابع الميلادى^(٢) .

الأحباش :

الأحباش أمة تابعة للدولة الرومانية ، مع شئ من الاستقلال يميزها عن سائر الولايات الرومانية ، سكنت هذه الأمة شرق أفريقيا ، وأصبحت حارسة لحدود الدولة الرومانية الجنوبية فى القطاع الأفريقى ، واشتهرت بقوتها العسكرية التى مكنتها من شن حملات على جيرانها ، وسعت بها حدودها التى وصلت شمالاً إلى الحدود المتاخمة لجنوب مصر ، وأخضعت لحكمها منطقة نهر " نكازه " (المجرى الأعلى لنهر عطبرة). وقبائل " البجة " ووصلت حدودها الجنوبية إلى " الصومال " أما حدها الشرقى فهو " البحر الأحمر " ^(٣) ، وحدها الغربى فينتهى عند النيل وسط أفريقيا^(٤) .

وكانت حاضرة الأحباش هى " أكسوم " الواقعة فى شمالى الحبشة ، وقد عرفت دولة الأحباش بالدولة الأكسومية ابتداء من القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن السابع الميلادى^(٥) .

وقد كان لدولة المروم نفوذ واسع على الحبشة نظراً لاعتناق الأخيرة المسيحية ، إذ من المفهوم أن المسيحية كانت تربط الدولة المنتصرة بالدولة

(١) المصدر السابق ص ١٩ .

(٢) الدولة الرومانية الشرقية ص ٣٦ .

(٣) بين الحبشة والعرب ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) سيرة النبى ﷺ ص ٣٦١ .

(٥) بين الحبشة والعرب ص ١٣ ، ١٥ .

(٧٠)

الرومانية ربطاً قوياً ، وكانت المسيحية هي الوسيلة المثلى فى بسط النفوذ الرومانى فى أى مكان^(١) .

- ٢ -

أوضاع الرومان الاجتماعية والسياسية والأخلاقية

كان لكل إقليم فى الدولة الرومانية بشطريها (الشرقى والغربى) أوضاع اجتماعية ، وسياسية ، ودينية ، مغايرة للأخرى .

(١) نفس المصدر السابق ص ٤٤ .

فالرومان. فى دولتهم الشرقية أو. الغربية كانوا. يعرفون. منهج الدولة المنظمة ، إلا أنهم عاشوا تحت وطأة ظلم بغىض ، وطبقية باغية ، وكان عامة الشعب عبيداً ، وخدموا للطبقة العليا المتمتعة بكل شئ .

ففى الدولة الرومانية الغربية : قامت دويلات عدة ، تكونت من القبائل الجرمانية التى نزلت من الشمال فى موجات غازية ، وكونوا طبقة السلطة ، ففى أسبانيا قامت دولة القوط الغربيين التى أسسها الملك " واليا " . وفى أفريقيا قامت دولة " الوندال " بعد انتزاعها من الرومان بالقوة ، وتمكن القوط الغربيون من تأسيس مملكة لهم فى إيطاليا ، وتدعمت فى غاليا (فرنسا) مملكة يحكمها الفرنجة البحريون ، وبقيام الممالك المذكورة تصدعت الدولة الرومانية الغربية عملياً^(١) .

ومع بداية القرن السادس الميلادى تم استقرار هذه الممالك الجديدة فى مواطنها المذكورة .

وكان حكم هذه الممالك وراثياً فى القبائل الجرمانية ، وتشبه أمراء هذه الدول بأباطرة الشرق ، وحولوا المجتمع إلى طبقات ، وكانت طبقة الحكم هم الجرمان والعسكريون. ، حيث تتمتع بكل شئ فى الدولة. ، ولا. يقرب. منها إلا طبقة صغار الملاك ، والحرفيين ، والتجار ، أما عامة الشعب فهم الطبقة الدنيا حيث العبيد ، والأجراء ، والفلاحين ، والخدم .

عاش. أفراد. الشعب يكرهون. حكامهم. ، وكثيراً. ما قامت صراعات. بين الحكام والمحكومين فى هذا العصر ، الذى عرف بـ " عصر الظلام " فى أوربا وقد زاد الملوك البلاء ، فكانوا يسفكون الدم ، ويلحقون بالشعب العذاب ، لأنفه الأسباب ، أو من غير سبب أصلاً ، ويكفى تدليلاً على ذلك أن القوط ،

(١) المسلمون والجرمان ص ٢٢ . ٣٨ بتصرف .

والبرجنديين أبادوا سنة ٥٣٩م جميع الذكور من سكان " ميلان " ، وقد قدر " بروكوبيوس " عددهم بثلاثمائة ألف طفل^(١) .

شمل الدمار والتخريب ملاك الأرض^(٢) فسلبت الأرض منهم ، وتحولوا إلى عبيد ، يزرعون الأرض. لسادتهم بلا مقابل ، وبسبب الحاجة والفقير ، اضطروا إلى أكل لحوم البشر ، وثمار الحشائش ، وورق الشجر .

وقد تدهورت الحالة الاقتصادية تدهوراً تاماً ، وزاد تدهورها أن الدولة الرومانية الشرقية قاطعت التجارة مع دولة الجرمان . فضلاً عن أن دول الجرمان نفسها كانت فيما بينها متقطعة الأوصال ، وكل منها ينطوى على نفسه ، ولا يتعاون مع جيرانه ، بل وصلت الفرقة إلى قيام عديد من الحروب بينهم .

أما الشمال . الأفريقي الذي كان مكاناً لمملكة الموندال . فقد اضطرب اقتصادياً هو الآخر ، وعجز عن إنتاج القمح كعادته ، ولم يستطع أن يقف ولو قليلاً أمام هجوم " جستنيان " لما كان فيه من ضعف وانهار .

ولم يسجل تاريخ الجرمان في هذه الدويلات أى نظرة إصلاحية ، بل سادها نظام الإقطاع البغيض الذى مزق غرب أوربا تمزيقاً كاملاً^(٣) .

واتخذت الدولة الرومانية الشرقية " القسطنطينية " عاصمة لها ، بعدما بناها " قسطنطين " فى موقع ممتاز^(٤) ، واتخذ لها هذا الاسم الدينى ، المنسوب إليه ، لتكون فى الحقيقة رمزاً على مجتمع هذه الدولة ، ونظمها الأوتوقراطية^(٥) ، وكانت الهويات والنزاعات ، وكافة الأمور سياسية ، واجتماعية ، تلبس ثوباً

(١) المسلمون والجرمان ص ٤٨ .

(٢) الإمبراطورية البيزنطية " بيتز " ص ٦ .

(٣) المسلمون والجرمان ص ٢٠ . ٥٢ بتصرف .

(٤) الإمبراطورية البيزنطية " بيتز " ص ٨ .

(٥) مصر البيزنطية ص ٢ .

دينياً^(١) فإذا ما تعرضت الدولة لهجمات بربرية فإنها فى دستورهم أحكام من السماء. نزلت على عالم فاسد يستحقها^(٢) وصار. المفرد. يعيش بمجموعة من الأوهام ، فإذا نزل به مرض فإن ذهابه إلى الطبيب كفر ، وكانت جماهير المرضى من جميع أنحاء الإمبراطورية تهرع إلى " القسطنطينية " ، لتعالج فى كنيسة " يوحنا المعمدان " ^(٣) .

ولقد مزقت الطبقة أوصال هذا المجتمع ، ذلك أن طبقة العليا المكونة من الامبراطور ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، كانت تقرب طبقة ثانية منها ، تقل عناء عن غيرها ، وتتكون من الملا ، وأغنياء التجار ، وأصحاب الحوانيت ، ليمثلوا وجهة نظرهم ، ويقبضوا لهم على زمام الأمور ، ويسخروا الشعب المتمثل فى مجموعات العبيد ، والأجراء ، ورعاى المدن^(٤) . وكثيراً ما صدرت قرارات إمبراطورية تجعل من المستأجر رقيقاً تابعاً ، هو ، وأولاده ، وزوجته ، مملوكون لسيدهم^(٥) ، وكان هذا النظام مطبقاً فى الولايات التابعة للإمبراطورية الشرقية^(٦) .

واتصف البيزنطيون بالخدا ع ، والخيانة الصريحة ، والوحشية ، والعنف ، نتيجة لقلّة عددهم أمام عدوهم ، ولما رأوه أمام أعينهم من ساستهم ، الذين كانوا

(١) الإمبراطورية البيزنطية " بيتز " ص ١٧ .

(٢) الإمبراطورية البيزنطية "أومان " ص ١١٦ .

(٣) الإمبراطور البيزنطية " بيتز " ص ٢١٠ .

(٤) تاريخ الإمبراطورية الرومانية ص ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٥) المصدر السابق ص ٦٣١ .

(٦) مصر البيزنطية ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

يقترفون التحريق ، والقتل ، وقطع الأيدي ، وسمل العيون ، وجدع الأنوف ، بكل سهولة ، ولأتفه الأسباب^(١) .

وقد شاعت فى أبناء القسطنطينية على الأخص صفات الجبن ، والفسق ، والخيانة .

يقول- بعض المؤرخين :- " إنها لقصة مزعجة من مكاييد القس ، والخصيان ، والنساء ، ومن دس السم ، والمؤامرات ، ونكران الجميل ، وقتل الإخوة بشكل مستمر "^(٢) .

ورغم أن تولية الإمبراطور كانت تتم وفق انتخاب يقوم على نظام معين ، لكن النظرة المقدسة إليه من الناس ، جعلته أكثر رسوخاً ، فهو صفى الإله ، وخليه ، والمرشح الناجح هو بالضرورة من اختارته مشيئة الله ، بغض النظر عن الطريقة التى اكتسب بها هذا النصر .

إن نجاح الإمبراطور يلزم الناس دينياً بطاعته ، وعلى ذلك فالإمبراطور رجل دين ، وملكيته أوتوقراطية^(٣) وقد شهد القرنان الخامس والسادس الميلادى تحول الإمبراطور من رجل مدنى إلى رجل يعتمد على الدين ، فى تأييد نفوذه ، ويمثل به هذا الاتجاه بوضوح الإمبراطور " جستنيان " سنة ٥١٨ م إلى سنة ٥٦٥ م .

ومع كل هذا. الفساد. الإمبراطورى. فقد تم إلغاء. الانتخاب. ،. وصار الامبراطور يعين من يخلفه فى حياته ، ويدعى أنه اختيار الله .

ويكفى تصويراً للقسوة التى عامل الأباطرة شعوبهم بها ، أن نعرف أن الامبراطور " جستنيان " لما قامت ثورة الزرق (أنصار جستنيوس الأرثوذكسى)

(١) الإمبراطورية البيزنطية " بيتز " ص ٢٥ .

(٢) الإمبراطور البيزنطية " أوان " ص ١١٧ .

(٣) الإمبراطور البيزنطية " بيتز " ص ٨٠ ، ٨١ .

والخضر (أتباع انستاسيوس اليعقوبى) وطلبوا إقصاء وزير المالية أخمدها بالقوة.، وقتل من الثوار. خمسة وثلاثين ألفاً فى ستة أيام. وذلك فى يناير سنة ٥٣٢^(١).

وهكذا كثرت الفتن فى الإمبراطورية ، وكثرت الاضطرابات .
يلخص أحد الكتاب الإنجليز أسبابها ، ويذكر أنها تنحصر فى الابتداع الدينى ، واستحداث الضرائب ، وتغيير القوانين ، والعادات ، مما أدى إلى الظلم العام ، وانتشار المجاعات^(٢) .

وكانت العلاقة بين الإمبراطوريتين الرومانتين سيئة ، وازدادت انهياراً بقيام الحروب بينهما ، وقد وجه " جستنيان " أولى ضرباته القاصمة إلى دولة الوندال بأفريقيا ، واستولى على المدن الكبرى^(٣) وأخذ بعدها يسلك مسلكاً معيناً فأكثر من فرض. المضرائب ،. ولستعمل المقسوة فى جمعها ،. فهجر الأهالى مزارعهم ، ومتاجرهم ، واحترفوا اللصوصية وقطع الطرق ، وشن الغارات على الحاميات البيزنطية^(٤) فلجأ الإمبراطور إلى قوة أكبر لحكمهم بالأسلوب العسكرى ، حتى صارت أفريقيا ولاية يديرها قائد عسكرى ، وله مساعدون عسكريون ، وكانت هذه خطوة أنتجت ضرراً ضد الدولة ، فعندما شعر القائد العسكرى بقوته ، وبإمكان استغناؤه عن الإمبراطورية أعلن استقلال ولايته .

وهكذا. أعلن " جوريجوريوس " استقلاله بأفريقيا قبيل الفتح الإسلامى بقليل^(٥) .

(١) الإمبراطورية البيزنطية " بيترز " ص ٢٥ ، ٦٣ بتصرف .

(٢) المسلمون والجرمان ص ٥٦ .

(٣) الإمبراطورية البيزنطية " بيترز " ص ٣١ .

(٤) المسلمون والجرمان ص ٦٠ .

(٥) المسلمون والجرمان ص ٦١ .

أما . الأحباش . فهم أمة عاشت هدوءاً نسبياً ، وسادها نظام ملكي مثلته الدولة الأكسومية ، التي قامت مزدهرة ، قوية منذ القرن الأول قبل الميلاد^(١) . وقد ساعدت قوة هذه الدولة على الاستقرار الاجتماعي ، وبسط سيطرتها على جيرانها بعدما قامت بحملات حربية عديدة ، وعبرت البحر .، وكونت مستعمرات حبشية^(٢) في اليمن ، تدر عليهم الأموال ، والخيرات ، وتضمن لهم تجارة آمنة .، ومتبادلة مع الجزيرة العربية .، وللشرق .الأقصى .، وكان لفتح الأحباش اليمن أن صارت أرض الحبشة متجراً لقريش ، يجدون فيها رغداً من الرزق ، وأمناً وريحاً حسناً^(٣) .

ووصلت قوة الدولة الأكسومية غرباً إلى النيل^(٤) تستفيد من مياهه وخيراته ولقد كان ساحل أرتيريا موطناً هاماً للتجارة ، ففي موانئه ترسو السفن . التجارية لعدد من الجاليات الأجنبية ، وقد دلت الآثار على وصول تجار من اليونان ، ومصر إلى هذه البلاد .

وقد اشتهر ملوك هذه الدولة قبيل الإسلام بالعدل .، وبكراهية الظلم ، وكان .هذا سبباً في اختيار المسلمين للحبشة بالذات . للهجرة إليها .، وقد قال الرسول ﷺ لأصحابه : " لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد " ^(٥) .

(١) بين الحبشة والعرب ص ١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦ .

(٣) تاريخ الطبری ج ١ ص ٣٧ .

(٤) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ٣٦١ .

(٥) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ٣٤٣ .

(٧٧)

وخضعت الدولة الحبشية للنفوذ الرومانى ، وبخاصة بعد اعتناقها المسيحية خلال القرن الرابع الميلادى^(١) ، حيث كان اعتناق المسيحية هو السبيل الفعال إلى بسط النفوذ الرومانى ، ويمكن ملاحظة هذا النفوذ عندما تعرض مسيحيو اليمن للاضطهاد وذهب " دوس ذو ثعلبان " إلى قيصر الروم يستنصره ، فأرسله القيصر إلى ملك الحبشة الذى أعانه بجيش من عنده ، قوامه سبعون ألف رجل^(٢) .

- ٣ -

الأوضاع الدينية للرومان

(١) بين الحبشة والعرب ص ٣٦ .

(٢) سيرة النبی ﷺ ج ١ ص ٣٦ .

كانت المسيحية هي دين الدولة الرومانية بقسميها الشرقى والغربى ،
ودين الولايات التابعة لها كمصر والحبشة وغيرهما ، وكانت الأحداث الدينية
تنتشر سريعاً فى كل أرجاء الدولة من أقصاها إلى أقصاها .

وقد وضعت الكنيسة لنفسها نظاماً معيناً ، تسير عليه ، فأقامت رئاساتها
فى العواصم الثلاث الكبرى لعالم البحر الأبيض حيث توجد كنائس فى روما ،
والإسكندرية ، وإنطاكية ، على أن يكون لبقية المدن أساقفة ورؤساء تابعون
لأحد الكنائس الرئيسية الثلاث^(١) .

وظل الأمر على هذا الوضع حتى تأسست " القسطنطينية " وأصبحت
عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، فتحولت كنيستها إلى المرتبة الثانية بعد
كنيسة روما ، تليها فى المرتبة الثالثة كنيسة الإسكندرية وإنطاكية^(٢) .
ولم يكن هذا الوضع الجديد بمحل رضى من رؤساء الكنائس الأخرى ،
فنشأ التنافس بينهم ، وظهرت أفكار جديدة فى الفكر المسيحى قسمته إلى فرق
متنازعة^(٣) .

ذلك أن أفكار " أريوس " الداعية إلى إنكار ألوهية المسيح ، وتأسيس
فكرة دينية ، تعتمد على التوحيد ، لاقت خلال القرن الرابع الميلادى نجاحاً فى
عديد من الأماكن .، حيث كانت الكنيسة فى " أسيوط " على رأيه .، وكثر
أنصاره فى الإسكندرية ، وفلسطين ومقدونية^(٤) .

وكانت الكنائس الجرمانية التى نشأت فى الدولة الرومانية الغربية على
رأيه كذلك^(٥) .

(١) الحضارة البيزنطية ص ١٢٤ .

(٢) الدول الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٣٦ .

(٣) الحضارة البيزنطية ص ١٢٥ .

(٤) محاضرات فى النصرانية ص ١٢٣ .

(٥) المسلمون والجرمان ص ٤١ ، ٤٢ .

وقد عرف أتباع مذهب " أريوس " بالموحدين ونشطوا فى نشر عقيدتهم ، حتى أنهم فى الإسكندرية وثبوا على " اثناسيوس " بطريرك الإسكندرية ، ورأس معارضى " أريوس " والمنادى بألوهية المسيح ليقتلوه فهرب منهم وأختفى ، وكذلك فعلوا فى بيت المقدس مع بطريركها^(١) .

وفى قرطاجنة تعرض . " الاثناسيوس . " للاضطهاد . . ولقى كثير منهم حتفهم ، وتحول بعضهم إلى عبيد ، وصارت كنائسهم أماكن عبادة للموحدين . وفى بلاد. المغال. وأسبانيا ، لجأ الموحدين. إلى المقسوة فى تبشيرهم ، معتمدين على سلطان " القوط "^(٢) .

ورغم سيادة أفكار التوحيد فقد استطاع " قسطنطين " ، بقوته أن يقضى عليها بعدما جمع القسس من جميع الكنائس ، وعقد مجمعاً فى " نيقية " سنة ٣٢٥ م " ضم ألفين وثمانية وأربعين من الأساقفة المختلفين فى آرائهم وعقائدهم ، وكان من بينهم ثلاثمائة وثمانى عشرة أسقفاً يقولون بألوهية المسيح ، فأخذ الإمبراطور برأيهم ، وجعله عقيدة عامة قررها على الناس بقوة الدولة^(٣) وجعل مخالفته زندقة ، موجهة ضد الدين يعاقب عليها بالهرطقة^(٤) .

وهكذا انتصرت " الاثناسيوسية " على الأريوسية مما آذن بعلو شأن كنيسة الإسكندرية^(٥) واختفاء مذهب التوحيد ، ولم يظهر فى عالم المسيحية بعد ذلك إلا إلا ألوهية المسيح .

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٣١ .

(٢) محاضرات فى النصرانية ص ١٢٣ .

(٣) محاضرات فى النصرانية ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٤) الحضارة البيزنطية ص ١٣١ .

(٥) الإمبراطورية البيزنطية " بيتز " ص ١٠٠ .

ولم يكن هذا النصر بداية استقرار فى الفكر المسيحى ، بل نشأت مسألة أخرى مع بداية القرن الخامس الميلادى ، كانت هى السر فى الانقسام الكامل للكنائس المسيحية بصورة واضحة .

ذلك أن مجمع " أفسوس " الأول سنة ٤٣١م الذى اجتمع ليقرر رأيه فى أفكار " نسطور " القائلة بأن المسيح ليس إلهاً ، ولكنه إنسان ملهم معصوم ، لا كسائر الناس^(١) ، أيد رأى أسقف القسطنطينية ، فى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين هما اللاهوتى ، والناسوتى ، وأنهما امتزجا ، وصارا كائناً واحداً .

كان- هذا- القرار- مرفوضاً عند كنيسة الإسكندرية .- وروما .- وشعب القسطنطينية ، لأنه يهدد بعزل " مريم " العذراء من أمومتها للقسم اللاهوتى ، ويحرمها من لقب " أم الرب " ولذلك نجد هذه الكنائس تتحد ضد هذا القرار ، وتجتمع فى أفسوس ثانية ، وتقرر أن للمسيح طبيعة واحدة ، وتسرع فى نشر هذا المذهب فى أطراف الدولة ، وتقوم كنيسة الإسكندرية بإرسال تسعة رهبان إلى الحبشة ، يدعون لمذهب الطبيعة الواحدة^(٢) مما جعل كنيسة القسطنطينية تتأثر. لنفسها بقرار. مضاد فى مجمع " خلقدونية " سنة ٤٥١م. وذلك بمساعدة كنيسة روما ، وقد اعتبر هذه المجمع القائلين بالطبيعة الواحدة هراطقة ، وقرر وجوب تعذيبهم ، ومع الأيام تطور هذا الخلاف إلى منافسة حادة ، نشط فيها كل طرف لتقوية مذهبه ، واتهام غيره بالهرطقة ، الأمر الذى حوله إلى خلاف قومى ، نادى كل وطن فيه بالانفصال عن الإمبراطورية^(٣) .

فشلت كل محاولات التوفيق بين الطرفين المتنازعين ، كما اعترف بذلك "يوستينياتوس " فى مجمع " القسطنطينية الخامس " سنة ٥٥٣ م .

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٣٥ .

(٢) بين الحبشة والعرب ص ٣٦ .

(٣) الحضارة البيزنطية ص ١٣٣ .

وقد حاول " هرقل " بعد انتهائه من الحروب الفارسية أن يضع حداً لهذا الخلاف ، فألف مذهباً جديداً ، تخيل من ورائه أنه يرضى الأطراف المتنازعة ، سماه بمذهب التوحيد في الإرادة ، وهو ينادى بعدم النقاش في طبيعة المسيح ، حيث الاختلاف والتنازع ، مع الإيمان بأن له إرادة واحدة ، غير أن هذا المذهب جاء بنتيجة مضادة لأن " هرقل " استعمل القوة في فرضه ، وأملى على أمراء الولايات أن يفعلوا ذلك ، فأخذ " المقوقس " في مصر يستعمل العنف والتعذيب في فرض هذا المذهب ، واتهم القوم " هرقل " وولاته بمحاولة إضلال الشعب المسيحي ، وقاموا بحركة مقاومة سرية ، وقاد " بنيامين " هذه الحركة في مصر حتى أصبح المصريون يتمنون زوال الإمبراطورية^(١) .

ومع الأيام انتشر هذا النزاع في كل الدولة الرومانية بأجزائها ، وولاياتها . وقد انتشر مذهب الطبيعة الواحدة في مصر ، والحبشة ، واعتنقه بعض الغساسنة وتعصبوا له .

وانتشر مذهب الطبيعتين في " القسطنطينية " وروما ، وبلاد الحيرة ، وعن طريق الحيرة أمتد إلى بعض أطراف الجزيرة العربية الجنوبية^(٢) . ويجب ملاحظة أن هذه المنازعات لم تقف حائلاً دون نشر المسيحية ، بل إنها أدت إلى قيام منافسة ، وتسابق ، بين الكنائس المختلفة ، لتتفوق كل على زميلتها في نشر المسيحية بمذهبها ، في بلاد جديدة ، وبذلك يتحقق تفوق سياسي واقتصادي يمكن الدولة من مجابهة الصراع الفارسي ، والانتصار عليه . والمسيحية بعد المسيح ﷺ تعتبر ديناً توسعياً ، ولذلك نشط معتقوها قبل الإسلام في توسيع دائرتها في البلاد الخارجية .

(١) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٤٠ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٢ .

ففى الولايات التابعة للفرس ظهر لها أتباع من الغساسنة ، كما أن امتدادها إلى الحبشة تم فى القرن الرابع ، ووصولها إلى اليمن تم قريباً من هذا التاريخ ، وكان لانتشارها طرق متعددة لاقت تشجيعاً من جميع المسيحيين ، وخاصة من الدولة الرومانية الشرقية ، وكنائسها المتعددة ، ولا غرو فهى دولة " أوتوقراطية " أسست من بدايتها على الدين .

ولم تمنع المنازعات المذهبية تعاون المختلفين فى المذهب إذا لزم الأمر ، حيث نرى " النجاشى " ملك الحبشة يتعاون مع إمبراطور القسطنطينية ، ويرسل جيشاً إلى اليمن للمحافظة على المسيحية بها ، رغم اختلاف الإمبراطور والنجاشى فى طبيعة المسيح ، ورغم أن نصارى اليمن أنفسهم كانوا على القول بالأريوسية المخالفة لكل من النجاشى والإمبراطور .

وكان لموقع الجزيرة العربية بين الحبشة والدولة الرومانية الشرقية أن تعرضت لمحاولات تبشيرية متعددة ، أدت إلى اعتناق بعض العرب للمسيحية ، وقد وجدت المسيحية بنجران (جنوب الجزيرة) على يد رجل من الشام هو " فيمين " حيث تمكن هو وتلميذه " عبد الله بن التامر " من نشر المسيحية بهذه المنطقة^(١) ، وقد كان " فيمين " و " تلميذه " صورتين لمبشرى المسيحية الذين انتشروا فى الجزيرة يتاجرون ، ويدعون للمسيحية ، وكانوا يعتبرون التجارة مع التبشير كسباً مضاعفاً^(٢) .

ويمكن اعتبار حملة " أبرهة " على مكة حملة عسكرية للتبشير بالمسيحية ، تمت بعد فشل الوسائل السلمية ، وبخاصة بعدما ثبت أن الدولة البيزنطية كانت ترسل تجارها إلى مكة لتتجسس على العرب^(٣) .

(١) التاريخ الإسلامى ص ٥٠ .

(٢) أخبار مكة ج ١ ص ٨٣ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٥٨ .

ومما يساعد على هذا الاعتبار سرعة بناء أبرهة " للقليس " ومضاعفة تحسينها ، وتجميلها ، قاصداً بذلك صرف العرب عن كعبتهم وتوجههم إلى القليس للحج والزيارة ، التي بناها على هيئة الكعبة ، وصورتها ، وقد كتب أبرهة إلى النجاشي بعد بناء القليس قائلاً : " ولن أنتهى حتى أصرف حج العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيتهم " (١) .

ولما تبين استحالة تحقيق هذا الأمل جرد حملته إلى الحجاز .، لهدم الكعبة ، وحتى لا يجد العرب إلا " القليس " فيذهبون إليها مضطرين ، وبذلك يسهل تنصير أبناء الجزيرة العربية كلها .

وقد بذلت الدولة الرومانية الأموال المضخمة فى تأسيس عديد من الكنائس والأديرة داخل الجزيرة العربية ، وكانت تجلب الإعانات ، والأموال لهذه الكنائس من بلاد العراق والشام ، والروم (٢) ، ومع كل هذه المحاولات التبشيرية فإنه لم يعتنق المسيحية إلا نفر ضئيل من العرب ، ويبدو أن السبب ما كان فيها من قصور فكرى ، وتناقض واضطراب لا يتفق مع الفطرة العقلية .

(١) الفلسفة الشرقية ص ١٨٤ .

(٢) وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١٠٥ .

المبحث الثالث

” الفرس ”

- ١ -

الموطن الجغرافى

. **الفرس** . أمة سكنت شرق الجزيرة العربية ، واشتركت معها فى الحدود الشرقية ، ويعتبر الخليج العربى حاجزاً طبيعياً بين العرب والفرس .

و . **الفرس** . امتداد للشعب الإيرانى القديم الذى نشأ فى الوديان الخصبة بين جبال الهندكوش ، وسلسلة جبال بغمان ، وانتشر هذا الشعب فى منطقة آسيا الوسطى ، وانقسم إلى شطرين :

شطر سكن فى منطقة ما وراء نهر جيحون وهم الإيرانيون الشرقيون .

وشطر سكن غرب النهر وهم الإيرانيون الغربيون^(١) .

وقد قامت دولة الفرس فى المنطقة الواقعة بين الجزيرة العربية ، وبلاد الشام ، ونهر الفرات غرباً ، وبين نهر جيحون ، والسند شرقاً ، وبين بلاد أرمينيا ، وصحراء سيبيريا شمالاً ، وبين المحيط الهندى جنوباً .

وتقع عاصمة الفرس "المدائن" على شاطئ نهر دجلة ، وجزؤها الشرقى يعرف بـ (المدائن القصوى) ، وجزؤها الغربى عرف (بالمدائن الدنيا)^(٢) .

وقبيل الإسلام. وحد المساسانيون. فارس. تحت حكمهم ،. ولبنوها. إمارات الطوائف التى تقاسمت الدولة ، وجعلوا لدولتهم قوة تناوئ دولة الروم الموجودة فى شمال غرب الدولة .

(١) تاريخ بخارى ص ٤٤ .
 (٢) العرب قبل الإسلام - زيادة ص ٥٥٢ .

الأوضاع السياسية والاجتماعية والأخلاقية للفرس

كان الحكم فى الفرس مطلقاً قائماً على أساس تقديس بيت معين ، يستمد حقه من الله ، فلقد كان (آل ساسان) يعتقدون أن حقهم فى الملك مستمد من الله فنشروا ذلك فى الناس ، حتى أن العامة اعتقدوا هذا ، وصار جزءاً من تدينهم ، ومن هنا كان الملك يتوارث للأولاد ، فإذا لم يجدوا من الأبناء رجلاً كبيراً جعلوه لطفل لا يعى ، فإن لم يوجد الطفل جعلوه لامرأة ، ولقد ملكوا بعد (شيرويه أردشير) طفلاً عمره سبع سنوات. . وملكوا. (بوران بنت كسرى) ، وملكوا أخرى اسمها (أزهرى دفت)^(١) ووفقاً لهذه النظرية المقدسة تمتع الأكاسرة بمزايا لا حد لها ، فهم كالآلهة تماماً ، وفوق القانون ، وفوق البشر ، ولهم تنشيد الأناشيد المقدسة ، وعندهم تكفر الذنوب ، وإشاراتهم أمر لا يستحق إلا السمع والطاعة ، وكان لكل واحد منهم حاشية خاصة لها تقاليدها ، ومظاهرها .

وقد استغل الملوك منزلتهم عند القوم فى الإثراء الفاحش الكبير ، واعتادوا أن يكتنزوا النقود ، ويدخروا الطرائف من الأشياء الغالية حتى أن (خسروا الثانى) حينما نقل أمواله إلى بناء جديد سنة ٦٠٨ م بلغ ما نقله ٤٦٨ مليون مثقال. ذهب. . وبعد ثلاثة عشر عاماً من ملكة بلغت مالىته ٨٠٠ مليون مثقال^(٢) .

يقول شاهين مكاريوس : " لم يرد فى التاريخ أن مليكاً بذخ وتنعّم مثل

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٥ . ٥٥ بتصرف .

(٢) إيران فى عهد الدولة الساسانية ص ١٦٣ وما بعدها .

الأكاسرة ، الذين كانت تأتيهم الهدايا ، والجزيات ، من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى^(١) .

وكانت الولايات العديدة تخضع لكسرى بوجهها كما يريد ، رغم تباعدها ، ولعل في طلب (بازان) من عامله في اليمن أن يحضر النبي ﷺ إلى المدائن حياً ، أو ميتاً ، توضيحاً لنوع سطوة كسرى ، وخضوع الولاة له .

وقد امتاز الفرس بالنشاط ، وكلفوا بالمدنية ، وطلبوا الاستقرار ما وسعتهم الأرض ، ومالوا إلى الاشتغال بالفنون والحرف ، وأقبلوا على تجارة الحرير ، وكانوا. خلال القرنين الخامس والسادس. الميلاديين يسرون. بقوافل الحرير العظيمة عبر الإمبراطورية الساسانية إلى شرق بلاد الإمبراطورية الرومانية^(٢) وبسبب ذلك انتشر النشاط الصناعي ، والزراعي ، في أنحاء الإمبراطورية ، وحقق رخاءً ورفاهية في أنحاء الدولة .

وكان المعقول أن ينتشر العدل بين الرعية تبعاً لذلك ، إلا أن الوضع أخذ شكلاً رهيباً من الطبقة البغيضة ، القائمة على النسب ، والحرف .

يصور صاحب كتاب إيران في عهد الساسانية في إيجاز فيقول : " كان المجتمع الإيراني مؤسساً على أساس النسب . والحرف . وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر . ولا تصل بينها صلة . وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً للأمير ، أو كبير ، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذي منحه إياه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه ، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها ، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفاً من وظائفهم ، وانقسم العامة إلى طبقات متميزة بعضها عن بعض ، تميزاً واضحاً ، لكل طبقة مركز محدد

(١) تاريخ إيران لشاهين مكاربوس ص ٢١١ .

(٢) تاريخ بخارى ص ٤٥ - ٤٦ .

فى المجتمع" (١) .

لم تقف إهانة الطبقات الدنيا عند حد إبعادها عن الوظائف العامة ، بل فرضت عليها الضرائب الباهظة بلا حساب وبلا ضابط ، وكانت تختلف من سنة إلى أخرى ، ومن مكان إلى آخر ، كما ، ونوعاً ، الأمر الذى ألحق أفدح الأضرار بالضعفاء وأصحاب الحرف الصغيرة ، وأدى أخيراً بالمزارعين إلى أن يتركوا أعمالهم ، ويلجأوا إلى الأديرة يلتمسون فيها المأوى والاستقرار ، وكان أسعد المزارعين حظاً ذلك الذى سمح له بأن يعمل لسيده بأجر زهيد .

ولم تقف هذه الإهانات الواقعة على الطبقات السافلة فى حياتهم المدنية ، بل كانت تلازمهم وهم فى الجيش ، وفى ميدان القتال .

يقول المؤرخ أميان مارسيلينوس : " إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم ، ولم يكونوا ينالون إعانة ، أو تشجيعاً من راتب ، أو أجرة ، وكانت علاقة الفلاحين بالملاك أصحاب الأراضى كعلاقة العبيد بالسادة " (٢) .

وقد أدى هذا. الموضع الطبقي إلى نتائج بالغة المسوء .، فانتشر المحقد والمبغضاء. بين المضعفاء .، وللكبر والاستعلاء. بين المكبراء. .، وهدد. المجتمع بانقسامات خطيرة ، سكنت ملامحها نفوس الناس وقلوبهم .

ولعل فى هذا الوضع بعض أسباب انتشار واستقرار الإسلام السريع فى ربوع الدولة الفارسية حين أتاها ، لأن مبادئ الإسلام السامية صادفت وضعاً ظالماً فمحته ، وطبقت تعاليمها مكانه فاستقرت ، وما ظهر فى فارس من قوة وغنى كان خاصاً بالطبقات الأعلى ، والحاكمة وحدها ، أما ما دونها ، فقد عاش فى فقر وهوان .

(١) إيران فى عهد الدولة الساسانية ص ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٤ .

أوضاع الفرس الدينية

كانت **المجوسية** وهى ديانة الفرس ، مركبة من عناصر مذهبهم المتعددة ، التى بدأت قبل الميلاد بكثير ، واستمرت فى تطورها ، وتشكلها ، حتى جاء الإسلام .

والمجوسية ديانة **(فى الجملة)** تهتم ببيان أصل المخلوقات ، وتعدد الآلهة ، فمنذ القدم والملوك يقدسون إلهين من بين الآلهة الكثيرة ، التى يعبدها عامة الشعب .، على أساس أن أحدهما أصل الخير .، وللتانى أصل الشر^(١) وبعد تطور المجوسية على يد **(زرادشت)** نراه يرجع جميع الآلهة الموجودة إلى إلهين اثنين ، إله الخير ويسمى **(أهورامزدا)** ، وإله الشر ويسمى **(أهريمان)** وهما متضادان ، فلقد ورد فى كتبهم المقدسة أن **(مزدا)** قال لـ **(أهريمان)** ما معناه : " ليس علمنا ، ولا شرائعنا ، ولا مداركنا ، ولا كلماتنا ، ولا أفعالنا ، ولا حياتنا ، أنا وأنت متفقان فى أى شئ ، ولذا فنحن أضداد " ^(٢) .

والفرس يعتبرون أن أقوال **(زرادشت)** ، وتعاليمه قد أودعت فى كتاب **(زند أفستا)** ، الذى تم جمعه فى القرن السادس الميلادى^(٣) ، وفى هذا الكتاب سمو خاص ، ومواعظ طيبة ، مما جعل الفرس يرفعون **(زرادشت)** بعد وفاته إلى مرتبة عالية ، فزعموا أن وجوده فى الدنيا مر بمراحل خيالية خاصة وأنه بعث رسولاً إلى الخلق .، ونبياً **(لكشتاسب)** الملك وغيره. هذا. مع إثباته للأصلين المتضادين ، النور والظلمة^(٤).

(١) الفلسفة الشرقية ص ١٨٤ .

(٢) وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١٠٥ .

(٣) الفلسفة الشرقية ص ١٨٥ .

(٤) الملل والنحل ج ١ ص ٢١٧ .

ويظهر من كلام الشهر ستانى أن نبوة (زرادشت) صحيحة لأنه يقول :

" إن زرداشت يدعو إلى أن البارى هو الخالق للظلام والنور ، ومبدعهما ، وهو واحد ، لا شريك له ، ولا ضد ، ولا ند له ، ويدعى كذلك أن كتاباً نزل عليه وهو (زندوفیستا) ومن تعاليمه ضرورة الإيمان بالروح والجسم ، والتكليف القائم على الاعتقاد ، والقول ، والعمل ، وأيضاً فأتباع (زرادشت) يثبتون له معجزات ، منها دخول قوائم الفرس فى بطنه ، وقد بشر (زرادشت) بظهور (الرجل العالم) فى آخر الزمان ، ليزين الكون بالدين والعدل^(١) وهو يدعو الناس إلى الإيمان باليوم الآخر ، والبعث ، والجزاء .

وليس لدينا دليل ، يمنع أن يكون (زرادشت) نبياً ما دامت تعاليمه موحدة فى العقيدة ومؤمنة بالبعث ، وداعية إلى الخلق الطيب ، والعمل النافع وغير ذلك ، واندراجه تحت الرسل المذكورين فى قوله: ﴿ وَرُسُلًا لَّمْ تَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾^(٢) جائز .

ويمكن تفسير ما ينسب إليه من أنه دعا لإلهين ، أحدهما للنور ، والآخر للظلام ، أنه من وضع أتباعه الذين حرفوا دعوته .

لكن الذى نذكره بعد ذلك أن ديانة الفرس بعد (زرادشت) داخلها فساد كبير ، أضاع أغلب معالمها ، فلقد جاء (مانى) فى القرن الثالث الميلادى ، وعمق الأصلين فى الوجود ، وجعلهما إلهين ، مستقلين ، أزليين ، قديمين .

وقد حكى (محمد بن هارون) المعروف بـ (أبى عيسى الوراق) أن الحكيم (مانى) زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ، ولن يزالا^(٣) .

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٤ .

(٣) الفلسفة الشرقية ص ١٩٥ . ١٩٦ .

وفى نهاية القرن. الخامس الميلادى. جاء. (مزدك) فأضاف. إلى فساد العقيدة على يد (مانى) فساداً أخلاقياً آخر ، حين قال بالشيوعية المتطرفة ، المنادية بالمساواة فى المال ، والنساء ، لأنهما فى نظره سبب الحرب ، والقتال ، وبالإغائهما تنطهر القلوب. من الأحقاد. ويعيش الناس. فى سلام.^(١) . وجاءت المانوية فأوصلت الأصول إلى ثلاثة هى النار ، والأرض ، والماء.^(٢) .

ولقد كانت المجوسية فى عصر الإسلام خليطاً من كل هذه الآراء . وتناسى الفرس وحدانية (زرادشت) ، وتمسكوا بثنائية المانوية ، بل كان العامة منهم يؤلهون بعض القوى الطبيعية ، ويقدون بعض الحيوانات ، ويؤمنون أن روح الإنسان بعد الموت تنتظر ثلاثة أيام ، وفى فجر اليوم الرابع تهب ريح معطرة إن كان صاحب الروح خيراً ، أو ننته إن كان صاحبها شريراً ، وبعد ذلك تذهب الروح مع فتاة ، أو عجوز لتحاكم وتأخذ جزاءها.^(٣) .

وكان الفرس قبيل ظهور الإسلام يعبدون النار ، ويقدونها ، مؤمنين بقوتها وشرفها ، حتى لا يعذبوا بها فى الآخرة ، وقد بنوا لها بيوتاً للعبادة فى كثير من نواحي الدولة ، فى طوس ، وبخارى ، وغيرهما أقيمت البيوت ، ومن المعلوم أن عبادة النار مع طول الزمن تغيب فلسفتها ، وأسباب وجودها وتبقى أمام العامة والجماهير الغفيرة ، بعقولها المغيبة ، وبذلك يزداد الفساد والضلال كما حصل لعبدة الأوثان من العرب ، فإنهم بدأوها تقديراً لأشخاص ثم تصوروا آلهة ، وتناسوا كل ما يتصل بوجودها .

وقد أطلق مسمى (المجوسية) على هذا الخليط الموروث من الأقدمين ، ومن زرادشت ، ومانى ، وغيرهم ، وصار للمجوسية دولة كبرى تدافع عنها هى

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٤ .

(٢) وحده الدين ص ١١١ .

(٣) الفلسفة الشرقية ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

الإمبراطورية الفارسية المنافسة لدولة الروم قبل ظهور الإسلام ، وكان الفرس يعظمون ملوكهم ، ويقدمونهم ، ويزعمون أن الله اختار هؤلاء الملوك وأعطاهم ملكه ، ليكونوا ظله بين الناس ، فلهم الطاعة ، وليس لأحد قبلهم حق ، وبلغ هذا الاعتقاد أشده أيام الأسرة الساسانية^(١) التي وجدت قبيل ظهور الإسلام .

(١) وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١١ .

المبحث الرابع

” الهنود ”

- ١ -

الموطن الجغرافى

. **الهنود** . أمة سكنت الجزء الجنوبى من قارة آسيا ، وسط مجموعة من الحواجز الطبيعية المتى هيأت لها لوناً معيناً من الحياة المستقرة ، وطبعت حضارتها بطابع فريد ، وهى أمة تشغل جيّزاً كبيراً من الأرض ، حيث أن مساحتها تعادل مساحة دول أوربا مجتمعة باستثناء روسيا^(١) .

ويذكر البيرونى أن الهند يحيط بها من الجنوب البحر المعروف باسمها وهو المحيط الهندى ، وفى جهاتها الثلاث الأخرى توجد سلسلة جبال مرتفعة^(٢) . ولمعرفة ما وراء هذه المرتفعات نتطلع على سطح الهند ، فنراه يأخذ شكلاً رباعى الأضلاع ، ضلعه الجنوبى الشرقى ، وللجنوبى الغربى ، وللشمالى الشرقى حدود برية تسير مع الحافة الجنوبية الغربية لمرتفعات وسط آسيا^(٣) ، وهذه الأضلاع الثلاثة مجموعة من المرتفعات التى تتكون من جبال (آسام) ، وسلسلة جبال (الهملايا) ، وجبال (هندكوش) ، وجبال (سليمان)^(٤) وهى

(١) أديان الهند الكبرى ص ١٩ .

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٥٧ .

(٣) ملامح الهند والباكستان ص ١١ .

(٤) تاريخ الإسلام فى الهند ص ٢ .

المجال. التى تكون. حدود. الهند مع (بلوخستان) ، و.(التركمنستان) ، و(الصين) ، و(بورما)^(١) .

قامت هذه الحدود الطبيعية المنيعه بدور عازل هام ، ساعد على ازدهار الحضارة الهندية ، وبروزها فى طراز. فريد ، وجعل تأثرها بغيرها محدوداً ، وخاصة فى داخل البلاد ، أما فى الأطراف الشمالية عند الأبواب فكان التأثير أوضح^(٢) .

ونظراً لتغاير المسطح الطبيعى للهند انقسمت البلاد. إلى ولايات. عديدة واشتهرت بها مدن كثيرة^(٣) .

وأبناء. الهند نشيطون. منذ القديم ، حيث انتشرت. مجموعات. منهم فى البلدان حولهم ، ووصلوا إلى أقصى شرق آسيا ، وأسسوا لأنفسهم مستعمرات لها طابع هندي خاص ، وكان من هؤلاء الرجال تجار كبار ، ورجال ذوو ثقافات عالية تمكنوا بها من نقل ثقافات الهند إلى المستعمرات التى أسسوها^(٤) . واستمر هذه النشاط لأبناء الهند حتى توقف فى القرن الثامن الميلادى^(٥) .

(١) أديان الهند الكبرى ص ٢١ .

(٢) ملامح الهند والباكستان ص ٥ .

(٣) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ج ١ ص ٣٣ .

(٤) ملامح الهند والباكستان ص ١٥٤ .

(٥) يلاحظ أن الحديث هنا عن الهند يشمل شبه القارة الهندية كلها التى تتكون حالياً من دول ثلاث هى : الهند ، والباكستان ، وباكستان الشرقية (بنجلادش) .

الأوضاع السياسية والاجتماعية والأخلاقية للهنود

الهنود أمة سادت فيها الطبقات الاجتماعية بكل وضوح ، وقد تنوسى دواعى هذا التقسيم الطبقي بسبب البعد الزمنى لوجوده ، إلا أن الراجح أنه قام بسبب اختلاف العناصر الهندية ، لأن الآريين ، والتورانيين وفدوا على الهند واختلطوا بسكانها الأصليين ، ووضعوا نظام الطبقات ليتمكنوا من السيطرة ، والسيادة .

يؤيد ذلك أن- الآريين قوم- بيضو اللون- ، طويلو القامة ، والمساكن الأصليون سودو اللون ، قصيرو القامة ، وكلمة طبقة باللغة الهندية هي (فارنا) ومعناها لون^(١) .

وعند استقرار- الآريين فى البلاد خافوا- مغبة- الاختلاط بغيرهم فوضعوا نظام الطبقات ، وجعلوا أنفسهم طبقة برهمية عالية هي (البرهمية) .
تليها طبقة (الكشترية) التى تقود الجيش ، والبراهمة يؤيدونها بالدعاء ، والتمكين ، وبما يساعدهم فى دورهم .

والى جانب هاتين الطبقتين الآريتين وجد التورانيون الذين كونوا طبقة (الويشية) .

وتأتى بعدهم الطبقة الرابعة والأخيرة وهى طبقة (الشودرا) التى تنتظم أصحاب المهن الحقيمة والخدم^(٢) .

(١) ملامح الهند والباكستان ص ١٤٧ .

(٢) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ج ١ ص ٩ .

وكان الهنود يمثلون الطبقات الأربع بجسم إنسان ، فالبراهمة يمثلون الرأس ، والكشتريا يمثلون المنكب واليدين ، والويشية يمثلون الفخذ ، والشودرا يمثلون القدم .

ويعتقد المهندو- أن- الطبقات- خرجت من جسم براهما ،. ومن العضو الذى تمثله كل طبقة حيث يقول (متو) : " تم خلق البرهمى من فم يراهما ، والكاشيريا من ذراعه ، والويشيا من فخذة ، والشودرا من رجله " (١) .

وقد وردت نصوص دينية تحدد وظيفة كل طبقة .

يقول الدكتور/ أحمد شلبى : " على البرهمى أن يشتغل بالتعليم ، والتعلم ، وإرشاد الناس فى دينهم ، فكان هو المعلم ، والكاهن ، والقاضى ، أما كشتريا فعليه أن يقدم القرابين ، ويحمل السلاح للدفاع عن وطنه ، وشعبه ، أما ويشيا فعليه أن يزرع ، ويتجر ، ويجمع المال ، أما شودرا فعليه أن يخدم الطوائف الثلاث المذكورة " (٢) .

والمنبوذون هم طبقة أقل من (الشودرا) وهم بقايا سلالة العنصر الأسمى من السكان القدامى ، ولا يجرى فى عروقهم الدم الآرى ، أو التورانى ويسمون بـ (زنوج الهند) وقد حرمهم المجتمع حقوق الإنسان العادى ، فليس لهم حقوق كطبقة ، ولا منزلة لهم ، يشتغلون برذالات الأعمال وهم منفيون منحطون (٣) لدرجة أنه إذا استمع أحدهم خلسة لرجل برهمى وهو يتلو (الفيدا) صب فى أذنيه الآنك ، وإذا روى جالسا معه كوى بالنار ، ولا يجوز له أن يتزوج من الطبقات الأخرى (٤) .

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) أديان الهند الكبرى ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٧ .

(٤) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٧ .

يقول مانو : " أن الخالق قد ذرأهم عبيداً ، وكل من انتمى إلى هذه الطبقة فمن المحال أن يكون حراً حتى ولو أعتقه سيده ، ومن الذى يستطيع أن يحرره من الرق إذا كان الرق طبيعة فيه " (١) .

ومع هذه المنزلة الوضيعة للمبنوذين ، فقد وجد فى المجتمع من هو أدنى منزلة منهم ، وهم الوافدون إلى البلاد ، الذين ولدوا بعيداً عن براهما ، وهؤلاء لا حقوق لهم مطلقاً .

وكان النظام السياسى فى الهند ملكياً حيث يرأس الملك الدولة ، ويساعده الوزراء ، ورجال التشريع (٢) ، ومع ذلك فالملكية تعتمد على أساس مقدس ، فالملك إله فى صورة إنسان ، وعليه أن يكون عادلاً ، وخادماً لشعبه ومحافظاً على حقوق الطبقات بكل دقة (٣) .

وقد ازدهر فى الهند النظام السياسى ، فنمت حضارتها وفلسفتها ، وكثرت المدن المليئة بالحركة والناس ، وانتشرت المستشفيات ، والمدارس ، وعم الرخاء والعدل وخاصة مع بداية القرن الرابع الميلادى ، حيث ظهرت أسرة (كيتا) فى الهند .

وقد نعم البراهمة مع هذا النظام المقدس .، حيث نالوا كل حقوقهم ، وصاروا سادة المجتمع ، لهم ما يريدون (٤) ، والجميع يلجأ إليهم فى كل الحالات أما بقية الطبقات فإنها تتمتع بالحقوق التى يسمح بها البراهمة ، وليس عليهم إلا الطاعة ، والخضوع .

وقد أدى تمسك المجتمع بالتعاليم المقدسة فى أنظمتها الاجتماعية والسياسة

(١) روح الإسلام ص ١٥

(٢) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ص ٣٢ .

(٣) أديان الهند الكبرى ص ٧٢ .

(٤) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ص ٢٢ .

إلى ازدهار اجتماعى ، تمتع به أهل الطبقات الشريفة ، وما عداهم فلا شئ لهم من حقوق ، كما أدى هذا النظام الطبقي فى الهند إلى إذلال طبقة المنبوذين ومن خلفهم ، وحرمتهم من كافة حقوقهم ، وقد وصل مستواها أحياناً إلى أقل من مستوى الحيوان ، وعاشوا حياة بدائية متخلفة ، ولم يتقنوا إلا السخرة ، والطاعة ، فى إطار القداسة البوذية .

أوضاع الهند الدينية

يرجع ظهور الهندوكية إلى أقدم العصور ، وهى ديانة معقدة ، لا تعرف البساطة فى تعاليمها ،. أو. السهولة فى مناسكها ،. أخذت. كثيراً. من معتقدات الوافدين إلى الهند من أقدم العصور^(١) .

وللهندوكية كتب عدة أهمها (الويدا) وأهميته ترجع إلى تصويره لحياة الآريين ، ومعيشتهم ، ونظمهم ، وعقائدهم .

وقد مرت. هذه الديانة بأطوار. مختلفة . جعلت تطبيقاتها تأخذ أشكالاً متعددة فمن أشكالها تأليه قوى الطبيعة والكون ، ويتصور مؤلهوها أن للطبيعة روحاً ، وقوة ، تتفع وتضر ، ومع تعدد ألوه الهنود فإنهم اتجهوا لإله من هذه الآلهة سموه بـ (رب الأرباب) و(إله الآلهة) وهو إحساس منهم بالوحدانية غير مركز^(٢) .

وللهندوكية سلوك أخلاقى ، يقوم على فكرة الجزاء على العمل فى الحياة الأولى للروح ، أو بعد الحياة الأولى ، لأن الروح عندهم لا تفنى ، وإنما تنتقل بعد فناء جسد صاحبها إلى جسد آخر ، لتأخذ جزاءها ، ولتتمتع بشهوات المادة التى لم تنلها من قبل . وتستمر هكذا. فى تنقلها من جسد إلى جسد . حتى تتغلب على شهواتها وتقنع بما حصلت عليه^(٣) وحينئذ تمتزج بـ (براهما) فى مرحلة تعرف عندهم بـ (الانطلاق) ذلك أنهم يؤمنون أن روح الفرد جاءت من

(١) ملامح الهند والباكستان ص ١٤٣ .

(٢) أديان الهند الكبرى ص ٤٢ ، ٤٨ .

(٣) ملامح الهند والباكستان ص ١٤٥ .

روح العالم ، ومآلها إليه^(١) فإذا ما وصلت إلى الانطلاق فقد اتحدت مع أصلها لأول .

وهكذا نرى أن عبادة الهندوكية انتقلت من البساطة إلى التعقيد ، ومن البدائية إلى التفلسف ، وكان من أثر هذا التنقل تعدد طوائف الهنادكة تعدداً لا يخطئه العد ، وفي الجملة فإن عقائد الخاصة تختلف عن عقائد العامة ، حيث اتجه الخاصة إلى لون من التوحيد الغامض ، المشوش ، بينما عاش العامة مع التعدد. وللتجسيد^(٢) . وكانت عقائد الجميع تلتقى عند فكرة الجزاء . وتناسخ الأرواح ، والروح الواحدة للهندوكية^(٣) .

وتقوم العقيدة الدينية على أساس النظام الطبقي ، فلا يسمح للمبوزدين باعتراف الهندوكية ، وعليهم أن يختاروا ديناً آخر ، الأمر الذى أدى إلى حدوث ثورات عدة ، وأشهرها ثورتان قام بهما الزعيمان (مهاويرا) و (بوذا) وهما من طبقة (الكشترىا) التى ضجت من ظلم البراهمة ، واضعى الهندوسية وقد قاما بثورتيهما ضد الهندوسية ، وأدخلوا بعض التعاليم الجديدة عليها ، وأعلنوا ديانتين جديدتين هما : الجينية ، والبوذية .

فالجينية : تنكر الإله ، وتتحدى بالمسالمة ، ولا تعترف بالطبقات ، إلا أن مبدأ المسالمة أدى بأتباع مهاويرا إلى الإقرار بآلهة الهندوس. للهندوس واحترام عبادة البراهمة .

وعلى العموم فالجينية دين يؤمن بالزهد ، والتقشف ، والفناء ، والسلوك السوى ، حتى تصل الروح إلى مرتبة (النجاة) التى تشبه مرتبة (الانطلاق) وكل

(١) ملامح الهند والباكستان ص ١٤٥ .

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٣٩ .

(٣) أديان الهند الكبرى ص ٥٢ .

تعاليمهم المقدسة أتت من خطب (مهاويرا) ومريديه^(١) وكان انتشار هذا المذهب ضئيلاً في العدد ، انحصر في طبقة الكشترى والمنبوذين .

والبوزية : تلغى نظام الطبقات ، وتدعو إلى الصبر ، وتحمل الألم ، ودعم قوة الذات ، لتقهر سيطرة الشهوة والهوى وترفع النفس عن عالم المادة وتتحدى بالسلوك القويم حتى يمتزج الهندوسى مع (النرفانا) وهى تؤمن بنتاسخ الأرواح ، وإمكانية الوصول إلى (النرفانا)^(٢) والاندماج معها كما حدث فى الانطلاق ، والنجاة .

أما فكرة البوزية عن الإله فقد تجاهلته تماماً ، ولم تتكلم عنه ، ولم يشر بوذا إلى ذلك لا نفيًا ولا إثباتًا ، بل كان يدعو إلى اكتشاف الألم ، والبحث عن مصدره من أجل إعدامه لتزول الآلام ، ويصل الإنسان إلى السعادة^(٣) .

وكان صمت البوزية عن أفكار الألوهية الهندوسية ، وقصرها إلغاء نظام الطبقات على من دخل البوزية ، وتبسيطها العقائد سبباً فى إقبال الناس عليها ، وتمسكهم بأخلاقها ، مع ولائهم لآلهة الهندوس ، وكان هذا الوضع سبباً فى أن مظاهر البوزية لم تكن خاصة بها ، بل كانت خليطاً منها ومن الهندوسية ، الأمر الذى جعلها محل تقبل فى المجتمع الهندى ، وسرعان ما اكتسبت البوزية تعاليم الهندوسية ، وذابت فيها وقبلت من الناحية العملية لا النظرية نظام الطبقات الهندوسى .

وأتى القرن السادس الميلادى على الهند والبوزية تنتشر بثقافتها ، وأخلاقها ، وحضارتها إلى عديد من الأماكن خارج الهند ، فوصلت إلى البنغال

(١) أديان الهند الكبرى ص ١١٣ وما بعدها .

(٢) أديان الهند الكبرى ص ١٥٦ وما بعدها .

(٣) الله ص ٦٥ .

، والصين شرقاً وكشمير ، وكوريا شمالاً^(١) ، وكان لاعتقاد الهندوس بتناسخ الأرواح أن عبدوا الحيوان ، كالبقرة والعنزة ، على أساس أن روحاً قديمة تقمصته ، فعبده على أساس أنه جد حقيقى ، أو رمزى للأسرة ، وأنه معطيهم الخير بلا مقابل^(٢) .

وقد اتخذ المعامة منهم الأصنام. وجعلوها آلهة لهم^(٣) يتعبدون. لها ، ويتقربون إليها بالقرابين ، وهى عندهم تجسيد لشئ قوى وهام ، وكانوا يسمون الصنم باسم القوة الغائبة عنهم ، فصنعوا للشمس صنماً ، وللقمر آخر وللنار مثل ذلك وهكذا ...

وقد أقاموا فى بعض الأحيان بيوتاً للأصنام يطوفون حولها ، ويسجدون فيها ويبدوا أن هذه الأصنام هى من بقايا آلهة الهندوسية فى بدائيتها ، وقد بقيت عند العامة وفى عدد قليل من الشعب الهندى .

(١) أديان الهند الكبرى ص ٨٤ .

(٢) الله ص ٦١ .

(٣) الملل والنحل . للشهرستانى ج ١ ص ٢٦٧ وما بعدها .

المبحث الخامس

ملءمة الواقع العالمى

لظهور بالإسلام

بالنظر إلى أوضاع العالم قبيل مجئ الإسلام نلمس مدى حاجته إلى دين ينقذه من ضلاله ، وهوانه .

وقد تجلت رحمة الله تعالى بالناس فجاء الإسلام بدعوته ، وعمل عمله فى العقول والقلوب ، وأخذ فى صناعة العالم بمنهج الله تعالى .
وقد ظهرت. عوامل مشتركة فى أقاليم العالم المختلفة ، جعلته عالماً محتاجاً إلى التغيير ، والهداية ، وبينت ما فيه من عوامل تهيب الناس للإيمان بدعوة الإسلام التى أرادها الله للعالم كله
ويمكن إجمال أوضاع العالم التى جعلته ملائماً لدعوة الإسلام فى عدد من العوامل أهمها :

أولاً : شيوع الضلال الدينى

يرحم الله عباده .، وينزل. عليهم كتبه .، ويرسل فيهم رسله ليخرجهم من ظلمات الشرك والكفر ، إلى أنوار الحق والإيمان .
وجاءت الرسالات تترى ، فكلما احتاج الناس إلى الحق أتاهم رسول من قبل الله تعالى بالهداية والخير .

ودائماً تأتى الرسالة الإلهية فى إحدى الحالات التالية :

- ١ . أن. تكون. الرسالة السابقة خاصة بقوم. معينين .، وحينئذ يحتاج غيرهم إلى رسالة أخرى .

- ٢ . وإما أن يتطور أتباع الرسالة فكراً ، أو اجتماعياً ، مما يجعل الرسالة السابقة فيهم قاصرة بتعاليمها عن ملائمة التطور الجديد ، ويصيرون في حاجة لرسالة تناسبهم .
- ٣ . وإما أن تختفى معالم الرسالة السابقة ، أو أغلبها لطول الزمن ، مما يجعل أتباعها في حاجة لمن يعرفهم برسالة واضحة ، وحينئذ تأتيهم رسالة بينة واضحة .
- ٤ . وإما أن يقوم نفر من الناس بتحريف الرسالة الموجودة لغاية في أنفسهم ، وحينئذ يحتاج الناس إلى رسالة صحيحة خالية من التحريف .
- وللناس في كل الحالات المذكورة عذر في عدم الإتيان ، وترك ما عندهم من رسالة لأنها تكون قاصرة عن الحق ، لا تمثل هدى الله للناس .
- فدين إبراهيم عليه السلام قبيل ظهور الإسلام لم يبق منه إلا بعض رموز لا تمثل شيئاً من الحقيقة ، وقد رأينا كيف امتلأت الكعبة بالأصنام ، وكيف اخترع العرب ألوان الشرك ، وابتدعوا صوراً عديدة للعبادات ، وزعموا أن ذلك من دين إبراهيم عليه السلام .
- ورأينا أهل الكتاب وقد أدخلوا في دين عيسى عليه السلام ما ليس منه ، وحرفوه ، وبدلوه ، وشغلوا أنفسهم بالمجادلات ، والمحاورات حول الألوهية ، والمسيح ، ومريم بما لا يفيد .
- ورأينا ما كان عند الهند ، وفارس من ضلال ، وفساد جعلهم يعبدون النار ، والحيوان ، وكافة مظاهر الطبيعة المخلوقة .
- كل هذا يؤكد الضلال الديني في العالم كله ، ويبين حاجة الناس إلى دين ينقذهم من هذا الضياع الذي هم فيه .

وفى رواية سلمان. الفارسي عن قصة إسلامه دلالة واضحة على هذا الضلال الذى ساد العالم كله لأنه عايش المجوسية ، والنصرانية ، واليهودية فى هذا الزمان ، قبيل ظهور الإسلام .

يروى ابن عابس عن سلمان الفارسي أنه قال : كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان. ، من أهل قرية يقال لها : (جى). ، وكان. أبى دهقان. قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، فلم يزل به حبه إياى حتى حبسنى فى بيت كما تحبس الجارية ، واجتهدت فى المجوسية حتى كنت الذى يوقد قطن النار ، لا أتركها تخبو ساعة .

وكان لأبى ضيعة عظيمة شغل فى بنيان له يوماً فقال لى : يا بنى إنى قد شغلنى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى فاذهب فاطلع عليها ، ودبر شئونها ، وأمرنى فيها ببعض ما يريد .

ثم قال لى : لا تحتبس على ، ولا تغب عنى ، فإنك إن احتبست على كنت أهم من ضيعتى ، وشغلتنى عن كل شئ من أمرى .

فخرجت أريد ضيعة ، فمررت. بكنيسة من كنائس النصارى . فسمعت أصواتهم وهم يصلون ، وكنت لا أدرى سبب حبس أبى إياى فى بيته ، فلما مررت بهم ، وسمعت أصواتهم ، دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون ؟ فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ، ورغبت فى أمرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه ، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس ، وتركتم ضيعة أبى ولم آتها .

فقلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟

قالوا : بالشام .

ثم رجعت إلى أبى ، وقد بعث فى طلبى ، وقد شغلت عن عمله كله .

فلما جئته قال : أى بنى أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟

قلت : يا أبتى مررت بناس يصلون فى كنيسة لهم ، فأعجبنى ما رأيت من دينهم ، فو الله مازلت عندهم حتى غربت الشمس .

قال : أى بنى ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه .

قلت : كلا والله ، إنه لخير من ديننا .

فخافنى ، فجعل فى رجلي قيداً ، ثم حبسنى فى بيته .

وبعثت إلى النصارى وقلت لهم :: إذا قدم عليكم من الشام تجار من النصارى فأخبرونى بهم .

فأقبل عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبرونى .

فقلت : إذا قضوا حوائجهم ، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم ، فأذنونى بهم .

فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبرونى بهم ، فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام .

فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟

قالوا : الأسقف فى الكنيسة .

فجئته فقلت : إنى قد رغبت فى هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك أخدم كنيستك ، وأتعلم منك ، وأصلى معك .

قال : أدخل

فدخلت معه ، فكان رجل سوء ، يأمر بالصدقة ، ويرغبهم فيها فإذا جمعوا له منها شيئاً **اكتنزه** لنفسه ، ولم يعطه المسكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق ، و أنا **أبغضه** بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه .

فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ، ويرغبكم فيها ، فإذا جمعتم له منها أشياء جئتموه بها **اكتنزها** لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئاً .

قالوا : وما علمك بذلك ؟

(١٠٦)

قلت : أنا أدلكم علي كنزه .

قالو : فدلنا عليه .

فأريتهم موضعه فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً ، وورقاً .
فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبداً ، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ، ثم جاؤوا
برجل آخر فجعلوه بمكانه .

يقول سلمان : فما رأيت رجلاً يصلى أفضل منه ، ولا أزهد فى الدنيا ولا
أرغب فى الآخرة ، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه ، فأحبيته حباً لم أحبه من قبله ،
فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان ، إني كنت معك ،
وأحبيتك حباً لم أحبه أحداً من قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله فإلى من
توصي بي ؟ وما تأمرني ؟

قال : أى بنى ، والله ما أعلم أحداً اليوم علي ما كنت عليه ، لقد هلك
الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجل بالموصل ، وهو فلان ، فهو
علي ما كنت عليه ، فالحق به .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل ، فقلت له : إن فلاناً أوصاني
عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك علي مثل أمره .

فقال : أقم عندي ، فأقمت عنده ، فوجدته خير رجل ، ولم يلبث أن مات
فلما حضرته الوفاة ، قلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصانى إليك وقد أمرني
باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصي بي ؟

وما تأمرني ؟

قال : .: أى بنى .، والله ما أعلم رجلاً علي مثل ما كنا عليه إلا رجلاً
بنصيبين ، وهو فلان ، فالحق به .

قال : فلما مات وغيب ، لحقت بصاحب نصيبين ، فجئته فأخبرته خبري
، وما أمرني به صاحبي .

قال : أقم عندي ، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت

مع

خير رجل ، فو الله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت : يا فلان ، إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلي من توصى بي ؟ وما تأمرني ؟

قال : أي بني ، والله ما أعلم أحداً بقى على أمرنا آمرك أن تأتية إلا رجلاً بعمورية ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته ، فإنه على مثل أمرنا .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية ، فأخبرته خبري .

فقال : أقم عندي ، فأقمت مع رجل علي أمر أصحابه وهديهم ، واكتسبت حتى صارت لي بقيات وغنيمة .

قال : ثم نزل به أمر الله . ﷻ . فلما حضر ، قلت له : يا فلان ، إنى كنت مع فلان ، وأنه أوصى بي ؟ وما تأمرني ؟

قال : يا بني . والله . ما أعلم أحداً على ما كنا عليه من الناس ، آمرك أن تأتية ، ولكن قد أظلك زمان نبي ، هو مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مهاجرة إلى أرض بين حرتين ، بينهما نخل به علامات لا تخفي ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة . فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد ، فافعل^(١) .

(١) رواه أحمد في المسند . الفتح الرياني . باب المناقب . باب ما جاء في سلمان ج ٢٢ ص ٢٦١ ، وأخرجه الحاكم في مستدركه ، والطبراني في الكبير بنحوه ، يقول الهيثمي : رجال هذه الرواية رجال الصحيح ، وقد صرح محمد بن إسحاق بالسماع فانثقت تهمة التدليس ، وذكر البخاري في الصحيح أن قصة إسلام سلمان تناولها بضعة عشر سيداً .

ونلاحظ من القصة ما كان عليه الفرس ، والنصارى ، وما كان عليه الجميع من ضلال جعلت سلمان ؑ يترك موطنه ، ودين آبائه ، ويتنقل فى العديد من الأماكن باحثاً عن الدين الحق ، حتى وجده فى مبعث المصطفى ﷺ . ومن رحمة الله بالناس أن جاءهم بالإسلام فى وقت تلاقت فيه الأفهام ، ونضجت العقول ، وتشابهت فى التوجه والتفكير ، حتى صارت البشرية كياناً فكرياً واحداً فى مصاحبة دين الله الواحد ، الذى جاء مناسباً للناس أجمعين .

وقد ضمن الله دينه من المتعاليم ما يجعله صالحاً على المزمّن كله لا يقصر عن غاية للناس إلى يوم القيامة ، وحفظ الله دينه بثبوت الوحي الذى نزل به .، وحقق الأسباب الموجبة لهذا الحفظ . الأمر الذى يؤكد استمرار الإسلام بين الناس كما نزل من عند الله تعالى بلا تحريف ، أو غموض .

إن الحقيقة التطبيقية تؤكد كفاية الإسلام للناس ، وعدم حاجتهم لدين جديد ، وكل ما عليهم أن يعلموا دينهم ، ويعملوا بما جاء به .

ثانياً : هوان الإنسان

سيطر على العالم قبيل ظهور الإسلام وضع سئ ، ضيع حقوق الإنسان وحرمه من حريته ، وكرامته ، وسائر حقوقه .

ففى كل مجتمع وجد المعبود .، وللمنبوذون .، وللمضعفاء الذين يعيشون لخدمة السادة .، والرؤساء .، لدرجة أن الإنسان الضعيف كان يعد جزءاً من الأرض. يملكه غيره كما يملك الحيوان .، وللمتاع .، وللعقار ولانقسمت المجتمعات جميعاً إلى طبقات عديدة يتمتع خلالها فريق الطبقة العليا بكل شئ ويحرم الآخرون من أى شئ ، ولذلك انتشرت الأحقاد ، والكراهية بين أبناء الشعب الواحد .

ومن العجيب أن استغلال الإنسان لغيره ، واستعباده لغاياته ، وأمانيه لبس ثوباً دينياً .، فالطبقات العليا فى فارس. وللهند هى آلهة الناس .، وليس على

الطبقات الدنيا إلا السمع والطاعة ... وفي الدولة الرومانية بقسميها شغل القياصرة الناس بأمور جدلية حول طبيعة المسيح ، وأمه ، وحول الألوهية ، وصلة المسيح بالله ... ومع كل هذا الجدل كانت طبقة الكنيسة ، تملك كل شئ فهي ظل الله في الأرض. ، وعليها المحافظة على ما للمسيح من قداسة ، وتقدير .

وكان الولاة في كافة الأقاليم يرهقون الناس بدفع الضرائب ، وتحصيل الإتاوات. المختلفة بمسميات. كثيرة. ، ويجبرونهم على ذلك. ، وإن كان. فيما يدفعونه معاشهم ، وحياتهم ، وحيات أبنائهم ... وهكذا عاش إنسان هذا الزمان مقهوراً ، مظلوماً ، مستعبداً باسم دين العلية الحاكمة .

وقد تذكر بعض الصور الأخلاقية الكريمة هنا ، أو هناك ، إلا إنها لا تدل على طبيعة العلاقات الاجتماعية بصورة عامة ، لأنها صور نادرة وجدت في حياة الرؤساء والقادة ، والطبقات العليا ، ولم ير العامة منها شيئاً .

وهذا الوضع يفسر سر مسارعة الضعفاء إلى اعتناق الإسلام ، والدخول في دين الله تعالى ، لما رأوا فيه من عقيدة كاملة ، ترضى العقل ، وتشبع النفس ، وتحقق للجميع الحرية ، والمساواة ، في إطار الأخوة الدينية التي تؤكد على أن الناس سواسية لا يفضل أحدهم أخاه إلا بالتقوى ، وجزاء الجميع عند الله تعالى .

ثالثاً : سهولة التواصل

لم تستمر البشرية على بداوتها الأولى ، ولكنها تقدمت تقدماً هائلاً في المدنية ، والتحضر المادى .

وقد برز ذلك بوضوح في اكتشاف طرق الاتصال العديدة ، التي ربطت العالم كله . ، وأصبح المتجار. يرحلون. ببضائعهم إلى كل مكان. في المعمورة ، ويركبون البحر على اتساعه وعمقه ، وصار شرق أفريقيا ، وبلاد الحبشة ،

مرتبطاً باليمن والجزيرة العربية ، وتمكن تجار مكة من الرحلة بقوافلهم شرقاً وغرباً ، وشمالاً ، وجنوباً فى يسر وأمان .

ولم تعد المحيطات حاجزاً يمنع من التنقل ، وإنما ساهمت المصناعات العديدة فى تحقيق التواصل ، وسهولة الانتقال من مكان إلى مكان .

صحيح أن التواصل لم يكن سلاماً كله ، فلقد نشأت الحروب ، وسيطر الأقوياء على الضعفاء ، وتحولت البلاد الصغيرة إلى ولايات تابعة للفرس أو للروم ، تستغل خيرها ، وتسخر أصحابها لخدمتهم ، ومصالحهم .

وكثيراً ما انتقلت العادات ، والأفكار ، والمذاهب مع هؤلاء المسافرين .

وقد حاول القسس ، والأباطرة ، الاستفادة بهذه التطورات المدنية فعدوا المؤتمرات ، والمجامع العالمية ، التى كان يحضرها الآلاف منهم ، فى كنائس مصر ، أو فى بيت المقدس ، أو فى الشام ، أو فى أوربا ، بسهولة وأمان .

وهاجر المسلمون إلى الحبشة وكأنها بلد مجاور لمكة ...

وظهر فى كل إقليم من يتقن المعرفة بالطرق ، وقيادة القوافل فى الرحلة والحركة .

ولما جاء الإسلام ساهمت هذه الخاصية فى نشر الدعوة وتبليغها للناس فى كل مكان ، حيث تمكن الدعاة من الوصول إلى كل مكان ، قصدوا التبليغ فيه . لأن الطريق معروف لهم . ومخاطبة أهل البلاد أمر عادى لسابق أحاطتهم بلغتهم وعاداتهم .

وقد ساعد هذا التواصل على سرعة انتقال الأفكار ، والأخبار ، ولذلك كان كل فريق يعرف أخبار الآخرين ، وكانت العقائد ، والأديان ، والمذاهب الخاصة بجماعة ما معلومة لغيرهم من الناس .

فلما بعث محمد ﷺ انتشر خبره فى الجزيرة العربية ، وفى العالم كله ، ولذلك جاءت الوفود إلى مكة لاكتشاف أخبار الدعوة الجديدة ، فلما رأوا موقف

أهل مكة انتظروا نتائج صراعهم مع الدعوة ، فلما فتحت مكة دخلت الجزيرة كلها فى دين الله تعالى ...

رابعاً : تعدد الصراع

ساد العالم فى هذا الزمان صراع عام ، فلم تخل أمة ، أو منطقة منه ، سواء كان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة ، أو بينها وبين غيرها ، وأهم ما تميز به هذا العصر هو تكرار الصراع تكراراً متلاحقاً فمنهزم اليوم ينتصر غداً ، وهكذا دواليك من غير توقف ، وغالباً ما كان الصراع بسبب سياسى ، أو اقتصادى ، أو دينى ، تبعاً لاختلاف البيئات . ففى البيئة العربية لم ينشأ صراع بسبب السلطة خاصة بعد أن وزع (قصي) الأعمال بين القبائل وجعلها فيهم وراثية ، وإنما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد فى أكثر الأحيان .

وفى البيئة الرومانية كان سبب الصراع ينحصر فى الدين والسياسة .

وفى الفرس والحبشة كان السبب فى الدين .

وفى الهند كان السبب فى نظام الطبقات المعروف فيهم .

وقد ساد الصراع الداخلى سائر الأمم .

ففى الدولة الرومانية الشرقية قامت ثورات. عدة أشهرها ثورة المزرقي والمخضر أثناء حكم جستنيان. سنة ٣٢٢م. التى طالبت بإقصاء وزير المالية وإجراء تعديلات كثيرة ، وقد قضى جستنيان على هذه الثورة بإراقة دماء كثيرة وصلت إلى قتل خمسة وثلاثين ألفاً من الناس^(١) .

وفى الرومانية الغربية نشأت دولة جرمانية ، وقامت ثورات عدة ، وحروب. كثيرة من أشهرها فى بلاد. المغال. (فرنسا). حيث ظهر الصراع بين كلوفسى ، وسيجاريوس ، والثورنجيين ، والبرجنديين ، واللأليمان^(٢) ، وكان هناك

(١) الإمبراطورية البيزنطية ص ٦٠ . ٦٣ .

(٢) المسلمون والجرمان ص ٣٧ .

صراع فى إيطاليا^(١) وآخر كان بين البربر فى شمال أفريقيا^(٢) .
وبين العرب كانت أيامهم كىوم داحس الذى استعمر مدة طويلة ، وكذلك
حرب حاطب ، ويوم بعث بين الأوس والخزرج ، وقد استمرت هذه الحروب إلى
قبيل الإسلام .

وفى فارس كان الصراع شديداً بين أفراد البيت الواحد ، بين الأب وبين
الابن ، ومما ساعد على ازدهار الصراع بين الفرس ظهور مذهب (مانى) القائم
على الشيوعية المطلقة فى المال والمرأة .

ومع الصراع الأقليمى وجد الصراع الدولى بين الفرس والروم ، إذ كانت
الحرب مستعرة بينهما على الدوام فى أطراف الجزيرة العربية جنوباً فى اليمن ،
وشمالاً بين الغساسنة والمناذرة .

إن الصراع بكافة أشكاله وصوره يؤدى حتماً إلى تغيرات اجتماعية ، سواء
كانت هذه التغيرات متجهة إلى التقدم ، أو إلى التأخر ، وقد سلم علماء
الاجتماع بضرورة هذه التغيرات^(٣) ، إلا أنها تتجه عندهم فى النهاية إلى
التطور والتقدم ، يقول إيمانول كانت : " إن القوة التى تدفع التاريخ إلى التطور
هى الصراع " ، وهيجل يرى أن التعارض هو أهم مؤثر فى العلاقات الإنسانية
، وأن حركة التطور الاجتماعى ما هى إلا النماء المستمر للأضداد ثم اندماجها
فى النهاية لإيجاد مرحلة من التطور^(٤) .

ومن التغيرات التى يمكن أن تحدث بعد أى صراع ظهور قوى جديدة
وبروز أفراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة ، كما أن التفتح الذهنى يجعل
المتصارعين لا يتعصبون لشيء معين ، ويبحثون عن أية قيمة إنسانية تخلصهم

(١) نفس المرجع ص ٣٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٥ .

(٣) أصول علم الاجتماع ص ٢٢٠ .

(٤) أصول علم الاجتماع ص ٨٥ .

من هذا الصراع ، كما أن الطبقة المستضعفة تتمنى الخلاص والهروب مما هي فيه .

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من كل هذا ، لأن القوى الجديدة التي ظهرت كانت ركيزة لانطلاق الدعوة ونشرها ، وكان أتباع الدعوة الأول من هذه الفئات الجديدة التي لا تتعصب لمواريث قديمة .

وأيضاً فإن الانفتاح الذهني ، وذوبان التعصب الأعمى ، يفيدان الدعوة في كثير ، فبالذهن الصافي تفهم التعاليم والأفكار ، وذوبان التعصب تتخلص الدعوة من عدو بغيض يقف في طريقها .

إن فكرة البحث عن قيمة راقية ، وخلاص للضعفاء ، وجدت في الدعوة الإسلامية بغيتها ، فكان الضعفاء هم أتباع الدعوة في العرب ، وفي كل مكان لأنهم بها يتخلصون من مهانة الرق ، وذل الطبقية ، وضعة المبوزين ، وبها كذلك لا يتجهون بالتعظيم والتقديس إلى شخص ما ، لا ينالهم منه سوى الظلم والجبروت ، والتعالى ، وإنما يتجهون إلى الله الخالق ، صاحب النعم كلها ، الذى يملك الخلق كله ، ويحيط به علماً ، وإرادة ، وقدرة ، ويوزع رحمته على جميع الناس ، ويأمر فى الدعوة بالقيم الراقية ، والسلوك الممتاز ، ويحث على إقامة أخوة صادقة ، ومساواة حقيقية ، وعدل فى الكسب والعمل .

إن وضعية الضعفاء تتفق لأول وهلة مع روح الدعوة الإسلامية ومبادئها ، والمتصارعون يجدون بغيتهم فيها ، لأنها تهدم سبب صراعهم ، وتؤاخى بينهم بالحسنى ، وتعودهم على الألفة والخير .

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ما سبقها بالشمول ، والعمق ، حيث انتشرت. فى العالم كله . وبشكل مستمر . ومتجدد . كما أنها لامست سائر حياة الناس ، وعاشت فى نفوسهم وأحلامهم ، ولذلك كانت نهايتها أمنية صادقة على مستوى هذا الشمول ، وهذا العمق ، فلما جاءت الدعوة الإسلامية

هادفة إلى تغيير جذرى فى المجتمع ، وإزالة الصراع والآلام من حياة الناس وتحرير العبيد ، وللمنبوذين ، ولأجراء. من وضعهم البائس ، ووضعهم فى الإطار. النظيف الذى وضعته للناس. أجمعين بما فيه من كرامة ، وحرية ، ومساواة ، لما جاءت هكذا آمن بها الجميع ، وانتشرت بسرعة عجيبة قوية .

خامساً : النضج الفكرى

شاهد القرن السادس الميلادى تطوراً عقلياً فى كل أرجاء المعمورة بشكل لم يعهده الناس من قبل ، حتى كأن البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية إلى مرحلة بلغ فيها الإنسان أشده ، كما يقول الشيخ/ محمد عبده^(١) ولعل المراد من النضج العقلى المذكور هو وصول الإنسان إلى التفكير الكلى ، المنظم ، الذى يستنتج من المحسوس ، ومن القضايا العقلية أشياء أخرى غيرها ، وينظر للحياة نظرة فيها الرضى القائم على التحليل ، والنقد ، أو السخط المعتمد على الدليل والمناقشة ، ويحاول دائماً السمو إلى العلا والتقدم .

إن طفولة الإنسان كانت تقوم على المحسوس فقط ، تتبهر بالعجائب ، وتندesh بالظواهر الخارقة كعهدها مع الرسالات السابقة ، لأن الخوارق إليهم كانت حسية ، وكانوا يؤمنون بعدها خائفين ومندهشين ، كما حدث لما أحيا المسيح شاباً فى مدينة (نايين) فقد أخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين : " قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه " ^(٢) .

ولقد كان عصر الدعوة الإسلامية يوافقه عصر نضج عقلى واضح ، ساد العالم كله ، وقد تجلى هذا الواقع فى نقد ظهر فى كل مكان ، متجهاً إلى العقيدة الدينية ، ولؤهامها ، ولم يجد العلماء مشقة عند الخوض. فيما كان

(١) رسالة التوحيد ص ١٥٥ .

(٢) إنجيل لوقا - الإصحاح السابع . فقرات ١٤ - ١٦ .

ممنوعاً من قبل باسم الحق المقدس لرجال الدين ، وعقائدهم على اختلاف أممهم وأديانهم .

ففى العالم المسيحى الواسع بدأت الأصوات ترتفع ضد أوضاع لا تتفق مع الطبيعة العقلية ، من أمثال المناداة بألوهية المسيح ، وتركبه من طبيعتين مع إصرار هذه الأصوات على مذهب الفطرة القائل ببشرية المسيح ، وتكونه من طبيعة إنسانية واحدة ، وقد اختاره الله ليكون رسولاً نبياً ، من قبل الإله الواحد ، وأحاطه بالخوارق التى لا توجد مع الناس دفعاً إلى تصديقه فى دعواه ، وما دفعهم إلى هذا رأى إلا عقلهم الذى أبى التصديق بما هو وهم وخيال ، ولأن تصور أصحاب مذهب الطبيعتين تصور ينهار أمام النظرة الفاحصة . وقد حدثت لهذه المعارضات أحداث خطيرة فى كل العالم المسيحى انعقدت لها مجامع عدة على النحو الذى سبق ذكره .

ولم يكن المنادون بمذهب التوحيد عدداً قليلاً .

يقول ابن المطرئق : " إن الذنب ليس على (أريوس) ، وهو رأس المنادين بالتوحيد . بل على فئات أخرى سبقته فأخذ هو عنها ، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان تأثير (أريوس) الذى جعل الكثيرين ينكرون ألوهية المسيح ، حتى انتشر هذا رأى وعم " (١) ، وهذا يدل على نضج عقلى وجد بين المسيحيين ، جعلهم يحاولون إصلاح معتقداتهم .

ومن الملاحظ أن المسيحيين الذين عارضوا الإصلاح احتموا أيضاً بعقلهم ، وحاولوا التدليل على صدق معتقدتهم بأدلة جدلية فى صورة تشبيه عقلى ، وهذه إن دلت فإنها تدل على تقدم ذهنى ، وفهم إدراكى ، فيه نوع من التجريد ، والعقل ، يقول الشهرستانى . عنهم : " ولهم فى كيفية الاتحاد والتجسد كلام ،

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٢٣ .

فمنهم من قال : أشرق على الجسد إشراق النور على الجسم المشف ،
ومنهم من قال انطبع فيه انطباع النقش فى الشمع ، ومنهم من قال : ظهر
به ظهور الروحانى بالجسمانى ، ومنهم من قال : تدرع اللاهوت بالناسوت ،
ومنهم من قال : مازجت الكلمة جسد المسيح مازجة اللبن الماء ، والماء
اللبن ^(١) .

فهذه الأدلة مع ما فيها ، تدل على تقدم فكرى معين ، ويكفى أنها من
أنصار. المتعصب المسيحى الذين آمنوا. بالوهية المسيح .، وحاولوا. جعل هذه
الألوهية فكرة مستساغة أمام العقل ، فأتوا بهذه التشبيهات ليقربوا فكرة اتحاد
الألوهية مع الإنسانية .

ولو تركنا عالم المسيحية إلى غيرهم لوجدنا أن الهنود فد أيدوا ثورة (بوذا)
على الهندوكية فى بعض تعاليمها .، ومحاولتها تبسيط العقائد .، وللاهتمام
بالأخلاق والعودة إلى الفطرة ، كما إن الهنود قبيل مجئ الدعوة الإسلامية كانوا
يتجهون لواحد من الآلهة ، ويخصونة باسم (رب الأرباب) و(إله الآلهة) ^(٢) .
وهذا نوع من التوحيد لم يعهده الهنود من قبل ، فلقد كانوا دائماً يعددون الآلهة ،
ويقصدون كثيراً من مظاهر الطبيعة ، بلا التقاف إلى حقيقتها ، أوفهم لمعنى
عبادتهم لها ، إلا أنهم فى هذا العصر بسبب النضوج تمكنوا من تخطى الردة
العقلية ، والقرب من توحيد الآلهة .

وفى الجزيرة العربية على الرغم من تعمق المقوم فى تقديس الأصنام .،
وتعظيم الحجر .، فإن. المنضج الذى اتسم به العصر بدأ. يظهر فى العرب. ،
فاتجهوا بعقولهم إلى حياتهم ينظرون فيها ، ويضعون لها نظاماً يكفل الأمن
والسلام ، ويقلل الصراع والشرور ، ولذلك نظموا نشاطهم خلال السنة فأحاطوا

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠١ .

(٢) ملامح الهند والباكستان ص ١٤٣ .

بفصولها ، ونظموا التجارة وفق هذه الفصول ، وأقاموا أسواقاً تدور مع أيام السنة ، وفي جميع أماكن الجزيرة ، وحتى يحققوا أكبر فائدة من هذه الأسواق جعلوها مكاناً للكسب المادي . وتقوية للشعور القومي . وللتسابق الملغوى والأدبي ، وكأنها مؤتمرات تمهد لوحدة مقبلة .

وظهرت دقة تنظيم هذه الأسواق في اختيار الأمانة والأمانة . فعن الأمانة وزعوها في ملتقى جميع أنحاء الجزيرة . وعن الأمانة جعلوها في الأشهر الحرم ، وبهذه الدقة ضمنوا لأنفسهم الحكمة الأمانة ، والقول الجري ، وللنقد الحر . وكل هذه أسباب تجعل العقل ينمو باطراد . وخصوصاً الأسواق بشهر ذي القعدة وذى الحجة إذ جعلوا سوق (عكاظ) في أول شهر ذي القعدة ، و (المجنة) في آخره ، و (ذى المجاز) و (عرفة) في شهر ذي الحجة^(١) ربطاً للعالم بالدين ، إذ يقدم الحجاج في هذا الوقت من كل صوب قاصدين مكة ، والمكعبة ، فيعيشون هذه الأسواق ، ويكتسبون مع شعورهم الديني والقومي بعض معاشهم .

ولعل أوضح مظاهر النضج العقلي عند العرب ظاهرة الحنفاء ، الذين أخذوا يحللون بعمق وفهم فساد ما عليه الناس ، ويبينون الحاجة إلى دين يعرف بالخالق . ويكتشفون الطريق إليه . مدللين على اتجاههم بما وقعت عليه حواسهم من مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لن تغور ، وليل داج ، ونهار ساج ، وقد وصلت هذه الجماعة برجاجة عقلها إلى بعض شريعة إبراهيم عليه السلام .

وفي الحق لقد وصل النضج الفكري إلى مستوى ممتاز ، ناسب ظهور الدعوة الخاتمة بمعجزتها التي جعلها الله تعالى في قرآنه الكريم ، الذي نزل

(١) أخبار مكة ج ١ ص ١٢١ ، ١٢٢ بتصرف .

للناس ، يؤمن بالكلمة ، ويخاطب العقول ، ويهتم بالمعاني والأفكار ، وينقل الإنسان من عالم المحس إلى عالم الغيب ، ولإيمان به ، مع اشتماله على وسائل تتعدد أمام الفكر ، تؤكد وتجادل ، وتقرب وتيسر ، قاصدة الإقناع العقلي ، واليقين النفسى ، والثبات مع الروح والوجدان ، أكثر من ثباتها مع الانفعالات والأحاسيس .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : " إن الله جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم ، والعقل فى ثبوتها ، وفى موضوعها ، لأن البشر قد بدأوا يدخلون بها فى سن الرشد والاستقلال النوعى ، الذى لا يخضع عقل صاحبه فيه لإتباع من تصدر منهم أمور مخالفة للنظام الكونى ، وإنما جعل الله تعالى حجة نبيه كتابه المعجز للبشر ، بهدايته ، وعلومه ، وبإعجازه اللفظى والمعنوى ، ليربى البشر على المترقى فى هذا الاستقلال . إلى ما هم مستعدون . له من الكمال^(١) .

وقد جعل الله معجزة الإسلام هكذا . لتتلاءم مع طبيعة البشر العقلية ، ودائماً يجعل الله المعجزة من جنس ما تفوق فيه البشر الذين تأتيتهم هذه المعجزة ، حتى يتمكنوا من تبيان صدق الرسول فى دعواه ، وينظروا إلى ما جاءهم به ، ويعلموا أنه وحى من الله ، ودليلهم المعجزة التى يعرفونها يقيناً ، حيث تفوقوا فى جنسها ، ونوعها كما ظهرت لهم .

إن معجزة موسى عليه السلام فى قوم اشتهروا بالسحر كانت قلب العصا ثعباناً وإخراج اليد بيضاء من تحت الجناح ، ومعجزة عيسى عليه السلام إلى قوم اشتهروا بالطب هى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، فكان لازماً أن تأتى معجزة

(١) الوحي المحمدى ص ٦١ .

الإسلام على هذه السنة ، ما دام العالم كله على وجه العموم فى موجة رشيدة من النضج الفكرى .

وكان. العرب. على الخصوص. أكثر اهتماماً بصناعة اللسان. ، وعلوم البلاغة والفصاحة^(١) . ولذا كانت المعجزة هى القرآن الكريم مناسبة لهذا النضج ، ومراعاة للبلاغة والفصاحة ، ليؤمن العرب. سراعاً بها ، وينطلقوا حاملين الدعوة إلى كل العالم مقدرين نضجه الذى ساعد على أن تكون الرسالة عامة وخاتمة .

ومع ما فى القرآن الكريم من إعجاز لغوى ناسب العرب الذى نزل بلغتهم فإنه يشتمل على وجوه عدة للإعجاز تتناسب كافة الأمم لأن الرسول بعث للعالم كله ، ففى القرآن من وجوه الإعجاز الكثير منها :

- . الإعجاز. التاريخى بما فيه من بيان. لتاريخ السابقين وآثارهم ، وملهم ، ونحلهم ليناسب أهل الحضارات ، المهتمين بالتاريخ .
- . الإعجاز العلمى ، مثل إيراد بعض الإشارات عن الحديد ، وألوان الصناعات .
- . الإعجاز الفلكى ، مثل الحديث عن الشمس والقمر والليل والنهار .
- . الإعجاز البيئى ، مثل الحديث عن الزراعة ، والحيوان ، والنهر والبحر .
- . الإعجاز الطبى مثل المرض والشفاء والدواء .
- . الإعجاز النفسى والاجتماعى وهو فى القرآن الكريم نظام وتشريع .
- . الإعجاز بالغيب الذى وقع ، أو الذى سيقع بعد نزول القرآن الكريم .

(١) توضيح العقائد ص ١٧٢ .

سادساً : انتظار رسول جديد

كان للنضج الذى ساد العالم ، وكثرة الصراع ، وتنوعه ، وسهولة الاتصال ، وتلاقى الأفكار قبيل مجئ الدعوة الإسلامية أن ظهرت موجة من النقد للعقائد يومذاك .

إن النقد على العموم ظاهرة تدل على عدم اكتمال الثقة فى العقائد التى يتوجه النقد إليها ، ومن هنا صاحب عملية النقد شعور بقرب ظهور نبي من العرب يصلح فساد هذا العالم . ويضع الحقيقة الفاصلة فى مسألة العقيدة ، والسلوك ، وكل ما يعتقده الناس فى الأصنام ، ويطلبونه منها .

وقد وصل هذا الشعور إلى حد الاحتمال المؤكد لدرجة أن اليهود فى المدينة (يثرب) كانوا ينتظرون هذا النبي على وجه اليقين ، وكثيراً ما ذكروا لجيرانهم من الأوس والخزرج أنهم سيتبعون هذا النبي ﷺ فور ظهوره ليتمكنوا به من سيادة العالم وتملك الناس ، وقتل الأوس والخزرج قتل عاد وإرم ، والقرآن الكريم يقص ما كان منهم فى هذا الشأن بقوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

فهم كانوا يعرفون مبعث النبي ﷺ ويعلمون أن زمانه قد حان . فعن محمد بن إسحاق عن عاصم بن قتادة عن أشياخه أن اليهود فى المدينة كانت تقول للأوس والخزرج : " قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم " (٢) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٨٩ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٩٦ .

يقول ابن عباس : " إن اليهود فى المدينة كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه " (١) .

ورأى اليهود له قيمته عند جيرانهم قبل البعثة ، لأنه قد اشتهر عنهم معرفتهم ببعض أسرار الوحي ، وعلاماته ، فلقد رووا أن مشركى مكة لما بعث محمد ﷺ فيهم أرسلوا وفداً منهم ، يسأل اليهود عن رأيهم فى هذا الرسول الذى أتاهم ، ودعاهم بدعوته ، وكان الوفد مكوناً من النصر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط (٢) ، ولم تكن هذه المعرفة خاصة بيهود المدينة وحدهم ، فلقد انتشر خبرها فى أماكن كثيرة ، وصلت إلى أقصى الشمال ، لدرجة أن سلمان الفارسى حينما أراد أن يترك المجوسية ، ويبحث عن الدين الحق ، قال له كاهن عمورية : " إنه قد أظلم زمان نبي ، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب ، مهاجرة إلى أرض بين حرتين ، بينهما نخل ، وبه علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة (٣) ، وليس ذلك بكثير على علماء اليهود والنصارى لأنهم كما قال الله تعالى ﴿ سَيَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ (٤) .

جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآية أن صفة النبي محمد ﷺ وجدت فى التوراة والإنجيل ، ولم تنزل صفاته موجودة يعرفها العلماء والأخبار (٥) من أهل الكتاب .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢١٣ هامش فتح البيان .

(٢) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ٣٢٠ .

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٢٣٧ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

(٥) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٤٨ هامش فتح البيان .

وكما وصل خبر ظهور نبي إلى أقصى الشمال وصل كذلك إلى أقصى الجنوب ، فلقد روى الازرقى أنه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير أفضى سيف بن ذى يزن لعبد المطلب بما علمه من كتبه ، من أن نبياً سوف يظهر في العرب يضمن الزعامة لقريش إلى يوم القيامة^(١) .

وهكذا ظهرت ملامح النبوة المحمدية في عقول الناس ، وفي كثير من الأماكن .

وهذه الملامح في حد ذاتها تمهد للدعوة ، وتدعو إلى استماعها بشوق خاصة وقد وقعت أحداث كثيرة ، جعلت الناس يرجون التغيير على يد هذا الرسول المنتظر ، الذي كاد أن يلمس في طفولته ، لوضوح صفته في الكتب السابقة ، بل إن بحيرى الراهب عرفه وهو صغير .

يروى ابن هشام قاصداً ما حدث من بحيرى فيذكر أنه أعد طعاماً لقافلة قريش ، وفيها أبو طالب ، ومحمد (وهو صغير) ودعاهم فحضرُوا جميعاً إلا محمداً ، لصغر سنه ، لكن بحيرى أصر على حضوره ، فلما حضر أخذ يسأله عن أشياء كثيرة ، وأخيراً قال لعمه أبا طالب : ارجع بابن أخيك إلى بلده ، وأخذر عليه يهود فو الله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبيغنه شراً فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده^(٢) .

ولا غرابة في تحديد بحيرى للنبي ﷺ في طفولته لأنه ممن يعرف صفته الموجودة في التوراة والإنجيل .

إن عديداً من الرهبان في أديرتهم ، والقسس في كنائسهم كانوا يدركون هذه الحقيقة ، ويتحدثون بها لمن يمر بهم ، وفي مكة نفسها كان كعب بن لؤى

(١) أخبار مكة ج ١ ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) سيرة النبي ج ١ ص ١٩٤ . ١٩٦ . بتصرف .

بن غالب يذكر بالنبوة ، ويبشر بها أهل مكة ويقول لهم : " زينوا حرمكم وعظموه فسيأتى له نبأ عظيم وسيخرج منه نبي كريم " (١) .

إن تجمع انتظار رسول جديد ، واشتداد موجة النقد السائدة ضد العقائد والمذاهب على يد الحنفاء ، وأتباع أريوس ورجال البوذية ، ووجود الصراع والتنافس ، وسرعة الحركة والاتصال ، أدى فائدة عظمت للدعوة الإسلامية ساعدت على انتشارها .

وما لاحظناه من معارضات للدعوة بعد ظهورها فمنشأه التعصب ، ومحاولة المحافظة على القديم الموروث ، وبقايا صراعات قبلية قديمة ، كما حدث من الأمويين فإنهم تأخروا عن الدخول فى الإسلام بسبب كون النبی من بنى هاشم ، لدرجة أن أبا سفيان الأموى حمل المعارضة للنبي فى مكة بلا سبب غير التنافس بين الهاشميين والأمويين .

وكانت أم جميلة بنت حرب زوجة أبى لهب تحمل الحطب ، وتضعه أمام بيت النبي ﷺ وفى طريقه ، وكانت تقول عنه ﷺ :

مذمماً عصبنا .

ومره أبينا .

ودينه قلينا (٢) .

كانت مدفوعة إلى ذلك بسبب كونها أختاً لأبى سفيان الأموى (٣) فدفعها التعصب إلى هذه الحملة على رسول الله ﷺ

وما المانع إذاً أن يكون موقف زوجها أبى لهب عم النبي ﷺ من تأثيرها فيه ؟

(١) بلوغ الارب ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) سيرة النبي ج ١ ص ٣٧٩ .

(٣) تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٩١ .

(١٢٤)

وكذلك فإن أصحاب المصلحة والمستغلين في مكة عارضوا الدعوة حفاظاً على وضعهم .

ولكن ...

وهل تجدى الحيل الإنسانية أمام الإرادة الإلهية التي قدرت ظهور الدعوة ، واختارت لها هذا الزمان الذي تميز بالصراع ، والنضج ، وانتظار الرسالة ، لكي تنتشر ، وتظهر على الأديان كلها بقوة الله ، وعلى سنن البشر !!؟
وهل تمحو الحيل الشيطانية من واقع الحياة ، وأفكار الناس ما قدره الله في كافة الشئون ، والأحوال ، والأعمال !!؟؟

إن قدر الله غالب ، وقضاء نافذ ، والمكون كله حيث إرادته سبحانه وتعالى ، وقد شاعت أن تجيء الدعوة إلى الله تعالى في هذا الزمان بما فيه من خصائص وصفات .

المبحث السادس

ركائز الدعوة من دراسة الواقع

جاء الإسلام في عالم مضطرب ، تتنازعه الأمم ، وتتصارع خلاله الأديان ، فشق طريقه إلى عقول الجميع ، وأخذ المسلمون يدعون إلى دينهم بالحسنى ، حتى آمن الناس أفواجاً بدين الله تعالى .
ومن هنا نستفيد الركائز التالية :

الركيزة الأولى

ضرورة فهم الواقع

الإنسان دائماً ابن بيئته ، يتأثر بها ، ويعيش في إطارها ، ويتجاوب مع من يتفهم الواقع ، وينطلق من خلاله .
وقد اعتمد المربون ، وعلماء الإصلاح الاجتماعي على فهم الواقع العملي لمن يتوجهون إليهم ، لما ينتجه هذا من التألف العقلي ، والتلاقى في المراج ، والعواطف .
إن الاتباط بالواقع يسهل الفهم ، ويبسر الحوار ، ويؤدي إلى الاقتناع العقلي السديد .

والدعوة بالإسلام جاءت للنهوض بالواقع الإنساني ، والترقى به إلى نور الإسلام ، وحيوية الحق والصواب ... وذلك يحتاج إلى فهم الواقع كما هو ، فهو المنطلق الذي يخاطبه الدعاة ، ومهمتهم العمل على إصلاحه وهدايته ...
وقد لا حظنا القرآن المكي يعرف الرسول بأخلاق ، وأديان ، ومجتمع الناس الذين سيتوجه إليهم بالدعوة ، ليصحح خطأهم ، وينمي صوابهم ، ويأخذهم إلى

الحق بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وإذا ما تحرك المصلحون فى واقع معلوم لهم فإنهم يلمسون حاجته ، ويجيدون وضع المنهج الأمثل للدعوة والإرشاد ، فى توجيهه وإرشاده . شأنهم شأن الطبيب يجيد وصف الدواء المطلوب إذا علم المرض الموجود .

ومن هنا

نقول للدعاة : " اعلّموا المجال الذى تتحركون فيه ، وقدرّوا نفوس من تدعونهم ، وتبينوا مذاهب ، وأديان ، وظواهر من تتوجهون إليهم ، وبعد هذا اختاروا المدخل الملائم لهم ، واعلموا أن كل نفر بما لديهم فرحون ، فلا تبدأوهم بالمعارضة والهدم ، وناقشوهم بهدوء ، وانقدوا ما لديهم بالتعريض أو بالإشارة ، أو بالمقارنة ، وحدثوهم عن غيرهم من السابقين ، أو المعارضين ، مع التركيز على الأخطاء المشتركة عسى أن يستفيدوا من أخطاء غيرهم ، واعرضوا لهم أحداث التاريخ ليحتسروا ويتذكروا " .

إن الدعاة الجاهلين للواقع الذى يدعون فيه أشبه بالعميان السائرين فى البیداء لا يحققون شيئاً ، ولا يصلون لغاية .

لهذا كان من الضرورى أن يعرف الدعاة الواقع الدينى ، والاجتماعى ، والأخلاقى ، والمهنى لمن يتجهون لهم بالدعوة إلى الإسلام .

الركيزة الثانية

تقديم القضايا المناسبة للواقع

قضايا الدعوة عديدة ، واختيار المناسب منها للواقع ضرورة لازمة ، وقد رأينا قصص القرآن الكريم يعرف النبي ﷺ والمسلمين معه بواقع الأمم السابقة ، ويبين القضية التي اهتم بها كل رسول من السابقين ، ويبرز المنهج والأسلوب الذي أتخذه الرسول ﷺ لتبليغ دعوة الله للناس .

إن قضية الاعتقاد هي التي أخطأت فيها الأمم كلها ، ولذلك بدأ كل رسول بإصلاحها كل بطريقته ومنهجه وبعدها اختلف الأنبياء ، فأخذ كل نبي يهتم بمعالجة قضية موجودة فيمن يدعونهم .

قد يجد الدعاة مجتمعهم مسلماً ، فعليه تذكيره لتبقى العقيدة حية نابضة وقد يجدون عيوباً اجتماعية ، أو أخلاقية ، أو سلوكية وعليهم أن يحللوها عناصرها ، ويعرفوا أسبابها ، ويقفوا على مدى انتشارها ليضعوا خطة مقاومة العيب الذي يرون البدء به ، في إطار حكمه الدعوة ، وخلق الدعاة .

إن قضايا المجتمع الغنى تختلف عن قضايا المجتمع الفقير ، والمتقنون لهم حياة تختلف عن العامة ، وأصحاب المهن والأعمال يعيشون واقعهم وظروفهم والجنود ، والفلاحون ، والمدرسون ... ألخ ... كل يعيش واقعه ، وقضاياه ... ولذلك كانت ضرورة اختيار الموضوع الملائم المناسب للتوجيه والإرشاد .

ويا ليت الدعاة يحددون موضوعهم ، ويدرسون طرق تناوله ، ويرتبون أفكارهم ، ويستعدون لمواجهة من سيتعاملون معهم ، وذلك بالدراسة النظرية والميدانية ، لأن ذلك أجدى نفعاً ، وأسرع في البلاغ .

ومن هنا

وجب أن يختار الدعاة قضاياهم التي يريدون علاجها من واقع المجتمع

الذى يعيشون فيه ، حتى لا يذهب قولهم هباء ، وتطير دعوتهم مع الريح .
ولعل تقصير دعاة العصر فى التفاعل مع قضايا الناس هو الذى أفقدهم
قوة التأثير ، وأبعدهم عن تحقيق النجاح المطلوب .
إن الإنسان يفعل مع من يحدثه عن نفسه ، ويتجاوب مع من يعيش
واقعه .

كتبت صحيفة أوربية عدة مقالات عن عدد من الدول ، وباستقرائها لأثر
الكتابة وجدت أن أهل كل دولة يهتمون بما كتب عن بلدهم ، ويمهلون فى نفس
الوقت الكتابات الأخرى ، فوصلت إلى نتيجة أن الإنسان يهتم بمن يهتم به ،
وبقضاياها .

يجب أن يعيش الدعاة الواقع ، ويعملوا فى حياة الناس ، ويقدموا الحلول
الإسلامية لقضايا المدعويين .

إن عرض قضية ما يحتاج لإبراز المسألة ، وإبراز أدله صدقها ، وقد
يعارض المستمع المسألة وأدلتها معا . أو أحدهما وقد يعرض ما عنده
بأدلته متصوراً صوابها ، مع الإعراض التام عن كل ما سمع ... وحينئذ تساعد
معرفة الواقع الدعاة على حسن المجادلة ، ولإلانتصار. لموضوعه الذى هو
دعوته سواء بإثبات الموضوع ، أو تأكيد الأدلة ، أو بمنع المعارضة انطلاقاً من
الواقع الذى يعيشه المدعوون .

إن المعرفة الشاملة للواقع تعنى العلم بثقافة المدعويين ، وأفكارهم والأديان
السائدة بينهم ، وأقوال الكهنة ورجال دينهم التى يستولون على عقولهم بها ، كما
تشمل فهم المستوى المادى والحركى ، والفكرى الذى يعيش فيه الناس ... ولذلك
تنتشر الدعوة ، ويتمكن الدعاة من القيام بما وجب عليهم لدين الله تعالى .

الركيزة الثالثة

اختيار الأساليب المناسبة للواقع

يحتاج الدعاة إلى فهم حقيقة المدعويين ، والتعريف على أهم خصائصهم النفسية ، والاجتماعية ، والدينية ، والسياسية ، واكتشاف اتجاهاتهم العامة ، وتبين ظواهر الرأي العام حتى يتمكنوا من تحديد القضايا التي يهتمون بعرضها ، ويدعون إليها ، لما لها من أولية عند المدعويين ، ولتحقيقها للمصلحة التي يحتاج إليها الناس في الواقع الموجود.

وحين يحدد الدعاة الموضوعات التي سيقومون بعرضها ، والدعوة إليها عليهم أن يعتمدوا الأسلوب المناسب لمجتمع المدعويين .

لا بد أن تكون الدعوة بلغة الناس حتى تفهم وتعرف ، ولا بد أن تعتمد أسلوباً مناسباً للواقع ، فهناك المثقف ، وهناك العامي ، وهناك من له دين ، وهناك من لا دين له .

ومن الناس من يفيد الإيجاز الحكيم ، ومنهم من ينفعه الوعظ ، والإطناب .

ومن الناس من يسمع ويفهم ، ومنهم من يجادل ويحاور .

ومن هنا

احتاج الناس إلى أسلوب يتلاءم مع عقولهم ، وعواطفهم ، ومذاهبهم الدينية ، وتوجهاتهم الاجتماعية .

إن الدعاة إذا لم يدركوا أهمية التنااسب بين الخطاب ، والمخاطب ، ويعملوا له ، فإنهم يحرمون اجتذاب الناس إليهم ، ولا يجدون لدعوتهم إلا الانصراف ، والإهمال ، والسبب هو تقصيرهم في مراعاة الواقع في التوجه والخطاب .

(١٣٠)

أنظر إلى القرآن الكريم حين يخاطب أهل البادية نجده يستدل بالإبل ،
ويصور الفضاء ، والهواء ، والشجر ، ويخاطب غيرهم بالجمال ، والفكر ،
والدعوة إلى النظر ، والبرهان .

لقد حدد العلماء عدداً من الأساليب والوسائل التي يتوجه بها المصلحون
للناس ، وبينوا خصائص الأساليب والوسائل المختلفة مثل الخطبة ، والحديث
والمحاضرة ، وللمناظرة ، وحلقات النقاش ، والتعامل المفردى ، و الاختلاط
المهنى ... وهكذا

وعلى الدعاة أن يتخيروا الوسيلة المناسبة ، والأسلوب اللائق بالمدعوين
لتحقيق الغايات التي يعملون لها .

والعلماء المعاصرون وضعوا القواعد العلمية لمعرفة توجهات الرأى العام ،
واكتشاف الآثار الناتجة من عمليات الإصلاح ، والوقوف على رد الفعل .
على المربين والمصلحين أن يطوروا أساليبهم ووسائلهم تبعاً لما يرون من
نتائج .

والدعاة هم أولى الناس بالاستفادة من مكتشفات العلم ، ورؤية العلماء فى
مجال الخدمة الاجتماعية .

إن التعامل مع الواقع أمر ضرورى لتعليم الإسلام ، وهو درس مستفاد
وركيزة دائمة على طول الزمن .

(۱۳۱)



الفصل الثانى

السيرة النبوية

” التعريف بالرسول ﷺ ”

من الميلاد حتى الهجرة

تمهيد :

محمد ﷺ هو رسول الإسلام ، وهو المبعوث بدين الله الخاتم إلى الناس أجمعين ...

ولد محمد بمكة ، ونشأ ، وترى في بادية العرب ، وجاءه الوحي من الله على رأس الأربعين ، وعاش رسالته داعياً إلى الله تعالى بمكة قيل الهجرة ، وبالمدينة بعدها ، وبلغ العالم كله ما كلف به ، ولم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، وكمل الدين ، وتمت نعمة الله للعالمين .
وتعد سيرته ﷺ دراسة لنموذج الإنسان الكامل الذي يجب أن يحتذى ، وأن يكون أسوة ، وقدوة لمن أراد الفوز والفلاح .

ولتباعاً للمنهج الذي رسمته في دراسة تاريخ الدعوة .، فإنني أعقد هذا الفصل في التعريف بالرسول ﷺ بعد أن جعلت الفصل الأول في التعريف بالعالم الذي بعث له رسول الله ﷺ ، وبينت حاجته لدعوة الإسلام .

إن الرسالة اختيار إلهي محض ، لا دخل فيه لأمنيات البشر ، ولا لطلب الناس ، ويوم أن طلب كفار مكة النبوة لبعضهم ، متمنين ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (١)
رد طلبهم ، فلقد تمنوا أن تكون الرسالة في أحد رجال القريتين مكة أو الطائف ، ليقوم بها رجل عظيم مشهور فيهم بغناه ، أو بجاهه أو بغير ذلك .

يوم طلب الكفار ذلك قال الله تعالى عنهم ﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٢)

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣١ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٣٢ .

وبذلك أبطل الله آمنيات هؤلاء القوم ، ووضح لهم أن الرسالة والنبوة لا تكون لمن شاءه الناس . ، وإنما لمن أرادهم الله . ، ولخيارهم . ، ولا دخل لبشر في هذا الاختيار .

يبين سبحانه وتعالى في هذه الآية أيضاً أن أوضاع الناس المعيشية قسمة إلهية ، تسير وفق إرادة الله ، وقدرته ، لأسباب لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى ، وليس لها ارتباط بالعظمة ، أو بالحقارة ، وليست نتاجاً لمجرد العمل وعلى الناس أن يعلموا أن النبوة خير ما يعطاه إنسان في الدنيا ، بل هي أعظم من كل الخير إذا اجتمع ، فإذا ما أتاه الله إنساناً فإنه يعظم ، ويعلو باختيار الله إياه ، وقد اختار الله لرسالته الخاتمة العالمية ، محمداً ﷺ ، وهو سبحانه وتعالى ﴿ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾^(١) . ولذلك قال تعالى ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾^(٢) . ويقول سبحانه ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾^(٣) .. وعلى ذلك فمحمد ﷺ أعظم العرب قاطبة ، وأعظم البشر أجمعين .

وانى لموقن بأن حكمه الله في اختيار محمد ﷺ للرسالة لا يمكن لبشر أن يدركها إدراكاً كلياً ، وأرى في نفس الوقت أن في مقدور البشر أن يعلموا شيئاً من هذه الحكمة ، وبخاصة بعد انكشاف شئ من أسرارها خلال الحركة بالرسالة ، والإسلام .

إن الخصائص التي تميز بها رسول الله محمد ﷺ ، عديدة ، وشاملة لكافة جوانب شخصيته ، ومتأصلة في أصوله وجذوره ، وملزمة له في تربيته ونشأته

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٦٨ .

(٣) سورة الحج ، الآية ٧٥ .

، وملموسة فى سائر أعماله ، وأقواله ، وأمانيه ، وأمانته ، وسلوكه مع نفسه ، ومع أسرته ، ومع الناس أجمعين .

ولولا أن الرسالة والنبوة اصطفاة وإحسان من الله لقلنا : " إن محمداً ﷺ اكتسبها بخصائصه ، ونالها بأعماله وجهاده ، لكن جمهور علماء المسلمين . ونحن معهم . يجمعون على أن الرسالة لا تكتسب ، وإنما يخلق الله الناس ، ويختار منهم رسوله ، ويهبه من لدنه استعداداً خاصاً ، يجعله أهلاً لهذا الاختيار ، قادراً على تحمل أمانة التبليغ والدعوة " .

والاختيار بهذه الكيفية رحمة من الله بالناس ، إذ به جرت الأمور بين الخلق على وفق سننه سبحانه وتعالى فى الكون والناس ، فلم يفاجئهم بشخص سئ ، ولم يدعهم إلى أمر شاذ لا يتصور ، ولا يعقل .

وبمتابعة خصائص الشخصية المحمدية نبداً من الأصول والجذور ، ونمر بالفروع حتى نصل إلى الثمرة الأخيرة ، لنرى كيف أودع الله فيها ، ما يجعلنا نؤمن بحكمة الله فى هذا الاختيار ، كما يقول سبحانه ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ ﴾ (١) .

وفى هذا الفصل سأتناول البحث فى سيرته ﷺ من مولده ، ومروراً بنشأته ، وزواجه ، ومبعثه ، وتكريم الله له ، ومعونته إياه ، وضرورة استفادة الدعاة بهذه السيرة فى مباحث متتابعة ، حتى نصل إلى الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة نهاية المرحلة المكية .

وسوف تكون الأحداث ممثلة للسيرة النبوية بكمالها فى عدد من المباحث وذلك فيما يلى :

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤ .

المبحث الأول

علو نسبه ﷺ

وصلته بقبائل مكة

أحاط الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً ﷺ بسلسلة راقية من الآباء ،
تميزت بالأصالة ، وللطهارة ، وللخيرية ، وللبعد عن الدنيا ، وترك عبادة
الأصنام .

وفى هذا المبحث سأتناول دراسة النسب من جوانب عدة لنخلص فى
النهاية إلى الحكمة فى ربط عظمة النسب بالرسالة ، وأهمية الاستفادة بهذه الناحية
فى تكوين الدعاة ، وتنشئتهم ، ولذلك سيأتى هذا المبحث فى نقاط عدة هى :

- ١ -

شرف النسب

رسول الله ﷺ هو محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ،
بن عبد مناف ، بن قصى ، بن كلاب .
وأم رسول الله ﷺ هى آمنه ، بنت وهب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ،
بن كلاب فنسب أبيه وأمه ﷺ يلتقيان فى كلاب .
وكلاب هو ابن مرة ، بن كعب ، بن لؤى ، بن غالب ، بن فهر ،
ابن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، بن إلياس ،
ابن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان .

ونسبه ﷺ من جهة أبيه ، ومن جهة أمه مجمع عليه إلى عدنان ، وما فوق. ذلك فمختلف فيه . وللكل يجمع على أنه ﷺ من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام .

ونسبه ﷺ كريم ، جامع لسائر أسباب الفضل والرفعة . فأبوه (عبد الله) أصغر أبناء عبد المطلب وأقربهم إلى قلبه ، يكنى بـ (أبي القثم) ، و (أبي محمد) ، و (أبي أحمد) ويلقب بالذبيح .

وسبب هذا اللقب أن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، والد المطعم قال لعبد المطلب : يا عبد المطلب أتستطيل علينا وأنت فذ لا ولد لك ؟ ... فقال عبد المطلب : أبا لقلة تعيرني ؟ فو الله لئن أتاني الله عشرة من الولد ذكوراً لأنحرن أحدهم عند الكعبة^(١) .

فلما توافى بنوه عشرة ، وعرف أنهم سيمنعونه ، جمعهم ، ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء به ، فأطاعوه وقالوا : أوف بنذك وأفعل ما شئت قال لهم : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ، ثم يكتب فيه اسمه ، ثم اتوني ففعلوا .

فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه ، وأخبره بنذره الذي نذر ، وأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه فخرج السهم على عبد الله ، فأخذه عبد المطلب بيده وحد الشفرة ليذبحه ، فقامت إليه قبائل قريش من أنديتها وقالوا : والله لا تذبحه أبداً حتى نعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه .

فذهبوا إلى عرافة خبير فقالت لهم : كم الدية فيكم ؟

قالوا : عشرة من الإبل .

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٥٣ .

قالت : فارجعوا إلى بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فأنحروها عنه ، فقد رضى ربكم ، ونجا صاحبكم ...

ففعلوا ذلك حتى بلغت الإبل مائة .

فقالت قريش : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب .

فقال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعوا الله فخرج القدح على الإبل ، ثم عادوا الثانية والثالثة ، وعبد المطلب قائم يدعو الله فخرج القدح فى كليهما على الإبل ، فأنحروها ، ثم تركها لا يصد عنها إنساناً ، ولا يمنع عنها بشراً لينال من لحومها ما يشاء^(١) .

يروى ابن كثير بسنده أن أعرابياً قال للنبي ﷺ : " يا ابن الذبيحين ، فتبسم رسول الله ، ولم ينكر عليه ... فقيل لمعاوية : من الذبيحان ؟ قال : إسماعيل وعبد الله^(٢) .

تميز عبد الله بالعفة ، والطهر ، وحسن الخلق .

رووا أن كاهنة بمكة يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية مر بها عبد المطلب ومعه ابنه عبد الله ليخطب آمنة بنت وهب ، فرأت فاطمة نور النبوة فى وجه عبد الله ، فقالت : هل لك أن تغشائى وتأخذ مائه من الإبل ، فعصمه الله تعالى من إجابتها ، وقال لها :

أما الحرام فالممات دونه .: والحل لا حل فاستبينه

فكيف بالأمر الذى تبغينه .: يحمى الكريم عرضه ودينه

(١) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ١ ص ١٥٥ .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ج ١ ص ٢١٧ .

(١٤٠)

فلما تزوج آمنة ، وحملت برسول الله ﷺ ، مر عبد الله على الكاهنة مرة أخرى ، وقال لها : هل لك فيما طلبت ؟! فنظرت إليه ، ولم تر ذلك النور في وجهه ، فقالت له : قد كان ذلك أول مرة ، أما اليوم فلا ، ماذا صنعت ؟ فقال : زوجني أبي آمنة بنت وهب الزهرية . فقالت : قد أخذت النور الذي كان في وجهك ... وأنشأت تقول : الآن قد ضيعت ما كان ظاهراً .: عليك وفارقت الضياء المبارك غدوت على خالياً فبذلته .: لغيري هنيئاً فألحقن بنسائكا ولا تحسبن اليوم أمساً وليتني .: رزقت غلاماً منك في مثل حالكا وداخلها الأسف على ما فاتها ، والحسرة على ما تولى عنها^(١) . وكان عبد الله باراً بأبيه ، مطيعاً له . يروى ابن إسحاق أن عبد الله حين انصرافه مع أبيه بعد الذبح مر على امرأة من بنى أسد ، وهى أخت ورقة بن نوفل . فنظرت إلى وجهه ، وقالت له : أين تذهب يا عبد الله . قال لها : معى أبى . قالت له : لك مثل الإبل التى نحرت عنك ، وقع على نكاحاً الآن . قال لها : أنا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ، ولا فراقه^(٢) . فأخذه أبوه عبد المطلب ، وذهب به إلى وهب بن عبد مناف وزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، وهى يومئذ أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً . ورسول الله هو الابن الوحيد لعبد الله وآمنة ، وقد مات أبوه قبل مولده ، وماتت أمه وهو ابن ست سنوات .

(١) أعلام النبوة للماوردي ص ١٤٦ .

(٢) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ١٥٦ .

وعبد المطلب ،. وولد عبد الله اسمه (شيبية المحمد). ،. وقد اشتهر
بعبد المطلب ، لأن عمه (المطلب) أحضره من المدينة ، حيث نشأ عند أخواله
فلما سأله أهل مكة : من هذا ؟

قال لهم : هذا عبدى ، فثبت معه اسمه هذا .
وكان عبد المطلب شديد الوفاء بوعده ، وقد رأينا ما فعل مع نذره ذبح أحد
أبنائه ، إذ بلغوا عشراً .
ومن وفائه أنه أجار يهودياً يدعى (أذينة) فتآمر حرب بن أمية على قتله
وقتله ، فلم يزل عبد المطلب يسعى فى دمه حتى أخذ ديته ، وسلمها لأهله^(١) .
وهو شيخ مكة ، وزعيمها يوم قدوم أبرهة ...
وكان عبد المطلب جسيماً أبيض ، وسيماً طوالاً ، فصيحاً ، ما رآه أحد
قط إلا قدره ، وقد صارت إليه السقاية والرفادة ، وشرف فى قومه ، وعظم شأنه
، وكانت تعرف فيه قوة الحق ، وهيبه الملك . ومكارمه أكثر من أن تحصى ،
فإنه كان سيد قريش غير مدافع نفساً ، وأباً ، وبيتاً ، وجمالاً ، وفعالاً .
وكان ممن حرم الخمر فى الجاهلية ، وأول من جعل دية القتل مائه من
الإبل بعد فداء عبد الله بمائه من الإبل ، وأول من منع نكاح المحارم .
وقد أقام لأهل مكة ما كان يقيمه آباؤه لهم ، فشرف فيهم شرفاً لم يبلغه
أحد قبله ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم .

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيئان :

الأول : حفر بئر زمزم بعدما أمر به فى المنام . . ووصف له
موضعه ، وبعدها كانت السقاية معه ، ولما حاولت قريش
منازعتة فى زمزم ، والسقاية منه ، أراهم الله مادلهم على

(١) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣١٠ .

تخصيص عبد المطلب بـ (زمزم)^(١) .

الثانى : لما قدم أبرهة بجيشه يريد هدم الكعبة خافت قريش ، وتفرقت

فى الشعاب ، وتركت إبلها وغنمها ، فاستولى عليها أبرهة.

فذهب إليه **عبد المطلب** ، ولما استقبله أبرهة سأله : ماذا جاء بك ؟

قال عبد المطلب : **جئت أسألك الإبل والغنم .**

فقال أبرهة له : **أكبرتك حين رأيته ، وزهدتنى فيك حين كلمتنى ، تسألنى**

عن الإبل ، وتترك البيت الذى هو دينك ودين أبائك ؟!

فقال عبد المطلب : **أما الإبل فهى لى ، وأما البيت فله رب يحميه .**

وقد كان حيث هلك أبرهة ، وجيشه بالطير الأبابيل ، واسترد عبد المطلب

الإبل والغنم^(٢) .

وهو أول من طلى الكعبة بالذهب ، وسمى الفياض لجوده ، وكان يأمر

أولاده بترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، ويقول : **لن يخرج من**

الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه ، وتصيبه عقوبة ، ورفض فى آخر عمره عبادة

الأصنام ، ونهى عن قتل الموءودة ، ونكاح المحارم ، وأمر أن لا يطوف

بالبيت عريان^(٣) .

و**(هاشم)** واسمه **(عمرو العلاء)** والد عبد المطلب .

لقبوه هاشماً لأنه هشم الثريد لقومه بمكة ، وأطعمهم ، وذلك أن أهل مكة

أصابهم جهد .، وشدة .، فرحل هاشم إلى فلسطين .، فاشترى منها دقيقتاً كثيراً

وكعكاً ، وقدم بذلك إلى مكة فأمر به ، ثم نحر جزوراً ، وجعلها ثريداً ، عم به

أهل مكة ، ولم يزل يفعل ذلك معهم حتى استكفوا .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٣ بتصرف .

(٢) منتقى النقول ص ٢٠ ، ٢١ .

(٣) منتقى النقول ص ٢١ .

وهو أول من سن الرحلتين ، رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام^(١) .

ومن قبله كان تجار مكة لا يغادرون بلدهم ، فركب هاشم إلى الشام ، ونزل بقيصر ، فلما علم به ملك الروم سأل عنه ، وكلمه ، وأعجب به ، وجعل يرسل إليه ويدخله عليه .

فلما رأى هاشم مكانه منه قال له :. أيها الملك إن لى قوماً وهم تجار العرب ، فإن رأيت أن تكتب لى كتباً تؤمنهم ، وتؤمن تجارتهم ، فيقدمون عليك بما يستظرف من أدم الحجاز ، وثيابه ، ليتمكنوا من بيعه عندكم ، فهو أرخص عليكم ، فكتب له كتاب أمان لمن أتى منهم ، فأقبل هاشم بالكتاب فجعل كلما مر بحى من العرب على طريق الشام أخذ من أشرفهم إيلافاً .

والإيلاف أن يأمن تجار مكة وهم فى طريقهم ، وفى غير أرضهم بغير حلف ، إنما هو أمان الطريق ، فأخذ هاشم الإيلاف فيمن سكن بين مكة والشام ، حتى قدم مكة فأعطى رجالها الكتاب ، فكان ذلك أعظم بركة ، ثم خرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم يجوزها ، ويوفيههم إيلافهم ، الذى أخذ لهم من العرب ، فلم يبرح يجمع بينهم وبين العرب حتى ورد الشام^(٢) .

واشتهر هاشم بالدقة ، والحكمة ، ومكارم الأخلاق .

ومن وصاياه الحكمة لقومه وهو يخطب فيهم :

" أيها الناس نحن آل إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة ، وبنو قصي بن كلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولكم فى كل حلف واجب نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة ، أوقف رحمة .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣١٦ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣١٦ .

يا بنى قصى أنتم كغصنى شجرة أيهما كسر أو- حش صاحبه ،
والسيف لا يسان إلا بغمده ، ورامى العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمحه
اللجاجة أخرجه إلى البغى .

أيها الناس ، الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود
سوّد ، والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر عبر ، والمرء منسوب إلى فعله ،
ومأخوذ بعلمه ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول يجانبكم
السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديك ، واحموا الخليط يرغب فى جواركم ،
وأنصفوا من يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق
الدينية ، فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ، ألا وإن نهضة الجاهل أهون من
حزيرته ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به ^(١)
وكان من أجمل الناس ، وأحسنهم صورة ، يتلأل النور فى وجهه كالهلال
يتوقد ، لم يره أحد إلا أحبه ، وأقبل عليه .

و.(عبد مناف) ولد هاشم اشتهر بأفعال الخير . ولما جد الأعمال .
وسمى بالمغيرة لقوته ، وإغارته على الأعداء ، وسمى بالقمر لحسنه وجماله .
وقد ساد فى حياة أبيه . وبرز بأرائه فى دار الندوة . وسر به ولده
(قصى) وهو الذى سماه (عبد مناف) واستبدله بـ (عبد مناة) كما سمت أمه ،
قام بعد أبيه قصى بالسقاية ، والرفادة ، واشتهر بالحكمة ، وحسن السياسة ،
أحاطت قريش عبد مناف بالفضل ، والتكريم ، ومن أشعارهم .

كانت قريش بيضة فتفلقت .: فالبح خالصة لعبد مناف

والمح : صفة البيض ، يشيرون بذلك إلى أن قريشاً إذا انقسمت كالبيضة
فعبد مناف صفرتها ، وهى أصل البيضة ، وأكثرها منفعة .

(١) أعلام النبوة للمواردى ص ١٣٩ .

يروى البلاذرى أن النبی ﷺ سمع جارية تنشد هذا البيت وتقول : فالمح
خالصة لعبد الدار .

فقال الرسول ﷺ لأبى بكر ؓ : كذا قال الشاعر .

قال أبو بكر : لا ، إنما قال : لعبد مناف .

فقال النبی ﷺ : كذاك ^(١) .

وهذا تأكيد لمنزلة عبد مناف ، وقدره فى قومه .

و(قصى) والد عبد مناف اسم مصغر من (قصى) أى بعد ، لأنه بعد ،
عن قومه فى بلاد (قضاة) مع أمه حين تزوجت بعد أبيه فى بنى عذرة ...
وقد عاد قصى إلى مكة بعد أن عبره أقرانه بغريته ...

وقبل : لبعده عن غيره فى المنزلة والعلأ .

عمل قصى بعد أن شب على أن يكون أمر مكة لأهلها ، فأبت خزاعة ،
وبنو بكر ، فقاتلهم قصى ومن معه ... حتى تصالحوا بعد ذلك على أن يكون
الأمر لقصى وبنيه ، لأنهم الأحق والأولى .

فلما جمع قصى قريشاً قال لهم : هل لكم أن تصبحوا بأجمعكم (أى أنتم
وبيوتكم) فى الحرم حول المبيت ؟! فوالله لا يستحل العرب قتالكم .. ولا
يستطيعون إخراجكم منه ، وتسكنونه فتسودوا العرب أبداً .

فقالوا : أنت سيدنا ، ورأينا تبع لرأيك .

فجمعهم ثم أصبح بهم فى الحرم حول الكعبة ^(٢) وبنوا بيوتهم مجاورة
للكعبة ، وكانوا من قبل يبنونها بعيداً فى الشعاب .

وأمرهم قصى أن يجعلوا أبواب بيوتهم جهة الكعبة ، على أن يتركوا بين كل بيتين
طريقاً يؤدى إلى الكعبة ، وفى نهاية هذه الطرق تأسست أبواب الحرم بعد ذلك .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣٢١ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣٢٤ .

وقد جمع (قصي) لنفسه أمر الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء ، وبذلك حاز الشرف في مكة كلها .

وبنى (قصي) داراً بمكة سماها (دار الندوة) ، وجعلها مكاناً للاجتماع ، والتشاور في كافة أمورهم الشخصية ، والاجتماعية ، والسياسية ، وغيرها .

وقد فرض قصي على قريش مالا يدفعونه إليه ، وهو الذي يعرف بالرفادة ، يصرف منه على حجاج بيت الله تعالى ، وقال لهم : " يا معشر قريش : إنكم جيران الله ، وأهل البيت ، وأصحاب الحرم ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرم ، فاجعلوا لهم طعاماً ، وشراباً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا " .

يقول ابن هشام : . فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خراجاً ، فيدفعونه إليه . فيصنعه طعاماً للناس أيام منى . فجري ذلك من أمره في الجاهلية على قومه حتى جاء الإسلام ، واستمر الإطعام إلى يومنا هذا ، فهو الطعام الذي يصنعه المولاة كل عام . ويقدمونه للحجيج بمنى حتى ينقضى الحج^(١) .

وقد قسم قصي المهام الرئيسية في أولاده ...

فأعطى عبد مناف السقاية والندوة ،

وأعطى عبد الدار الحجابة واللواء ،

وأعطى عبد العزى الرفادة والضيافة أيام منى ... وهكذا .

ومن أقواله الحكيمة التي علمها أولاده :

• " من صاحب لئيماً شركه في لؤمه " .

• " ومن استحسن مستقبلاً كان معه " .

(١) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ١٣٠ .

. " ومن لم تصلحه كرائمكم فداووه بهوانه ، فذاك دواء

يحسم الداء " .

. " العى عيان : عى إفحام ، وعى المنطق بغير سداد " .

. " من سأل فوق قدره استحق الحرمان " .

و (كلاب) والد قصى جمع كلب ، وهو مجمع نسب عبد الله . وآمنة ، أبوى النبى ﷺ ، وسمى بذلك من المكالبة ، وهى المسارعة فى التجمع على الكسب ، أو جرياً على عادة العرب فى تسمية أبنائهم بأسماء موحشة كذئب ، وأسد وضبع ...

قيل لأعرابى : لم تسمون أبناءكم بأشر الأسماء كـ (كلب) ، وذئب ، وتسمون عبيدكم بأحسن الأسماء كـ (رياح) و (مرزوق) ؟ ...

فقال : إنا نسمى أبناءنا لأعدائنا ، ونسمى عبيدنا لأنفسنا ... يريد أن الأبناء هم عدة مواجهة الأعداء ، والسهام المصوبة إليهم .
وقيل : سمي بذلك لدفع السوء والحسد عنه^(١) .

ومن أسماء (كلاب) الحكيم ، والمهذب ، وعروة ، ويكنى بـ (أبى زهرة) وزهرة هو جد النبى ﷺ من قبل أمه .

و (مروة) والد كلاب اسم منقول من وصف الحنظلة ، والعلقمة .

وقيل : منقول من وصف الرجل بالمرارة .

وقيل : مأخوذ من القوة ومنه قوله تعالى ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾^(٢) . أى قوة .

وكنيته (أبو يقظة)^(٣) .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٨ .

(٢) سورة النجم ، الآية ٦ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣٢٩ .

وهذا المعانى تدل على ما كان له من قوة فى الحق ، وشدة وقسوة على أهل الباطل .

و(كعب) والد مرة ، ومعناه العلو فى الشرف ، والسؤدد ، والثبات والمنزلة ، وكنيته أبو هصيص .

وهو أول من جمع الناس ، وخطبهم فى يوم معين ، هو يوم (العروبة) وهو اليوم المسمى فى الإسلام بيوم الجمعة ، ومن خطبة فى قومه :
أما بعد ...

فاسمعوا وعوا ، وافهموا وتعلموا ، ليل ساج ، ونهار ضاح ، والأرض مهاد ، والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، لم تخلق عبثاً فتضربوا عنها صفحاً ، الآخرون كالأولين ، والذكر كالأنثى ، والزوج والفرد إلى بلى ، فصلوا أرحامكم ، وأوفوا بعهودكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم ، فإنها قوام مروءتكم ، فهل رأيتم من هالك رجع ، أو ميت نشر ، الدار أمامكم ، واليقين غير ما تظنون ، حرمكم زينوه وعظموه ، وتمسكوا به ، فسيأتى له نباً عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم ، بذلك جاء موسى وعيسى عليهما السلام^(١) .

و(لؤى) يكنى باسم كعب ، اشتهر بالحكمة ، والحلم منذ صغره ، وكان مطاعاً ، محبوباً فى قومه .

و(غالب) من الغلبة والفوز ، وكنيته أبو تيم .

و(فهر) كان رئيس أهل مكة ، وقيل إنه سمى بـ (قريش) يقول ابن شهاب : من جاوز فهراً فليس من قريش^(٢) .

و(مالك) يكنى بـ (أبو فهر) ولم ينجب أبوه سواه ، تميز بالحكمة ،

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣٣٤ .

وحسن الخلق .

و(النضر) بن كنانة ، وكنيته (أبو يحد) .

و(كنانة) هي ستر المسيف ، سمي بذلك لأنه كان سترًا على قومه ، ويكنى بأبي النضر ، يقول عامر العدوانى لابنه فى وصيته : يا بنى أدركت كنانة بن خزيمة وكان شيخاً مسناً ، عظيم المقدر . ، وكانت العرب تحج إليه لعلمه وفضله ،

ومن أقواله لهم :

إنه قد آن خروج نبي من مكة يدعى أحمد ، يدعو إلى الله ، وإلى البر ، والإحسان . ومكارم الأخلاق ، فاتبعوه تزدادوا شرفاً وعزاً إلى عزكم قال أبو الربيع رحمه الله تعالى : إن كنانة رضى وهو نائم فى الحجر فقيل له تخير يا أبا النضر بين الصهيل والهدر ، وعمارة الجدر ، وعز الدهر ، فقال : كل يا رب فصار هذا كله فى قریش^(١) .

و(خزيمة) يكنى بأبى أسد ، يروى ابن عباس أن خزيمة مات على دين إبراهيم عليه السلام ، وهو أول من أهدى البدن للبيت .

و(مدركة) اسمه عمرو على الصحيح ، وكنيته أبو هذيل ، وأبو خزيمة .

و(إلياس) كان عاقلاً ، أريباً ، يقول ابن الزبير : لما أدرك إلياس وبلغ أنكر على بنى إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم ، وسيرهم ، وبيان فضله عليهم ، وجميل رأيه ، ورضوا به ، فردهم إلى سنن آبائهم ، ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة .

وهو وصى أبيه تميز بجمال الخلق ، والخلق ، ويذكر عن النبى ﷺ أنه قال : " لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً " (٢) .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣٣٨ .

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ١٠ .

ويذكر أنه كان يبشر بنبي من صلبه ، يصلح الله به شئون الناس .
 و(مضر) اسمه عمرو ، وكنيته أبو إلياس ، وكان على دين إبراهيم عليه السلام
 اشتهر بالحكمة ، وسداد الرأي ، ومن أقواله :
 . " خير الخير أعجله " .

. " احملوا أنفسكم على مكروهاها فيما يصلحكم ، واصرفوها
 عن هواها فيما يفسدكم ، فليس بين الصلاح والفساد إلا
 صبر فواق " (١) .

و(نزار) سماه أبوه بهذا الاسم لما رأى في وجهه نور النبوة فرح ، وترح ،
 وأطعم ، وقال : هذا نذر يسير ، فسمى بـ (نزار) وكنيته (أبو إياد) .
 و(معد) يضرب به الممثل في المخلق ، يقول- مر بن الخطاب رضي الله عنه :
 " اخشوشنوا وتعددوا " . أى كونوا على خلق معد .

و(عدنان) أول من كسا الكعبة ، وكان الناس يعرفون أن نبياً سيخرج من
 صلبه ، ويكنى بأبى معد .

وقد سبق الإشارة إلى ' إجماع النسابين على معرفة نسب النبي ﷺ إلى
 عدنان ، وأن عدنان من نسل إسماعيل عليه السلام ، إلا أنهم يختلفون في عدد أباء
 عدنان إلى إسماعيل عليه السلام ، ولذلك اكتفى هنا بذكر نسبه ﷺ إلى عدنان مع تأكيد
 أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام ، فلقد روى ابن سعد أن النبي ﷺ كان إذا
 انتسب لم يجاوز في نسبه عدنان ، ثم يمسك ، ثم يقول : كذب النسابون (٢) .
 ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " إنما تنتسب إلى عدنان ، وما فوق ذلك
 لا ندرى ما هو " (٣) .

(١) سبل الهدى ج ١ ص ٣٤٤ ، والفواق : المدة بين حلبتين للناقة .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٥٦ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٥٨ .

ومن هذا الإيجاز نرى شرف النسب ، وعلو المحتد ، فجميعهم كرام ،
 ذوو شأن حيث نلمح فى سيرتهم كل خير ، فهم حماة البيت ، والمقربون من الله
 ، والمؤسسون لأهل مكة (دار الندوة) ، وقد نظموا للقبائل سائر المهام ، وعرفوا
 الناس ببيوم العروبة ، وجمعوهم فيه كل أسبوع ، لسماع الخطب وتداول الأمور .
 وفى أسمائهم نلمح صفاتهم ، وفى كعب العلو والثبات .
 وفى لوى الهدوء والأناة .
 وفى غالب القوة القاهرة للأعداء^(١) .
 وفى فهر الطول والمعون . ، سعى قريشاً لأنه كان . يقرش . أى . يفتش عن
 حاجة المحتاج ليعينه بماله ونفسه^(٢) .
 وفى مالك السيادة ومالك العرب^(٣) .
 وفى النضر الحسن والجمال^(٤) .
 وفى كنانة ستر قومه ، ومرجعهم لعلمه وفضله^(٥) .
 وفى خزيمة إصلاح قومه ، وأخذهم على الحق^(٦) وهكذا إلى عدنان الذى
 عاش زمن موسى عليه السلام^(٧) .
 هذا نسبه عليه السلام من جهة أبيه ...
 وأما نسبه من جهة أمه فهو إلى كلاب ، وعند كلاب يلتقى نسبها مع أبيه
 فنسبه من جهة أمه عال هو الآخر ، يصفه ابن هشام ويقول : " إن آباء
 آمنة من فضلاء قريش ، وسادة بنى زهرة "^(١) .

(١) مدارج الصعود ص ٦ ، ٧ .

(٢) نور الظلام ص ٣٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٠ .

(٤) فيض القدير ج ٣ ص ٣٧ .

(٥) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٧ .

(٦) سيرة ابن كثير ج ١ ص ١٨٨ .

(٧) الروض الأنف ج ١ ص ١١ .

ولم يكن للنبي ﷺ أخ ولا أخت من أمه وأبيه ، يقول الماوردي :
 " لم يشركه في ولادته من أبويه أخ ، ولا أخت ، لانتها صفوتهما إليه ،
 وقصور نسبهما عليه ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنبوة غاية ، ولتفرده
 بها آية ، فيزول عنه أن يشارك فيه ويمثل به " (٢) .
 ولقد تميز آباؤه بعدد من المزايا العامة التي اشتركوا فيها جميعاً ،
 واستمرت معهم تكريماً لرسول الله ﷺ .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٩ .

(٢) أعلام النبوة ص ١٤٧ .

طهارة النسب

اشتهر آباؤه ﷺ جميعاً ، بعلو الأصل ، وشرف النسب ، ومكارم الخلق فكانوا من أحسن الخلق وأما جدتهم ، وقد رأيناهم سادة الناس ، ورواد القبائل حملوا مهام البيت ، وقاموا بواجب ضيوف الله .

ولعل أهم ما تميزوا به هو طهارتهم . وعفتهم . وبعدهم عن سفاح الجاهلية ، وضلالات الشرك والهوى ، والأحاديث الصحيحة تؤكد هذه الحقيقة فعن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : " خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي " (١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ، وما ولدني إلا نكاح كنيان الإسلام " (٢) .

ويروى ابن سعد في طبقاته عن محمد الكلبي قال : " كتبت لنبي الله ﷺ خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحاً ، ولا شيئاً مما كان عليه أمر الجاهلية (٣) وهكذا . وضع الله رسوله ﷺ في موضع يحمل معه شرف . سلسلة طويلة كريمة الخلق والسلوك ، طيبة الشأن والذكر ، وهو اصطفاء من الله تعالى . فعن وائلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم " (٤) .

(١) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد . باب علامات النبوة . باب كرامة أصله ﷺ ج ٨ ص ٣٩٥ .

(٢) بغية الرائد . باب علامات النبوة . باب كرامة أصله ﷺ ج ٨ ص ٣٩٥ .

(٣) سيرة ابن كثير ج ١ ص ١٩١ .

(٤) صحيح مسلم . كتاب الفضائل . باب فضل النبي ﷺ ج ٧ ص ٥٨ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت منه " ^(١).

وأخرج البيهقي في دلائل النبوة عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما ، فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية ، وخرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً ، وخيركم أباً " ^(٢) .
وعن ابن عباس . قال . : قال رسول الله ﷺ : " لم يزل الله ينقلني من الأصلاّب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى ، مهذباً ، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما " ^(٣) .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : " ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني في خيرهما ، فأخرجت من بين أبوي ، لم يصبني شيء من عهد الجاهلية ، وأخرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي " ^(٤) .

وعن وائلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم واتخذه خليلاً ، واصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، ثم اصطفى من ولد إسماعيل نزاراً ، ثم اصطفى من ولد نزار مضراً ، ثم اصطفى من مضر كنانة ، ثم اصطفى من كنانة قريشاً ، ثم اصطفى من قريش بني

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى . كتاب المناقب . باب صفة النبى ﷺ ج ٦ ص ٥٦٦ .

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد . كتاب علامات النبوة ج ٨ ص ٣٩٥ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٢٧٦ .

(٤) تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٧٩ .

هاشم ، ثم اصطفى من بنى هاشم بنى عبد المطلب ، ثم اصطفانى من بنى عبد المطلب ^(١) .

والاصطفاء أخذ الأحسن والأفضل من جماعة فيها غيره ليسوا مثله .
وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : " خير العرب مضر ، وخير مضر بنو عبد مناف ، وخير بنى مناف بنو هاشم ، وخير بنى هاشم بنو عبد المطلب والله ما افترت فرقتان منذ خلق الله آدم إلا كنت فى خيرهما " ^(٢) .
وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله خلق الخلق فاختار من الخلق بنى آدم ، واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مضر واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بنى هاشم ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا من خيار إلى خيار إلى خيار " ^(٣) .

وعن ابن عباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله حين خلق الخلق جعلن من خير خلقه ، ثم حين فرقهم جعلنى فى خير فريق ثم حين خلق القبائل جعلنى من خير قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلنى من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتاً وخيرهم نسباً " ^(٤) .

وعن ابن عباس - قال - : " دخل ناس من قريش على صفية بنت عبد المطلب فجعلوا يتفاخرون ، ويذكرون الجاهلية ، فقالت صفية : منا رسول الله ﷺ فقالوا : تنبت النخلة أو الشجرة فى الأرض الكبا (السبخة) . فذكرت ذلك صفية لرسول الله ﷺ فغضب وأمر بلالاً فنادى الناس ، فقام على المنبر فقال : أيها الناس من أنا ؟

(١) صحيح مسلم بشرح النووي - كتاب الفضائل . باب فضل نسب النبى ﷺ ج ١٥

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٢٠ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ١٦٨ .

(٤) سنن الترمذى - كتاب المناقب ج ٥ ص ٥٨٤ .

قالوا : أنت رسول الله .

قال : انسبونى .

قالوا : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

قال ﷺ : أنا رسول الله ، فما بال أقوام يبتذلون أصلى !!؟ فو الله إنى لأفضلهم أصلاً وخيرهم موضعاً" (١) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ : قال لى جبريل عليه السلام : " قلبت الأرض مشارقها ومغاربها ، فلم أجد أفضل من محمد وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها ، فلم أجد أفضل من بنى هاشم " (٢) .

بهذه النصوص الكثيرة التى أوردتها تطمئن النفس إلى صدق ما تضمنته وهو ما نريد إبرازه فى إثبات علو نسبه ﷺ ، وتمتع آبائه ، وأجداده بكرم الطبع ، وشرف الأصل ، وطهارة السلوك ، والبعد عند الدنيا ، وصغائر الأمور .

كان ﷺ نتاج هذه السلسلة الكريمة التى يفتخر بها ، وتذكرها العرب له وفد أقر خصومه فى مكة بهذه الحقيقة ، وهم فى أشد حالات العداء معه .

يروى البخارى أن هرقل أرسل إلى أبى سفيان ومن معه ، وكانوا فى تجارة بالشام ، فدعاهم إلى مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعا ترجمانه .

فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي !!؟

فقال أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً .

فقال هرقل : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره .

ثم قال لترجمانه : قل لهم إنى سائل عن هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه .

يقول أبو سفيان : فو الله لولا الحياء من أن يؤثروا على كذباً لكذبت

عنه ، ثم كان أول ما سألتى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟

(١) بغية الرائد فى تحقيق الزوائد . باب علامات النبوة ج ٨ ص ٣٩٩ .

(٢) دلائل النبوة ج ١ ص ١٥١ .

قلت : هو فينا ذو نسب .

ثم سأله عدة أسئلة وأبو سفيان يجيبه

وأخيراً قال هرقل لترجمانه : قل لأبى سفيان سألتك عن نسبه فقلت :

هو فينا ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها^(١) .

والمهم أن أبا سفيان يومئذ كان على الكفر ، ولم يدخل في الإيمان بعد ، ومع ذلك نطق بالحق ، وشهد بعلو نسب رسول الله ﷺ وهو أول ما سأل عنه هرقل لمعرفة بضروره سمو نسبه ، وطهارته إن كان رسولاً صادقاً ...

إن معرفة خصائص النسب الشريف لرسول الله ﷺ يؤثر في تقويم صاحبه ، وتقدير شأنه ، وإدراك مستقره في الأمور ، فالخلق الغالب على الأصل ينزع عنه الفرع ، ولا يتغير بالإسلام إلا إلى الأفضل .

أخرج الشيخان وأحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " تجدون الناس معادن ، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون من خير الناس في الأمور أكرهم له قبل أن يقع فيه " ^(٢) .

فأصحاب المروءات ، ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا أو فقهوا فهم خيار الناس ^(٣) .

قال ابن حجر في الفتح : " وجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ، ولا تتغير صفته ، فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها بل من كان شريفاً في الجاهلية وهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس فإن أسلم

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى - كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب قول الله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ ﴾

مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ﴿ [سورة الحجرات ، الآية ١٣] ج ٦ ص ٥٢٥ .

(٣) شرح النووى على مسلم ج ٥ ص ٢٣٠ .

استمر شرفه وكان أشرف ممن أسلم من المشركين في الجاهلية" (١)
 ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : " أنا بن العاتك " (٢) .
 والعاتك هو الكار الشجاع في القتال ، والمرأة العاتك هي الشريفة الكريمة .
 وعند اشتداد المواجهة بين رسول الله ﷺ وأهل مكة لم نسمع مطعناً في
 طهارة نسب رسول الله ، ولا ذماً لأصله ، ولا نقداً لخلق وسلوكه ، ولا همزاً حول
 شيء يتصل به ﷺ ... ولو وجد شيء من هذا لتحدثوا عنه ، وأظهروه .

(١) فتح الباري ج ٦ ص ٥٢٩ .

(٢) مجمع الزوائد . كتاب علامات النبوة . باب في كرامة أصله ﷺ ج ٨ ص ٢١٥ .

- ٣ -

بعد آباءه ﷺ عن الشرك وعبادة الأصنام

ثبت بالأدلة والبراهين العديدة أن أصول النبي ﷺ وآباءه من لدن آدم ﷺ إلى والده المباشر عبد الله بن عبد المطلب ، كانوا جميعاً بعيدين عن الشرك ، وعبادة الأصنام .

وللأدلة على ذلك عديدة .، يجمعها السيوطي رحمه الله تعالى^(١) في مقدمتين ليصل بهما إلى نتيجة عقلية مسلمة حين ثبوتها .

أما المقدمة الأولى فهي أن آباء النبي ﷺ هم من خير الناس وكل واحد منهم أفضل معاصريه ، وأخيرهم ، فكلهم خيار من خيار ، اصطفاهم الله منذ وجود آدم ﷺ ، واستمر هذا الاصطفاء معهم حتى جاء رسول الله محمد ﷺ .

أما المقدمة الثانية فإنها تظهر حقيقة دينية ، تاريخية ، وهي أن الأرض لم تخل من عهد آدم ﷺ إلى بعثة النبي ﷺ ، وإلى أن تقوم الساعة ، من أناس على الفطرة يوحدون الله ، ويعبدونه بما بقى من دين سابق ، ويرون أن الأصنام ، والأوثان ، وما يماثلها ، ما هي إلا افتراءات لا حقيقة لها ، ولذلك فهم بعيدين عنها .

فإذا انضمت المقدمة الأولى إلى المقدمة الثانية لظهر بجلاء أن آباء النبي ﷺ في كل عصر كانوا من هؤلاء الأناس الذين عاشوا بالفطرة النقية الموحدة ، ذلك أن الخيرية ، والأفضلية تقوم أساساً على التوحيد والتقوى . ومن الواجب التسليم بهذا ، لأن الأفضلية إذا لم تقم على التوحيد ،

(١) الحاوي للفتاوى ج ٢ ص ٣٦٧ بتصرف .

وقامت على المال ، أو الكثرة ، أو السلطان مثلاً ، فإن الشرك يعلو التوحيد حينئذ ، ويفضل المشرك المؤمن ، وهذا غير صحيح ، فوجب بمجموع هاتين المقدمتين أن يكون آباء النبي ، وهم أفضل الخلق في زمانهم ، على التوحيد الذي هو أصل التفضيل ، وأساسه ، لأن القول بغير ذلك يؤدي إلى أحد أمرين لا يسلم بهما أو بأحدهما عاقل :

الأمر الأول : أفضلية المشرك على المسلم ، وهذا أمر غير صحيح ، وغير مسلم ، ولم يقل به أحد من العقلاء .

الأمر الثاني : أن يكون هناك من هم أفضل من آباء النبي ﷺ ، وهذا معارض بما ثبت في المقدمة الأولى التي سبق ذكر أدلتها .

يقول الإمام السيوطي : " يجب أن يكون آباء النبي موحدين ، لا شرك فيهم ليكونوا من خير أهل الأرض ، كل في قرنه " (١) .

وفي الدراسة السابقة عن المقدمة الأولى أوضحت أن آباء النبي هم خيار الخلق من لدن آدم ﷺ إلى محمد ﷺ ، وبذلك تثبت المقدمة الأولى .

وإثبات المقدمة الثانية بعد ذلك أمر مسلم ، لأن الناس كانوا على الإسلام منذ آدم إلى نوح ﷺ . يقول الله تعالى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ (٢) . وفي الآية بيان أن الناس جميعاً بعد آدم

ﷺ كانوا على دين واحد هو الإسلام .

فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أنبيى كان آدم ؟

قال ﷺ : نعم نبي مكرم .

(١) الحاوي للفتاوى ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٣ .

فقال الرجل : فكم كان بينه وبين نوح عليه السلام ؟

قال عليه السلام : عشرة قرون ^(١) .

وهكذا استمرت البشرية على دين الإسلام عشرة قرون ، وبعد هذه المدة بدأ الشرك في الظهور ، واختلف الناس في أمر الدين ، فبعث الله رسله مبشرين ، ومنذرين ، بلاغاً وإرشاداً ، ولذلك بعث شيث عليه السلام ، وإدريس عليه السلام نصراً لأهل الحق ، ومحافظة على دين الله القويم .

عن قتادة رضي الله عنه أنه قال : " ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الهدى ، وعلى شريعة الحق ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فبعث الله نوحاً عليه السلام " ^(٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : " أنه كان بين آدم ونوح عليها السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام " ^(٣) .

وهذه الآراء بيان لاستمرار الإسلام في الناس منذ آدم إلى نوح عليهم السلام ، فلما اختلفوا ، وانقسموا جاء رسل الله ، وعلى رأسهم نوح عليه السلام .

والتعبير بالاختلاف في الآية بيان لتمسك فريق من الناس بالإسلام الذي كانوا جميعاً عليه ، حين أرتد فريق منهم ، وعبدوا الأصنام ، وأشركوا . في الألوهية ، وبذلك وجد الاختلاف ، والتفرق ، بدليل أن الله توعده هؤلاء المشركين الذين أشركوا ، وضيعوا وحدة الأمة ، وأفسدوا تجمعها وأبعدوا فريقاً عن الدين الحق ، يقول تعالى ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ^(٤) .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٦ ص ٣٧٢ .

(٢) الحاوي ج ٢ ص ٣٧٢ .

(٣) تفسير الطبري ج ٤ ص ٢٧٥ .

(٤) سورة يونس ، الآية ١٩ ، ودلالة الآية أن الله توعده المختلفين ، وتوعده الله لا يكون إلا بسبب كفر أو معصية .

ومع الاختلاف على الدين الحق قبيل نوح عليه السلام نرى أن والد نوح كان مؤمناً ، موحداً ، امتداداً لأبائه من قبله ، دليل ذلك أن نوحاً عليه السلام دعا لأبيه كما فى قوله تعالى ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ^(١) .. وللمنبي عليه السلام لا يستغفر لكافر ،. بدليل قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْقَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ ^(٢) . وبذلك تكون الآية صريحة فى إيمان والد (نوح) وهو (سام) لأنه لو لم يكن مؤمناً لما دعا له ، وأيضاً فإن دعوة نوح لأبيه كانت بعد الطوفان ، ولم ينج من الطوفان إلا المؤمنون .

هذا عن الفترة من آدم إلى نوح عليهما السلام .

أما ما بعد نوح عليه السلام ، فقد روى ابن عباس أن نوحاً عليه السلام لما أهبط ومن معه من السفينة هبطوا إلى قرية ، فبنى كل رجل منهم بيتاً ، فسميت القرية سوق الثمانين نسبة لعدد الناجين ، فلما ضاقت بهم القرية تحولوا إلى بابل فبنوها ، ولم يزلوا على الإسلام وهم ببابل ، أما من كفر فقد غرق وهلك ، يؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ ^(٣) . ومفهوم الآية يوضح أن ذرية من كفروا غرقوا. بغرق آبائهم ،. ولم يبق إلا المؤمنون .

الموحدون كما يفيد ضمير الفصل الموجود فى الآية .

وقيل : إن المؤمنين مع نوح كانت لهم ذرية مؤمنة نجت مع الناجين إلا أنها ماتت بأجلها ، ولم يبق إلا أبناء نوح .

(١) سورة نوح ، الآية ٢٨ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١١٤ .

(٣) سورة الصافات ، الآية ٧٧ .

وقيل : إن المؤمنين من ذرية الآخرين تلحق بذرية نوح في البقاء بسبب إيمانهم^(١) .

واستمر إيمان آباء النبي ﷺ من نوح إلى إبراهيم عليهم السلام ، وما ورد عن والد نبي الله إبراهيم ﷺ (آزر) يتعارض مع هذا حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّي أُرْسِلُ بِرَأْسِكَ وَقَوْمِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾^(٢) .. ويقول سبحانه ﴿ يَتَأَبَّتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾^(٣) .

وفي هذه الآيات تصريح واضح بكفر أب إبراهيم ﷺ .
رد العلماء هذا التعارض بأن إبراهيم ﷺ كان يخاطب عمه (آزر) أما والده فهو (تارح) ، واللغة العربية تطلق اسم الأب على العم ، ولهذا يقول الله تعالى ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾^(٤) فأطلق سبحانه على إسماعيل اسم الأب ليعقوب ﷺ مع أنه كان عمه .

وبعد نجاة إبراهيم ﷺ من النار أمره الله تعالى بأن يهاجر إلى بلاد الشام ، فهاجر حيث أمره الله تعالى ، وأخذ معه المؤمنين ، وكانوا ثلاثة ، هم زوجته (ساره) وابن خالته (لوط) ، وأبوه (تارح)^(٥) ولو كان أبوه مشركاً ما اصطحبه معه في رحلة الهجرة من موطنه إلى بلاد الشام ... وأيضاً فلقد دعا إبراهيم ﷺ

(١) فتح القدير ج ٤ ص ٤٠٠ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٧٤ .

(٣) سورة مريم ، الآية ٤٢ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٣٣ .

(٥) الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٩٦ .

لأبيه بعد هلاك عمه بمدة طويلة ، ولو كان مشركاً ما دعا له يقول الله تعالى
على لسان- إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
الْحِسَابُ ﴾ (١) .

أما آباء محمد ﷺ بعد إبراهيم فهم على النحو المذكور لسائر الآباء يقول
الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا
الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿٦٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٢) .

فقد أخبر الله تعالى بأنه جعل كلمة المهدى وللتوحيد باقية ، منتقلة في
عقب إبراهيم عليه السلام تنتقل من كل واحد إلى من بعده في عقبه ، والعقب أبناء
الرجل الذكور ، دون الإناث .

يقول المفسرون : الكلمة هي شهادة التوحيد ، جعلها الله مستمرة في
ذرية إبراهيم عليه السلام يعقب كل جيل ما سبقه ، بحيث يدوم في ذريته من ينطق
بالشهادة ، ويؤمن بها .

ويقول تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي
وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا صَنَامَ ﴾ (٣) . وقد دعا إبراهيم عليه السلام في الآية بدعوتين :
أحدهما : أن يجعل مكة بلداً آمناً في المقام ، والمعاش .

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٤١ .

(٢) سورة الزخرف ، من الآية ٢٦ : ٢٩ .

(٣) سورة إبراهيم ، الآية ٣٥ .

والثانية : أن يجنبه ، وبنيه ، وذريته عبادة الأصنام ، وقد استجاب الله له فأكرم مكة بجعلها حرماً آمناً ، ورزق أهلها ثمرات كل شئ كما استجاب الله سبحانه الدعوة الثانية لإبراهيم في أولاده فنجاهم من عبادة الأصنام وجعل النبوة والكتاب فيهم خاصة .

وقد جاءت أحاديث مسندة تفصل ما جاء في الآيات :

. يقول النبي ﷺ : " لا تسبوا مضر فإنه كان قد أسلم " (١) .

. ويقول النبي ﷺ : " لا تسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مؤمنين " (٢) .

. ويقول النبي ﷺ : " لا تسبوا قسا فإنه كان مسلماً " (٣) .

. ويقول النبي ﷺ : " لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً " (٤) .

وقد رأينا من كلمات آباء النبي ﷺ ، ووقفنا على معانيها الدالة على العقل والحكمة ، وروح الإيمان .

يقول السهيلي : " و(كعب بن لؤي) أول من جمع يوم العروبة ، فكانت قریش تجتمع إليه في هذا اليوم ، فيخطبهم ، ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ ، ويعلمهم أنه من ولده ، ويأمرهم باتباعه ، والإيمان به " .

و(عبد المطلب) هو الذي قابل أبرهة وقال له : للبيت رب يحميه ...

أما آباء النبي ﷺ القريبون إليه فهم : كلاب ، وقصى ، وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد المطلب ، وعبد الله ، فإنهم شيوخ مكة ، وحماة الكعبة ، وإليهم يرجع الفضل في تنظيم أمور البيت الحرام . ولإنفاق على الحجيج . وفي حياتهم إشارات إلى عقيدتهم الدينية .

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٥٨ .

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ١٠ .

(٣) الحاوي ج ٢ ص ٣٨٠ .

(٤) الروض الأنف ج ١ ص ١٠ .

يقول عبد الله : أم الحرام فالممات دونه .

ويقول عبد المطلب : للبيت رب يحميه .

وقد تميز هاشم ، وعبد مناف بالحكمة ، وكرم الأخلاق ، ودور قصي وكلاب مع الكعبة وأهل مكة لا يخفى ، ولذلك كان ﷺ يفتخر بأبائه ويقول ﷺ :
 " أنا ابن الذبيحين " يريد بهما عبد الله وإسماعيل عليهما السلام ، وفي يوم حنين قال :

أنا النبي لا كذب .: أنا ابن عبد المطلب

ويقول ﷺ : " أنا خيار من خيار من خيار " .

وحديث النبي ﷺ عن آبائه لتعريف منازلهم ، وبيان مراتبهم ، والإشارة إلى نعم الله تعالى التي أحاطه ، وأحاطهم بها .

يقول أبو الحسن الماوردي : " أنبياء الله صفوة عباده ، وخيرة خلقه ، لما كلفهم من القيام بحقه ، والإرشاد لخلقهم ، استخلصهم من أكرم العناصر واجتباهم بمحكم الأواصر ، فلم يكن لنسبهم من قدح ، ولمنصبهم من جرح لتكون القلوب لهم أصفى ، والنفوس لهم أوطأ ، والناس إلى إجابتهم أسرع ولأوامرهم أطوع ، وإن الله استخلص رسوله ﷺ من أطيب المناكب ، وحماه من دنس الفواحش ، ونقله من أصلاب طاهرة إلى أرحام منزهة .

يقول ابن عباس في تأويل قول الله ﴿ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴾ ^(١) .

أي تقلبك من أصلاب طاهرة ، من بعد آدم إلى أن جعلك نبياً ، فكان نور النبوة ظاهراً في آبائه ، ثم لم يشركه في ولادته من أبويه أخ ، ولا أخت لانتهاء صفوتهما إليه ، وقصور نسبهما عليه ، ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنبوة غاية ، ولتفرده نهاية ، فيزول عنه أن يشارك فيه ، ويمثل فيه ،

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢١٩ .

فلذلك مات عنه أبواه فى صغره ، فأما أبوه فمات وهو حمل ، وأم أمه فماتت وهو ابن ست سنين ، وإذا خبرت حال نسبه ، وعرفت طهارة مولده علمت أنه من سلالة آباء كرام ، ليس فى آبائه مسترذل ، ولا مغموز مستبذل ، بل كلهم سادة قادة ، وشرف النسب ، وطهارة المولد من شروط النبوة ^(١) .

ويقول الشهرستانى : " ظهر نور النبى ﷺ فى أسارىر عبد المطلب بعض الظهور ، وببركة ذلك النور ألهم النذر فى ذبح ولده ، وببركته كان يأمر ولده بترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيايات الأمور ، وببركة ذلك النور كان يقول فى وصاياه : إنه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة ، إلى أن هلك رجل ظلوم لم تصبه عقوبة ، فقبل لعبد المطلب فى ذلك ففكر وقال : والله إن وراء هذه الدار دار يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المسئئ بإساءته ، وببركة ذلك النور قال لأبرهة : إن لهذا البيت رباً يحفظه ^(٢) .

ومع سلامة النسب النبوى وأصالته أرى توضيح أمرين :

الأمر الأول : يتصل بتوحيد آباء النبى ﷺ لأن منهم من عاصر الأنبياء ومنهم من كان بعيداً عنهم ، أما من كان نبياً أو عاصر نبياً ، فإنه كان على التوحيد الخالص ، الواضح الذى جاء من عند الله تعالى ، بكل ما يلزمه من اعتقاد وشريعة وأخلاق ، أما من بعد منهم عن زمن الأنبياء فإنه كان على توحيد يبعده عن تأليه الصنم ، وعبادته ، مع غياب تعاليم الرسالة السابقة ، ولذلك لم يكن لهم دين واضح بتعاليمه ، وتفصيلاته .

إنهم لم ينغمسوا فى الشرك ، ولم يكونوا سدنة أصنام ، ولا كهنة آلهة مع ما لهذه الأعمال من أهمية فى الحياة الجاهلية ، ومع منزلتهم فى قبائل مكة

(١) الحاوى ج ٢ ص ٣٨٥ .

(٢) الحاوى ج ٢ ص ٣٨٢ .

التي تمكنهم من الحصول على ما يريدون ، ولو كانوا من الكهنة ما منعهم أحد ، لكن الله أنقذهم منها .

إن بعدهم الزمنى عن رسالات الله أنساهم كثيراً من الحقائق الدينية ، شأنهم فى ذلك شأن الحنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام ، ورأوا ضرورة وجود إله واحد قدير ، واهتموا فى البحث عن دين إبراهيم عليه السلام ، ولذلك لم تكن لأباء النبى ﷺ دعوة دينية ، ولم يقوموا بنشر عقيدتهم فى الناس ، إلا أن الله أكرمهم بالتوحيد ، وخصهم بالخيرية ، وفضلهم على الناس ، ليذكر الرسول بهم ، وحتى لا تلحقه منقصة بسببهم ، يعيره بها المشركون والكافرون .

الأمر الثانى : يتعلق هذا الأمر بأهل الفترة وآباء النبى ﷺ .

يراد بأهل الفترة الناس الذين عاشوا فى المدة الزمنية بين رسولين ، وبخاصة إذا طالت المدة ، وغابت تعاليم الرسول السابق كلياً ، أو جزئياً ، وقد درس العلماء ، والفقهاء أحكام أهل الفترة لأنهم بعدوا عن الرسالة السابقة ولم تأتهم رسالة جديدة ، وهذا حال يرفع عنهم المسئولية أمام الله تعالى عند جمهور العلماء .

والعرب من الأمم التى طالت الفترة بهم ، ولم يأتهم رسول منذ إسماعيل عليه السلام يبين الله ذلك لمحمد ﷺ ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١) وصلة هذا المبحث بآباء النبى ﷺ تلمس الإنصاف لهم . لأن آباءه القريبين ابتداء من كلاب لم يكن لهم دور دينى واضح ، مع ثبوت عدم تأليهم للأصنام ، وسبب ذلك أنهم كانوا من أهل الفترة التى لا وجود فيها لدعوة دينية ... وأقصى ما كانوا فيه أنهم من الحنفاء الموحدين ، الباحثين عن الحقيقة التى تجلت أمامهم بمبعث النبى ﷺ .

يذهب جمهور العلماء إلى أن أهل الفترة ناجون ، بدلالة الآيات التالية:

. يقول الله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١)

والآية أساس للجمهور الذي يرى أن وصول الرسالة إلى الناس شرط للمسئولية ، يقول قتادة : " إن الله ليس بمعذب أحداً حتى يسبق إليه من الله خبر ، أو تأتية من الله بينة " (٢).

. ويقول الله تعالى ﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمُ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَتِكَ

وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) . والآية واضحة في ثبوت

العدر لأهل الفترة على عدم إيمانهم ، ودلالتها على ضرورة تبليغ الدعوة على وجهها الصحيح عن طريق رسول الله ، أو بواسطة من يكلفه من الدعاة .

وعلى هذا فأباء النبي ﷺ القريبون كانوا من الحنفاء ، على أقل تقدير وليس بضروري أن يكونوا. على رسالة دينية كاملة (عقيدة وشرعية). ولما الأبوان الشريفان فهما من أهل الفترة بإجماع ، لتأخر زمانهما ، وبعد ما بينهما وبين رسالة الأنبياء السابقين (٤) ، فأخر نبي بعث للعرب هو إسماعيل ، وبينه وبين محمد ﷺ ثلاثة آلاف سنة . ولم يعمر طويلاً . وكان العرب في جهل بالنسبة للرسالة لدرجة أنهم تعجبوا ، حين بعث الله تعالى نبيه محمداً ﷺ وقالوا

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٥ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٥١ .

(٣) سورة القصص ، الآية ٤٧ .

(٤) أرجح الرأي القائل بأن أبا النبي ﷺ من أهل الفترة على الآراء الأخرى ، هذا وقد فصل السيوطي الآراء كلها بأدلتها في كتابة الحاوي (الحاوي ج ٢ ص ٣٨٠ ، وما بعدها) .

ما حكاه الله تعالى ﴿أَبْعَثْ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١) . وقالوا أيضاً ما حكاه الله تعالى ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٢) . وقد صور الله تعالى أحوالهم متعجباً فقال تعالى ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾^(٣) وتقول سبحانه ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾^٤

وهذا محمد ﷺ لما حُبب إليه الخلاء ، كان يذهب إلى غار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، وكانت عبادته على ما بقى من دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، إذ لا سبيل له إلى غير ذلك .

إن تباعد الزمان بين رسالة إسماعيل عليه السلام وآباء النبي القريبين غيب عنهم حقيقة رسالة الله بكمالها ، وتامها ، ولكنهم تمسكوا بما أبقاها الله بينهم ، فلم يعبدوا غير الله ، ولم يشركوا معه إلهاً آخر .

ومن هنا نرى أن توحيد الحنفاء كاف في تقديم صورة إيمان آباء رسول الله ﷺ وبعدهم عن الشرك ، ونجاتهم من ضلالات الجاهلية .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٩٤ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ١٤ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية ٦٩ .

صلة " بنى هاشم "

بسائر بطون العرب

تعرف أسرة النبي ﷺ بالأسرة الهاشمية نسبة إلى هاشم بن عبد مناف ،
وهى أسرة عربية يمتد نسبها إلى إبراهيم عليه السلام .
فرسول الله ﷺ واحد من العرب. يتصل مع كل عربى بنسب ،. وصلة
بالأدلة الآتية :

(أ) قبائل العرب : لأنهم جميعاً أبناء إسماعيل ، وعروبة النبي كواحد
منهم ثابتة موطناً ، وجنساً ، ولغة .

يقول الله تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي
أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ (١) . وفى هذا بيان لقربة
النبي ﷺ التى أخرج منها ، وهى مكة ، موطنه الذى أجبر على
تركه ، فهاجر منه إلى يثرب ، المدينة التى نورت بهجرته ﷺ إليها ،
يقول قتادة وابن عباس : " لما خرج النبي ﷺ من مكة إلى المدينة
التفت إلى مكة وقال : اللهم إنك أحب البلاد إلى الله ، وأنت
أحب البلاد إلى ، ولولا المشركون أهلك أخرجونى ما خرجت
منك " (٢) .

ويقول تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (٣) ،

(١) سورة محمد ، الآية ١٣ .

(٢) الحديث صحيح ، رواه الثعلبى ، تفسير القرطبى ج ١٦ ص ٢٣٥ .

(٣) سورة الجمعة ، الآية ٢ .

ويقول سبحانه ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ (١) .
وعلى هذا فالنبي أمي ، أى عربى ، لأن الأمية صفة ، وهى مسمى
للعرب قبل المبعث فى مقابل أهل الكتاب وهم بنو إسرائيل (٢) .
وجاء الإسلام بلغة العرب ، يقول الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٣) . ويقول سبحانه لنبيه ﷺ ﴿فَإِنَّمَا
يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ (٤) . فهذه العروبة الثابتة لرسول الله تؤكد
قربته لكل عربى ، وتؤيد التقاءه مع كل منهم فى نسب بعيد أو
قريب .

وضح ابن حزم . الأسباب . المنسبىة التى ربطت المنبى ﷺ بقبائل
العرب جميعاً ، فقال : وفى (عبد المطلب) يجتمع معه ﷺ : بنو
على ، وجعفر ، وعقيل ، وبنو أبى طالب . وبنو العباس ، وبنو
الحارث ، وبنو أبى لهب .
وفى (عبد مناف) يجتمع معه : بنو أمية ، وسائر بنى عبد شمس
وبنو المطلب ، وبنو نوفل ، وبنو عبد المطلب .
وفى (قصي) يجتمع معه : بنو عبد العزى ، وبنو عبد الدار .
الذين منهم حبة الكعبة .
وفى (كلاب) يجتمع معه : بنو زهرة ، وأمه منهم ، وهى آمنة
بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٧٠ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٢ .

(٤) سورة مريم ، الآية ٩٧ .

وفى (مرة) يجتمع معه : بنو تيم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة .

وفى (كعب) يجتمع معه : بنو عدى ، وبنو جمح ، وبنو سهم .

وفى (لؤى) يجتمع معه : بنو عامر ، وبنو لؤى .

وفى (غالب) يجتمع معه : بنو الأدرم .

وفى (فهر) يجتمع معه : بنو الحارث ، وبنو محارب .

وفهر هذا هو أبو قريش كلها ، ومن لم يكن من ولده فلا نسب له فى قريش ، ومن كان من ولد فهر فهو قرشى .

وفى (كنانة) يجتمع معه : كل من ينتمى إلى كنانة من بنى عبد مناة ، وملك ، وملكان ، وجدال ، وعمرو بن كنانة .

وفى (خزيمة) يجتمع معه : بنو أسد ، والقارة ، وهم بنو الهون ابن خزيمة .

وفى (مدركة) يجتمع معه : بنو هذيل .

وفى (الأياس) يجتمع معه : بنو تميم وإخوانهم ، وبنو ضبة ، ومزينة ، والرياب ، وخزاعة ، وأسلم ، فأما الرياب فهم : تيم ، وعدى ، وثور ، وعكل .

وفى (مضر) يجتمع معه : قبائل قيس كلها : سليم ، ومازني ، وفزارة ، وعبس ، وأشجع ، ومرة ، وسائر بنى ذبيان ، وغطفان ، وعقيل ، وقشير ، ولحريش ، وجعدة ، والمعجلان ، وكلاب ، والبكاء ، وهلال ، وسواعة ، وبنو جشم ، وبنو نصر ، وثقيف ، وسعد ، وسائر هوزان ، ومحارب ، وعدوان ، وفهم ، وباهلة ، وغنى ، والطفافة ، وسائر قيس .

وفى (نزار) يجتمع معه : قبائل ربيعة ، وهم بكر ، وتغلب ،

وعن بن وائل ، وعبد القيس وقبائلها ، وعنزة ، والنمر بن قاسط .

وفى (معد) يجتمع معه : إياد .

وفى (عدنان) يجتمع معه : بنو عك^(١) .

هذا دليل حصرى يثبت قرابة النبي بكل قبائل مكة .

(ب) جميع بطون مكة قبيل البعثة كانت ترتبط ببني هاشم بقرابة ورحم

، فعن ابن عباس : " أن النبي ﷺ لم يكن بطن من بطون قريش

إلا وله فيه قرابة "^(٢) . وبسبب هذه القرابة نرى القرآن الكريم يكرر

فى معرض دعوته لأهل مكة أن الرسول (منكم) و(من أنفسكم) و

(منهم) يقول تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾^(٣)

، ويقول سبحانه ﴿ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾^(٤) . ويقول ﴿

جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾^(٥) ، فالرسول ﷺ منهم ، وهم أقرباؤه ، ومع

ذلك فدعوته للعالم كله ، وعليهم أن يؤمنوا به ليؤكدوا تشرفهم

بحمل الرسالة ، وتبليغها للعالمين .

إن بطون قريش ترتبط مع رسول الله ، فهم أخواله وأعمامه ، وله

منهم عمات ، وخالات ، كما يقول تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا

لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا

أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَنَاتٍ عَمَّكَ وَنَنَاتٍ عَمَّتِكَ وَنَنَاتٍ خَالِكَ وَنَنَاتٍ

(١) جوامع السيرة ص ٢ ، ٣ ، ٤ .

(٢) صحيح البخارى . باب المناقب ج ٤ ص ٢١٧ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٦٤ .

(٥) سورة النحل ، الآية ١١٣ .

خَلَلْتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴿١﴾ ودلالة هذه الآية صريحة في وجود أعمام ، وأخوال ، وعمات ، وخالات له ﷺ في مكة ، وأنه ﷺ تزوج من بناتهم المهاجرات بعد الهجرة ، وبالبحث في زوجات النبي ﷺ المقرشيات. نجد أنهم لسن من بنى هاشم ، ولكنهم من بقية بطون مكة .

فعائشة من بطن (تيم) ، وتلتقى برسول الله في جده مرة .
وحفصة من بطن (عدى) ، وتلتقى برسول الله في جده كعب .
وأم حبيبة من بطن (بنى أمية) . ، وتلتقى برسول الله في جده عبد مناف .

وأم سلمة من بطن (بنى مخزوم) ، وتلتقى برسول الله في جده كلاب .

وسودة من بطن (بنى عامر) ، وتلتقى برسول الله في جده لؤى .
وزينب من بطن (بنى أسد) ، وتلتقى برسول الله في جده خزيمة .
وهذا يثبت القرابة لرسول الله مع بطون مكة جميعاً ، فهم أعمام وعمات وأخوال وخالات ، وأقرباء محمد ﷺ .

إن قرابة النبي ﷺ لبطون مكة تعود لعدة أجيال. قديمة . . وهي حقيقة لا شك فيها .

(ج) وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه القرابة في مجال حث أهل مكة على الإيمان حيث يقول الله تعالى ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الِّمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (٢) .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٥٠ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ٢٣ .

فهى تشير إلى القرابة المعروفة بين رسول الله ﷺ وأهل مكة ،
والتي يجب أن تدفعهم إلى الإيمان بالإسلام أداء لحق المودة ،
والقرابة مع رسول الله ﷺ .

ويقول تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ^(١) .

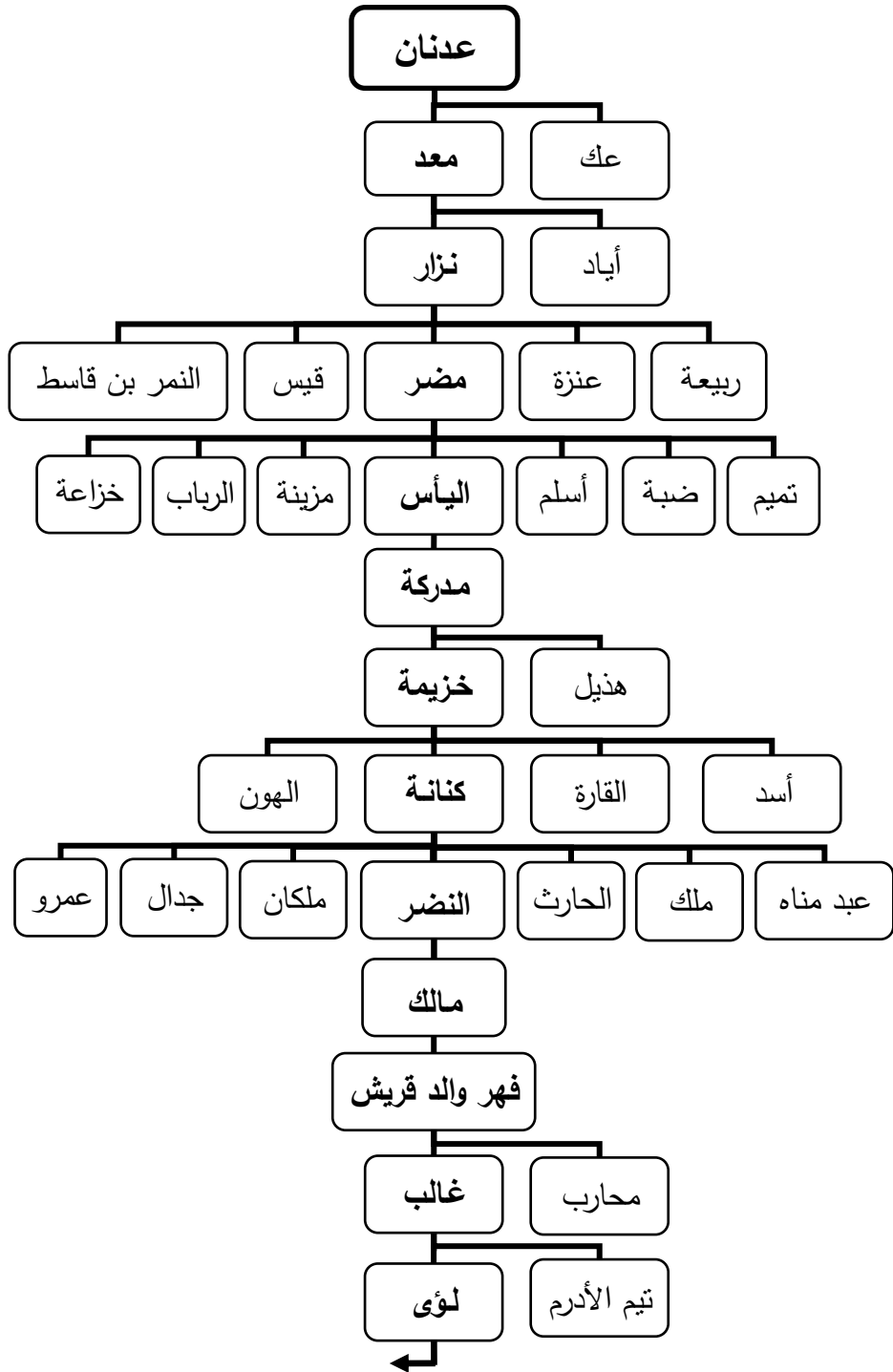
والآية تتضمن . كما هو ظاهر . دلالة قاطعة على أن النبي ﷺ كان
له فى مكة عشيرة .، أو . بطن خاص . يلتحم به المتحام . القرابة
العصبية المباشرة ، مع التحام هذا البطن الخاص بوشائج القربى
مع سائر بطون قريش ، والقرائن القرآنية مضافة إلى أخبار السيرة
والمروليات .، تدل . على أن . هذا . البطن الخاص . كان . ذا . مكانة
محترمة ، وملك جانباً عزيزاً بين الناس .

لقد أمر النبي ﷺ كثيراً من المسلمين بالهجرة من مكة إلى الحبشة
بسبب ما نالهم من اضطهاد . قريش .، لمتابعتهم النبي ﷺ . وعدم
وجود من يحميهم وينصرهم ، فى حين أن النبي ﷺ ومعه غيره
من رجالات المسلمين القرشيين لم يهاجروا ، وظل يقوم بدعوته
قوياً ، صريحاً ، واضحاً فى الإنكار ، والتخويف ، والإنذار بلسان
القرآن ، معتمداً على الله تعالى الذى جعل له من أقربائه أنصاراً ،
مع أنهم لم يؤمنوا بالإسلام ^(٢) .

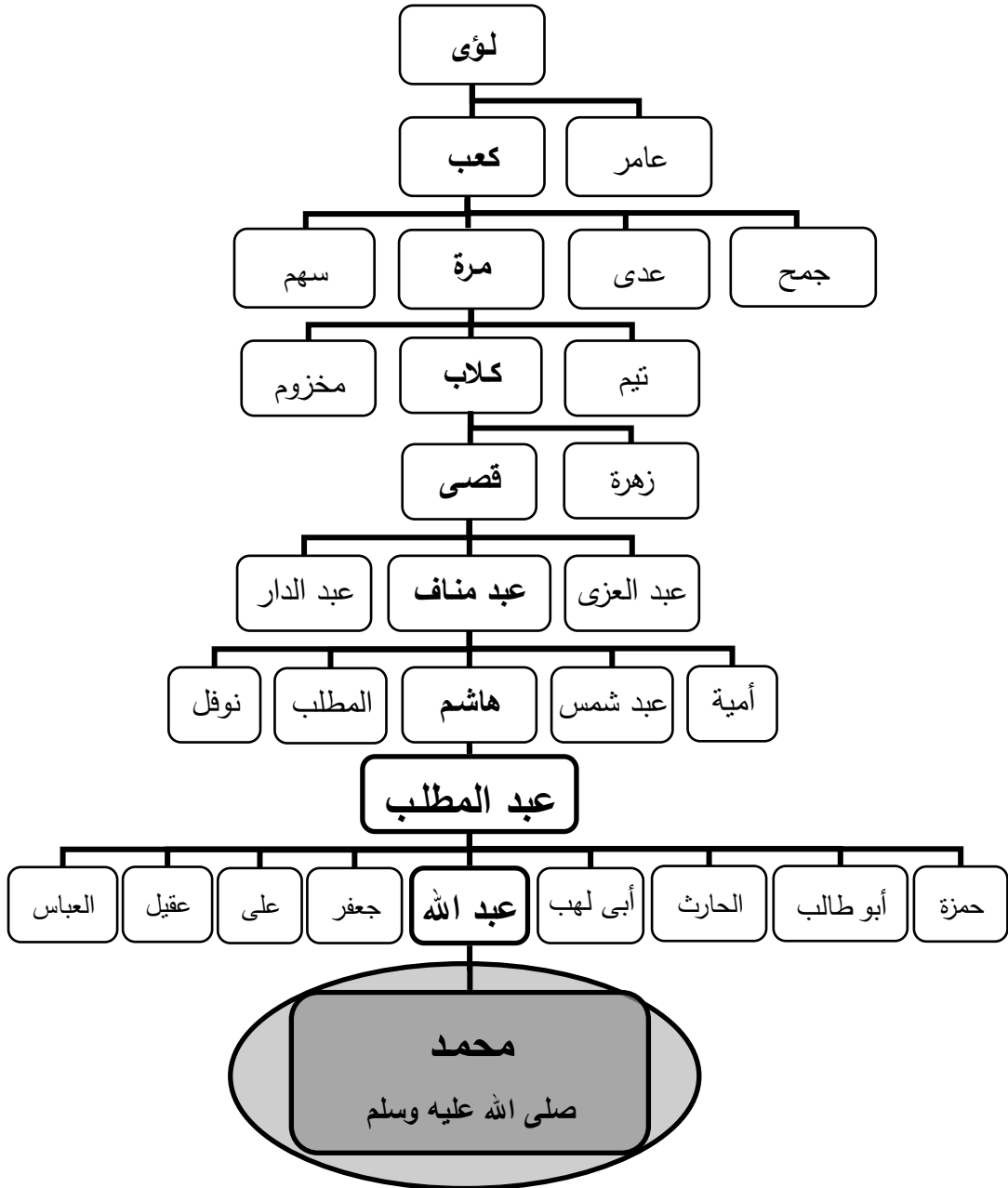
(١) سورة الشعراء ، الآية ٢١٤ .

(٢) يراجع فى هذه القضية مواقف عمه أبى طالب الذى عاش حياته مدافعاً عن محمد ﷺ
مع أنه لم يؤمن ، وقصة إسلام حمزة التى تمت دفاعاً عن محمد ﷺ ، واشتراك
بنى هاشم والمطلب مع المسلمين فى حصار الكفار لهم ... وكلها تدل على ما كان
للقرابة والعصبية من نصرة ومساندة .
ويجب أن ينظر إلى أن الهجرة إلى الحبشة كانت للمحافظة على روح وقوة الجماعة
المسلمة ، ولإيصال الإسلام خارج جزيرة العرب .

(١٧٧)



(١٧٨)



سلسلة نسب النبى (محمد صلى الله عليه وسلم)

وبيان صلتها بسائر قبائل مكة المكرمة

وفى نهاية هذا المبحث أجد شبهة تستحق أن نرد عليها ، فلقد عرض
 الدكتور./ محمود. على مراد. لأحداث. السيرة. فى المرحلة المكية فى رسالته
 للدكتوراه ، ورأى أن أغلب مروياتها وضع تمجيداً لبنى هاشم ، أجداد العباسيين
 ، الذين دونت السيرة فى عهدهم ، ولذلك جاءت أحداث سيرة **ابن اسحق** فى
 الفترة المكية تمجيداً لبنى هاشم ، خدمة للعباسيين على حساب الأمويين أعدائهم
 ويرى أن النصوص التى تصور عبد المطلب مؤمناً غير صحيحة ، ولا
 تتناسب مع بعض المشواهد التى ذكرها الدكتور. فى مؤلفه .- فقصة حفر
 عبد المطلب لزمر ، ومواجهته لأبرهة ، وإصراره على الوفاء بنذره بذبح أحد
 أبنائه العشرة غير صحيحة .

هذه الأحداث يردها الدكتور ، ويستدل فى ردها برضى عبد المطلب
 على وضع الأصنام حول الكعبة ، وعدم قيام عبد المطلب بدعوة دينية فى قومه
 ، وتسميته أحد أبنائه بـ (عبد العزى) ، وجود أبنائه الدينى ، حيث لم يؤمن
 أحدهم بمحمد إلا بعد ثلاث سنوات من البعثة^(١) ، مما يدل على عدم توجيههم
 دينياً من أبيهم عبد المطلب .

ونحن لا نرتضى ما ذهب إليه الدكتور لما يلى :

١ . التشكيك فى راوى السيرة (ابن إسحاق) غير صحيح فهو من أوائل
 وكبار رواة السنة ، وأحاديثه ، ورواياته مقبولة ، وقد وثقه علماء
 الجرح والتعديل^(٢) .

(١) سيرة رسول الله ﷺ د/ محمود على مراد ص ٤٢ بتصرف ، والكتاب رسالة حصل
 بها المؤلف على الدكتوراه من جامعة السوربون ، وهى مترجمة من الفرنسية إلى
 العربية .

(٢) محمد بن إسحاق صاحب السيرة التى لخصها ابن هشام من العلماء الثقات يقول عنه
 البخارى : روى عنه إبراهيم بن سعد عشرة آلاف حديث ، ومن أشهر مشايخه
 عاصم ابن قتادة ، والزهرى ، وعبد الله بن أبى ، وهشام وعمر بن عروة بن
 الزبير ، وإبان بن سعيد .

٢ . لأجداد الأمويين والعباسيين أمجاد ، ومزايا ، فلم تنتهم ابن إسحاق

يقول ابن هشام عنه : هذا أعلم الناس بالمغازي ، ويقول عاصم بن عمر : لا يزال في الناس علم ما بقي ابن إسحاق ، ويقول ابن معين عنه : إنه ثقة ، حسن الحديث .
وينحصر نقد ابن إسحاق من المسلمين عند أمامين جليلين هما الإمام مالك بن أنس وهشام بن عروة ، بناء على أسباب وجدوها فيه ، وهي :

١- حرصه على الإكثار من الرواية ، وهو أمر كرهه الإمام مالك في حياته ، قال عبد الرحمن بن مهدي للإمام مالك : " يا أبا عبد الله سمعنا في بلدكم - أي بالمدينة - أربعمئة حديث في أربعين يوماً ، ونحن في يوم واحد نسمع هذا كله - أي بالعراق -

فقال له : يا أبا عبد الرحمن من أين لنا دار الضرب التي عندكم ؟ تضربون بالليل ، وتتفقون بالنهار " .

وهذه الكراهة من الإمام مالك ، أو من غيره لا تصح على الإطلاق لأن الكثرة من الثقات مقبولة .

٢- اتهمه بالقدر ، وهي تهمة أتهم بها كثير من المحدثين ولم تتل منهم ، وقد أخرج مسلم في صحيحة عن بعضهم ، وبخاصة إذا كان المتهم غير داع لمذهبه ، وابن إسحاق لم يدع لم اتهم به .

شهد له رجال الحديث ، فقد أخرج الخطيب عن أبي زرعة الدمشقي قال : " ومحمد بن إسحاق رجل قد أجمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ منه منهم سفيان ، وشعبة ، وابن عيينة ، وحمام بن زيد ، وحمام بن سلمة ، وابن المبارك ، وقد اختبره أهل الحدث فرأوا صدقاً ، وخيراً ، مع مدح ابن شهاب له وهو يقول : وقد ذكرت دحيماً قول مالك في ابن إسحاق فرأى أن ذلك ليس لرواية الحديث ، وإنما هو لأنه اتهمه بالقدر " .

وقال الجرحاني : " الناس يشتبهون حديثه ، وكان يرمى بغير نوع من البدع وقال موسى بن هارون : سمعت محمد بن عبد الله بن نمير يقول : كان محمد بن إسحاق يرمى بالقدر وكان أبعد الناس منه " .

٣- تتبعه لغزوات النبي ﷺ من أولاد اليهود الذين أسلموا وحفظوا قصة خبير وغيرها وهذا النقد مردود كله ، لأن العلماء لم ينظروا لكثرة الرواية مادامت من ثقة مقبول الحديث ، واتهمه بالقدر مردود برأى العلماء ، وأما نقله بعض الغزوات عن أبناء اليهود ، فلأنها غزوات عاشوها بأنفسهم فهم أدرى الناس بها ، كما أنه لم ينقل عنهم ما يسيء إلى الأحداث أو الأشخاص ، وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : حدثوا عن بني إسرائيل ، ولا حرج .

بروليته أمجاد. العباسيين مع أن. إيرادهم هنا مع أحداث. السيرة
 ضرورة علمية لما لهم من صلة مباشرة بصاحب السيرة رسول الله
 ﷺ !!!؟

ولم لا. نفهم أن. سبب سكوته عن أمجاد. الأمويين هو أن. مجال
 الدراسة بعيد عنهم ، ولم يشر ابن إسحاق إلى الأمويين بأى سوء .
 ٣ . رد. الأحاديث المروية اعتماداً. على العقل وحده لا. يكفى ، لأن
 إيمان. عبد المطلب لم يكن بصورته التامة ، فهو يشبه الحنفاء
 كما قلنا ... وهذا القدر لا يلزمه بدعوة ، ولا يدفعه لعمل قيادي
 ديني ... لكن الدكتور يتصوره رسولاً يدعو ويبشر ، وينقد على هذا
 الأساس ، والأمر ليس كذلك !!!

٤ . تشكك ابن هشام فى صحة القصائد التى عزاها ابن إسحاق إلى
 بنات. عبد المطلب ،. وقد أبرز الدكتور هذا التشكيك ،. واستشهد
 بالقصائد نفسها على اعتبار. صدقها ،. فلم اعتبرها صادقة حين
 احتاج إليها ولعتبرها غير صادقة حين جعلها دليلاً لنقد
 عبد المطلب !!

٥ . قام. الدكتور./ محمد جبريل الأستاذ. بكلية أصول. الدين بجامعة
 الأزهر قسم الحديث بدراسة حديثة عن ابن إسحاق وأثبت بالبراهين
 أن مروياته فى السيرة مقبولة ، ترتقى إلى الصحيح لغيره ، وكنت
 أحد المناقشين له فى اللجنة التى أعطته شهادة الدكتوراه مع مرتبة
 الشرف الأولى عن (ابن إسحاق محدثاً) ، وأوصت بطبع الرسالة .

٦ . ما ذكره الدكتور/ مراد عن ابن إسحاق لم يكن من عنده وإنما هو
 ادعاء نقله عن المستشرقين من غير إشارة إليهم ، وهذا. أمر لا
 يليق بباحث !!!... جاء فى دائرة المعارف الإسلامية وهى تنقد ابن

إسحاق : " جمع ابن إسحاق مادة وافرة متنوعة ، فاضطره ذلك إلى التوسع في مراجعته ، وقبول عدد من الروايات لا تدعمها الأسانيد دعماً كافياً ، بل قد عني بذكر مصدر بعض أخباره ذكراً لا يتسم دائماً بالوضوح الكبير ، خاصة حين يكون هذا المصدر . كما هو الشأن . في كثير من الأحوال . من أصل يهودي . أو نصراني " (١) .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ج ٨ ص ٥٩ .

ركائز دعوية فى اختيار الدعاة

اهتم المؤرخون ، وكتاب السيرة النبوية بإبراز عظمة محمد ﷺ ، وبخاصة فى نسبه الطاهر النظيف ، فابرزوا بذلك بعض أسباب تقديره عند معارضيه ، وعدم مبادرته بالعدوان من أهل مكة ... وقد ظهر ذلك جلياً فى مسلك أهل مكة مع رسول الله ﷺ ، وإنى هنا أحاول استنباط بعض الركائز المفيدة فى مجال اختيار الدعاة . ومنها :

الركيزة الأولى

صيانة مكانة الدعاة

عندما يعظم شأن الداعية فى نظر المدعويين يقبلون عليه ، ويهتمون بالاستماع إليه ، وتقدير دعوته ، وتفهم حديثه ، والإقبال على الأفكار التى ينادى بها .

ومن هنا وجب اختيار الدعاة على أساس تمتعهم بالصفات ، والمزايا التى تنزلهم بين الناس منزلة عالية . وأهم المزايا :

١. أن يكون الداعية معروفاً بين المدعويين ، مقدراً فيهم ، متصفاً بصفات التقدير ، ملتزماً بالأخلاق الكريمة ... ولئن كان علو النسب أحد أسباب تقدير العرب لرسول الله ﷺ ، فإن حركة التنوير المعاصرة قدمت أسباباً عديدة تحقق هذا التقدير ، واستبدلتها بالنسب المعروف . ولأصالة المشهورة وفى مقدمة هذه الأسباب أن يكون الداعية عالماً ، مثقفاً ، يقدم الحلول الشرعية لكل المسائل التى تقابله ، وأن يكون كريماً لا يبخل على أحد ، وأن يكون فى معية

- الناس دائماً ، يساعدهم ، ويتعاون معهم ، وأن يستمر مصدر النور والخير للناس من حوله ، وأن يبتعد عن مصاحبة أهل سوء .
- . حينما تشتد أمور الحياة يبحث الناس عن من يعينهم فى الخير ، ويساعدهم فى المشاق ، ويدفع عنهم البؤس والضرر ، ونحن نتمنى للدعاة هذا الدور المأمول .
- . إن الخدمات الاجتماعية الآن طريق إلى قلوب الناس ، ولا مانع أن يقوم الدعاة بهذه المهمة التى تربطهم بالناس ، وتضعهم أملاً لمحتاج ، وعطاء لمضطر .، ومساهماً فى إبراز الجانب المضى فى حياة الناس .
- . إن الكنائس ومؤسسات التبشير تتخير المبشرين ، وترحل بهم إلى الأماكن البعيدة ، وتعينهم بالماديات التى تمكنهم من مساعدة الناس ، والقيام بدور ريادة يؤدى إلى احترامهم ، وتقديرهم ، وتحقيق الهدف الذى يعملون له .
- . يجب على الدعاة أن يرتقوا بسلوكهم ، وأعمالهم ، وأن يبتعدوا عن مجالس الغيبة ، ومواطن الشبه ، وما أكثرها فى العصر الحديث .
- . على الدعاة أن يناولوا بأنفسهم عن الخلافات السياسية التى تسود المجتمع المذى يعيشون فيه .، وبخاصة أن أغلبها مناقشات ، وصراعات لا معنى لها ، وليس لها ارتباط بدين الله تعالى .
- . ويجب أن نستفيد من كل مفيد للناس .، ونحقق للدعاة المستوى المادى الذى يضعهم فى الريادة ، والقوة بدل أن نتركهم عالة على غيرهم عجرة عن تحقيق مطالبهم العادية ، لأن ذلك يضر دعوتهم قبل أن يضر أشخاصهم .

الركيزة الثانية

الاهتمام بتقوية الصلة بين الداعى والمدعو

فى مؤتمر الدعوة بالمدينة المنورة ناقش العلماء مسألة إقامة الدعاة وسط المدعوين ، واستقر رأيهم فى النهاية إلى أهمية أن تكون صلة الدعاة بالمدعوين متينة ، وثابتة ، لإيجاد الثقة ، والتعاون ، والمودة بينهم ، ذلك لأن الثقة فى الداعى عامل هام فى تصديق قوله ، والاستجابة لدعوته .

إن إقامة الدعاة وسط المدعوين يظهر ما عليه الدعاة من خلق ، وسلوك وعادة ... وما دام الدعاة يعيشون بمنهج الله تعالى فإن إقامتهم مع الناس يعد دعوة عملية نافعة ... وأما إن كانوا على تقصير ، وأخطاء فالأولى أن يبقوا حياتهم سرّاً عن المدعوين بالإقامة بعيداً عنهم .

لقد بعث ﷺ فى مكة ، وكل من فيها مرتبط به بصلة وقربة ، ولذلك ظل بينهم مدة طويلة ، وهم يعلمون أمانته ، وصدقه ، وكرم خلقه ، وتيقنت نفوسهم بصدق الإسلام ، ورجبوا فى الإيمان لولا أن الطغاة فيهم وقفوا للدعوة بالمرصاد ومن هنا ...

ننادى بتواجد الدعاة مع الناس .، وضرورة تمتين الصلة معهم .، لأن الدعوة بدون الداعية الإيجابية ، وبالمدعوين المقبلين عليه لا وجود لها فى الحقيقة .

وعلى الدعاة أن يكونوا مع الناس صوراً عالية تحتذى ، وخلقاً عملياً مع الآخرين ... وبذلك يتمكنون من القيام بدورهم المطلوب .

المبحث الثانى

الإرهاصات

عاش الناس قبل الإسلام مدة طويلة ، فى جاهلية ، وضلال ، وظلت حياتهم تسير بنمط واحد ، وفجأة وقعت أحداث عجيبة ، أهمتهم ، وزلزلت كثيراً من الثوابت التى ألفوها مدة طويلة ، وقد رأى الناس هذه الأحداث فى بلاد العرب ، وبلاد فارس ، وبلاد الروم .

لم ترتبط هذه الأحداث وقتها بأمر معين ، ولا بحدث يتوقعونه ... إلا أن الناس بعد ظهور الإسلام ربطوها به ، وجعلوها مقدمة له ، وسموها (إرهاصات النبوة) .

وسوف نتحدث عنها فيما يلى :

- ١ -

التعريف بالإرهاصات

الإرهاصات أمور خارقة للعادة تظهر للناس بصورة مفاجئة ، غير متوقعة ، وهم لا يعرفون سببها ، ولا يتوقعون حدوث آثار لها .

والإرهاصات جمع مفردة إرهاب أو إرهابية ، ويراد بها الأمر الخارق للعادة الذى يظهره الله قبيل مبعث نبي ما لفتا للانتباه ، وإشارة للتغيير .

وقد قضى الله سبحانه وتعالى وجرى قدره بحدوث أمور عجيبة على غير عادة الناس ، تدهش من يراها ، من غير اكتشاف ما تدل عليه ، وهى التى يعرفها العلماء بالإرهاصات. التى تختلف عن غيرها من المخوارق. الأخرى .

وهى:

- . المعجزة وهى أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد مدعى النبوة وفق مراد النبى تصديقاً له .
- . والكرامة أمر خارق للعادة يظهرها الله على يد عبد صالح لا يدعى النبوة بعد طلب منه تكريماً له .
- . والمعونة أمر خارق للعادة يظهرها الله تعالى لعبد صالح معونة له فى حاجة يحتاج فيها لمعونة ، ومساعدة .
- . والإهانة أمر خارق للعادة يظهرها الله على يد مدعى النبوة كذباً على غير مراده إهانة له .
- . والاستدراج أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى الألوهية كذباً وفق مراده استدراجاً له .

وبذلك تتغاير الإرهافات عن كل هذه الخوارق ، لأنها لا ترتبط بشخص معين ، ولا بدعوى معينة ، كما أنها تظهر غير متزامنة مع ما تدل عليه ، إلا أنها تدهش الناس ، وتفاجئهم بغرابتها ، وبخروجها عن مألوف الناس ، وبعد حدوث التغيير قد يحدث الربط بين الحدث ، وبين الإرهافات الماضية ، كما هو الحال معنا ، وقد لا يحدث ، وتبقى الحقيقة مكنونة فى علم الله تعالى .

وقد عاش المسلمون مع الإرهافات التى وقعت قبيل بعثة محمد ﷺ ، وأوردوها مسندة ، وآمن بها كثير منهم ، وحكوها تجلية للحق ، وبرهاناً على رعاية الله تعالى لنبيه محمد ﷺ . ولدينه الذى اختاره سبحانه وتعالى خاتماً للأديان كلها ، وللناس أجمعين .

صور للإرهاصات

أورد مؤرخو السيرة المحمدية ، عدداً من الإرهاصات ، وذكروا أنها وقعت قبل ولادته ﷺ ، ومعها ، وبعدها ، واستدلوا بها على صدق محمد ﷺ ، وتمتعه بالرعاية الإلهية ، والنصر ، والعون المكين .

من هذه الإرهاصات :

- . ما رواه محمد بن إسحاق عن حسان بن ثابت ؓ قال : " والله إنى لـغلام يـفـعة ، ابن سبع سنين أو ثمان ، . أعقل كل ما سمعت ، . إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أئمة بـ (يثرب) : يا معشر يهود ! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك ؟ مالك ؟!
- قال : طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به " (١) .
- . ما روى عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : " قال زيد بن عمرو بن نفيل ، قال لى خبر من أحبار الشام ، قد خرج فى بلدك نبى ، أو هو خارج ، قد خرج نجمه ، فارجع فصدقه ، واتبعه " (٢) .
- . ما رواه ابن سعد بسنده عن ابن عباس أن آمنة بنت وهب قالت : " لقد علقت به ، تعنى رسول الله ﷺ ، فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل منى خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب ، ثم وقع على الأرض معتمداً على يديه ، ثم أخذ قبضة من تراب فقضبها ، ورفع رأسه إلى السماء " .
- . ما رواه ابن سعد عن ابن عباس ؓ أن آمنة بنت وهب أمه قالت :

(١) صحيح السيرة ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦ .

" لما ولدته خرج منى نور أضاء قصور الشام ، ولدته نظيفاً ، كما يولد السخل ما به قدر ، ووقع إلى الأرض وهو جالس على الأرض بيده " (١) .

ما يرويه ابن سعد أيضاً أنه لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ارتج إيوان كسرى ، وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة .

ما يرويه ابن سعد أن كسرى رأى إبلاً صعباً تقود خيلاً عربياً ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادهم ، فلما أصبح أفزعه ذلك ، فتصبر عليه ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرارته فجمعهم ، ولبس تاجه ، وجلس على سريره ، فلما اجتمعوا عنده .

قال : أتدرون فيم بعثت إليكم ؟!

قالوا : لا إلا أن يخبرنا الملك .

فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران ، فازداد غماً إلى غمه ، ثم أخبرهم بما رأى ، وما هاله .

قال الموبذان . وهو أعلمهم : حدث يكون في ناحية العرب .

فكتب كسرى عند ذلك كتاباً جاء فيه :

من كسرى ملك الملوك ، إلى النعمان بن المنذر

أما بعد ...

فوجه إلى برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه .

فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة النسائي .

فلما ورد عليه قال له كسرى : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟

فقال : لتخبرنى أو ليسألنى الملك عما أحب ، فإن كان عندى منه علم

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٦٤ .

والأخبرته بمن يعلم ... فأخبره بالذى وجه إليه فيه .

قال عبد المسيح : علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام يقال له (سطيح) .

قال كسرى : فأتته فأسأله عما سألتك عنه ، ثم انتنى بتفسيره .
فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح ، وقد أشفى على الضريح ،
فسلم عليه وكلمه .

فلما سمع سطيح قوله ، رفع رأسه وقال : عبد المسيح ، على جمل
مشيح ، أتى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان ،
لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى إبلاً صعباً ، تقود
خيلاً عرباً ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت فى بلادها ، يا عبد المسيح إذا كثرت
التلاوة ، وظهر صاحب الهواية ، وفاض وادى السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة
، وخدمت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاماً ، يملك منهم ملوك وملكات
، على عدد الشرفات وكل ما هو آت آت .

ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته^(١) .
والإرهاصات التى ذكرها مؤرخو السيرة عديدة ، وكلها تشير إلى حدوث
أمر جديد يتأثر به العالم كله .

أدرك كل من شاهد هذه الإرهاصات ، أو بعضها حدوث هذا التغيير ،
لكنه لم يربطه بالمولود الجديد ، أما أهل الكتاب فلأنهم كانوا يقرأون الكتاب ،
ويرون صفة رسول الله ، مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، فإنهم ربطوا هذه
الإرهاصات بميلاد محمد ﷺ .

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

موقف العلماء من الإرهافات

سار العلماء القدامى على تصديق كل أثر صح سنده ، ولم يبحثوا عن علة الأثر ، أو غايته ، لأنهم رأوا أن من الأخبار ما هو متصل بأمر خارق للعادة ، لا يصل العقل إلى كنهه ، وحقيقته ، فوقفوا. عند حد ثبوت النص ، وتصديقه ، والعمل به ، ورأوا ذلك من الإيمان ، لأن الوحي ما دام قد صدق لديهم ، وآمنوا به ، فإن هذا التصديق يلزمهم بآثار الإيمان ، ولوازمه . ولذلك رأيناهم يروون إرهافات النبوة في مؤلفاتهم ، ودروسهم ، ولم يعلقوا عليها ، مما يدل على أنهم مصدقون لها ، راضون عنها ، سعداء بذكرها .

إلا. أننا في العصر الحديث وجدنا عدداً من المستشرقين ، والمسلمين الذين كتبوا في السيرة ، يرفضون الإرهافات باسم العلم والعقل من غير نظر إلى السند ، أو المصدر الذي روى الحدث ، مع اختلافهم في سبب الرفض وعلته .

فمنهم من رفض هذه الإرهافات بحجة أن الإسلام لا يحتاج إليها في حركته ، وانتشاره فهو دين يحمل عوامل التصديق به في ذاته .

كما أن. هذه الإرهافات. لم تؤد. إلى إسلام أحد . ولم تكن دليلاً على صدق الرسالة يوم بعث محمد ﷺ ...

وأيضاً فلقد ولد مع النبي ﷺ في يوم مولده غيره ، ومن الممكن أن يدعى أهل هؤلاء الأبناء ، وقومهم أن هذه الإرهافات بسبب ميلاد أبنائهم ، وحينئذ لا يرون استفادة الإسلام بهذه الإرهافات فلا داعي إلى القول بها سواء حدث وقوعها ، أم لا .

إن هذا الفريق لا يصرح بكذب الإرهافات ، ولا يقول بثبوتها ، ويجعل

رفضه لها فى عدم جدواها للدعوة الإسلامية .

يمثل الأستاذ/ عباس العقاد هذا الفريق ويقول : علامات الرسالة الصادقة هى عقيدة تحتاج إليها الأمة ، وهى أسباب عملية تدعو لظهورها ، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أوانها ، فإذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها ؟! ...

وإذا تعذر تجمع هذه العلامات فأى علامة غيرها تتوب عنها ؟
أو تعوض ما نقص منها ؟

وقد خلق الله محمد بن عبد الله ليكون رسولاً مبشراً بدين ، وإلا فلأى شئ خلق ؟ ...

ولأى عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ؟
وكل هاتيك المناقب والصفات ؟ ... التى تميز بها .

إن المؤرخين يجهدون أقلامهم غاية الجهد فى استقصاء بشائر الرسالة المحمدية ويسردون ما أكده الرواة منها ، وما لم يؤكدوه ، ويذكرون ما قبله الثقات منها ، وما لم يقبلوه ، ويحكون ما أيدته الحوادث ، أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة ، أو عارضته ، ويتفرقون فى الرأى والهوى بين تفسير الإيمان ، وتفسير المعرفة ، وتفسير الجهالة .

فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة فى آثار تلك البشائر التى سبقت الميلاد ، أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة ، واستفاض أمر الإسلام ؟
... لا موضع هنا لاختلاف .

فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر فى إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبى ﷺ بالرسالة .

ولم يكن ثبوت الإسلام متوقفاً عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يوماً مغزاها ، ومؤداها ، ولا عرفوا أنها علامة على شيء ، أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة .

ولأن الذين سمعوا بالدعوة ، وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشاره واحدة منها ، ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه ، واحتاجوا إليه .

وقد ولد مع النبي ﷺ أطفال كثيرون فى مشارق الأرض ومغاربها ، فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره .
ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين ، إلا بعد عشرات السنين ، يوم أتت الدعوة بالآيات والبراهين ، غنية عن شهادة الشاهدين ، وإنكار المنكرين .

أما العلامة التى لا التباس فيها ، ولا سبيل إلى إنكارها ، فهى علامة الكون ، وعلامة التاريخ .

قالت حوادث الكون : إن الدنيا فى حاجة إلى رسالة .

وقالت حقائق التاريخ : إن محمداً ﷺ هو صاحب تلك الرسالة .

ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون ، وعلامة التاريخ^(١) !!!؟؟

ومن العلماء والمستشرقين فريق يرى ضرورة عرض هذه الإرهافات على العقل ، فهو ميزان. المقبول. والرفض .، فى إطار. الأسس العلمية .، التى اعتمدها المستشرقون ، حيث يعتمدون على العقل اعتماداً كاملاً فى إدراك كل شيء .

(١) مطلع النور ص ١١ . ١٣ .

وحتى تظهر النظرة العقلية فى صورة الحياد العلمى عند أصحاب هذا الاتجاه نراهم يعرضون المرويات المتصلة بالإرهاصات على القرآن الكريم أحياناً ، فما اتفق معه منها قبل ، وما لم يتفق فمصييره الرفض وعدم القبول ، مع أن القرآن يتحدث عن الخوارق المعجزة وغيرها ، وهم يسلمون بها مع أن إدراك حقيقتها فوق إدراك العقل بالضرورة .

وعلى أساس فكرهم هذا رفضوا كثيراً من الإرهاصات ، كما رفضوا كثيراً من أحداث السيرة لخروجها على عادة العقل ، ولسكوت القرآن عنها ، ولربما جاءوا لموضعها فى القرآن الكريم ، وأولوه ، بما يؤيد موقفهم الرفض لمرويات السيرة والتاريخ ، وذلك كموقفهم الرفض لحادثة شق الصدر وغيرها^(١) .

وحين ننظر إلى هؤلاء. وهؤلاء. ندرك الفرق بينهم . فكلاهما يرفض الإرهاصات المروية ، إلا أنهما يختلفان فى سبب الرفض ، حيث يذهب الفريق الأول. فى سبب رفضه إلى عدم فائدتها للدعوة . بينما الفريق الثانى ينكر وجودها لعدم تسليم العقل بها .

وقبل أن نرد عليهم أشير إلى أن أحداث هذه الإرهاصات جاءت على غير ما ألفه الناس ، وأقل ما تتركه فى العقول هو البحث عن فاعلها ، ومحاولة معرفة أسباب وقوعها بهذه الصورة الخارقة ، وفى ذاك الوقت بالذات ، وهذا كاف فى توجيه الأنظار إلى التفكير ، والتدبر ، وأن يصل النظر لشيء ، ولو كان مجرد التنبيه ، وشحذ الهمم .

الرأى الذى نراه فى الإرهاصات

الفريقان المعارضان للإرهاصات على خطأ فيما ذهبا إليه لاعتمادهما على الإدراك العقلى وحده ، وثقتهم المطلقة بقدرته فى الوصول إلى حقائق كافة الأمور ، وأسبابها ، ويمكن إجمال خطئهما فيما يلى :

أولاً :

ضرورة التفريق بين الجانب العقلى ، والصورة النبوية ، لأن النبوة وحى مستمد من الله تعالى ، وقدرة الله تعالى مطلقة ، تعلو كثيراً عن نطاق العقل البشرى ، وطاقته المحدودة ، المقيدة .

ولذا. كانت النبوة محاطة بخوارق. المعادات. ، فكيف تدرك. حقائق هذه الخوارق. بالعقل المحدود. ، المعاجز عن إدراك. ما غاب. عن نطاقه الحسى والمعنوى زماناً ، أو مكاناً ، أو كوناً معاصراً .

لقد حاول. كفار. مكة مواجهة النبوة بعقولهم ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾^(١) . وحجتهم فيما طلبوه أن النبوة رئاسة ، وقيادة ، وجدير بها العظماء المشهورون بالغنى ، والجاه ، والسطوة ولذلك طلبوها لأحد عظماء مكة ، أو الطائف .

ولو عرضنا هذا المنطلق على العقل وحده لكان منطقاً مسلماً ، فالعظيم بماله يعطى ويسود ، وبجاهه يأمر ويطاع ، وبقوته وسطوته يوجه ، ويسيطر ، ويحكم .

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣١ .

أما لو عرضناه على منطق النبوة والوحى فإن الأمر يختلف كما قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١) ، والآية ببساطة تعرض صوراً يعيشها الإنسان ، ويعجز العقل عن إدراك أسرار وجودها ، ومعرفة أسبابها ، وعللها ، واكتشاف الغايات من حدوثها . وهذه الصور يعيشها كل الناس . وهى :

. حظ كل إنسان فى الدنيا .

. تفاضل الناس فى الدرجة والمقام .

. تسخير البعض للبعض .

إن هذه أمور قدره بحتة ، يهئ الله أسبابها ، ويجريها كما يريد وفق رحمته ، وحكمته ، وليس لمجادل فى هذا الشأن حديث .

إن النبوة رحمة من الله تعالى يعطيها لمن اصطفاه ، واختاره ، ولا دخل للعقل فيها ، لأن العقل محدود التصور ، محدود الإدراك ، فكيف له أن يتدخل فى رحمة الله وعطائه !!! ...

إن العقل يعجز فى إدراك شأن صاحبه ، ولا يستطيع له أمراً ، فأمر الدنيا تجرى بقدر الله تعالى ، ولا يمكن لإنسان أن يخرج عن هذه القدرة الإلهية .

إن المغنى ، والمفقر ، والسعادة ، والشقاوة ، والصحة ، والمرض ، والتيسير ، والتعسير ... وطول العمر ، وقصره ... كل ذلك وغيره قدر لا دخل للإنسان فيه ... فأين العقل إذاً فى هذه المجالات !!! ...

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣٢ .

إن القدر الإلهي قد يرفع إنساناً ، أو يخفضه ، وقد يحرمه ، أو يعطيه ، وقد يمكنه من استخدام كثير من العقلاء الموهوبين ، مع أن حظه في العبقريّة قليل ، مما يدل على أن الأمر بيد الله رب العالمين .

إن العقل البشري قد يتصور العظمة في الأمور المظاهرة . كالغنى ، والوظيفة ، والسلطان ، وتثبت الأيام والتجارب أن العظمة الحقيقية في الجوانب المعنوية ، المستورة التي يعلمها الله تعالى وحده ، ولذلك كانت النبوة قدراً إلهياً ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾^(١) .

لقد استعمل القرشيون عقلهم أيضاً أمام الوحي ، ومع القدرة الإلهية في حادثة الإسراء والمعراج ، وأنكروا على رسول الله ﷺ ما قاله لهم ، وقالوا له : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتزعم أنك تأتيها في ليلة واحدة ؟! ...

لقد أملى عليهم عقلهم استحالة ما سمعوا من رسول الله ، لأن العقل لا يسلم أبداً بأن يسافر إنسان ما في زمان النبوة والبعثة ، من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ، ويعود في ليلة واحدة ، ونسوا أن الذي أسرى برسول الله هو الله تعالى ، والفاعل هو الله تعالى يقول سبحانه ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِن مِّنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢) .

ويقول النبي ﷺ : "أسرى بي الليلة"^(٣) ، ولم ينسب الفعل لنفسه .

إن أصل الخلاف بين الرسول وأهل مكة في هذه الحادثة هو فهم مصدر الفعل والتصور ، فأهل مكة يعتمدون على عقولهم ، بينما الرسول ينطلق من

(١) سورة القصص ، الآية ٦٨ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي . باب الإسراء ج ٢ ص ٢١٠ .

الوحى والنبوة .

لقد ذهب الكفار إلى أبى بكر ﷺ ليكون معهم فى تصورهم العقلى ، وينكر معهم الإسراء والمعراج ... وتصوروه مع العقل وحده .

لكنه ﷺ بمنطق الإيمان بالنبوة والرسالة رد. عليهم قائلاً : إن قال فقد صدق ، إنه يخبرنى أن الوحى يأتية من السماء فى لحظة وأنا معه فأصدقه أفلا أصدقه هنا ؟!

إن البعض قد يتصور أن إيمان أبى بكر فى شأن حادثة الإسراء والمعراج ، وغيرها قد بنى على غير تفكير ، أو على أساس الإيمان فقط بعيداً عن العقل ، وهذا تصور غير صحيح لأنه ﷺ علم الجميع درساً فائقاً ، فى كيفية استعمال العقل ، وحدوده التى لا ينبغى لإنسان أن يتجاوزها .

إن العقل له أن. يفكر فى صدق. رسالة الرسول. ، فإذا. ثبت لديه صدق الرسول فالنتيجة الحتمية الموافقة .

لأى منهج عقلى أن يؤمن بكل ما صدر عن ذلك الرسول ، بدون تدخل للعقل ، لأن الرسالة ، مستمدة من الله ﷻ ، وقدرة الله صالحة لكل فعل خالف العقل ، أو توافق معه ، وذلك هو جوهر القياس العقلى الذى أجراه أبو بكر أمام المشركين ، لقد قال لهم : إنه يقول لى إن الخبر يأتية من السماء فى لحظة فأصدقه ، فأى غرابة فى منطق العقل ، والعلم أن يصدقه بعد ذلك فى أنه قد أسرى به إلى بيت المقدس ما دامت القدرة التى أنجزت هذا الفعل هى قدرة الله ﷻ .

فليخجل أتباع المدرسة العقلية من أنفسهم وليتعلّموا ذلك الدرس العظيم على يد أبى بكر فى كيفية استخدام العقل^(١) .

(١) السيرة النبوية للشيخ الشعراوى ص ٥٧ ، ٥٨ .

يقول ابن عطاء الله السكندري : زار بعض السلاطين ضريح أبي يزيد ؑ

وقال : هل هنا أحد ممن اجتمع بأبي يزيد ؟

فأشير إلى شيخ كبير في السن كان حاضراً هناك .

فقال له : هل سمعت شيئاً من كلام أبي يزيد ؟

فقال : نعم : سمعته يقول : " من زارني لا تحرقه النار " .

فاستغرب السلطان ذلك الكلام ، فقال : كيف يقول أبو يزيد ذلك ، وأبو

جهل رأى النبي ﷺ وتحرقه النار ؟

فقال ذلك الشيخ للسلطان : أبو جهل لم ير النبي ﷺ ، إنما رأى (يتيم

أبي طالب) ولو رآه ﷺ رسولاً ما حرقته النار^(١) .

ففهم السلطان كلامه ، وأعجبه هذا الجواب منه ، أي إنه لم يره بالتعظيم

والإكرام ، والأسوة ، واعتقاد أنه رسول الله ، ولو رآه بهذا المعنى لتغير حاله

لكنه رآه باحتقار ، واعتقاد أنه (يتيم أبي طالب) ، فلم تنفعه تلك الرؤية .

وما كان المستشرقون في تركيزهم على بشرية الرسول إلا متابعين في ذلك

لهذه النزعة الجاهلية ، وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين

إنما هو بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين في هذه النزعة ، أو يتابع أبا جهل ،

وهم في ذلك ليسوا تقدميين ، ولا تطوريين ، وإنما هم رجعيون ترجع فكرتهم إلى

ما قبل خمسة عشر قرناً مضت ، يترعهم فيها أبو الجهل كله ، وأبو الظلمة

القلبية كلها !!!

ليس هناك إذن اجتهاد ، وخطأ ، وصواب ، وإنما هناك تصرفات تصدر

عن المكرم. وللرحمة .، فيتحدث. الله .، ميبناً طبيعة رسوله المكرمة .، وفطرته

الرحيمة ، ورأفته الواضحة ، ويبين في الوقت نفسه أن بعض هؤلاء الذين فاضت

(١) مع النبي للدكتور عبد الحليم محمود ص ٥١ .

عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها ، وليسوا أهلاً لها ، لفساد طويتهم وسوء نواياهم .

ومن الحقائق المعروفة أن الإنسان يميل إلى التركيز على (بشر) أو على (يوحى إلى) حسب قوة شعوره الدينى وضعفه .

فالذى لا إيمان له لا يرى إلا البشرية ، والعقل ، والمنهج الوضعى .
ومن ضعف إيمانه يركز على العقل .

ويخف التركيز على البشرية كلما قوى الإيمان . ، ويزداد التركيز على (يوحى إلى) ، كلما ازداد الإيمان حتى يصل الإنسان إلى مستوى ألا يرى ، أو لا يكاد يرى إلا (يوحى) ...

هناك إذن طرفان يمثلان فريقين من الناس ، طرف (بشراً) أو ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾^(١) ، وطرف ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾^(٢) ، أو (رسولاً) ، وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يحصى من المسلمين نزولاً وارتفاعاً ، انخفاضاً وسمواً إن مقياس الإيمان قوة وضعفاً ، إنما هو ما وقر فى القلب ، أو غلب عليه . من (البشرية) أو من (يوحى إلى) . ، إنهما يمثلان ما يوضع فى كفتى ميزان^(٣) .

إن النبوة اصطفاء إلهى ، ولختيار ربانى ، لا يدرك سرها إلا المقادر العظيم ، ومن الضروري أن توضع فى موضعها ، ويقف العقل عند حده ، وبذلك يتميز جانب النبوة عن جانب البشرية فى التصور الإنسانى .

ثانياً :

(١) سورة الكهف ، الآية ١١٠ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٢٠٣ .

(٣) مع النبى ﷺ ص ٥٢ .

التفرقة بين الجانب الإلهي ، والجانب البشرى تكريم للإنسان ، واحترام للعقل لأن الإنسان إن أدرك حقيقة ذاته ، وعرف حقوقه ، وواجباته ، وتمكن من القيام بما هو مسئول عنه ، ونال ما هو محتاج إليه فى كمال ودقة ، كان هذا تكريماً له .
 وحينما يكلف العقل بما هو ممكن ، وحينما يعيش فى إطار قدرته الذاتية ينال رضى نفسه ، ويحسن تفكره ، وتدبره ، ويصير مصدر السعادة ، والخير لذاته ولصاحبه .

وحينما يخرج الإنسان عن طاقته ، ويتمادى العقل بعيداً فوق مداركه ، واستعداداته ، فإنه يضل ، ويزيغ عن الحق ، ويجلب على صاحبه الاضطراب ، والضياع .

من أين للإنسان أن يتصل بقدرة غيبية بعيداً عن ميزان النبوة؟! ومسالكتها؟!
 ومن أين للعقل أن يدرك الغيب الخفى ، مجرداً عن أدواته ومصادره؟؟...
 إن العقل ليس هو النبوة ، ولذلك يجب أن يكون عقلاً فقط ، ويجب أن يؤمن العقل بالنبوة ليعرف ويعلم ، ويؤمن ويهتدى .

ثالثاً :

يتصور القائلون بالعقل أنهم تقدميون ، يسلكون منهجاً علمياً معاصراً ، وما دروا أنهم حين أعملوا العقل فى مقابل النبوة ، والإرادة الإلهية ، رجعوا إلى عصور سحيقة ، وتشبهوا بمخلوقات قديمة ، اعتمدت على عقلها ، وبذلك أثبتوا رجعتهم ، وتخلفهم .

ألم يقف إبليس بعقله أمام الوحي والنبوة ، حين أمره الله بالسجود لآدم عليه السلام حيث أبى وقال ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ ^(١) ...
 وتمسك برأيه ، وتصور صوابه ، مع أنه قائم على الضلال ، والهوى ...؟!!

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٢ .

(٢٠٢)

على هؤلاء القائلين بالعقل فقط أن يروا مدى رجعتهم ، وتخلفهم ، ويعلموا أنهم تشبهوا مع أمثالهم الذين وجدوا مع آدم ﷺ فى القول والتوجيه .

رابعاً :

يرى المنكرون للإرهاصات النبوية غرابة لا يستسيغها العقل ، ولذلك سارعوا إلى إنكارها ، أو السكوت عنها ، ومن عجب أن هؤلاء المنكرين أغلبهم من المستشرقين غير المؤمنين بالإسلام ، الذين يدينون بالمسيحية ، أو باليهودية أو بغيرهما ، أو لا دين لهم ، ولذلك نسألهم :

. أيها أكثر غرابة فى العقل امرأة تحمل بلا زوج ، أم انطفاء نار ؟

. وأيها أقرب للعقل اهتزاز قصر ، أم ولادة طفل بغير أب ؟! ...

إن المسلم يصدق بكل هذا ، لأنه يؤمن بقدرة الله المطلقة ، ويؤمن بنبوة

عيسى ﷺ ...

ولكن السؤال نوجهه لهؤلاء الذين يحاولون تفسير الإسلام تفسيراً عقلياً ،

بعيداً عن بيئته ، وطبيعته . ونقول لهم :

. لو وقفنا أمام كل غريبة من الغرائب ، ولم نسلم بها ، وأخذنا

نعرضها على التجربة ، والقواعد العقلية ، فسوف نهدم كثيراً من

وقائع الحياة التى نعيشها ، فكم فيها من الغرائب والعجائب ؟!

. إن كون الله معجز كله ، وتصور إيجاده فوق مستوى العقل كسائر

أسرار الله فى الخلق .

. كيف وجد العقل ؟ ... وكيف يتصور ، ويفهم ، ويحكم ؟

. كيف للقلب أن يعمل ؟ ... ومتى ينشط ؟ ... ومتى يتوقف ؟

. كيف تقوم الجوارح ، والأحاسيس ، والعواطف بوظائفها ؟

(٢٠٣)

. إن كل ذلك وغيره قدرة إلهية ، لا يدرك العقل حقيقتها ، وكنهها
مما يجعلنا نقول لهؤلاء : متى تقفون بالعقل عند طاقته ، وحدوده
؟ ... متى ... ؟؟

خامساً :

المنكرون للإرهاصات ، والأحاديث يحكمون القرآن الكريم حينما يتصورون
تعارض الأحاديث ، ومرويات السيرة معه ، لأنهم لا يريدون تكذيب القرآن . كما
يزعمون . ولكنهم يردون السنة فقط ، حتى يظهروا بمظهر الإنصاف والحياد .
ألم يعلموا أن السنة الصحيحة لها حجة شرعية كحجية القرآن الكريم ؟
ألم يدركوا أن السنة النبوية هي الأخرى وحى من الله ؟
ألم يعلموا أن القرآن الكريم يحتاج للسنة ليظهر ، ويفهم ؟
والأمر المهم هنا ، هو سؤالهم لم صدقتكم بالقرآن الكريم ، وهو وحى صادر
عن الغيب ؟

وهل دفعكم تصديق القرآن الكريم إلى الإيمان بما جاء فيه ؟
وقد جاء فيه ضرورة الإيمان بالنبوة ، والوحى .، وتسليم الأمر لله رب
العالمين .

إن إنكار الوحى الغيبى إنكار للإسلام كله .

يقول الدكتور/ سعيد البوطى : إن الهمس الذى يدعو المسلمين إلى ثورة
علمية إصلاحية فى شئون العقيدة الإسلامية يستهدف فى الحقيقة نفس الإسلام
كله ، لأن تفريغ الإسلام من حقائقه الغيبية ، يعنى حشوه بأمر عقلية غريبة عنه
لأن الوحى الإلهى يعد قمة الخوارق ، والحقائق الغيبية كلها ، ولا ريب أن الذى
يسرع إلى رفض ما جاء فى السيرة النبوية من خوارق العادات بحجة اختلافها عن
مقتضى سنن الطبيعة ، ومدارك العلم الحديث ، يكون أسرع إلى رفض الوحى

(٢٠٤)

الإلهي كله ، بما يتبعه ، وما يتضمنه من إخبار عن النشور ، والحساب ، والجنة ، والنار .

كما غاب عنهم أن الدين الصالح في ذاته لا يحتاج إلى مصلح ، يتدارك شأنه ، ولا يحتاج إلى إصلاح يغير من جوهره .

غاب عن هؤلاء الناس هذا كله ، مع أن إدراكهم له كان من أبسط مقتضيات العلم لو كانوا يتمتعون بحقيقته ، وينسجمون مع منطقيته ، ولكن أعينهم غابت في غمرة انبهارها بالنهضة الأوربية الحديثة ، وما قد حف بها من شعارات العلم ، وألفاظه ، فلم تبصر من حقائق العلم ، والمنطق إلا عناوينها ، وشعاراتها ، وقد كانوا بأمس الحاجة إلى فهم كامل لما وراء تلك العناوين ، وإلى هضم صحيح لمضمون تلك الشعارات^(١) .

سادساً :

من الحقائق المسلمة أن عديداً من الأطفال ولدوا يوم مولد محمد ﷺ لأن هذه من الضرورات العقلية المسلمة .

ومع ذلك فلا تعارض بين كثرة المواليد ، وهذه الإرهاصات ، لأن القائلين بها لا يتخذونها دليلاً على معرفة الله ، أو التصديق بالرسالة ، والرسول ، وإنما يتصورونها رمزاً قديماً لإعلان جزء من القدرة المتحركة في هذا الكون ، وتهيئة العقول لاستقبال منقذ البشرية ، ومحررها من ظلمات الطغاة ، وعبث العابثين ، المرسل من الله العزيز الحكيم .

وحين نقول . والقول حق . إن أيام مولد النبي ﷺ شهدت حدثاً فريداً ثابتاً لا يمكن للعقل تصوره ، مع أنه حقيقة ثابتة ، وهو هلاك جيش أبرهة بحبات الحصى تنزل على الرؤوس فتجعلها كعصف مأكول ... نعم العقل لا يتصور أن حبات

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٣٩ .

الحصى الصغيرة تملك قوة فكرية تمكنها من اختراق الرأس ، والتحرك نحو من تريد قتله !! بلا أدنى خطأ ... وهل يمكن لحصاة صغيرة أن تدبر ، وتقتل ، وتفعل كل هذا ؟!

إنها حادثة فوق مستوى العقل ... ولكنها حقيقة وقعت لقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ﴿١﴾ أَلَمْ تَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ^(١). وكان حدوثها بعد ميلاد النبي ﷺ بخمسين يوماً على الأرجح.

وما الذى يمنع أن تكون هذه الحادثة من إرهاصات المولد النبوى ...!!
إن القضية فى النهاية ليست منهجاً علمياً ، أو عقلياً ، بقدر ما هى قضية ، إيمان وتسليم ... فالمؤمن يصدق بالخبر إذا اشتمل على صدق روايته ، ويكذبه إذا لم تأت الرواية صحيحة ، مقبولة .

أما غير المؤمن فإنه ابتداء لا يصدق ، وبعدها يبحث عن مبرر يؤيد مقالته وتكذيبه ... وكثيراً ما كذبوا الثابت بالضرورة العقلية ، والبراهين المنطقية !!!

سابعاً :

الوجود كله خضع ، واستسلم لله تعالى ، إلا أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى تمرد على الحق ، ولعب به الشيطان . يقول تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجِبَالُ وَالنَّجُومُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن

(١) سورة الفيل ، من الآية ١ : ٥ .

يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٠٦﴾^(١) .

والآية توضح هذه الحقيقة التي يجب أن تعرف معرفة من رأى ، وشاهد لقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ . هذه الحقيقة تبين ما يلي :

١ . كل من فى السموات والأرض وما بينهما ، صغيراً ، أو كبيراً ،

خاضع ومستسلم لله تعالى .

٢ . المخلوقات الكبرى المنتظمة فى عملها كالشمس ، والقمر ،

والنجوم ، والجبال ، والشجر ، والدواب خاضعة ، خاشعة لله

رب العالمين .

٣ . أنقسم الناس إلى قسمين : قسم خضع ، وخضع لله ، وسلم بما

نزل الوحي به ، وهو القسم الفائز الناجى .

أما القسم الثانى فهو قسم متمرّد ، ضال ، ينكر ما جاء الوحي

به بحجج واهية ، ولذلك حق عليه العذاب ، ووجبت له اللعنة ،

ولحقه الهوان ، لأنه مطرود من رحمة الله تعالى .

إن هذه الحقيقة بعناصرها المذكورة تؤكد حاجة الكون إلى التوازن بعودة

الإنسان إلى الله حتى يأتلف مع الكون فى حركته ، ونشاطه .

ألا يحق لهذا الكون الخاشع أن يسعد يوم ميلاد رسول الله ﷺ الذى سيبعث

لإعادة هذا التوازن ، وليضع الإنسان فى إطار الطاعة لله رب العالمين .

ولم لا تعد الإرهاصات صورة لفرح الكون للحدث الجديد !!؟

يقول الشيخ/ محمد متولى الشعراوى : نقرأ فى كتب السيرة أنه حدث فى

يوم مولده ﷺ : أن انشق إيوان كسرى ، وغاصت بحيرة ساوه ، وخمدت نيران فارس

... إلى آخره ، وهذه هى المعروفة بإرهاصات النبوة .

(٢٠٧)

نجد بعض الناس يرددها بأسلوب التأدب مع سيرته ﷺ ، ولكنه لا يتعرض لها بالنفى ، أو التأييد ، وإن كان يقترب من الفرض ، وربما ذهب بعض الناس الذين لا يريدون الإقرار بهذه الظواهر ، أو المعجزات الكونية إلى أن الرسول ﷺ ليس فى حاجة إلى هذه المعجزات الكونية .

أما وقد وضح أن الرسول ﷺ جاء ليعيد انسجام الإنسان مع الكون الساجد وأن كل ما فى الوجود يسجد ، ويسبح لله ، غير أن الجنس البشرى هو الذى يشذ بعضه عن الإجماع فى الخضوع ، والسجود لله ، فإن هذه الظواهر الكونية المخلوقة لله والعبادة له بلغت كما أثبتها القرآن ليس مستبعداً أن تفرح ، وأن تتبهج بمثل هذا المولد ، مولد الإنسان الأعظم ﷺ الذى جاء ليعيد إلى الإنسانية رشدًا .

فإذا عرضت لنا السيرة أن أشياء من الكون فرحت بمولد الرسول ﷺ ، أو حدثت منها أشياء ، فذلك أمر لا نستبعده على كون مسبح لله ، عارف بحق الله وأيضاً لسنا نحن المطلوبين بأن نؤمن بهذا ، ولكن الذين آمنوا بها هم الذين شاهدوها ، وهم الذين سمعوا عنها ، فالذين سمعوها حجة على أنفسهم ، ونحن نتلقى عنهم الخبر ، فإن كنا موثقين لهم فى الخبر صدقناه ، وإن لم يتسع ظننا لتوثيقهم فى خبرهم فنحن أحرار فى أن نصدق أو لا نصدق ، ولكن منطق الوجود لا يمنع حدوث شئ من ذلك أبداً ، فإذا ذكر أن إيواء كسرى قد انشق ، فماذا فى ذلك من الدهشة ؟ وماذا فى ذلك من العجب ؟

أنستبعد أن يوقت شق الإيوان بالميلاد المحمدى ؟

ولم يكون هذا الاستبعاد ؟

أننكر على الله أن يطفئ نار فارس التى تعبد من دونه ، وأن يوقت ذلك

بالميلاد المحمدى ؟

وما سبب الإنكار ؟

أنتصور أن لا تغيب بحيرة ساوة مع الميلاد المحمدى ؟

(٢٠٨)

ولماذا هذا التصور^(١) .

ألم ينشق القمر نصفين معجزة لرسول الله ﷺ ؟

ألم يفيض الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ ؟

ألم يحدثه الحجر ، والشجر ؟

ألم يوحى إليه ﷺ ؟

ألم ينزل القرآن الكريم ؟

ألم يخبر بالغيب يأتيه ، والكل لا يعلمه ؟

ألم ... ؟

ألم ... ؟

ألم ... ؟

وقد يرد هنا السؤال :

وهل تدرك الكائنات ؟

نعم الكائنات مدركة عابدة لربها ...

لنقرأ قول الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنَ الْمَنَاطِقِ ۚ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ

الْمُبِينُ ﴿٢٠﴾ ۝ (٢) .

ونقرأ قوله تعالى ، وهو يحكى حديث النمل والهدد . يقول تعالى ﴿ حَتَّىٰ

إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ۖ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا

تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ۖ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢١﴾ ۝ (١) . ويقول تعالى ﴿ وَتَفَقَّدَ

(١) السيرة النبوية ص ٦٣ .

(٢) سورة النمل ، الآية ١٨ .

الطير فقال ما لي لا أرى ألهدد أم كان من الغائبين ﴿٦﴾ لأعذبته
عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ﴿٧﴾ فمكث غير بعيد فقال
أحطت بما لم تحيط به وجئتكم من سبإ نبياً يقين ﴿٨﴾ ﴿١﴾...

ألا يدل ذلك على أن الكون يدرك ، فلطير منطقته ، وللنمل فكره ، وقوله ،
وللهدهد تخطيط ، وفهم ، وعمل .

ثامناً :

ونحن في إطار الدعوة ندرك ضرورة وجود المنبهات الموقظة قبيل عرض
الشي الهام ، لينتبه الغافلون ، ويستيقظ النائمون ... وهذه قضية علمية معاصرة .

تاسعاً :

وكان من قدر الله لإسكات الأدعياء أنه لم يدع أحد ممن ولد في يوم محمد
ﷺ النبوة . لتتحصر الإرهاصات في شأنه وحده ﷺ ، ولنقول للمعارضين : هاتوا
ادعاء النبوة لأحد ولد في يوم ميلاد محمد ﷺ .

عاشرًا :

لم يدع أحد أن الإرهاصات دليل النبوة ، ولكنها إشارات للتغيير ، وتنبيهات
على قدرة الله تعالى ، وعلامات على سعادة الكون بالميلاد الجديد .
ألا يدفعنا استيعاب هذه القضية إلى اعتبار أن هذه الإرهاصات جاءت بقدر
الله للتنبيه ، وليعلم من يعقل أن لا دوام لمخلوق ، وما يلحقه النقص ، والتغيير
ليس بإله ، وكل ما يلحقه العجز ، والهلاك ، والانتها ، فهو مخلوق لله رب
العالمين .

(١) سورة النمل ، الآية ١٨ .

(٢) سورة النمل ، من الآية ٢٠ : ٢٢ .

ركائز دعوية من الإرهاصات

جرت عادة الناس أن النائم لا يمكن التحدث معه ، وأن الغافل يقل تركيزه عن غيره ، ولذلك التزم المربون بضرورة وجود منبهات قوية ، لإيقاظ النائم ، وتنبيه الغافل لجذب قوى الإنسان نحو فهم ما يراد منهم .

المجندي في الجيش يبدأ نشاطه بعمل رياضي مكثف يتضمنه طابور الصباح ، والدرس في المدرسة يبدأ بجرس موقظ ، والمدرس يبادر بالأسئلة المنشطة .

وهكذا ...

يحتاج الإنسان لمن ينبهه ، ويوقظ همته ، ويجذب فكره نحو ما يريد ...

ولذلك كانت الإرهاصات .

كانت الحياة تمر على رتابتها ، وجاهليتها ، وسط غفلة العامة ، وسطوة الخاصة ، وتسلط الأمراء والسلاطين ... مع إهمال التفكير ، والنظر ، والتأمل ...

وكان الحال في حاجة إلى من يحرك المياه الراكدة ، وينبه النوم الغافلين ...

ولا بد لهذا المحرك الموقظ أن يلمس مراكز الإحساس في دنيا الناس يومذاك .

لقد استقر أمر الناس على عبادة النار ، والماء ، والأوثان ، والأشخاص ، في ظل استغلال الكهنة ، وطغيان السلطين ، واستسلام الجماهير .

ولذلك

جاء المحرك في هذه الإرهاصات التي أنهت ما كان ثابتاً ، وأهلك ما كان مستقراً ، وأثبتت هوان ما ظنه الناس آلهة تعبد .

لم تأت الإرهاصات لدعوة الناس للإسلام ، لأن زمن البعثة لم يأت بعد ، ولم تكن داعية لدين جديد ، لأنها لم تصاحب نبوة ، ولا رسالة ... وإنما جاءت فى تصورى . والله أعلم . لتحقيق زلزلة كبرى تحرك حياة الناس وتنبههم على فساد ما يتصورونه صلاحاً ، وإسقاط ما ظنوه أرباباً وآلهة ... وبذلك يسقط المنتفعون ، المستفيدون بهذا الضلال .

وبسقوط الآلهة ، ومكوناتها تبدأ العقول فى البحث من جديد عن إله ، وقيم ، وعبادة ، ونسك ... ولسوف تأتى بعد حين بإذن الله تعالى ...
ومن هنا ...

ندرك حكمة الإرهاصات ... ونرد على من يشكك فى جدواها ، وفائدتها .
ونقول للدعاة : خذوا درساً من حدوث الإرهاصات ، وفوائدها ، واعلموا أنكم تخاطبون إنساناً له واقعه ، وظروفه ، والواجب مراعاة هذا الواقع ...
إن وجدتم إنساناً غافلاً ... فلا تحدثوه عن دعوتكم ابتداءً ، وإنما حاولوا إيقاظه من غفلته بطريقة تناسبه ...
وإذا رأيتم أناساً يشغلهم الهوى فأصرفوهم عن هذا الهوى قبل أن يتحدثوا معهم فى دعوتكم .

وإذا رأيتم أناساً على ضلال فلا تبدأوهم بالهجوم ، وإنما عاملوهم برفق ، وبينوا لهم خطأ ضلالهم بمنطقهم ... ولا تتعجلوا أمر الدعوة ، لأن تنظيم الدعوة خير من العجلة ... ولا بد من الاستفادة من المنبهات الموحية الموقظة للعقل ، المولدة للانتباه .

إن مؤسسات الاتصال المعاصرة تنادى باستعمال المنبهات بالصوت ، والصورة ، والحركة ، فنجدهم يستعملون اللقطات الموسيقية وسط الحديث ، ويبرزون الصورة مع الحدث ، وينتقلون مع المشاهد إلى الصور المتغيرة ، والأحداث المثيرة ، والمناظر العجيبة واللقطات المدهشة المناسبة للحدث .

إن الدعاة فى حاجة ماسة لينجحوا ، وعليهم الاستفادة بالمتغيرات الموقظة ،
والمنبهات المؤثرة .

وحين نتأمل فى مشروعية خطبة الجمعة ، وصورتها الفنية نرى أنها تبدأ
بالتمهيد الموقظ حيث ذكر الله ، والصلاة على رسول الله ﷺ وإيراد آيات التقوى
... وبعد ذلك تأتى الإشارة إلى الموضوع بآية قرآنية ، أو حديث نبوى ، أو
بمجموعة فى الأسئلة على اعتبار أن إجابتها هى السبب فى تحديد الموضوع
... كل هذا منبهات ، لابد منها ، وبعد ذلك يكون الحديث المفصل ... وتأتى
الخطبة الثانية تأكيداً لموضوع الخطبة الأولى بصورة تطبيقية ... وبذلك تحقق
الخطبة الغاية منها .

ولو جئنا لكل صور الإرشاد ، والتعليم نجدها تحتاج إلى هذه المنبهات التى
يتحتم على الدعاة الاستفادة بها .

وذلك درس نأخذه من التقدم العلمى ، ونستنبطه من ثبوت الإرهاصات .

المبحث الثالث

ميلاد محمد ﷺ

أراد الله سبحانه وتعالى أن يبعث في مكة المكرمة رسوله للناس أجمعين ، وقضت مشيئته ﷻ أن يكون هذا الرسول هو محمد ﷺ الذي ولد في مكة ، وكلف فيها بالرسالة ، وبقي فيها إلى أن هاجر إلى المدينة المنورة . وقد أحيط مولده ﷺ بمجموعة من الأخبار والأعاجيب ، وفيها كلها كان قدر الله ، وكانت حكمته .

وفي هذا المبحث سنتناول الميلاد ، وما دار حوله من حكم وتجليات . وهي :

- ١ -

الميلاد

ولد محمد ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من عام الفيل ، بمكة المكرمة ، في دار أبيه التي كانت موجودة بشعب بنى هاشم ، وقيل : إنه ولد بدار عند الصفا ، كانت لمحمد بن يوسف ، أخو الحجاج ، وقد اشترتها زبيدة زوجة هارون الرشيد ، وبنت مكانها مسجداً^(١) .

وهذا المسجد اليوم بناء صغير ، موجود بجوار الساحة الجنوبية للحرم الشريف ، وبها مكتبة صغيرة عامة تعرف بمكتبة الحرم المكي .

ومما يدل على ولادته يوم الاثنين ما روى أن أعرابياً قال : " يا رسول الله

ما تقول في صوم يوم الاثنين ؟

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٨٤ .

قال ﷺ : ذاك يوم ولدت ، ويوم بعثت ، ويوم أنزل على فيه ^(١) .
يقول محمد بن إسحاق : " ولد رسول الله يوم الاثنين عام الفيل لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول ^(٢) .
ويشهد لولادته ﷺ في عام الفيل ما رواه الترمذى بسنده عن قيس بن مخزومة ابن عبد مناف قال : " ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل ، كنا لدين ^(٣) .
وروى عن أبي الحويرث قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم ، ثم الليثي : " يا قباث أنت أكبر أم رسول الله ﷺ .
قال قباث : رسول الله أكبر مني ، وأنا أسن منه ، ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، ووقفت بي أمي على روث الفيل أخضر محيلاً أعقله ^(٤) .
يقول عباس : " ولد نبيكم يوم الاثنين ^(٥) .
وجمهور المؤرخين ، وعلماء السيرة يجمعون على أن رسول الله ﷺ ولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل ، حين طلع الفجر ^(٦) ،
ولذلك تركت التعليق على أقوال ضعيفة ذكرت تاريخاً آخر .
وقد مات أبوه (عبد الله) وهو حمل في بطن أمه ، وكانت وفاته بالمدينة عند أخواله من بنى النجار حيث دفن بدار عدى النابغة .

(١) صحيح مسلم بشرح النوى . كتاب الصيام . باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ج ٨ ص ٥١ .

(٢) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ١ ص ١٧١ .

(٣) سنن الترمذى . كتاب المناقب ج ٥ ص ٥٨٩ .

(٤) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٥) الفتح الرباني ج ٢٠ ص ١٨٩ .

(٦) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٩٩ ، وهناك أقوال ضعيفة تشير إلى غير هذا التاريخ لكنها مغايرة لرأى جمهور العلماء ، ومؤلفى التاريخ والسيرة .

يقول ابن كثير : " خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام ، إلى غزة ، في غير من عيران قريش ، يحملون تجارتهم ، فلما فرغوا من تجارتهم مروا بالمدينة ، وعبد الله يومئذ مريض .

فقال : أتخلف عند أخوالي بني عدى بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً شهراً ، ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله . فقالوا : خلفناه عند أخواله في المدينة وهو مريض .

فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفي ، ودفن في دار النابغة فرجع إلى أبيه ، وأخبره "(١) .

وكان وقع خبر وفاته على أبيه ، وأخوته مؤلماً .

وكان عمر عبد الله يوم وفاته خمساً وعشرين سنة على الصحيح (٢) .

يذهب أغلب علماء التاريخ ، وكتاب السيرة ، إلى أن (عبد الله) والد النبي ﷺ مات ، والرسول حمل في بطن أمه . يقول ابن إسحاق : " ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أن توفي وأم رسول الله حامل به "(٣) .

ولم يترك (عبد الله) مالاً يورثه لزوجته ، وولده ، اللهم إلا جاريته أم أيمن وخمسة جمال ، وقطعة من غنم (٤) .

ولذلك ولد النبي ﷺ فقيراً لحكمة أرادها الله تعالى ...

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٦١ ، وهذا رأى الجمهور .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٦١ .

(٣) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ٤٠٠ .

(٤) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٤٠٠ .

الحكمة فى يتم محمد ﷺ

اليتيم من فقد أحد الأبوين قبل البلوغ ، وقد توفى والد محمد قبل مولده لحكمة أرادها الله تعالى

إن اليتيم فى حد ذاته ، منقصه للوليد ، وبخاصة فى مجتمع يفتخر بالأنساب والأحساب ، والقبيلة ، والجماعة .

إن الوليد فى نشأته بعيداً عن والديه ، أو احدهما يعيش منعزلاً ، لا يعرف كيف يعامل الناس ، وينمو ضعيفاً فى بدنه ، وسلوكه ، ولا يتمكن من مواجهة مصاعب الحياة ، وإذا وجد مع اليتيم الفقر ، فإن الصغير يعيش مهملاً ، لا يهتم به أحد ، وإن اهتم به أحد فلتسخييره ، واستغلاله .

من أين لليتيم بأبوة حانية؟! ... تتعهد غلاماً ، وتربيته طفلاً ، وتوجهه شاباً يافعاً ، وتدفعه إلى غمار الحياة رجلاً مسئولاً!!!

وأين لليتيم من رعاية شاملة ؟ تحافظ عليه فى نومه ، ويقظته ، وسكونه ، وحركته ، وراحته ، وطعامه ، وشرابه ، وعمله؟! ...

ومن أين لليتيم من ينصره ، ويعينه فى مواجهة المخاطر ، والحوادث ؟ فإذا ما انضم إلى اليتيم الفقر ، فالنتيجة أسوأ ، وأظلم ...

إن اليتيم الفقير لا ينال التعليم الذى يريده ، ولا يتمكن من الأعمال التى يرغبها ، لأن غيره أسبق إليها منه ، وله من يساعده ، أما اليتيم الفقير فإن الجميع ينصرفون عنه ، ولا يهتمون بشأنه!!!

ذلك هو منطق الواقع والحياة .

فاليتيم ضعيف ، مهمل ، منعزل ، تؤثر معيشته فى خلقه ، وسلوكه ...

ولذلك كانت وصية الله باليتامى من أجل إيجاد دافع إيمانى ، يجعل المسلم

يراقب الله فى معاملتهم ، وبطبع الله فى حسن رعايتهم ، والإحسان إليهم .

يقول الله تعالى ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَفْهَرْ ۝ ﴾ ^(١) .

ويقول الله تعالى ﴿ كَلَّا ۚ بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ۝ ﴾ ^(٢) وَلَا تَحْضُونِ عَلَىٰ

طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝ ﴾ ^(٣) .

ويقول الله تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ ﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ

الْيَتِيمَ ۝ ﴾ ^(٤) .

ويقول الله تعالى ﴿ فَلَا أَفْتَحَمِ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ

رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ ﴾ ^(٥) .

ويقول الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ

أَشُدَّهُ ۝ ﴾ ^(٦) .

ويقول الله تعالى ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا

وَأَسِيرًا ۝ ﴾ ^(٧) .

ويقول الله تعالى ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحُهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِنْ

خَالَطُوهُمْ فَارْحَمُوهُمْ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ

(١) سورة الضحى ، الآية ٩ .

(٢) سورة الفجر ، من الآية ١٧ : ١٨ .

(٣) سورة الماعون ، من الآية ١ : ٢ .

(٤) سورة البلد ، من الآية ١١ : ١٥ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية ١٥٢ .

(٦) سورة الإنسان ، الآية ٨ .

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ .

ويقول الله تعالى ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ
وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ﴿٢﴾ .

ويقول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ﴿٣﴾ .

إن الآيات تدعو إلى حسن معاملة اليتيم ، وعدم القسوة معه ، وعدم التشدد
فى رده ، وزجره ، وظلمه ، حتى يجد من المؤمنين من يعوضه فقدان الأب ، أو
حنان الأم ...

كما تدعو الآيات إلى ضرورة المحافظة على مال اليتيم ، وتنميته بالحق ،
والعدل ، والابتعاد عن أكله بالباطل ، أو الاستيلاء عليه بأى وجه من الوجوه .
وتدعو الآيات إلى العمل على إصلاح اليتيم ، والعناية بتربيته ، وتوجيهه
نحو الخير ، والفلاح .

وتدعو الآيات إلى أهمية رعاية اليتيم مالياً ، إن كان فى حاجة للمال ، حيث
وضحت أن إعطاء اليتيم المال له أثر كبير على المعطى ، إنه بهذا العطاء
يتخلص من العقبة ، ويدخل الجنة ، ويشرب السلسبيل ، ويقرب من الله تعالى .
إن الإسلام واجه واقع اليتيم بشريعته العادلة ، لأنها تنتشر الخير بين الناس ،
وتتعامل مع طبيعة البشر ، وتتلاءم مع ميولهم الفطرية لتترقى بها فى رفق ولين .

هذا فى الإسلام ... وبالإسلام وحده يكرم اليتيم .

أما فى الجاهلية حيث لا دين ، ولا شريعة ، فإن الأمر يختلف ...

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢٠ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٢ .

(٣) سورة النساء ، الآية ١٠ .

والأمر مع الأنبياء فى تربيتهم منذ مولدهم له وضعه الخاص ، لأن الله يصطفيهم بعلمه وإرادته ، ويربيهم بقدرته ومعونته .
ومع قدرة الله تعالى تتوقف سنن الكون ، وتتعدم التأثيرات المادية ، ويقف العقل مستسلماً ، مصداقاً ، وليس له إلا أن يؤمن ، ويصدق ، بعدما يرى المسيرة مع المصطفون الأخيار .
هذا هو . موسى عليه السلام . ولدته أمه ، وخافت عليه أن يذبحه فرعون ، فألهمها الله تعالى أن تضعه فى صندوق ، وترميه فى النهر ، وتترك الأمر بعد ذلك لله ... وفعلت مع الإلهام الذى أتاها وهى تتساءل عن مصيره ...

وهل سيموت غريقاً ؟

وهل ستأكله الحيتان والأسماك ؟

وكيف يحيا بلا رضاعة ؟

وكيف الطريق لإرضاعه ؟

وهل النجاة برميهِ فى اليم ؟

أسئلة لا يجيب عليها العقل ... لكن مسار القدر مدهش عجيب ، وقد أجاب عن كل هذا بإعجاز إلهى حكيم ، لقد وصل الصندوق إلى بيت فرعون والنقطته حاشيته ، واتخذه مع زوجته ابناً لهما ، وأعاداه لأمه فأرضعته ، ثم سلمته لفرعون يربيهِ تربية ملكية خاصة . يقول الله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ ۖ ﴾ (١) .

من كان يتصور أن الإلقاء فى اليم هو سبب النجاة ؟

(١) سورة القصص ، الآية ٧ .

(٢٢٠)

من يعقل أن فرعون بحذره هو الذى يربى موسى ﷺ ؟ ويخلصه من الضعف ، واليتم ، والحاجة .

وهكذا الأنبياء جميعاً !!!

. أين تربي يوسف ﷺ ؟

. وهل رياه أبوه مع أنه كان حياً يرزق !؟

. وكيف ولد عيسى ﷺ ، وتربي ، وليس له والد أصلاً ؟!

إن الأنبياء صناعة ربانية ، ولذلك يوجد لهم الله فى قوالب معينة ، وفق حكمته ، ومشيئته .

ومن هنا كان فى يتم محمد ﷺ حكمة يريد بها الله تعالى ، ويتفضل بها على رسوله الأمين ﷺ ...

يجمل الله تعالى هذا التفضل على محمد ﷺ بقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْكَ يَتِيمًا فَتَآوَى ﴾ (١) . حيث يشير إلى أن محمداً ﷺ ولد فى رعاية الله تعالى ، فبرغم يتمه إلا أن الله أحاطه بالإيواء الشامل ، فأحبه كل من رآه ، بدءاً بمراضعه ومروراً بمن شاركهم فى طفولته ، وشبابه ، ورجولته .

فهو إيواء يتضمن الرعاية ، والاهتمام ، والمعاملة ، والتضحية فى مودة صادقة أغنت محمداً ﷺ عن رعاية الوالد الحنون .

وفى ولادته ﷺ يتيماً فقيراً. إشارة إلى بعض الحكم الإلهية ، التى يمكن استنباطها فى العصر الحديث . ومن أهم الحكم المستنبطة ما يلى :

١. أراد الله تعالى أن ينشأ محمد ﷺ محاطاً بالرعاية الإلهية التامة منذ اللحظة الأولى لوجوده فى الدنيا قصداً لذاته ﷺ خاصة ،

(١) سورة الضحى ، الآية ٦ .

وحتى لا تفسر خيرات الله له بسبب أبيه ، أو أمه ، أو بتأثير ماله وغناه ... ولو فكر عقلاء هذا الزمان فى تميز هذا اليتيم عن أقرانه ، ولداته ، لأدركوا شيئاً من هذه العناية الإلهية بمحمد ﷺ .

٢. فى ولادته ﷺ يتيماً فقيراً رد لأى شبهة يمكن أن يخلقها الأفاكون الضالون كأن يقولوا : إن محمداً أخذ تعاليم النبوة من أبيه ، أو من أمه ، حيث يحاول الآباء دائماً غرس قيمهم ، وعاداتهم ، واهتماماتهم فى أبنائهم ، بل إن الابن يحاول بصورة تلقائية أن يقلد أباه ، ويجتهد فى حمل فكره ، ومذهبه .

لقد زعم كفار مكة أن محمداً ﷺ يأخذ ما يقوله لهم من رجل غريب يؤلف له الأساطير ويكتبها له ، وهذا ما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءَ ظُلْمًا وَزُورًا ۖ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۚ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ ﴾ (١) .

وفى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۚ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ۖ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۚ ﴾ (٢) .

(١) سورة الفرقان ، من الآية ٤ : ٥ .

(٢) سورة النحل ، الآية ١٠٣ .

لقد بحث كفار مكة عن شخص له صلة برسول الله ﷺ ليزعموا أنه مؤلف الوحي ، وأن محمداً يأخذ منه ، وقد بين الله كذبهم ، وضلالهم فيما يزعمون .

فلو كان (عبد الله) والد النبي حياً ، لسهل عليهم ادعاء أنه المعلم لولده ، وأن الوحي من كلامه ، وتأليفه ... لكن الله تعالى قطع عنهم هذا الطريق بوفاة (عبد الله) ، وميلاد محمد بعد وفاته .

٣. في ولادته ﷺ يتيماً تأكيداً لحقيقة غائبة عن الكثير من الناس ، وهي أن الأمور كلها بقدره الله تعالى ، وليس للإنسان في عمله إلا الكسب ، والميل ، والله خالق كل شيء .

ولو عقل الناس لعاشوا مؤمنين حقاً ، عن اقتناع ، ورضى ، ولسلموا بالقدر ، وعاشوا مؤمنين .

إن العقل سوف يتساءل أسئلة توصل إلى اليقين ، والإيمان . ومن هذه الأسئلة :

- من أين وجد الإنسان ؟ ومن يقدر على هذا الإيجاد ؟
 - هل يمكن تصور المستقبل من ناحية الصحة ، والغنى ، والسعادة أم أن ذلك مجهول أمام الإنسان ؟
 - هل تجرى الأحداث وفق تقدير العقل ، أم أن أحداث الحياة تجعل العقل عاجزاً عن تفسير اتجاهاتها غالباً ؟
 - هل الإنسان يعلم ظواهر الأشياء ، وبواطنها ، أم ماذا ؟
- إن النظر في هذه القضايا تدفع الإنسان إلى التسليم بقدره الله تعالى ، وحين نقارن محمداً ﷺ بسائر الناس مع إدراك يتمه ، وفقره ، نتأكد أنه صناعة قدرية ، ربانية ، والعلم بهذه الحقيقة يشير إلى بعض أسرار يتم محمد ﷺ .

تجليات ربانية فى مولده ﷺ

لم تكن حكمة الله تعالى فى يتمه ﷺ فقط ، وإنما تجلت فى كل ما أحيط بمولده ، من ناحية الأشخاص الذين أحاطوا به ، أو تسميته ، أو توقيت مولده فى يوم الاثنين ، أو جعل الميلاد فى شهر ربيع الأول إلى غير ذلك من الحكم التى أرادها الله وقدرها ، والعقل يجتهد فى اكتشافها فى إطار البشرية المحدود ، آملين أن ينالها الصواب . وأهمها ما يلى :

- أولاً -

الأشخاص الذين أحاطوا به

إن الحكمة الإلهية التى أحاطت بمحمد ﷺ ظهرت فى كافة جوانب مولده ﷺ بتجليات ربانية فالأشخاص الذين أحاطوا بمحمد ﷺ يوم مولده مثلوا كوكبة نبيلة ، لأنهم مثلوا مع محمد ﷺ عدة معان كريمة .

فمن أمة (آمنة) كان الأمن ، والهدوء .

ومن قابله (الشفاء) كانت العافية ، والصحة .

ومن حاضنته (أم أيمن) كان اليمين ، والبركة .

ومن مرضعته (حليمة السعدية) كان الحلم ، والسعد .

ومن جده (عبد المطلب) كانت العبودية لله .

ومن عمه (أبى طالب) كان التوجه إلى القادر ، والطلب منه .

وكأن الله تعالى أوجد فى حياة محمد ﷺ هذه المسميات لتتحول فى حياته إلى خلق ، وسلوك مستفاد من المعانى التى تحتويها .

(٢٢٤)

- ثانياً -

تسميته ﷺ

ألهم الله جده (عبد المطلب) حين أخبرته السيدة (آمنة بنت وهب) بوضع حملها أن يسميه (محمداً) .

يقول السهيلي : " سئل عبد المطلب : ما سميت ابنك ؟
فقال : محمداً .

ف قيل له : كيف سميته باسم ليس لأحد من آبائك وقومك .
فقال : إني لأرجو أن يحمدَه أهل الأرض كلهم " .

وكان ذلك لرؤيا رآها في منامه ، كأن سلسلة من فضة ، خرجت من ظهره لها طرف في السماء ، وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق ، وطرف في المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب ، كأنهم يتعلقون بها ، فلما قصها ، وعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض ، فلذلك سماه : (محمداً) .

وذكروا أن أمه حدثته بأنه قد قيل لها : " إنك حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وضعتيه فسميه محمداً " (١) .

وكان النبي ﷺ يذكر فضل تسميته محمداً . ويقول : " ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم فريش ، ولعنهم ، يشتمون مذمماً ، وأنا محمد " (٢) .

يقول القاضي عياض : " وقد سماه الله تعالى في كتابه محمداً ، وأحمد ، فمن خصائصه تعالى له أن ضمن أسماءه ثناءه ، فطوى أثناء ذكره عظيم شكره ، فأما

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) صحيح البخاري ج ٢ ص ٤٣٥ .

اسمه أحمد فأفعل مبالغة من صفة الحمد ، ومحمد مفعّل مبالغة من كثرة الحمد ، وتكرره فهو ﷺ أجل من حمد ، وأفضل من حمد ، وأكثر الناس حمداً ، فهو أحمد المحمودين ، وأحمد الحامدين ، ومعه لواء الحمد يوم القيامة ، ليتيم له كمال الحمد ويشتهر في تلك العرصات بصفة الحمد ، ويبعثه ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده ، يحمد فيه الأولون والآخرون ، وفي هذين الاسمين من عجائب خصائصه وبدائع آياته ، وهو أن الله ﷻ حمى اسمه أن يسمى به أحد قبل زمانه .

أما أحمد الذي أتى في الكتب ، وبشرت به الأنبياء ، فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى به أحد غيره ، ولا يدعى به مدعو قبله حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب ، أو شك .

وكذلك محمد أيضاً لم يسم به أحد من العرب ، ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده ﷺ ، وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد ، فسمى قوم من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون النبي المنتظر أحدهم . وهم :

محمد بن أحiche بن الجلاح الأوسى .

ومحمد بن مسلمة الأنصارى .

ومحمد بن براء البكرى .

ومحمد بن سفيان بن مجاشع .

ومحمد بن حمران الجعفى .

ومحمد بن خزاعة السلمى .

لا سابع لهم ، ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدعى النبوة ، أو يدعيها أحد له ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره ، حتى تحققت السماتان (الحمد والثناء) له ﷺ ، ولم ينازعه فيهما أحد ^(١) .

(١) الشفا للقاضى عياض ج ١ ص ٢٢٩ . ٢٣١ .

- ثالثاً -

اختيار يوم الاثنين لمولده ﷺ

من شهر ربيع الأول

اختار الله يوم الاثنين لمولده ﷺ لارتباط هذا اليوم بعدد من الأفعال الخيرة التي قدرها الله لكونه المخلوق في هذا اليوم .

يقول ابن عباس رضي الله عنه : " ولد نبيكم يوم الاثنين ، ونبي يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وفتح مكة يوم الاثنين ، ونزلت سورة المائدة يوم الاثنين ، وتوفى يوم الاثنين " ^(١) ، وذلك إشارة إلى ارتباط الحوادث العظيمة بيوم الاثنين ، ومنها مولده ﷺ .

إن خلق الأقوات ، والأرزاق ، والفواكه ، والخيرات التي يمتار بها بنو آدم ، ويحيون ، ويتداوون ، وتشرح صدورهم لرؤيتها ، وتطيب بها نفوسهم وتسكن خواطرهم ، لتحصيل ما يبقى حياتهم ، على ما جرت به حكمة الحكيم سبحانه وتعالى ، كل ذلك كان في يوم الاثنين ، فولادته ﷺ في هذا اليوم إشارة إلى ما وجد فيه من الخير العظيم ، والبركة الشاملة للناس أجمعين وبيان إلى ما يناله الناس من خير ببعثته ﷺ ^(٢) .

والجو في الربيع معتدل المناخ لا حرارة فيه ، كما تقل فيه العلل ، والأمراض بفضل الله تعالى .

وقد ولد ﷺ في شهر ربيع الأول لما فيه من خيرات حسان .

وفي مجئ محمد ﷺ ومبعثه تحقيق لهذه المعاني ، فلقد أتى ﷺ بما يسعد الناس في الدنيا ، والآخرة ... ورسالته ﷺ قائمة على الاعتدال ، والاستقامة ، دائمة العطاء ، شاملة لكافة الخلق ، سهلة ، ميسرة .

(١) الفتح الرباني ج ٢٠ ص ١٨٩ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٤٠٦ .

- رابعاً -

اختيار عام الفيل لولده ﷺ

ولد المصطفى ﷺ قبل وقوع حادثة الفيل بخمسين يوماً .
وكانت حادثة الفيل عجيبة في وقوعها ، بعيدة عن أى تصور عقلى ، حمى
الله بها بيته ورد كيد المعتدين عليه .

وهى فى غرابتها شاهدة على ما فى الكون من أسرار ، لا يدركها ، ولا يقدر
عليها إلا الله سبحانه وتعالى ، وكفى أن الإنسان يجهد عقله وفكره ليدرك شيئاً من
أسرار هذا المكون . . ولا يستطيع ، وصدق قول الله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ
سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن
فُطُورٍ ۚ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ ﴾ (١) .

إن حادثة الفيل تشهد على أن قدرة الله تتصل بكل موجود ، وكل ما يقع فى
الكون قدر إلهى محض ، وإذا أراد الله شيئاً قال له كن فيكون ، حتى إذا جاءهم
محمد ﷺ بمعجزات الله ، فعليهم أن يعلموا أنه المبعوث من الله تعالى ، مؤمنين
بقدره الله ، وحكمته ، ومن يهزم الفيل كما حدث قادر على إنفاذ ما يريد .

إن هذه الأسرار لم ترتبط وقتها فى أذهان من رآها بمبعثة محمد ﷺ ،
ورسالته ، ولا يرد منها ذلك ، وكفى أنها تحرك الأذهان نحو عدم تأليه من يزول
مثل النار المنطفئة ، أو البيوت المكسورة ، أو الأصنام المهتزة ، وليتأكدوا من
وجود قوة قاهرة تحقق أعمالاً ، لا يقدر عليها الناس ، ولا يمكنهم تفهم أسرارها .

وذلك أثر ممكن الحدوث ، ولم لا يكون هذا الأثر ، مجئ النبی الذى يتحدث
عنه أهل الكتاب ، وحكماء العرب كانوا يؤمنون بمبعث نبى بشرت به الكتب

(١) سورة الملك ، من الآية ٣ : ٤ .

المنزلة . يقول الله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

يقول ابن كثير : يخبر الله تعالى أن أهل الكتاب يعرفون محمداً كما يعرفون أبناءهم ، . ويعرفون . أنه صادق . ، وقد جاء وصفه مكتوباً مدوناً في التوراة ، والإنجيل ، مع أساسيات دعوته في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتحليل الطيبات ، وتحريم الخبائث (٢) .

إن العالم كله قبيل مبعث النبي ﷺ ، وقبيل مولده كان في انتظار رسول جديد يجمع العالم على الحق ...

وعلى هذا فإن وقوع الميلاد محاطاً بهذه الأحداث الخارقة للعادة ، يمثل عوامل تصديق رسالة الرسول بعد مبعثه ، وتعد دوافع إيمانية للعقلاء الذين يعلمون أن النبوة صناعة ربانية ، ولا مانع من جريان الأحداث معها على نحو خارق لعادة الناس .

والله أعلم حيث رسالته .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩٤ بتصرف .

المبحث الرابع

محمد ﷺ فى

ديار بنى سعد

خرت عادة أهل مكة أن يسلموا أولادهم إلى مربيات لإرضاعهم ، وتربيتهم فى الفيافى الواسعة ، وتحت السماء الصافية ، وفى الهواء النقى ، ووسط مناظر الطبيعة الخلابة .

وكانت المرضعات يقدمن مكة ليفزن بأبناء الأغنياء ، لينلن من المال نصيباً يتغلبن به على مشاق الصحراء ، والحياة ، ومحمد ﷺ وهو اليتيم لا مال له ، ولذلك لم تتسابق القابات إليه ، ما عدا (حليمة) فإنها اضطرت إلى اصطحابه وأخذه ، وتربيته . وهذا ما سنوضحه فيما يلى :

- ١ -

اضطرار حليمة لاصطحاب محمد ﷺ

بعدما وضعت السيدة (آمنة بنت وهب) حملها أرسلت إلى جدة (عبد المطلب) ، وأخبرته بولادة حفيده ، فسر به كثيراً ، وأخذه ، ودخل به الكعبة ودعا له بخير ، وسماه (محمدًا) .

يروى ابن عساكر أن (عبد المطلب) سر بولادة (محمد) كثيراً ، وعق عنه بكبش .

وقد عاش الوليد فى كنف أمه سبعة أيام أرضعته ، ومعها قابله (الشفاء) وقد سر أعمامه بميلاد ابن لأخيهم الذى فقدوه صغيراً ، لدرجة أن (أبا لهب)

أعتق جاريته (ثويبية) عندما أخبرته بميلاد محمد ﷺ ، وأرسلها إلى أمه (آمنة) لترضعه معها^(١) .

أقبلت (آمنة) على وليدها بالحنان ، والرفق ، في انتظار مرضعة تستلمه لتقوم بتربيته في البادية ، حيث الخلاء الواسع ، والطبيعة الجميلة ، وبساطة الحياة ، وفطرة الناس ، وكانت عادة أثرياء أهل مكة أن يسلموا أولادهم بعد ولادتهم ، لمرضعات من البادية لقاء أجر ، ورزق .

وأتفق أن جاءت المراضع من بنى سعد يلتمسن أبناء الأغنياء ، طمعاً في الرزق ، واليسار ، ومرواً جميعاً على (آمنة) ، فأروا ولدها يتيماً ، فقيراً ، فتركه لقلّة الأجر ، وضالة العطاء المنتظر من يتيم فقير .

ووجد النسوة عند أبنا الأثرياء ما يأملون ، ما عدا (حليمة السعدية) ، فإنها كانت فقيرة ضعيفة ، رأت الأمهات منها ما صرفهن عن اختيارها مرضعة لأبنائها ، فلبنها قليل ، وجسدها نحيل ، وأتائها هزيل ، والفقر باد عليها ، فانصرفوا عنها إلى غيرها حرصاً على ما يروونه الأفضل لأولادهم .

ووجدت (حليمة) نفسها مضطرة لأخذ محمد ﷺ حتى لا تعود لديارها خاوية الوفاض ، فهو الطفل الوحيد الباقي بعد سفر كل النسوة .

و(حليمة هي بنت أبي ذؤيب) من هوازن ، وتعرف بـ (حليمة السعدية) ، وكنيتها (أم كبشة) ... وزوجها هو (الحارث بن عبد العزى بن رفاعه) من هوازن كذلك ، ويكنى (بأبي كبشة) .

وقد شرف الله تعالى (حليمة) بإرضاع محمد ﷺ ، فصارت له أمّاً ، وصار زوجها له أباً ، وصار أبناؤها إخوته ، وهم (عبد الله بن الحارث) ، و(حفص بن

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى . كتاب النكاح . باب ما يحرم من الرضاع ج٧ص١٢ ، وثويبية هي التي أرضعت عمه حمزة ، وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ليكون لهما أخ من الرضاع هو (محمد ﷺ) .

الحارث) ، و(أمية بن الحارث) ، و(الشيماء) ، وهى (خدامة بنت الحارث) ، وقد أكرمها الله تعالى بنزول محمد فى بيتها ، ومع بنيتها ، ففاض الخير فى كل جوانب حياتها ببركته ﷺ ، رغم أنها لم تكن راغبة فيه ، ولولا انصراف الوالدات عنه ما أخذته .

تحكى (حليمة) قصتها مع رضاعة رسول الله ﷺ فنقول : " خرجت فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، نلتمس الرضعاء بمكة ، على أتان لى قمراء ، قد أدمت بالركب ، وخرجنا فى سنة شهباء ، لم تبق لنا شيئاً ، ومعى زوجى (الحارث بن عبد العزى) ، ومعنا شارف لنا ، والله لن يبيض علينا بقطرة من لبن ومعى صبي لى ما نام ليلنا أجمع ، من بكائه من الجوع ، ما فى ثديى ما يمصه وما فى شارفنا من لبن نغذوه ، ولكننا كنا نرجو الغيث ، والفرج ، فخرجت على أتانى تلك ، فشق ذلك علينا ضعفاً ، وعجفاً ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء .

فما من امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه ، وإنما كنا نرجو كرامة الرضاعة ، من والد المولود الغنى المالك ، فتركنا محمداً ، وكنا نقول :

يتيم ! ماذا يملك ؟

وما عسى أن تصنع أمه ؟

وما يفعل جده ؟

فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعاً غيرى .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لزوجى : والله لأرجعن إلى ذلك اليتيم فلاخذه

والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ، ولم آخذ رضيعاً .

قال : لا عليك أن تفعل عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت إليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره ،

فلما أخذته رجعت إلى رحلى^(١) .

(١) مع الرسول ص ١٨٩ .

بركات محمد ﷺ على حليلة

رأت (حليلة) فضل الله عليها عقب عودتها إلى رحلها بمحمد ﷺ . تقول :
" فلما وضعته في حجرى ، أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ،
وشرب معه أخوه حتى روى .

ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فإذا لبنيها حافل ، فحلب منها ما شرب ،
وشربت معه حتى انتهينا رياء وشبعاً ، فبتنا ليلتنا تلك بخير ليلة شباعاً ، رواء
وقد نام صبينا .

يقول أبوه . يعنى زوجها . والله يا حليلة ما أراك إلا أصبت نسمة مباركة ،
قد نام صبياننا ورويا .

فقلت : والله إنى لأرجو ذلك .

ثم خرجنا وركبت أتانى ، وحملته عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر
عليها شئ من حمهم ، حتى إن صواحبى ليقطن لى : يا ابنة أبى ذؤيب ويحك ،
أربعى علينا أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟

فأقول لهن : بلى والله ، إنها لهى هى .

فيقلن : والله إن لها لشأناً .

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً الله أجذب منها ،
فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً ، وتروح أغنامهم جياعاً
هالكة ما بها من لبن ، فنحلب ، ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا
يجدها ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم ،

اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فيسرحون بغنمهم مع غنمى ، ومع ذلك تروح أغنامهم جياً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعاً لبناً .

فلم نتعرف من الله الزيادة ، والخير ، حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، كان ﷺ يشب فى اليوم شباب الصبى فى شهر ، ويشب فى الشهر شباب الصبى فى سنة فبلغ ستاً وهو غلام جفر^(١) .

إن رعاية الله تعالى مستمرة مع رسول الله تعالى ، وها هى بركاته تحل بحليمة حيث أخصبت أرضها الجدباء ، ودر لبن إبلها الجاف ، وصارت ترى النعيم فى كل شئونها .

عادت (حليمة السعدية) بمحمد إلى أمه السيدة آمنة وقد بلغ سنتين ، وأتمت إرضاعه ، وفصاله ، وذلك على عادة سائر المراضع مع أبناءهن ، ولم تكن (حليمة) سعيدة بعودته لأمه لأنها تخاف توقف الخير الذى تدفق عليها .

تقول حليمة : " فقدنا به على أمه ، ونحن أحرص شئ على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته "^(٢) .

عرضت (حليمة) على (آمنة) أن تعود بمحمد ﷺ إلى ديارها مرة ثانية لتستمر بركته ، فوافقتها (آمنة) ، وأعادته معها مرة ثانية إلى ديار (بنى سعد) وبخاصة أن مكة يومذاك كانت موبوءة ، وأملت أمه أن يزداد محمد عند حليمة نضارة ، وازدهاراً ، ونمواً فى بدنه ، وعقله ، وشخصيته ، ليشب رجلاً له قدره ، ومنزلته ، ويقوم بدوره مع جده وأعمامه ، وقومه .

أخذته (حليمة) وعادت به سعيدة مرة ثانية ، وفرحت بذلك ، إلا أنها اضطرت إلى إعادته لأمه حين بلغ عمره خمس سنوات وشهراً ، ولم تره بعد ذلك إلا مرتين :

(١) مع الرسول ص ١٨٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٦٤ .

(٢٣٤)

الأولى : بعد زواجه ﷺ من (خديجة) .

والثانية : بعد غزوة حنين ، وسيأتى ذكرهما إن شاء الله تعالى .
وكانت (آمنة) قد أوصت (حليمة) بمحمد ، وعرفت بها بما حصل معها ،
فى حملها وولادته .، وبينت لها ما رأت .، وما شاهدت من كرامات. صاحبت
مولده ، وقالت لها : **احفظى ابنى هذا ، واحذرى عليه الرهبان ، والكهان .**
تقول. حليمة :. مر بى بعض اليهود. فقلت لهم :. ألا. تحدثونى عن ابنى
هذا ؟! فإنى حملته كذا ، ووضعته كذا ، ورأيت كذا ! كما قالت أمه .
تريد حليمة بذلك أن. تعرف. شيئاً عن الأسرار. المتصلة بهذا. الملام
المبارك . تقول حليمة : لما رآه اليهود ، قال بعضهم لبعض : اقتلوه .
وسألوها : أيتيم هو ؟
فقلت لهم : لا ، هذا أبوه ، وأنا أمه .
فقالوا : لو كان يتيماً لقتلناه .

فذهبت به حليمة وقالت : كدت أخرب أمانتى^(١) .

يقول ابن إسحاق : وحدثنى بعض أهل العلم أن الذى أهاج أمه السعدية
على إعادته لأمه أن نفراً من نصارى الحبشة رأوه معها ، حين رجعت به بعد
فطامه ، فنظروا إليه ، وسألوها عنه ، وقلوبه ، ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام
، فلنذهبن به إلى ملكنا ، وبلدنا ، فإن هذا الغلام كائن له شأن ، نحن نعرف
أمره ... يقول ابن إسحاق : إنها لم تكذب تنفلت به منهم^(٢) .
وعاد محمد ﷺ إلى أمه ليبدأ مرحلة جديدة مع قومه ، وعشيرته ، وأقرانه .

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٧١ .

(٢) سيرة النبى ﷺ ج ١ ص ١٦٧ .

مزايا التنشئة فى البادية

يرجع السبب فى عادة أثرياء مكة إرضاع أولادهم ، وتنشئتهم فى البادية إلى أمور ، نتلمس بعضها فيما يلى :

١ . تتميز البادية بالنقاء والصفاء ، حيث الخلاء الواسع ، والفضاء الرحيب وهذا يساعد فى اتساع الأفق ، وبعد المدارك ، ويؤدى إلى هدوء الطبع ولستقرار النفس . فالناس فى البادية يعيشون بين الخضرة المياعة ، والطبيعة الخلابة ، مع الطمأنينة . والهدوء . فلا اشتغال لهم بقضايا السلطة والإدارة ، ولا عناء معهم فى السعى والتجارة ، ولا تعب فى الترقى والصناعة ، إن حياتهم الرتيبة تصنع الهدوء ، والاستقرار .

٢ . تصنع البادية من أبنائها رجالاً يعتمدون على أنفسهم ، فليس لهم جيش يحميهم . ولا رجال أمن يحرسونهم . ولذلك ينشأ المبدؤى على الجرأة والشجاعة ، ويتعود الإقدام ، وعدم الخوف ، ويعتمد على نفسه فى الدفاع ، والنصرة ، والحماية .

٣ . يعيش أبناء البادية فى مجتمع مغلق ، لا يأتىهم غريب ، ولا يعيش بينهم أجنبى . وهذا الوضع ساعدهم على المحافظة على المفطرة الطبيعية ، واللغة الفصيحة ، والنسب الضريح ، والقوة البدنية ، فى ترابط الأقارب ، ومودة المحبين .

إن الآباء قصدوا تربية أبنائهم فى البادية لينشأوا أقوياء البنية ، فصحاء اللسان ، حسنى الأخلاق ، يتميزون بهدوء الطبع ، وشجاعة السلوك ، وحب التعاون. والتواد. وتلك عوامل هيأها الله تعالى لرسوله ﷺ فأرضعته (حليمة السعدية) ، ونشأ فى ديار بنى سعد ، ليستفيد بما أراده الله له .

وفاء النبي لأمه حليلة

عاش النبي ﷺ أيامه الأولى عند (حليلة السعدية) ، ونما جسده بلبنها ، وصفا لسانه بلغات بنى سعد ، وصاحب عديداً من الناس .

وعاش محمد ، وهو فى ديار حليلة ، مع قبيلة بنى سعد ، حيث أحبه كل من رآه ، وأحاطوه بالرعاية الحسنة ، والتكريم الجميل .

وحفظ النبي ﷺ لديار بنى سعد دورهم فى نشأته فيقول ﷺ : " أنا أعربكم أنا من قريش ، ولسانى لسان بنى سعد " (١) .

يقول محمد بن المنذر : استأذنت امرأة على النبي ﷺ كانت أرضعته ، فلما دخلت عليه ، سر بها ، وقال : أمى ، أمى ، وعمد إلى رداءه فبسطه لها ، فقعدت عليه (٢) ، وعرف أصحابه بأنها (حليلة) .

يروى ابن سعد بسنده أن حليلة قدمت على النبي ﷺ بمكة بعد زواجه خديجة رضى الله عنها ، وشكت إليه جذب البلاد ، وهلاك الماشية ، فكلم رسول الله ﷺ خديجة فى شأنها ، فأعطتها أربعين شاة ، وبعيراً ، وانصرفت لأهلها (٣) .

وأخرج أبو داود بسنده عن ابن الطفيل ؓ قال : " رأيت رسول الله يقسم لحماً بالجعرانة . وأنا يومئذ غلام أحمل الجزور . إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى رسول الله فبسط لها رداءه ، فجلست عليه . فقلت : من هذه ؟ قالوا : هذه أمه ﷺ التى أرضعته " (٤) .

(١) بغية الرائد فى تحقيق الزوائد . كتاب المناقب . باب فى حليلة ج ٩ ص ٤١٥ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١١٣ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١١٤ .

(٤) سنن أبى داود . كتاب الأدب . باب فى بر الوالدين ج ٢ ص ٦٣٠ .

وهكذا. كان. تقدير النبي ﷺ لمرضعته (حليمة) ،. وفاء. لحقها ،. وبراً بأمومتها ، وتكريماً لوفادتها ... لم ينسه تغير الحال ما أسدت له من جميل ... ولم يتصور أن ما أخذته من أمه أجراً كافياً في حقها ، بل كان ﷺ يقدر زوجها ، وأبناءها ، فهم أبوه ، وإخوته في الرضاعة .

أخرج أبو داود عن عمر بن الحارث أن عمر السائب حدثه أنه بلغه أن رسول الله ﷺ ، كان جالساً يوماً فأقبل أبوه من الرضاعة ، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه ، فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة ، فقام له رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه^(١) .

وبعد فتح مكة كانت غزوة حنين ، وأسر النبي ﷺ عدداً من هوازن قبيلة حليمة ، فجاء وفدهم إلى رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة لفك أسراهم ، وكان رأس القوم ، والمتكلم فيهم (أبو صرد زهير بن صرد) فقال : إن في هذه الحظائر (مكان الأسرى) أخوتك ، وعماتك ، وخالاتك ، وبنات عمك ، وبنات خالاتك ، وأبعدهن قريب منك ،. بأبى أنت ، ولأبى !. إنهن حضنك في حجورهن ، وأرضعنك بثديهن ، وتورككنك على أوراكنهن ، وأنت خير المكفولين .

فقال رسول الله ﷺ : "إن أحسن الحديث صدقه ، وعندى من ترون من المسلمين ، أفأبناؤكم ، ونسائكم أحب إليكم ، أم أموالكم ؟ فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا ، وأموالنا ، وما كنا لنعدل بالأحساب شيئاً .

فرد علينا أبنائنا ، ونساءنا .

فقال النبي ﷺ : أما ما لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وأسأل لكم المناس. ، فإذا. صليت بالناس. المظهر فقولوا. : نستشفع برسول. الله إلى

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١١٤ .

المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ، فإنى سأقول لكم : ما كان لى
ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأطلب لكم الناس .

فلما صلى رسول الله ﷺ ، الظهر ، قاموا فتكلموا بالذى قال لهم رسول
الله ﷺ ، فرد عليهم رسول الله ﷺ ، وقال لهم : ما كان لى ، ولبنى عبد
المطلب فهو لكم ، وهنا تأثر المهاجرون ، والأنصار ، وقالوا مثل ما قال
رسول الله ﷺ ، ثم اتفقوا على قول واحد ، وقاموا بتسليم الوفد جميع ما أخذوا
، وهم راضون ، سعداء ، وأطلقوا سراح ما فى أيديهم من سبى هوازن إلا
قوماً تمسكوا بما فى أيديهم ، فأعطاهم الرسول ﷺ إبلاً عوضاً عن ذلك ، وفك
أسرهم جميعاً^(١) .

إن الإنسان العظيم لا ينسى جميلاً أسدى إليه ، أو لأحد من صحابته ،
ودائماً يحفظ الفضل لأهله ، وعلى رأس العظماء رسول الله ﷺ الذى أدبه ربه
فأحسن تأديبه ، لقد تذكر جميل آل حليلة فى وقت عسرهم ، وضعفهم فما خذلهم
وما أهانهم ... بل أكرمهم جميعاً ، وأعادهم إلى ديارهم أحراراً .

وهكذا حافظ رسول الله على الخلق الكريم ، فوفى لحليمة رضى الله عنها يوم
أنتت إليه ، وأكرم أهلها ، وقومها ﷺ ، يوم أن وقعوا أسرى عند المسلمين ، وقد
أسلموا بعد ذلك ، وحسن إسلامهم ...

(١) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ١١٥ .

ركائز دعوية فى تربية الدعاة

دور الدعاة فى المجتمع كبير ، فهم حراس الفضيلة ، ورواد الإصلاح ، ولذا وجب الاهتمام بتربيتهم ، وتنشئتهم على الخلق الكريم ، والقيم النبيلة ... واستثناساً بتربية محمد ﷺ يمكننا أن نحدد الأطر التى يجب ملاحظتها فى تنشئة الدعاة ، وتكوينهم . وأهم هذه المسائل ما يلى :

- أولاً -

تهيئة البيئة الأولى (الأسرة)

البيئة الأولى للتنشئة هى الأسرة المكونة من الأب والأم ، وهى أساس صفات الوليد الرئيسة ، لأن الابن يأخذ من أبيه وأمه العادات ، والسلوك ، وطرق الحياة ... وقد أثبت علماء النفس المعاصرون أن الوليد يبدأ من شهوره الأولى الاستفادة من أسرته ، ولذلك كانت وصايا الإسلام بمعاملة الموضع بالمعروف لئلا ينعكس المنكر على الصغار ، وأوصى العلماء الأم بضم وليدها إلى صدرها وهى ترضعه ، ولو كانت الرضاعة صناعية لما فى ذلك من أثر على أخلاق الطفل وسلوكه .

وقد هيا الله تعالى لمحمد ﷺ الأم الحنون ، والمرضعة الرعوم ، والرعاية التامة فرأى البشر ، والجمال من كل من التصق به ، وكان له معه صلة .
إن المؤسسات التبشيرية المعاصرة تحاول التركيز على هذا الجانب ، والإشراف على المولود منذ أيامه الأولى ، والبدء بتكوينه فى خدمة ما يريدون ...
وقد وهبت امرأة عمران ما فى بطنها لله ، وطلبت من الله قبول ما وهبت ، ورزقها الله (مريم) ، فوفت بنذرهما ، فقبل الله عطاءها ، وأكرمها ، وابنتها ،

ورزقهما رزقاً كريماً ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَمْرِؤُكُمْ أَنَّىٰ لَكُمْ هَذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١).

وقد شرع الإسلام الأذان في أذن الصغير عند مولده ، وتحنيكه باسم الله تعالى ، والعق عنه بعد سبعة أيام لينشأ الله تعالى .

ولم يكن هذا الأمر غريباً في البيئة الإسلامية القريبة ، فلقد كنا نشاهد ونحن صغار آباء يهبون أبناءهم للتعليم في الأزهر الشريف ليحفظوا القرآن الكريم ، ويتقنوا علوم الإسلام ، ليصيروا دعاة مخلصين يخدمون دينهم ، وأنفسهم ، والناس أجمعين ، ولم يكن الآباء ينتظرون مادة ، أو غنى .

وتلك أمثلة نسوقها لننبه الجميع على ضرورة الاهتمام بالبيئة الأولى للأطفال مع التركيز على من يراد تنشئتهم ليكونوا دعاة إلى الله تعالى .

وقد يسأل البعض : وهل نتوقع من الوليد أن يكون داعية ؟ ...

وأقول : لنأخذ من غيرنا درساً ، فهم يبدأون بالتربية منذ الشهور الأولى ، ويعملون على توجيه الأطفال نحو ما يريدون منهم في مستقبلهم .

(١) سورة آل عمران ، من الآية ٣٥ : ٣٧ .

(٢٤١)

- ثانياً -

العناية الصحية والاجتماعية

تعود أهل مكة على تنشئة أبنائهم في البادية حيث الخلاء الواسع ، ومناظر الجمال في الطبيعة ، وخلو المكان من تلوث الهواء ، وازدحام السكان ، كما أن هذه التربية تعود الطفل على معايشة أطفال صغار في مثل سنه وإمكاناته .
إن الطفل يتعلم اللغة من رفقاته ، ويكتسب روح الإنسانية من زملائه ، وينتطبع سلوكه بموطن النشأة الأولى .

لقد تعلم محمد ﷺ بلاغة العرب بلسان بنى سعد ، واكتسب كثيراً من الأطفال الذين عاشهم في صغره ، وتأثر بنقاء البيئة في نمو صحته ، وقوة بنيته .
ومن هنا ...

نرى ضرورة العناية المتكاملة بتنشئة الدعاة علمياً ، وعملياً ، مع الاهتمام بصحتهم النفسية ، والمادية ، والاجتماعية .

ولا يصح أن نهمل جانب التنشئة ، ونأتي للشباب بعد تقدم العمر بهم ، ونكلفهم بالدعوة بلا استعداد ، أو تهيئة ، لأن ذلك يضر الدعوة ابتداءً ، ولأن العاجز لا يقدر على الوقوف ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

صحيح أن ما ننادى هو تربية مثالية بعيدة عن الواقع بصورة كبيرة ... ولكنى أرى ضرورة ما أنادى به لحاجة الدعوة إليه .

والأمة بأفرادها ، ومجموعها مسئولة عن دين الله تعالى ، فهو الأمانة في عنق كل مسلم ... ولا يجوز لمسلم أن يفر من مسئوليته الدينية لأي عذر ، وتحت أي تبرير .

المبحث الخامس

شق صدر محمد ﷺ

من الأمور الخارقة للعادة التي وقعت لمحمد ﷺ شق صدره ، فقد حدث الشق إرهاباً له قبل مبعثه ، ومعجزة له بعد بعثته ﷺ .
 وذهب العلماء ، والمفكرون أمام حادثه شق الصدر مذهب شتى فمنهم من أنكره ، ومنهم من أيده ، والحديث عن شق الصدر يتناول ما يلي :

- ١ -

الروايات المثبتة لشق الصدر

تتواصل إرهابات النبوة مع رسول الله ﷺ ، وهو عند (حليمة) أول مرة وبعد عودته معها مرة ثانية ، ومن هذه الإرهابات حادثة شق الصدر ، الثابتة بالروايات الصحيحة . ومن هذه الروايات :

. ما رواه مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه : " أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء ، فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه .
 يعني : ظنوه . فقالوا : إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه ، وهو منتقع اللون .

- . يقول أنس رضي الله عنه : وقد كنت أرى ذلك المخيط في صدره ^(١) .
- . ما رواه ابن إسحاق عن نفر من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له :
 " يا رسول الله ! أخبرنا عن نفسك .
- قال ﷺ : نعم ، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخى عيسى ،
 ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور
 الشام ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينما أنا مع أخ لى
 خلف بيوتنا نرعى بهماً لنا ، إذ أتانى رجلان . عليهما ثياب بيض
 . بطست من ذهب ، مملوء ثلجاً ، ثم أخذانى فشقا بطنى
 واستخرجا قلبى فشقا ، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم
 غسلا قلبى ، وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه .
- ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزننى بهم
 فوزنتهم .
- ثم قال : زنه بمئة من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم .
- ثم قال زنه بألف من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم .
- فقال : دعة عنك ، فو الله لو وزننته بأمته لوزنها " ^(٢) .
- . ما وراه أحمد وأبو نعيم فى الدلائل عن عتبة بن عبد : " أن رجلاً
 سأل النبى ﷺ فقال : كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟
- قال ﷺ : كانت حاضنتى من بنى سعد بن بكر ، فانطلقت أنا وابن
 لها فى بهم لنا ، ولم نأخذ معنا زاداً .
- فقلت : يا أخى !

(١) صحيح مسلم - كتاب الإيمان . باب الإسراء ج ١ ص ٣٩٢ .

(٢) السيرة النبوية ج ١ ص ١٧٥ ، ورواه الحاكم وصححه .

اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا ، فانطلق أخى ، وكنت عند البهم ، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران .
فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟
فقال : نعم .

فأقبلا يبتدراني ، فأخذاني فبطحاني للققا ، فشقا بطني ، ثم استخرجا قلبي فشقا ، فأخرجا منه علقنتين سوداوين .
فقال أحدهما لصاحبه : انتنى بماء وثلج ، فغسلا به جوفى .
ثم قال : انتنى بماء بارد ، فغسلا به قلبي .
ثم قال : انتنى بالسكينة ، فذرهما فى قلبي .
ثم قال أحدهما لصاحبه : اجعله فى كفة ، واجعل ألفاً من أمته فى كفة ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوق ، أشفق أن يخر على بعضهم
فقال : لو أن أمته وزنت به لمال بهم .
ثم انطلقا فتركاني ، وفرقت فرقاً شديداً ، ثم انطلقت إلى أمى (حليمة) فأخبرتها بالذى لقيت ، فأشفقت أن يكون قد لبس بى .
وقالت : أعيذك بالله ، فرحلت بعيراً لها ، وحملتني على الرحل وركبت خلفى ، حتى بلغنا إلى أمى .
فقلت : أديت أمانتى وذمتى ، وحدثتها بالذى لقيت ، فلم يرعها .
وقالت : إني رأيت نوراً خرج منى أضاء قصور الشام" (١) .

وقد تناولت كتب السيرة حادثة شق الصدر ، وعلى رأسها سيرة ابن هشام لابن إسحاق ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، ودلائل النبوة لأبى نعيم ، والبداية والنهاية لابن كثير ، والخصائص الكبرى للسيوطى ، ودلائل النبوة للبيهقى ، وسير

(١) تهذيب ابن عساكر ج ١ ص ٣٩ ، والحاكم فى المستدرک ج ٢ ص ٦١٦ ، ٦١٧ ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

أعلام النبلاء للذهبي ، وسائر المؤلفات الحديثية ، كما أشارات إليه بعض كتب التفسير ، عند تفسير قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ^(١) ، وعند تفسير أول سورة الإسراء وتناولته كتب الحديث جميعاً في أبواب معجزة الإسراء ، أو المناقب ، أو التفسير .

وهذه الحادثة التي وقعت لرسول الله ﷺ منذ طفولته المبكرة ، تكررت معه بعد ذلك أكثر من مرة .

فقد روى الإمام أحمد ، وابن حبان ، وابن عساكر ، عن أبي كعب أن أبا هريرة سأل رسول الله ﷺ : " يا رسول الله ! ما أول ما رأيت في أمر النبوة ؟ فقال النبي ﷺ : إني لفي صحراء ، ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسي ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو . قال الآخر : نعم .

فاستقبلاني بوجه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إليّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي ، لا أجد لأحدهما همساً .

فقال أحدهما للآخر : أضجعه .

فأضجعاني بلا قسر ، ولا هصر .

وقال أحدهما لصاحبه : أفلق صدره .

فهوى أحدهما إليّ صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم ، ولا وجع .

فقال له : أدخل الرأفة ، والرحمة .

فإذا مثل الذي أدخل يشبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلى اليمنى .

فقال : اغد ، وأسلم .

(١) سورة الشرح ، الآية ١ .

(٢٤٦)

فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ، ورحمة للكبير " .

وهذه هي المرة الثانية^(١) .

أما المرة الثالثة فكانت قبيل البعثة :

يروى أنس بن مالك هذه المرة فيقول : " لما حان أن ينبأ رسول الله ﷺ كان ينام حول الكعبة ، وكانت قريش تنام حولها ، فأتاه جبريل ، وميكائيل ، فقالا : بأيهم أمرنا .

فقالا : أمرنا بسيدهم ، ثم ذهبوا وجاءوا من القابلة وهم ثلاثة ، فألفوه ، وهو نائم فقلبوه لظهره ، وشفوا بطنه ، ثم جاءوا بماء زمزم فغسلوا ما كان في بطنه ، ثم جاءوا بطست من ذهب قد ملئت إيماناً ، وحكمة فملئ جوفه إيماناً وحكمة^(٢) .
أما المرة الرابعة فقد وقعت لما جاوز النبي ﷺ الخمسين من عمره .

فعن مالك ابن صعصعة أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به . قال :
" بينما أنا في الحطيم . أو قال في الحجر . إذ أتاني ملك فاستخرج قلبي ، ثم أتى بطست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبي ، ثم أحشأني ، ثم أعادهما ... " ^(٣) .

وعلى هذا

تكون حادثة شق صدر النبي ﷺ قد تكررت معه ﷺ أربع مرات :

الأولى : وهو صغير في ديار بني سعد .

الثانية : وهو في مكة ، وعمره عشر سنوات .

الثالثة : وهو في مكة قبيل البعثة .

الرابعة : وهو في مكة قبيل الإسراء والمعراج .

(١) تهذيب ابن عساكر ج ١ ص ٤٠ .

(٢) حجة الله على العالمين ص ٢٧٢ .

(٣) أخرجه مسلم . كتاب الإيمان . باب الإسراء ج ١ ص ٣٩٣ ، وأحمد ج ٣ ص ١٢١ ،

والحاكم ج ٢ ص ٦١٦ .

الحكمة فى شق صدره ﷺ

تشير قصة شق الصدر لمحمد ﷺ إلى تعهد الله ﷻ . نبيه ﷺ منذ صغره ، وعلى امتداد عمره ﷺ بإبعاده عن مزالق الطبع ، ووساوس الشيطان ، وتلك حصانة حسية للرسول الكريم أضفاها الله عليه ، ليعيش طاهر الظاهر ، والباطن بتوفيق الله تعالى ، وقدرته .

إن الله سبحانه وتعالى . لما شأته إرادته . منذ الأزل . أن يكون محمد خاتم المرسلين ، أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الأعلى ، للإنسان السوى ، الذى يسير نحو الكمال بطهارة القلب ، وتصفية النفس .

ولما شب رسول الله ﷺ كانت مكة تعج بمختلف أنواع اللهو ، والفساد ، والملاذ الشهوانية الدنسة ، بلا رقيب ، ولا حسيب .

كانت حانات الخمر منتشرة ، وبيوت الريبة معلنة ، وعليها علامات تعرف بها ، ووجود المغنيات ، والماجنات ، والراقصات ، من الأمور العادية الموجودة فى ذلك المجتمع تتوجها عبادة الأصنام ، والأوثان .

وكان المجتمع المكي يومذاك يقر ذلك ، ويعتبره جزءاً من حياة الناس ... والله سبحانه وتعالى برأ رسوله ، واختاره من أكرم معادن الإنسانية ، ثم اختاره لحمل أكمل رسالات السماء إلى أمم الأرض جميعاً ، ولذلك أحاطه بكل أنواع الرعاية ، والحفظ .

وأحاديث شق الصدر صحيحة السند ، أجمعت عليها سائر مؤلفات السيرة وكثرت معها الشواهد ، والمتابعات ، فلا مجال للشك فى صحتها .

وأحاديث شق الصدر مروية عن رسول الله ﷺ بعد مبعثه ، فهى بذلك من الوحي المنزل على رسول الله ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى أبداً .

إن شق صدر النبي ﷺ كان لإخراج حظ النفس ، وحظ الشيطان من قلبه ، لقد كان بوسع القدر الإلهي أن يضع في محمد ما يشاء الله له من فضل ، وخير ، بصورة معنوية ، غير مدركة بالحواس من غير حاجة لجراحه ، أو شق ، لكن الله أراد له هذه الصور الحسية ، ليشهد الناس على هذه العجبية الخالدة التي جعلت من محمد إنساناً قوياً ، شجاعاً طاهراً ، نظيف الظاهر ، والباطن ...

ولا نستطيع القول بأن حظ الشيطان مرتبط في النفس بجزء مادي ، أو غدة معينة ، لأن هذا مما يستحيل تحديده ... ولكن الذي يمكن قوله : هو أن شق الصدر جرى بقدره الله على قدر طاقة الناس ، ومفاهيمهم .

وكل ما يمكن الإشارة إليه أن شق محمد ﷺ من عناية الله به ليترقى في الطهر ، ويسمو في السلوك ، ويعلو في روحانيته ، وشفافيته ، ويقترب في نورانيته من الروح ، والملا الأعلى .

ومن العجيب أنا رأينا من ينكر حادثة شق الصدر من العلماء المسلمين ، فها هو الدكتور/ محمود مراد يتحدث عن طفولة النبي ﷺ ، وشق صدره وغيرها من الإرهاسات فيقول : يغلب ذكر الأعاجيب فيها ذكر الواقع ، في قصص ساذجة لا تشبه ما ورد في النص من أحاديث محكمة عن عبد المطلب^(١) .

فشق الصدر في رأيه كلام ساذج يتضمن أعجوبة لا يتصورها الواقع ، ولا يسلم بها ، فهي عنده قصة مردودة .

والدكتور/ محمد حسنين هيكل يرد حادثة شق الصدر بضعف السند ، وبأن محمد رواها وهو طفل صغير ، وبأنه لا حاجة إليها في إثبات الرسالة ، وبأن الإسلام أقام دعوته على العقل الذي يتعارض مع تصور هذه الحادثة^(٢) . والمستشرقون هم أول من أنكر شق الصدر ، فقد جاء في دائرة

(١) محمد رسول الله ﷺ للدكتور/ محمود مراد ص ٤١ .

(٢) أنظر حياة محمد ص ١٢٨ . ١٢٩ بتصرف .

المعارف الإسلامية .

أما قصة تطهير الصدر ، فهي لا تعدوا أن تكون تفسيراً لأول سورة الشرح ، وليس لها قيمة تاريخية^(١) .

وتبع بعض المسلمين المستشرقين في الإنكار ، ولهم فيه طريقان :

• **طريق ينكر شق الصدر إنكاراً تاماً ،** ويبحث عن مبررات تؤيد إنكاره ، فإن كان مسلماً يذهب إلى ضعف سند روايات شق الصدر ، وعدم معقوليتها ، ولأنها رواية عن الرسول في طفولته .

وإن لم يكن مسلماً لجأ إلى التحليل العقلي ، والواقع التجريبي ، ليصل إلى إنكار وقوع شق الصدر ، ويرى أصحاب هذا الطريق أن شق الصدر ليس ضرورياً لإثبات الرسالة ، لأن الله قادر على إنفاذ ما يرى ، بدون هذه التصورات المزعومة ، وبخاصة أن حظ الشيطان في النفس لا يسكن في عضو ما ، وإنما هو يجري في الجسد كله مجرى الدم .

• **الطريق الثانى ينظر إلى حادثة شق الصدر ،** ويرى صحة الأحاديث الواردة

التي يؤكد بها قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ، ويؤمن بأن الآية

لتأكيد شق الصدر . كما يقول الإمام الخازن في تفسيره^(٢) ، ولذا يبحث عن

مخرج لإنكاره بعدما سلم بصحة أحاديث شق الصدر .

يرى أصحاب هذا رأى صحة الأحاديث ، ويعلمون أنها كانت بعد البعثة

فقد تحدث بها ﷺ حين سئل عنها ، ولذلك يذهبون إلى تأويل شق الصدر بأنه

يعنى التطهر المعنوى لرسول الله ﷺ .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ج ٨ ص ٥٩ .

(٢) تفسير الخازن ج ٧ ص ٢٦٢ ، وذكر الخازن أن الشق احد معانى شرح الصدر .

الرأى الحق فى شق الصدر

حادثة شق الصدر وقعت بصورة حسية ، وتكررت مع رسول الله ﷺ ،
والروايات الصحيحة تؤكد ذلك . فقد جاء فى بعضها :
. فشق من النحر إلى مرق البطن .
. وفى بعضها جاء : إلى أسفل بطنه .
. وجاء فى إحداها : فشق جبريل ما بين سرتة إلى لبتة .
. ويقول أنس بن مالك ؓ : " وقد كنت أرى أثر ذلك الخيط فى صدره " (١) .

يقول الدكتور/ محمد سعيد البوطى فى رده على كلا الفريقين : رويت هذه الحادثة بطرق صحيحة وعن كثير من الصحابة .
وليست الحكمة من هذه الحادثة . والله أعلم . استئصال غدة الشر فى جسم رسول الله ﷺ إذ لو كان الشر منبعه غدة فى الجسم ، أو علقه فى بعض أنحاءه لأمكن أن يصبح الشرير خيراً بعملية جراحية ، ولكن يبدو أن الحكمة هى إعلاء أمر الرسول ﷺ وتهينته للعصمة ، والوحى ، منذ صغره بوسائل مادية ، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به ، وتصديقهم برسالته .
إنها إذاً عملية تطهير معنوى ، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادى الحسى ، ليكون ذلك الإعلان الإلهى ظاهراً بين أسماع الناس ، وأبصارهم ، وعلى مستوى تصوراتهم .

(١) السيرة النبوية فى الصحيحين ص ١٢٤ .

وأيا كانت الحكمة ، فلا ينبغي . وقد ثبت الخبر ثبوتاً صحيحاً . محاولة البحث عن مخارج لصرف الحديث عن ظاهرة ، وحقيقته ، والذهاب إلى التأويلات المموجة البعيدة المتكلفة ، ولن نجد مسوغاً لمن يحاول هذا . رغم ثبوت الخبر وصحته . إلا ضعف الإيمان بالله ﷻ .

ينبغي أن نعلم بأن ميزان قبولنا للخبر إنما هو صدق الرواية ، وصحتها ، فإذا ثبت ذلك ثبوتاً بيناً فلا مناص من قبوله ، موضوعاً على الرأس ، وميزاننا لفهمه حينئذ دلالات اللغة العربية ، وأحكامها ، والأصل في الكلام الحقيقة . لو جاز لكل باحث ، وقارئ أن يصرف الكلام عن حقيقته إلى مختلف الدلالات المجازية بغير صارف ، ليتخير من بينها ما يروق له ، لانشلت قيمة اللغة ، وفقدت دلالتها ، وتاه الناس في مفاهيمها^(١) .

إن الدكتور/ محمود مراد يصف رواية الإرهاصات بالسذاجة ، ويصف قصص عبد المطلب بالإحكام ، مع أنه لا فرق بينهما في التركيب اللغوي ، أو الدلالات الفنية ، والمعنوية ... لكنه الغرض والمرض !! الذي لا يسلم بخوارق العادات ، ويجعل للعقل السلطان الأعلى في الفهم ، والإدراك .

وكلام الدكتور/ هيكمل مردود ، لصحة السند الذي جاء بشق الصدر . وقد قال النبي أحاديث شق الصدر وهو نبي مرسل حين سئل عنها . وأيضاً فإن خوارق العادات جاءت للناس ليسلموا بما جاءهم به الرسول ﷺ . ومن الممكن أن يخلق الله في عباده التسليم ، والإيمان من غير معجزة ، أو حادثة خارقة للعادة ، وتلك مشيئة الله .

ولو فرضنا أن هذه الخوارق لم تقع لرأينا من يطالب بها لتكون دليلاً أمامه على التصديق ، كما حدث من أهل مكة ، فلقد دعاهم النبي ﷺ بالقرآن الكريم ، وبكافة الحجج الموجودة فيه ، إلا أنهم طالبوا بخوارق للعادات . يقول الله تعالى

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٥٣ .

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿١٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿١١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَكِ قَبِيلًا ﴿١٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٣﴾ ﴾^(١) .

إن الأمر فى النهاية عقل ، ونبوة ، وفكر بشرى ، ووحى إلهى ، والفرق بينهما كبير ... والمؤمن يعطى كل جانب حقه ... أما غيره فإنه ينادى بسيادة العقل ، وليس له فى تصور النبوة ، والوحى نصيب .

يقول ابن حجر : إن جميع ما ورد فى شق الصدر ، واستخراج القلب ، وغير ذلك مما يجب التسليم له ، دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصالحية القدر فلا يستحيل شئ من ذلك^(٢) .

والبشرية كلها تعلم أن النبوات قائمة على خوارق العادات ، الخارجة عن مألوف العقول ، وطبائع الأشياء ، فمن آمن بالنبوة لزمه الإيمان بالخوارق ، ومن أنكر الخوارق أنكر النبوة من أساسها ...

والعجب كل العجب من عقول تسلم ببعض الأمور ، وتتنكر أشباهها بلا سبب ، وبلا علة ، وكأنها فقدت الربط بين الأشباه ، والنظائر ، مع أن ذلك من بدايات التسليم العقلى ...

ولعل سبب ذلك هو المرض الباطنى ، والغرض الردى الذى يوجه القضايا فى مسارات خاصة ، ويعلل الأمور وفق الهوى ... والله أعلم .

(١) سورة الإسراء ، من الآية ٩٠ : ٩٣ .

(٢) فتح البارى ج ١٥ ص ٥٢ .

المبحث السادس

التنشئة الاجتماعية لحمد ﷺ

بعد انتهاء مرحلة الرضاعة ، والحضانة فى ديار بنى سعد ، أعادته (حليمة) إلى أهله بمكة ، وأخذوا فى تربيته ، وتعليمه بطريقة اجتماعية ، وأحاطه أهله بالعناية ، والتكريم ، واهتموا بأن يمارس معهم شئون الحياة ، وأن يكون اجتماعياً وسط أهله .

مع تنشئته ﷺ نتكلم فيما يلى :

- ١ -

تربية آمنه لوليدها ﷺ

عاد محمد ﷺ من ديار بنى سعد بعدما بلغ خمس سنوات للمرة الثانية ، والأخيرة ، وسرت أمه بقدومه ، وأخذت فى توجيهه ، وتنشئته ، تساعداه (أم أيمن) ، ويعاونها جده (عبد المطلب) الذى رأى فى محمد صورة ابنه (عبد الله) . لاحظت (آمنة) أن محمداً يتمتع بقوة بدنية ، وعقلية ، تفوق أقرانه من الأطفال ، ورأت أن تذهب به لزيارة أحوال أبيه من بنى عدى بن النجار ، ليعرف قبر أبيه الذى دفن فى ديارهم ، وليعلم أصوله من جهة أمه ، كما علمها من جهة أبيه .

وأخذته ﷺ ورحلت به على ناقتين لها ، ومعهما (أم أيمن) ، ومكثت فى المدينة شهراً كاملاً ، ليتمكن ولیدها الصغير من التعرف على المكان ، وأهله ، ويرى ما هم فيه من عادات ، وأديان ، وأعمال ، من خلال لعبه مع الصغار ، وجلسه مع الكبار .

وعند عودة (آمنة) من المدينة إلى مكة ماتت في الطريق عند الأبواء^(١) ، ودفنت بها ... ورجعت القافلة مرة أخرى إلى مكة بلا (آمنة) ، فاستقبلها (عبد المطلب) ، وضم حفيده إليه ، فكفل محمداً ﷺ ، ومعه حاضنته (أم أيمن) تخدمه .

وبقيت ذكريات رحلة المدينة مع رسول الله ﷺ طوال حياته ، لأنه ﷺ لما هاجر في الإسلام إلى المدينة المنورة بعد سبع وأربعين سنة نظر إلى أطم^(٢) بنى النجار ، وقال : " كنت ألاعب (أنيسة) "وهي جارية من الأنصار " على هذه الأطم ، وكنت مع الغلمان أبناء أخوالي نظير طائراً كان يقع علينا ، وأحسنت العوم في بئر بنى عدى بن النجار .

وقال : وفي دار بنى عدى نزلت مع أمي ، وفيها قبر أبي^(٣) .
إنها ذكريات باقية بصورتها ، وحقيقتها ... وكان ﷺ يذكر حاضنته أم أيمن ، ويقول : " أم يمن أمي بعد أمي " ^(٤) .

وقد زار النبي ﷺ بعد البعثة أيضاً قبر أمه فبكى ، وأبكى .

فلما سئل : " ما يبكيك يا رسول الله .

قال : تذكرت رحمتها فبكت " ^(٥) .

وبموت (آمنة) فقد الرسول أبويه ، ووجد نفسه وحيداً ، فريداً ، حرم من الآباء ، والإخوة ، ولو كان غير محمد لأصابه الكثير ، إلا أن الرعاية الإلهية كانت معه ﷺ ، حيث قام (عبد المطلب) بكفالاته بعد رجوعه إلى مكة مباشرة ، وشمله بعنايته ، واهتمامه ، وكان يرعاه أكثر من أبنائه .

(١) الأبواء : قرية صغيرة بين مكة والمدينة ، بينها وبين المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً .

(٢) الأطم : الحصون ، ومفردها أطمه .

(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١١٦ .

(٤) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١١٦ .

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ١١٧ .

كما أحاطته (أم أيمن) رضى الله عنها بالرعاية ، والخدمة ، وكانت تخاف عليه من أى أذى يلحق به ، وبخاصة أنها رأت من يهود المدينة ما جعلها تخاف عليه منهم ، تقول رضى الله عنها : " وكان قوم اليهود يختلفون إليه ، وينظرونه ، ويتفرسون فيه ، تقول أم أيمن : فسمعت أحدهم يقول : هو نبي هذه الأمة ، وهذه دار هجرته ، فوعيت ذلك كله من كلامهم " (١) ، وبقيت هذه الحادثة فى ذاكرتها ، ولذلك نراها بعد عودتها إلى مكة ، تذهب به إلى جده (عبد المطلب) ليكفله ، فكفله مرحباً به ، وقربه منه ، ولما قارب أجله ، وصى ابنه (أبا طالب) ليكفله من بعده ، فهو أحن أعمامه عليه ، وهو شقيق أبيه (عبد الله) لأمه وأبيه وهكذا عاش ﷺ مع جده ، ومن بعده مع عمه ، مكرماً ، مصاناً .

إن التنشئة الاجتماعية تورث الصغير ملامح البيئات التى ينشأ فيها ، وتعلمه العادات التى رآها ... ولذلك لم يكن عجباً أن نرى محمداً فى شبابه يواجه الصعاب بشجاعة ، ويعيش وحده بقوة لا يخاف عزله ، ولا يأبه بإنفراد ، ولا يتأثر بظلام الليل ، وخيالات الصحراء .

إن الفتى الذى يعيش بين والديه لا يرى إلا الحنان والدلال ، ويحتاج لمن يحرسه ، ويدفع عنه ، ويعجز أمام المصاعب ... ويبحث دائماً عن أمه وأبيه .
أما محمد ﷺ فلقد نشأ رجلاً ، وشبَّ رجلاً ، وعاش رجلاً ، وبعثه الله رسولاً قوياً ... وصار بذلك مثلاً وأسوة للمؤمنين ﷺ .

(١) المرجع السابق ج ١ ص ١١٨ .

عناية عبد المطلب بتربية محمد ﷺ

عاد محمد ﷺ من رحلة المدينة وحيداً إلى جده ، فضمه إليه ، وقربه من نفسه ، ورق عليه رقة لم ينلها أحد من ولده ، وكان يتفقده إذا خلا ، وإذا نام . قال قوم بنى مدلج لعبد المطلب : احتفظ بابنك هذا فإن له شأنًا ، وإنا لم نر قدماً أشبه بقدم إبراهيم الذي في المقام منه ...

فسر كثيراً ، وأتى بولده أبى طالب ، وقال له : اسمع ما يقول هؤلاء ، فسمع منهم ، واحتفظ بما سمع ، إقراراً بضرورة الاهتمام بمحمد ﷺ^(١) .

وجاء (عبد المطلب) لحاضنته (أم أيمن) وكان اسمها (بركة) وقال لها : " يا بركة لا تغفلى عن ابني هذا ، فإنى وجدته مع غلمان قريباً من السدرة ، وأن أهل الكتاب يرون له شأنًا " .

وقد عمد (عبد المطلب) أن ينشئ حفيده نشأة الرجال الكبار .

يقول ابن إسحاق : " عاش رسول الله ﷺ مع جده (عبد المطلب بن هاشم) وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك ، حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له .

يقول ابن إسحاق : فكان رسول الله ﷺ يأتي ، وهو غلام جفر ، يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه . فيقول لهم (عبد المطلب) حين رأى ذلك منهم : دعوا ابني ، فوالله إن له لشأنًا ، ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع " ^(٢) .

ويبدو أن هذه الواقعة تكررت مع غير أبناء (عبد المطلب) ، فلقد روى

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٩٤ .

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ١٩٥ .

ابن جريج قال : " كنا مع عطاء ، فقال : سمعت ابن عباس يقول : سمعت أباي يقول : كان عبد المطلب أطول الناس قامة ، وأحسنهم وجهاً ، ما رآه أحد قط إلا أحبه ، وكان له مفرش في الحجر لا يجلس عليه غيره ، ولا يجلس عليه معه أحد ، وكان الأنداد من قريش ، حرب بن أمية فمن دونه ، يجلسون حوله دون المفرش ، فجاء رسول الله ﷺ ، وهو غلام لم يبلغ ، فجلس على المفرش فجبذه رجل فبكى .

فقال عبد المطلب : ما لا بنى يبكي ؟

قالوا له : إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه .

فقال : دعوا ابني يجلس عليه ، فإنه يحس من نفسه شرفاً ، وأرجوا أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده ^(١) .

وكان (عبد المطلب) لا يأكل طعاماً إلا ناداه ليأكل معه ، ويقول لمن حوله : على بابني ، فيؤتى به إليه ، ويأكل معه .

يروى كندير بن سعيد عن أبيه قال : " حجبت في الجاهلية ، فإذا رجل يطوف بالبيت ، ويرتجز . ويقول :

يارب رد لي راكبي محمداً .: يارب رده واصطنع له عندى يداً

فقلت : من هذا .

قالوا : هذا (عبد المطلب) ، ذهبت إبل له ، فأرسل ابن ابنه محمد في طلبها ، ولم يرسله في حاجة قط إلا جاء بها ، وقد احتبس عليه هذه المرة ...

يقول الراوى : فما برحت حتى أنظر ما يحدث ، فلما جاء (محمد) ﷺ بالإبل ، قال له جده : يا بنى لقد حزنت عليك حزناً ، لا تفارقتي أبداً ^(٢) .

يقول ابن إسحاق : " إن أمه (السعدية) لما قدمت به مكة أضلها في الناس

(١) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٥٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٥٤ .

وهي مقبلة به نحو أهله ، فالتمسته فلم تجده ، فأتت (عبد المطلب) ، فقالت له :
: إني قد قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلني ، فوالله ما أدرى
أين هو ؟!

فقام (عبد المطلب) عند الكعبة يدعو الله أن يرده .
يقول ابن إسحاق : وجده (ورقة بن نوفل بن أسد) ، ورجل آخر من قريش
فأتيا به (عبد المطلب) فقالا له : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة .
فأخذه (عبد المطلب) ، فحمله على عنقه ، وهو يطوف الكعبة يعوده ،
ويدعو له ، ثم أرسل به إلى أمه (آمنة) ^(١) .
ولما شعر (عبد المطلب) بدنو أجله ، وصى ابنه (أبا طالب) بكفالاته ^(٢)
فكفله عمه (أبو طالب) بعد وفاة جده (عبد المطلب) ، وعمر النبي ﷺ ثمانى
سنوات ، وحافظ عليه من كيد أعدائه ، ومعارضيه .
وقد اشترك (محمد) فى دفن جده ، وسار خلفه وهو يبكى ، وقد دفن (عبد المطلب)
بالحجون ^(٣) .

يقول ابن سعد : ومات (عبد المطلب) فدفن بالحجون ، وهو يومئذ ابن
اثننتين وثمانين سنة ، ويقال : ابن مائة وعشر سنين .
وسئل رسول الله ﷺ : أتذكر موت (عبد المطلب) ؟
قال : نعم أنا يومئذ ابن ثمانى سنين .
قالت أم أيمن : رأيت رسل الله ﷺ يومئذ يبكى خلف سرير (عبد المطلب) .

(١) سيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٥٦ .

عناية أبى طالب بابن أخيه

عاش النبى ﷺ فى كفالة عمه (أبى طالب) ، تحيطه رعاية الله الذى حفظه من ذل اليتيم ، وضرر الفقر .

وتمام تنشئة (محمد) فى بيت (أبى طالب) إكمال لتربيته على روح الأسرة الواحدة ، فلقد عاش مع أبناء قبيلة " هوازن " وعاش مع أبناء خنولته بنى النجار فى المدينة ، وها هو اليوم يعيش الحياة مع بنى عمومته فى بيت واحد ، ويشترك معهم فى طعامهم ، وشرابهم ، ونومهم ... وبذلك تتم الجوانب الاجتماعية فى نشأته ﷺ .

وتهيئة (أبى طالب) لكفالة محمد قدر إلهى خالص ، لأن (أبا طالب) كان كثير العيال ، فقير الحال ، وكان الطعام يقدم لأولاده ، فيتناولون عليه لقلته ، وعدم كفايته ، وكان الفقر باد عليهم .

يقول السهيلي : كانوا يصبحون غمضاً ، رمضاً ، مصفرة ألوانهم من الجوع .
ومع هذا الحال فإن (أبا طالب) أهتم بوصية أبيه ، وضم محمداً لأبنائه ، وخصه بالرعاية ، والتوجيه ، وكان يجالسه ، ويناقشه تقديراً لوصية أبيه ، وحفظاً لحق أخيه ، وحبا وجدده فى قلبه لمحمد ﷺ .

ومن رعاية الله بمحمد ﷺ وهو فى بيت (أبى طالب) أنه كان إذا وضع (أبو طالب) الطعام لأولاده سبقو محمداً إليه ، ويتقاصروا هو ، وتمتد أيديهم ، وتقبض يده تكرماً ، واستحياء ، وقناعة ، ومع ذلك يصبح صقيلاً ، دهنياً ، كأنه فى أنعم عيش ، وأعز كفاية ، لطفاً من الله ﷻ .

رأى محمد رغم صغره حاجة عمه (أبى طالب) للمال ، فأخذ على عاتقه أن يعمل ، ويكتسب شيئاً يعين به عمه .

المبحث السابع

التربية العملية لحمد ﷺ

أراد الله لمحمد ﷺ أن يخرج إلى الناس ، ويختلط بهم ، ويتعامل معهم في بيئته ، وبعيداً عنها ... لينال أهلية الرسالة بصورة عملية ، تطبيقية .
لم يكتف القدر بالتنشئة الاجتماعية لمحمد ، وإنما ضم إليها التكوين الحركي العملي .

إن التربية العملية لها دور رئيسي في بروز الشخصية السوية ، وكلما اختلط الصغير بالناس اكتسب خبرة ، ومعرفة ... وكلما سافر ، ورحل عرف المزيد .
لهذا نرى . والله أعلم . أن الله هياً لحبيبه محمد ﷺ مجالاً رحباً لتنشئته اجتماعياً ، وعملياً ...

لقد عاش محمد في بادية بني سعد خمس سنوات ، اختلط خلالها بالناس ، وقام بالعمل ، والنشاط ، تقول حليلة : " بينما هو ﷺ يلعب ، وأخوه خلف البيوت يرعيان بهما لنا " (١) ...

ورحل إلى المدينة برفقة أمه في رحلتها التي ماتت فيها ... وأقام بالمدينة شهراً .

وفي كفالة جده اختلط بحكماء مكة ، ورجالاتها ...
ومع عمه (أبي طالب) رأى حنان الأب ، واهتمامه ، حيث كان يصطحبه معه أينما ذهب ، وكان يحبه حباً شديداً ، لا يتركه ينام إلا بجواره ، ولا يخرج إلا في معيته ، ولا يطعم أبناءه إلا وهو معهم .

(١) سيرة أعلام النبلاء ج ١ ص ٥١ .

وكان عمه لا يطمئن عليه إلا وهو معه ، ولذلك كانت ملازمته له دائمة ومستمرة .

وهياً الله لمحمد ﷺ أسباب الاتصال بالناس ، والالتقاء بهم ، مع اختلاف المذاهب ، والاتجاهات ، والعادات ، وتعدد الأماكن ، والبيئات .
وذلك فيما يلي :

- ١ -

رحله محمد ﷺ الأولى إلى الشام

أراد (أبو طالب) أن يسير في ركب الشام للتجارة ، فلما عزم على السفر تعلق به محمد ﷺ قائلاً له : **أى عم إلى من تخلفنى ها هنا ؟**
فرق له قلب عمه ، وأخذه معه ، وأردفه خلفه على بعيره ، واتجها معاً صوب الشام مع القافلة .

وكان للنصارى عدد من الأديرة في الطريق ، يسكنها الرهبان المنقطعون للعبادة ، وهم الذين يعلمون ما بقى من دين عيسى عليه السلام ، ويبدوا أن هؤلاء الرهبان كانوا على علم بأوصاف النبى المنتظر ، كما قال الله تعالى عنهم ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾^(١) .

وكما قال سبحانه وتعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤٦ .

لقد وصلت هذه المعرفة لديهم إلى الوقوف على بعض الحقائق وهى :

- . ضرورة أن يكون النبى يتيماً .
- . وأن يكون موسوماً بخاتم النبوة .
- . وأن خوارق الطبيعة تحيط به .
- . وكانوا يعلمون. أن. هذا. النبى سيلقى كراهية اليهود. ، لأنهم يرغبون فى أن تكون النبوة لهم ، ومنهم .
- ويبدو أن هذه المسألة كانت معلومة لعدد كبير من الرهبان ، والقسس ، لأن ركب أبى طالب ، ومحمد نزل أولاً فى دير قريب بشمال الحجاز ، فالتقوا مع صاحبه ، فنظر صاحب الدير لمحمد ، وقال لأبى طالب : " ما هذا الغلام منك ؟ فقال أبو طالب : هو ابنى .
- فقال الراهب : ما هو ابنك ، وما ينبغى أن يكون له أب حى .
- قال أبو طالب : ولم ؟
- قال الراهب : لأن وجهه وجه نبى ، وعينه عين نبى .
- فقال أبو طالب : وما النبى ؟
- فقال له الراهب : الذى يوحى إليه من السماء فينبئ أهل الأرض ، فاتق عليه من اليهود "(١) .

كانت الأديرة أماكن يستريح بجوارها المارة ، الذاهبون إلى الشام ، أو العائدون منها ، ففيها من أسباب الحياة ما يشجع على الراحة عندها ، وكان الرهبان يقدمون لمن يمر بهم ما يعينهم على مشاق السفر من مأكّل وشراب ، وكانوا يشترّون منه ما يحتاجون إليه ، وكان بينهم تعارف ، واتصال .

(١) سيرة النبى ج ١ ص ١٦٨ .

سمع (أبو طالب) من راهب الدير الذى نزل عنده ما سمعه من غيره ، فقال
للنبي ﷺ : يا ابن أخى ، ألا تسمع ما يقولون ؟

فقال له محمد : أى عم لا تنكر لله قدرة !!

وكانت الوقفة الكبرى حين وصل الراكب مدينة " بصرى " ، فنزل الجميع
وجلسوا تحت شجرة قريبة من دير الراهب " بحيرى " .

يقول ابن إسحاق : " فلما نزل الراكب أرض الشام ، وبها راهب يقال له ، "
بحيرى " فى صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك
الصومعة منذ قط راهب ، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها ، يتوارثونه كابراً عن
كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببخيرى ، وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك ، فلا
يكلمهم ، ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريباً من صومعته
صنع طعاماً كثيراً ، وذلك عن شئ رآه ، يذكرون أنه رأى رسول الله ﷺ ، وهو
فى صومعته فى الراكب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم ، تتحرك بحركته ،
ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريباً من بحيرى ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت
الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها .

فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ، وقد أمر الطعام فصنع ، ثم أرسل
إليهم ، فقال : إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش ، وأحب أن تحضروا
كلكم ، صغيركم ، وكبيرهم ، وعبدكم ، وحرکم .

فقال له رجل منهم : والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم ! ما كنت تصنع هذا
بنا ، وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟!

قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف ، وقد أحببت أن
أكرمكم ، وأصنع لكم طعاماً ، فتأكلوا منه كلکم .

فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم ، لحدثاة سنه ، فبقى

فى رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرى فى القوم لم ير الصفة التى تعرف ، ويجدها عنده .

فقال : يا معشر قريش ! لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى .

قالوا له : يا بحيرى ، ما تخلف عنك أحد ينبغى له يأتىك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سنأ ، فتخلف فى الرحال .

فقال : لا تفعلوا أدعوه ، فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قريش مع القوم : واللات ، والعزى ، أن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه ، وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى ، جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء من جسده وقد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا .

قام إليه بحيرى ، فقال : يا غلام ، أسألك بحق اللات ، والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

وإنما قال له بحيرى : ذلك ، وحلف باللات ، والعزى ، لأنه سمع قومه يحلفون بهما .

فقال له رسول الله ﷺ : لا تسألنى باللات ، والعزى شيئاً ، فو الله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما .

فقال له بحيرى : فبإله إلا أخبرتنى عما أسألك عنه .

فقال له : سلنى عما بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله من قومه ، وهيئته ، وأموره ، فجعل رسول الله ﷺ يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره ، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .

يقول ابن إسحاق : فلما فرغ " بحيرى " أقبل على عمه (أبى طالب) ، فقال

له : ما هذا الغلام منك ؟

قال : ابني .

قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً .

قال : فإنه ابن أخى .

قال : فما فعل أبوه ؟

قال : مات وأمه حبلى به .

قال : صدقت ، فأرجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فو الله لنن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبلغه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده ^(١) .

وقد أورد الأمام الترمذى هذه الحادثة وزاد فيه ، حين سأله أشياخ من قريش عن سبب ما فعل قال لهم : " إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ، ولا حجر ، إلا خر ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبي ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ، ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما أتاهاهم به ، وكان هو فى رعى الإبل قال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظله ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فى الشجرة ، فلما جلس مال فى الشجرة عليه .

فقال : انظروا إلى فى الشجرة مال عليه ، وبينما هو قائم عليهم ، يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلوه ، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال : ما جاء بكم ؟

قالوا : جئنا لهذا النبي الذى أظننا زمانه ، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس منا ، وإنا قد بعثنا إلى طريقك هذا .

فقال : هل خلفكم أحد هو خير منكم ؟

(١) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ١٦٩ ، يقول البيهقى هذه القصة مشهورة عند أهل المغازى ، ويقول ابن حجر : رواها ثقات .

قالوا : إنما اخترنا خيرتنا لك ، لطريقك هذا .

قال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟
قالوا : لا .

فلما رد الرومان قال لأبى طالب ومن معه : أنشدكم الله أيكم وليه ؟
قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب ^(١) .

ويبدو أن رواية الترمذى تدور حول حادثة أخرى ، لأن رواية ابن إسحاق كانت فى التحذير من اليهود ، ورواية الترمذى فى التحذير من الروم ، وأيضاً فإن الحادثة الأولى حددت اسم الراهب ، وهو بحيرى ، بينما هذه الحادثة لم تذكر اسماً معيناً .

وخلاصة هذه المرويات تثبت هذه الرحلة لرسول الله ﷺ ومصاحبته لعمه ومعرفة أهل الكتاب بقرب مبعثه ، وكراهيتهم لعروبة هذا النبى المبعوث الذى تمنوه منهم . يقول الله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٢) .

وقد روى الهيثمى عدداً من الآثار تشهد على علم أهل الكتاب بأمر نبوة محمد ﷺ ، وهذا تأكيد لما جاء فى القرآن الكريم .

يروى سلمة ابن سلامة بن وقش ، وكان من أصحاب بدر ، قال : كان لنا جار من اليهود فى بنى عبد الأشهل ، فخرج علينا يوماً من بيته ، قبل مبعث النبى ﷺ ببسير ، وقف على مجلس عبد الأشهل ، وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً

(١) الجامع الصحيح . سنن الترمذى ج ٥ ص ٥٩٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٨٩ .

على بردة مضطجع فيها بفناء أهلى فذكر البعث ، والقيامة ، والحساب ،
والميزان ، والجنة ، والنار .

قال ذلك لقوم أهل أوثان ، وأصحاب شرك ، لا يرون أن بعثاً كائناً بعد
الموت .

فقالوا له : ويحك يا فلان ، ترى هذا كائناً ، إن الناس يبعثون بعد موتهم
إلى دار فيها جنة ، ونار ، يجزون فيها بأعمالهم .

قال : نعم ، والذى يحلف به ، لود أن له بدل تلك النار أعظم تنور فى
الدنيا يحمونه ، ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه ، وإنه ينجو من تلك النار غداً .
قالوا : ويحك وما آية ذلك ؟

قال : نبى يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكة ، واليمن .
قالوا : ومتى نراه ؟

فنظر إلى وأنا من أحدثهم سناً فقال : إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه .
قال سلمة : فو الله ما ذهب الليل ، والنهار حتى بعث الله تعالى نبيه ﷺ ،
وهو حى بين أظهرنا ، فآمنا به ، وكفر به بغياً ، وحسداً .
فقلنا له ، ويلك يا فلان أليس قلت لنا فيه ما قلت ؟
قال : بلى ولست به أومن ^(١) .

وكان عمر رسول الله ﷺ يوم أن سافر مع عمه اثنتى عشرة سنة ^(٢) ...
الأمر الذى مكنه من استيعاب كل ما رأى ، وما سمع ، مما جعل الرحلة
تربية عملية ، واستفادة تجريبية فى المعاشرة ، والاختلاط ، والنظر ، والتحليل
والفهم ، والتدبر .

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٨ ص ٤٢٠ .

(٢) أنساب الأشراف ج ١ ص ٩٦ .

فى هذه الرحلة وقعت عينا محمد على فسحة الصحراء الممتدة الواسعة ،
وتعلقنا بالنجوم اللامعة فى سمائها الصافية البديعة ، وجعل يمر بمدين ، ووادى
القرى ، وديار ثمود ، وتستمتع أذناه حديث العرب ، وأهل البادية ، وأخذ يتأمل هذه
المنازل ، وأخبارها ، وما حدث فى ماضيها القريب والبعيد .

وفى هذه الرحلة وقف فى بلاد الشام عند الحدائق الغناء ، وعرف أخبار
الروم ، ونصرانياتهم ، وسمع عن كتابهم ، وعانين مناوأة الفرس (عباد النار) لهم
وانتظارهم الوقعة بهم .

لقد كان له ﷺ من عظمة الروح ، وذكاء القلب ، ورجحان العقل ، ودقة
الملاحظة ، وقوة الذاكرة ، وغير ذلك من صفات حباه القدر بها ما مكنه من معرفة
الواقع الحياتى لكل من قابله ، تمهيداً للرسالة العظيمة التى أعده الله لها ، الأمر
الذى جعله ينظر إلى ما حوله نظرة الفاحص المحقق ، فلا يستريح إلى كل ما
يسمع ويرى ، فيرجع إلى نفسه يسألها : أين الحق من ذلك كله ؟

ويبدو أن (أبا طالب) لم يستفد من رحلته ما لا كثيراً ، فعاد إلى مكة ، ولم
يرجع لمثلها بعد ذلك ، وبقي فى مكة ، يقنع بالقليل ينفقه على أبنائه الكثيرى العدد
، راضياً بمحافظته على ابن أخيه (محمد) ، مطمئناً لما سوف يناله من مجد
وفخار .

رعى محمد ﷺ الغنم

عاد النبي ﷺ إلى مكة ، ورأى قلة مال عمه ، وكثرة أولاده ، فرغب فى مساعدته ، وهداه الله للعمل بأجرة لأهل مكة ، فرعى لهم غنمهم .
عن أبى هريرة ؓ أنه قال : " قال رسول الله ﷺ : ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم .

فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟
قال : نعم ، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة " (١) .
والقيراط عملة فضية تمثل جزءاً من الدينار ، أو الدرهم ... ومن قال إنها جزء من الأرض فقد وهم ، لأن قيراط الأرض لم يعرف إلا فى مصر .
عن أبى سعيد الخدرى قال : " أفتخر أهل الإبل والشاة .
فقال رسول الله ﷺ : بعث موسى وهو راعى غنم ، وبعث داود وهو راعى غنم ، وبعثت وأنا راعى غنم ، أرهاها لأهلها بأجساد " (٢) .
وعن جابر بن عبد الله ؓ قال : " كنا مع النبي ﷺ بمر الظهران ، ونحن نجنى الكباث ، فقال النبي ﷺ عليكم بالأسود منه ، فإنى كنت أجنه إذ كنت أرى الغنم .

فقلنا : يا رسول الله : كأنك رعى الغنم .

قال : نعم ، وهل من نبى إلا وقد رعاها !! " (٣) .

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى - كتاب الإجازة . باب رعى الغنم على قراريط ج ٤ ص ٤٤١ .

(٢) المسند ج ٣ ص ٤٢ ، وفتح البارى ج ٤ ص ٤٤١ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى - كتاب الأشربة . باب فضيلة الأسود من الكباث ج ٤ ص ٥ ، والكباث ثمر الأراك الناضج .

(٢٧٠)

ومن المعلوم أن محمداً ﷺ رعى الغنم لحليمة مع غلام لها ، كما سبق فى حديث شق الصدر ، حين جاءه الملكان وشقا صدره .
وللمرء أن يتساءل ، وما الحكمة فى رعى الغنم ؟ حتى يقدرها الله لأنبيائه جميعاً ؟ ...

أرى . والله أعلم . أن الحكمة فى رعى الغنم هى تربية الأنبياء على ما سيكونون عليه حين تكليفهم بالنبوة ، وليتعلموا حسن التعامل مع الناس .
وأهم هذه الفوائد ما يلى :

أ . التعود على المسؤولية :

إن ثقل مسؤولية التكليف يحتاج إلى طاقات بشرية تتحمله ، والنبوة تكليف شاق . لأنها تعنى إخراج الناس من المظلمات إلى النور . ولإنقاذ البشر من ضلالات الهوى ليسعدوا بنور الإيمان ، وبرد اليقين ، إن النبوة قمة الأمانة ، والمسؤولية ، وحاجتها إلى رسول يتحمل مشاقها ، ومصاعبها ضرورة لابد منها .
ورعى الغنم عمل شاق ، يكفى فى تصور مشقته أن الراعى يعيش واقفاً ، ومتحركاً ، طوال الوقت ، حيث تسرح الغنم ، وتمرح ، وهذه أعمال فى حد ذاتها تحتاج إلى قوة ، و طاقة ، ولذلك كان رعى الغنم مقدمة للنبوة لما فيهما معاً من مشقة ، وتعيب ...

ب . تعود الصبر والتحمل :

تحتاج النبوة إلى التخلق بالخلق الكريم ، والاتصاف بالحلم ، والصبر ، وذلك أمر يحققه رعى الغنم ، لأن القطيع يرعى وهو مطلق السراح ، فيتوزع هنا ، وهناك ، وكلما يجمعه الراعى يعود من حيث أتى ، وذلك أمر يحتاج إلى الصبر ، وقوة التحمل ، وبدون ذلك لا يمكن للراعى رعى الغنم ...

ومن رعى الغنم إذا تعلم الأنبياء الصبر ، والتحمل فى دعوة الناس ، لأن المدعوين ليسوا على اتجاه واحد ، وإنما لكل اتجاهه ، ومذهبه ، وجدله ، والنبي

مسئول عن تبليغ الدعوة للناس على الوجه الصحيح ، ولذلك وجب أن يكون صابراً ، حليماً .

يقول ابن حجر : إن مخالطة الغنم يحقق الحلم ، والشفقة ، لأن النبي إذا صبر على رعيها ، وجمعها بعد تفرقها في المرعى ، ونقلها من مسرح إلى مسرح ، ودفع عدوها من سبع ، وسارق ، وغير ذلك ، ألف من ذلك الصبر على الأمة ، وتحمل اختلاف الطبع ، وتفاوت العقول ، ويكون تحمله لمشقة ذلك أسهل بعد تدريبه عليه^(١) .

ج . شمول الرعاية :

راعى الغنم يحتاج إلى سعة الأفق ، وهو يدير أمر غنمه ، لتعدد جوانب الرعاية التي تحتاج إليها ، ففيها الصغير المحتاج للرعاية ، وفيها الذكر ، وفيها الأنثى ، كما أنها تحتاج دائماً إلى البحث عن مصادر أكلها ، وغذائها ، ولا بد لها من حراسة تحميها من الذئاب ، واللصوص ، ومن الضرورى المحافظة عليها من شدة الحر ، وقسوة البرد ، وكثيراً ما تتنابها الآلام ، والأوجاع ، وعلى الراعى متابعة ذلك ، ومن مسئوليات الراعى تدبير أمر مبيتها في الخلاء ، أو في البناء . إنها مسئوليات عديدة ، لا يصلح لها ضيق الأفق ، العاجز عن حمايتها ، وإعداد كافة الجوانب التي تحتاج إليها .

ولذلك كان . رعى الغنم تدريباً عملياً على مباشرة أعمال . النبوة لتعدد المسئوليات النبوية ، فعلى النبي أن يعلم حدود ما كلف به ، ويحسن فهم من سيدعوهم ، ولغة من سيخاطبهم ، حتى إذا سئل أجاب ، وإن عورض رد ، وإن واجه عدواً قاومه بالحسنى ... كل ذلك في قوالب عديدة ، وصور كثيرة .

إن تعدد المسئولية في رعى الغنم باب يعلم النبي ضرورة قيامه بالأمر ، والدعوة إليه بصورة كاملة ، تامة ، شاملة .

(١) فتح البارى ج ٤ ص ٤٤١ .

د . التسوية والعدل بين الناس :

يحتاج النبي إلى تبليغ الدعوة لسائر الناس على وجه يتناسب مع كل واحد منهم ، لا يقدر واحداً ، ويترك غيره ، ولا يهتم بغنى على حساب فقير ، ولا يتصور أن الخير في هذا أو في ذاك فيفضله على غيره .

ورعى الغنم يحقق هذا الخلق ، لأن الراعى عليه أن يرفق بالضعيف ، ويحيطه بعنايته ، فلو ولدت نعجة في الطريق فعليه حمل المولود بيده ، ولذلك نراه يسير خلف القطيع ليكون في عون الضعفاء ، ويراعى الأقوياء .

هـ . تعليم التواضع :

إن قيام الأنبياء برعى الغنم يعودهم التواضع ، وترك الكبر ، لأن رعاية الغنم ، والحرص عليها يحتاج إلى العمل الدؤوب بعيداً عن الخيلاء ، حيث لا فخر بعمل كله تعب ، ومشقة ، تحت حر الشمس ، أو في برد الشتاء ، والنبوة في حاجة إلى هذا التواضع الذي يجعل الأنبياء يتعاملون بالخلق الكريم مع كافة الناس ، مع الرجال ، والنساء ، مع الأغنياء ، والفقراء ، مع الكبير ، والصغير ، مع العظيم ، والحقير ، وبذلك كانوا أمثلة عليا ، وقدوة سامية .

وفي ذكر النبي ﷺ بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله أنه رعى الغنم ، دليل على عظيم تواضعه ، واعترافه بفضل ما من الله عليه به .

و . التعامل مع الناس :

يقتنى الغنم عديد من الناس ، ورعاتها كثيرون ، وكل راع يجد نفسه يتعامل بالضرورة مع كثير من أقرانه الرعاة ، حيث يجلسون في وقت الراحة ، ويتسامرون ، ويتناقشون ، وفي ذلك فرصة للأنبياء يتعرفون بها على الناس ، لتتم دعوتهم بعد ذلك بما يناسبهم ، ويفيدهم .

ز . الشجاعة :

الراعى يعمل على حماية غنمه من الذئاب ، واللصوص ، وغيرها ، وهو لذلك يحتاج إلى شجاعة تعينه على هذه الحماية ليلاً ، ونهاراً ، والأنبياء وهم يقومون بالدعوة يتصدى لهم الأعداء من شياطين الأنس ، والجن ، وهم محتاجون للشجاعة ، والجرأة ، حتى يمكنهم القيام بواجب الدعوة.

ح . التأمل والتفكير :

وراعى الغنم الذكى القلب يجد فى فسحة الجو الطلق أثناء النهار ، وفى تالؤلؤ النجوم إذا جن الليل موضعاً لتفكيره ، وتأمله يسبح منه فى هذه العوالم ، يبتغى أن يرى ما وراءها ، ويلتمس فى مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون ، وخلقها .

أليس هو يتنفس هواءه ، ويرى تناسقه ، ويشاهد جماله وحسنه !...
أليست تحببه أشعة الشمس ، ويغمره ضياء القمر ، ويتصل وجوده بالأفلاك ،
والعوالم جميعاً ؟!...

هذه الأفلاك ، والعوالم التى يراها فى فسحة الكون أمامه ، متصلاً بعضها ببعض فى نظام محكم ، يقول الله عنها ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾^(١) .

وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد يقتضى انتباهه ، ويقتضيه حتى لا يعدو الذئب على شاة منها ، وحتى لا تضل إحداها فى مهامه البادية ، فأى انتباه ، وأية قوة تحافظ على نظام العالم كله مع إحكامه الموجود !!!...

ط . حسن السياسة :

أفراد القطيع ليسوا على نسق الواحد ، مثل البشر ليسوا على توجه

(١) سورة يس ، الآية ٤٠ .

واحد ... فشاة تقبل ، وأخرى تدبر ، وذكر ينز ، وأنثى تقر ... وواحدة تنام ،
وأخرى تأكل ، ونعجة تلد ... وأخرى تمرض وهكذا ...

يجد الراعى نفسه أمام تنوع غريب من المهام ، وعليه أن يقوم بها جميعاً
على قدر ما يتطلبه كل واحد ... وبذلك يتعلم كيف يسوس الجميع ، ويرضى
الجميع ... ويستفيد بذلك إذا وضعته المقادير فى قيادة الناس ... ومن هنا كانت
أهمية الرعى للأنبياء ليتعلموا حسن سياسة الناس على اختلافهم وتنوعهم .

إن رعى الغنم مدرسة تحتاج إلى قوة البدن ، وقوة العزيمة ، والهدوء ، والأناة
، مع الصدق ، والإخلاص ، وقصد الاستفادة ، والتعلم .
وقد جعل الله رسله رعاة للغنم ليتعلموا منها الكثير ، فى إطار معونة الله ،
ورعايته لهم .

ولكن ...

لم كانت الفوائد فى رعى الغنم خاصة دون سائر الأنعام كالإبل ، والبقر ،
وغيرها ؟ ...

وأرى أن السر فى اختيار الغنم لذلك . والله أعلم . كثرة عددها ، وسرعة
حركتها ، وسهولة تفرقها ، لعدم ربطها ، أو تقييدها ، أما الإبل ، والبقر ، والخيول
، فعددها قليل مع راعيها ، وربطها ، وتقييدها بالحبال أمر عادى ، وكأن الله
تعالى يعلم رسله عليهم السلام حسن التعامل مع الناس ، وهم أحرار .

وأيضاً فإن السيطرة على الغنم المتفرقة سهل ، وانقيادها للراعى لا يحتاج
لجهد كبير ، لأنها بندااء واحد ، أو بإشارة بالعصا تعود لمكانها .
أما البقر ، والخيول ، والإبل فلا .

ومن هنا ...

كان اختيار الغنم يرعاها الأنبياء ليتعلموا قيادة أشتات من الناس ، ومخاطبة

(٢٧٥)

العديد من العقول ، والتفاهم مع كافة لغات ، ولهجات المدعوين ، الذين يصيخون
للحق ، ويؤمنون به .

وهكذا ...

رعى النبي ﷺ الغنم فى مكة ...

فإن قيل : إن رعاة غنم اليوم لا يستفيدون شيئاً ؟!!

قلنا : إنهم يستفيدون منها لكن هذه الفوائد لا تنعكس على تعاملاتهم مع
الآخرين لصدا قلوبهم ، وانطماس أرواحهم ، وعدم إحساسهم ، وندرة تجاوبهم مع
منهج الله الذى به يؤمنون !!

اشتراكه ﷺ في حرب الفجار

الإجارة عند العرب عهد لا يمكن الفكك منه ، وهو وعد يعطيه العربى لضعيف يلجأ إليه ، ويلتزم بإنفاذه له ، وكان الضعفاء ، أو المحتاجون يلجأون إلى من لديه قوة للحماية ، والنصرة فيجبرهم ، ويعلن ذلك للناس ، ويعدها تلتزم قبيلته معه فى إنفاذ ما وعد به مهما كلفهم ذلك ، وبخاصة إذا كان من المقدمين فيهم .

وقد تقع الحرب بين القبائل بسبب هذه الحماية ، وكثيراً ما وقعت .

وحروب العرب هى أيامهم التى كانوا يتواعدون عليها ، وكثيراً ما جعلوها قريبة من البيت مع أوقات أسواقهم ، وتجاراتهم .

ومن أشهر أيام العرب التى وقعت بسبب الإجارة حرب الفجار (بكسر الفاء ، وفتح الجيم الممدودة) التى هاجت بين العرب ، واستمرت خمسة أعوام واشترك فيها محمد ﷺ ، وعمره خمسة عشر عاماً .

وسبب وقوعها أن (النعمان بن المنذر) أتى مكة بإبل تحمل الحرير ، والعطر ، ويسمىها العرب (الطيمة) ، أتى بها لبيعها فى سوق عكاظ .

فلما نزلت عند بئر (أوارة) أراد (البراض بن قيس) أن يستولى على اللطيمة لضعف صاحبها (المنذرى) ، وبعد قومه عن مكة .

فاستجار النعمان بـ (عروة الرحال بن ربيعة) ليقوى ضعفه ، ويصد عنه عدوان البراض .

فأجار (عروة اللطيمة) ، وأصبح العدوان عليها عدواناً على عروة ، وقبيلته فجاء (البراض بن قيس) أحد بنى ضمرة يعاتب عروة ، ويقول له : أتجير اللطيمة على كنانة !!؟

فقال عروة : نعم ، وأجبرهم على الخلق كلهم .

وأدت هذه المواجهة الساخنة بين الرجلين إلى أن خرج (عروة الرجال) في سفرة فتبعه (البراض بن قيس) ، يطلب غفلته لينال منه ، حتى إذا وصلا إلى (تيمن ذى ظلال) ، وهو واد بعالية نجد^(١) غفل عروة ، وهو (ابن ربيعة بن كلاب) فوثب عليه (البراض) ، وقتله في شهر شوال ، وهو من الأشهر الحرم ، وتعرف هذه الحرب بـ (فجار البراض) .

أدى مقتل عروة إلى قيام حرب الفجار " بكسر الفاء ، وفتح الجيم " ^(٢) ، وسماها العرب بهذا الاسم بسبب وقوعها في الأشهر الحرم ، لأنهم لما تقاتلوا لم يأبهوا بحرمة الأيام ، ولا بحرمة المكان ، وقالوا : قد فجرنا ، وارتكبنا ذنباً عظيماً ، وبذلك سميت الحرب بهذا الاسم ^(٣) .

وقيل إنما سميت بذلك ، لأن كلا الطرفين استحلا من المحارم بينهم ما لم يقع في أيام العرب الأخرى ^(٤) .

وقد جاء مقتل عروة إلى قريش ، وهى بعكاظ فتركت السوق ، ورحلت حيث عروة ، وهوازن لا تشعر ، وانفض السوق ، ولم يبق بعكاظ سوق هذا العام . علمت هوازن بعد ذلك أن قريشاً ذهبت تيمن ذى ظلال ، فاتبعتها ، ورأتها راجعة إلى مكة ، وأدركتها قبل أن تدخل الحرم ، فاقتتلوا حتى جاء الليل . فلما دخلت قريش الحرم أمسكت هوازن فوقفت الحرب ، ولكنهم تواعدوا على اللقاء فى عكاظ من العام القادم ، حيث كان يوم شمطة ، وقد استمرت أيامهم بعد ذلك مدة طويلة .

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٦٨ ، وتيمن ذى ظلال : ليس تيمن الموجودة بين جرش ، وتباله من مخالفي اليمن .

(٢) أنظر : لسان العرب - مادة فجر ج ٦ ص ٣٥٤ - ط . الدار المصرية للتأليف .

(٣) الروض الأنف ج ١ ص ٢١١ .

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٦ .

وانتظم الفريقان خلال اقتتالهما تحت قيادة واحدة لكل قبيلة ، حيث كان لكل بطن من قريش ، وكنانة رئيس منهم ، ولكل قبيلة رئيس منهم ، وعلى القبائل جميعاً عند كل طرف رئيس واحد ، وبهذا التنظيم يلتزم كل فرد بما يوجبه عليه العرف القبلى حفاظاً على وضع القبيلة ، وحماية لها من الذل ، والهوان .
ولذلك أشرك أبناء (عبد المطلب) محمداً ﷺ معهم فى حرب الفجار ، وكانت هذه المشاركة تجربة عملية ، عاشها محمد مع أعمامه ، وأقرانه من غير أن يكون منه عدوان ، أو ظلم .

إن أيام العرب كانت نادرة الدم ، فهى عبارة عن تدريب ، ويقظة ، وحراسة مستمرة ، ومواجهة ينشغل بها أبناء القبيلة جميعاً ، حتى لا يتركوا غفلة لخصومهم ، وكانوا يحددون لحروبهم أياماً ، يتقابلون فيها فى مكان معين ، وفى موعد معين ، وكأنها مباراة دورية ، ومبارزة تنتهى بانتصار طرف ، وانسحاب الفريق المنهزم ، وبعدها يحددون موعداً جديداً فى مكان يتفقون عليه ، وأغلب أيام الفجار كانت فى عكاظ .

يدل على ندرة الدم فى أيام العرب أن هوازن حين عرض الصلح عليها ، أخذت أربعين رجلاً من قريش رهينة لديها حتى تأخذ دية قتلاها ، الذين بلغوا هذا العدد طوال أيام الفجار التى استمرت خمسة أعوام .

إن حرباً تقع بين قريش ، وكنانة بقبائلهما ، وبطونهما ... وبين هوازن بكل ما تشتمل عليه ، وتستمر خمسة أعوام ، ويقتل من هوازن أربعون رجلاً ، ويقتل من قريش عشرون رجلاً فقط ، لدليل على قلة القتلى فى أيام العرب .

والجانب الضعيف هو جانب هوازن ، حيث انتصر القرشيون فى يوم الشرب أكبر أيامهم ، وانتصرت هوازن فى يوم الحريرة انتصاراً جزئياً لأن بنى نصر من قريش ثبتوا فيها ، ولم ينسحبوا ، مع أن هذه الأيام كانت تقع قرب ديار

هوازن عند عكاظ ، وقد دفعت قريش لهوازن دية عشرين قتيلاً ، وهو العدد الزائد عن قتلاهم .

وأيام حرب فجار البراض هذه^(١) ستة أيام هي :

(أ) **يوم نخلة** : وهو يوم مقتل عروة ، حيث ذهبت قريش لعروة ، فتبعتهم هوازن ، وأدركتهم قبل دخولهم الحرم ، فاقتتلوا حتى جاء الليل ، فلما دخلت قريش الحرم أمسكت هوازن ، فكان النصر كفافاً لا على هؤلاء ، ولا على هؤلاء .

(ب) **يوم شمطة** : وهي الوقعة الثانية للفجار ، والمؤرخون يعدونها الأولى ، لأن اليوم الأول تم بصورة تلقائية كرد فعل على قتل عروة ، وأتصورهم يعدون الأيام التي يتم التواعد عليها ، وكان النصر في يوم شمطة لقريش ، وكنانة أولي الأمر ثم انقلب لهوازن آخره .

(١) فجارات العرب أربعة : **الفجار الأول** : بين كنانة ، وهوازن ، وكان الذي هاجه أن بدر بن معشر ، أحد بني عقيل بن مليك من كنانة ، جعل له مجلساً بسوق عكاظ وكان حدثاً منيعاً في نفسه ، ثم كان أن افتخر في السوق ، وتصدى له الأحمير بن مازن أحد بني دهمان ، ثم تحاور الحيان عند ذلك حتى كاد أن تكون بينهما الدماء ، ثم تراجعوا ورأوا أن الخطب يسير .

الفجار الثاني : وكان بين قريش ، وهوازن ، وكان الذي هاجه فتية من قريش ، تعرضوا لامرأة من بني عامر بن صعصعة ، فهاجت الحرب ، وكان بينهم قتال ، ودماء يسيرة ، تحملها حرب بن أمية ، وأصلح بينهم .

الفجار الثالث : كان بين كنانة ، وهوازن ، وكان الذي هاجه أن رجلاً من بني كنانة كان عليه دية لرجل من بني نصر ، فأعدم الكناني ، فغير النصرى ذلك قومه بسوق عكاظ ، فقام إليه كناني فضربه ، ثم تهايج الناس حتى كاد أن يكون بينهم قتال ، ثم تراجعوا .

الفجار الرابع : ويعرف بفجار البراض ، وهي التي اشترك فيها رسول الله ﷺ قبل المبعث ، وهي أخطرها ، لأن الفجارات الأخرى لم يحدث فيها قتال ، وإنما كانت تنتهي بالصلح ، والحوار ، والبحث هنا يتناول هذا الفجار الرابع .

(ج) يوم العباء : وهو جبل صغير قرب عكاظ ، صخره أبيض ، وقعت فيه الواقعة ، وكان النصر لهوازن .

(د) يوم الشرب : بفتح الشين مشددة ، وكسر الراء ، وبها كانت وقعة الفجار العظمى التى لم يقع للعرب مثلها ، وفى هذا اليوم قيد حرب بن أمية ، وسفيان ، وأبو سفيان أنفسهم كيلا يفروا ، ولذا سماوا بـ (العنابس) أى الأسود لشجاعتهم ، وكان النصر فى هذا اليوم لقريش .

(هـ) يوم الحريرة : والحريرة تصغير حرة ، واد بين الأبواء ، ومكة قرب نخلة ، وفيه انهزمت قريش ما عدا بنى النصر ، فقد ثبتت ولم تنهزم .

(و) يوم عكاظ : وهو اليوم الذى تصالحو فيه . وقد استغرقت تلك الأيام خمس سنوات^(١) .

قصة الصلح بعد هذه الفجار :

تواعدت هوازن ، وكنانة على التقابل فى عكاظ ، وحضروا فى الموعد المحدد ، وقبيل التراشق بالسهام ، وجد الصفان بينهما عتبة بن ربيعة . وكان حرب بن أمية رئيس قريش ، وكنانة ، قد ضربه ، ومنعه من الخروج شفقة عليه ليتمه ، وصغره ، لأنه لم يكن قد أتم الثلاثين بعد . إلا أنه خرج سراً ، لم يشعر به أحد ، وفوجئ به حرب على بعيه بين الصفين ينادى : يا معشر مضر علام تفانون ؟ ... وإنما ناداهم باسم مضر ، لأنه الجد الجامع لقريش ، وهوازن ، وكنانة . فقال هوازن : ما تدعو إليه ؟

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٢١٢ .

قال عتبة : أدعوكم إلى الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم ، وتعفوا عن دمائنا

قالوا : وكيف ذاك ؟

قال : ندفع لكم رهناً منا .

قالوا : ومن لنا بهذا ؟

قال : أنا .

قالوا : ومن أنت ؟

قال : أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

فرضوا ، ورضيت كنانة، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً، منهم حكيم بن حزام ، بعد أن عدوا قتلاهم ، وقتل قريش ، وكنانة ، وجعلوا رجلاً برجل ، ثم أخذوا دية من زاد منهم ، فأخذوا دية عشرين رجلاً .

فلما رأَت بنو عامر بن صعصعة الرهن في أيديهم عفوا عن الدماء ، وانقضت حرب الفجار^(١) .

اشتراك محمد ﷺ في حرب الفجار :

هاجت حرب الفجار ، وعمر محمد ﷺ خمسة عشر عاماً ، وانتهت ، وهو في العشرين من عمره .

والروايات عن اشتراك محمد ﷺ في هذه الحرب كثيرة .

يذكر ابن هشام أن رسول الله ﷺ اشترك في هذه الحرب دفاعاً عن أعمامه حيث يقول ﷺ : " كنت أنبل عن أعمامي " أى أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها^(٢) .

ويقول ابن سعد : " إن محمد حضر الحرب مع أعمامه ، ورمى بالسهم "^(٣) .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٢١١ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٠ .

(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢٨ .

وأرى . والله أعلم . أن اشتراك النبي ﷺ فى حرب الفجار كان لمساعدة أعمامه بإعداد النبال لهم ، والدفاع عنهم ، من غير عدوان على أحد من خصوم قومه ، أو محاولة النيل منهم على غرة ، ومع ذلك كان ﷺ يقول : "ما أحب أنى لم أكن فعلت" (١) .

إن الله الذى صرف محمداً ﷺ فى شبابه عن كل ما كانت الجاهلية تفعله ، هو سبحانه الذى أبعدته عن الفجور فى هذه الأيام ، وإنما كان اشتراكه . والله أعلم . لتحقيق بعض الفوائد . ومن أهمها :

- ١ . مخالطة قبائل العرب . بسائر أفرادها . الكبار . والمصغار . . حين تجمعهم للحرب . . والمقتال . . لمعرفة أحوالهم . . وطبائعهم ، وطرق تفكيرهم فى هذه الظروف العصبية .
- ٢ . معرفة كيفية نظم الحرب التى يباشرها العرب ، حيث سيحتاج إلى هذه المعرفة فيما بعد .
- ٣ . التدريب على أعمال الحرب الشاقة ، حيث الحاجة إلى جهد كبير ، فى الليل ، والنهار ، وتحت ظروف مناخية متقلبة ، وفى ظروف قد ينعدم فيها الطعام ، ويندر الماء .
- ٤ . المساهمة مع قومه فى أعمالهم ، وأداء حق القرابة لهم ، لأنه قريباً سيطالبهم بحق القرابة له ، والمحافظة على ما للقربى من مودة ، وتعاون ، ونصرة .
- ٥ . الإطلاع المباشر على نظم الحياة القبلية ، ومعرفة مدى التعصب الأعمى الذى يحركها ، لأن ذلك ما سوف يتعامل معه بعد .
- ٦ . التأكد من وجود الخير بين الناس ، وإن تكاثر الشر حوله حتى يبحث عنه يوم الحاجة إليه .

(٢٨٣)

هذا. بعض ما يمكن تصويره فى مجال. المفوائد التى اكتسبها النبى ﷺ
بإشتراكه فى حرب الفجار ... مع ملاحظة أن الله سبحانه وتعالى نجاه من العدوان
، والظلم فيها ... وقصر نشاطه على خدمة أعمامه ، والنبل عنهم .

■ ٤ ■

مشاهدته ﷺ حلف الفضول

من أعظم ما فعل العرب قبل الإسلام حلف الفضول (بضم القاف) ، وقد
شاهده النبى ﷺ وعمره عشرون سنة ، لأنه كان فى ذى القعدة بعد انتهاء حرب
الفجار فى شوال ، قبل المبعث بعشرين عاماً .
والحلف يعنى العهد ، والبيعة ، وأخذ الميثاق بين أفراد ، أو جماعات ، حول
موضوع ما .

وأول من تكلم فى هذا الحلف ، ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب عم رسول
الله ﷺ .

و سببه أن رجلاً من زبيد ، قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاصى بن
وائل السهمى ، وكان ذا قدر ، وشرف بمكة ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه
الزبيدى الأحلاف عبد الدار ، ومخزوماً ، وجمحاً ، وسهماً ، فأبوا أن يعينوا
الزبيدى على العاصى بن وائل ، وزبروه ، ونهروه .
فلما رأى الزبيدى الشر ، رقى على جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس ،
وقرئ فى أنديتهم حول الكعبة ، فقال بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته .: . بيطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته .: . يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمه .: . ولا حرام لثوب الفاجر الغدر
فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مترك ؟

فاجتمعت بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسيد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً ، فتحالفوا فى ذى القعدة ، فى شهر حرام ، قياماً ، فتعاقدوا ، وتعاهدوا ، ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدى إليه حقه ، ما بل بحر صوفة ، وما رسا حراء وثبير مكانهما ، وعلى التأسى فى المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف (حلف الفضول) ، ثم مشوا إلى العاصى بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدى ، ودفعوها إليه^(١) .

والسر فى تسميته بالفضول أن العرب بعدما تحالف هؤلاء قال : " لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر " أى قاموا بعمل فاضل .

ويذكر ابن قتيبة سبباً آخر للتسمية ، وهو أن جرهم فى الزمن الأول عقدوا حلفاً بين ثلاثة رجال منها ، هم الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن الحارث ، فلما أشبه حلف قريش حلف هؤلاء سمى باسمهم ، والفضول جمع فضل ، والفضل اسم هؤلاء الثلاثة .

وقيل : سمى حلف الفضول ، لأن الذين تحالفوا اتفقوا على إخراج فضول أموالهم للأضياف ، وعلى التأسى فى المعاش^(٢) .

ويخطئ من يسمى هذا الحلف بحلف المطيبين^(٣) ، لأن حلف المطيبين كان فى أبناء قصى يوم أن تنازع بنو مناف ، وبنو عبد الدار حول الحجابة ، والسقاية ، واللواء ، والرفادة ... حيث اجتمع بنو عبد مناف ، ومن تبعهم ، وغمسوا أيديهم فى

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٢١٠ .

(٣) يروى البيهقى أن النبى ﷺ قال : " ما شهدت حلفاً لقريش إلا حلف المطيبين شهدته مع عمومى " وهذا خطأ واضح لأن النبى ﷺ لم يدرك حلف المطيبين ، وإنما أراد حلف الفضول الذى شاهده مع أعمامه (أنظر : سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٢٠٩) .

جفنة مملوءة طيباً ، ومسحوها فى أستار الكعبة فسموا بالمطيبين ، وقد انتهى النزاع بالصلح على أن تكون السقاية ، والرفادة لبنى عبد مناف ، وأن تكون الحجابة ، واللواء ، والندوة لبنى عبد الدار كما كانت ، فحلف المطيبين ليس هو حلف الفضول .

وقد شاهد النبى ﷺ حلف الفضول ، وبين بعد مبعثه ﷺ ما فى هذا الحلف من عدل ، حيث يقول ﷺ : " لقد شهدت مع عمومى فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ، يقال له حلف الفضول ، ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعى به اليوم فى الإسلام لأجبت " (١) .

وعبد الله بن جدعان من بنى تيم ، ابن عم عائشة رضى الله عنها ، وكان فى بدء أمره صعلوكاً ، ترب الديدن ، وكان مع ذلك شريراً ، فاتكأ ، لا يزال يجنى الجنايات ، فيعقل عنه أبوه وقومه ، حتى أبغضته عشيرته ، ونفاه أبوه ، وحلف ألا يؤويه أبداً لما أثقله من الغرم ، وحمله من الديات ، فخرج فى شعاب مكة حائراً بائراً ، يتمنى الموت أن ينزل به ، فرأى شقاً فى جبل ، فظن فيه حية فتعرض للشق ، يرجو أن يكون فيها ما يقتله فيستريح ، فلم ير شيئاً ، فدخل فيه ، وإذا فى وسط البيت كوم عظيم من الياقوت ، واللؤلؤ ، والذهب ، والفضة ، والزبرجد ، فأخذ منه ما أخذ ثم علم الشق بعلامة ، وأغلق بابه بالحجارة ، وأرسل إلى أبيه بالمال الذى خرج به يسترضيه ، ويستعطفه ، ووصل عشيرته كلهم ، فسادهم ، وجعل ينفق من ذلك الكنز ، ويطعم الناس ، ويفعل المعروف (٢) .

من آثار الفضول :

وقد أفاد حلف الفضول كثيراً من المظلومين المعتدى عليهم ، فلقد أخذ الزبيدى سلعته من العاصى بن وائل كما رأينا .

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ١٣٤ ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج ١ ص ١٢١ .

(٢) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢١٧ .

ويقال إن رجلاً من خثعم قدم مكة معتمراً ، أو حاجاً ، ومعه بنت له يقال لها القتول ، من أوضاع نساء العالمين ، فاعتصمها منه نبيه بن الحاج ، وغيبها عنه .
فقال الخثعمي : من يعينني على هذا الرجل .
فقالوا له : عليك بحلف الفضول .
فوقف عند الكعبة ، ونادى : يا لحلف الفضول .
فإذا هم يأتون إليه من كل جانب ، وقد انتضوا أسيافهم يقولون : جاءك الغوث ، فما لك ؟

فقال : إن نبيها ظلمني في ابنتي ، وانتزعها مني قسراً .
فساروا معه ، حتى وقفوا على باب الدار ، فخرج إليهم .
فقالوا له : أخرج الجارية وبحك ! فقد علمت من نحن ، وما تعاقدا عليه .
فقال : أفعل ، ولكن متعوني بها الليلة .
فقالوا له : لا والله ، ولا شخب لقحة ، فأخرجها إليهم^(١) .
ومن آثاره ما رواه ابن إسحاق من أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان . والوليد يومئذ أمير على المدينة ، أمره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان . منازعة في مال كان بينهما بذى المروة ، فكان الوليد تحامل على الحسين في حقه ، لسلطانه وجاهه .
فقال له الحسين : أحلف بالله لتتصفني من حقي ، أو لآخذن سيفي ، ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعون بحلف الفضول .
فقال عبد الله بن الزبير وهو عند الوليد حين قال الحسين ﷺ ما قال : وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ، ثم لأقومن معه ، حتى ينصف من حقه ، أو نموت جميعاً .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٥٧ ، ومعنى شخب لقحة ، لا نترك قدر شرب نقطة من لبن الناقة .

فبلغت المناقشة المسور بن مخزومة بن نوفل الزهرى ، فقال مثل ذلك .
وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمى ، فقال مثل ذلك .
فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضى ^(١) .
وقد اهتم الفقهاء ، والعلماء بأمر هذا الحلف ... وأجابوا على من يسأل عن
جواز المنادة بحلف الفضول ، قائلاً : يا لحلف الفضول !!
فقالوا : إن الإسلام قد رفع ما كان فى الجاهلية من قولهم : يا لفلان عند
المتعصب. وللمتخرب. وقد سمع رسول الله ﷺ يوم المريسيع رجلاً يقول:
يا للمهاجرين ! ... وآخر يقول : يا للأنصار ...
فقال رسول الله ﷺ : دعوها فإنها منتنة ...
وقال ﷺ : من إدعى بدعى الجاهلية ، فأعضوه بهن أباه ، ولا تكنوا ، أى
سموه بها صراحة بلا كناية .
ونادى رجل بالبصرة : يا لعامر ! فجاءه النابغة الجعدى بعصبة له ، فضربه
أبو موسى ﷺ خمسين جلدة .
وذلك أن الله ﷻ جعل المؤمنين إخوة ، يوالى بعضهم بعضاً ، ولا يقال إلا
كما قال عمر ﷺ : يا لله ويا للمسلمين ، لأنهم كلهم حزب واحد ، وإخوة فى الدين
إلا ما خص الشرع به أهل حلف الفضول .
والأصل فى تخصيصه قوله ﷺ : " ولو دعيت به اليوم لأجبت " يريد : لو
قال قائل من المظلومين : يا لحلف الفضول لأجبت ، وذلك أن الإسلام إنما جاء
لإقامة الحق ، ونصرة المظلومين ، فلم يزد به هذا الحلف إلا قوة .
وقوله ﷺ : " وما كان من حلف فى الجاهلية ، فلن يزيده الإسلام إلا شدة "
ليس معناه : أن يقول الحليف : يا لفلان لحلفائه ، فيجيبوه ، بل الشدة التى عنى
رسول الله ﷺ إنما هى راجعة إلى معنى التواصل ، والتعاطف ، والتآلف .

(١) سيرة النبى ﷺ ج ١ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

وأما دعوة الجاهلية ، فقد رفعها الإسلام إلا ما كان من حلف الفضول كما
 قدمنا ، فحكمه باق ، والدعوة به جائزة ، وقد ذهب طائفة من الفقهاء إلى أن
 الحليف يعقل مع العاقلة إذا وجبت الدية لقوله ﷺ : " وما كان من حلف في
 الجاهلية ، فلم يزد الإسلام إلا شدة " (١) ...

إن المحرم هو المناداة الجاهلية ، أما التعاون على البر ، والتناصر في
 الحق ، والاتحاد في مجاهدة الباطل ، والأخذ على يد الطغاة فأمر مشروع لخدمة
 الإسلام والمسلمين .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٦٠ ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ٢ ص ١٨٤ .

رحلة محمد ﷺ الثانية إلى الشام

بلغ محمد ﷺ خمساً وعشرين سنة ، وكان يهتم بأحوال عمه (أبي طالب) ، وبكثرة عياله ، ويرعى الغنم لأهل مكة بأجر يتقوى به على شئونه .
لما بلغ هذا السن وجد أن رعى الغنم لم يعد يناسبه ، ودخله من الرعى قليل ، لا يفي بحاجته وحاجة أبناء عمه الذين يعولهم ، فأخذ يفكر فى عمل آخر يحقق له ما يتمنى .

ولم يطل به البحث إذ قال له عمه (أبو طالب) : يا ابن أخى أنا رجل لا مال لى ، وقد أشد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليست لنا مادة ولا تجارة ، وهذه غير قومك قد حضر أوان خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك فى عيرانها ، فيتجرون لها فى مالها ويصييون منافع ، فلو جئتها ، وعرضت نفسك عليها ، لأسرعت إليك ، وفضلتك على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك .

فقال الرسول ﷺ لعمه : فلعلها ترسل إلى فى ذلك^(١) .

و(خديجة) رضى الله عنها امرأة قرشية ، كثيرة المال ، عريضة الأصل ، حسبية ، نسبية ، كانت تتجر بمالها ، وترسل عيرانها مع القوافل برجال تستأجرهم ، أو تضاربهم بجزء من الربح ، وقد اشتهرت مكة بالتجارة حيث لا زرع فيها ، ولا صناعة ، وكل ما فيها من بضاعة فهو مستورد من الشام ، أو من اليمن ، أو من غيرهما ، وعادة التجار البحث عن الرجل الأمين ، يتعاملون معه ، صيانة للمال ، ومحافظة عليه من الضياع ...

وقد رغب (أبو طالب) من محمد ابن أخيه أن يذهب لخديجة ليتاجر لها فى

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٢١٤ .

مالها ، لشدة ثقته فى ابن أخيه ، ولما عرف عن خديجة من حسن المعاملة ،
والمسارعة فى إعطاء الحقوق ، وكان يرى أن خديجة ستعطى محمداً من الأجر
الكثير بعدما ترى منه الصدق ، والأمانة ، وحسن المعاملة .
لكن محمداً ﷺ أنفت نفسه أن يذهب لخديجة ، باحثاً عن عمل فى أموالها ،
ولذلك قال لعمه : **لعلها ترسل إلى .**

لم ينتظر أبو طالب أن ترسل خديجة لمحمد مخافة أن تولى رجلاً آخر ، أو
تظنه لا يقبل العمل لديها ، ولذلك ذهب بنفسه إلى خديجة .
وقال لها : **يا خديجة هل لك أن تستأجرى محمداً ؟**

فقد بلغنا أنك استأجرت فلاناً بىكرين ، ولن نرضى لمحمد دون ذلك .
فقالت خديجة : **لو سألت ذلك لبعيد فعلنا ، فكيف ، وقد سألت لقريب
حبيب^(١) !! ...**

عاد أبو طالب لمحمد ، وأخبره بما جرى مع خديجة ، وقال له : هذا رزق
ساقه الله إليك .

وقالت خديجة لميسرة قالت له : لا تنقض لمحمد أمراً ، ولا تخالف له رأياً
لعلمها بحسن إدارته ، وقوة شخصيته ، وإتقان ما يقوم به من عمل .
وأخذ عمومته يوصون أهل العير بابن أخيه ، ولولا الحاجة ما أخرجه^(٢) ...
لكن الله تعالى أخرجه من مكة تاجراً هذه المرة ، ليجوب أرض الله مكتشفاً
وليخرج من تجارته تلك بما يغنيه ، ويرضيه .

وكانت رحلة مباركة امتلأت بالعجائب التى قدرها الله لحبيبه ، ومصطفاه ...
فقد توالى الإرهاصات ، وكان ميسرة يرى رسول الله ﷺ إذا اشتدت الهاجرة

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٣٠ .

وقوى الحر ، يظله ملكان وهو على بعيره ، ولما دخل مكة فى وقت الظهيرة ذهب إلى خديجة فرأت الملكين فوقه .

وتقابل النبى ﷺ فى هذه الرحلة مع عدد من رهبان أهل الكتاب ، وكلهم نظروا إليه ، وعلموا خبره ، وحالته .

نزل فى سوق بصرى فى ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له (نسطورا) فلما رآه الراهب قال لميسرة : يا ميسرة من هذا الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ ...

قال ميسرة : رجل من قريش .

فقال الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى ، أفى عينيه حمرة يا ميسرة ؟

فقال ميسرة : نعم لا تفارقه .

فقال الراهب : هو ، هو ، هو ^(١) !!

اختلف مرة مع أحد التجار حول سلعة .

فقال الرجل : احلف باللات والعزى .

فقال رسول ﷺ : ما حلفت بهما قط .

فقال الرجل : القول قولك ...

ثم نظر إلى ميسرة .

وقال له : هذا نبى هذه الأمة ^(٢) .

وبالنسبة للتجارة فقد ربحاً وبيعاً لم تره خديجة منذ أربعين سنة ، فأحبه ميسرة وأطاعة ، كأنه عبده ، وقدرته خديجة لمهارته ، وأمانته .

ولما كانا (محمد وميسرة) عائدين بمر الظهران ، قال ميسرة للنبى ﷺ : هل

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ١٨٨ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٨ .

لك أن تسبقني إلى خديجة ، فتخبرها بالذى جرى ، لعلها تزيدك بكرة إلى بكراتك
فركب النبي ﷺ قعوداً أحمر ، فتقدم حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة ، وخديجة فى
عليه لها ، معها نساء فيهن نفيسة بنت منية ، فرأت رسول الله ﷺ حين دخل ، وهو
راكب على بعيره ، وملكان يظلان عليه ، فأرته نساءها فعجبين لذلك !!
ودخل عليها رسول الله ﷺ وأخبرها بما ربحوا ، فسرت بذلك .

وقالت : أين ميسرة ؟

قال : خلفته فى البادية .

قالت : عجل إليه ليعجل بالإقبال ، وإنما أردت أن تعلم أهو الذى رأت أم
غيره ؟!

فركب رسول الله ﷺ وصعدت خديجة تنتظر ، فرأته على الحالة الأولى ،
فاستيقنت أنه هو ، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت ، وأخبرها بقول الراهب
نسطورا ، ويقول الآخر الذى خالفه فى البيع .
يقول ابن إسحاق : فلما رأت خديجة أن تجارتها قد ربحت أضعفت له ما سمت
من البكرات .

وأخبرت ابن عمها ورقة بن نوفل بما رأت ، وبما سمعت .

فقال لها ورقة : يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن
لهذه الأمة أمر ينتظر^(١) .

وهكذا مرت الرحلة ببركاتها مع محمد ﷺ ، وعاد بالبكرات إلى عمه سعيداً
راضياً ، وقد أحبه ميسرة حباً جماً ... وأضمرت خديجة فى نفسها أمراً ، عساها
تفوز به زوجاً ، يوصلها إلى منزلة عالية عند الله والناس .

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ١٨٩ .

ركائز دعوية فى تنشئة الدعاة

عشنا مع محمد ﷺ فى شبابه ، وبقاعته ، ورأينا كيف أن الله تعالى هياً له عدداً من صور العمل ، سلماً ، وحرباً ، ومكنه من التعامل مع ألوان عديدة من الناس ، فلقد عاش مع الرعاية ، وتعامل مع الأغنياء ، وتحدث مع الرهبان ، ورأى ما عليه أهل مكة ، وسافر إلى عدد من البلاد ، واستفاد من لقاء التجار فى البلاد المتعددة .

إن هذه الحركة العملية تورث صاحبها شجاعة المواجهة ، وحسن التعامل ، وفهم الآخر ، وتوقع المستقبل ، والاستعداد لكل جديد غريب ، وهذا ما نتمناه للدعاة .
إن الدعاة يحتاجون إلى مواصفات خاصة تمكنهم من القيام بالواجب المسؤولين عنه ، أهمها سعة الرؤية ، والتمكن من المواجهة ، وسرعة التعامل مع المواقف ، والقدرة على فهم الآخر بسرعة ...

أنظر إلى موسى عليه السلام حين كلف بتبليغ فرعون دعوة الله تعالى طلب أن يعينه الله تعالى ، ويرزقه الصفات التى تمكنه من البلاغ ، وأهمها شرح الصدر وتيسير الأمر ، والتمكن من الفصاحة ، وظهور السند المعين .

يقول الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ ١٧ قَالَ رَبِّ أَسْرِحْ لِي صَدْرِي ١٨ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ١٩ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ٢٠ يَفْقَهُوا قَوْلِي ٢١ وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ٢٢ هَٰؤُلَاءِ أَخِي ٢٣ أَشَدُّ بِيْءَ أَزْرِي ٢٤ وَأَشْرِكُهُ فِيَّ أَمْرِي ٢٥ ﴿ ١﴾ .

(١) سورة طه ، من الآية ٢٤ : ٣٢ .

ولنا من حياة النبی العملية ، ومن حديث القرآن الكريم عن موسى عليه السلام
 روس لها أهميتها :

أولاً :

يحتاج الدعاة إلى الفهم الاجتماعى الحركى ، وذلك لا يتم إلا بتدريب الدعاة
 عملياً ليتمكنوا من فهم الناس ، وإلف توجيههم ، ودعوتهم ، والقدرة على مناقشة ما
 هم عليه لبيان الفساد ، وكشف الحقائق ، والدعوة إلى الخير ، والمصالح ،
 والمعروف .

ثانياً :

وحتى يتم للدعاة هذا التمكين فى دعوة الناس فإنهم يحتاجون إلى إتقان
 الحديث بلغة من يدعون ، وباليتمهم يعلمون لهجاتهم الخاصة لما يصنعه ذلك من
 قرب ، وترايط .

ثالثاً :

الوصول السريع إلى القلوب يعتمد على التعامل مع العادات ، والتقاليد
 الشائعة ، والتعارف على منهجية المدعويين فى حياتهم ، ومعرفة لحظة العين ،
 وحركة الجوارح حين الرضى ، وحين الغضب ، لأن ذلك يمكن المربين من فهم من
 يعيشون ، ويساعد فى توجيه الناس ، ودعوتهم إلى دين الله تعالى .
 ليست الدعوة حديثاً ، ولقاء ، وفقط ... ولكنها مع ذلك وقفات فاهمة ،
 وكلمات أخاذة ، وإقناع تام ، ومواقف تنقل دين الله بحكمه ، وحسن ، واقتدار .
 وهنا ...

نحتاج إلى معرفة الكيفية التطبيقية التى يمكن بها إيجاد هذا الداعية ...
 والأمر سهل ، إذا عزم المسلمون ، وصدقوا النوايا .
 إن المستشفيات تدرب أناساً ليقوموا بعملية التمريض ، والجيش يدرب

أفراداً للقتال ، وعمليات البناء تحتاج لأناس تدريبوا على العمل على تنوعه .
ولا يصلح للتدريس إلا من أجاد فنية التربية ، وتعلم طرق التدريس .
وهكذا ...

يحتاج كل عمل إلى مهارات علمية ، وعملية ليتم أدائه ...
وفي عصرنا عصر التخصص الدقيق لابد لكل عمل من فهم دقيق ،
وتدريب على العمل ، والتطبيق .

لقد كان ﷺ يدرّب أصحابه على الدعوة ، ويسمح لهم بالفتوى ، ويكلفهم
بمهام التبليغ ، ومساعدة الآخرين بصورة عملية بعد أن يطمئن على معرفتهم
وعلمهم .

والدعاة اليوم فى أمس الحاجة إلى الإجابة العلمية ، والتمكن التام من
الدعوة العملية ... لأن مذاهب اليوم تتنافس بعلم ، وتتسابق بقوة وتوضحية ...
ولا يصح وسط هذا الصراع أن يقدم الإسلام بصورة هزيلة ضعيفة .
إن الإسلام اليوم هو أعظم القضايا عدالة ، وفائدة ، وأصالة ... وكل
حاجته رجال يفهمونه ، ويقومون بالواجب معه ... وهم الدعاة الأكفاء الذين
نتمناهم للإسلام .

لقد حاولت جامعة الأزهر عند ظهورها فى ستينات القرن الماضى تأسيس معهد
عال لتدريب الدعاة على أعمال الدعوة سموه " المعهد الأسوى الأفريقى " ...
وفكرة الدراسة بهذا المعهد كانت تقوم على التعليم النظرى ، وعلى
التطبيق العملى ، اعتماداً على النقاط التالية :

- ١ . مدة الدراسة فى المعهد سنتان وهى نظرية ، وعملية .
- ٢ . تقسيم الطلاب إلى مجموعات. على أن تخصص كل مجموعة لدراسة
إقليم ما فى دولة تكون. الدعوة فيها مستقبلاً ، وتتم الدراسة من ناحية
إتقان لغة الإقليم ، ودراسة تاريخه ، ومعرفة عادات ، وتقاليده المقيمين فيه

- ، وفهم الأديان ، والمذاهب السائدة ، والوقوف على الظواهر التى تنتشر فى هذا الإقليم ، وأنفع الأساليب المطلوبة لهذا الإقليم .
- وتعتمد الدراسة النظرية للإقليم على المكتب والدراسات المتصلة بهذا الإقليم ، ومتابعة النشرات ، والمكتب التى تصدرها وزارت هذا الإقليم ، والاتصالات بالسفارات لتساعد بما لديها من معلومات .
- ٣ . ارتباط الدراسة النظرية بالدراسة العملية ، وذلك بتسكين كل مجموعة فى الإقليم الذى ستتخصص فى دعوته مدة ستة أشهر فى العام ، على أن يستمر ذلك عامين ليضموا إلى الدراسة النظرية المعاشية العملية ، وذلك تحت إشراف علماء تخصصوا فى الدراسات التاريخية ، والاجتماعية ، والاقتصادية لهذا الإقليم .
- ٤ . تخصيص سنة ثالثة يقوم الدارسون المتخصصون خلالها بمباشرة عملية الدعوة فى الإقليم الذى تخصصوا للدعوة فيه تحت إشراف هيئات متخصصة ، لمعرفة مدى صلاحية الدعاة الجدد للدعوة ، وإصلاح أى جانب فيهم يحتاج لإصلاح .
- ٥ . إعانة الدعاة بالماديات المناسبة ليتمكنوا من القيام بواجبهم ، ومساعدة الناس فى حاجياتهم ، والظهور بالصورة اللائقة للدعاة .
- وبذلك يمكن إيجاد الداعية العالم ، العامل ، المتصف بالصفات التى نتمناها فى الدعاة لتبليغ الإسلام ، والتعريف به كما جاء من عند الله .
- إن فكرة هذا المعهد يجب أن تنفذ لمصلحة العالم كله . وإن احتاجت لنفقات كثيرة ... وهى أمانة الله فى عنق كل من آمن ، وأسلم .

المبحث الثامن

زواج محمد ﷺ

خديجة "رضى الله عنها"

سمعت خديجة رضى الله عنها بما حدث لمحمد ﷺ فى رحلته التجارة ، وشاهدته بنفسها ، فعادت بذاكرتها إلى ما قاله اليهودى لنساء مكة ، يوم أن اجتمعن به فى المسجد الحرام .

قال لهن : " يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي ، فأين استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل ، فحصبه النساء ، وقبحنه ، وأغلظن له ، ما عدا خديجة فإنها فكرت فيما سمعت ، ووقر فى نفسها صدقه ، فلما تاجر محمد فى مالها ، ورأت منه الآيات ، والبركات تذكرت ما قاله اليهودى وقالت : ما ذلك إلا هذا " (١) .

ورجعت خديجة لرؤاها ، وما سمعت فى ابن عمها ورقة عن الناموس ، والنبوة ، عن حاجة الناس إلى دين يعيد لهم ما كان من دين موسى ﷺ .
و(خديجة) امرأة قرشية ، اشتهرت بين قومها بالمال ، والجمال ، والحسب ، والنسب ، ومكارم الأخلاق ... وكمال العقل والفطنة ، وهى من المكيات القليلات اللاتى عملن بالتجارة ، حتى صارت من أثرياء مكة الكبار تزوجت قبل رسول الله ﷺ من رجلين مخزوميين هما :

- الأول : هو عتيق بن عبد الله بن عمرو. من بنى مخزوم. ، وولدت له عبد مناف ، وهندا .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٢٢٢ .

• **الثانى :** هو أبو هالة ، وهو زرارة بن النباش من بنى عدى

وولدت له هالة ، وهنداً ، والطاهر^(١) .

وبعد ترمل خديجة ب وفاة زوجها الثانى ، رفضت الزواج ، فلها أولادها وقد جاوزت الأربعين ، وأنى لها برجل يكافئها ، عقلاً ، وخلقاً ، وأصاله !! وقد رغبها صناديد مكة فأبت ... لكنها بعدما رأت محمداً ﷺ ، وتذكرت ما سمعت عنه من اليهودى ، ومن ابن عمها ورقة ، ومن علية المكيين تمنته لنفسها زوجاً ، وسعت فى ذلك بحكمة ، وهذوء ، وعملت على اختباره والتعامل معه ، والتأكد من المزايا التى صورتها فيه .

وهيأ لها القدر ما أرادت حين أتاها أبو طالب يطلب منها أن يتاجر لها محمد فى مالها ، فرحبت بهذا الطلب ترحيباً كبيراً .

وقالت لعبد المطلب : **لقد سألته لقريب حبيب .**

وتاجر محمد ﷺ فى مال خديجة وهو فى قوة الشباب ، ورشد الرجولة وسعد فى هذا العمل الجديد بما يحقق له من كسب ، وخبرة ، وتعارف ، إلا أنه لم يفكر فى الزواج منها بعد بصورة مطلقة ، لما هو فيه من فقر ، وعيلة ... إنه يعمل ليسد رمقه ، ويعين عمه ، وأنى لمثله أن يفكر فى الزواج !!

وإذا. فكر محمد فى الزواج كشأن. الشباب. . فلن يفكر فى الزواج من خديجة لما بينهما من فروق ، ولأنها رفضت الزواج من كبار القوم ، وأغنياتهم... إن فارق السن بينهما خمسة عشر عاماً ، فهي فى الأربعين ، وهو فى الخامسة والعشرين ، ولها أولادها من زوجيها السابقين .

والفارق المالى كبير فهي من أغنى أغنياء مكة ، ومحمد يعمل بالأجرة ليعيش ، وشخصيتها ، وتجارها ، وحياتها العملية ، وسيرتها الشريفة جعلها فى مصاف كبار مكة ، وعظمائها .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

إن عديداً من عظماء مكة حاولوا الزواج منها ، فرفضتهم جميعاً ، وليس لمحمد ﷺ أن يفكر فى تزوجها ، والكل يعلم موقفها من الزواج !! ... لهذا لم يفكر النبي ﷺ فى الزواج منها ... وما درى أن القدر يخبئ له ما أراده الله تعالى .

وعزمت خديجة على أن تتزوج محمداً ﷺ مع صغره ، وفقره ، لتتال معه الشرف العظيم ، وتفضل به سائر الناس ، فاحتالت لذلك بأكثر من طريق وكان الذى سفر بينها ، وبين محمد ﷺ أختها ، ونفسية بنت منية ، وهى ابنة أمية بن عبيدة الحنظلى ، كما سفر بينهما (ميسرة) ، ومولاة مولدة ، وإحدى الكاهنات فى قريش^(١) .

فعن معتمر بن سليمان قال : سمعت أبى يذكر أن أبا مجلز حدث أن خديجة قالت لأختها : أنطلقى إلى محمد فاذكرينى له^(٢) ، وأنهما تواطأ أن يتزوجها محمد ﷺ .

وأرسلت مرة أخرى ابنة خالتها نفسية بنت منية لتوجه محمداً نحو الزواج من خديجة ، وتزيل من أمامه العقبات التى تمنعه من الزواج منها ، أو من غيرها ... وتعرفه بالمزايا التى سينالها بالزواج منها .

تقول نفيسة : " كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة ، جلدة ، شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة ، والخير ، وهى يومئذ من أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها ، لو قدروا على ذلك ، قد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال ، ولكنها رفضتهم ، فلما ظهر محمد عزمت على الزواج منه ، فأرسلتنى دسيسة إلى محمد ، بعد أن رجع فى غيرها من الشام .

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ج ١ ص ١٠ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٣٢ .

(٣٠٠)

فقلت له : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟

فقال : ما بيدي ما أتزوج به .

قلت له : فإن كفيت ذلك ، ودعيت إلى الجمال ، والمال ، والشرف ،

والكفاءة ، ألا تجيب ؟

قال : فمن هي ؟

قلت : خديجة .

قال : وكيف لى بذلك ؟

قلت : على .

قال : فأنا أفعل ^(١) .

يحكى النبی موقفاً له مع ميسرة فيقول ﷺ : قلت لصاحبي : انطلق بنا

نتحدث معاً عند خديجة ، فجئناها ، فبينما نحن عندها إذا دخلت علينا كاهنة من

مولدات قريش ، فقالت : أمحمد هذا ؟ والذي يحلف به إن جاء لخطباً ؟

قلت : كلا ... حياء وخجلاً !!

فلما خرجت أنا وصاحبي . تبعتنا الكاهنة وقالت : أمن خطبة خديجة

تستحي ؟ فوالله ما من قرشية إلا تراك لها كفواً !!

فرجعت أنا وصاحبي مرة أخرى ، فدخلت علينا تلك الكاهنة .

فقالت : أمحمد هذا ؟ والذي يحلف به إن جاء لخطباً .

فقلت على حياء : أجل .

ولم تخالف خديجة ، ولا أختها ^(٢) .

إن المرء ليحار من هذا التوافق الذي رسم القدر خيوطه ، حتى التأم

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٣١ .

(٢) دلائل النبوة ج ١ ص ٩٠ .

وتم ... مع أن النظرة الأولى توحى باستحالة هذا الزواج للفروق العمرية ،
والمادية ، والاجتماعية .

وهل كانت رحلة التجارة اختباراً من خديجة لمحمد ؟! أم إظهاراً لمقام محمد
عند خديجة ؟

وهل رفض خديجة للزواج قبل ذلك جعلها تنتظر الشرف العظيم الذى ظهر
لها فى محمد ﷺ ؟ فرغبت فى الاقتران به ؟

وما الذى جعل محمداً يرحب بالزواج من خديجة مع أنه كان لا يملك
مطالب الزواج ، ونفقات الحياة ؟!!

وما الذى جعل خديجة ترفض الزواج مدة طويلة ثم تبحث عنه فى شاب
يصغر عنها بخمسة عشر عاماً ؟

إنها أسئلة تؤكد الحكمة الألهية التى خباها الله سبحانه وتعالى لهذين
الزوجين الكريمين ...

إن. المقدر. الذى دفع كلاً من خديجة ،. ومحمد ليسعى كل لصاحبه ،
للتكون بهما خير أسرة ظهرت فى حياة المسلمين .

زوجة تشهد لزوجها بالعظمة ، وهى تقول : " والله لا يخزيك الله أبداً ... " (١)
وزوج يشهد لزوجته بعد مماتها ويقول : " والله ما رزقنى الله خيراً منها ... " .
ويقول ﷺ عنها : " لقد رزقت حبها " (٢) .

ويذهب محمد ﷺ إلى أعمامه يخبرهم بنبا خطبة خديجة فيسرون جميعاً
ويحضر محمد ﷺ مع عمه أبى طالب ، وعشر رجال من قومه ، ويخطبها
له عمه أبو طالب من عمها عمرو بن أسد .

يقول أبو طالب وهو يخطبها : " الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ١٨٨ .

(٢) صحيح مسلم . مناقب خديجة ج ١٥ ص ٢٠١ .

وزرع إسماعيل ، وضئضئ معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ،
وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوباً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا حكام الناس ثم
إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ، ونبلاً
، وفضلاً ، وعقلاً ، وإن كان فى المال قل ، فإن المال ظل زائل ، وأمر حائل ،
وعارية مسترجعة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل ، وقد خطب
إليكم رغبة فى كريمكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق ، عاجله ، وآجلة
اثنتا عشرة أوقية ، ونشا .

فقال عمرو بن أسد عمها : هو الفحل لا يقدع أنفه ، وأنكحها منه ...^(١) .
وما روى من أن أباه هو الذى زوجها ، وهو لا يدرى لسكره فمردود ، لأن
أباه خويلد ، هلك قبل حرب الفجار .

ويقال : إن الذى أنكحها هو ورقة بن نوفل .
ويقال : إنه أخوها عمرو بن خويلد ... والأظهر أنه عمها .
يمتن الله تعالى على محمد ﷺ بزواجه من خديجة ، حيث يقول سبحانه
وتعالى له بعد المبعث ﴿ وَوَجَدَكَ عَالِلاً فَأَغْنَى ﴾^(٢) .

حيث كنت فقيراً عالة على غيرك فأغناك بمال خديجة الذى تنازلت عنه
لك ، راضية ، سعيدة ... لتتفرغ للمهام الكبرى ، وتعيش الأسرة معك راضية ،
مطمئنة ، ويرزقكم الله من الأبناء عدداً ...

وأول من ولد لرسول الله ﷺ القاسم ، وبه كان يكنى ﷺ ، ثم ولدت
له ﷺ زينب ، ثم رقية ، ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم ، وكلهم ولدوا قبل الإسلام .
أما عبد الله فقد ولد فى الإسلام ، فسمى بالطاهر ، والطيب .
وكل هؤلاء من خديجة .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٢١٣ .

(٢) سورة الضحى ، الآية ٨ .

(٣٠٣)

وكانت خديجة تعق عن كل مولود لها ، عن الذكر بشاتين ، وعن الأنثى بشاة واحدة ...

وقد مات القاسم بعد ولادته بعامين ...

ومات عبد الله قبل الهجرة ...

أما رقية ، وأم كلثوم فخطبهما عتبة ، وعتيبة ابنا جدهما أبى لهب (شقيق عبد الله) ، ولكنهما تركاهما بعد بعثة محمد ﷺ كفرة برسالته ، فتزوجهما عثمان بن عفان ؓ الواحدة بعد الأخرى ، حيث تزوج أم كلثوم بعد وفاة رقية .

أما فاطمة ، فقد تزوجت على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .
وتزوج أبو العاص بن الربيع بن عبد شمس ابن خالته زينب بنت رسول الله ﷺ رضى الله عنهم ...

وأولاده ﷺ كلهم من خديجة ، ما عدا إبراهيم فأمه مارية القبطية التى أهداها المقوقس للنبي ﷺ فأسلمت . وتزوجها ﷺ وولدت له فى المدينة المنورة بعد الهجرة .

ركائز دعوية

حول استقرار الدعاة

الدعوة إلى الله تعالى مسئولية ضخمة تحتاج إلى بذل جهد شاق ، وتحمل مواقف صعبة .

إنها تحتاج إلى عالم فقيه ، دقيق الفهم ، كثير الإطلاع ، كثير القراءة ، لا يفكر في مسألة ، أو يقدم على موضوع إلا بعد إشباعه بالتفكير ، والتحليل والقراءة ، والاستعداد ... وهذا أمر يحتاج إلى تفرغ للمسئولية ، وانكفاء تام على هذا الواجب الذى تتمنى أن ينجح فيه الدعاة .

لقد عشنا مع رسول الله ﷺ وهو يعمل راعياً ، وتاجراً ، ليعول نفسه ، ويساعد عمه ... فلما أراد الله تفرغه للرسالة التى اختاره لها أغناه ، ويسر له أمر الحياة ليكون للدعوة فقط .

رزقه الله زوجة تملأ عليه حياته ، وتشاركه المهام ، والهموم ، وتكفيه مؤنة الحياة ، وتغنيه بمالها ، وفكرها ، وتجاربها .

وكان لابد أن يتفرغ محمد للرسالة ، ومسئوليته ، وتبليغها .

وقد كان

وهذا جانب نتمناه لكل من يقوم بالدعوة لدين الله تعالى ... ولابد من مده بكل حاجاته ، ليتفرغ للدعوة ، ومسئولياتها .

إن الداعية يحتاج لوفرة مادية تمكنه من توفير وقته للدعوة ، وتعينه على أن يكون فى مساعدة الناس ، وقضاء حاجياتهم .

ويحتاج إلى استقرار فى حياته الخاصة ، ليعيش مع من يسنده فى رسالته ، ويمده ب زاد وفير من الحب ، والحنان ، والرحمة .

لا يصح :

- . أن نترك من يكلف بالدعوة محتاجاً يبحث عن حاجته تاجراً أو ممتنّها لمهنة ، أو سائلاً الناس .
- . ولا أن نفقده حياة الاستقرار ، والقلق ، والعزلة .
- . ولا أن نتركه في منزلة متدنية بين الناس .

لأن ...

- . الفطرة البشرية تحترم القوى ، وتحب التعامل معه .
 - . الإنسان المخلص لرسالته بجمع الناس حوله .
 - . كلما كان الدعاة في خدمة الناس كان الناس معهم .
 - . الإسلام هو دعوة الحق ، يحتاج لمن يظهره وينشره ، ويرد كيد أعدائه ، وخصومه .
- لابد من توفير حياة كريمة للدعاة ، ومساعدتهم على التفرغ الكلى للدعوة ، وتهيئة المناخ الآمن ، والعشرة الطيبة لحياته .

المبحث التاسع

اشتراك محمد في بناء الكعبة

الكعبة المشرفة هي البناء المربع المجوف المقام وسط المسجد الحرام ، قبله المسلمين في مشارق الأرض ، ومغاربها ، وتقع وسط العالم كما أثبتته الجغرافيون .
وهي أول بناء وضع في الأرض ، بنتها الملائكة بصورة بسيطة ، وكثيراً ما كانت تتأثر بالنار فتحترق ، أو بالسيول فتتصدع ، أو بغير ذلك من عدوان الناس .

ولذلك تكرر بناؤها قبل الإسلام وبعده .

بنتها الملائكة أولاً .

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال :

قلت يا رسول الله : أي مسجد وضع في الأرض أولاً ؟

قال ﷺ : المسجد الحرام .

قلت : ثم أي ؟

قال : المسجد الأقصى .

قلت : كم بينهما ؟

قال : أربعون سنة ^(١) .

وتوالى بناء الكعبة على مر عصور التاريخ .

وقد ذكر المؤرخون هذه البنايات على اختلاف بينهم في عددها ، وأوقاتها إلا أنهم مجمعون على مرات ثلاث ، هي بناء إبراهيم عليه السلام ، وبناء قريش ، وبناء عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم .

(١) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق ج ٤ ص ١٧٧ ، ط . الشعب .

(٣٠٧)

وفى إطلاق عبارة البناء فى كل مرة تجوز واضح ، فإن بعضها كان جداراً واحداً كبناء الحجاج ، وبعضها كان ترميماً ، وإصلاحاً ... وهكذا .

وأهم البنايات التى ذكرها المؤرخون هى :

- بناء الملائكة عليهم السلام .
- بناء آدم عليه السلام .
- بناء أولاد آدم عليهم السلام .
- بناء العمالقة .
- بناء جرهم .
- بناء قصى بن كلاب .
- بناء الخليل إبراهيم عليه السلام .
- بناء قريش .
- بناء عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدى رضي الله عنه .
- بناء عبد الملك بن مروان رضي الله عنه .

فأما بناء الملائكة للكعبة : فذكره الأزرقى فى تاريخه ، وذكر أن ذلك كان قبل خلق آدم عليه السلام ، واستدل على ذلك بخبر رواه عن زين العابدين ، وجزء خبر رواه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، وكلاهما يدل على بناء الملائكة للكعبة^(١) .

وأما بناء آدم عليه السلام : فقد روى البيهقى بسنده أنه قال رسول الله ﷺ قال : " بعث الله جبريل إلى آدم ، وحواء . فقال لهما : إبنيا لى بيتاً ، فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر ، وحواء تنقل التراب ، حتى أجابه الماء فنودى من تحته : حسبك يا آدم ، فلما بنياه أوصى الله لهما أن طوفا به "^(٢) .

(١) أخبار مكة ج ١ ص ١٧٠ .

(٢) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ١ ص ١٧٦ .

وأما بناء أولاد آدم للكعبة : فذكره الأزرقى ، وروى بسنده إلى وهب بن منبه قال : وقعت الخيمة التى عرى الله ﷻ بها آدم ﷺ من حلية الجنة ، حين وضعت له بمكة فى موضع البيت ، وبعدما مات آدم ﷺ بنى بنوه من بعده مكانها بيتاً بالطين ، والحجارة ، فلم يزل معموراً يعمرونه هم ، ومن بعدهم ، حتى كان زمن نوح ﷺ فنسفه الغرق ، وغير مكانه حتى بوئ إبراهيم ﷺ^(١) .

وأما بناء الخليل ﷺ : فهو ثابت فى القرآن الكريم العظيم ، والسنة الشريفة ، وإبراهيم ﷺ هو أول من بنى البيت بعد نوح ﷺ ، فحدد قواعده ، ورفع ، ونظمه .

عن ابن إسحاق أن الخليل ﷺ لما بنى البيت جعل طوله فى السماء تسعة أذرع ، وعرضه فى الأرض اثنين وثلاثين ذراعاً من الركن الأسود إلى الركن الشامى ، الذى عنده الحجر من وجه ، وجعل عرض ما بين الركن الشامى إلى الركن الغربى اثنين وعشرين ذراعاً ، وجعل طول ظهرها من الركن الغربى إلى الركن اليمانى واحداً وثلاثين ذراعاً ، وجعل عرض سقفها اليمانى من الركن الأسود إلى الركن اليمانى عشرين ذراعاً ، وجعل بابها بالأرض ، وحفر جباً فى بطن البيت على يمين من دخله يكون خزانة للبيت ، وكان إبراهيم ﷺ يبني ، وإسماعيل ينقل له الحجارة على رقبتة ، وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ إِبْرَاهِيمُ يَرْفَعُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(٢) .

وأما بناء العمالقة وبناء جرهم للكعبة : فذكرهما الأزرقى ، لأنه روى بسنده عن على بن أبى طالب ؓ قال فى خبر بناء إبراهيم ﷺ للكعبة : ثم انهدم

(١) أخبار مكة ج ١ ص ١٧٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٢٧ .

فبنته العمالقة ، ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم ، ثم انهدم فبنته قريش^(١) .

وأما بناء قصي بن كلاب : فقد جزم به الماوردي في (الأحكام السلطانية) لأنه قال : فكان أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم عليه السلام قصي بن كلاب ، وسقفها بخشب الدوم ، وجريد النخل^(٢) .

وأما بناء قريش الكعبة : فهو ثابت في السنة الشريفة الصحيحة عن النبي ﷺ ، وحضره ﷺ ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، وجزم به ابن إسحاق وغير واحد من العلماء .

وأما بناء ابن الزبير رضي الله عنه للكعبة : فإنه ثابت مشهور ، ويرجع سبب اهتمامه ببنائها إلى ما حدث فيها من تهمد لسببين :

السبب الأول : توهن الكعبة من حجارة المنجنيق التي أصابتها حين حوصر ابن الزبير رضي الله عنهما بمكة في أوائل سنة أربع وستين من الهجرة لمعاندته يزيد بن معاوية ، ومبايعة أهل مكة ، والمدينة له خليفة للمسلمين .

السبب الثاني : احتراق الكعبة ، بسبب النار التي أوقدها بعض أصحاب ابن الزبير رضا لله عنهما في خيمة له ، حيث طارت الرياح بلهب تلك النار ، فأحرقت كسوة الكعبة ، كما أحرقت الساج الذي بنى في الكعبة حين عمرتها قريش ، فضعفت جدران الكعبة ، حتى إنها لتتقوض من أعلاها إلى أسفلها ، ويقع الحمام عليها فتتناثر حجارتها من الوهن ، والضعف .

ولما زال الحصار عن ابن الزبير رضي الله عنهما لإدبار الحصين بن نمير من مكة ، بعد أن بلغه موت يزيد بن معاوية ، رأى ابن الزبير رضي الله عنهما أن يهدم الكعبة ويبنيها ، فوافقه على ذلك نفر منهم جابر بن عبد الله ، وكره ذلك نفر ، منهم ابن عباس رضي الله عنهما .

(١) أخبار مكة ج ١ ص ١٧٣ .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٢٢

لما رأى ابن الزبير هذا الخلاف بين الصحابة قال لهم : لو أن بيت أحدكم احترق لا يرضى له إلا بأكمل صلاح ، ولا يكمل صلاح الكعبة إلا بهدمها ، وإقامتها على قواعد إبراهيم عليه السلام كما بينها النبي ﷺ لعائشة ، وسمعها ابن الزبير منها رضى الله عنها ، فهدمها اجتهداً منه بناء على أحاديث رسول الله ﷺ لوجود النفقة ، وبعد الناس عن الجاهلية ، وما أرى رسول الله ﷺ قواعد البيت لعائشة إلا لحكمة فهم ابن الزبير منها جواز بناء البيت ، على قواعد إبراهيم عليه السلام ، وقد وافقه بعض الصحابة فى هذا الاجتهاد .

وكان هدم ابن الزبير للكعبة فى يوم السبت فى النصف الأول من جمادى الآخرة سنة أربع وستين للهجرة .

وقد بناها ابن الزبير على قواعد إبراهيم عليه السلام ، وأدخل فيها ما أخرجته منها قريش فى الحجر ، وزاد فى ارتفاعها على بناء قريش نظير ما زادته قريش على بناء الخليل عليه السلام ، وذلك تسعة أذرع ، فصار ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً ، وهى سبعة وعشرون مدماكاً . وجعل لها بابين لاصقين بالأرض . أحدهما بابها الموجود اليوم ، والآخر المقابل له من الجهة الغربية المسدود الآن ، واعتمد فى ذلك على ما أخبرته به خالته عائشة رضى الله عنها .

وجعل فيها ثلاث دعائم فى صف واحد ، وجعل لها درجاً فى ركنها الشامى يصعد منها إلى سطحها ، وجعل فيها ميزاباً يصب فى الحجر ، وجعل فيها روازن للضوء^(١) .

والبناء المقصود هنا ، هو البناء الذى قامت به قريش ، والذى اشترك فيه محمد ﷺ يوم أن كان عمره خمساً وثلاثين سنة^(٢) .

والكعبة ليست هى المسجد الحرام ، وليست هى الحرم ، لأن المراد بالمسجد

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ٢٢١ ، وهذا أصح الأقوال .

الاتساع المحيط بالكعبة ، الذى يصلى فيه الناس .

والحرم هو المكان الذى يشمل مكة ، وما حولها من جميع الجهات إلى الأماكن المعروفة المحددة التى تفصل بين الحل والحرم ، من كافة نواحي مكة ، وهى المعروفة بالموافيت المكانية التى يحرم منها أهل مكة بالعمرة .

والكعبة هى البناء المربع المقام وسط المسجد .

وسبب قيام قريش ببناء الكعبة ما أصابها من حريق نال منها بسبب شرارة صدرت من امرأة عربية ، وهى تقوم بتجمير الكعبة ، ولدخول السيل فيها ، وتصعد جدرانها ، وتمكن اللصوص من سرقتها فقد لاحظوا أن نفراً تمكنوا من الدخول فى الكعبة ، وسرقوا حلياً ، وذهباً منها .

أرادت قريش أن تتغلب على هذه المثالب فانفقوا على بناء الكعبة سوياً ، وقاموا بتقسيم جدر الكعبة أجزاء ، ووزعوها على سائر القبائل ، لتتال كل قبيلة شرف المساهمة فى بناء الكعبة .

فكان شق الباب لبني عبد مناف ، وزهرة ، وهو الجدار الشرقى ...

وكان ما بين الركن الأسود ، والركن اليمانى لبني مخزوم ، وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وهو الجدار الجنوبى .

وكان ظهر الكعبة لبني جمع ، وبني سهم ، وهو الجدار الغربى .

وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصى ، ولبنى أسد بن عبد العزى بن قصى ، ولبنى عدى بن كعب ، وهو الحطيم^(١) الواقع فى الجهة الشمالية .

وقد اشترك النبى ﷺ مع قومه فى بناء الكعبة فكان ينقل معهم الحجارة ، وهم يضعون أزهرهم على عواتقهم ، ويحملون الحجارة ، ففعل محمد مثلهم ، فبان عورته ، فنودى ، عورتك ، فما روى لرسول الله عورة بعد ذلك^(٢) .

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٢٦ هامش الروض الأنف .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الحج . باب فضل بناء الكعبة ج ٣ ص ٤٣٩ .

وجاء فى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : " لما بنيت الكعبة ذهب النبى ﷺ وعمه العباس ينقلان الحجارة . فقال العباسى للنبى ﷺ : اجعل إزارك على رقبتك ، فخر إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء . فقال : أرنى إزارى ، فشده عليه ^(١) .

وتجمع قبائل مكة فى بناء الكعبة ، واشترك الكبار والصغار دليل على منزلة الكعبة فى قلوب ، وعقول سائر القبائل ، لأنهم كانوا يرون أنها بيت الله تعالى ، والذى بناها هو إبراهيم عليه السلام ، وإسماعيل عليه السلام ، وأنها وديعة الله فى أرضه للناس ، وهم مسئولون عنها .

وإن المرء ليحار ، وهو يرى هذا الاهتمام بالكعبة ، ويرى فى نفس الوقت الأصنام ، وقد وضعوها حولها ...

فهل هذا اهتمام بالأصنام حيث وضعوها فى هذا المكان المقدس ؟! أم هو اهتمام بالكعبة آملين أن تفيض على أصنامهم ببعض ما فيها من خير ، وبركة ؟!

لقد أدت روح العصبية فى القبائل إلى أن تبحث كل منها عن تميز لها تعلق به على غيرها من القبائل ... فلعب الشيطان بهم ، ووجههم إلى تعدد الآلهة ، وأعمى عقولهم عن الحق ، والصواب .

لقد كادت هذه العصبية أن توقع الحرب بين القبائل يوم بناء الكعبة ... فبرغم أنهم جزأوا جدران الكعبة ، وجعلوا لكل قبيلة جزءاً ، تقوم ببناؤه ، إلا أنهم لما ارتفعوا بالبناء إلى مستوى الحجر الأسود ، ويسمونه بالركن ، من باب تسمية الشئ باسم محله ، لأنهم يضعون الحجر فى ركن الكعبة ، لما بلغوا هذا المستوى اختلفوا فيمن يرفعه بيده ، ويضعه فى مكانه ...

يقول ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى - كتاب الحج . باب فضل مكة وبنائها ج ٣ ص ٤٤٢ .

قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها ، حتى بلغ المنيان. موضع الحجر الأسود .
فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تجاوزوا
، وتحالفوا ، وأعدوا للقتال .

ووصل الأمر بهم إلى أن بنى عبد الدار أعدت جفنة ، وملأوها دماً ، ثم
تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى جفنة الدم ، إيداناً
باستعدادهم للقتال حتى الموت ... ولذلك سموا (لعقة الدم) ، وكل ذلك من حمية
العصبية^(١) .

ثم إن أهل مكة فكروا فى مصير مكة إذا وقعت الحرب ، واشتركت فيها
القبائل جميعاً ، وأخذوا فى تدبر الأمر ، والبحث عن حل مقبول .
وتوقف العمل خمس ليال بسبب هذا التنافس ، إلا أنهم فى النهاية اجتمعوا
فى المسجد الحرام ، ورأوا تحكيم أسنهم ، وهو أبو حذيفة بن المغيرة بن عبد
الله المخزومي ، فتدبر فى الأمر ، ثم قال لهم : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم
فيما تختلفون أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه ، يريد به باب
(بنى شيبه) ، وكان يسمى فى الجاهلية (باب عبد شمس) ، وهو فى الإسلام
(باب السلام) ، فوافقوه على رأيه وانتظروا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ .
فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم ،
وأخبروه الخبر أحضر ﷺ ثوباً ، ووضع عليه الحجر ، ثم قال لهم : لتأخذ كل قبيلة
بناحية من الثوب ، وليمثلها شيخها ، ولما فعلوا كان فى ريع عبد مناف عتبة
بن ربيعة ، وكان فى الربع الثانى أبو زمعة بن الأسود بن المطلب ، وفى الثالث
أبو حذيفة بن المغيرة ، وفى الرابع العاصى بن وائل^(٢) .

(١) البداية والنهاية ج ١ ص ٣٠٣ ط . دار الفكر العربى .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٩٦ .

فجاء الأربعة ، وحملوا الثوب ، ورفعوه حتى إذا بلغ الحجر الأسود موضعه حمله ﷺ بيده ، ووضعوه حيث هو الآن ، وبنى عليه ، واستمروا فى البناء كل فى جهته حتى ارتفع البناء ثمانى أذرع ، ثم كسوها بالقباطى ، والبرود^(١) .

يصور الأزرقى ما حدث يوم بناء الكعبة فى حوار واضح تذكر فيه بعض الصحابة ما كان يوم بناء الكعبة . يقول الأزرقى : " اجتمع عند معاوية بن أبى سفيان ، وهو خليفة ، نفر من قريش منهم جعدة بن هبيرة ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، والحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة ، وعبد الله بن زمعة بن الأسود فتذاكروا أحاديث العرب .

فقال معاوية : من قال حين اختلفت قريش فى بنيان مقدم البيت : يا معشر قريش لا تنافسوا ، ولا تباغضوا ، فيطمع فيكم غيركم ، ولكن جزعوا البيت أربعة أجزاء ، ثم ربعوا القبائل فلتكن أرباعاً ؟

قالوا : إنه أبو أمية بن المغيرة .

قال : هكذا كنت أسمع أبى يقول .

قال : فمن القائل حين اختلفت قريش فى وضع الركن حكموا بينكم أول من

يطلع من هذا الباب ؟

قال : أبو حذيفة بن المغيرة .

قال : نعم .

قال : فمن النفر الذين رفعوا الثوب حين وضعه رسول الله ﷺ ؟

قال : جدك عتبة ابن ربيعة أحدهم ، فى الربع الأول .

قال : كذلك كنت أسمع أبى يقول .

قال : فمن كان من الربع الثانى ؟

قالوا : أبو زمعة بن الأسود بن المطلب .

(١) القباطى : ثياب مصنوعة من القطن ، والبرود : الثياب المصنوعة من الصوف .

(٣١٥)

قال : كذلك كنت أسمع أبى يقول .

قال : فمن كان فى الربع الثالث .

قالوا : أبو حذيفة بن المغيرة .

قال : كذلك كنت أسمع أبى يقول .

قال : فمن كان فى الربع الرابع ؟

قالوا : أبو قيس بن عدى السهمى .

قال : هذه واحدة قد أخذتها عليكم ، إنما هو العاصى بن وائل .

قال : فمن قال : يا معشر قريش لا تدخلوا فى عمارة بيت ربكم إلا طيباً من

كسبكم ؟

قالوا : أبو حذيفة بن المغيرة .

قال : هذه أخرى قد أخذتها عليكم ، إنما القائل هذا ، والمتكلم به أبو أحiche

سعيد بن العاصى .

قال : فأسكت القوم ^(١) .

وهذه الحادثة تدل على ما تميز به محمد بالصدق ، والأمانة فى قومه ، وقد سمي فيهم بالصادق الأمين ، حتى أن هذه الأسماء إذا أطلقت بينهم تتصرف فى أذهانهم تلقائياً إلى محمد ﷺ ، وتدل كذلك على ما قدره الله لمحمد ﷺ ، فلقد نال الشرف الذى بحث عنه الجميع ، فهو الذى وضع الحجر الأسود على الثوب وهو الذى رفعه من فوق الثوب ، ووضعه فى موضعه ، وهو الذى بنى فوقه ... وقد رضى الجميع ، وأطمأنوا إلى تصرف محمد ﷺ فيهم ...

ولم يغيب إبليس عن هذا الحدث ، فلقد حاول إفساد خطة الصلح ، فجاء فى صورة رجل نجدى ، وحاول مناولة النبى ﷺ حجراً يشد به الركن .

فقال العباس بن عبد المطلب : لا ، ونحاه ، وناول العباس رسول الله ﷺ

(١) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

حجراً فشد به الركن ... فغضب النجدي حيث نحى .

فقال النبي ﷺ : إنه ليس يبنى معنا فى البيت إلا واحد منا .

فقال النجدي : يا عجباً لقوم أهل شرف ، وعقول ، وسن ، وأموال ، عمدوا إلى أصغرهم سنّاً ، وأقلهم مالاً ، فرأسوه عليهم فى مكرمتهم ، وحرزهم كأنهم خدم له ، أما والله ليفوتتهم سبقاً ، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً^(١) ! ...

ولما بنى القرشيون الكعبة قصرت بهم النفقة ، ولم يتمكنوا من بنائها على قواعد إبراهيم فغيروا فى البناء . وأهم التغييرات فى بناء قريش للكعبة ما يلى :

١ . كان باب الكعبة على الأرض ، فلما هدمتها قريش ، وأعادوا بناءها ، ردموا وسط الكعبة بمخلفات الهدم ، فارتفعت أرض الكعبة ، وبالتالي أرتفع بابها ، وقد استحسنوا ذلك حتى لا يدخلها إلا من أرادوا له الدخول ، وبخاصة أن بعض اللصوص كانوا يدخلون الكعبة لسرقة بعض المجوهرات التى أهديت إليها .

يروى الأزرقى بسنده عن أبى جعفر أنه قال : كان باب الكعبة على عهد إبراهيم وجرهم بالأرض حين بنتها الملائكة ، كما يروى أن أبا حذيفة بن المغيرة قال : يا معشر قريش ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخل عليكم أحد إلا بسلم ، فإنه لا يدخل عليكم إلا من أردتم ، ففعلت قريش ذلك ، وردموا الردم الأعلى ، وصرفوا السيل عن الكعبة وكسوها^(٢) .

٢ . جعلوا للكعبة باباً واحداً ، هو الباب الشرقى ، وهو الموجود الآن وسدوا الباب الغربى .

٣ . تركوا بناء الحجر بطول ستة أذرع ونصف ، مع أنه جزء من الكعبة ، لأن النفقة الطيبة قصرت بهم ، فأبوا أن يدخلوا فى بنائها مالاً خبيثاً ، وأطاعوا

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٤٦ .

(٢) أخبار مكة للأزرقى ج ١ ص ١٧٣ .

- نصيحة أبى أحيدة سعيد بن العاص حين قال لهم : لا تدخلوا فى بيت
ريكم إلا طيباً من كسبكم^(١) .
- ٤ . ارتفعوا بالبناء تسعة أذرع ، فصار ارتفاع الكعبة ثمانية عشر ذراعاً ، حيث
رغبوا فى إطالتها ، رمزاً لرفعته .
- ٥ . قاموا بتسقيفها ، حيث كرهوا أن تكون بغير سقف ، ولعلمهم لاحظوا أهمية
السقف فى حمايتها من الأتربة ، والفضلات التى تحملها الرياح إلى جوف
الكعبة .
- ٦ . أقاموا داخل الكعبة ست دعائم فى صفين يجاوران الجانب الشرقى ،
والجانب الغربى لتكون أساساً يقوم عليه السقف ، وقد بنيت هذه الدعائم من
الحجر ، والخشب .
- ٧ . أقاموا داخل الكعبة من ناحية شرق الحجر سلماً حلزونياً يمكن بواسطته
الصعود إلى سطح الكعبة .
- ٨ . جعلوا سطح الكعبة مستوياً يميل نحو الحجر ، وأحاطوا السطح بسور يبلغ
ارتفاعه ذراعاً ، وجعلوا فيها ميزاباً يصب ماء المطر فى الحجر .
- ٩ . أدخلوا جميع جدران الكعبة بعيداً عن قواعد إبراهيم عليه السلام بمقدار نصف
ذراع ، حيث أقيم عليه (الشاذوران) فيما بعد ، وهو البناء البارز الموجود
أسفل الجدر حالياً ، ويشبه الوزرة ، وهو حجارة مائلة ملتصقة بجدر الكعبة
من خارجها .
- والشاذوران من بناء السلطان مراد العثمانى عام ١٠٤٠ هـ ، وقد جعل ارتفاعه
أحد عشر سنتيمتراً من الأرض ، وعرضه أربعين سنتيمتراً ، وهو بناء مائل
على هيئة مثلث قائم الزاوية ارتفاعه ملاصق للكعبة من جهاتها الثلاث ،
أما جهة الحجر فهو على هيئة درجة واحدة مسطحة .

(١) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ١٧٣ .

وجمهور الفقهاء. أجمعوا. على أن. المشاذوران. من البيت خلافاً لأبي حنيفة^(١).

وقد أخبر النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها بأن قومها لم يقيموا الكعبة على قواعد إبراهيم ﷺ.

. عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ألم ترى إلى قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ﷺ.

قلت : يا رسول الله أفلا تردها على قواعد إبراهيم ؟!

قال عبد الله بن عمر : فو الله لئن كانت عائشة سمعت ذلك من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يقم على قواعد إبراهيم ﷺ إرادة أن يستوعب الناس الطواف بالبيت كله من وراء قواعد إبراهيم ﷺ^(٢).

. عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه ، فأخذ رسول الله ﷺ يدي فأدخلني في الحجر فقال لي : صلي في الحجر إذا أردت دخول البيت ، فإنما هو قطعة من البيت ، ولكن قومك استقصروا حين بنوا الكعبة فأخرجوه من البيت^(٣).

. عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ قال لها لولا أن قومك حديث عهد بشرك ، أو بجاهلية لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض ، وجعلت لها بابين ، باباً شرقياً ، وباباً غربياً ، وزدت فيها من الحجر ستة أذرع ، فإن قریشاً اقتصر بها حين بنت الكعبة^(٤).

(١) في رحاب البيت الحرام ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) الفتح الرباني ج ١٢ ص ٤٩ .

(٣) الفتح الرباني ج ١٢ ص ٥٠ .

(٤) الفتح الرباني ج ١٢ ص ٥١ .

وأما بناء عبد الملك بن مروان :

فلقد أمر عبد الملك بن مروان بإعادة البيت إلى ما كان عليه في بناء قريش ،
ظناً منه أن ابن الزبير أخطأ في اجتهاده ، أو شك في الأحاديث التي اعتمد عليها .
ولذلك قام الحجاج بأمر من الخليفة عبد الملك بإخراج الحجر من الكعبة ،
والغاء الباب الغربى ، وأبقى على ما عدا ذلك من بناء ابن الزبير .
ولما أتم الحجاج ما أمر به عبد الملك وفد على عبد الملك الحارث بن عبد الله
ابن أبي ربيعة المخزومي ، فقال له عبد الملك : " ما أظن أبا خبيب . يعنى ابن
الزبير . سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها في أمر الكعبة .
فقال الحارث : أنا سمعته من عائشة .

قال عبد الملك : سمعتها تقول : وذكر الأحاديث .

قال عبد الملك بن مروان : أنت سمعتها تقول هذا .

قال : نعم يا أمير المؤمنين أنا سمعت هذا منها .

فجعل عبد الملك ينكت منكساً بقضيب في يده ساعة طويلة ، ثم قال وددت
، والله أنى تركت ابن الزبير ، وما تحمل من ذلك ^(١) .

وقد أراد أبو جعفر المنصور أن يعيد بناءها على بناء ابن الزبير فأبى عليه
الإمام مالك ، وقال له : أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة
للملوك بعدك ، يغيره من يريد تغييره ، فتذهب هيئته من القلوب فانصرف المنصور
عما أراد ^(٢) .

(١) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ٢١١ .

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ٢٢٢ .

المبحث العاشر

الكعبة والمسجد الحرام

يتصور بعض الناس أن المسجد الحرام هو الكعبة ، وأن الأحكام الشرعية المتصلة بهما واحدة .

والأمر ليس كذلك فالكعبة هي البناء المربع المرتفع الذى تكرر بناؤه فى عصور مختلفة ، والمسجد الحرام هو المكان المعد للصلاة حول الكعبة ، ويبدو أن هذا الخطأ نشأ من إطلاق مسمى المسجد الحرام على الكعبة أحياناً .

فلقد جاء ذكر المسجد الحرام خمسة عشر مرة فى القرآن الكريم وهى :

١ . ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۚ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۚ ﴾ (١) .

٢ . فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿ (٢) .

٣ . ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (٣) .

٤ . ﴿ وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (٤) .

٥ . ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (٥)

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٥٠ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٩١ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ١٩٦ .

- ٦ . ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾^(١) .
- ٧ . ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢) .
- ٨ . ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٣) .
- ٩ . ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٤) .
- ١٠ . ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٥) .
- ١١ . ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾^(٦) .
- ١٢ . ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٧) .
- ١٣ . ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾^(٨) .
- ١٤ . ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٩) .
- ١٥ . ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾^(١٠) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١٧ .
 (٢) سورة المائدة ، الآية ٢ .
 (٣) سورة الأنفال ، الآية ٣٤ .
 (٤) سورة التوبة ، الآية ٧ .
 (٥) سورة التوبة ، الآية ١٩ .
 (٦) سورة التوبة ، الآية ٢٨ .
 (٧) سورة الإسراء ، الآية ١ .
 (٨) سورة الحج ، الآية ٢٥ .
 (٩) سورة الفتح ، الآية ٢٥ .
 (١٠) سورة الفتح ، الآية ٢٧ .

وحين ننظر فى هذه الآيات نرى أن المراد ببعضها الكعبة خاصة ، وهى قوله تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ لأن المصلى يولى وجهه شطر الكعبة .

ويراد ببعضها الآخر مكة ، وهى قوله تعالى ﴿ سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾^(١) . حيث روى أن أن النبى ﷺ أسرى به من بيت أم هانئ .

ويراد بها فى موضع آخر الحرم كله ، وهو قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾^(٢) ، والذي منع من قربه المشركون هو الحرم كله ، وهو المكان الواسع المحدد بنقاط معينة يحرم المكيون للعمرة منها .

فالمسجد الحرام غير الكعبة المشرفة ، وكلاهما غير الحرم ، ولذلك يقول القائل : خرجت من المسجد الحرام ، واعتكفت به ، ولا يقال صليت نحوه ، أو أحرمت بالعمرة منه وهكذا ...

ولذلك كان الحديث عن بناء الكعبة خاصاً بها .

أما المسجد الحرام فلم يقع له بناء قبل الإسلام ، وظل فسحة واسعة محيطة بالكعبة فى إطار خلاء كبير يحيط بالكعبة من كل الجهات ، لأن القبائل كانوا يسكنون فى شعاب مكة الموجودة بين الجبل بعيداً عن الكعبة ، حيث عرف كل شعب بمن كان يسكنه ، واستمر الأمر على ذلك حتى استولى قصى على مكة ،

(١) سورة الإسراء ، الآية ١ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٢٨ .

وأمر قومه أن يبنوا لأنفسهم بيوتاً حول الكعبة ، وقال لهم : إن سكنتم حول الكعبة هابكم الناس ، وخافوا من قتالكم ، والهجوم عليكم ، وبدأ هو أولاً بالبناء فاتبعوه

وكانت أبواب البيوت مفتوحة تجاه الكعبة ، ومحيطه بها ، ولم تترك القبائل للطائفين إلا مساحة ضيقة بمقدار طوافهم ، حتى كان مكان الطواف ملاصقا لمدخل البيوت .

وتقديراً للكعبة جعلوا بين كل دارين طريقاً إليها ، واشتروا أن لا يعلو بناء ما عن الكعبة ، حتى ترى من جميع نواحيها ، وكانت الطرق بين الدور هي الأبواب إلى الكعبة ، وهي نفس الأبواب التي عليها المسجد الحرام اليوم . واستمر حال المسجد على ذلك في زمن رسول الله ﷺ ، وزمن أبي بكر رضي الله عنه فلما ولي الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أن الناس قد ضيقوا على المسجد ، وألصقوا دورهم به ، مع أنه صار مقصداً للناس ، يشد المسلمون إليه الرحال من كل مكان ...

لما رأى ذلك عمر رضي الله عنه قال لأهل مكة : إن الكعبة بيت الله ، ولا بد للبيت من فناء ، وإنكم دخلتم عليها ، ولم تدخل عليكم ، فاشترى تلك الدور من أهلها ، وهدمها ، وبنى سوراً للمسجد ، وفتح في السور أبواباً في أماكن الطرق التي كانت بين الدور ، وسمى كل باب باسم الطريق المقابل له ، وبهذا تعددت الأبواب في السور .

ولما ولي عثمان رضي الله عنه ، اشترى دوراً أخرى ، وأعلى في ثمنها ، وزاد في سعة المسجد^(١) ، وزاد في عدد الأبواب .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٢٢٤ .

فلما كانت خلافة ابن الزبير رضي الله عنه **عمر المسجد الحرام** بعد أن انتهى من **عمارة الكعبة المعظمة** ، وزاد فيه زيادة كبيرة من الجهة الشرقية ، والجنوبية ، والشمالية ، واشترى دوراً كثيرة ، وسقف المسجد أيضاً^(١) .

وتوالت الزيادة في المسجد الحرام ، وأشهرها الزيادة العثمانية حيث ترك العثمانيون مكاناً خالياً للطواف ، وأحاطوه ببناء دائري من الحجر الصلب ، مقام على أعمدة رخامية ، ومسقف بقباب في جميع نواحيه وزينوا القباب بزخارف بديعة ، وكتابات جميلة ، بخطوط فنية رائعة ، إلا أنهم تركوا مكان السعى بين الصفا والمروة ملتصقاً بالخلاء ، ولم يسقفوه .

وفي العصر الحديث كانت الزيادة السعودية في عهد الملك سعود بن عبد العزيز ، فقد وسع المسجد ، وبنى طريق السعى وسقفه ، وأحاط البناء العثماني ببناء مرتفع من جهات ثلاث ، وطلاه بالرخام الأبيض ، وتمت إنارة المسجد ، وفرشت أرضه بالرخام ، والجرانيت .

وفي عهد الملك فهد بن عبد العزيز توسع المسجد كثيراً ، وتم تكييفه بالهواء البارد ، وأعدت المصاعد التي تساعد الناس لصعود الدورين الثاني ، والثالث للصلاة ، وللسعى بين الصفا والمروة بعد إعداد المكان بأدواره الثلاثة للصلاة والسعى .

وفي عهد الملك عبد الله بن عبد العزيز ، كان الاهتمام الواضح بتوسعه المسجد الحرام ، وتحسين عمارته ، وتعمير المنطقة المحيطة به ، وإنشاء الفنادق الضخمة ، والأبراج العالية لتسع الحجاج والعمار ... والعمل في التوسعة الأخيرة جارٍ حتى الآن .

جزاهم الله جميعاً خير الجزاء .

(١) في رجاى البيت الحرام ص ١٩٩ .

المبحث الحادى عشر

المقدمات العملية للبعثة النبوية

بعدما تزوج محمد ﷺ من خديجة رضى الله عنها ، لم يعد محتاجاً لمال يسعى لتحصيله ،. أو ينشغل فى العمل من أجل كسبه ،. فلقد أغناه الله بمال خديجة رضى الله عنها ، وأغناه كذلك برضى النفس ، وهدوء البال ، كما أغناه بالميل نحو التأمل ، والتفكير ، أكثر من ميله للكسب المادى ، وبذل الجهد ، والعمل .

ولذلك نراه ﷺ يبدأ حياة التأمل ، ويتفرغ للتحنث بعيداً عن صخب الحياة ، وضجيج العمل .

أراد الله لمحمد ﷺ أن يتهيأ لحمل مسئولية الرسالة فكفاه مؤنة الحياة ، ويسر له النظر ، والفكر ، والتحنث .

وفى فترة ما قبل البعثة عاش محمد ﷺ ، وعاش العالم كله مقدمات البعثة ، المتمثلة فى النقاط التالية :

- أولاً -

كثرة المبشرات

تمتلى كتب المسيرة ، وللتاريخ بالمبشرات. الكونية ، وللإنسانية ، التى أشارت إلى قرب ظهور نبي فى بلاد العرب ، يبعثه الله للعالم كله ، لنشر العدل ، وتحقيق الأمن والسلام ، وقد أتت أغلب هذه المبشرات من أحبار اليهود ، ورهبان النصارى ، وكهان العرب .

إن مبشرات أهل الكتاب من اليهود ، والنصارى ، هى مبشرات صحيحة بشهادة القرآن الكريم ، حيث بين الله تعالى بصورة قاطعة معرفة الأحبار ، والمرهبان . برسالة محمد ﷺ ، وتحديد مواصفاته ، ومكان ظهوره ، وطبيعة رسالته العالمية .. يقول الله تعالى ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . ودلالة الآية صريحة فى أن أهل الكتاب ، وهم اليهود ، والنصارى ، يعرفون محمداً ، ورسالته معرفة تفصيلية ، ومع ذلك فقد جحد فريق منهم نبوة محمد ﷺ ، وكنتم ما يعرفه ، وأنكر ما هو صحيح لديه .

جاء فى تفسير الطبرى أن أحبار اليهود ، وعلماء النصارى كتموا أمر محمد ﷺ ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة ، والإنجيل ، فأخبر الله نبيه محمداً ﷺ وأمته بكتمانهم ذلك عن علم ومعرفة ، وليس لهم ذلك (٢) .

يقول الله تعالى ﴿ الَّذِي يَخْدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ (٣) فهو ﷺ موجود فى التوراة ، والإنجيل بوصفه ، ورسالته .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٦ .

(٢) تفسير الطبرى ج ٣ ص ١٤٦ ط . دار المعارف .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

ويروى البخارى بسنده أن عطاء بن يسار لقي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وقال له : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة .

فقال عطاء : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ، يا أيها النبي إنا أرسلنا شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً ، وحرزاً للأُميين ، أنت عبدى ، ورسولى ، سميتك المتوكل ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة . ولكن يعفو ، ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً^(١) .

ويقول سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعَنِ إِسْرَءِيلُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ ^ط فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ^ط ﴾^(٢) . والآية تبين أن عيسى عليه السلام بشر أتباعه ، وعلى رأسهم الحواريون برسالة محمد ﷺ ، وحدد لهم اسمه ووصفه ، وقد استخرج كثير من المحققين ما يدل على هذه الحقيقة من الإنجيل المعاصر .

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ^ط وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ^ط تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ^ط سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ^ط ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ^ط وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرْرَجٍ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَتَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ

(١) صحيح البخارى - كتاب البيوع . باب كراهية الصخب فى السوق ج ٤ ص ٤٦ .

(٢) سورة الصف ، الآية ٦ .

بِهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾. والآية صريحة في أن الله تعالى بين لأهل الكتاب رسالة محمد ووضحه لهم بالتمثيل ، والتشبيه الذى يقرب المعنى ، ويسهل المفاهيم الصعبة .
 فمثل محمد ، وأصحابه فى التوراة أنهم متعاونون ، يحب بعضهم بعضاً ، ويواجهون الكفار بقوة ، وشدة ، وأنهم عابدون لله ، راکعون ، ساجدون ، فى وجوههم علامات السجود ، وهم يدعون ربهم ، ويطلبون منه الخير ، والفضل دائماً ...
 ومثلهم فى الإنجيل كزرع يانع ، بلغ غاية النمو ، وحسن الثمر ، مع تمتعه بمنظر بهيج ، وفائدة واضحة ، ينفع نفسه ، وغيره .

لقد كان اليهود فى المدينة المنورة يخوفون الأوس ، والخزرج قبل الهجرة بقرب ظهور نبي سوف يتبعونه ، ويتقون به ، ليتمكنوا من قتل العرب قتل عاد وإرم ، الأمر الذى دفع أهل المدينة إلى الإسراع فى الدخول فى الإسلام ، وإتباع محمد ﷺ حتى لا يسبقهم اليهود إلى الإيمان به .

يروى ابن إسحاق أن عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه أنهم قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام ، مع رحمة الله تعالى ، وهداية لنا ، ما كنا نسمع من اليهود ، وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد ، وإرم ، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه ، حين دعانا إلى الله تعالى ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنا به ، وكفروا به ، ففينا ، وفيهم

نزل قول الله تعالى ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ^ط
وَأَنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) .

وخلاصة المبحث هو تأكيد صدق أحبار اليهود ، ورهبان النصارى فى
البشارات العديدة التى تحدثوا عنها ، وأكدوا ضرورة وقوعها فى شخص رسول الله
ﷺ مع أنهم لم يؤمنوا بدعوة محمد ﷺ حين جاءتهم ، حقداً ، وحسداً ...
 . **يقول سفيان بن حرب** : " إن أمية بن أبى الصلت ذهب إلى عالم من علماء
النصارى ، انتهى إليه علم الكتاب ، وسأله عن النبى المنتظر .
فقال له : أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر .
فأجابه : هو رجل من العرب .
قال له : من أى العرب ؟
فأجابه : من أهل بيت يحجه العرب من إخوانكم من قريش .
قال له : صفه لى .
فأجابه : رجل شاب حين دخل فى الكهولة ، بدء أمره يجتنب المظالم ،
والمحارم ، ويصل الرحم ، ويأمر بصلتها ، وهو محوج ، كريم الطرفين
متوسط فى العشيرة ، أكثر جنده الملائكة " ^(٢) .
 . **ويروى ابن عساكر عن عبد الرحمن بن عوف قال** : " سافرت إلى اليمن
قبل مبعث النبى ﷺ بسنة ، فنزلت على عثكلان بن عواكن الحميرى ، وكان
شيخاً كبيراً ، وكنت لا أزال إذا قدمت اليمن أنزل عليه ، فيسألنى عن مكة ،
وعن الكعبة ، وزمزم ويقول : هل ظهر فيكم رجل له ذكر ؟
هل خالف أحد منكم عليكم فى دينكم ؟

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٦ .

(٢) سبل الهدى ج ٢ ص ٢٥٦ .

فأقول : لا ... حتى قدمت المرة التى بعث فيها رسول الله ﷺ فوافيته قد ضعف ، وثقل سمعه ، فنزلت عليه ، فاجتمع عليه ولده ، وولد ولده ، فأخبروه بمكانى ، وأتوني له ، وقد شدت عصابة على عينيه ، وأسند فقعد . فقال لى : انتسب يا أخا قریش .

فقلت : أنا عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عدى بن الحارث بن زهرة قال : حسبك يا أخا زهرة ألا أبشرك بالمرعبة ، إن الله تعالى بعث فى الشهر الأول من قومك نبياً ، ارتضاه صفيّاً ، وأنزل عليه كتاباً ، وجعل له ثواباً ، ينهى عن الأصنام ، ويدعو إلى الإسلام ، يأمر بالحق ويفعله ، وينهى عن الباطل ويبطله .

فقلت : ممن هو ؟

قال : لا من الأزدي ، ولا ثماله ، ولا من سرو ، ولا تباله ، هو من بنى هاشم وأنتم أخواله يا عبد الرحمن أحسن الوقعة ، وعجل الرجعة ، ثم امض وآزره ، وصدقه ^(١) .

. ويقول عروة بن مسعود الثقفى : " بلغت نجران ، وكان أسقفها صديقاً لى ، فلما رآنى ، قال لى : يا أبا يعفور هذا حين خروج نبى من أهل حرمكم ، يهدى إلى الحق ، وحق المسيح إنه لخير الأنبياء ، وآخرهم ، فإن ظهر فكن أول من يؤمن به " ^(٢) .

. ويروى أن أبا ثور عمرو بن معدى كرب ؓ قال : " فزعنا إلى كاهن لنا فى أمر نزل بنا ، فقال الكاهن : أقسم بالسما ذات الأبراج ، والأرض ذات الأدرج ، والريح ذات العجاج ، إن هذا لإمراج ، ولقاح ذى نتاج . قالوا : وما نتاجه ؟

(١) سبل الهدى ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٢) سبل الهدى ج ٢ ص ٢٥٩ .

(٣٣١)

قال : ظهور نبى صادق ، بكتاب ناطق ، وحسام ذالق .

قالوا : أين يظهر ؟ والام يدعو ؟

قال : يظهر بصلاح ، ويدعو إلى فلاح ، وينهى عن الراح ، والسفاح ،
وعن كل أمر قباح .

قالوا : ممن هو ؟

قال : من ولد الشيخ الأكرم ، حافر زمزم ، ومطعم الطير المحوم ، والسباع
الأضرم .

قالوا : وما اسمه ؟

قال : محمد ، وعزه سرمد ، وخصمه مكمد ^(١) .

. **ويروى ابن هشام** : " أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم ، فكلما
مات رئيس منهم ، وأفضت الرئاسة إلى غيره ، ختم على تلك الكتب خاتماً
مع الخواتم التى قبله ، ولم يكسرهما ، فخرج الرئيس الذى كان على عهد
النبي ﷺ يمشى فعثر فقال ابنه : تعس الأبعد ، يريد النبي ﷺ ، فقال له أبوه
: لا تفعل ، فإنه نبى ، واسمه فى الوضائع . يعنى الكتب . فلما مات لم يكن
همه إلا أن شد فكسر الخواتم فوجد ذكر النبي ﷺ فأسلم ، وحسن إسلامه
» ^(٢)

وهكذا نرى كثرة المبشرات ، وانتشارها فى كل أرجاء الأرض ، وكلها تشير
إلى نبوة محمد ﷺ .

وكان الأمل أن يسارع أهل الكتاب إلى الإيمان ، والتصديق برسالة محمد
ﷺ فهم العارفون لها ، وبصدقها ، وقد بشروا الناس بها ، ولكن الحقد أعمى
قلوبهم ، وصرفهم عن إتباع الحق ، وكبر فى نفوسهم أن يكونوا تابعين لغيرهم .

(١) سبل الهدى ج ٢ ص ٢٦٠ ، وصلاح اسم من أسماء مكة .

(٢) سبل الهدى ج ٢ ص ٢٦٢ .

ومع أنهم لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ، فقد أبقوا. فى أفهام الناس. هذه المبشرات ، وهياؤا العقول الصالحة للإيمان ، مما جعل الكثير ينتظر هذا النبى المبعوث بدين الله تعالى .

وقد سبق ذكر ما قاله كاهن عمورية لسلمان الفارسى ، وما قاله بحيرى لأبى طالب ، وما قاله نسطورا لميسرة^(١) .

ومما قاله الأخبار :

. ما رواه ابن سعد بسنده عن أبى بن كعب ، قال : لما قدم تبع المدينة ، ونزل بقناة ، بعث إلى أخبار اليهود وقال لهم : إنى مخرب هذا البلد حتى لا تقوم به يهودية ، ويرجع الأمر إلى دين العرب . فقال له : السموأل اليهودى ، وهو يومئذ أعلمهم : أيها الملك إن هذا بلد يكون إليه مهاجر نبى من بنى إسماعيل ، مولده مكة اسمه أحمد ، وهذه دار هجرته^(٢) .

. وعن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال : " كان الزبير بن باطا ، وكان أعلم اليهود ، يقول : إنى وجدت سفراً كان أبى يختمه على ، فيه ذكر أحمد نبى يخرج بأرض القرظ صفته كذا ، وكذا "^(٣) .

. وعن ابن عباس ؓ قال : " كانت يهود قريظة ، والنضير ، وفدك ، وخيبر يجدون صفة النبى ﷺ ، عندهم قبيل أن يبعث ، ويعلمون أن دار هجرته بالمدينة ، فلما ولد رسول الله ﷺ ، قالت أخبار اليهود : ولد أحمد الليلة ، هذا

(١) أنظر ٢٦١ . ٢٦٦ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٩ .

(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٩ .

الكوكب قد طلع ، فلما تتبأ قالوا ، قد تنبئ أحمد ، قد طلع الكواكب الذى يطلع ، كانوا يعرفون ذلك ، ويقرون به ، ويصفونه لولا الحسد ، والبغى ^(١) .
وعن عامر بن ربيعة قال : " سمعت زيد بن عمر بن نفيل يقول لى : أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ، ثم من بنى عبد المطلب ، ولا أرانى أدركه ، وأنا أومن به ، وأصدقه ، وأشهد أنه نبي ، فإن طالت بك مدة فرأيتك ، فأقرئه منى السلام ، وسأخبرك ما نعتك حتى لا يخفى عليك .
 قلت : هلم !

قال : هو رجل ليس بالطويل ، ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ، ولا بقليلة ، وليست تفارق عينية حمرة ، وخاتم النبوة بين كتفيه ، واسمه أحمد ، وهذا البلد مولده ومبعثه ، ثم يخرج قومه منه ، ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره ، فإياك أن تخذع عنه فإنى طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم ، فكل من أسأل من اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، يقولون : هذا الدين وراءك ، وينعتونه مثل ما نعتك لك ، ويقولون لم يبق نبي غيره ، يقول عامر بن ربيعة : فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ بقول زيد بن عمرو ، وأقرأته منه السلام ، فرد عليه السلام ورحمة الله عليه ، وقال : قد رأيتك فى الجنة يسحب ذيولاً ^(٢) .

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٩ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٦١ .

- ثانياً -

انتشار العلم بخاتم النبوة

من مقدمات البعثة أن محمداً ﷺ تمتع بعلامات عرفت بخاتم النبوة ، وقد رآها أهل الكتاب ، وغيرهم قبل مبعثه ﷺ ، وأكثروا الحديث عنها .
وخاتم النبوة عبارة عن بضعة لحم مرتفعة عن الجسد ، وجدت في ظهره الشريف ﷺ عند أسفل عظم كتفه اليسرى . وقد تكلم العلماء عن الحكمة في وضعه مع الخاتم خلف ظهره ، وفي هذا المكان المواجه للقلب .
يقول أبو دحية . رحمه الله . : الحكمة في وضع الخاتم بين كتفي رسول الله ﷺ : إشارة إلى أنه لا نبي بعدك يأتي من ورائك^(١) .

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى . كتاب المناقب . باب خاتم النبوة ج ٦ ص ٥٦١ .

وقال فى الفتح : السر فى ذلك أن القلب فى تلك الجهة^(١) .

وقال العلامة السهلى فى الروض الأنف : وحكمة وضعه . أى الخاتم عند النغص . من الكتف اليسرى . عصمته من وسوسة الشيطان لأن ذلك الموضع يدخل الشيطان منه ، فكان ذلك حفظاً له من الشيطان^(٢) .

وروى ابن عبد البر بسند قوى إلى ميمون بن مهران عن عمر بن عبد العزيز أن رجلاً سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم ، فأرى جسده ممهى (يرى داخله من خارجه) وأرى الشيطان فى صورة ضفدع ، عند كتفه حذاء قلبه ، له خرطوم كخرطوم البعوضة ، وقد أدخله فى منكبه الأيسر إلى قلبه ، يوسوس إليه ، فإذا ذكر الله تعالى العبد خنس .

قال فى الفتح : والحديث له شاهد مرفوع عن أنس عند أبى يعلى ، وابن عدى ولفظه : " إن الشيطان ، وضاع خطمه على قلب ابن آدم " ^(٣) .

ميعاد ختم النبى بهذا الخاتم :

اختلف العلماء فى موعد ختم النبى ﷺ بخاتم النبوة . وذكروا أوقاتاً تتفق

غالباً مع الأوقات التى ذكروها لشق صدره ﷺ وهى :

- قال بعضهم : ختم حين مولده ﷺ .
 - وقال آخرون : ختم يوم شق صدره عند حليلة .
 - وقال غيرهم : ختم قبيل المبعث .
 - وقال آخرون : ختم ليلة الإسراء والمعراج .
- ولكل دليله ، وحجته .

(١) فتح البارى على صحيح البخارى ج ٦ ص ٥٦٢ .

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ١٩١ .

(٣) فتح البارى ج ٦ ص ٥٦٣ .

ورجح ابن حجر أن الختم كان يوم شق صدره عند حليلة ، وقطع به القاضي عياض ، لأن الذين رأوه ، وشاهدوه ذكروا أن رؤيتهم للخاتم كانت قبل البعثة بوقت طويل .

ولا مانع من القول بأن الله تعالى كرر الختم لرسول الله في كل هذه المرات إعمالاً للأحاديث كلها ، وزيادة في البركة ، والعون .

وسميت هذه العلامة بالخاتم جرياً على عادة الناس . في إثبات . صدق ما يكتبون بخاتم معين ، فكأن هذا الخاتم دليل على صدق محمد ﷺ .

والأحاديث المثبتة لخاتم النبوة كثيرة منها :

. **عن السائب بن يزيد** رضي الله عنه **يقول** : " ذهبت بي خالتي إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول ابن أختي وجع ، فمسح ﷺ رأسي ، ودعا لي بالبركة ، وتوضأ ، فشربت من وضوئه ، ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى الخاتم بين كتفيه ، فإذا هو مثل زر الحجلة " (١) .

. **وعن سماك قال** : " رأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة حمام يشبه جسده " (٢) .

. **وعن ابن زيد الأنصاري** رضي الله عنه **قال** : " قال لي رسول الله ﷺ : يا أبا زيد أدن مني فامسح ظهري ، فمسحت ظهره ، فوقعت أصابعي على الخاتم .

قلت : وما الخاتم ؟

قال : شعرات مجتمعات " (٣) .

. **عن عبد الله بن سرجن** رضي الله عنه **قال** : رأيت النبي ﷺ ، وأكلت معه خبزاً ، ولحماً ، أو قال ثريداً .

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري - كتاب الوضوء . باب فضل استعمال وضوء الناس ج ١ ص ٢٩٦ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي - كتاب الفضائل . باب شبيهة النبي ﷺ ج ١٥ ص ٩٧ .

(٣) قال الألباني في الشمائل : رواه الترمذي ، والحاكم ، وأحمد ، وابن حبان - بسند صحيح رقم (١٧) .

فقلت له : هل استغفر لك النبي ﷺ !؟

قال : نعم ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾^(١) .

قال : ثم درت خلفه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، عند نغص كتفه اليسرى جمعاً عليه خيلان كأمثال الثآليل^(٢) .

وعن أبي نضرة العوفي رضي الله عنه قال : سألت أبا سعيد الخدري عن خاتم رسول

الله ﷺ ، يعنى : خاتم النبوة ، فقال : كان فى ظهره بضعة ناشزة^(٣) .

وللعلماء فى وصف خاتم النبوة أقوال :

- يصفها الحاكم فى كتابه بأنها شعر مجتمع .
- وفى كتاب البيهقى : بضعة ناشزة .
- وفى حديث عمر بن أخطب (كشئ يختم به) .
- وفى تاريخ ابن عساكر (مثل البندقة) .
- وفى الترمذى (كالتفاحة) .
- وفى الروض كرأس المحجم الغائص على اللحم .
- وفى تاريخ ابن أبى خثيمة شامة خضراء محتقرة فى اللحم .
- وفيه أيضاً شامة سوداء إلى الصفرة حولها شعرات متراكبات كأنها عرف الفرس .
- وفى تاريخ القضاعى ثلاث مجتمعات .
- وعن عائشة رضى الله عنها كتينة صغيرة تضرب إلى الدهمة^(٤) .

(١) سورة محمد ، الآية ١٩ .

(٢) الثآليل : جمع ثؤلول ، وهو بثر صغير صلب مستدير يظهر على الجلد كالحمصة أو دونها ، والحديث رواه مسلم - كتاب الفضائل . باب إثبات خاتم النبوة ج ١ ص ٩٩ .

(٣) ناشزة : مرتفعة ، والحديث قال الألبانى عنه فى الشمائل ، رواه الترمذى بسند حسن رقم (١٩) .

(٤) دلائل للبيهقى ج ١ ص ٢٦٠ هامش ، فتح البارى ج ٦ ص ٥٩٣ .

(٣٣٨)

واختلاف العلماء فى وصف خاتم النبوة ليس من قبيل التنافى ، والتضاد وإنما هى باعتبار أن كلا منهم شبه الخاتم ، بما سنع له ، وبما ظهر أمامه ، لأنه ﷺ كان يستره بثوبه ، فواصف الخاتم رآه بنظرة خاطفة ، أو أرى له فجأه مع وجود عوامل الهيبة ، والدهشة ، فى هذا الموقف العجيب .
ومن الملاحظ أن الأقوال متقاربة فى وصف الخاتم من ناحية صورته ، وحجمه ، ومكانه .
ووجود الخاتم النبوى مندرج فى خوارق العادات التى أحاط الله بها النبوات ، ويجب التسليم بها .

- - - ثانياً - - -

منع الجن من الاستماع

الجن خلق الله تعالى أوجدتهم من النار ، وقدر لهم أن يعيشوا على نحو أراده لهم ، فهم أجسام معنوية ، هائمة فى الدنيا ، سريعة التنقل ، والحركة ، قوية الإدراك ، سائحة فى كون الله الواسع يرون الناس من حيث لا يرونهم .
وهم خلق مكلفون برسالات الله ، منهم المؤمن ، ومنهم الكافر ، ومبدأ العلم بوجودهم فى الدنيا يبدأ فى المظهر - بقصة إبليس مع آدم - ﷺ حيث أخرجهما الله من الجنة . ، وقدر لهما التنازل ، والتكاثر . ، وأهبطهما الأرض ليعيش كل طرف وذريته فى عداوة مع الطرف الثانى وذريته إلى يوم القيامة .

وقد تمكن كل طرف من الاستعانة بأفراد من الطرف الآخر فزادوهم ضللاً ، وخبالاً . يقول تعالى ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (١) . وذلك أن الرجل من الإنس كان إذا نزل بمكان مخوف يقول : أستعيذ بسيد هذا المكان من شر سفهائه ، فزادوهم طغياناً ، وضللاً ، وبعداً عن الله تعالى .

وكان الجن يقومون باستماع الخبر من السماء ، ويسمع الكهان من الناس ، فيضيفون إليه من عندهم ، ويتحدثون به كذباً ، وبهتاناً .
 . تقول السيدة عائشة رضی الله عنها : " سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ليسوا بشئ .
 قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشئ يكون حقاً .
 فقال رسول الله ﷺ : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى ، فيقرها فى أذن وليه قر الزجاجة ، ويخلطون فيها أكثر من مائة كذبة " (٢) .
 . ويروى البخارى بسنده عن عائشة رضی الله عنها قالت : " سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إن الملائكة تنزل فى العنان . السحاب . فتذكر الأمر قضى فى السماء ، فتسترق الشياطين السمع ، وتتوجه به إلى الكهان فيتحدثون به " (٣) .

وبهذا الطريق علم الكهان خبر مبعث محمد ﷺ فتحدثوا بها إلى الناس ...
 ومن أقوال الكهان ما قاله خطر بن مالك ، وهو أعلم كهان العرب قال :

(١) سورة الجن ، الآية ٦ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الطب . باب الكهانة ج ٧ ص ٢٠٨ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق ج ٤ ص ٧٩ .

(٣٤٠)

أرى لقومى ما أرى لنفسى .: أن يتبعوا خير بنى الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس .: يبعث فى مكة دار الحمس
بمحكم التنزيل غير اللبس

فقلنا له : يا خطر ، وممن هو ؟

فقال : والحياة ، والعيش ، إنه لمن قريش ، ما فى حلمه طيش ، ولا فى
خلقه هيش ، يكون فى جيش ، وأى جيش ! من آل قحطان وآل أيش .
فقلت له : بين لنا ، من أى قريش هو ؟

فقال : والبيت ذى الدعائم ، والركن والأحاتم ، إنه لمن نجل هاشم ، من
معشر كرائم ، يبعث بالملاحم ، وقتل كل ظالم .
ثم قال : هذا البيان ، أخبرنى به رئيس الجان ، ثم قال : الله أكبر ، جاء
الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر ، ثم سكت ، وأغمى عليه ، فما
أفاق إلا بعد ثلاثة^(١) .

. يقول عبد الله بن كعب : " سمعت عمر بن الخطاب يحدث الناس ويقول :
والله إنى لعند وثن من أوثان الجاهلية ، فى نفر من قريش ، قد ذبح له
رجل من العرب عجلًا ، فنحن ننتظر قسمه ، ليقسم لنا منه ، إذ سمعت
من جوف العجل صوتاً ما سمعت صوتاً قط أنفذ منه ، وذلك قبيل الإسلام
بشهر أو شهرين ، يقول : يا ذريح ، أمر نجيح ، رجل يصيح ، يقول : لا
إله إلا الله " ^(٢) .

. سأل ربيعة بن نصر ملك اليمن الكاهن سطيح عن تأويل رؤياه فقال له : "
رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت أرض تهمة ... فأكلت منها كل
ذات جمجمة .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢١٠ .

(٣٤١)

فقال الملك : ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح ، فما عندك فى تأويلها ؟
قال : أحلف ما بين الحرّتين من حنش ... لتهبطن أرضكم الحبش ،
فليملكن ما بين أبين إلى جرش .

فقال الملك : وأبيك يا سطيح ، إن هذا لنا لغائظ موجه ، فمتى هو كائن ؟
أفى زمانى أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بحين ، أكثر من ستين ، أو سبعين ، يمضين من السنين !
قال : أيدوم ذلك فى ملكهم أم ينقطع ؟
قال : لا ، بل ينقطع لبضع وسبع من السنين ، ثم يقتلون ، ويخرجون
منها هاربين .

قال : ومن يلى ذلك من أمر قتلهم وإخراجهم ؟
قال : يليه إرم ذو وزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً
باليمن !

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه ، أم ينقطع !

قال : بل ينقطع ؟

قال : من يقطعه ؟

قال : نبي زكى ، يأتية الوحى من قبل العلى !

قال : وممن هذا النبى ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى
قومه إلى آخر الدهر .

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون ، والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ،
ويشقى فيه المسيئون .

قال : أحق ما تخبرنى ؟

قال : نعم ، والشفق ، والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبئك به لحق
 "(١)!"

. ويروى النويرى فى نهاية الإرب أن سفيان بن مجاشع بن دارم احتمل ديات
 دماء كانت من قومه ، فخرج يستعين فيها ، فدفع إلى حى من تميم ، فإذا
 هم مجتمعون إلى كاهنة تقول : " العزيز من والاه ، والذليل من خالاه
 والموفور من مالاه ، والموتور من عاداه ...

قال سفيان : من تذكرين ... لله أبوك ؟

ف قالت : صاحب حل وحر ، وهدى وعلم ، وبطش وحلم ، وحر وسلم ،
 رأس رعوس ، ورائض يسوس ، وماح ييوس ، وماهد وعوس ...

قال سفيان : من هو ؟ ... لله أبوك ؟

قالت : نبي مؤيد ، قد آن حين يوجد ، ودنا أوان يولد ، يبعث إلى الأحمر
 والأسود بكتاب لا يفند ، اسمه محمد .

قال سفيان : لله أبوك ! أعربى هو أم عجمى ؟

قالت : أما والسماء ذات العنان ، والشجر ذات الأفنان ، إنه لمن معد بن
 عدنان ، فقدك يا سفيان "(٢) .

إن أخبار الكهان تشبه أنباء الأخبار ، والرهبان ، فى أنها جميعاً تدخل فى
 جملة المنبهات الحسية التى تسبق الأمور الهامة ، لتتليق العقول ، وتصحو
 النفوس لهذا التغيير الذى ينبئ بهذا الجديد القادم .

إنها ليست دعوة إلى دين الله ، وليست تكليفاً بشريعة ، ولكنها مقدمة لأمر
 له شأنه ، ينبه الأفهام ، ويوقظ العقول ، وقد فطر الله الناس على أن عظام

(١) النبى محمد ﷺ ص ٢١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢١ . ٢٢٢ ، بوس أى البؤس ، والوعوس أى الصعب .

الأمور تسبق بتمهيد يشير إليها ، ويجذب الأفهام نحوها ... وهى على الأقل تقول بلسان الحال : إن التغيير قادم ، وهو قدر إلهى لا راد له .
والمبشرات واضحة صريحة ، فهى تشير لبعثة أحمد ، بدين أمجد ، فى بلاد الحرم الأوحى ، وتدعو للإيمان به كل عاقل مُسعد .

وقد عرفنا الله تعالى بما كانت تقوم به الجن من استماع حديث الملائكة ، وحديث الله عنهم حيث يقول ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾^(١) . وذلك حين كان يمكن للجن أن يجلس فى السماء فى مكان يسمع فيه ، وفجأة تغير الحال ، وتبدل ، ونظرت الجن إلى السماء التى كانوا يتحركون خلالها للتصنت والاستماع ، بلا عائق ، أو مانع ، فوجدوها على غير ما كانت عليه ، يصور الله ذلك فيقول- سبحانه ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴾^(٢) . لقد امتلأت السماء بالحرس القوى من الملائكة ، تمنع الجن من الاقتراب ، فإذا اقترب أحدهم تحرقه الشهب الملهبة .

وقد كان الجن يتحايل فى الاستماع ، حيث كانوا يجلسون واحداً فوق واحد فإذا احترق الأعلى استمع الذى تحته ، حتى يتمكنوا من استماع شئ ، فإذا ما استرقوا كلمة ألقوها إلى الكهان أشياهم ، ليتحدثوا بها مع إضافة مائة كذبة إلى الكلمة الواحدة المسروقة^(٣) .

فلما كانت بعثة محمد ﷺ منع الجن من الاستراق ، يقول الله تعالى على لسان الجن ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا ﴾^(٤) . وحينئذ رأت الجن أن

(١) سورة الجن ، الآية ٩ .

(٢) سورة الجن ، الآية ٨ .

(٣) فتح البارى - كتاب التفسير . باب قل أوحى إلى ج ٨ ص ٦٧١ .

(٤) سورة الجن ، الآية ٩ .

ذلك الحدث مقدمة ضرورية لأمر ضرورى سوف يقع ، وقالوا عن ذلك ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (١) . إنهم لم يحددوا ما سيجد للناس ، ولكنهم أكدوا خطورته ، وأهميته .

ولما رأت قريش الشهب فى السماء توقعوا أمراً جليلاً حتى تصوره الفناء يقول أبى بن كعب : رأت قريش أمراً لم تكن تراه فجعلوه يسيبون أنعامهم ، ويعتقون أرقاءهم ، يظنون أنه الفناء ، وفعلت ثقيف مثل ذلك .

فبلغ عبد ياليل فقال : لا تعجلوا ، وانظروا ، فإن تكن نجوماً تعرف فهو عند فناء الناس ، وإن كانت نجوماً لا تعرف ، فهو عند أمر قد حدث .

فنظروا فإذا هى لا تعرف فأخبروه فقال : هذا عند ظهور نبى .

فما مكثوا إلا يسيراً حتى قدم الطائف أبو سفيان بن حرب فقال : ظهر محمد بن عبد الله يدعى أنه نبى مرسل .

فقال عبد ياليل : فعند ذلك رمى بها (٢) .

يروى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لهم : ما كنتم تقولون فى هذا النجم الذى يرمى به فى الجاهلية ؟

قالوا : يا نبى الله كنا نقول حين رأيناها يرمى بها : مات ملك ، أو ملك ملك ، ولد مولود ، أو مات مولود .

فقال رسول الله ﷺ : ليس ذلك كذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى كان إذا قضى فى خلقه أمراً سمعه حملة العرش سبحوا فيسبح من تحتهم لتسبيحهم ، فيسبح من تحت ذلك ، فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهى إلى السماء الدنيا فيسبحوا .

ثم يقول بعضهم لبعض : مم سبحتم ؟

(١) سورة الجن ، الآية ١٠ .

(٢) سبل الهدى ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٣٤٥)

فيقولون : سبح من فوقنا فسبحنا لتسييحهم .

فيقولون : ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا ؟

فيقولون : مثل ذلك حتى ينتهوا إلى حملة العرش . فيقال لهم : مم سبحتم ؟

فيقولون : قضى الله تعالى في خلقه كذا ، وكذا ، للأمر الذي كان فيهبط به

الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا ، فيتحدثون به ، فتسرقه

الشياطين بالسمع على توهم ، واختلاف ، ثم يأتون به الكهان فيحدثونهم فيخطئون

بعضاً ، ثم إن الله تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون بها ، فانقطعت

الكهانة اليوم فلا كهانة^(١) .

وهكذا ...

كثرت البشائر ، والمنبهات مقدمة لبعثة محمد ﷺ ، وإرساله بدين الله تعالى

للناس أجمعين ...

- رابعاً -

تكمال شخصية محمد ﷺ

مع بلوغ محمد ﷺ سن الأربعين^(٢) تكاملت شخصيته في كافة جوانبها

البشرية ، فوصل إلى التمام في صورته ، وخلق ، وعقله ، وروحه ، وذلك بفضل

الله ، وعنايته .

(١) صحيح مسلم . كتاب السلام . باب تحريم الكهانة ج ٤ رقم ١٧٥٠ ، ١٧٥١ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٩ .

إن النبوة تكليف إلهي ، يصنع الله لها رجالاً من خلقه ، على نحو يريده سبحانه وتعالى ، ويوحى إليهم ، وبذلك توجد النبوة في النبي ، وتتلاقى الرسالة والرسول في انسجام ، وتناغم ، وتوازن .

إن- النبي صناعة إلهية . يقول- الله عن موسى ﷺ ﴿ وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي ﴾^(١) . ويقول سبحانه على لسان عيسى ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾^(٢) . وهكذا الأنبياء جميعاً في تكوينهم ، وتنشئتهم ، وحياتهم ، حيث نلقاهم جميعاً محاطين بالرعاية ، والعناية ، تحفهم خوارق العادات التي تمثل جزءاً من حياتهم ، ونشاطهم قبل النبوة .

ويخطئ بعض الناس حيث يقفون أمام الإرهاصات ، والمبشرات موقف الإنكار ، والدهشة ، لأنها خوارق للعادة جرت قبل البعثة ، ويسلمون بخوارق العادات بعد النبوة لأنها معجزة تصدق الرسول في نبوته .

وبعض آخر من الناس ينكر هذه المبشرات لخروجها عن مألوف عقولهم ومعارضتها لتصوراتهم للكون ، والحياة .

والواجب أن يدرك الجميع أن خوارق العادات تحيط بالرسول قبل بعثته بل وقبل مولده . كما تكون معه بعد مبعثه . لأنها جميعاً من الله . ولكل منها وظيفته ودوره .

والخارق للعادة مطلقاً لا دخل للعقل فيه ، فما بال فريق من الناس يؤمن بالبعض ، ويكفر بالبعض الآخر .

إن العقل عاجز لا يمكنه تغيير مسار الأمور المعادية الكونية كحركة الأفلاك ، وتكوين الجنين ... وغيرها ، والعقل حين يعجز عليه أن يسلم بما يرى .

(١) سورة طه ، الآية ٤١ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٣٠ .

وواجب أن يكون التسليم فى كل قدر ، وبخاصة ما جاء خارقاً للعادة ، مطلقاً .

لقد أحاطت عناية الله محمداً ﷺ من كافة النواحي ، من ناحية نسبه ، وحمل أمه به ، وإرضاعه ، ونشاطه ، ورحلاته ، وقد سبق ذكر صور لهذه العناية التى أثمرت شخصية متكاملة فى واحد من الناس يريد الله له أن يكون رسولاً نبياً .

وقد تجلى هذا الكمال المبشرى فى شخصية محمد ﷺ قبل مبعثه فى الجوانب التالية :

١. استقامة السلوك :

عاش محمد ﷺ حياته كلها فى أعمال فاضلة ، وسلوك سليم ، ولم تؤثر عنه ريبة قط ، بل كان فى كل حالاته ، وأحواله رجلاً فاضلاً ، ممتازاً ، حتى عرف فى مكة بحسن العمل ، وسمو السلوك .

ومع خروج النبى ﷺ إلى مجتمع مكة ، واختلاطه بشبابها ، وتعامله مع رجالها كانت عناية الله معه ، فصار أفضل قومه مروءة . وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحبهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأكثرهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال ، ما رأى ملاحياً ، ولا ممارياً أحداً حتى عرفه قومه بالأمين الصادق ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

صرف الله عنه كل ما يسيئ ، ويشين ، فعن على بن أبى طالب ؓ قال : " سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يهيمون به إلا مرتين ، كلتاهما عصمنى الله منهما ، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ، ونحن فى رعاية غنم أهلنا ، هيا بنا نسمر كما يسمر المشباب . . وقلت لصاحبي : أبصر لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الفتيان .

(٣٤٨)

فقال : بلى ، فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفاً ، وغراييل ، ومزامير .

قلت : ما هذا ؟

قيل : تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبي . فقال : ما فعلت ؟

فقلت : ما فعلت شيئاً . ثم أخبرته بالذى رأيت .

ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر بمكة ، ففعل فدخلت ، فلما جئت مكة سمعت مثل الذى سمعت تلك الليلة فجلست أنظر ، وضرب الله على أذنى فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت .

فقلت : لا شئ ، ثم أخبرته بالذى رأيت .

فوالله ما هممت ، ولا عدت بعدهما لشئ من ذلك حتى أكرمنى الله بنبوته ^(١) .

وعن أم أيمن رضى الله عنها قالت : " كان بوانة صنماً تحضره قريش يوماً فى السنة ، فكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك معه ، فيأبى حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه ، وقلن : يا محمد ما تريد أن تحضر لقومك عيداً ، ولا تكثر لهم جمعاً ، فلم يزلوا به حتى ذهب ، فغاب ما شاء الله ، ثم رجع مرعوباً ، فزعاً .

فقال عماته : ما دهاك ؟

قال : إني أخشى أن يكون بى لمم .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٥١ .

فقلن : ما كان الله يبتليكم بالشيطان ، وفيك من خصال الخير ما فيك ،
فما الذى رأيت ؟

قال : إني كلما قربت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض ، طويل ،
يصيح بى : وراءك يا محمد لا تمسه .
قالت : فما عاد إلى عيد لهم ^(١) .

وعن على عليه السلام قال : " قيل للنبي ﷺ : هل عبت وشناقط ؟
قال : لا .

قالوا : فهل شربت خمراً قط ؟

قال : لا ، ومازلت أعرف أن الذى هم عليه كفر ، وما كنت أدري ما الكتاب
ولا الإيمان ... ^(٢) .

يقول ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ . فيما ذكر لى . يحدث عما كان
يحفظه الله به فى صغره ، وأمر جاهليته أنه قال : " لقد رأيتنى فى غلمان قریش
ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى ، وأخذ إزاره فجعله على
رقبته ، يحمل عليه الحجارة ، فإنى لأقبل معهم كذلك ، وأدبر ، إذ لکمنى لاکم لکمة
وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك .

فأخذته ، وشدته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى على
من بين أصحابى " .

يقول السهيلي : ورد مثل هذا الحديث الصحيح فى بنیان الکعبة ، وفيه أن
رسول الله ﷺ كان ينقل الحجارة مع قومه ، وكانوا يحملون أزرهم على عواتقهم
لنقيهم قسوة الحجارة ، وكان رسول الله ﷺ يحملها على عاتقه ، وإزاره مشدود عليه ،
فقال له العباس عليه السلام : " يا ابن أخى لو جعلت إزارك على عتقك ، ففعل فسقط

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) دلائل النبوة لأبى نعيم ص ١٤٦ .

مغشياً عليه ، ثم قال : إزارى ، إزارى ... فشد عليه إزاره ، وقام يحمل الحجارة
 "(١) ، ولا مانع من تكرار هذه التوجيه القدرى لىبقى محمد ﷺ فى طهارته ، وسموه .
 يروى ابن سعد أن رسول الله ﷺ كان يتحاكم إليه فى الجاهلية قبل
 الإسلام لما عرف عنه من العقل ، والحكمة ، فلما بعث ﷺ ناداهم ، وسألهم عن
 خلقه ، وصدقه ، فأقروا له بما علموا منه .
 يروى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : " لما نزلت
 ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) ، وخرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا
 فهتف : يا صباحاه .

فقالوا : من هذا ؟ فاجتمعوا إليه .
 فقال : رأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقى؟
 قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً قط .
 قال : إننى نذير لكم بين يدي عذاب شديد .
 قال أبو لهب : تباً لك ، ما جمعتنا إلا لهذا ؟ "(٣) .

ولقد اشتهر رسول الله ﷺ قبل مبعثه بالأخلاق الكريمة ، وتمتع بالصفات
 المفاضلة ، وجاء قول الله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤) لتصف
 أخلاقه بالعظمة التى اتصف بها بصورة شاملة قبل المبعث ، حتى سماه قومه
 بالأمين ، ووصفته السيدة خديجة بما كان فيه يوم أن جاءها مرتعشاً خائفاً ،

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ١٨٣ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٢١٤ .

(٣) صحيح البخارى بشرح البارى - كتاب التفسير . باب تبت يدا ج ٨ ص ١٣٧ .

(٤) سورة القلم ، الآية ٤ .

قالت له : والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين علي نوائب الحق^(١) .
وصدقت السيدة خديجة رضى الله عنها في شهادتها ، ونطقت بالحق ، وكانت تعبيراً ناطقاً عن المستقبل ، إذ أكرم الله محمداً ﷺ وأختاره رسولاً للعالم كله .

٢. جمال الخلقة :

أضفى الله تعالى بفضلته ، وكرمه علي رسوله محمد ﷺ الحسن والجمال الذي تميز به قبل النبوة ... وحين نورد شيئاً من جمال خلخته ﷺ فليس أمامنا إلا مصادر السيرة النبوية ، والحديث الشريف ننقل عنها .
يروى البخارى بسنده عن أبي هريرة أنه قال : " كان النبي ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وقال أنس رضي الله عنه : لم أر بعده ولا قبله مثله " (٢) .
ولما سئل البراء رضي الله عنه : أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف ؟
قال : لا ، بل مثل القمر ، وكان مستديراً ، وورد أنه ﷺ كان مليح الوجه (٣) .
كان ﷺ عظيم الفم ، طويل شق العين (٤) .
أما شعره فليس بالجعد القلط ، ولا بالسبط ، بل كان رجلاً (٥) .
كان له جمّة عظيمة تصل إلي شحمة أذنيه وأحياناً تضرب منكبيه وأحياناً ثالثة تكون بين أذنيه وعاتقه ، كما كان ﷺ كثير شعر اللحية (١) .

(١) صحيح البخارى - كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٦ ، السيرة النبوية ج ١ ص ١٨٨ .
(٢) صحيح البخارى - كتاب اللباس . باب الجعد ج ٧ ص ٥٨ ، وصحيح مسلم - كتاب الفضائل . باب في صفة النبي ﷺ وأنه كان أحسن الناس وجهاً ج ٤ ص ٨١٩ .
(٣) صحيح البخارى - كتاب الفضائل . باب كان النبي ﷺ أبيض مليح الوجه ج ٦ ص ٢٨ .
(٤) صحيح البخارى - كتاب الفضائل . باب صفة فم النبي ﷺ وعينه وعقبه ج ٦ ص ٢٨ .
(٥) صحيح البخارى - كتاب اللباس . باب الجعد ج ٩ ص ١٩١ ، والمسلم ج ١ ص ٩٢ - كتاب الفضائل . باب في صفة النبي ﷺ ومبعثه وسنه ، ومعني (رجل) أى لم يكن شديد الجعودة ، ولا البسوط ، بل بينهما (النهاية ج ٢ ص ٢٠٣) .

وإذا كان البياض في شعره قد شمل العنقفة ، والصدغين ، وفي الرأس
 نبذ ، فلم يكن ذلك البياض كله يبلغ عشرين شعرة ^(٢) .
 أما الحمرة في بعض شعره فكانت من آثار الطيب ^(٣) .
 وكان ﷺ أبيض اللون ، ولكنه لم يكن بالأبيض الأمهق ، ولا بالآدم ،
 وإنما كان أزهر اللون ^(٤) .
 ولم يكن ﷺ بالطويل البائن ، ولا بالقصير ، بل كان مربوعاً ، وكان
 مقصداً ^(٥) .
 وكان ﷺ بعيد ما بين المنكبين ، وكان ضخم اليدين والقدمين ، وبسط
 الكفين ، وكان لين الكف ، حتي قال أنس : ما مسست خزة ولا حريرة ألين
 من كف رسول الله ﷺ ^(٦) .
 وكان منهوس العقبين ^(٧) .
 يروى الترمذى بسنده عن الحسن بن علي ؓ أنه قال : سألت خالى هند
 ابن أبي هالة ، وكان وصافاً ، عن حلية رسول الله ﷺ .

(١) صحيح البخارى - كتاب اللباس . باب الجعد ج ٩ ص ١٩١ رواية البراء ، وابن عمر
 وأنس ؓ وصحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٢ - كتاب الفضائل .
 (٢) صحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٥ ، ٩٦ . باب شبيهه ﷺ ، صحيح البخارى - كتاب المناقب .
 باب صفة النبي ﷺ ج ٦ ص ٢٦ ط . الأوقاف ، العنقفة : هى ما تحت الشفة السفلى .
 (٣) صحيح البخارى ج ٦ ص ٢٧ ط . الأوقاف .
 (٤) صحيح البخارى - كتاب اللباس . باب الجعد ج ٩ ص ١٩٠ .
 (٥) المرجع السابق ص ١٩٠ ، ١٩١ ، قال فى النهاية : كان أبيض مقصداً ، وهو الذى
 ليس بطويل ، ولا قصير ، ولا جسيم ، كأن خلقه نحى به القصد من الأمور والمعتدل
 الذى لا يميل إلى أحد طرفى التفريط والإفراط (النهاية فى غريب الحديث
 والأثر ج ٤ ص ٦٧) .
 (٦) صحيح البخارى ج ٩ ص ١٩٢ .
 (٧) مسلم ج ٤ ص ١٨٢٠ ، وقد فسر أحد رواة الحديث (منهوس العقبين) فقال : قليل لحم
 العقب .

فقال : كان رسول الله ﷺ فخمًا مفخمًا^(١) يتلألأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر . أطول من المربع . وأقصر من المشذب^(٢) ، عظيم الهامة^(٣) ، رجل الشعر^(٤) ، إذا انفرت عقيقة فرقا وإلا فلا^(٥) ، يجاوز شعره شحمة أذنية إذا هو هو وفره^(٦) ، أزهر اللون^(٧) وساع الجبين^(٨) ، أزج الحواجب^(٩) ، سوابغ في غير قرن^(١٠) ، بينهما عرق يدره الغضب^(١١) .

-
- (١) أى عظيمًا فى نفسه ، معظمًا فى الصدور والعيون عند كل من رآه ﷺ .
 (٢) السريعة والمربع : هو الوسط ، بين القصير والطويل على حد سواء ، والمشذب : هو الطويل البائن الطول ، والمراد : أنه ﷺ أطول من المربع عند إمعان النظر ، وأما فى بادىء النظر يرى ربعة .
 (٣) الهامة : بتخفيف الميم هى الرأس ، وعظم الرأس المتناسب مع الجسم : دليل قوة العقل والمدرک .
 (٤) أى فى شعره ﷺ شىء من الجعودة .
 (٥) المراد بالعقيقة هنا : شعر الرأس ، والمعنى : أن شعر الرأس الشريف ﷺ إن قبل أن يفرق بسهولة فرقة ، أى : جعل شعره نصفًا عن اليمين ، ونصفًا عن اليسار ، وإلا بأن لم يتفرق : فلا : أى : فلا يفرق شعره بل يتركه على حاله .
 (٦) أى : إذا جعل شعره وافرًا إذا أعفاه من الفرق ﷺ .
 (٧) أى : هو ﷺ أبيض اللون بياضًا نيرًا مشربًا بحمرة . أى : واضح الجبين وممتده طولاً وعرضاً ، وهو معنى رواية : صلت الجبين ، وعظيم الجبهة .
 (٨) أى : واضح الجبين وممتده طولاً وعرضاً ، وهو معنى رواية : صلت الجبين ، وعظيم الجبهة ، الزجاج : تقوس فى الحاجب مع طول من طرفه ، ويلزم من ذلك دقة الحاجبين وسبوغهما .
 (٩) الزجاج : تقوس فى الحاجب مع طول من طرفه ، ويلزم من ذلك دقة الحاجبين وسبوغهما ، القرن - بالتحريك - هو : اقترن الحاجبين ، والتقاء أطرافهما ، وهو من البلج ، والمعنى : أن حاجبيه ﷺ لم يتصلا ببعضهما ، فهو أبلج ، وأما ما ورد فى =حديث أم معبد " كان أزج أقرن " فالمراد كان كذلك فيما يبدو للناظر من بعيد ومن غير تأمل ، وأما القريب المتأمل ، فيرى أنه ﷺ أبلج فى الواقع .
 (١٠) القرن - بالتحريك - هو : اقترن الحاجبين ، والتقاء أطرافهما ، وهو من البلج ، والمعنى : أن حاجبيه ﷺ لم يتصلا ببعضهما ، فهو أبلج ، وأما ما ورد فى حديث أم معبد " كان أزج أقرن " فالمراد كان كذلك فيما يبدو للناظر من بعيد ومن غير تأمل ، وأما القريب المتأمل ، فيرى أنه ﷺ أبلج فى الواقع . أى : بين حاجبيه ﷺ عرق إذا غضب تحرك وظهر جلياً .
 (١١) أى : بين حاجبيه ﷺ عرق إذا غضب تحرك وظهر جلياً .

أقنى العرنين^(١) ، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم^(٢) .
 كث اللحية^(٣) ، سهل الخدين^(٤) ، ضليع الفم^(٥) ، مفلج الأسنان^(٦) ، دقيق
 المسرية^(٧) .

كأن عنق جيده دمية فى صفاء الفضة^(٨) .
 معتدل الخلق^(٩) ، بادن ، متماسك^(١٠) ، سواء البطن والصدر^(١١) .
 عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس^(١٢) .
 أنور المتحرد^(١) ، موصول ما بين اللبة والسرة ، بشعر يجري كالخط^(٢) ، عارى
 الثديين والبطن مما سوى ذلك^(٣) ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر^(٤)
 طويل الزندين ، رحب الراحة^(٥) ، شئن الكفين والقدمين^(٦) ، سائل

(١) قال العلامة المناوى فى شرح الشمائل : أقنى : من القنا ، وهو ارتفاع أعلى الأنف
 واحدداب الوسط .
 (٢) العرنين - وهو ما صلب من عظم الأنف - نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشم من
 الشمم ، وهو ارتفاع قصبه الأنف ، مع استواء أعلاه وإشراف الأرنبة .
 (٣) أى : عظيم اللحية ﷺ .
 (٤) أى غير مرتفع الخدين ، وهو أكمل وأجمل .
 (٥) أى : عظيم الفم ، وليس بضيق الفم ، فإن سعة الفم تعطى فصاحة فى الكلام ، وبياناً
 لمخارج الألفاظ ، ولا شك أن جميع ذلك على تناسب كامل بين أعضاء جسمه
 الشريف كلها ﷺ .
 (٦) يعنى : أن أسنانه الشريفة ﷺ منتظمة ومنفرجة ، وليست متراسة ومتضايقة فوق بعضها .

(٧) المسربة : هى الشعر بين الصدر والسرة ، والمعنى : ان تلك المسربة دقيقة .
 (٨) الجيد : هو العنق ، والمراد : كأن عنقه ﷺ فى استوائه واعتداله وحسن هيئته وجماله
 كأنه عنق صورة ، ولكن من حيث اللون هو فى صفاء الفضة وبياضها البهيج الامع .
 (٩) يعنى : أن جميع أعضاء جسمه الشريفة ﷺ خلقها الله تعالى كاملة متناسبة مع بعضها
 غير متنافرة .
 (١٠) المعنى : أنه ﷺ ممتلىء الجسم ، ليس بالन्हيل ولا بالهزيل ، وأن أعضاءه الشريفة
 متماسكة بقواها ، وليست متراخية .

(١١) والمعنى أن بطنه وصدره الشريفين مستويان ، لا ينتأ أحدهم عن الآخر .
 (١٢) الكراديس جمع كردوس ، وهو رأس العظام ومجمعها ، كالركبة والمنكب ونحوهما ،
 والمعنى : أنه ﷺ كان عظيم رؤوس العظام ومجامعها وقويها ، ويدل ذلك على كمال
 قواه ﷺ .

الأطراف أو قال : شائل الأطراف ^(٧) .

خمصان الأخمصين ^(٨) ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء ^(٩) ، إذا زال زال قلعا ^(١٠) يخطو تكفياً ^(١١) ويمشى هوناً ^(١٢) .
ذريع المشية ^(١٣) ، إذا مشى كأنما ينحط من صبيب ^(١٤) ، وإذا التفت التفت جميعاً ^(١٥) .

- (١) يعنى أنه ﷺ أنور العضو لا متجرد عن الثوب وشديد بياضه .
(٢) اللبة : هى النقرة فوق الصدر ، والسرة ما بقى بعد القطع ، وأما الذى يقطع عند الولادة فهو السرة .
(٣) أى : خالى الثديين والبطن من الشعر .
(٤) أى : كثير شعر هذه المواضع الثلاثة .
(٥) أى : واسع الكف .
(٦) أى : ضخم الكفين والقدمين ، كما جاء فى رواية ، والمعنى : أنه ﷺ ممتلىء الكفين والقدمين ، وليس بالضيق النحيل .
(٧) الشك من الراوى ، والمعنى : أنه ﷺ كان مرتفع الأطراف بلا احداث ولا انقباض .
(٨) تنبيه أخمص ، وأخمص القدم هو الموضع الذى لا يمس الأرض عند وطنها من وسط القدم ، ومعنى خمصان الأخمصين : أنه ﷺ شديد تجافى الأخمصين عن الأرض ، لكن على وجه لا يخرج عن حد الاعتدال والجمال .
(٩) أى : أملىس القدمين ومستويهما بلا تكسر ، ولذلك ينبو عنهما الماء ، أى يتباعد عنهما الماء ، يعنى أنه ﷺ إذا صب عليهما الماء مر سريعاً ، لأنهما مستويان .
(١٠) يعنى : أنه ﷺ إذا مشى رفع رجليه بقوة ، كأنه يقلع شيئاً ، ولا يجرحهما على الأرض ، لا يمشى مشية المختال الذى يقارب خطاه تاختراً .
(١١) يمشى مائلاً إلى سنن المشى ، وهو ما بين يديه .
(١٢) الهون : الرفق واللين ، والمعنى : أنه ﷺ كان إذا مشى يرفع رجليه عن الأرض بقوة ، كما دل عليه قول ابن أبى هالة : إذا زال زال قلعا ، وإذا وضعهما على الأرض وضعهما برفق وتؤدة ، وهذا معنى : يمشى هوناً ، فهو يشير إلى كيفية وضع رجليه على الأرض ، وأنه ﷺ يمشى بسكينة ووقار ، وحلم وأناة ، دون أن يضرب برجله على الأرض ، أو أن يخفق بنعله ، وقد أثنى الله تعالى على الذين يمشون هذه == المشية ، ويسلكون هذه الخطة ، فيقال ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ .

- (١٣) أى : واسع الخطوة خلقه بلا تكلف .
(١٤) أى : كأنما ينزل فى موضع منحدر .
(١٥) أى : لا يسارق النظر ، ولا يلوى عنقه يمناً ولا يسرة ، كما يفعل ذلك الطائش الخفيف .

خافض الطرف^(١) ، نظره إلي الأرض أطول من نظره إلي السماء^(٢) ، جل
جل نظره الملاحظة^(٣) .

يسوق أصحابه^(٤) ، ويبدد من لقي بالسلام^(٥) .

٣ - عظمة الخلق :

كما أتصف ﷺ بجمال الخلقة أتصف ﷺ بعظمة الخلق .

يصفه أنس بن مالك ﷺ فيقول : خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال
لي : أف قط !! ولا لم صنعت كذا ؟ ، ولا ألا صنعت كذا^(٦) ؟

وهذه الخدمة والملازمة من أنس للنبي ﷺ لم تكن في الحضر وحده ، أو في
السفر وحده ، وإنما كانت . كما يقول أنس . في الحضر والسفر^(٧) .

ولم يكن هذا الخلق الحسن قصراً على خدمه ، وإنما كان هذا ديدنه ﷺ مع
كل من كان يأتي إليه ، ويتعامل معه ، فكان مثلاً للصبر ، والحلم ، والرفق ،
وتعليم الجاهل ، وهذه نماذج من خلقه ﷺ :

(١) المراد بالطرف هنا : العين ، والمعنى : أنه ﷺ إذا لم ينظر إلي شيء ، يخفض بصره ،
وهذا شأن المتأمل المفكر .

(٢) والمعنى : أن نظرة ﷺ إلي الأرض حال السكوت وعدم التحدث ، أطول من نظره إلي
السماء .

(٣) قال العلامة المناوي في شرحه : والمراد أن أكثر نظره ﷺ في غير أوان الخطاب
الملاحظة ، والملاحظة : هي النظر بلحاظ العين ، وهو شق العين مما يلي الصدع أما
الذي يلي الأنف فالموق ، والماق .

(٤) والمعنى : أنه ﷺ يقدم أصحابه بين يديه ، ويمشي خلفهم ، ليرعاهم ، ويختبر حالهم ،
ويعين ضعفائهم ، وليترك ظهره للملائكة خلفه ، كما روى الدارمي بإسناد صحيح
أنه ﷺ قال : (خلو ظهري للملائكة) وأخرج الإمام أحمد عن جابر ﷺ قال : كان أصحاب
النبي ﷺ يمشون أمامه ويدعون ظهره للملائكة .

قال الأمام النووي : وإنما تقدمهم - أي تقدم أصحابه في قصه جابر يوم الخندق - لأنه ﷺ
دعاهم إليه ، فجاءوا تبعاً له ، كصاحب الطعام إذا دعا طائفة يمشي أمامهم .

(٥) وفي رواية : ويبدأ ، والمعنى أنه ﷺ يبادره ويسبق من لقيه من أمته بتسليم التحية .

(٦) صحيح مسلم - كتاب الفضائل . باب حسن الخلق والسخاء ج ١٥ ص ٦٩ .

(٧) صحيح مسلم . كتاب الفضائل . باب حسن خلقه ﷺ ج ١٥ ص ٧٠ .

- . عن أنس قال : كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد. نجراني ، غليظ الحاشية فأدركه أعرابي ، فجذبه بردائه جذبة شديدة .
- قال أنس : فنظرت إلى صفحه عاتق النبي ﷺ ، قد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته .
- ثم قال الأعرابي : يا محمد ، مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء !! (١) .
- . وجاء أعرابي ، ورسول الله ﷺ وأصحابه في المسجد ، فقام يبول في المسجد ، فزجره الصحابة (مه مه) فنهاهم عن ذلك ، وقال : " لا تزرموه دعوه " فتركوه حتى بال .
- ثم دعاه النبي ﷺ فقال له : إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ، ولا القذر ، إنما هي لذكر الله ﷻ ، والصلاة ، وقراءة القرآن ، ثم دعا بدلو من ماء فشبهه عليه (٢) .
- وجاء في آخر إحدى روايات البخاري : " ... فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين " (٣) .

(١) صحيح البخاري . كتاب فرض الخمس . باب ما كان النبي ﷺ يعطى المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ج ٥ ص ٢٣٤ .

(٢) صحيح البخاري . كتاب الطهارة . باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد ج ٣ ص ١٩٠ ، ومه : اسم فعل بمعنى إنته ، لا تزرموه : أى لا تقطعوه ، وشبهه أى صبه .

(٣) صحيح البخاري - كتاب الوضوء . باب صب الماء على البول في المسجد ج ١ ص ١٦٤ .

. وعن أنس رضي الله عنه قال : " كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً ، أرسلني يوماً لحاجة ، فقلت : والله لا أذهب ، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ .

فخرجت من طريق حتى أمرّ على صبيان ، وهم يلعبون في السوق .
فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي ، فنظرت إليه ، وهو يضحك .
فقل : يا أنيس ! أذهبت حيث أمرتك ؟
قلت : نعم أنا أذهب يا رسول الله " (١) .

وهذا الصبر والرفق يزينه التواضع في خلقه ، والمزاح . أحياناً . مع أصحابه ، فالأمة من إماء المدينة كانت تأخذ بيد النبي ﷺ ، فتتطلق به حيث شاءت (٢) ، والقاصد إليه في بيته لا يجد على بابه بوابين (٣) .

أما مزاحه ﷺ ، فكان تسرية لأصحابه عند همومهم أحياناً ، ومداعبة لأطفالهم أحياناً أخرى ، إلى غير ذلك من مقاصده الحميدة في المزاح ، ونذكر مثلاً على ذلك موقفه مع علي رضي الله عنه حينما غاضب زوجته فاطمة رضي الله عنها فخرج علي رضي الله عنه فاضطجع إلى جدار المسجد ، فتبعه النبي ﷺ ، فإذا هو مضطجع وقد امتلأ ظهره تراباً ، فجعل النبي ﷺ يمسح التراب عن ظهره ، ويقول : " اجلس يا أبا تراب " (٤) .

(١) صحيح مسلم - كتاب الفضائل . باب حسن خلقه ﷺ ج ١ ص ٧٠ ، ٧١ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الأدب . باب الكبر ج ٩ ص ٢٤٣ .

(٣) صحيح البخاري - كتاب الأحكام . باب ما ذكر أن النبي ﷺ لم يكن له بواب .

(٤) صحيح البخاري - كتاب الأدب . باب التكني بأبي تراب ، وإن كانت له كنية أخرى ج ١٠ ص ٣٨ .

ويقول أنس رضي الله عنه : إن كان النبي ﷺ ليخاطبنا حتى يقول لأخ صغير لي إذا رآه : " يا أبا عمير : ما فعل النغير ؟! " ^(١) .

ولم يلى جانب صفاته فى الرفق ، وللمتواضع ، وللمزاح ، فهو موصوف بالشجاعة فى السلم ، والحرب ، وشجاعته ﷺ فى الحرب معروفة ، أما فى السلم فنذكر منها قصة الفرع الذى أصاب أهل المدينة ذات ليلة ، فخرجوا نحو الصوت فإذا رسول الله ﷺ قد سبقهم إليه ، وتلقاهم راجعاً ، وهو على فرس لأبى طلحة عرى ، وفى عنقه السيف ، وهو يهدئ ثائرتهم ويقول : " لم ترعوا ، لم ترعوا ما رأينا من شئ " ^(٢) .

وكان من خلقه ﷺ حسن التعامل ، وحسن القضاء ، فقد استقرض من رجل سناً من الإبل ، فجاءه يتقاضاه . فقال لأصحابه : أعطوه . فطلبوا سنه ، فلم يجدوا له إلا سناً فوقها . فقال ﷺ : أعطوه .

حتى قال الرجل : أوفيتنى أوفى الله بك . ثم قال ﷺ : " إن خياركم أحسنكم قضاء " ^(٣) . وفى رواية : أن ذلك الرجل أغلظ للنبي ﷺ القول ، فهم به أصحابه فقال لهم ﷺ : " إن لصاحب الحق مقالاً ، اشتروا له سناً ، فأعطوه إياه . فقالوا : إنا لا نجد إلا سناً هو خير من سنه . قال ﷺ : اشتروه وأعطوه إياه ، فإن خيركم أحسنكم قضاء " ^(٤) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب الانبساط إلى الناس ، وباب الكنية للصبي ، وقبل أن يولد للرجل ج ١٠ ص ٩ ، والنغير : تصغير نغر ، وهو صغير كالصغير .
(٢) صحيح البخارى . كتاب الجهاد والسير . باب الحماثل وتعليق السيف بالعنق ج ٥ ص ٩٩ .
(٣) صحيح البخارى . كتاب الوكالة . باب وكالة الشاهد والغائب جائزة ج ٤ ص ١٤٠ .
(٤) صحيح البخارى . كتاب الاستفراض . باب لصاحب الحق مقال ج ٤ ص ٢٠٠ .

ومن صفاته : الجود ، والكرم ، فهو أجود الناس ^(١) ، وما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط ، فقال لا ^(٢) ، ولهذا غضب الصحابة رضوان الله عليهم من ذلك الرجل الذى طلب من النبي ﷺ أن يكسوه البردة التى أهدتها إليه امرأة ، وكانت قد نسجتها بيدها ، وكان ﷺ محتاجاً إليها ، ومع ذلك طواها ، وأرسل بها إليه .

فقال له الصحابة : ما أحسنت ، سألته إياه ، وقد علمت أنه لا يرد سائلاً ^(٣) ؟

وهذا الجود ، والكرم منه ﷺ كان سبباً فى دخول أقوام فى دين الله ، ومن ذلك قصته مع الرجل الذى جاءه يسأله ، فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم ، أسلموا ، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ^(٤) .

ولهذا قال أنس : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا ، وما عليها ^(٥) !!

بل لقد كان هذا الجود منه ﷺ مثار عجب ، وسبب مودة ، حتى لأعدائه .

يقول صفوان بن أمية بعد أن أعطاه النبي ﷺ مائة من النعم ، ثم مائة من غنائم حنين : والله لقد أعطانى رسول الله ﷺ ما أعطانى ، وإنه لأبغض الناس إلى ، فما برح يعطينى ، حتى أنه لأحب الناس إلى ^(٦) !!

ولفرط جوده ﷺ ، ومعرفة الناس به علقت الأعراب ، حين منصرفه من حنين ، يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه ، فوقف وقال : أعطونى ردائى ، فلو كان عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ، ولا كذوباً ، ولا جباناً ^(٧) .

(١) صحيح البخارى - كتاب الوحى . باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ج ١ ص ١١ .

(٢) صحيح البخارى ج ٤ ص ٣٩ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب البيوع . باب ذكر النساء ج ٤ ص ٢٩ .

(٤) صحيح مسلم - كتاب الفضائل . باب سخائه ﷺ ج ١٥ ص ٧٢ .

(٥) صحيح مسلم - كتاب الفضائل ج ١٥ ص ٧٢ .

(٦) صحيح مسلم - كتاب الفضائل . باب سخائه ﷺ ج ١٥ ص ٧٣ .

(٧) صحيح البخارى - كتاب الجهاد . باب ما كان يعطى المؤلف ج ٥ ص ٢٣٤ .

وقال عمر رضي الله عنه : قسم رسول الله ﷺ قسماً ، فقلت : والله يا رسول الله لغير هؤلاء كان أحق به منه .

قال ﷺ : إنهم خيروني أن يسألوني بالفحش ، أو يبخلوني ، فلست بباخل^(١) . ولم يقتصر ذلك الجود على المؤلفلة قلوبهم ، ومن يطمع في إسلامهم ، بل شمل جوده ، وكرمه صحابته المؤمنين ، فعبد الله بن عمر رضي الله عنه كان مع النبي ﷺ في سفر ، وكان على بكر صعب لأبيه (عمر) ، وكان هذا البكر يغلب عبد الله فيتقدم أمام القوم ، فيزجره عمر ، ويرده ، ثم يتقدم فيزجره عمر ، ويرده . فقال النبي ﷺ لعمر : بعنيه .

فقال عمر : هو لك يا رسول الله (أى هبة) .

قال رسول الله ﷺ : بعنيه ، فباعه لرسول الله ﷺ .

فقال ﷺ : هو لك يا عبد الله بن عمر ، تصنع به ما شئت^(٢) !! وجابر بن عبد الله رضي الله عنه يكون مع النبي ﷺ في غزاة ، ومعه جمل ثقال قد أعيا به ، وخلفه في أخريات القوم ، حتى زجره النبي ﷺ ، فأسرع به ، فطلب منه بيعه عليه فقال جابر : هو لك يا رسول الله .

قال ﷺ : بعنيه فاشتراه منه ، وقال : لك ظهرك إلى المدينة .

فلما قدم المدينة أوصى بلالاً أن يقضيه ، ويزيد له عن ثمنه ، ثم رد عليه جملة والثلث^(٣) !!

وفوق ما تقدم من كريم خلقه ﷺ ، فلم يكن بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ، ويصفح^(٤) .

(١) صحيح مسلم - كتاب الزكاة . باب إعطاء المؤلفلة ج ٧ ص ١٤٦ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب البيوع . باب إذا اشترى شيئاً فوهب من ساعته قبل أن يتفرقا ج ٤ ص ٤١ ، ٤٢ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب البيوع . باب شراء الدواب والحمير ج ٤ ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب البيوع . باب كراهة السخب في السوق ج ٤ ص ٤٦ .

(٣٦٢)

ولم يكن ﷺ سباباً ، ولا فحاشاً ، ولا لعاناً^(١) ، وهو القائل لعائشة رضي الله عنها : يا عائشة ، متى عهدتيني فحاشاً^(٢) ؟!

وهو الموصوف بالتوراة ببعض صفته في القرآن ، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً ، وحزراً للأُميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ^(٣) ...

وكان. المصدق. فى الحديث خلقاً من أخلاقه ﷺ ، عرفه بذلك العدو . والصديق .

فأمية بن خلف حينما قال له سعد بن معاذ : سمعت محمداً يزعم أنه قاتلك .

قال : إياى ؟

قال : نعم .

قال : والله ما يكذب محمد إذا حدث .

وكذا زوجة أمية لما أعلمها بالخبر قالت : فو الله ما يكذب محمد^(٤) !!

وأبو سفيان لما سأله هرقل : هل كنتم تتمهونه بالكذب قبل أن يقول ما

قال؟ أجابه قائلاً : لا .

وعندها ردّ هرقل ، لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله^(٥) .

ومشركو قريش كانوا يعرفون هذا الخلق للنبي ﷺ فحينما صعد الصفا ،

واجتمع إليه الملاء من بطون قريش قال لهم : رأيتمكم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي

تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟

(١) صحيح البخارى - كتاب الأدب . باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ، ولا متفحشاً ج ٩ ص ٢٢٨ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب الأدب . باب لم يكن فاحشاً ج ٩ ص ٢٨٨ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب البيوع . باب السخب فى السوق ج ٤ ص ٤٦ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب علامات النبوة فى الإسلام ج ٦ ص ٦٦ .

(٥) صحيح البخارى - كتاب الوحي ج ١ ص ١١ .

(٣٦٣)

قالوا : ما جربنا عليك إلا صدقاً^(١) .

وفى رواية قالوا : ما جربنا عليك كذباً^(٢) .

ولم يكن من خلقه ﷺ الغدر ، والخيانة ، بل كان من خلقه الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وهذه أيضاً اعترف بها أبو سفيان للنبي ﷺ أمام هرقل^(٣) .

والتزام النبي ﷺ بهذا الخلق جعله يرد أبا بصير ، وأبا جندل عام الحديبية . مع كرهه والمسلمين لذلك . لأنه عاهد قريشاً على رد من يأتى إليه منهم^(٤) .

٤. حلاوة المنطق :

تميز ﷺ بحسن اللفظ ، وجمال المنطق ، وحلاوة الحديث .

يقول أبو هالة كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان^(٥) ، دائم الفكرة ، ليست له راحة^(٦) طويل السكوت ، لا يتكلم فى غير حاجة^(٧) ، يفتح الكلام ، ويختتمه باسم الله تعالى^(٨) ، ويتكلم بجوامع الكلم^(٩) ، كلامه فصل . لا فضول . ولا

(١) صحيح البخارى - كتاب التفسير . باب ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة

الشعراء آية ٢١٤] ج ٧ ص ٣٦٠ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب التفسير . باب ثبت يدا ج ٨ ص ٩٣ .

(٣) صحيح البخارى . باب بدء الوحي ج ١ ص ١١ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب الصلح . باب الصلح مع المشركين ج ٤ ص ٤٠١ .

(٥) لم يكن حزنه ﷺ من أجل أمور الدنيا ، وإنما كانت تتوارد الأحزان لأسباب متعددة ، ترجع إلى دين الله تعالى ، والشفقة على خلق الله تعالى ، ولدا كانت الآيات تنزل فى تسليته ﷺ ، وتخفيف شدة الأسى عنه .

(٦) والمعنى : أنه ﷺ كان دائم التفكير فى أمور الأمة ، وما يصلح شؤونهم ، وما يسعدهم يسعدهم فى الدنيا والآخرة ، ومن ثم ليست له راحة .

(٧) يعنى : أنه ﷺ كان طويل الصمت ، لا يتكلم إلا فى حاجة دينية ، أو دنيوية ، فيتحرز

فيتحرز عن الكلام الذى لا فائدة منه ، لقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾

[سورة المؤمنون آية ٣] .

(٨) والمعنى : أن كلامه ﷺ كان محفوفاً بذكر الله تعالى بدءاً وانتهاءً .

(٩) أى : بكلمات قليلة الحروف ، جامعة لمعان كثيرة .

تقصير^(١)، ليس بالجافى، ولا المهين^(٢)، يعظم النعمة، وإن دقت، لا يذم منها منها شيئاً، غير أنه لم يكن يذم ذواقاً، ولا يمدحه^(٣)، ولا تغضبه الدنيا، ولا ما كان لها، فإذا تعدى الحق^(٤)، لم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفة كلها، وإذا تعجب قلبها^(٥)، وإذا تحدث تحدث اتصل بها، وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى^(٦). وإذا غضب أعرض، وأشاح، وإذا فرح غض طرفه^(٧)، جل ضحكه التبسم يفتر عن مثل حب الغمام^(٨).

-
- (١) يعنى: أن كلامه ﷺ فاصل بين الحق والباطل، ومفصل لا يتداخل فى بعضه، بحيث يتلقاه السامع بوضوح دون التباس، لا يكثر فيمل، ولا يقصر فيخل.
- (٢) أى: ليس هو ﷺ بالجافى الغليظ الطبع، السئ الخلق، ولا بالمهين لخلق الله تعالى، ولا بالمهين أى: المبتذل الذليل، بل هو الفخم، المفخم، الموقر، المعظم ﷺ.
- (٣) فهو ﷺ يعظم نعم الله تعالى الكبيرة الصغيرة، الظاهرة والباطنة، ولا يذم منها شيئاً، كما وأنه ﷺ لا يذم ذواقاً - أى مذوقاً - من المأكولات، أو المشروبات التى أباحها الله تعالى، لأن فى الذم كفران النعمة، وهو شأن المترفين المتكبرين، كما وأنه ﷺ لا يمدح ذواقاً، لأن ذلك شأن ذوى الشره، والنهمة المذمومة.
- (٤) أى: فإذا تعدى أحد الحق، وجاوزه إلى الباطل، غضب ﷺ غضباً لا يقاومه شئ، ولا يدفع غضبه شئ حتى ينتصر للحق بالحق.
- (٥) والمعنى: أنه ﷺ كان إذا أشار إلى شئ: إنسان، أو غيره، أشار بكفة كلها، ولا يقتصر (٥) يقتصر على الإشارة ببعض الأصابع، لأنه شأن المتكبرين، والمحتقرين لغيرهم، وإذا تعجب ﷺ من أمر، قلب كفه، كما هو شأن كل متعجب.
- (٦) يعنى: أنه ﷺ إذا تحدث اتصل حديثه بكفة اليمنى، وذلك لتأكيد الكلام، وتقويته فى النفوس، وزيادة إيضاحه بإشارات الكف، وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى، اعتناءً بذلك الحديث، ودفعاً لما يعرض لنفس السامع من الفتور، أو الغفلة عن الحديث.
- (٧) أى: إذا غضب من أحد أعرض عنه، فلا يقابله بما يقتضيه الغضب، امتثالاً لقوله تعالى ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية ١٩٩]، وأشاح: أى بالغ فى الإعراض، وعدل عنه بوجهه ﷺ، وإذا فرح ﷺ من شئ، غض طرفه، ولا ينظر إليه نظر شره، وحرص.
- (٨) أى: معظم ضحكه ﷺ إنما هو التبسم، ويفتر: أى يضحك ضحكا حسناً كاشفاً عن سن مثل حب الغمام فى البياض والصفاء، وحب الغمام هو البرد - بفتحتين - الذى يشبه اللؤلؤ فكان ﷺ إذا تبسم بدت أسنانه الشريفة كاللؤلؤ اللامع.

٥. كمال العقل :

لما بلغ النبي ﷺ سن الأربعين تميز بكمال العقل ، وحسن تقدير الأمور ، واتخاذ القرار السديد ، ولعل فيما حباه الله به من عمل ، وترحال ، وأحداث ، وأحمال ، أثر في تكامل عقله ﷺ .

ومما يدل على هذا الكمال قراره يوم بناء الكعبة ، إذ حكم بين الذين اختلفوا فيمن يرفع الحجر الأسود ، ويضعه حكماً أرضاهم جميعاً مع بساطته ، ويسره .
ومن راحة عقله ﷺ أنه تمكن من التعامل مع كافة طبقات الناس .
وأنواعهم ، وأجناسهم ، في البيئات المختلفة ، فأقروا له جميعاً بكمال عقله ، وسمو خلقه .

وكان ﷺ صاحب دين ، ومبدأ لم يفعل شيئاً نهى الله عنه أبداً ، ولم يترك شيئاً أمر الله به .

ولو تأملنا سائر أعماله ﷺ قبل النبوة وبعدها ، نرى كل واحدة منها تشهد بكمال العقل ، وحسن التقدير .

وبإتصاف محمد ﷺ بهذه الصفات التي أكرمها الله بها ، صار مؤهلاً ليكون رسولاً للناس أجمعين ...

- خامساً -

تحيب الخلاء لحمد ﷺ

لم تغب ذكريات الماضى عن فكر محمد ﷺ ، بل كان يختزنها فى باطنه ، ويغفل عنها أحياناً لانشغاله بأعماله ، وأسفاره ، فلما تزوج خديجة رضى الله عنها ورفع الله تعالى عن كاهله عناء الفقر ، ومسئوليات المعاش ، بدأ يعيش حياة الراحة الهادئة ، والطمأنينة السعيدة ، والتأمل الفكرى ، والنظر إلى ما يحيطه من أحوال الناس ، وأحداث الحياة ، وتمنى أن يسود فى دنيا الناس الخير ، والأمان . ومن خصائص النفس أنها تكون مشغولة مع صاحبها دائماً ، فهى معه فى مسئولياته ، وقضاياها ... فإن استراح ، وسكن ، وخلا من المهام شغلته هى بما يحركها ويشغلها .

إن النفس البشرية قادرة على التذكر ، والتخيل ، والتفكير ، وهى فى حركتها لا تعرف حدود الزمان ، والمكان . ولا توقفها حواجز السلطة ، والطبقات ، ويساعدها فى حركتها الدائمة السريعة ما يأتىها من عالم الشعور ، وعالم اللا شعور .

وعلماء التربية يرشدون إلى ضرورة إشغال النفس بالحق ، وتوجيهها نحو النافع المفيد ، وذلك بإيجاد قدر من الدوافع الطيبة التى تدفع النفس نحو فكر مقصود مفيد .

لقد بدأ الماضى يعاود محمداً بعد زواجه من خديجة ، وأخذت الذكريات تتحرك أمامه ، وتشغل فكره ، وتدعوه إلى التأمل فيها ، وفيما وراءها .

لقد عاش فى ديار بنى سعد ، ورأى شق صدره ... ورعى الغنم ، وعاشر الرعاة ، وعاش الخلاء ، وسمع كلام الأخبار ، والرهبان ، والكهان ، وسافر للمدينة ، وللشام ، وباع واشترى ، وتفرد وتزوج ، وشاهد أعمال أهل مكة ، وعلم أخلاقهم ،

وأمانهم ، وقابل أشتاتاً من الناس ، وسمع ألواناً عديدة من الأفكار ، والمذاهب ، والأديان .

ورأى فى مكة بعض الحنفاء ينكرون على العرب ما هم فيه من بعد عن دين إبراهيم عليه السلام .

لقد عاش ﷺ حياة عملية ممثلة بالحوادث ، والاتجاهات ، فلما وجد وقتاً عادت نفسه ، لذلك كله ، وتذكر عقله ﷺ ما كان ، وما هو كائن فى تحليل نظرى وتأمل فكرى رجاء أن يصل إلى شئ من الأسرار .

والخلوة ، والبعد عن الناس من الأمور غير المحببة فى حياة البشر ، لأن الإنسان مدنى بطبعه ، يحب الأنس ، ويعشق ملاقات الآخرين ، ويحب التعامل والسمير معهم ، وما سمى الإنسان إنساناً إلا لوجود هذا الطبع فيه .

والخلاء مع هذا عامل تروى ، يعلم الصمت ، والسكون ، ويدفع إلى التأمل ، والتفكير ، ويساعد على الطهارة ، والسمو ، ولذلك كانت العبادة فى جوف الليل من عظام الأمور ، وكان قرآن الفجر مشهوداً ، وذلك لمن جعل خلوته لخدمة القيم ، والخلق ، والانخراط الكلى فى عبودية قانتة لله رب العالمين .

وقد حبيب الله لمحمد الخلاء ، فكان يخرج من مكة بعيداً عن الصخب ، والضجيج ، ويمكث وحيداً فى غار حراء ، ومعه زاده وعدته ، مدة تضم الليالى ذوات العدد ، حيث يقضى الليالى ، وبخاصة لىالى شهر رمضان فى خلوته ، وانقطاعه عن الناس .

يقول الخطابى : والخلوة يكون معها فراغ القلب ، وهى معينة على الفكر وقاطعة لدعاوى الشغل الفطرى ، والبشر لا ينفك عن طباعه ، ولا يترك مألوف عاداته إلا بالرياضة البليغة ، والمعالجة الشديدة ، فلطف الله تعالى بنبيه محمد ﷺ فى بداية أمره فحبيب إليه الخلوة ، وقطعه عن مخالطة البشر ، ليتناسى المألوف من عاداتهم ، ويستمر على هجران ما لا يحمد من أخلاقهم ، وألزمه

شعار التقوى ، وأقامه فى مقام التعبد بين يديه ، ليخشع قلبه ، وتلين عريكته ، فيجد الوحي منه حين وروده مراداً سهلاً ، ولا يصادفه حزناً وعرّاً ، فجعلت هذه الأسباب مقدمات لما أرصد له من هذا الشأن ليرتاض بها ، ويستعد لما ناب إليه ، ثم جاءه التوفيق والتبشير ، وأخذته القوة الإلهية ، فجبرت منه النقائص البشرية ، وجمعت له الفضائل النبوية^(١) .

وقد كان من عادة مفكرى أهل مكة أن ينقطعوا عن الناس مدة كلما جد لهم أمر ، يلجأون خلالها إلى آلهتهم ، وإلى عقلهم بحثاً عن حل لهذا الأمر الذى يشغلهم .

ووجد محمد ﷺ فى هذا المسلك طريقاً يعيشه فى خلوته ، يلتبس أثناءها إشباع ما يتمنى الوصول إليه ، ووجد فى جبل حراء مكاناً مناسباً للخلوة فأحبه ، وأخذ ينقطع فيه وحيداً ، يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، فكان إذا جاء رمضان يحمل طعامه ، وشرابه ، ويمكث فيه ، بعيداً عن الصخب ، والضوضاء ، يلتبس الحق ... ويبحث عن حلول لما يشغل عقله وقلبه .

لقد بدأ محمد ﷺ الخلاء باحثاً بفكره ، متأملاً فى الأسرار المحيطة به ، فانجلت بصيرته ، وارتفعت مشاعره ، وتسامت روحه إلى أن جاءت الهداية فاهتدى ، وأتاه الوحي فصار رسولاً نبياً .

وحراء جبل بأعلى مكة ، على بعد ثلاثة أميال منها ، على يسار المار إلى منى ، ولهذا الجبل قمة مشرفة على الكعبة ، وفى هذه القمة غار عرف ب (غار حراء) ، وهو على هيئة حجرة ضيقة ، مستطيلة ، منحوتة ، داخل قمة الجبل ، أرضها مسطحة ، وسقفها مقوس يدخل الرجل واقفاً مع انحناء قليلة والغار مفتوح من جهتيه الشمالية ، والجنوبية ، ويمكن للجالس فيه أن يرى الكعبة ، وبخاصة قبل وجود البنايات الحديثة العالية .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣١٩ .

وقد أكرمنا الله تعالى بصعود هذا الجبل ، ودخول الغار ، والصلاة فيه ، وعشت معاناة شديدة في هذا الصعود ، فتذكرت معاناة رسول الله ﷺ في رحلته إليه ، وحياته ﷺ فيه جزاه الله خير الجزاء عن الإسلام ، والمسلمين .

إن الخلوة في غار حراء تؤدي إلى القرب من الله ، والنظر إلى الكعبة يؤجج روح الصفاء ، ولذلك كان أهل مكة يعظمون هذا الغار ، ويقصدونه بين الحين والحين ، ويربطون بينه وبين الكعبة ، فكلاهما آية من آيات الله بين الناس .

وكان ﷺ يطوف بالبيت قبل أن يذهب إلى الخلاء ، وكان أول ما يبدأ به إذا انصرف من خلوته أن يطوف بالبيت قبل أن يذهب لخديجة في بيته^(١) .

إن حياة التأمل ، وصفاء التفكير تعرف الإنسان بنفسه ، وترقق مشاعره ، وتبعده عن شواغل المادة ، وتجعله يلتصق بالقوة في غير سائر المخلوقات ، لأن كل مخلوق ضعيف ومحتاج .

إن تحبيب النبي ﷺ في الخلاء تدريب على تخليه عن الناس ، وتهيئة لا اتصاله بالمال الأعلى ، وهو يتلقى وحى الله تعالى ، والذي سوف يتكرر كثيراً ويدوم طويلاً .

والخلاء يعلم الإنسان التجرد من الماديات ، والبعد عن الشهوات المتصلة بها ، وتشعره بقيمة المعنويات ، والروحانيات الغائبة عن الحواس .

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : ... ثم حُبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك^(٢) . وجاء تعبير الحديث بلفظ (حُبب) المبنى للمجهول إشارة إلى أن حب محمد للخلاء لم يكن من بواعث البشرية ، وإنما كان من الوحي ، والإلهام^(٣) .

(١) لم تنازع قریش محمداً في خلوته بغار حراء ، لأن جده (عبد المطلب) كان يخلو فيه وكان لعبد المطلب منزلة فيهم ، فلما خلا محمد بالغار تصوروه يخلو كجده .

(٢) صحيح البخارى - كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٢١ .

(٣) فتح البارى على صحيح البخارى ج ١ ص ٢٢ .

يقول ابن هشام : كان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة ،
يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذاك ، كان
أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الذهاب إلى الكعبة ، قبل أن يدخل بيته
فيطوف بها سبعاً ، أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته^(١) .
وكان ﷺ يطيل النظر في الكون المحيط به في السماء ، ونجومها ، وقمرها
، وشمسها ، وأفلاكها ، ومجراتها ، وصورتها في الليل ، وفي النهار .
ويتأمل الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة الألاء ،
وساعات صفوها البديع حين تكسوها أشعة الشمس بضياؤها ، أو تلفها أضواء
النجوم بلباسها الرطب الندى .
وينظر في أهل مكة ، والحياة تشغلهم ، ويتأمل في الآتين لمكة ، وهم
يطوفون بالبيت ، والأصنام أمامهم !! ...
كان ﷺ يتأمل في كل ذلك ، وفي غيره ، أملاً في معرفة هذا الوجود ، وما
وراءه من سبب ، وغاية !! ...
في هذا الكون المتحرك كان ﷺ يلتمس الحقيقة العليا ، وكان ابتغاء إدراكها
يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون ، وينظر فيما وراء الحجب يحاول
الوصول إلى مكنون سره ، ويكتشف لنفسه ، ولقومه طرق النجاة ، والفوز ، الغائبة
عن الجميع .
ولم يكن في حاجة إلى كثير من التأمل ليرى أن ما يبشره قومه ، من شئون
الحياة ، وما يتقربون إلى آلهتهم ليس حقاً أبداً .
فما هذه الأصنام التي لا تضر ، ولا تنفع ، ولا تخلق ، ولا ترزق ، ولا تدفع
عن أحد غائلة شر تصيبه !
وما هبل ، واللات ، والعزى !!؟ ...

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٣٦ .

(٣٧١)

وكيف تكون آلهة ، وهى مصنوعة بأيديهم !!؟
وما كل هذه الأنصاب ، والأصنام فى جوف الكعبة أو حولها ؟
إن كل هذه الآلهة لم تخلق يوماً ذبابة ، ولا جادت مكة بخير !!
ولكن !!
أين الحق إذا ؟
أين الحق فى هذا الكون الفسيح بأرضه ، وسماواته ، ونجومه ؟
أهو فى هذه الكواكب المضيئة التى تبعث النور ، والدفع ، ومن عندها
ينحدر ماء المطر ، وتأتى للناس ، ولأهل الأرض كافة من خلائق أسباب الحياة
من الماء ، والهواء ، والنور ، والدفع ؟
كلا ! فما هذه الكواكب إلا أفلاك كالأرض سواء .
أهو فيما يتصوره وراء هذه الأفلاك من أثر لا حد له ، ولا نهاية له ؟
ولكن ما الأثير ؟
وما هذه الحياة التى تحيا اليوم فتتقضى غداً ؟
ما أصلها ؟ !
وما مصدرها ؟!
أمصادقة تلك التى أوجدت الأرض ؟!
وأوجدتنا عليها ؟
إن الكون ، والأرض ، والسماء ، والكواكب ، والأفلاك ، كلها يسير وفق
سنن ثابتة لا تبدل لها ، ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها .
وما يأتى الناس من خير ، أو شر ، أفيأتونه طواعية ، واختياراً !!؟
أم هو بعض سليقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه !!؟
لقد رأى محمد ﷺ بثاقب فكرة أن عناصر الكون خاضعة لقوة مجهولة هى
أقوى من أن تقهر ، وأسمى من أن تعرف ، وأعلى من أن تتصور ، واحدة هى

بالضرورة لا تتعدد ، عالمية ، شاملة ... لأن الوجود كله واحد .
 إن عناصر الكون تشغل فكره ، وديمومتها المستمرة تدفعه إلى النظر ،
 والتدبير فيسائل نفسه ، ويعاود النظر ، هنا تارة ، وهناك تارة أخرى .
 ها هي الشمس ، ترسل أول أشعتها على الحصى المنثور هنا ، وهناك ،
 فتصيره جواهر تتلألأ ، وأضواء تبرق ، وجمالاً ينساب بين الكائنات ، فينشغل بها !!
 ثم ها هي الشمس في كبد السماء ، جبارة طاغية ، ترسل أثواب الضوء
 البراقة لتتشرها على الأرض في حسن ، وشمول ، فيأخذه بهاؤها !!
 وها هي ذى الأرض هامة ، ساكنة ، مستسلمة ، كجثة لا حياة فيها ... ثم
 ماذا ؟!

وها هي أمواج الذهب ترسلها الشمس على الكون عند غروبها ، في سخاء
 وهدوء ، وتنسحب كأنها تريد أن توحى إليه بالأسف لمغيبها بلا استئذان ...
 وتمشى !!

ثم ها هو ذا طوق القمر الباهر ، يشبه طوق الحمامة ، تنسجم فيه ألوان
 الطيف السبعة ، ويتألق القمر الذى يزهو بما يصدر عنه من شرر ، يتحول إلى
 الآلاف المؤلفة من النجوم ، والكواكب ، ليخلف القمر حتى الصباح !!
 وها هي تلك الأعمدة المختالة تتلهى بها الرمال ، عند هدوء الجو ، بإقامتها
 ثابتة تحت القبة الزرقاء ، حتى إذا ما ثارت الأعاصير ، وبعثت بالأتربة من بطون
 الوديان قاذفة بها فى هجوم عنيف ، على الغيوم السوداء المفعمة بالبرق ، هكذا
 بعد الهدوء !!

وها هي ذى قوافل الغيم ، تشبه الخراف البيض ، تطاردها الرياح حتى
 تبعدها عن قمم الجبال ، فتضطر إلى الهجرة قبل أن تسيل عبراتها على مسقط
 رأسها ، بلا خيار ، ولا قصد ، ولا معرفة !! ...

وها هى تلك العواصف الممطرة ، تتفجر شآبيبها الهطالة ، فتصب على
الجبال العريانه أنهاراً من المياه ، عذيفة جارفة ، لها دوى ، ولها زئير .
أمام هذه العناصر الكونية الهائلة العاتية ، التى لم تجرؤ قط ، رغم جبروتها
على عدم الخضوع ، ولو شروى نكير ، للقوانين التى تسيرهم ، والتى فرضتها عليها
القوة السامية العليا ...
إن كل عنصر فى فلكه يسبح .، وكل عنصر لا يملك إلا .الاستسلام .،
والخضوع ... وهكذا رأى الكون فى جملته قوياً ، شديداً ، وفى نفس الوقت وجده
خاشعاً ، ذليلاً^(١) .

لشد ما بدا لمحمد من ضعف الإنسانية وهوانها !! ...
ولكم بدا له غرور العقل ، وضلاله !! ...
ولكم رأى خداع الحس المحسوس ، وخيبة الاستدلال بالماديات !! ...
أجل !!
وكم من سخرية فى أن تنثق الإنسانية بالمحسوسات ، مع أنها ترى السراب
صورة براءة من موجات الأثير الفائت ليشهد بذلك على غرورها المطلق !!
فى مثل هذه الأمور النفسية وغيرها كان محمد ﷺ يفكر أثناء انقطاعه ،
وتعبده بغار حراء ، إذ ليس أمامه إلا هذا التدبير .
وكان يتمنى رؤية الحق ، فيما يرى ، وفيما لا يرى ، وكان تفكيره يملأ
نفسه ، وفؤاده ، وضميره ، وكل ما فى وجوده ، ويشغله عن هذه الحياة ، وصباحها
، ومساءنها ، فإذا انقضى شهر رمضان عاد إلى خديجة ، وبه من أثر التفكير ما
يجعلها تسأله ، تريد أن تطمئن إلى أنه بخير وعافية .
ولكن ...

بأى نسك كان محمد يتعبد أثناء تحنثه ذاك ؟

(١) حياة محمد ص ١٤٥ بتصرف .

(٣٧٤)

وعلى أى شرع بذاته كان يعمل ؟

هذا أمر اختلف العلماء فيه ، وقد روى ابن كثير فى تاريخه طرفاً من آرائهم فى الشرع الذى كان يتعبد عليه .

ف قيل : كان ﷺ يتعبد بشرع نوح عليه السلام .

وقيل : كان يتعبد بشرع إبراهيم عليه السلام .

وقيل : كان يتعبد بشرع موسى عليه السلام .

وقيل : كان يتعبد بشرع عيسى عليه السلام .

وقيل : كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه ، وعمل به^(١) .

ولعل هذا القول الأخير أقوم من غيره ، فهو الذى يتفق ، وما شغف محمد به من التأمل ، ومن التفكير ، وما عرف عن غياب الشرائع يومذاك ، حتى أن كثيراً من الحنفاء ، لم يصلوا إلى شئ رغم ما بذلوا من جهد للوصول إلى دين حقيقى .

واستمر محمد على عادته تلك فى حب الخلاء ، والانقطاع له ، ومداومة البحث عن الحقيقة حتى هداه الله إليه بنزول الوحي ، وبدء الرسالة ، وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾^(٢) .

- يذهب المفسرون فى بيان المعنى المراد من الضلال إلى معان كثيرة :
- . فهو بمعنى الغفلة عما يراد بك من أمر النبوة فجاءك الوحي .
- . وبمعنى عدم معرفة دين ، وشرع ما ، فهذاك الله للإسلام ، وشريعته .
- . وبمعنى ضلال قومك أى فى وسط ضلال قومك ، وكفرهم فهداهم الله بك .
- . وبمعنى الحيرة فيما ترى ، فعرفك بالصواب ، والحق^(٣) .

(١) البداية والنهاية ج ١ ص ٢٥٥ .

(٢) سورة الضحى ، الآية ٧ .

(٣) أنظر : تفسير القرطبى ج ٢٠ ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٣٧٥)

وهذه المعانى تلتقى فى معنى عام واحد ، وهو أن الرسول ﷺ كان يبحث عن طريق الحق ، والهدى ، وسط قومه الغافلين ، ولم يكن يتصور أن النبوة ستأتيه ، وكثيراً ما أضنته الحيرة ، والقلق حتى جاءه جبريل ﷺ فأرشده إلى صراط الله المستقيم .

والمعانى تدور مع أحوال محمد ﷺ قبل المبعث ، ومع بحثه الدعوى عن الحقيقة التى هداه الله إليها ، وعرفه بها ، فكانت الرسالة ، والبعثة .

— سادساً —**ركائز دعوية من مقدمات النبوة**

أشارت مقدمات النبوة إلى أهمية تهيئة النفوس ، والعقول للرسالة الجديدة التى سوف تأتيتهم لإيجاد اهتمام بها ، وإقبال الناس عليها لمعرفة ، وكشف حقيقتها . وذلك أمر تهتم به الحضارات الحديثة إذ نجدها تثير مشوقات لأى جديد تريد إظهاره مثل الإعلان المسبق عنه ، وتبشر الجماهير مسبقاً بموعد لاحق تظهر فيه المفاجآت التى يعملون لها ، وذلك لبعث الهمم ، وجذب الناس نحو الجديد الذى سيظهر ، ويمكن فهم مقدمات الرسالة من هذا القبيل ، فلقد ساد رأى العام عند العرب وعند غيرهم توقع لظهور دين جديد ، يأتى به رسول يختاره الله من العرب ... ولولا موقف كفار مكة من دعوة محمد ﷺ لآمن الجميع بالإسلام وبمحمد ﷺ مع أول الدعوة فى مكة المكرمة .

ويمكن أن نستفيد درساً للدعوة من هذه المقدمات ، وبصيغة العصر ، وتطور الحياة .

إن وسائل التوجيه فى العالم المعاصر عديدة ... وحاجة الدعوة إلى جذب المدعوين ، وربطهم بالدعاة أمر هام ... ولن يتم ذلك إلا بوضع الدعاة فى نطاق مهيب ، وإحاطتهم بهالة من الاحترام والتقدير ، والتعريف الدائم بعلو شأنهم ، وصلابة دورهم ، وتأکید ريادتهم .

إن شخصاً عادياً فى المناسبات العامة يعرفه الناس يأخذ اهتماماً أكبر حين يقال : إنه مندوب الرئيس إلينا ... وما زاد الرجل شيئاً .

ومع إعلاء شأن الدعاة فى نظر الناس نطلب من الدعاة أن يلتزموا بالخلق الكريم ، ويعيشوا الإسلام الحنيف ، ويتزودوا بالعلم الشريف ، وبذلك يكون ما هو لهم حقاً ، مقررأ .

المبحث الثانى عشر

بدايات الوحى

بلغ محمد ﷺ سن الأربعين ،. وكمل فى ذاته ،. وأصبح مستعداً لتكميل الآخرين ، وهنا جاءه وحى الله ، كما هو الشأن مع جميع الأنبياء ، والمرسلين^(١) .
يروى البخارى عن ابن عباس ؓ أنه قال : " أنزل الوحى على رسول الله ﷺ ، وهو ابن أربعين سنة "^(٢) .

لقد حاول محمد ﷺ الوصول إلى الحقيقة المتصلة بالوجود ، والحياة ، وطال تفكره ، وتدبره ، ولم يصل إلى ما يتمنى ، ويريد .
إنه يسمع عن دين الله ، وأنبياء الله ،. لكنه لا يعرف حقيقة الألوهية ، وحقوقها ، ويجهل كثيراً مما يتصل بالنبوة ، والرسالة ، وإدراكه للملا الأعلى نادر ، وقليل ، والأسرار من حوله تتكاثر ، وتعدد ، وكلما طال تأمله تشعبت مناحى النظر ، وبعدت عنه الأسرار ، والغايات .

والعقل مهما سما إدراكه ، ومهما دق فكره ، ومهما تعمقت تأملاته ، ونظراته ، لا يمكنه أن يصل إلى شئ من حقائق هذا الوجود ، ولا بد له من وحى الله يكشف له الأسرار التى يحتاج إليها .

ومحمد ﷺ مع صفاء نفسه ،. وكمال عقله ،. وسمو روحه يحتاج إلى فيوضات الله تهديه للحق ، وتتقذه من الحيرة ، وتعرفه بالحقائق الدينية التى لا يمكن للعقل أن يصل إليها .

كما يحتاج لرحمة الله مراعاة لجانب البشرية فيه ، حتى لا تفاجئه روحانية الوحى ، وغرائب الملا الأعلى .

(١) شرح النووى على صحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٩ .
(٢) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب صفة النبى ﷺ ج ٦ ص ٢٦ .

ويحتاج كذلك إلى تعلم كيفية الاتصال بخالقه ، والتعامل مع الملائكة ، واستقبال الوحي بمختلف صورته وأشكاله .

وقد تجلت فيوضات الله تعالى على محمد ﷺ بصورة رقيقة ، شفيفة ، عمادها الرحمة ، والمودة ، وعناصرها الترقى ببشرية محمد ليكون نبياً ، ورسولاً .

وكانت رحمه الله مع محمد ﷺ حين جاءه وحى الله تعالى ، إذ كلفه الله بالنبوة أولاً ، وجاءه الوحي ينبئه ، ومن المعروف أن النبوة لا تنزل طباع البشرية كلها ، فلما خبر ﷺ الوحي ، ورأى صورته ، وأنواعه ، وأصبح متألّفاً مع لقائه جاءت الرسالة ، فصار رسولاً نبياً .

والنبوة أخص من الرسالة ، لأن النبوة تعنى نزول الوحي من عند الله ، إلى من يختاره الله تعالى من الناس ، ليعلم ، ويعمل بما أوحى به ، وهى تعليم لمن تنبأ خاصة ، أما الرسالة فإنها الوحي يأتى للشخص المختار على أن يعلمه ويقوم بتبليغه للناس ، ويعمل به ، فهو رسول الله إليهم .

وعلى هذا فكل رسول نبى ، وليس بلزوم أن يكون النبى رسولاً ... ولقد نبئ محمد ﷺ وجاءه الوحي من عند الله ، واستمر على ذلك مدة تعد تمهيداً لإرساله ، أراد الله تعالى أن يهيئه خلالها للتعامل مع الملائكة ، والاتصال بالله ، ويعرفه كذلك بكل ما تحتاجه الرسالة من أمور لا بد منها للرسول المختار . إن الرسول بشر يتصل بالله ، وبالناس ، ولا بد له أن يتصف بصفات ذاتية ترتقى به إلى درجة الكمال البشرى ، والسمو الروحى ليسهل عليه الاتصال بالمالئ الأعلى بجانبه الروحى ، والتعامل مع الناس بجانبه البشرى فى توازن ، وانسجام . وقد بدأت نبوة محمد بأوليات الوحي كما أراداه الله تعالى ، ولم يكلف بالرسالة إلا بعد أن أصبح مؤهلاً لها ، مستعداً للقيام بواجبها^(١) .

(١) أنظر : أعلام النبوة للماوردى ص ١٧٥ . ١٨٠ ، ويرى الماوردى أن الوحي تدرج مع رسول الله منزلة بعد أخرى ، فبدأ بالرويا ، ثم بالنداءات ، ثم بالنبوة ، ثم بالرسالة ... إلخ .

لقد كان ﷺ فى مرحلة النبوة يخاف من الوحي يأتية بإحدى صوره ، ولذلك كان يأتى لخديجة شاكياً ، ويقول لها : " خشيت على نفسى " .
 ويصف الرجل الذى يظهر أمامه . ويقول : سطاً على الرجل
 وكان يجرى منه محاولاً الهرب من أمامه .
 أما فى مرحلة الرسالة فكان يأنس بالوحي ، ويتعجله ، ويخاف أن يتركه ،
 ولا يأتية ...

ولقد اختلف الوحي مع محمد ﷺ فى فترة النبوة عن الوحي فى فترة الرسالة .
 يقول القاضى عياض : وإنما بدأ الوحي مع رسول الله ﷺ بالرؤيا ، لئلا يفجأة الملك ، ويأتية بصريح النبوة بغتة ، فلا تتحملها قواه البشرية ، فبدئ بأوائل خصال النبوة ، وتبشير الكرامة ، من صدق الرؤيا ، وما جاء من رؤية الضوء ، وسماع الصوت ، وتسليم الحجر ، والشجر ، حتى يستشرف عظيم ما يراد به ، ويستعد لما ينتظره ، فلم يأتية الملك إلا بأمر عنده مقدماته^(١) . يقول ابن كثير : وبدء الوحي بصورة التدرج يهدئ القلب ، ويطمئن النفس^(٢) ...
 إن المفاجأة تؤدى إلى الذهول ، وتمنع التركيز ، وتجعل الخوف قوة تعطل كثيراً مما ما يأتى مع المفاجأة التى تصنع سداً بين الفكر الهادئ ، والنتائج الصحيحة ، وفى ذلك درس للمربين ، والموجهين ، والدعاة .
 ومن صور الوحي الذى ظهر لرسول الله ﷺ فى البداية ما يلى :

(١) الشفا ج ١ ص ٣٦٠ بتصرف .

(٢) الشفا ج ١ ص ٣٦٢ .

الرؤيا الصادقة

إذا نام الإنسان انقطع عن عالم الناس ، وعاش مع باطنه ، وأحلام اللا شعور ، وخلال النوم تهيم نفس النائم فى رؤى ، لا يمكن له أن يتصور حدوثها فى حالة اليقظة ، ولذا كانت الرؤى المنامية تدريباً للإنسان ، وهو فى عالم اللا شعور ، على ما سوف يراه فى عالم الإدراك ، والشعور .

إن علماء النفس المعاصرين يزرعون فى الإنسان مبادئهم الضارة ، وقيمهم المادية ، وهو نائم ، وذلك بوضع تسجيل صوتى تحت رأسه ، تحببه فيما يرغبون ، وتتحدث عن مزايا ما يدعون إليه ، فإذا ما استيقظ الإنسان يجد عقله مشغولاً بما سمعته روحه أثناء نومه ، من غير إدراك سبب هذا الانشغال .

ولقد استعمل الشيوعيون وغيرهم هذه الطريقة ، واستفادوا بها ، كما استفادوا من الإعلانات المصورة ، والملصقات العديدة ، والإشاعات الكثيرة فى إلهام عالم اللا شعور بما يريدون .

إن هذه المقدمة بيان لأهمية الرؤى ، وإبراز لدورها فى تهيئة الإنسان لأحداث عالم اليقظة ، وبخاصة إذا كانت الأحداث غريبة مدهشة .

ولقد كان من رحمة الله برسوله محمد ﷺ أن بدأه الوحي بالرؤيا الصادقة تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : " أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح " (١) ، وبذلك كان الوحي يعلم رسول الله ، وهو نائم ما يريد الله تعالى منه فى رؤى صادقة ، صالحة ، خالية من الضغث ، والوهم ، وكانت رؤى الوحي فى وضوحها وظهورها ، وحدثها تشبه ضوء الصبح فى بيانه ، وسطوعه .

(١) صحيح البخارى - كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٥ .

جاء فى فتح البارى أنه ثبت فى مراسيل عبيد بن عمير أنه ﷺ أوحى إليه أولاً فى المنام ، حتى أتاه الملك بعد ذلك فى اليقظة ، على الصورة التى أتاه بها فى المنام^(١) .

وقد تعددت الرؤى المنامية لرسول الله ﷺ ، وكان يندهش لذلك ...

ومن هذه الرؤى :

. رأى أن أت أتاه ، ومعه صاحبان له ، فنظروا إليه فقالوا : هو ، هو ، ثم ذهبوا ...

فهاهنا ذلك ، وتساعل عما رأى ، وعن حديثهم أمامه .

فقال له عمه أبو طالب : يا ابن أخى ليس بشئ^(٢) .

. وأتاه هذا الآتى مرة أخرى ، فجاء لعمه ، وقال له : يا عم سطايبى الرجل

الذى ذكرت لك ، فأدخل يده فى جوفى حتى أنى أجد بردها .

فخرج به عمه إلى رجل من أهل الكتاب ، يتطبب بمكة ، فحدثه .

فصوب الرجل به ، وصعد ، وكشف عن قدميه ، ونظر بين كتفيه ، وقال :

يا ابن عبد مناف ابنك هذا طيب طيب ، للخير فيه علامات ، إن ظفرت به

يهود قتلته ، وليس الرأى شيطاناً ، ولكنه من النواميس الذين يتحسسون

بها القلوب للنبوّة ، فرجع به^(٣) .

. رأى فى منامه أن سقف بيته نزع منه خشبة ، وأدخل فيه سلم من فضة ثم

نزل إليه رجلان ، فأراد أن يستغيث فمنع من الكلام ، فقعد أحدهما إليه

والآخر إلى جنبه ، وأدخل أحدهما يده فى جنبه فنزع ضلعين على كفه ،

وقال لصاحبه : نعم القلب قلب رجل صالح ، فطهر قلبه ، وغسله ، ثم

أدخل القلب مكانه ، ورد الضلعين ، ثم ارتفعا ، ورفعوا سلمهما ، فإذا

(١) فتح البارى - كتاب الوحي ج ١ ص ٢٢ .

(٢،٣) أنظر : سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣١٠ - ٣١٢ .

السقف كما هو ، فذكر ذلك لخديجة بنت خويلد فقالت له : أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً ، هذا خير فأبشر .

. ورأى فى منامه جبريل ، ومعه نمط من ديباج فيه كتاب فقال له : اقرأ . فقال له : ما أقرأ .

فغته به حتى ظن رسول الله ﷺ أنه الموت . ثم أرسله فقال : اقرأ . قال ﷺ : ما أقرأ .

فغته به حتى ظن رسول الله ﷺ أنه الموت . ثم أرسله فقال له : اقرأ .

قال ﷺ : ماذا أقرأ ... ما قال ذلك إلا افتداء منه أن يعود إليه بمثل ما صنع قال- : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ (١) .

فقرأها رسول الله ﷺ ثم انتهى ، فانصرف جبريل ، وهب رسول الله ﷺ من نومه ، وقال ﷺ : فكأنما كتب فى قلبى كتاباً .

فذكر ذلك لخديجة فقالت : أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً (٢) .

وهكذا ... تعددت الرؤى ، وركزت على قضية إعلام الرسول بنبوته ، وتطهيره ، وإعلامه ما ينتظره من أحوال ، وأعمال ، حتى لا يفجئه الملك على صورته الحقيقية ، فيصاب بالخوف ، والاضطراب .

(٢٠١) سورة العلق ، من الآية ١ : ٥ ، ويلاحظ أن هذه الرؤية المنامية هى بنصها التى بدأ الوحى بها يقظة (سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣١٢) .

نداءات الملائكة

من صور الوحي مع رسول الله ﷺ نداء الملائكة عليه ، وإعلامهم بإياه بنبوته ، وهو لا يعرف المنادى ، ولا مصدر النداء ...

من ذلك ما رواه ابن كثير بسنده أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء ، وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر .
قالت : معاذ الله ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فو الله إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث .

فلما دخل أبو بكر ، قالت له خديجة : يا عتيق أذهب مع محمد إلى ورقة^(١) .
فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده فقال : انطلق بنا إلى ورقة .
قال : ومن أخبرك ؟

قال : خديجة .

فانطلقا إليه ، وقال رسول الله ﷺ له : إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد ، فأنطلق هارباً في الأرض .
فقال له ورقة : لا تفعل إذا أتاك فاثبت ، حتى تسمع ما يقول لك ، ثم انتنى فأخبرنى .

فلما خلا ناداه : يا محمد قل : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴿ حتى بلغ ﴾ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ قل : لا إله إلا الله .

(١) ورقة بن نوفل بن أسد بن العزى بن قصى ، وهو ابن عم خديجة رضى الله عنها ، آمن بمحمد يوم أن جاءه يسأله ، فلما توفى قال الرسول ﷺ عنه : لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب بيض ، لأنه آمن بى ، وصدقنى ، ويقول ﷺ : " لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين (سيرة ابن كثير ج ١ ص ٣٩٨) .

فأتى محمد ورقة فذكر له ذلك .

فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر ، فأنا أشهد أنك الذى بشر بك ابن مريم ،
وانك على مثل ناموس موسى ، وانك نبي مرسل^(١) .

ويقول النبي ﷺ : خرجت مرة حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتاً
من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، فرفعت رأسى إلى السماء
أنظر ، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء ، فرفعت أنظر
إليه فما أتقدم ، وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا
أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامى وما أتأخر
ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى فبلغوا مكة ، ورجعوا إليها ، وأنا واقف
فى مكانى ذلك ، ثم انصرفت راجعاً إلى أهلى .

حتى أتيت خديجة فجلست إليها فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد
بعثت رسلى فى طلبك ، فبلغوا مكة ، ورجعوا إلى !!
ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت : أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفسى بيده
إنى أرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة ، فأخبرته بما أخبرتها
به .

قال ورقة : قدوس قدوس ! والذى نفسى بيده لئن كنت صدقتينى يا خديجة
لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولى
له فليثبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة .

وفى مرة تالية قضى رسول الله ﷺ جواره ، وانصرف يصنع كما كان يصنع ،
حيث بدأ بالكعبة فطاف ، فلقيه ورقة عند الكعبة وقال له : يا ابن أخى

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٩ .

أخبرني بما رأيته وسمعت .

فلما أخبره قال له ورقة : والذي نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك
الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبه ، ولتقاتلنه ، ولتؤذينه ، ولئن أدركت
ذلك لأنصرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يا فوخه .

ويقول ﷺ لخديجة : لما قضيت جوارى ، هبطت فنوديت ، فنظرت عن
يمينى فلم أر شيئاً ، فنظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسى فرأيت شيئاً بين
السماء والأرض فقلت : دثرونى دثرونى ، وصبوا على ماء بادر^(١) ...

إن نداءات الملائكة لرسول الله ، وتعجبه مما يسمع دفعه إلى معرفة شئ من
أسرار ما يسمع ، ولذلك كان يرجع لخديجة يقص عليها ما رأى .

وكانت خديجة رضى الله عنها خير معين لرسول الله ﷺ ، تسمع منه ،
وتجتهد فى معرفة أسباب ذلك ، وتسأل أهل الكتاب عن خبر ما يسمع ، وتخبر
زوجها رسول الله ﷺ بما يسرى عنه ، ويطمئنه .

وكانت تبحث عن أسرار ما يرى لتطمئن عليه ، وتطمئنه رضى الله عنها
قالت له مرة : يا ابن عم أأستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك؟
قال : نعم .

قالت : فإذا جاءك فأخبرنى به .

فجاءه جبريل ، فقال رسول الله ﷺ : يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى .

فقالت : قم يا ابن عمى فأجلس على فخذى اليسرى .

فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها ، فقالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

(١) صحيح البخارى . كتاب التفسير . باب سورة المدثر ج ٨ ص ٦٢ ، البداية والنهاية ج ٣
ص ١٢ ، ١٣ .

(٣٨٦)

قالت : فتحول فاقعد على فخذى اليمنى ، فتحول رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليمنى ، فقالت : هل تراه .

قال : نعم .

فألقت خمارها ، ورسول الله ﷺ جالس فى حجرها ثم قالت : هل تراه ؟

قال : لا .

قالت : يا بن عم اثبت ، وأبشر فو الله إنه لملك ، وليس بشيطان^(١) .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣١٤ ، البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥ ، ١٦ .

كلام الشجر والحجر

يروى ابن سعد بسنده أن رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته ، وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتاً ، ويفضى إلى الشعاب ، وبطون الأودية ، فلا يمر بحجر ، ولا شجر إلا قال له : السلام عليك يا رسول الله . وكان ﷺ : يلتفت عن يمينه ، وشماله ، وخلفه ، فلا يرى أحداً^(١) من الناس يتكلم .

روى الإمام مسلم عن جابر بن سمرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : إني أعرف حجراً كان يسلم عليّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن^(٢) .

وقال محمد بن عمر بسنده عن برة بنت تجرة قالت : إن رسول الله ﷺ حين أراد الله تعالى كرامته ، وابتدأه بالنبوة ، كان إذا خرج لحاجته أبعد ، حتى تحسر عنه البيوت ، ويفضى إلى شعاب مكة ، وبطون أوديتها ، فلا يمر بحجر ، ولا شجر ، إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، فيلتفت رسول الله ﷺ خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله فلا يرى إلا الشجر ، وما حوله من الحجارة ، وهي تحييه بتحية النبوة : السلام عليك يا رسول الله^(٣) .

وروى ابن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه رحمهما الله تعالى أن رسول الله ﷺ قال : يا خديجة إني أرى ضوءاً ، وأسمع صوتاً ، لقد خشيت أن أكون كاهناً ، فقالت : إن الله تعالى لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله ، إنك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم^(٤) .

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الفضائل . باب تسليم الحجر عليه ج ١٥ ص ٢٦ .

(٣) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٥٧ .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٩٥ .

لقاء الملائكة

من رحمة الله برسوله محمد ﷺ أن أخذ يهيئ للقاء ملك الوحي ، وذلك بإرسال الملائكة إليه تحدثه ، وتناقشه ، ولا تمكث معه طويلاً على صور شتى ، قبل أن يأتيه جبريل عليه السلام ، ليستعد لملاقاته عليه السلام ، وتقوى نفسه ، وبشريته على التلقى من ملك الوحي بعد ذلك عليه السلام .

تلك رحمة الله بمحمد ﷺ ليتعلم ، ويأنس ، وترتقى بشريته إلى مستوى يجمع بين سهولة ملاقة جبريل عليه السلام ، وإمكانية تبليغ الناس بالوحي الذى يأتيه .

يروى ابن سعد أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه النبوة كان يأتيه (إسرافيل) ، واستمر معه يعلمه الكلمة ، والشئ ، ولم ينزل شئ من القرآن على لسانه^(١) . يقول أبو شامة : إن (إسرافيل) كان يأتي النبی ، وهو فى غار حراء فكان يلقي إليه الكلمة بسرعة ، ولا يفهم معه ، تدرجاً ، وتمريناً ...

وأحياناً كان يأتيه جبريل بصحبة ملك آخر ، أو ليعرفه بقدوم ملك آخر . يقول ابن عباس عليه السلام : " كان رسول الله ﷺ ذات يوم ، وجبريل على الصفا فقال رسول الله ﷺ : يا جبريل والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفة دقيق ولا كف من سويق ، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته . فقال رسول الله ﷺ : أأمر الله القيامة أن تقوم ؟

فقال جبريل : لا ولكن أمر الله إسرافيل فنزل إليك ، حتى يسمع كلامك . فأتاه إسرافيل فقال : إن الله تعالى بعثنى إليك بمفاتيح خزائن الأرض ،

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٩١ .

وأمرني أن أعرض إليك أن أصير معك جبال تهامة زمرداً ، وياقوتاً ، وذهباً ،
وفضة ، فإن شئت نبياً ملكاً ، وإن شئت نبياً عبداً ؟
فأوما إليه جبريل : أن تواضع .

فقال رسول الله ﷺ : بل نبيا عبداً^(١) . قالها : ثلاثاً .

ويقول البراء بن عازب ؓ : أتاه جبريل ، وميكائيل ، فنزل جبريل ، وبقي
ميكائيل واقفاً بين السماء ، والأرض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟
قال : هو هو .

قال : فزنه برجل ، فوزنه به فرجحه رسول الله ﷺ .

قال : زنة بعشرة ، فوزنه فرجحهم .

قال : زنة بمائة ، فوزنه فرجحهم .

قال : زنة بألف ، فوزنه فرجحهم .

ثم جعلوا يتساقطون عليه من كفة الميزان .

فقال ميكائيل : تبعته أمتي ، ورب الكعبة ، ثم أجلسني على بساط كهينة
الدرنوك ، فيه الياقوت ، واللؤلؤ .

فقال أحدهما لصاحبه : شق بطنه ، فشقه ، فأخرج منه مغمز الشيطان ،
وعلق الدم فطرحها .

فقال أحدهما لصاحبه : أغسل بطنه غسل الإناء ، وأغسل قلبه غسل الملاء .

ثم قال أحدهما لصاحبه : خط بطنه ، فخاطه .

ثم أجلساه فبشره جبريل برسالة ربه فأطمأن النبي ﷺ^(٢) .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣١٠ .

(٢) أنظر ص ٢٤١ وما بعدها ، وفيها تفصيل واضح لأحداث شق صدره ﷺ .

مجيء جبريل بالقرآن

استمر الوحي بمقدماته مع رسول الله ﷺ على هذا النحو المبين ، وأدرك محمد ﷺ أن أمراً عظيماً ينتظره ، وسمع من زوجته ، ومن ورقة ، ومن غيرهما أن الذى يراه ، ويسمعه هو الوحي الذى كان يأتى موسى ، وعيسى ، والأنبياء من قبله عليهم صلوات الله وسلامه .

وشياً فشيئاً بدأ يطمئن لما يرى ، ويثق فيما يسمع ، حتى جاءه جبريل عليه السلام بأول آية قرآنية أمره الله تعالى أن يقرئها بها .

تصور السيدة عائشة رضى الله عنها نزول جبريل بأول آية قرآنية على رسول الله ﷺ فتقول رضى الله عنها : " جاءه الملك (أى جبريل) وهو فى غار حراء ، فقال : اقرأ .

يقول النبي ﷺ : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد .

ثم أرسلنى . فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارئ .

فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى . فقال : اقرأ .

فقلت : ما أنا بقارئ .

فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ

الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَبَّاسٍ ﴿٦﴾ .

فرجع رسول الله ﷺ بهذه الآيات إلى خديجة ترجف فؤاده ، فلما دخل عليها

رضى الله عنها قال لها : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع

ثم أخبرها الخبر .

ثم قال ﷺ : يا خديجة مالى ؟ لقد خشيت على نفسى !!

فقالت خديجة له : كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم
وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن
قصي ، وهو ابن عم خديجة لأبيها ، وكان امرأً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب
الكتاب العربي ، والعبراني ، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ،
وقد عمى في شيخوخته .

فقالت له خديجة : أى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك .

فقال ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟

فأخبره النبي ﷺ خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى انزل الله على موسى ، ياليتنى فيها
جدعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجى هم ؟

فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن
يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي^(١) .

ومع أن النبي ﷺ كان يبحث عن الهداية التى جاءته ، ومع أنه كان على
يقين بالفوز العظيم بمجئ جبريل ، ولذلك قال لخديجة : أرايتك الذى كنت أخبرتك
أنى رأيته فى المنام ؟ فإنه جبريل ، استعلن لى ، وأرسله إلى ربى ...

مع كل ذلك فإنه ﷺ أصيب بالروع ، وخشى على نفسه من الشدة التى شعر
بها عند لقاء الوحي ، ومجيئه إليه فى بداياته .

(١) صحيح البخارى . كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٥ : ٧ ، ويلاحظ أن مجئ جبريل هنا تكرر لما
كان يراه النبي ﷺ ، ولما كان يسمعه من لقاء إسماعيل ، وميكائيل .

وهذا. الخوف الذى عاشه النبى ﷺ فى لقاء جبريل ﷺ جعل البعض يتساءل عن سببه ، لأن المقام مقام سرو ، ورضى ، وليس مقام رهبة ، وهلع .

وكيف يحدث خوف ، وهو يتمنى الوحي ، وينتظره ؟

تناول العلماء هذه المسألة ، ورأوا أن الخوف لم يكن من النبوة ، أو من الوحي ، وإنما كان من تصويره أذى يصيبه من الغط الشديد ...

أو من ثقل المسؤولية فى مجتمع ملئ بالطغيان .

أو لأن الحوار لم يكن عادياً كما هو عرف الناس ... فلقد أمر جبريل ﷺ محمداً ﷺ بالقراءة ثلاث مرات ، وغطه بشدة ثلاث مرات أيضاً ، والرسول يقول له : ما أنا بقارئ .

وقد يكون الخوف من عدم مقابلة هذه النعمة العظمى بالشكر المعادل لها .
وينتشر خبر الوحي عند خديجة ، وأبى بكر ، وورقة ، ويتحدث عنه أهل مكة ، ليكون حديثهم تعريفاً بمحمد ، وتنبيهاً على منزلته عند الله ، والناس ، وإخباراً ببداية نبوته ... فضلاً من الله ، ونعمة منه سبحانه وتعالى على عبده محمد ﷺ .

وهكذا ...

ملأت تباشير النبوة أسماع الناس قبل أن يأتهم البلاغ بها .

يقول الإسماعيلي : إن العادة جرت بأن الأمر الجليل إذا قضى الله تعالى بإيصاله إلى الخلق أن يقدمه ترشيح ، وتأسيس ، وكان ما يراه النبى ﷺ من الرؤيا الصادقة ، ومحبة الخلوة ، والتعبد من ذلك ، فلما جاءه الملك فجأة بغتة بصورة تخالف العادة ، والمألوف ، نفر طبعه البشرى منه ، وهاله ذلك ، ولم يتمكن من التأمل فى تلك الحال ، لأن النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها ، فلا يتعجب أن يجزع مما لم يألفه ، وينفر طبعه منه ، حتى إذا اندرج عليه ، وألفه استمر عليه ، فلذلك رجع إلى خديجة التى ألفت تأنيسها له ، فأعلمها بما وقع له ، فهونت عليه

خشيتيه ، مما عرفته من أخلاقه الكريمة ، وطريقته الحسنة ، فأرادت الاستظهار بمسيرها به إلى ورقة ، لمعرفة بصدق ، ومعرفة ، وقراءته الكتب القديمة ، فلما سمع كلامه أيقن بالحق ، واعترف به .

وأشار الإسماعيلي ، كذلك إلى أن الحكمة في ذكره ﷺ ما اتفق له في هذه القصة أن يكون سبباً في انتشار خبره ، في بطانته ، وفيمن يستمع لقوله ، ويصغى إليه ، وكان ذلك طريقاً لمعرفة أحواله لينتبهوا على محله^(١) ، ويعرفوا مقامه ﷺ .
ومع لقاء جبريل برسول الله ﷺ ولقائه أول سورة المعلق نلاحظ بعض الملاحظات :

الأولى :

غط جبريل رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، ليجعل التفاته ، وفكره إليه وحده دون الانشغال بغيره ، ويعرفه بثقل الرسالة ، وضخامة المسئولية ، ويتعود على التلقى من الوحي فقط ، ليكون قوياً حين التبليغ ، ويعلم أن تكرار الطلب منهج في نشر دين الله تعالى .
وليتأكد ﷺ بتكرار الغط أن ما يحدث حقيقة واقعية ملموسة ، وليست خيالاً أو وهماً .

وكان جبريل عليه السلام في أشد الاشتياق للقاء محمد ﷺ ، ولذلك ضمه إليه ، وقبله أكثر من مرة .

فعل جبريل ذلك بأمر الله تعالى ، ليؤكد خطورة الأمر ، وأهميته ، وضرورة بذل الجهد ، وتحمل المشاق في أداء الواجبات الخطيرة .

وهل هناك أخطر من مهمة الرسالة ، والدعوة !!؟

وكان من الممكن أن يتم اللقاء مناماً ، لكن الله تعالى أراد أن يطلع رسوله الأمين محمد ﷺ على صورة روحه الأمين جبريل ، كما أراد له أن يعرف أهم صور

(١) فتح الباري على صحيح البخاري ج ١٢ ص ٣٦٠ .

الوحى بعد أن عاش الرؤى ، وسمع النداء ، وشاهد الجمادات تتاجيه ، وعاش الخلوة بفكره ، ورأى عجائب القدر ، وبعض أسرار الوجود .
أراد الله له بعد ذلك أن يتعود على صورة الوحى التى ستستمر معه ، وقد كان ، فجاء جبريل ، وأقرأه أول سورة العلق .

الثانية :

فى بدء الوحى بـ (إقرأ) بيان لموقف الإسلام من القراءة ، ومن العلم كله فالقراءة أساس معرفة الدين ، بها يحفظ القرآن ، وتضان السنة ، وتفهم الشريعة وبها تكون الدعوة ، وحماية الإسلام ... وبالعلم تحيا الأمة ، وتحافظ على الضرورات الشرعية جميعاً ، وتنظم كافة جوانب الحياة .

الثالثة :

قدمت خديجة رضى الله عنها مع رسول الله ﷺ صورة للزوجة العظيمة المثالية ، فلقد كانت تعيش حياة رسول الله لحظة ، بلحظة ، تتمنى له الخير ، وتشاركه فى كل ما يعن له ، وتهتم بكل ما يهمه .
لقد أعطته مالها فأغنته ﷺ به ، وأبعدته عن متاعب الفقر ، ومشاغله ، ولما بدأ الوحى مناماً ، ونداء ، وضوءاً كانت تطمئننه ، ولكنها من ورائه كانت تبحث عن حقيقة ما يرى ﷺ
خوفاً عليه ، وحذراً من أى سوء .

وكان رضى الله عنها إذا غاب عنها ترسل فى طلبه من يبحث عنه^(١) ...
كما ذهبت وحدها إلى ورقة ، وأخبرته بخبر زوجها ، تريد أن تعرف شيئاً عنه ، فقال لها ورقة : قدوس ، قدوس ، والذى نفسى بيده لئن كنت صدقتينى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة^(١) .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣ .

ولم تكتف بما سمعت من ابن عمها ورقة ، بل ذهبت مرة أخرى إلى غلام
لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، نصراني من أهل نينوى يقال له عداس ، فقالت له :
يا عداس ، أذكرك الله إلا ما أخبرتني : هل عندكم علم عن جبريل ؟
قال عداس : قدوس ، قدوس ، ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها
أهل أوثان .

فقالت : أخبرني بعلمك فيه .

قال عداس : هو أمين الله بينه وبين النبيين ، وهو صاحب موسى ، وعيسى
عليهما السلام^(٢) .

لقد تميزت خديجة رضى الله عنها بكمال الخلقة ، والخلق ، يقول عنها ﷺ : "
خير نساءها خديجة بنت خويلد"^(٣) . وقد جعلت عقلها الكامل في خدمة محمد
ﷺ ، ودعوته ، وجعلت كيانها حباً لله تعالى ، وكانت رضى الله عنها خير معين
لمحمد ﷺ ، ولذلك بشرها الله ببیت فی الجنة^(٤) ...

ونلاحظ مدى ملاطفتها ، وتقديرها لزوجها في مناداته يا ابن عم ... ولذلك
فقد استحقت التقدير من رسول الله ﷺ ، يقول ﷺ عنها : " إني رزقت حبها"^(٥) ،
وأخبر بأنها واحدة ممن كمل من النساء ، وهن قليل .

(١) أنظر ص ٣٨٢ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب فضائل خديجة ج ١٥ ص ١٩٨ .

(٤) المصدر السابق ج ١٥ ص ٢٠١ .

(٥) المصدر السابق ج ١٥ ص ٢٠١ .

فتور الوحي

اطمأن محمد ﷺ لصدق ما يرى ، وما يسمع ، وتيقن أن الذي كان يأتيه هو وحي الله ، وتأكد أنه فاز بذلك فوزاً عظيماً .

وحتى يستوعب كل ما رأى ، وتهدا نفسه فتر الوحي ، وانقطع عنه جبريل ﷺ فمكث ﷺ أياماً لا يرى جبريل ، فحزن حزناً شديداً ، وأخذ يدور بسببه بين رعوس الجبال عساه يراه ، ويحدثه ، حاول أن يتردى من رعوس شواهد الجبال من شدة ألمه لانقطاع جبريل عنه .

وقد شق هذا الفتور على رسول الله ﷺ لأنه لم يكن خطب بعد من الله بأنه رسول الله ، ومبعوثه إلى العباد ، فخاف أن يكون ذلك أمراً بدئ به ثم لا يراد استتمامه ، فحزن لذلك ، ولذلك أتاه جبريل بعد ذلك ، وأخبره بأنه رسول الله .

يقول الزهري : فكلما وافى ذروة جبل لكى يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال له : **يا محمد أنت رسول الله حقاً** ، فيسكن لذلك جأشه ، وتفر عينه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك ، فإذا أوفى ذروة الجبل تبدى له جبريل ، فقال له : **مثل ذلك** ^(١) .

يتساءل البعض : كيف يجوز للنبي ﷺ أن يفكر فى إلقاء نفسه من ذروة الجبل ؟

والجواب : أن ذلك كان هما ، لا قراراً ...

أو أن تعبيره هذا جاء لإظهار شدة خوفه من ضخامة المسؤولية التى تنتظره فالتعبير كناية عن شدة الخوف حذراً من صعوبة المسؤولية .

(١) سبل الهدى والرشاد ص ٣٢٤ .

وكان يظن ﷺ أن قوته عاجزة عن تحمل ما يتوقعه من أعباء النبوة ،
وشواغلها ، وتوابعها .

وكان يتصور كثيراً مما حصل له ﷺ حين القيام بها من مباينة الخلق ،
وعداوتهم ، وظهور معارضين يعملون للقضاء عليه ، وعلى دعوته .
وذلك كما يطلب الرجل الراحة في العاجل من غم يناله في الآجل ، بما يكون
فيه زواله ، إلا أنه ﷺ إذا تفكر فيما سيكون من العقبي المحمودة صبر واستقرت
نفسه .

ولربما قدر الله له ذلك ليعالج هموم نفسه ، وبقايا خواطره البشرية ، وليعلم
أن عون الله يأتي عند ذروة الشدة ، فهو عبد الله ، ورسوله حقاً .

والعلماء يختلفون في تحديد مدة انقطاع الوحي .
فبعضهم يذهب إلى أن الوحي انقطع مدة قاربت السنتين ونصف .
وبعضهم يرى أنها كانت أياماً .

إلى غير ذلك من الآراء .

ويرى ابن إسحاق : أنها كانت ثلاث سنوات .

ويرى ابن كثير : أنها كانت سنتين ونصف .

ويرى ابن عباس : أنها كانت أربعين يوماً .

ويذهب ابن الجوزي : إلى أنها كانت خمسة عشر يوماً .

ويرى مقاتل : أنها كانت ثلاثة أيام .

والرأي الأولي بالاعتبار هو في تقصير مدة الانقطاع ، لمناسبته مقام
الرسول عنده ، ولأنه من الأمور التي إذا طالت انتشرت ، وعرفت ، واشتهرت ،
كما أن الانقطاع مدة طويلة يؤدي إلى ضياع كثير مما تم بناؤه في دنيا الناس ،
وحياة رسول الله ﷺ .

ركائز دعوية

من صور بدايات الوحي مع رسول الله ﷺ

نعيش مع بدايات الوحي ، ونلمح أموراً نسوقها للمسلمين ، وللدعاة لتكون ركائز أمامهم يحتاجون إليها في العصر الحديث . وهى :

الركيزة الأولى

الاهتمام بالعلم

فى بدايات الوحي نزل قول تعالى " اقرأ " وسمعها النبى ﷺ مناماً ، ويقظة للدلالة على قضية أساسية فى الإسلام ، وهى أهمية العلم ، وضرورته لكافة جوانب الإسلام ، لأن الإسلام دين يقوم على العلم ، به تعرف عقيدته ، وتفهم شريعته ، وتظهر خلقياته ، ومناسكه .

وبهذا العلم يجب أن يتصف الدعاة الذين يتحملون مسئولية الدعوة ، ليتقنوا موضوعهم ، ويعرفوا جمهورهم ، ويعلموا وسائلهم ، وأساليبهم ... وبغير ذلك تختفى الحقائق ، وتضعف الدعوة ، ولا يتم البلاغ المطلوب . ولا يصح أن يتصدى للدعوة من يجهلها ، ولا بد أن يكون الداعية على المستوى المكلف به .

ولئن قرأ النبى ﷺ باسم الله ، وبقدرته ، فإن الدعاة يتعلمون بالقلم ، القراءة ، والممارسة ، وسوف يتعلم الدعاة إن أخلصوا لله ، وبذلوا جهدهم صادقين مؤمنين

الركيزة الثانية

ضرورة التهيئة والتدريب العملى

الدعوة علم وتطبيق ، ولابد لمن يتصدى لها أن يتدرب على القيام بها ...
لقد رأينا القدر يدبر لرسول الله ﷺ أعمالاً تؤهله للتعامل مع الملك ، وتمكنه من
استقبال الوحي المنزل عليه ، ولذلك كانت النبوة مقدمة للرسالة.

ومن المسلم به الآن أن التدريب العملى جزء هام فى تكوين المربين ،
والموجهين ، ورجال الإعلام ... وهو أكثر أهمية للدعاة الذين يبلغون الإسلام بكافة
ألوان الاتصال ، ويقابلون أشتاتاً من الناس ، مختلفين ثقافة ، وطبعاً ، وتوجهاً .

إن التهيئة العملية تجعل الدعاة قادرين على مواجهة المواقف المفاجئة ،
وفهم المعارضات المضادة ، والتحكم فى مسار المناقشات ، والمناظرات .

إن الدعوة عرض ورد ، وتحليل وفهم ، واستيعاب واقتناع ... وذلك يحتاج
إلى ثقة بالموضوع ، وثبات فى المواقف ، وصلابة فى الحوار ، وقوة فى الإرشاد ،
والتبليغ ... ولابد لهذا من التهيئة ، والتدريب .

لا يحسن الدعوة خائف ضعيف ، ولا ينفعها جاهل متردد ، لأن أى سلبية
فى الداعية تنعكس بالضرورة على دعوته .

إن الطبيب الناجح هو الذى يجيد العلاج ، لأنه بعلمه ، وخبرته بعلم الداء
تمكنه من وصف الدواء بأمر الله ... والمحامى المتمكن هو الذى يبرز قضيته ،
ويبين جوانب العدل فيها ، وينال بخبرته ما يستحق من قضاء .

والحياة كلها اليوم تحتاج إلى الخبرة ، والعلم ، والممارسة ... وليس الدعوة
وحيدة فى هذا الأمر .

كان رسول الله ﷺ فى بدايات الوحي يخاف على نفسه من الملك حين يأتيه
لكنه ﷺ بعد التهيئة اندمج من الملك اندماجاً كلياً ، فإذا ما أتاه انقطع عن من حوله
تماماً ، كأنه لا يعرفهم ، ولا يعرفونه .

الركيزة الثالثة

الاستعانة بالعقلاء المخلصين

يفاجأ الدعاة بمواقف غريبة لم يألّفوها ، ولابد لهم من حكيم يتعاون معهم ، ويساعدهم بحكمته... وحينئذ تكون لهم مرجعية أمينة تعينهم على مشاق الطريق .
أنظر إلى رسول الله ﷺ في المرحلة الأولى تراه محاطاً بعدد من المخلصين ، يعود إليهم ، ويستعين بعقلهم .

وها هي خديجة رضى الله عنها نعم العاقلة ، ونعم الشريك ، ونعم المحبة المخلصة ، وها هو أبو بكر ؓ ، وحرصه الشديد على سلامة رسول الله ﷺ .
لقد كان الجميع يرجع إلى من لديه علم ليستفيد منه حول الشأن الجديد ، أخذوا رأى ورقة ، وعداس ، وغيرهما ليطمئنوا على ما كان يراه محمد ﷺ .
ومن هنا ...

نقول للدعاة استعينوا بالعقلاء ، وخذوا الحكمة والروية من غيركم ، واعلموا أن الإسلام دين متين يحتاج إلى الصبر ، والتحمل ، ولا يستغنى أبداً عن الحكمة والعقل ، والمشاورة في الطريق حق لا شك فيه .
ولم لا يكون. للدعاة في إقليم مرجعية علمية أمينة تعد المخطط .، وتقدم المعلومات التي يحتاج إليها الدعاة ، وتحدد المسار الذي يؤدي إلى النجاح المطلوب .

إن طاقة الفرد محدودة ، والدعوة تحتاج إلى جهد الجميع ، وقوة الجماعة ... ليعيش الدعاة مدعومين بقوة صادقة تأتيهم من الجماعة المسلمة كلها .

المبحث الثالث عشر

صور الوحي

تعتبر مدة انقطاع الوحي فاصلاً بين النبوة ، والرسالة ، فلقد نبى ﷺ لثمان مضيّن من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل ، ونزل عليه القرآن الكريم فى شهر رمضان من نفس العام ، والمدة بينهما هى فترة النبوة ، وقد استمرت ستة أشهر على الأرجح ، وبعدها كان الرسالة .

ولقد كان الوحي إلى رسول الله ﷺ يأتيه بأشكال عدة منها :

الأول :

الرؤيا الصادقة فى المنام ، ومثاله رؤية إبراهيم عليه السلام ، كما يقول تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قَالَ يَتَأَبَّتْ أَعْمَلُ مَا تُؤْمَرُ ﴿^(١) . فدل على أن الوحي كان يأتي فى المنام ، كما كان يأتي فى اليقظة ، وما رأى رسول الله ﷺ لما بعث رؤيا ألا جاءت مثل فلق الصبح .

يروى البخارى بسنده عن عبيد بن عمير : " رؤيا الأنبياء وحي "^(٢) ...

الثانى :

أن ينفث الملك فى روعه ، وقلبه من غير أن يراه ، كما قال ﷺ : إن روح القدس نفث فى روعى ، لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله ، وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لن ينال إلا بطاعته^(٣) .

(١) سورة الصافات ، الآية ١٠٢ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب الوحي ج ١ ص ١١ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣٥٢ .

يقول- المفسرون- فى قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾^(١) ، هو أن ينفث فى روعه بالوحى الذى يخص القلب دون السمع^(٢) .

الثالث :

أن يأتى الوحى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على رسول الله ﷺ فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتقصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك على الأرض .

يروى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها : " أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحى ؟

فقال رسول الله ﷺ : أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول " (٣) .

وروى ابن سعد بسند رجاله ثقات عن أبى سلمة الماجشون أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان يقول : " كان الوحى يأتينى على نحوين : يأتينى به جبريل فيلقيه على كما يلقي الرجل الرجل فذاك يتفقت منى ، ويأتينى فى شئ مثل صلصلة الجرس حتى يخالط قلبى فذاك لا يتفقت منى " (٤) .

الرابع :

أن يكلمه الله تعالى بلا واسطة من وراء حجاب فى اليقظة كما فى ليلة الإسراء على القول بعدم الرؤية .

(١) سورة الشورى ، الآية ٥١ .

(٢) تفسير الألوسى (روح المعانى ج ٢٥ ص ٥٥) .

(٣) صحيح البخارى . كتاب بدء الوحى ج ١ ص ٤ .

(٤) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٩٧ .

الخامس :

أن يكلمه الله تعالى كفاحاً بغير حجاب على القول بالرؤية ليلة الإسراء .

السادس :

أن يكلمه الله تعالى فى النوم ، كما فى حديث معاذ عند الترمذى : أتانى ربي فى أحسن صورة . فقال : فيم يختصم الملائكة (١) .

وهذا النوع يختلف عن الرؤيا المنامية ، لأن هذا كلام الله تعالى ، والرؤية المنامية تكون بغير كلام الله تعالى .

وذكر بعضهم أن من هذا النوع نزول سورة الكوثر ، لما رواه مسلم عن أنس قال : بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذا أغفى إغفاءة ، ثم رفع بصره مبتسماً فقرأ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْزَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ ، وكانت قد نزلت عليه قبل ذلك ، على الأصح ، وهذه مرة أخرى تنزل فيها السورة ، لأن القرآن الكريم نزل كله فى البقعة .

السابع :

مجئ الوحي كدوى النحل .

روى الإمام أحمد ، والحاكم ، عن عمر بن الخطاب ؓ قال : " كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل " (٢) .

الثامن :

العلم الذى يلقى الله تعالى فى قلبه ، وعلى لسانه ، عند الاجتهاد فى الأحكام . لأنه اتفق على أنه ﷺ إذا اجتهد أصاب قطعاً ، وكان معصوماً من الخطأ ، وهذا خرق للعادة فى حقه ﷺ دون الأمة ، وهو يفارق النفث فى الروح من حيث

(١) سنن الدارمى . باب رقم (١٢) .

(٢) مسند أحمد ج ١ ص ٣٤ .

حصوله بالاجتهاد ، والتفت بدونه .

ولقد كان الوحي ثقيلاً بصورة عامة لقوله تعالى ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾^(١) .

ويرجع ثقل الوحي إلى ما يتضمنه من عقيدة ، وشريعة ، وأخلاق ، بحيث لا يقدر على حملها ، والعمل بها سوى العقلاء ، الذين يحكمون عقولهم ، ويسيطرون على هواهم ، ونفوسهم .

ومن دلالات ثقل الوحي ما كان يحدث لرسول الله ﷺ حين نزول الوحي عليه كما تدل الآثار التي رواها أصحابه رضوان الله عليهم . ومنها :

. ويقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه : " كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك ، وتردد وجهه ، وغمض عينيه " ^(٢) .

. ويقول أبو هريرة رضي الله عنه : " كان رسول الله ﷺ إذا أوحى إليه لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى يقضى الوحي " ^(٣) .

. وتقول عائشة رضي الله عنها : " ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً " ^(٤) .

. وتقول أسماء بنت يزيد رضي الله عنها : " كنت آخذه بزمام ناقة رسول الله ﷺ حين أنزلت عليه سورة المائدة فكاد ينكسر عضدها من ثقل السورة " ^(٥) .

. ويقول ابن عمر رضي الله عنه : " أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة ، وهو راكب على راحلته ، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها " ^(٦) .

(١) سورة المزمل ، الآية ٥ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي - كتاب الفضائل . باب سبل الهدى ج ٢ ص ٣٤٤ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي . كتاب الجهاد . باب فتح مكة ج ١٢ ص ١٢٨ .

(٤) صحيح البخاري . باب بدء الوحي ج ١ ص ٤ ، ومعنى يتفصد : ينفصل .

(٥) سيرة ابن كثير ج ١ ص ٤٢٤ .

(٦) سيرة ابن كثير ج ١ ص ٤٢٤ .

. وثبت فى الصحيحين نزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ ، وهو على راحلته فكأنه يكون تارة ، وتارة بحسب الحال^(١).

والآيات التى بدأ الوحي بها بعد فترة الانقطاع هى أوائل سورة المدثر ، وفيها يقول الله تعالى ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾^(٢).

وهذه الآيات تضمنت فى إجمال كل ما يتعلق بالرسالة ...

فى الآية الأولى ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ بيان لعظم مقام الرسول عند ربه

كما يتضح من مناداته ، وتسميته بالمدثر الذى يفيد الستر ، والموانسة ، والهدوء وهى أمور ضرورية ليقوم الإنسان بالمهام التى توكل إليه .

يقول القرطبي : وفى خطابه بهذا الاسم فائدتان :

الفائدة الأولى :

الملاطفة ، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب ، وترك المعاتبة ، سموه باسم مشتق من حالته التى هو عليها ، كقول النبى ﷺ لعلى حين غضب فاطمة رضى الله عنهما ، فأتاه ، وهو نائم ، وقد لصق بجنبه التراب فقال له : " قم يا أبا تراب " ^(٣) إشعاراً له أنه غير عاتب عليه ، وملاطفة له ، وكذلك قوله ﷺ لحذيفة : " قم يا نومان " ، وكان نائماً ملاطفة له ، وإشعاراً لترك العتب ، والتأنيب ، فقوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فيه تأنيب ، وملاطفة ، ليستشعر أنه غير عاتب عليه .

(١) سيرة ابن كثير ج ١ ص ٤٢٤ .

(٢) سورة المدثر ، من الآية ١ : ٧ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب فصل على ﷺ ج ٦ ص ١١٦ .

والفائدة الثانية :

تنبيه لكل متدثر ، خائف ، لينهض بما كلفه الله به ، فالقيام بالواجب أولى ، وأحسن من النوم والقعود ، والتوكل على الله يساعد على النشاط ، والعمل .

وفى الآية الثانية ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ أمر بالقيام ، والنهوض ، وترك النوم ،

والكسل ، وضرورة التصميم الجاد ، والسعى المستمر فى الدعوة لدين الله تعالى ، وليكن الإنذار أول الأمر مع الناس ، وهو المناسب لهم ، تنبيهاً لعقولهم ، وتعريفهم بالخطر الذى يترصد الغافلين ، السائرين فى الضلال ، وهذا الإنذار رحمة من الله للناس ، لأنه يعطيهم الفرصة لينفذوا أنفسهم من ضلال الدنيا ، وعذاب الآخرة .

وتتجلى الرحمة فى هذا الإنذار بأنه يأتيهم بواسطة رسول ، يدعو ، ويبين ويكرر ، ويصبر ، ويستمر طويلاً فى دعوتهم ، عساهم يستجيبون ، ويتأثرون .

والرسول ﷺ كما هو منذر فهو مبشر إلا أن المقام اكتفى بالإنذار مراعاة لأحوال المخاطبين .

وفى الآية الثالثة ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ توجيه لرسول الله لمعرفة مقام الله

وعظمته التى تتعالى عن سائر القوى ، فهو وحده الكبير المتعال .

وبهذا المتصور- يعيش الرسول- ﷺ فى دعوته الناس- آمناً ، لا يتأثر

بمعارضاتهم ، أو عداوتهم ، لأنه مع الله القوى ، العزيز .

يقول سيد قطب : أمر الله رسوله ﷺ بذلك ليواجه نذارة البشرية ، ومتاعبها ،

وأهوالها ، وأثقالها ، بهذا التصور ، وبهذا الشعور ، فيستصغر كل كيد ، وكل قوة ، وكل عقبة ، وهو يستشعر أن ربه الذى دعاه ليقوم بهذه النذارة هو الكبير المتعال .

إن مشاق الدعوة ، وأهوالها فى حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور ،

ومعايشة هذا الشعور .

وفى الآية الرابعة ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرَ﴾ توجيه الرسول ﷺ للمحافظة

على طهارة الظاهر ، والباطن ، لأن التلقى عن الملأ الأعلى يتطلب هذه الطهارة .

وطهارة الثوب كناية عن طهارة القلب ، والعمل ، والسلوك .

والمحب للطهارة ، المتعود عليها ، لا يقع فى غيرها .

والطهارة الظاهرة ، والباطنة ضرورة لمزاولة مهام الرسالة ، والدعوة وسط

الضالين ، المنحرفين ، وبذلك يدعوهم الرسول ﷺ ، ولا يتأثر بهم ، وبخاصة أن

أهل الباطل ، وأنصار الشيطان يحاولون التغلب على أهل الحق بأخذهم إليهم ،

مستعينين بوسائل الهوى ، ومغريات الشهوات ، وبكافة ما يمكنهم

من إغراء .

ولذلك كانت الطهارة ضرورة للرسول ، والدعاة ...

وفى الآية الخامسة ﴿وَالرُّجْزَ فَأَهْجُرْ﴾ بيان للرجز ، وأهمية البعد

عنه ، والرجز شامل للشرك ، ولسائر المعاصي ، ومعناه العذاب ، أطلق على

سببه من باب المجاز المرسل للإشارة إلى أن العقوبة ملازمة للمعصية ، وقد أمر

الله تعالى النبى ﷺ بالهجر ، وليس بالترك فقط ، لما فى الهجر من ترك ، ونفور ،

وكراهية ، وتباعد .

والرسول ﷺ كان هاجراً للشرك ، وكافة موجبات العذاب قبل النبوة ، فقد

عافت فطرته السليمة الانحراف ، وبعد عن جميع المعتقدات الشائبة ، وترك

الرجس من الأخلاق ، والعادات ، ولم يعرف عنه أنه شارك فى شئ من هوس

الجاهلية ، وأخطائها .

ومع كل هذا كان هذا التوجه الذى يعنى ضرورة المفاصلة ، وأهمية إعلان

التميز الذى لا صلح فيه ، ولا هوادة معه ، فهما طريقان مفترقان لا يلتقيان .

وهجران الرجز يعنى التحرز من أسبابه ، ودواعيه ، من باب قوله تعالى :
﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾^(١) ، لأن عدم الاقتراب من
الزنى يقوم على ترك دواعية من النظر ، والتفكر ، ومصاحبة ألوان الهوى على
اختلافها .

وفى الآية السادسة ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ توجيه الرسول ﷺ إلى
عدم المن على الناس ، وعدم استنثار ما سوف يعطيه لهم ، فهو مكلف بالعطاء
المتواصل الكثير لإصلاح الحياة للناس أجمعين ، فعليه البذل ، والعطاء بلا من ،
وبلا عد ، وبذلك يعظم العطاء ، ويعظم صاحبه .
إن النبوة فضل إلهى ، وعلى الرسول أن يدوم شاكراً ، عابداً ، متحلياً بمكارم
الأخلاق ، وليس المن من الخلق الكريم أبداً .

والآية السابعة ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ تشتمل على أمر كريم يحتاجه
الرسول فى مسيرته مع النبوة ، والدعوة ، وعليه أن يصبر مع نفسه ، وهو يقاوم
شهواتها ... ومع الوحي ، وهو يسمعه ، ويحفظه ، ويفهمه ... ومع الناس ، وهو
يعلمهم ، ويدعوهم ... ومع الأعداء ، وهو يقاومهم ، ويجادلهم ...
كل ذلك طاعة لله رب العالمين .

إن المعركة طويلة ، والصبر هو الزاد الذى يلائمها ، وهو الذى يحقق الفوز
فى النهاية .

هذه الآيات السبعة الأولى فى سورة المدثر نزلت فى أول الوحي بالرسالة ،
بعد فتور الوحي متضمنة الأسس الرئيسية للحركة بدين الله تعالى ، ولذلك جاءت

(١) سورة الإسراء ، من الآية ٣٢ .

إعلاناً واضحاً عن أساسيات القيام بالرسالة ، وأهم ما يجب أن يتحلى به الرسول ، والدعاة .

وأما أول سورة العلق فقد نزلت في مرحلة الوحي بالنبوة التي استمرت ستة أشهر ، ليعرف النبي ﷺ ربه ، ويقف على كمال صفاته ، وحقائقها ، ويألف لقاء الملائكة ، وتلقى الوحي من ربه .

يذهب البعض إلى أن أول سورة المدثر نزل أولاً استناداً إلى حديث البخاري الذي رواه بسنده عن يحيى بن أبي كثير قال : " سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ؟ قال : ﴿ يَتَّيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

قلت : يقولون إن أول ما نزل ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله ﷺ عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لي .

فقال جابر : لا أحدثك إلا بما حدثنا رسول الله ﷺ قال : " جاورت بحراء ، فلما قضيت جواري ، هبطت ، فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً ، فأتيت خديجة فقلت : " دثروني وصبوا على ماء بارداً " .

يقول ﷺ : فدثروني ، وصبوا على ماء بارداً . فنزلت ﴿ يَتَّيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ﴿ وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ ﴾ ﴿ (١) ﴾ .

ويروى مسلم حديثاً يشير كذلك إلى أن أول سورة المدثر نزل أولاً ، فلقد

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري . كتاب التفسير . سورة المدثر ج ٨ ص ٦٧٦ .

روى بسنده عن أبي سلمة قال : " أخبرني جابر بن عبد الله ، أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسي قبل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، جالساً على كرسي بين السماء والأرض ، فجئت منه حتى هويت إلى الأرض ، وجئت إلى أهلي فقلت : زملوني ، زملوني ، فذرني ، فأنزل الله تعالى ﴿ يَتَأْتِيَ الْمُؤَذِّنُ

﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ۚ وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ ﴾

قال أبو سلمة : والرجز الأوثان ، ثم حمى الوحي بعد ذلك ، وتتابع (١) ، ورواه البخاري من هذا الوجه أيضاً (٢) .

يعلق ابن كثير في تفسيره على هذا الاختلاف فيقول : والأولى القول بأن جبريل نزل بأول سورة العلق في بداية النبوة ، وأن نزول أول سورة المدثر كان في بداية الرسالة ، لأن في حديث نزول أول سورة المدثر الذي رواه البخاري ، ومسلم ، وغيره إشارة إلى المجئ السابق لجبريل ، حيث يقول : " فإذا الملك الذي جاءني بحراء " يوم أن جاءه بأول سورة العلق ، وهذا يفيد أن أول سورة نزلت بعد فتور الوحي هي المدثر ، وهي أول وحي الرسالة ، وعلى هذا فأولوية نزول أول العلق أولوية مطلقة ، وأولوية سورة المدثر أولوية مقيدة بما بعد فتور الوحي ، وبدء الرسالة (٣) .

ويذهب البعض إلى أن أول سورة المزمل نزل قبل المدثر ، لكن هذا الرأي مردود ، لأن أول سورة المدثر فيه أمر بالإنذار ، وهذا يكون في أول المبعث ، أما أول سورة المزمل ففيها الأمر بقيام الليل ، وترتيل القرآن ، وهذا يقتضى تقدم

(١) صحيح مسلم - كتاب الإيمان . باب بدء الوحي ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري - كتاب التفسير . باب وربك فأكبر ج ٨ ص ٦٧٧ ، ٦٧٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٠ .

تشريع الصلاة ، ونزول كثير من آيات القرآن الكريم ، حيث كان الأمر بتلاوتها ، ليلتوها النبي في الصلاة ، وفي غير الصلاة .

ويذهب البعض إلى أن سورة الضحى هي التي نزلت أولاً بعد فترة الوحي مستنداً بقوله تعالى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ وسبب نزول الآية يشير إلى هذا الرأي ، لأن أم جميل بنت حرب امرأة أبي لهب ، لما تباطأ الوحي عن رسول الله ﷺ ليلتين أو ثلاثاً قالت للنبي ﷺ ، ودعك ربك ، وقلاك ، فنزلت ...

يرد الحافظ ابن حجر هذا فيقول : الحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول سورة الضحى ، غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي ، فإن تلك التي علقت عليها زوجة أبي لهب دامت أياماً ، وهذه الأخرى ، لم تكن إلا ليلتين ، أو ثلاثاً ، فاختلطتا على بعض الرواة .

وقد ثبت أن الوحي كان يفتر عن النبي ﷺ أحياناً ، كما حدث قبل نزول سورة الكهف ، فإن النبي لما سئل عن أصحاب الكهف ، قال : سأحدثكم بها غداً ، ولم يستثن ففتر عنه الوحي خمسة عشر يوماً^(١) . فقال الله له ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾^(٢) . فدل ذلك على أن القول بالأولوية فيه اختلاف كبير بين العلماء ، بسبب اختلاف اعتبار كل قول^(٣) .

وبعد نزول أوائل سورة المدثر تتابع الوحي ، واستمر في مكة ، والمدينة قبل الهجرة ، وبعدها ، حتى لقي الرسول ﷺ ربه ...

(١) أنظر : تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٠ ، ٥٢٢ بتصرف .

(٢) سورة الكهف ، من الآية ٢٣ : ٢٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٧٢ .

المبحث الرابع عشر

أحداث السيرة المحمدية

بعد التكليف بالرسالة

بعد أن كلف الله رسوله ﷺ بالرسالة ، وبدأ نزول الوحي تحول نشاطه ﷺ إلى العمل بالتبليغ ، وسيطرت عليه جوانب الرسالة كاملة .

فهو ﷺ كان يتلقى الوحي من الله ، ويبلغه لمن حوله ، ويدعو به كل من بلغ ، ويبذل في سبيل هذا وقته ، وجهده ، ونشاطه كله .

وكانت زوجته خديجة رضى الله عنها خير رفيق لهذه الرحلة الكريمة الشاقة .
وحيث أن الفصل التالى خاص بحركة الرسول ﷺ بالدعوة إلى الناس ، وهو بذلك يتضمن سيرة محمد ، ومسار رسالته فى الفترة المكية ، فإنى أورد هنا أهم الأحداث المتصلة بالسيرة المحمدية فى إطار عمله فى تبليغ الإسلام موضوع الفصل .

وتتميز لجوانب السيرة الشخصية لمحمد ﷺ فى الفترة المكية فانى سأورد الملامح العامة لسيرة محمد ﷺ خلال هذه الفترة مع التركيز على ما له صلة بالجانب الشخصى عنده ﷺ ، وبذلك نقدم السيرة كاملة بصورتها العملية التى جعلت الرسول ﷺ يعيش للرسالة التى خلقه الله لهما .

ولهذا سوف يتضمن هذا المبحث عددا من المواقف التى تحدد مسار السيرة النبوية ، وحياة محمد ﷺ من خلال هذه السيرة ، وهى :

- أولاً -**تهيئة بيت النبي للإسلام**

عاش النبي ﷺ بعد الرسالة في بيئة متآلفة ، متحابية ، فلقد كان ﷺ يربى عليا ، وينفق عليه ، وكان معه مولاه زيد بن حارثة ، بالإضافة الى زوجته خديجة وأولاده منها فتكونت بذلك جماعة متآلفة تجعل حركة الحياة في إطارها سهلة ، ميسرة ، يساعد كل طرف غيره ، ويعين كل رفيقه في سعيه ، وعمله ، وهذا من فضل الله على محمد ﷺ ليقوم بمهام الرسالة على وجهها .

فلقد آمنت خديجة رضى الله عنها بالرسالة من لحظتها الأولى ، وقبل أن يطلب زوجها إيمانها ، وأخذت تطمئن محمداً ﷺ ، وتسرى عنه ، وتفسر له ما يرى في الغار ، وفي غيره بما يريحه ، ويرضيه ، وتشاركه في مشاغله ، ومسائله .

يقول ابن إسحاق : وآمنت به خديجة بنت خويلد ، وصدقت بما جاء به من الله ، وآزرتة على أمره ، فكانت أول من آمن بالله ، ورسوله ، وصدقت بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن رسوله ، لا يسمع من أهله شيئاً يكرهه ، من رد عليه ، وتكذيب له من خاصته ، لأن ذلك يحزنه ، ويؤلمه ففرج الله عنه بخديجة فكان إذا رجع إليها ، تثبته ، وتخفف عليه ، وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس ، يرحمها الله تعالى^(١) .

وكانت رضى الله عنها عاقلة ، حكيمة ، تكون حيث يكون ، وتحب ما يحبه وتتمنى ما يتمناه ، آمنت بالدعوة ، وعبدت ما كان يعبد في صدق ، وإخلاص . ولم يتحدث التاريخ عن أى قصور حدث من خديجة ، فقامت بواجب الزوجة ورعت شئون الأولاد والبيت ، ووضعت زوجها رسول الله ﷺ مع مسؤوليته التي

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٤٠٢ .

كلفه الله بها ، واشترت غلاماً ، ووهبته له ﷺ ليعلمه ، ويعينه فيما يحتاج إليه من حاجات الحياة .

جاء جبريل ﷺ إلى رسول الله ﷺ يعلمه الوضوء ، والصلاة بطريقة عملية ، فتوضأ وصلى ، فلما رأته خديجة توضأت مثله ، وصلت معه ، ومنهما تعلم على بن أبي طالب .

ففى الخبر أن جبريل أتى محمداً ﷺ ، وهو بأعلى مكة ، فهزم له بعقبة فى ناحية الوادى ، فانفجرت له منه عين ، فتوضأ جبريل ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ليريه كيفية الطهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله ﷺ ، كما رأى جبريل يتوضأ ، ثم أقام به جبريل فصلى به ، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته .

ولما انصرف جبريل جاء رسول الله ﷺ إلى خديجة ، فتوضأ أمامها ، يريها كيفية الطهور للصلاة ، كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ ، ثم صلى لها كما صلى به جبريل ، فصلت بصلاته^(١) .

ثم إن على بن أبي طالب ﷺ ، وهو فى كنف رسول الله ، رأى رسول الله وخديجة يصليان فقال : ما هذا يا محمد ؟

فقال رسول الله ﷺ : دين الله الذى اصطفى لنفسه ، وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله وحده ، لا شريك له ، وإلى عبادته ، وإلى الكفر باللات والعزى . فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمراً حتى أحدث به أبا طالب ليأذن لى فيه .

وكره رسول الله ﷺ أن يفشى على سره قبل أن يستعلن أمره .

فقال له ﷺ : يا على إذا لم تسلم فاكتم هذا .

فمكث على تلك الليلة ، ثم إن الله تبارك وتعالى أوقع فى قلبه الإسلام ، فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال : ماذا عرضت على يا محمد ؟

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣٩٨ .

فقال له رسول الله ﷺ : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات ، والعزى ، وتبرأ من الأنداد .
ففعل على ﷺ ، وأسلم^(١) .

وأما زيد بن حارثة فقد عاش مع رسول الله ﷺ منذ صغره ، مولى له ، لأن خديجة اشتريته ، ووهبته للنبي ﷺ وعمره ثمانى سنوات ، وهو من أوائل من أسلم حتى قال بعضهم : إنه أسلم قبل على بن أبى طالب ، وبقي فى كنف رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن باسمه فى قصة زواجه بزینب بنت جحش^(٢) .

يقول- تعالى ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَىٰ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِيَكَىٰ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝ ﴾^(٣) .

وبذلك أسلم كل من يعيش فى بيت محمد مع بدء ظهور الإسلام ، فكان بذلك مثوى النبي ﷺ ، وموطن راحته ، والتخفيف عنه ، وتسليته أمام صدور أهل مكة وانصرافهم عن دعوته .

وذلك أمر يلمسه المصلحون ، والدعاة حينما يكون أول المعارضين من أهليهم وذويهم .

لقد رأى نوح ولوط عليهما السلام من زوجتيهما المعارضة ، والسير فى ركب الأعداء ، وإفشاء أسرار زوجيهما الرسولين ، وبين القرآن الكريم مسلكهما ،

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٤٠٣ .

(٢) أنظر : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٢ ص ١٤٠ . ١٤٢ بتصرف .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٣٧ .

واعتبره خيانة كبرى عاقبهم الله عليها فى الدنيا والآخرة . يقول الله تعالى:
﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ ۚ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِّنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَحَاثَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ
ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١﴾ .

وكانت الصلاة ، وكان الوضوء فى أول المبعث على وجه الإباحة ، ولذا
جاء بها جبريل عليه السلام معلماً ، لا مشرعاً .
فلما فرضت الصلاة فى ليلة الإسراء ، جاء الأمر بالوضوء فى القرآن الكريم
، وأوجبه الله لأداء الصلاة المفروضة .
وهكذا تألفت هذه الجماعة بالإسلام ، وتوحد عملها ، وهدفها ، مما جعل
السعادة ترفرف على محمد ﷺ فى بيته الكريم .

- ثانياً -

المرحلة السرية للدعوة

سارت الحياة هادئة في مرحلة الدعوة السرية ، التي استمرت قريباً من ثلاث سنوات على الأرجح .

ويعود الهدوء خلال هذه المرحلة إلى أن كفار مكة تصوروا محمداً واحداً من الحنفاء الذين يتكلمون من غير أن يؤثروا في غيرهم ، وبخاصة أنه لا يتكلم مع كل الناس ، وإنما رأوه يتخير أفراداً قليلين ، متميزين بلين الجانب ، والتواضع ، مع التروى ، والهدوء ، وهم في نظر أهل مكة من الضعفاء الذين لا أثر لهم في المجتمع المكي ، ولا يمثلون إلا أنفسهم .

كما لاحظوا أن دعوة محمد خلال هذه المرحلة تدعو للبناء الإيجابي ، ولا تتعرض لفساد حياتهم ، وضلال معاشهم .

وأيضاً فإنهم أدركوا أن محمداً ﷺ لم يتوجه بالدعوة لأحد خارج مكة ، وفي نفس الوقت كانت دعوته بياناً لعقيده ، بعيداً عن نقد الأصنام ، وبيان ضلالها . تصور أهل مكة أن محمداً سيفتر عن دعوته ، ويتركها بعد مدة حين ينصرف الملاء والوجهاء عنه ، وصدقوا أنفسهم حينما رأوا أتباع محمد ﷺ من الفقراء ، والضعفاء ، وملازمة محمد للسرية والاختفاء .

إن البدء بالسرية في الدعوة حكمة إلهية ، قام بها رسول الله ﷺ لتثبيت جذور الدعوة ، وتهيئة الأرض لحركتها ، وإعداد أناس يحملونها ، ويدافعون عنها حين يهاجمها أعداؤها فيم بعد ، وقد كان .

فلما جهر محمد ﷺ بدعوته ، ودخل في الإسلام عدد يزداد كل يوم شعر المكيون بالخطر ، وبدأوا في المواجهة ، والمقاومة ، والعدوان .

- ثالثاً -

صلته ﷺ بأعمامه

أعمام النبي ﷺ هم أبناء عبد المطلب التسعة ، وكانوا جميعاً يحبون محمداً ويرون فيه صورة أخيه ، الذى استسلم للذبح فداء لهم ، والذى مات ومحمد حمل فى بطن أمه ، حتى أن عمه أبا لهب أعتق جاريته (ثويبة) فرحاً بمولده ﷺ .

وقد أنزله جده منزلة خاصة ، فلما مات عبد المطلب ، كفله عمه الشقيق (أبو طالب) ، وكان أعمامه جميعاً يهتمون بشأنه ، فإذا رحل للتجارة أوصوا القافلة به ، وتابعوا خبره ، وحرصوا على سلامته ، واستمراريته بينهم .

وفى يوم زواجه من خديجة كانوا جميعاً معه ، وشاركوه هذا الحدث السعيد ... فلما ولد له ﷺ البنين والبنات خطب عمه (أبو لهب) لولديه عتبة ، وعتيبة بنتى رسول الله رقية ، وأم كلثوم .

وبعد أن أعلن محمد ﷺ رسالته ، ونادى فى مكة بدين الله تعالى ظل عمه (أبو طالب) على دين قومه ، ولم يدخل فى الإسلام ، ومع ذلك بقى يدافع عنه ، ويرد من يقصده بسوء .

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن (أبا طالب) أبى خذلان رسول الله ﷺ ، وأعلن وقوفه بجانبه ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له : قد بلغنا يا أبا طالب الكثير عن ابن أخيك محمد ، هذا عمارة بن الوليد ، أنه قد فتى فى قريش وأجمله ، فخذ فلك عقله ، ونصرته ، واتخذ ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ، ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل .

فقال لهم أبو طالب : والله لبئس ما تسوموننى ! أعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه؟! هذا والله ما لا يكون أبداً .

فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصي : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً .

فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ، ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك^(١) .

وقد تجمع أعمامه حوله ﷺ حماية له ما عدا أبي لهب ، فقد أعماه الله عن الحق ، وأخذ في عداوة محمد ﷺ ، والصد عن الدعوة ، حتى أنه أمر ولديه بتطبيق بنات النبي ﷺ ، وأخذت امرأته في وضع الشوك ، والحطب ، والفذر أمام بيت محمد ﷺ .

ولما عزمت قريش على قتل محمد جاءوا يستأذنون قومه ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، لأخذه ، وقتله برضى قومه ، فأبوا ذلك عليهم ، ورفضوا تسليمه لهم مع أنهم لم يدخلوا في الإسلام يومذاك ، عيبة ، وخوفاً من العار ... إن أعمام النبي ﷺ ظلوا معه عصبية ، وعاشوا بهذه العصبية حوله وكانت سبباً في إسلام بعضهم فعمه (حمزة) ﷺ أسلم بسبب دفاعه عن محمد ﷺ ...

فقد حدثوا أن أبا جهل مر على محمد ﷺ ، وهو عند الصفا فأذاه ، وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ ، ولم يكلمه ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان ، في مسكن لها تسمع ما قاله أبو جهل ، وشاء الله تعالى أن يمر حمزة راجعاً من قنص له ، متوشحاً قوسه ، فقالت له المرأة : يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم عمرو بن هشام ، وجده هنا جالساً فأذاه ، وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف ، ولم يكلمه محمد ﷺ فاحتمل حمزة الغضب ، فخرج يسعى ، ولم يلتفت إلى أحد حتى أتى أبا جهل ، وهو جالس ، في نادى القوم حول المسجد ، فضربة بالقوس ،

(١) سيرة النبي ج ١ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٤٢٠)

فشج رأسه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه ، وأنا على دينه ، أقول ما يقول ، فرد ذلك على إن استطعت .

فقام رجال من بنى مخزوم لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً .

وثبت حمزة من ساعتئذ على ما قاله ، فأسلم ، وحسن إسلامه ، ويومها عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز . وللمسلمين معه ، بإسلام عمه حمزة المعروف بينهم بأنه أعز فتى قريش^(١) .

وهكذا دافع عنه أعمامه ، لمنزلته بينهم ، وحسن تعامله معهم ، وكرم خلقه وسطهم ، ولو كان غير ذلك لخلعوه ، وتركوه .

أما عمه أبو لهب ، فقد استمر مع أعداء محمد يناصروهم ، ويصد الناس عن سبيل الله تعالى متأثراً بعدواة زوجته (هند) لرسول الله ﷺ تعصباً منها لقبيلتها (بنى أمية)

(١) هذا الحبيب ص ٦٧ .

- رابعاً -**أعمال القرشيين
للقضاء على الإسلام**

استمرت الدعوة سرية مدة تزيد عن عامين ونصف ، وبعدها أمر الله رسوله بالجهر بالدعوة ، وذلك بقوله تعالى ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(١) . فجهر النبي ﷺ بالدعوة على نحو ما سنذكره في حركة النبي بالدعوة إلى الإسلام ، وهنا أخذ كفار مكة في صرف النبي عن دعوته ، وبذلوا لهذا الغرض كل ما أمكنهم .

وأهم ما لاقاه الرسول ﷺ منهم ما يلي :

- ١ -**محاولة التشكيك في صدق محمد ﷺ**

أخذ كفار مكة يبحثون عن مطعن يوجهونه لمحمد ﷺ ، فأرسلوا رسلهم إلى أهل الكتاب يسألون عن مدى علمهم بصدق محمد ، وكيفية كشف مزاعمه . يقول محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجوا ، حتى أتيا المدينة ، فسألوا الأحبار عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا

(١) سورة الحجر ، الآية ٩٤ .

لهم أمره ، وبعض قوله .

وقالاً : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول ، فترؤا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ، ومغاربها ما كان نبؤه ، واسألوه عن الروح ما هي ؟

فإن أخبركم فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر ، وعقبة حتى قدما على قريش فقالا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحرار اليهود أن نسأله عن أمور ، وأخبروهم بها .

فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد أخبرنا ، عن كذا وكذا ، وسألوه عن الأمور التي حددها الأحرار .

فقال لهم رسول الله ﷺ : أخبركم غداً عما سألتكم عنه ، ولم يستثن فانصرفوا عنه ، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا ينزل عليه من الله وحى ، ولا يأتيه جبريل عليه السلام .

حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا وعدنا محمد غداً ، وقد أصبحنا في اليوم الخامس عشر ، ولم يخبرنا بشئ عما سألناه عنه .

وتألم رسول الله ﷺ من انقطاع الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، وبعد خمسة عشر يوماً جاءه جبريل عليه السلام من الله ﷻ بسورة الكهف ، وفيها يعاتبه الله على حزنه عليهم ، ويخبره عما سأله عنه من أمر الفتية ، وأنهم أصحاب الكهف ، والرجل الطواف ، وهو العبد الصالح الذي علم موسى عليه السلام ، وهو

(٤٢٣)

الخضر ، وقول الله ﷻ ﴿ وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) .

فلما أخبرهم بنبأ ما سألوا عنه ، رجعوا إلى أنفسهم ، وعلموا أنه لا طاقة لهم بمواجهة رسول الله ﷺ مواجهة عقلية ، ومنطقية ، ولذا لجأوا إلى العدوان ، والإيذاء المادى ، ونشر الأكاذيب ، والمفتريات حول محمد ، ودعوته .

- ٢ -

عداء أبى لهب لـ محمد

لما نزل قول الله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) . خرج رسول الله ﷺ حتى صعد على الصفا فهتف : يا صباحاه .

فقالوا : من هذا ؟!

فجعل ﷺ ينادى : يا بنى فهر ! يا بنى عدى ! وهكذا لبطون قريش جميعاً ، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل منهم إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟

فقال النبی ﷺ : رأيتمكم إن أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي ؟!

قالوا : نعم ، ما جرينا عليك كذباً قط .

قال ﷺ : فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى ﴿ تَبَّتْ

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٢١٤ .

يَدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ وقد تب (١) .

ولم يكتف أبو لهب بهذا الموقف ، بل أخذ في التصدى لرسول الله ﷺ ،
وصرف الناس عن دعوته ، فكان يسير خلفه . ويقول : إنه كاذب ، وأنا أعلم خبره ،
فهو ابن أخى ... وأخذ هو وزوجته فى وضع الشوك ، والحطب أمام بيت النبى
ﷺ ليعجزه عن الخروج ، والحركة ، وفيه وزوجته نزل قول الله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَيْ
لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾
وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ (٢) .

- ٣ -

السخرية والاستهزاء بمحمد ﷺ

أخذ كفار مكة يستهزءون برسول الله ﷺ توهيناً لنفسه ، وتيئيساً لنشاطه ،
وصرفاً للناس عنه فكانوا ينادونه بالمجنون . يقول الله تعالى ﴿ وَقَالُوا يَتَأْتِيَهَا الَّذِي
نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٣) .
ويصفونه بالسحر ، والكذب يقول سبحانه ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ
وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴾ (٤) .

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى . كتاب التفسير . باب سورة تبت ج ٨ ص ٧٣٧ ،
والنبا الخسران والتدمير .

(٢) سورة المسد .

(٣) سورة الحجر ، الآية ٦ .

(٤) سورة ص ، الآية ٤ .

وكانوا يشيعونه ، ويستقبلونه بنظرات ناقمة ، وعواطف هائجة ، وكراهية ظاهرة . يقول تعالى ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۚ ﴾ (١) .

وكان إذا جلس ﷺ ، وحوله المؤمنون المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم ، وقالوا ما حكاه الله عنهم : هؤلاء جلساؤه الذين ﴿ مَبِّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ (٢) . فرد الله عليهم بأنه وحده العليم بحقائق الناس ، وقلوبهم ، وليس لهم أن يتقولوا . عليهم . فهم أعظم منهم . وذلك بقوله تعالى ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (٣) . فأنكر عليهم بأسلوب يبرز جهلهم ، وخيبتهم .

إن كفار مكة كانوا يتصرفون بإستعلاء ، وجبروت ، وهم يتعاملون مع رسول الله . وسائر أصحابه . حتى أنهم جعلوا المؤمنين مادة سخريتهم . ودعابة مجالسهم ، يتضحكون من عقيدتهم ، ويتغامزون إذا رأوهم ، وإذا رجعوا إلى أهلهم تفكهوا بالحديث عنهم ، معتقدين أنهم ضلوا ، بتركهم عبادة الأوثان . يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۚ ﴾ (٤) ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۚ ﴾ (٥) ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۚ ﴾ (٦) ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۚ ﴾ (٧) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ۚ ﴾ (٨) .

(١) سورة القلم ، الآية ٥١ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٥٣ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٥٣ .

(٤) سورة المطففين ، من الآية ٢٩ : ٣٣ .

بث الدعايات الكاذبة

أخذ الكفار يثبتون الدعايات الكاذبة حول شخصية محمد ﷺ ، وعن القرآن الكريم الذى ينزل عليه ، وعن أتباعه ، حتى لا يصدقوه أحد .

قالوا عن القرآن ما حكاه الله تعالى فى قوله ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ وقالوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿^(١) .

وقالوا عن رسول الله ﷺ ما قصة الله عنهم ﴿ وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشَى فِي الْأَسْوَاقِ ۚ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾^(٢) .

وقالوا عن المسلمين ما حكاه الله تعالى ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾^(٣) .
 وكل ما قالوه ظاهر البهتان ، لأن القرآن الكريم كلام الله ، ولو كان من عند محمد كما زعموا فما بالهم يعجزون عن الإتيان بأقصر سورة منه ؟؟
 ومن هم هؤلاء الآخرون الذين يعينون محمداً ؟؟
 إنهم بشر كما يزعمون ، فلم يتركونهم يفعلون ؟
 ولم لا يواجهونهم بالتحدى ؟؟
 وهل يكتب محمد عنهم وهو أُمى ؟؟

(١) سورة الفرقان ، من الآية ٤ : ٥ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٧ .

(٣) سورة المطففين ، الآية ٣٢ .

لقد جاءوا بالزور والبهتان !!

ولم يعترضون على بشرية محمد ﷺ ، أيريدون أن يكون الرسول إليهم ملكاً ؟
وكيف يتعاملون مع الملك ؟

إنهم يرون أتباع محمد على غير حق ، ولكن أين مناط ضلالهم ؟
إن قلوب الكفار قد عميت ، وكل اعتراضهم تبرير لكفرهم وعتوهم ... وقد
رأيناهم يبحثون عن أى علة تساعد على كفرهم ، ولم يلتفتوا إلى ضلال ما هم
فيه ، ولم يدركوا فسادهم ، وإفكهم ، يقول الله عنهم ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى
سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

ذكروا أن الوليد بن المغيرة قال مرة لقريش : يا معشر قريش ! والله لقد نزل
بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم خلقاً ،
وأحسنكم مسلماً ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه
الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به .

قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ، ونفثهم ، وعقدتهم .
وقلتم : كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة ، وتخالجهم ، وسمعنا
سجعتهم .

وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه
كلها ، هزجه ، ورجزه ...

وقلتم : مجنون ، والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا
وسوسته ، ولا تخليطه .

يا معشر قريش أنظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

ثم ذهب الوليد إلى الحيرة بحثاً عن حل يريده ، فتعلم هناك أحاديث ملوك
الفرس ، ووقف علي أخبار رستم ، وأسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ
مجلساً للتذكير بالله ، والتحذير من نعمته ، خلفه الوليد ، وهو يقول : والله ما محمد
بأحسن حديثاً مني ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ، ورستم وأسفنديار ثم يقول :
بماذا يكون محمد أحسن حديثاً مني^(١) .

وما درى الوليد أن حديث محمد ﷺ مع جماله يتضمن حقيقة صادقة ، وديناً
صالحاً ، ومنهجاً طيباً ، وطريقاً لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة وهو كلام الله العظيم
، أما حديثه فهو خيال كاذب ، وإبهار لفظي ، وتشديق كلامي ، لا حقيقة فيه ، ولا
غاية له ... ولا فائدة معه !!!

وهو عبث يضيع الوقت والجهد ، ولا يؤدي إلا إلى بوار .

وما الذي سيستفيد به الناس من حديث فارس وغيره ؟

وما جدوى كلام يردده الرواة ، لا توجيه فيه ، ولا نصح معه ؟

وفي الوليد بن المغيرة المخزومي نزل قول الله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ

وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهْدُتٌ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۖ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا

ۖ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ

ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۖ إِنَّ

هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ ۝٢٥﴾^(٢) .

والآيات واضحة المعنى فلقد أنعم الله على الوليد بنعم كثيرة منها المال ،

(١) تفهيم القرآن ج ٤ ص ٩ .

(٢) سورة المدثر ، من الآية ١١ : ٢٥ .

والولد ، والجاه ، والعقل ومع ذلك فكر وقدر ، وضل وأضل ، وزعم أن محمداً ساحر ... وسوف يلقي المصير المناسب لعدائه وضلاله .

وقصه الوليد مع القرآن الكريم ، ومع محمد ﷺ تشبه ما فعله النضر بن الحارث ، فلقد ذكروا أن النضر قال : والله لقد نظرت فيما قال محمد ، فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه ، وما أشك أنه سحر .

فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام فأتاه فقال : أى عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً .

قال : لم ؟

قال : يعطونك لتأتى محمداً ، وتسبه .

قال : قد علمت قريش أنى أكثرها مالاً .

قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك منه أنك منكر لما قال ، وأنت كاره له .

قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى . قال أبو جهل : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه .

قال : فدعنى حتى أتفكر فيه .

فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره^(١) .

وهكذا عاش المكيون الحقيقة وعلموها ، لكنهم جحدوها عتوا ، واستكبارا وكذبوا وزوروا ، واستهزأوا بالحق ، وما دروا أن ذلك استهزاء منهم لأنفسهم فى الحقيقة .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٣ .

الرجوع إلى المساومة

حاول الكفار مرات عديدة أن يتعاون معهم محمد ﷺ في خلط الإسلام بالكفر ، ليكون منهما ديناً خليطاً من هذا وذاك ، على أن يعبدوا الله يوماً ، ويعبد محمد أصنامهم يوماً آخر ...
وهكذا ...

تصوروا! المذنب وضعاً بشرياً ، يؤلفه أصحاب. المهوى لإرضاء. نزولتهم وشهواتهم ، ويغيرونه حين يريدون !!!

يروى ابن إسحاق بسنده أن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، والوليد بن المغيرة ، وأمّية ابن خلف ، والعاص بن وائل السهمي . وكانوا ذوي أسنان في قومهم . اعترضوا محمداً ، وهو يطوف بالكعبة ، وقالوا له : يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَتُمِّعِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَتُمِّعِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾^{(١)(٢)} .

فكانت المفاصلة الكاملة بين الإيمان ، والكفر .

(١) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٣٦١ .

(٢) سيرة النبي ج ١ ص ٤١٦ .

النجوء إلى الاضطهاد البدنى

بعد أن فشل كفار مكة في دعاياتهم ، ومساوماتهم بدأو في إيذاء النبى ﷺ بدنياً وكان أشد الناس إيذاء له ﷺ جيرانه ، وبعض أقاربه ، وعلى رأسهم عمه أبو لهب .

يقول ابن إسحاق : كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب والحكم بن أبى العاص بن أمية ، وعقبة بن أبى معيط ، وعدى بن حمراء الثقفى وابن الأصداء الهذلى ، وهم جميعاً من جيرانه ، وقد كتب الله عليهم الشقاوة فماتوا جميعاً على الكفر ، إلا الحكم بن أبى العاص فإنه أسلم فيما بعد .

فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة ، وهو يصلى .

وكان أحدهم يطرحها فى برمته إذا نصبت له ، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجراً ليستتر به منهم إذا صلى .

وكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به ويقف على الباب ، ثم يقول : **يا بنى عبد مناف أى جوار هذا ؟ ثم يلقيه فى الطريق** ^(١) .

وازداد عقبة بن أبى معيط فى شقاوته وخبثه ، فقد روى البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود ﷺ : **أن النبى ﷺ كان يصلى عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، إذ قال بعضهم لبعض : أياكم يجىء بسلا جزور بنى فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد .**

فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبى معيط) فجاء به ، فنظر ، حتى إذا سجد النبى ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه ، وأنا أنظر ، لا أغنى شيئاً ، فجعلوا يضحكون ، ويميل بعضهم على بعض ، مرحاً ، ورسول الله ساجد ، لا يرفع رأسه حتى جاءت ابنته فاطمة ، فطرحته عن ظهره .

(١) سيرة النبى ج ١ ص ٤١٦ .

فرفع ﷺ رأسه ، ثم قال : اللهم عليك بقريش ثلاث مرات .
فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم ، وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد
مستجابة ، وقد سمى الرسول في دعائه فقال : اللهم عليك بأبى جهل ، وعليك
بعتبة بن أبى معيط ، وعد السابع فلم نحفظه .

يقول عبد الله بن مسعود : فو الذى نفسى بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول
الله ﷺ صرعى في القليب ، قليب بدر^(١) .

وكان (أمية بن خلف) إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه ، وفيه نزل قوله الله
تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾^(٢) .

قال ابن هشام : الهماز : الذى يشتم الرجل علانية ، ويكسر عينيه ، ويغمز
به ، والهمز هو الشتم نفسه ، واللاماز : الذى يعيب الناس سراً ويؤذيهم^(٣) .
واللمزة المرة من اللمز وهى العيب والأذى .

أما أخوه (أبى بن خلف) فكان هو وعقبة بن أبى معيط متصافيين ، جلس
عقبة مرة إلى النبى ﷺ وسمع منه ، فلما بلغ ذلك أبيا أنبه ، وعاتبه ، وطلب منه أن
ينقل في وجه رسول الله ﷺ ففعل ، و(أبى بن خلف نفسه) هو الذى فت عظماً
رميماً ، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ .

وقال : أبيعث الله هذا الجسد بعدما رم وبلى ؟!

فقال له ﷺ : نعم وبيعثك ويدخلك النار^(٤) .

وكان الأخنس بن شريق الثقفى ممن ينال من رسول الله ﷺ ، وقد وصفه

(١) صحيح البخارى . كتاب الوضوء . باب إذا ألقى على المصلى قدر أو جيفة ج ١ ص ٣٧ .

(٢) سورة الهمة ، الآية ١ .

(٣) سيرة النبى ج ١ ص ٣٥٦ . ٣٥٧ .

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه من خلق ردىء ، وهى فى قوله تعالى
﴿ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عْتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾^(١) .

وكان أبو جهل يجرى أحياناً إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن ، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ، ولا يطيع ، ولا يخشى ، ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول ، ويصد عن سبيل الله ، ثم يذهب مختالاً بما يفعل ، فخوراً بما ارتكب من الشر ، كأنما فعل شيئاً يذكر ، وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿١٦﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿١٨﴾ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿١٩﴾ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٢٠﴾ ﴾^(٢) .
وكان يمنع النبى ﷺ عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلى فى الحرم ، ومرة مر به وهو يصلى عند المقام فقال : يا محمد ألم أنهك عن هذا ، وتوعده .
فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره .

فقال : يا محمد بأى شىء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى نادياً ،
فترل قوله تعالى ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿٢٤﴾ ﴾^(٣) .

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهاز ، بل ازداد شقاوة فيما بعد .
أخرج مسلم عن أبى هريرة قال : إن أبا جهل قال : هل يعفر محمد وجهه
بين أظهركم ؟

فقالوا : نعم !!

فقال : والللات والعزى ، لئن رأيته لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه فى
التراب .

(١) سورة القلم ، من الآية ١٠ : ١٣ .
(٢) سورة القيامة ، من الآية ٣١ : ٣٥ .
(٣) سورة العلق ، الآية ١٧ .

(٤٣٤)

فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ، ليطأ رقبته ، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه مهرولاً ، ويتقى بيديه .
فقالوا : ما لك يا أبا الحكم ؟
قال : إن بيني وبينه لخذقاً من نار ، وهولاً ، وأجحة .
فقال رسول الله ﷺ : لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً^(١) .

— ٧ —

محاولة قتل محمد ﷺ

وصل حد كراهية القوم لرسول الله ﷺ أن حاولوا قتله .
من ذلك أن عتية بن أبي لهب أتى يوماً إلى رسول الله ﷺ فقال : أنا أكفر ب : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾^(٢) و ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾^(٣) .
ثم تسلط على الرسول بالأذى ، وشق قميصه ، وتقل في وجهه ﷺ ، خلا أن البزاق لم يقع عليه ﷺ وحينئذ دعا عليه ﷺ وقال : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك .
وقد استجيب دعاؤه ﷺ فقد خرج عتية من عند رسول الله ، وهو يقول : يا ويل لي من الكلب : هو والله آكلى كما دعا محمد عليّ ، قتلني وهو بمكة ، وأنا بالشام ، فغدا عليه الأسد من بين القوم واخذ برأسه فذبحه^(٤) .
وفى رواية هشام عن عروة عن أبيه ، أنه لما طاف الأسد بهم تلك الليلة انصرف عنهم ، فجعلوا عتية وسطهم ، فأقبل الأسد يتخطاهم حتى اخذ برأس عتية ففدغه^(٥) .

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ ص ١٢٦ .

(٢) سورة النجم ، الآية ١ .

(٣) سورة النجم ، الآية ٨ .

(٤) مختصرة سيرة الرسول ﷺ ص ١٣٥ .

(٥) المرجع السابق ص ١٣٦ .

وذكروا أن عقبة بن أبي معيط وطىء على رقبته الشريفة ﷺ وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان^(١).

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله ﷺ ما رواه ابن إسحاق في حديث طويل ، قال : قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشم آباتنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشم آلهتنا ، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك ، أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل ، أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ﷺ ، ينتظره ، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو ، فقام يصلى ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ، ينظرون ما يفعله أبو جهل ، فلما سجد رسول الله ﷺ ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم اقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً ، منتقماً لونه ، مرعوباً ، قد يبست يده على حجره ، فقدف الحجر من يده .

وقام إليه رجال قريش ، فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟

قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، والله ما رأيت مثل هامته ، ولا مثل قصرته ، ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بى أن يأكلنى .

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال : ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه^(٢).

أما طغاة قريش فلم تزل فكرة قتل النبي ﷺ تتضح في قلوبهم ، وتكبر فى عقولهم ، وتفكيرهم .

(١) المصدر السابق ص ١١٣ .

(٢) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

روى ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :
 حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم فى الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ ، فقالوا : ما رأينا
 مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم أبناءنا ، وعاب
 ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، فبينما هم
 فى ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً
 بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ .
 فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك من وجهه ﷺ .
 ثم مر بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها .

فوقف ﷺ ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفسى بيده ، لقد
 جئكم بالذبح .

فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر ، واقع
 حتى إن أشدهم فيه وصاة ليرفؤه بأحسن ما يجد ، ويقول : انصرف يا أبا قاسم ،
 فوالله ما كنت جهولاً .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم ، فوثبوا إليه وثبة
 رجل واحد ، وأحاطوا به ، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه ، وقام أبو بكر
 دونه ، وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟
 ثم انصرفوا عنه يقول ابن عمرو : فإن ذلك لأشد ما رايت قريشاً نالوا منه
 قط^(١) .

وفى رواية البخارى عن عروة بن الزبير قال : بينما النبى ﷺ يصلى فى
 حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط ، فوضع ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، و الغمز الطعن والسب ، وأشدهم وصاة
 . أى أكثرهم إساءة ، ويرفأ أى يترفق .

(٤٣٧)

فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي ﷺ ، وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله^(١) ؟

وفى حديث أسماء : فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟

فلهوا عنه ، وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا لا نمس شيئاً من غدائره إلا رجع معنا^(٢) .

ولم تغادر فكرة قتله ﷺ عقولهم ، وبخاصة بعدما رأوا انتشار الإسلام ، وصلابة المسلمين ، وتأكدوا أن بقاء محمد ﷺ سوف يؤدي إلى القضاء على عبادة الأصنام ، وحرمانهم من السيادة ، والتسلط ، وكان آخر محاولتهم مؤامرة ليلة الهجرة .

— ٨ —

العودة إلى المساومة والإغراء

مع الجهر بالدعوة ، وخروج الرسول للعلن والمواجهة بدأ كفار مكة يشنون في إيذاء الرسول ، وأصحابه .

وكان الاضطهاد في بدايته قليلاً ، ضعيفاً ، ثم أخذ يشتد شيئاً فشيئاً ، حتى وصل إلى حد التآمر ، والتخطيط لقتل رسول الله ﷺ ، ونتيجة لهذا التصعيد في الاضطهاد أخذ رسول الله يجمع أصحابه في دار الأرقم ، ليعلمهم الإسلام بعيداً عن كفار مكة ، كما أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر إليها كثير من أصحابه .

(١) صحيح البخارى - باب ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ج ١ ص ٥٤٤ .

(٢) مختصر سيرة الرسول ﷺ ص ١١٣ .

وقد حاول كفار مكة اعتقال المهاجرين ، والفتك بهم ، لكنهم فشلوا ، ورأى المشركون والكفار أن أغلب المسلمين تركوا مكة ، وتركوا محمداً ﷺ مع قلة قليلة من أصحابه ، وهاجروا إلى الحبشة ، وغازهم أن محمداً لم يضعف ، ولم يترك دعوته ... ولم يتوقف إيمان الناس بدعوته .

فذهبوا إلى عمه أبي طالب ، وقالوا له : يا أبا طالب إن لك سناً ، وشرفاً ومنزلة فينا ، وإننا قد استنهيأك من ابن أخيك فلم تنتهه ، وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

عظم على أبي طالب هذا الوعيد ، والتهديد ، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا كذا ... فابق على وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله ، وأنه ضعف عن نصرته ، فقال : يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه ثم استعبر وبكى ، وقام .

فلما ولى ناداه أبو طالب ، فلما أقبل عليه قال له : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشئ أبداً ^(١) ، وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم .: حتى أوسد في التراب دفيناً

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة .: وأبشر وقر بذاك منك عيوناً ^(٢)

فلما لم يحقق ذهابهم نتيجة يرجونها من أبي طالب ، رجعوا بحيلة أخرى حيث ذهبوا إليه بعمارة بن الوليد ، ليأخذه ويعطيهم محمداً ، فأبى وقال لهم : والله

(١) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٢) مختصر سيرة الرسول ﷺ ص ٦٨ .

لبئس ما تسوموننى ، أنعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونى ، هذا والله ما لا يكون أبداً^(١) .

وذهبوا إلى محمد ﷺ محاولين مساومته مرة أخرى مبالغين فى الوعود ، والإغراء .

يقول ابن إسحاق : حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً .

قال يوماً : **إلا أقوم إلى محمد ؟ ... فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ، وكيف عنا ؟!!**

وذلك حين أسلم حمزة ﷺ ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثررون ، ويزيدون ، وتأكدوا من قوة إيمانهم وصدقهم مع محمد ﷺ .

رد الكفار على عتبة ، وقالوا له : بلى ، يا أبا الوليد قم إليه ، فكلمه ... فقام ، وسار إليه ، حتى جلس إلى رسول الله فقال : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السلطة فى العشيرة ، والمكانة فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم وشتمت دينهم ، وكفرت بمن مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

فقال رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال عتبة : يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً .

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتىك رثياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك

(١) وقد سبق ذكر هذه المحاولة فى ص ٤١٦ .

(٤٤٠)

الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

ولما فرغ عتبة من حديثه ، قال له رسول الله ﷺ : أوقد فرغت يا أبا الوليد ؟
قال : نعم .

قال رسول الله ﷺ : فاسمع مني .

قال : أفعل .

فقرأ ﷺ قوله تعالى ﴿ حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ كَتَبْتُ فَصَلَّتْ
ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ بِشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا
يَسْمَعُونَ ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا
وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَمِلُونَ ﴿ ثم مضى رسول الله ﷺ في السورة يقرأها
عليه ، فلما سمعها منه عتبة ، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما
يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد .

ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك !!

فلما رجع إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائي أني سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر
، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخلوا بين
هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ
عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ، فملكه
ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم ... وماذا أقول فيه ؟

والله إنه ليس من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن .

(٤٤١)

فقال له أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .
قال : دعنى أفكر فيه ، فلما اجتمع بقومه قال وقد حضر الموسم : يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً .
قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس أقم لنا رأياً نقول .
فقال لهم : ما قاله الوليد قبله^(١) .

— ٩ —

أبو طالب يخطب للأمر

رأى أبو طالب أن الكفار والمشركين قد اشتدت عداوتهم لمحمد ﷺ ، ورأى أنهم لن ينتهوا من مكائدهم إلا إذا تخلصوا منه ﷺ بأى وسيلة ممكنة ، وذلك عار يلحق ببني عبد مناف ، يتحدث به العرب كلهم ، فجمع أبناء عبد مناف وهم بنو أمية ، وبنو عبد شمس ، وبنو المطلب ، وبنو نوفل ، وبنو هاشم ، وعرض عليهم خطورة الأمر ، وضرورة التكاتف ، والاتحاد فى مواجهة عدوان كفار مكة على ابن أخيه محمد ﷺ ، فوافقهم بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأخذوا على أنفسهم الميثاق على حماية محمد ﷺ والدفاع عنه ، وعدم تسليمه إلى الكفار أبداً ، واتفقوا على ذلك مسلمهم وكافرهم ، ولم يشذ من هذين البطنين إلا أبو لهب فإنه انحاز مع كفار مكة ، ضد محمد ، ودعوته ، ولذلك يقول النبى ﷺ : كنا وبنو المطلب معاً في الجاهلية والإسلام^(٢) .

(١) أنظر ص ٤٢٥ .

(٢) سيرة النبى ج ١ ص ٢٩١ .

المقاطعة العامة

لما رأى الكفار مكة أن بنى هاشم وبنى المطلب توائقوا ، وتعاهدوا جميعاً على حماية محمد ﷺ عملوا على مقاطعتهم ، وعدم التعامل معهم مطلقاً ، وتحالفوا على أن لا يجالسوهم ، ولا يبيعوهم ، ولا يزوجهم ، ولا يتزوجون منهم حتى يسلموا محمداً لقتله ، وينتهوا بذلك من أمره ، وكتبوا بذلك ميثاقاً علقوه في جوف الكعبة .

واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات ، ولشتد الأمر على بنى هاشم وبنى المطلب حتى أكلوا ورق الشجر ، وحوصروا في شعبهم ، لا يخرجون منه إلا في الأشهر الحرم ، وهي فرصهم للتعامل مع وفود الحج والعمرة . وكان أهل مكة يزايدون عليهم لحرماتهم من كل خير ، فمنعوه من الاتصال بأحد من القبائل البعيدة عن مكة ، وكانوا إذا رأوا تجارة قادمة سارعوا بشرائها قبل أن تصل إلى المحاصرين في الشعب ، مبالغين في ثمنها . ودام الحال على ذلك حتى قضى الله بنقض المقاطعة ، وتمزيق الميثاق المكتوب .

المبحث الخامس عشر

عدوان أهل مكة ومواجهة المسلمين له

بعد ظهور مرحلة الجهر العام بالدعوة تأكد القرشيون أن دعوة محمد ﷺ ليست كدعوة من سبقه من الريانيين ، وأنها تتسع كل يوم عدداً ، وتمتد مكاناً فنشطوا في مقاومة دعوة الإسلام ، واضطهاد من يؤمن بها ، وصدّ الناس عن الاستماع إليها ، وصرفهم عن الدخول فيها .
وفي هذا المبحث سنتحدث عن صور عدوان أهل مكة ، ونبين الكيفية التي واجه بها المسلمون هذا العدوان ... وذلك فيما يلي :

- ١ -

عدوان أهل مكة

تيقن كفار مكة من أن دعوة محمد ﷺ تختلف عن ما سبقها من أفكار الحنفاء من ناحية موضوعها ، وثباتها ، وسمو أهدافها ... وكان أكثر ما أثار انتباههم ازدياد قوة المسلمين يوماً ، بعد يوم ، واشتداد تواصل المؤمنين ، وترابطهم ، وقوة حب المسلمين لله ، ورسوله ، وعظمة اعتزاز المسلمين بدينهم وتمسكهم بتطبيق تعاليمه بصدق ، وإخلاص .
وصل كفار مكة إلى هذا الفهم ، وبدأوا في التحرك لمواجهته ، وازدادوا عنفاً شيئاً فشيئاً ، من أجل إطفاء نور الحق ، والقضاء على الدين الوليد ، وقد سبق تفصيل هذا العدوان ، وهنا أوردته بإجمال :
بداؤاً . أولاً .

بإغراء النبي ﷺ بالمال ، والجاه ، والسلطان ، وبكل ما يريد شريطة أن

يترك دعوته^(١) ، لكنه ﷺ رد عليهم متمسكاً بدعوة الله ، وحذرهم من عاقبة كفرهم ، ونفذ معهم أمر الله له في قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴾^(٢) .

وحاولوا . ثانياً .

مساومة رسول الله ﷺ ليجمع (شيئاً) من دينهم و (شيئاً) من دينه ليلتقى الفريقان في منتصف الطريق ، وبذلك لا تضار آلهتهم ، لأنها ستعبد مع الله تعالى ، فرد عليهم رسول الله ﷺ بقوله تعالى ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَتُمِّعُ عِبِيدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَتُمِّعُ عِبِيدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾^(٣) .

وطلبوا منه . ثالثاً .

أن يبقى أمره لنفسه ، وعلى آل بيته فأبى عليهم ذلك ، وعرفهم أنه رسول الله تعالى لهم ، وللعالم كله .

وأخذوا . رابعاً .

في صد الناس بنشر الإشاعات الكاذبة عن رسول الله ﷺ فاتهموه بالسحر والكذب ، والسفه ، واتهموا القرآن بالاختلاق ، والنقل من الأساطير ، واتهموا المسلمين بالضعف ، وعدم التعقل .

يحكى الله تعالى حملتهم هذه فيقول سبحانه ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي

(١) أنظر ص ٤٣٧ وما بعدها .

(٢) سورة فصلت ، الآية ١٣ .

(٣) سورة الكافرون .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ
يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا
﴿٦٢﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ
إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٦٣﴾ ﴿١﴾ .

وذهبوا . خامساً .

إلى عمه أبى طالب بعد أن عجزوا عن صرف محمد ﷺ عن رسالته ، أورد
أحد من أتباعه ، ذهبوا إليه بعدد من المطالب ليساعدهم فيما يريدون :
. مرة يطلبون منه أن يكف ابن أخيه بصورة كلية عن دعوته ، لأنها . فى
نظرهم . فرقت جمعهم ، وعابت ألهتهم ، وأساعت إلى آبائهم .
. ومرة يحاولون أن يستبدلوا به فتى منهم ، لقتله بعد أخذه ، وبعد أن يرضى
عمه بالفتى الذى أخذه فداء له ، فلما لم يستجب لهم أبو طالب ذهبوا إليه
مهددين .

فكلم أبو طالب محمداً ﷺ فى الأمر ، فرد عليه بأنه مستمر على دعوته ،
ولن يتركها بحال ، وانتهى الموقف إلى استمرار أبى طالب فى الحرص
على ابن أخيه محمد ﷺ ﴿٢﴾ .

و . سادساً .

وضعوا خطة متعددة الأطراف لإرهاب الرسول ، والمؤمنين ، ومنع الناس
من الاقتراب من رسول الله ، والاستماع لدعوته .
ومجمل هذه الخطة يتضح فى النقاط التالية :

(١) سورة الفرقان ، من الآية ٥ : ٨ .

(٢) أنظر ص ٤١٦ وما بعدها .

قيام كل قبيلة بتعذيب ، واضطهاد من أسلم من أبنائهم ، أو من عبيدهم ،
وفي إطار ذلك التوجه حدث ما يلي :

. كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ، ومنعة ، أنبه ، وأخزاه ،
وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال ، والجاه ، وإن كان ضعيفا ضربه ،
وأغرى به^(١) .

. ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته ، وأخرجته من بيته ،
وكان من أنعم الناس عيشاً ، فتخشف جلده تخشف الحية^(٢) .

. وكان أمية بن خلف الجمحي يضع حبلا في عنق مولاه بلال ، ثم يسلمه
إلى الصبيان يطوفون به طرقات مكة وجبالها ، وكان أمية يشده شداً ، ثم
يضره بالعصا ، وكان يلجئه إلى الجلوس في حر الشمس ، كما كان يكرهه
على الجوع ، وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجهم إذا حميت الظهيرة فيطرحه
في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره .

ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات
والعزى .

فيقول بلال : وهو في ذلك . أحد ، أحد ، حتى مر أبو بكر يوماً ، وهم
يصنعون ذلك به ، فاشتره بـغلام أسود ، وقيل بسبع أواق ، أو بخمس من
الفضة ، وأعتقه^(٣) .

. وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبنى مخزوم ، أسلم هو ، وأبوه ، وأمه فكان
المشركون ، وعلى رأسهم أبو جهل . يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت
الرمضاء فيعذبهم بحرهما ، ومر النبي ﷺ ، وهم يعذبون فقال لهم : صبرا

(١) سيرة النبي ج ١ ص ٣٢٠ .

(٢) رحمة الله للعالمين ص ٥٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

آل ياسر ! فإن موعدكم الجنة ، فمات ياسر في العذاب ، وطعن أبو جهل
سمية . أم عمار . في قلبها بحرية فماتت ، وهى أول شهيدة فى الإسلام ،
وشددوا على عمار بالحر تارة ، وبوضع الصخر على صدره تارة أخرى ،
وبالتغريق ثالثة .

وقالوا : لا نتركك حتى تترك محمداً ، أو تقول : فى اللات والعزى خيراً
فوافقهم على ذلك مكرها ، وجاء باكياً معتذراً إلى النبى ﷺ فأُنزل الله تعالى
﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ
وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴾ (١) .

- . وكان أبو فكيهة . واسمه أفلح . مولى لبنى عبد الدار ، فكانوا يشدون برجله
الحبل ، ثم يجرونه على الأرض (٢) .
- . وكان . خباب . بن الأريت . مولى لأم . أنمار . بنت سباع . الخزاعية . ، فكان
المشركون يذيقونه أنواعاً من التكيل ، يأخذون بشعر رأسه فيجذبوه جذبا
ويلوون عنقه تلوية عنيفة ، ويضعونه مرات عديدة على فهام ملتهبة ،
ويضعون عليه حجراً ، حتى لا يستطيع أن يقوم (٣) .
- . وكانت زنيرة ، والنهدية ، وابنتها ، وأم عبيس إماء أسلمن ، وكان المشركون
يسومونهن من العذاب أمثال ما ذكرنا .

(١) سورة النحل ، الآية ١٠٦ .

(٢) رحمة الله للعالمين ج ١ ص ٥٧ .

(٣) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠٦ .

• وأسلمت جارية لبنى مؤمل وهم حى من بنى عدى . فكان عمر بن الخطاب ، وهو يومئذ مشرك يضربها ، وإذا مل قال : إني لم أتركك إلا ملالة^(١) . وكان المشركون يلفون بعض الصحابة فى إهاب الإبل ، والبقر ، ثم يلقونه فى حر الرمضاء ، ويلبسون بعضاً آخر درعا من الحديد ، ثم يلقونه على صخرة ملتهبة^(٢) .

وقائمة التعذيب طويلة شملت أغلب من أسلم فى مكة بعد الجهر بالدعوة . يروى ابن كثير بسنده عن ابن جبير أنه قال : قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم ؟

قال : نعم والله ! إنهم كانوا يضربون أحدهم ، ويجيعونه ، ويبطشون به حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضرر الذى به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، يقولون له : اللات والعزى إلهان من دون الله ، فيقول : نعم ! افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم^(٣) .

و . سابعاً .

أعدوا فريقاً من شباب الكفر ، ممن يجيد فن التعامل مع الناس ، ليمروا على القبائل فى مواسمهم ، ليقولوا فى رسول الله ما شاءوا من قول سئ ، ووشاية كاذبة .

و . ثامناً .

كلفوا جماعة من أبنائهم لملاحقة رسول الله ﷺ عند البيت ، وشتمه ، ووصفه بكل صفة منفرة ، وإحاطته بالسخرية ، والاستهزاء حتى تسقط مهابته فى نظر الناس .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٩ .

(٢) رحمة الله للعالمين ج ١ ص ٥٨ .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٥٩ .

و . تاسعاً .

تحدوا رسول الله ﷺ ، وطلبوا منه أموراً خارقة للعادة ، وهم مع ذلك عازمون على الكفر ، مهما جاءهم من الخوارق ، ولذلك قال الله تعالى لرسول الله ﷺ ليصرفه عن مواجهتهم ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَلَكَّمْهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ سَٰجِدُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢)

وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٣) .

لقد رأى أهل مكة العديد من المعجزات الخارقة للعادة ، وعلى رأسها القرآن الكريم ، ومع ذلك لم يؤمنوا ، فلما طلبوا خوارق جديدة لم يستجب الله لهم رحمة بهم ، لأنه سبحانه وتعالى لو أوجدها لهم ، واستمروا على كفرهم بعدها لعذبهم عذاباً شديداً .

يروى ابن كثير أن عباس قال : " قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً " ونؤمن بك .

قال ﷺ : نعم .

فدعا الرسول ﷺ ربه فأتاه جبريل .

فقال : يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً " . فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذاباً ، لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب الرحمة ، والتوبة .

قال ﷺ : " بل التوبة والرحمة " (٣) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١١١ .

(٢) سورة يونس ، من الآية ٩٦ : ٩٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٥٢ .

مواجهة المسلمين للاضطهاد

واجه رسول الله ﷺ والمسلمون معه هذا الاضطهاد الظالم بكل ما أمكنهم من طاقة ، وأهم ما قام به المسلمون هو :

١. تقوية إيمان المعذبين :

أخذ رسول الله ﷺ في تقوية إيمان المعذبين ، وعرفهم أن المؤمنين دائماً في بلاء ، وأنهم بإيمانهم يعملون للآخرة قبل الأولى .

يقول ابن إسحاق : " وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر ، وبأبيه ، وأمه إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول ، فيما بلغني : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلوها ، وهي تأبى إلا الإسلام " (١) .

وكان يقول لهم ﷺ : أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على قدر دينه " (٢) .

وكان المسلمون يرون في رسول الله ﷺ المثل ، والقُدوة ، فهو أسبقهم إلى العدو ، وأولهم في التضحية ، وأقواهم على الصبر والتحمل ، وأفضلهم مع الشرف ، والنبل ، والطهر ، ولذلك صدقوا في كل ما عاهدوا الله عليه .

ولقد كانت آيات القرآن الكريم تنزل عليهم تؤملهم في النصر ، وتحدد لهم معالم الطريق ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ٣١٩ .

(٢) فيض القدير ج ١ ص ٥١٩ .

حِينَ ۞ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۞ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۞ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ۞^(١).

وكان الرسول ﷺ حريصاً على تعريف المسلمين بمدى المعباء الواجب عليهم تحمله .

يروى البخارى بسنده أن خباب بن الأرت جاء إلى النبي ﷺ ، وهو متوسد بردة ، وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقي ، ومعه من المشركين شدة .

فقلت : ألا تدعو الله لنا ، فقعد ﷺ ، وهو محمر وجهه ، فقال : " لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط حديد ما دون عظامه من لحم ، وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه "^(٢) .

وبهذا التوجيه النبوى للجماعة المؤمنة الأولى ، ظهرت قوة ، صامدة ، محتسبة ...

وعليها ، . وعلى أمثالها وجدت . الأمة الإسلامية ، . وتحقق للإسلام ، والمسلمين الكرامة ، والحرية .

٢. تحرير الأرقاء :

كان أغلب من يعذب هم الأرقاء الذين أسلموا عند سادتهم ، ولذا هدى الله أبا بكر ﷺ إلى تحرير من استطاع تحريره ، وبارك رسول الله ﷺ فعله .

من ذلك أن أبا بكر ﷺ مر على بلال ﷺ ، وهو يعذب .

فقال لسيده أمية بن خلف : ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟

حتى متى تعذبه ؟

(١) سورة الصافات ، من الآية ١٧١ : ١٧٧ .

(٢) الرحيق المختوم ص ١١٧ .

(٤٥٢)

قال له : أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى .

فقال أبو بكر : أفعل ، عندى غلام أسود أجلد منه ، وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به .

قال أمية : أقبل .

فقال أبو بكر : هو لك .

فأعطاه أبو بكر الصديق ﷺ غلامه ذلك ، وأخذ بلالاً فأعتقه .

ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب ، كان بلال سابعهم ﷺ .

وهم عامر بن فهيرة ، شهد بدرأ ، واحداً ، وقتل يوم بئر معونة شهيداً .
وأم عبيس .

وزنيرة ، وقد أصيب بصرها حين أعتقها أبو بكر .

فقال قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى .

فقال زنيرة : كذبوا ، وبيت الله ما تضر اللات والعزى ، وما تنفعان .
فرد الله بصرها .

وأعتق النهديّة وبنّتها، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار، فمر بهما أبو بكر
وقد بعثتهما سيّدتهما بطحين لها .

وهى تقول : والله لا أعتقكما أبداً .

فقال أبو بكر ﷺ : حل يا أم فلان .

فقال : حل ، أنت أفسدتهم فأعتقهما .

قال : فبكم هما ؟

قالت : بكذا وكذا .

قال : قد أخذتهما ، وهما حرتان ، أرجعا إليها طحينها .

قالتا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ، ثم نرده إليها .

قال : وذلك إن شئتما .

ومر بجاريه من بنى مؤمل (حى من بنى عدى بن كعب) . ، وكانت مسلمة ، وعمر بن الخطاب ؓ يعذبا لتترك الإسلام ، وهو يومئذ مشرك ، وكان يضربها ، حتى إذا مل قال : إني أعتذر إليك ، إني لم أتركك إلا ملالة فتقول : كذلك فعل الله بك .

فابتاعها أبو بكر ، فأعتقها^(١) .

وقد عاتب أبو قحافة والد أبي بكر ولده فيما فعله ، لأنه رأى أن أبا بكر ينفق ماله فى تحرير الضعفاء الذين لا ينفعون ، ولا يدفعون ضرراً عنه (كما يتصور) ... وهنا قال له أبو بكر : يا أبت إني لم أفعل ذلك إلا لله .

فنزل فيه قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۖ ﴾^(٢) .

وقوله تعالى ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۖ إِلَّا أَتِبْغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۖ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۖ ﴾^(٣) .

٣. هجرة المسلمين إلى الحبشة :

شقت الدعوة مسيرتها الصعبة بين كفار مكة ، وأخذ الأذى يلاحق كل من أسلم ، ورأى رسول الله ﷺ بعد سنوات من الجهر بالدعوة أن الكفار ماضون فى عنفهم ، وعننتهم ، وصددهم الناس عن سبيل الله ... ولذلك أمر رسول الله ﷺ

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٥٢ .

(٢) سورة الليل ، من الآية ٥ : ٧ .

(٣) سورة الليل ، من الآية ١٩ : ٢١ .

أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، لما فيها من موطن آمن ، ووجود ملك لا يظلم أحداً عنده ...

روى عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ بعث أصحابه إلى النجاشي ، وكانوا نحو ثمانين رجلاً ، وامرأة ، وذلك في رجب سنة خمس من النبوة .
تقول أم مسلمة : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا النجاشي خير جار ، وأمنا على ديننا كما وعدنا الله ، لا نؤذى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه ، وأقمنا في خير دار مع خير جار .

وتخلص المسلمون بهجرتهم إلى الحبشة من اضطهاد القرشيين وعنهم ، وقاموا بما وجب عليهم إزاء الإسلام الذي آمنوا به ... ومع أن في ترك الديار والأهل قسوة ، إلا أنها قسوة تهون أمام العنت الذي عاشوه في مكة .
وعاش المهاجرون بالحبشة مدة سمعوا خلالها أن صلحاً أبرمه الرسول ﷺ مع أهل مكة فجاءوا إلى مكة عائدين ، فلما اكتشفوا أن شيئاً لم يحدث عادوا إلى الحبشة في هجرة ثانية ، وبقوا فيها إلى أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة فقدموا إليها بعد فتح خيبر .

هذه الكوكبة السابقة إلى الهجرة كان لها فضل السبق في إيصال الإسلام إلى خارج الجزيرة ، والدعوة إليه بعملهم ، وسلوكهم ، وعلمهم ...
وبهذا السبق تميزوا عن المهاجرين إلى المدينة ...

يروى البخاري بسنده عن أبي موسى الأشعري ؓ أنه قال : بلغنا مبعث النبي ﷺ ، ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه ، وأنا وأخوان لي أنا أصغرهم أحدهم أبو بردة ، والثاني أبو رهم في ثلاثة وخمسين ، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي فركبنا سفينة ، فألقنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبي طالب ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً إلى النبي ﷺ حين أفتتح خيبر .
وكان أناس من الناس يقولون لنا ، سبقناكم بالهجرة .

ودخلت أسماء بنت عميس ، وهى ممن قدم معنا على حفصة زوج النبى ﷺ زائرة ، وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر ، فدخل عمر على حفصة ، وأسماء عندها .

فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه ؟

قالت حفصة : أسماء بنت عميس .

قال عمر : الحبشية هذه ؟

قالت أسماء : نعم .

قال عمر : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم .

فغضبت ، وقالت : كلا والله ، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنا فى دار ، أو فى أرض البعداء ، وذلك فى الله ، وفى رسوله ﷺ ، وأيم الله لا أطمع طعاماً ، ولا أشرب شرباً حتى أذكر ذلك للنبي ﷺ ، وأسأله ، والله لا أكذب ، ولا أزيغ ، ولا أزيد عليه .

فلما جاء النبى ﷺ قالت : يا نبى الله ، إن عمر قال كذا وكذا .

قال ﷺ : فما قلت له ؟

قالت : قلت له كذا وكذا .

قال ﷺ : ليس بأحق بى منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

قالت : فلقد رأيت أبا موسى ، وأصحاب السفينة يأتون أرسالاً يسألونى عن هذا الحديث ، ما فى الدنيا شئ هم به أفرح ، ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم النبى ﷺ .

قالت أسماء : فلقد رأيت أبا موسى ، وأنه ليستعيد هذا الحديث منى^(١) .

وقد سر رسول الله ﷺ سروراً بالغاً بعودة مهاجرى الحبشة بعد هذه الفترة

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٢٤ - ٢٧ .

الطويلة ، وأمر الإسلام يعلو ، وسلطانه يمتد شمال الجزيرة وجنوبها ، وعندما نزلوا بالمدينة قام الحبيب المحبوب ﷺ يرحب بعودتهم ، ويعلن فرحه بهم .
 يروى الحاكم بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : " لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة قال رسول الله ﷺ ما أدرى بأيهما أفرح ، بفتح خبير أم بقدوم جعفر " (١) .

إن الهجرة إلى الحبشة كانت مؤقتة ، يلجأ إليها المسلمون ، يكتشفون بها معالم الناس ، ويتعرفون على مذاهب ، وعادات الأقوام ، ولذلك عاد المهاجرون إلى المدينة موطن الإسلام ، ومستقره ، وقاعدة انطلاقه إلى العالم كله ليباشروا مع الرسول ﷺ وأصحابه واجبات الدعوة ، والجهاد .

٤. انتهاء المقاطعة :

لم تقف المواجهة بين كفار مكة ، وبين المسلمين بعد الهجرة إلى الحبشة ، بل أخذت تزداد عنفاً ، وشدة ، لأن كفار مكة فشلوا فى رد المهاجرون إليهم ، واعتقالهم بعدما كانوا يتصورونه أمراً سهلاً .
 وحينئذ رأى كفار مكة ضرورة القيام بعمل حاسم للقضاء على محمد ، ودعوته ، فلما تصدى لهم بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وتحصنوا بشعبهم ، اتفقوا على مقاطعة بنى هاشم ، وبنى المطلب ، بصورة تامة ، لا يجالسونهم ، ولا يبيعونهم ، ولا يشترون منهم ، ولا يزوجونهم ، ولا يتزوجون منهم ، واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات حتى اشتد الأمر ببنى هاشم ، وبنى المطلب ، فأكلوا ورق الشجر ، وكان يسمع للأطفال بكاء من شدة الجوع ، وقل الزواج فى بنيتهم .
 واستمر الأمر على ذلك حتى أذن الله له بالانتهاء .

يروى ابن كثير ذلك بقوله : جمعت قريش فى مكرهم أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية ، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بنى المطلب ، وبنى هاشم ،

(١) المستدرک ج ٢ ص ٦٢٤ .

وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ معهم في شعبهم ، وأمرهم أن يمنعوه ممن أرادوا قتله ، فاجتمع على ذلك مسلمهم ، وكافرهم ، فمنهم من فعل ذلك حمية ، ومنهم من فعله إيماناً ، ويقيناً .

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ ، وأجمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم ، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل .

وكتبوا في مكرهم صحيفة ، وعهوداً ، ومواثيق ، لا يقبلون من بني هاشم صلحاً أبداً ، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموه للقتل ، ووضعوا هذه الصحيفة معلقة في جوف الكعبة .

فلبث بنو هاشم ، وبنو المطلب في شعبهم ثلاث سنين ، واشتد عليهم البلاء والجهد ، وقطعوا عنهم الأسواق ، ولم يتركوا طعاماً يقدم مكة ، ولم يجدوا بيعاً إلا بادروهم إليه ، فاشتروه .

يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ ، فكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد مكرراً ، واغتيالاً له ، فإذا نام الناس أمر أحد بني هاشم ، أو أخوته ، أو بني عمه ليضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، ويأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه .

فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف ، وبني قصي ، ورجال من سواهم من قريش ، قد ولدتهم نساء من بني هاشم ، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم ، واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغد ، والبراءة منه ، وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد ، وميثاق .

ويقال إنها كانت معلقة في سقف البيت ، فلم تترك اسماً لله فيها إلا لحسته ،

وبقى ما كان فيها من ظلم ، وشرك ، وقطيعة رحم .

وأطلع الله ﷺ رسوله على الذى صنع بصحيفتهم ، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبى طالب .

فقال أبو طالب : لا والثواقب ما كذبنى ، فانطلق يمشى بعصابته من بنى المطلب حتى أتى المسجد ، وهو حافل من قريش ، فلما رآوه عامداً لجماعتهم أنكروا ذلك ، وظنوا أنهم خرجوا إليهم ليعطوهم رسول الله ﷺ تخلصاً من شدة البلاء الذى نزل بهم ، فتكلم أبو طالب فقال : قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم فأتوا بصحيفتكم التى تعاهدتم عليها فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح .

وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا فى الصحيفة قبل أن يأتوا بها ، فأتوا بصحيفتهم معجبين بها ، لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوعاً إليهم ، فوضعوها بينهم .

وقالوا : قد آن لكم أن تقبلوا ، وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم ، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد ، جعلتموه خطراً لهلكة قومكم ، وعشيرتكم .

فقال أبو طالب : إنما أتيتمكم لأعطيك أمراً لكم فيه نصف ، وإن ابن أخى أخبرنى . ولم يكذبنى . أن الله برئ من هذه الصحيفة التى فى أيديكم ، ومحا كل اسم هو له فيها ، وترك فيها غدركم ، وقطيعتكم إياناً ، وتظاهركم علينا بالظلم ، فإن كان الحديث الذى قال ابن أخى كما قال فأفيقوا ، فو الله لا نسلمه أبداً ، حتى يموت من عندنا أخرنا ، وإن كان الذى قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه ، أو استحبيبتكموه .

قالوا : قد رضينا بالذى تقول .

ففتحوا الصحيفة ، فوجدوا الصادق المصدق قد أخبر خبرها ، فلما رأتها قريش كالذى قال أبو طالب قالوا : والله إن هذا سحر من صاحبكم فارتكسوا ، وعادوا بشر ما كانوا عليه من كفرهم ، والشدة على رسول الله ﷺ والقيام على

رھطه بما تعاھدوا علیه^(١) .

ثم إنه قام فى نقض الصحیفة نفر من قریش ، ولم یبل فیها أحد أحسن من بلاء هشام ابن عمرو بن الحارث بن حبیب بن نصر بن مالك بن عامر بن لؤى وذلك أنه كان ابن أخى نضلة بن هشام بن عبد مناف لأمه ، وكان هشام لبنى هاشم واصلاً ، وكان ذا شرف فى قومه فكان (فیما بلغنى) یأتى بالبعیر، وبنو هاشم ، وبنو المطلب فى الشعب لیلاً قد أوقره طعاماً ، حتى إذا بلغ به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضربه على جنبیه فدخل الشعب علیهم مسرعاً ، ثم یأتى به قد أوقره براً فیفعل به مثل ذلك .

ثم إنه مشى إلى زھیر بن أبى أمیة بن المغیره بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال : یا زھیر أقدرضیت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثیاب ، وتتكح النساء ، وأخوالك حیث علمت ، لا یباعون ولا یتباع منهم ، ولا ینکحون ، ولا ینکح إلیهم ؟

أما إنى أحلف بالله لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إلیه ما أجابك إلیه أبداً .

فقال : ویحك یا هشام فماذا أصنع ، إنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمتم فى نقضها .

قال : قد وجدت رجلاً .

قال : من هو ؟

قال : أنا .

قال له زھیر : إیغنا ثالثاً .

فذهب إلى المطعم بن عدی فقال له : یا مطعم أقدرضیت أن یهلك بطنان

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٤ ، ٨٥ ، وتذكر رواية أخرى أن الأرضة أكلت كل ما فى الصحیفة ما عدا اسم الله تعالى .

(٤٦٠)

من بنى عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك ، موافق لقريش فيه ، أما والله لئن تخلصتم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً .

قال : ابغنا ثالثاً .

قال : قد فعلت .

قال : من هو ؟

قال : زهير بن بنى أمية .

قال : ابغنا رابعاً .

فذهب إلى أبى البحتري بن هشام فقال نحو ما قال لمطعم بن عدى .

فقال : وهل تجد أحداً يعين على هذا ؟

قال : نعم !

قال من ؟

قال زهير بن أبى أمية والمطعم بن عدى ، وأنا معك .

قال : ابغنا خامساً .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكلمه ، وذكر له قرابتهم

، وحققهم فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟

قال : نعم ، ثم سمى القوم ، فاتعدوا عند الحجون ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا

هنالك ، وأجمعوا أمرهم ، وتعاهدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها .

وقام زهير بن أبى أمية فطاف بالبيت سبعاً .

ثم أقبل على الناس ، فقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب ،

وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ، ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه

الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل . وكان فى ناحية المسجد . والله لا تشق .

قال : زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كتبت .

قال أبو البختری : صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ، ولا نقر به .
قال المطعم بن عدی : صدقتما ، وكذب من قال غير ذلك ، نبراً إلى الله
منها ، ومما كتب فيها .

وقال : هشام بن عمرو : نحواً من ذلك .

قال أبو جهل : هذا أمر قد قضى بليل ، تشووروا فيه بغير هذا المكان .
وقام المطعم بن عدی إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلت منها
باسمك اللهم ، وتركت ما عدا اسم الله تعالى^(١) .

وفي رواية أن الأرضة أكلت الصحيفة كلها ما عدا باسمك اللهم .

وهكذا انتهت هذه الفترة القاسية التي مر بها المسلمون في مكة ، وجاء الفرج
من عند الله تعالى ، وانتهت هذه المقاطعة الظالمة .

وشاءت إرادة الله تعالى وفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ وزوجته خديجة
رضى الله عنها في عام واحد ، عرف بعام الحزن فكان أن سرى الله تعالى عن
رسول الله ﷺ برحلة الإسراء والمعراج ، وبذلك تجلت معالم الدعوة العالمية في لقاء
رسول الله ﷺ بأخوانه الرسل ، وبما أوحى إليه .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٩٦ .

المبحث السادس عشر

عام الحزن

يشاء الله تعالى أن يتعرض محمد ﷺ لامتحان شديد ... فبعد مضي عشر سنوات من بعثته ، يموت عمه أبو طالب الذي رباه ، ورعاه ، وحافظ عليه من خصومة الأهل ، وعداوة الأقربين ، وطغيان أهل مكة ، وتموت زوجته خديجة بعده بأيام قليلة ، وهى التى عاشت معه تؤنسه ، وتخدمه ، وتهيئ له حياة الأسرة ورحمة الزوجة ، وتمكنه من الحياة بمالها ، وبمكانتها .

ويُفجأ محمد ﷺ بفقد هاتين الدعامتين فى وقت اشتد الأعداء فيه محاولين القضاء عليه ، وعلى دعوته ... وكثيراً ما عاد بذاكرته إليهما .

كان النبى ﷺ يجد من كل منهما العون ، والمساعدة ، فلقد قام عمه بحمايته والتصدى لأعدائه ، وتحمل من أجل ذلك ، ومعه بنو هاشم ، وبنو المطلب مقاطعة قريش العامة ، وقد كان من ورائها الضرر الكبير .

وزوجته خديجة رضى الله عنها نعم الزوجة ، أمانة ووفاء ، كانت عاقلة ، وكانت كاملة ، عاشت النبى خمساً وعشرين سنة ، وعاملته بكل الرقة ، والحنان ، والحب ، وكانت تتابع أخباره ، وتسليه ، وتحاول إرضاءه بعقلها ، وحكمتها ، وتعاونيه بما لها ، وبكل ما يمكنها .

يروى أنس بن مالك ؓ حادثة تدل على حكمة خديجة ، وحسن تصرفها ، وكمال عقلها .

يقول أنس ؓ : " أن النبى ﷺ كان عند أبى طالب ، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة فأذن له " .

وبعث أبو طالب بعده جارية له يقال لها (نبعة) فقال لها : " أنظرى ما تقول له خديجة ؟ .. وما يقول لها ؟ بحثاً عن سر ما يرى بينهما من مودة ، وما

يلمسه من ترابط .

قالت نبعة : فرأيت عجباً ، ما هو إلا أن سمعت به خديجة ، فخرجت إلى الباب ، فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ، ونحرتها .
ثم قالت : بأبى وأمى ، والله ما أفعل هذا لشيء ، ولكنى أرجو أن تكون أنت النبى الذى ستبعث ، فإن تكن هو فأعرف حقى ، ومنزلتى ، وأدع الإله الذى يبعثك لى .

فيقول لها ﷺ : والله لئن كنت أنا هو ، فقد اصطنعت عندى ما لا يضيع أبداً ، وإن يكن غيرى ، فإن الإله الذى تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً ^(١) .
يفقد الرسول ﷺ أبا طالب هذا ، وخديجة هذه فى عام واحد ، بل وفى أسبوع واحد .

ولذلك تألم كثيراً ، وسمى عامه هذا عام الحزن ...
هو عام الحزن على ازدياد الطغيان ، وضعف الناس ، وفقدان المؤنس والمعين من البشر .

والموت قدر الله على جميع الخلق ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ^(٢) ،
ورسول الله ﷺ أول المؤمنين بقدر الله تعالى ، وهو أول الصابرين ، وكان حزنه فى حدود القدر المشروع .

وقضاء الله فى موت أبى طالب وخديجة يتضمن حكماً جليلة منها :
بيان أن حبيبه ﷺ قدوة كاملة فى الصبر الأمتل ، والتأسى الجميل ، لقد ابتلى النبى ﷺ بأقصى ما يبتلى به الإنسان فلم يجزع ، ولم يفرق ، ولكنه كان خير معتمصم بجنا ب ربه ، وأفضل لائذ بحمى مولاه ، وليس غريباً على الذى فقد أباه قبل أن يولد ، وأمه وهو فى الخامسة ، وجده الذى كان عوضاً

(١) فتح البارى ج ٧ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٨٨ .

عن والده ، وهو فى الثامنة ، وأولاده الذين يعتبرهم الناس زينة الحياة الدنيا ، وعزاه الله عن ذلك عزاء جميلاً ، ليس غريباً أن يعزيه الله أيضاً عن فقد هذا العم ، وفقد هذه الزوجة ، وعزاء الله خير عزاء .

. أراد الله أن تقوم أعمدة الإسلام على كواهل المسلمين أنفسهم ، فلقد كان أبو طالب ينصر المسلمين مع احتفاظه بشركه ، فربما لو امتدت حياته حتى انتصار الإسلام ، وقيام دولة المسلمين ، لنسب الناس ذلك إلى رعاية هذا العم ، ومعاضدته ، ولكن الله كان أغير على دينه ، وأحرص على توطيده بجنود الإيمان ، وأبناء الإسلام ، ولذلك كانت الوفاة قبيل الهجرة بزمان وجيز أما إطلاق عام الحزن على هذا العام فليس مرده إلى حزن النبى ﷺ على فقد عمه ، وزوجه ، فالنبى ﷺ أصبر من أن تهزه أحداث الموت ، ولو كانت مزلزلة ، وهو أعرف الناس بالله ، وأقربهم منه ، وما شغل قلبه إلا أمر الدعوة الإسلامية ، والحرص على إبلاغها للناس ، والحرص على هداية الناس ... هذا هو الذى أحزنه .

إن حزن الرسول ﷺ كان من أجل انتصار الإسلام ، ونجاح الدعوة ، وكان يتألم كثيراً حينما يرى كفر قومه ، وقد انصرفوا عن دين الله يقول الله تعالى ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (١).

ويقول سبحانه ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بَعَايَتِ اللَّهَ تَجْحَدُونَ ﴾ (٢) .

(١) سورة الكهف ، الآية ٦ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٣٣ .

المبحث السابع عشر

الدعوة فى غير مكة

ازداد ضلال أهل مكة ، وبانت عداوتهم الصريحة ، والشديدة لكل المسلمين ، وعلى رأسهم محمد ﷺ فدبروا لقتله ، والتخلص منه ... وهنا بدأ رسول الله ﷺ يتمنى ترك مكة وأهلها ، والخروج إلى أى مكان يوافق أهله على الدخول فى الإسلام ، وحماية محمد ﷺ .

ومن المعلوم أن الحجاز يشتمل على ثلاث مدن رئيسية هى مكة ، والطائف ، ويثرب ، ولذلك اتجه أمل النبى ﷺ فى إسلام أهل الطائف ، أو أهل المدينة ، أو سكان البوادرى المنتشرة بين المدن الثلاث ، ولذلك خرج ﷺ بدعوته إلى خارج مكة ، وبذل لذلك محاولات عدة فبدأ بـ " الطائف " وجاءته " يثرب " . وبيان ذلك فيما يلى :

١ -

عرض نفسه ﷺ على قبيلة ثقيف

ذهب النبى ﷺ إلى قبيلة ثقيف فى الطائف ، واصطحب معه زيد بن حارثة ﷺ مولاة .

والطائف بلدة لطيفة جميلة ، كثيرة الثمر ، معتدلة المناخ ، تقع شرقى مكة على بعد ستين ميلا ، وتقع على مرتفع عال ، وهى مشهورة بعنبتها ، وتينها ، ورماتها ، وتمرها ، وأزهارها ، وحدائقها الفيحاء .

وصل الرسول إليها ، ومعه زيد بن حارثة ، فعمد إلى حيث يجتمع سادة ثقيف ، فجلس إليهم ، وكلمهم فيما جاء له ، وطلب نصرتهم للإسلام ، والقيام معه على من خالفه ، على أن يعيش بينهم .

بدأ حديثه يأخذ بأفئدة أغلب الحاضرين ، ويؤثر فيمن يصغون إليه ، وإذا بثلاثة إخوة من أشرف ثقيف ، ممن لهم الرأى المسموع فيها ، يقطعون عليه حديثه ، وهم عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب ، أبناء عمرو بن عمير .

فقال أحدهما مكذباً : أقطع ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك يا محمد !

وقال الثانى : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟

وقال الثالث : والله لا أكلّمك أبداً ، لئن كنت رسول الله كما تقول لأنت أعظم قدراً من أن أرد عليك ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلّمك^(١) .

فقام رسول الله ﷺ : من عندهم ، وقد يؤس من إيمان ثقيف ، وحتى لا يشمت فيه القرشيون قال لهم : إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى ، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه ما حدث معه ، فيثيرهم ذلك ، ويشمتوا فيه .

لم يستجب الثقيفون لطلب رسول الله ﷺ ، وأغروا به سفهاءهم ، وعبيدهم يسبونهم ، ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط لعنبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ، فدخله ، ورجع عنه سفهاء ثقيف ، فعمد إلى ظل شجرة من عنب ، وجلس تحته ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، يريان ما لى من سفهاء أهل الطائف ، ويتأملون فى عمله وهو جالس .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال : " اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟

إلى بعيد يتجهمنى ؟

أم إلى عدو ملكته أمرى ؟

إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٩ .

بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا ، والآخرة من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ^(١) .

يصور الحديث الصحيح الوارد فى صحيح البخارى فعل تقيف ، وقسوتهم على النبى ﷺ ، فلقد روى البخارى بسنده عن عروة بن الزبير ، أن عائشة رضى الله عنها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ : " هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟

قال ﷺ : لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت (وأنا مهموم) على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (وهو المسمى بقرن المنازل) فرفعت رأسى فإذا أن بسحابة قد أظلمتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال ، فسلم على ثم قال يا محمد ، لك ما شئت فيهم ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت (والأخشبان : هما جبلا مكة ، أبو قبيس ، والذى يقابله ، وهو قيقعان) .

قال النبى ﷺ : لا ، بل أرجو أن يخرج الله ﷻ من أصلابهم من يعبد الله ﷻ وحده لا يشرك به شيئاً ^(٢) .

وهكذا كانت رحمة رسول الله ﷺ مع الناس ، فبرغم ما لاقاه من تقيف ، ومن أبناء عمرو بن عمير لم يدع عليهم ، وإنما دعا لهم ﷺ .

وقد استجاب الله لدعائه رسول الله محمد ﷺ فأتته المؤيدات الإلهية ، وأحاطته العناية الكبرى ، فواصل دعوته .

(١) الكامل فى التاريخ ج ١ ص ٣٤٥ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق ج ١ ص ٤٥٨ .

عرض نفسه ﷺ على القبائل

أخذ رسول الله ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب. الآتين إلى مكة في المواسم حاجين ، أو معتمرين ، وكان يطلب منهم أن يؤمنوا بالله تعالى ، ويتركوا عبادة الأصنام والأوثان ، على أن يخرج معهم إلى ديارهم ، ليمنعوه من غدر قريش ، وعداوتها ، حتى يتمكن من تبليغ رسالة الله ، وتوصيل دينه إلى الناس .
فمنهم من رفض الإيمان بدعوته ، وردّه رداً قبيحاً .

ومنهم من لم يؤمن به ... ولكنه وعد بحمايته .

ومنهم من كان بينه ، وبين الفرس موثيق تمنعه من الإيمان ، ونصرة الرسول ﷺ فاعتذر ، ومضى .

وكان على رأس من لم يؤمن بدعوته من القبائل ، ورد عليه رداً قبيحاً قبائل كندة ، وكتب ، وبنى حنيفة .

يتكلم محمد بن عمر الأسلمي عن بنى حنيفة فيقول: " نسأل الله أن لا يحرمنّا الجنة ، لقد رأيت رسول الله ﷺ جاءنا ثلاثة أعوام بعكاظ ، وبالمجنة وبذي المجاز ، يدعوننا إلى الله ﷻ على أن نمنع له ظهره ، حتى يبلغ رسالة ربه ، ويشترط لنا الجنة ، فما استجبنا له ، ولا ردّدنا عليه رداً جميلاً ، فخشنا عليه ، وحلم عنا " (١) .

يروى مدرك بن منيب عن أبيه عن جده يقول : " رأيت رسول الله ﷺ في مكة ، وهو يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، فمنهم من تفل في وجهه ، ومنهم من حثا عليه التراب ، ومنهم من سبه ، حتى انتصف النهار ،

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٩٥ .

فأقبلت جارية بعس من ماء فغسل وجهه ، ويديه ، وقال : يا بنية لا تخشى على أبيك غلبة ، ولا ذلة فقلت : من هذه ؟

قالوا : زينب بنت رسول الله ﷺ ، وهي جارية وضيئة ^(١) .

ومن القبائل التى أحسنت لقاء النبی ﷺ بنو شيبان بن ثعلبة .

عن على بن أبى طالب ؓ أنه قال : " لما أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج ، وأنا معه ، ومعنا أبو بكر ... ثم ذهبنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة ، والوقار ، فتقدم أبو بكر فسلم فقال : من القوم ؟ قالوا : من شيبان بن ثعلبة .

فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ، وقال : بأبى ، وأمى هؤلاء غرر الناس ، وفيهم مغروق بن عمرو ، وهانى بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان مغروق قد غلبهم لساناً ، وجمالاً ، وكانت له غديرتان تسقطان على ثريبتيه ، وكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر .

فقال أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟

فقال مغروق : إنا لا نزيد على الألف ، ولن تغلب ألف من قلة .

فقال أبو بكر : وكيف المنعة فيكم ؟

فقال مغروق : إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى ، وأشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يديلنا مرة ، ويديل علينا أخرى ، لعلك أخا قريش ؟

فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله ﷺ فهذا هو ذا .

فقال مغروق : إلام تدعوننا يا أخا قريش ؟

فقال رسول الله ﷺ : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٩٤ .

وأنى عبد الله ورسوله ، وإلى أن تؤوونى ، وتنصرونى ، فإن قريشاً قد تظاهرت على الله ، وكذبت رسوله ، واستعنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد فقال مغروق : والام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فو الله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا فتلا رسول الله ﷺ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَناً ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ قَتْلُهُمْ جُرْماً عَظِيماً ۚ وَلَا تَزْنُوا ۚ إِنَّهُ كَانَ زِنَاهُمْ جُرْماً عَظِيماً ۚ وَلَا تَقْرَبُوا أَلْفَاكاً مَّا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنٌ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَدَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

فقال مغروق : دعوت . والله . إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك .

ثم رد الأمر إلى هانى بن قبيصة فقال : وهذا هانى شيخنا ، وصاحب ديننا فقال هانى : قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش ، وإنى أرى تركنا ديننا ، وإتباعنا دينك لمجلس واحد جلست إلينا فيه ، لا أول له ، ولا آخر ، نذل فى رأى ، وقلة نظر فى العاقبة ، إن الزلة مع العجلة ، وإنا نكره أن نعقد على مغروق وراءنا عقداً ، ولكن نرجع ، وترجع ، ننظر ، وتنظر .

ثم كان معروفاً أحب أن يشركه المثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى شيخنا ، وصاحب حربنا .

فقال المثنى : قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش ، والجواب فيه جواب هانى بن قبيصة ، فى تركنا ديننا ، ومتابعتنا دينك ، وإنا إنما نزلنا بين صريين أحدهما الإمامة ، والآخر السمامة .

فقال له رسول الله ﷺ : ما هذا الصريان ؟

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥١ .

قال : أنهار كسرى ، ومياه العرب ، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، وأما ما كان مما يلي مياه العرب فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول ، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ، أن لا نحدث حدثاً ، ولا نوؤى محدثاً ، وإنى أرى هذا الأمر الذى تدعوننا إليه يا أخا قریش ، مما تكرهه الملوك ، فإن أحببت أن نوؤيك ، وننصرک ، مما يلي مياه العرب فعلنا .

فقال رسول الله ﷺ : ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله ﷻ لا ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ، رأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، أتحبون الله تعالى ، وتقدسوه ؟ فقال النعمان : اللهم فلك ذاك .

فتلا عليهم رسول الله ﷺ : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿١﴾ .
ثم نهض رسول الله ﷺ " (٢) .

ومن القبائل التى أعلنت استعدادها لإيواء النبى ﷺ مع عدم الإيمان به بنو كعب بن ربيعة ، وكاد الرسول ﷺ أن يذهب معهم لولا طاغية من طغاة البشر ردهم عما عزموا عليه .

يروى أبو نعيم عبد الرحمن العامرى عن أشياخ من قومه قال : " أتانا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ . فقال : من القوم ؟ قلنا : من بنى عامر بن صعصعة بنو كعب بن ربيعة .

(١) سورة الأحزاب ، من الآية ٤٥ : ٤٦ .

(٢) دلائل النبوة لأبى نعيم ص ٢٣٧ .

فقال : إني رسول الله إليكم ، أتيتكم لتمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ، ولا أكره أحداً منكم على شيء .

قالوا : لا نؤمن بك ، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك .

فأتاهم ببحرة بن فراس القشيري فقال : من هذا الرجل الذي أراه عندكم ؟

قالوا : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

قال : فما لكم وله ؟

قالوا : زعم أنه رسول الله ، فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه .

قال : ما رددت عليه ؟

قالوا : بالرحب ، والسعة نخرجه إلى بلادنا ، ونمنعه مما نمنع منه أنفسنا .

فقال ببحرة : ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشر من شيء

ترجعون به ! أتعمدون إلى رهيق قوم طردوه ، وكذبوه فتؤووه ، وتنصروه ،

تنابذوا العرب عن قوس واحدة ، قومه أعلم به ، فبئس الرأي رأيكم .

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : قم فالحق بقومك فوالله لولا أنك عند

قومي لضربت عنقك^(١) .

ونلاحظ أن أهل مكة لم يتركوا محمداً يتصل بالناس ، بل كانوا يتابعونه ،

ويحاولون صرف الناس عن مقابلته ، وسلطوا عمه أبا لهب ، وأبا جهل يسيران

خلفه ، أحدهما بعد الآخر بالتناوب ، وكلما خاطب قوماً ، ودعاهم إلى الله يقول

أبو لهب ، ويقول أبو جهل : يا بني فلان ، إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن

تسلخوا اللات ، والعزى من أعناقكم ، وتتركوا حلفاءكم من الجن ، إلى ما جاء به

من البدعة ، والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٩٥ .

يقول طارق بن عبد الله : " إني بسوق ذى المجاز ، إذ مر بى رجل عليه حلة من برد أحمر ، وهو يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل خلفه قد أدمى عرقوبيه ، وساقيه يقول : يا أيها الناس إنه كذاب فلا تطيعوه .
فقلت : من هذا ؟

قالوا : غلام بنى هاشم الذى يزعم أنه رسول الله ، وهذا عمه عبد العزى (أبو لهب) " (١) .

ويروى الإمام أحمد بسنده عن رجل من كنانة يقول : " رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذى المجاز ، وهو يقول : يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا .
وإذا رجل خلفه يسفى عليه التراب ، وإذا هو أبو جهل ، يقول : يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم ، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات ، والعزى .
يتبعه حيث ذهب ، ورسول الله ﷺ يفر منه ، وما يلتفت رسول الله ﷺ إليه " (٢) .

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ٤٢٣ .

(٢) سيرة ابن كثير ج ٢ ص ١٥٦ .

الاتصال بقبائل المدينة "يثرب"

بعد أن أبت (ثقيف) الدخول في الإسلام ، ورفضت القبائل دعوة محمد ﷺ اتجه النبي ﷺ بآماله نحو قبائل يثرب (المدينة) ، فهم القسم المقابل لقبائل مكة ، وأعراب البوادي ... وصار عليه أن يعرض الإسلام على أهل المدينة كما عرضه على ثقيف ، وسائر القبائل ، وكان موسم الحج مناسبة لسائر القبائل العربية ، يحضرون خلالها إلى مكة ، ويبيتون بمنى ومكة ، ويعمرون الأسواق بالأدب ، والخطابة ، والبيع ، والشراء .

وجاء عون الله لمحمد وصحبه حين أقبل عليهم أناس من يثرب ، من قبيلتي الأوس والخزرج لسماع شئ عن دين محمد ، وإعلان موقفهم منه .
و (يثرب) مدينة مشهورة بالزراعة ، واعتدال المناخ ، ولذلك سكنها اليهود حين أتوها من الشمال والجنوب .

وكان سكان يثرب مكونين من قبائل اليهود ، ومن الأوس والخزرج ، ومن آخرين وفدوا إليها للعمل والتجارة .

وقبيل ظهور الإسلام عاشت يثرب حياة غريبة حيث اشتد الصراع بين قبيلتي الأوس والخزرج ... ونأى اليهود بقبائلهم عن هذا الصراع إلا أن منهم فريقاً كان يشجع الأوس ، وفريقاً آخر كان يشجع الخزرج .

واستمر الصراع بين الأوس والخزرج مدة طويلة ، وعلا شأن اليهود حتى صاروا يهددون العرب بالتخلص منهم ليكون الشأن كله لهم في يثرب ، وكانوا يقولون : إن نبياً أظننا زمانه سوف نؤمن به ، ونتبعه ، ونقتلكم قتل عاد وإرم .
وكان عرب يثرب يصدقون اليهود في كلامهم عن الدين لسابق علمهم به

(٤٧٥)

فهم أهل كتاب ، ولما جريوه عنهم فى هذا الشأن ، فعملوا على أن يسبقوا اليهود فى الإيمان بهذا الدين حين ظهوره .

وصنع القدر الإلهى ما هيا الأوس والخزرج للدخول فى دين محمد بعد أن بلغهم ، وذلك بأن طالت حرب (بعث) بينهما ، ورغبوا جميعاً فى نهاية لها ... وقد كان بأن دخلوا فى دين محمد ﷺ ، واسلموا له قيادتهم ، وانهاوا الحرب بينهم حتى لا يمكنوا اليهود مما عزموا عليه .
وبيان ذلك .

أن نفرا منهم حضروا إلى مكة فى موسم الحج ، ورأوا محمداً يدور على القبائل فى أماكنهم ، فالتقوا به ، وسمعوا منه ، وتيقنوا من صدقه ، فأخبروه بوضعهم ، وعرفوه ما بينهم من حرب ، وما بينهم وبين اليهود من صراع ، وتنافس ، وواعدوه على لقاء موسم فى العام القادم بعد أن يعودوا لأهلهم بما راوا ، وما سمعوا .

وفى العام التالى كانت بيعة العقبة الأولى ، وفى العام الذى يليه كانت بيعة العقبة الثانية .

وبذلك ظهرت بوادر النصر من (يثرب) المدينة التى نورت بهجرته ﷺ .
وسوف. يأتى تفصيل لبيعتى الأنصار. حين يكون. الحديث عن إسلام الأنصار ، وانتشار الإسلام فى المدينة .

المبحث الثامن عشر

زواج النبي ﷺ بعد وفاة خديجة

بعد وفاة خديجة رضى الله عنها تزوج النبي ﷺ غيرها ، وهو فى مكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فعقد على عائشة رضى الله عنها فى مكة ، ودخل بها فى المدينة ، وتزوج سودة بنت زمعة رضى الله عنها ، ودخل بها فى مكة ، وتزوج أيضاً أم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنهن أجمعين ، حيث عقد عليها وهى فى الحبشة ، ودخل بها بعد عودتها إلى المدينة المنورة بعد الهجرة .
وهذا تعريف بهؤلاء الزوجات أمهات المؤمنين :

- أولاً -

سودة بنت زمعة " رضى الله عنها "

روى ابن إسحاق . من طريق يونس بن نكير . أن النبي ﷺ تزوج سودة بعد خديجة ، ودخل بها فى مكة قبل الهجرة ، ولم يصب منها ولداً ، وكانت عائشة رضى الله عنها تقول عنها : " ما رأيت من امرأة أحب إلى أن أكون فى مسلاخها من سودة بنت زمعة " (١) .

يورد ابن كثير قصة زواج النبي ﷺ بسودة ، وعائشة رضى الله عنهما فيقول : " لما ماتت خديجة جاءت خوله بنت حكيم ، امرأة عثمان بن مظعون إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ألا تتزوج ؟

قال : من ؟

قالت : إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيباً .

(١) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ٥٧ .

قال : فمن البكر ؟

قالت : بنت أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبى بكر .

قال : ومن الشيب ؟

قالت : سودة بنت زمعة ، قد آمنت بك ، واتبعتك .

قال : فاذهبى فاذكريهما على .

فدخلت بيت أبى بكر فقالت : يا أم رومان ، ماذا أدخل الله عليك من الخير

والبركة ؟!

قالت : وما ذاك ؟

قالت : أرسلنى رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة .

قالت : أنظرى أبا بكر حتى يأتى .

فجاء أبو بكر فقلت له : يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة؟!

قال : وما ذاك ؟

قالت : أرسلنى رسول ﷺ أخطب عليه عائشة .

قال : وهل تصلح له ، إنما هى ابنة أخيه .

فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فذكرت ذلك له .

قال ﷺ : ارجعى إليه ، فقولى له : أنا أخوك ، وأنت أخى فى الإسلام ،

وابنتك تصلح لى .

فرجعت فذكرت ذلك له .

قال : انتظرى ، وخرج ، ثم رجع فقال لخولة : ادعى لى رسول الله ﷺ

فدعوته فحضر ، فزوجها أبو بكر إياه ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين .

ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة وقالت لها : ما أدخل الله عليك من

الخير ، والبركة ؟

قالت : وما ذاك ؟

قالت : أرسلنى رسول الله ﷺ أخطبك إليه .

قالت : وددت ، أدخلنى إلى أبى بكر (والدسودة) فاذكرى ذلك له ، وكان شيخاً كبيراً قد أدركه السن ، فدخلت عليه ، وحييته ، فقال : من هذه ؟

قالت : خولة بنت حيكم .

قال : فما شأنك .

قالت : أرسلنى محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة .

فقال : كفؤ كريم ، ماذا تقول صاحبتك ؟

قالت : تحب ذلك .

قال : ادعيها إلى فحضرت .

فقال لها : أى بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، قد أرسل يخطبك ، وهو كفؤ ، كريم ، أتحبين أن أزوجه بك به ؟

قالت : نعم .

قال : ادعيه لى ، فجاء رسول الله ﷺ فزوجها إياه^(١) .

وقد شكت سودة ظروفها لرسول الله ﷺ ، وحاولت أن تعتذر عن الزواج به

، فسألها رسول الله ﷺ : ما يمنعك منى ؟

قالت : والله يا نبى الله ما يمنعنى منك أن لا تكون أحب البرية إلى ،

ولكنى أكرمك أن يلعب هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة ، وعشية .

قال : فهل منعك منى غير ذلك ؟

قالت : لا والله ، قال لها رسول الله ﷺ : يرحمك الله ، إن خير نساء ركب

أعجاز الإبل ، صالحو نساء قريش ، أحناءن على ولد فى صغره ، وأرعاهن على

بعل بذات يده^(٢) .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣١ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٣ .

وسودة رضى الله عنها هي التي وهبت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة ،
 وذلك حينما كبرت فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين : يومها ، ويوم سودة^(١) .
 ونفهم من رواية الصحيحين أنها كانت امرأة . مع كبر سنها فيما بعد . كبيرة
 الجسم ، حتى أنها لتعرف ، وتميز بين النساء إذا مشت .
 قال لهما عمر ذات يوم ، وقد خرجت ليلاً : إنك والله يا سودة ما تخفين
 علينا^(٢) .

وتصفها بعض الروايات بأنها كانت ثقيلة ، ثبطة ، بطيئة الحركة ، ولهذا
 استأذنت النبي ﷺ ليلة جمع (مزدلفة) فى الدفع قبل حطمة الناس فأذن لها^(٣) .

(١) صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب كثرة النساء ج ٨ ص ١٢٧ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب خروج النساء لحوائجهن ج ٨ ص ٢٠١ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب الحج . باب من قدم من ضعفة أهله ج ٣ ص ١٦٦ .

ـ ثانياً ـ

عائشة بنت أبي بكر "رضى الله عنها"

تزوج النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها بعد وفاة خديجة بثلاث سنين^(١) ، والذي يظهر من أغلب الروايات أن عقده ﷺ عليها كان بمكة ، وعمرها ست سنوات ، أما الدخول بها فكان بالمدينة ، وهي بنت تسع سنين^(٢) . ولا عبرة لمن يشكك في إمكان زواج عائشة لصغرها لأنه يعارض النصوص الصحيحة الثابتة بعقله ، وبرؤيته الشخصية ، وهذا لا يجوز . ومما يؤكد صغر سنها حين الزواج لعبها مع البنات عند رسول الله ، ومجئ صواحب لها ينقمعن من رسول الله ، فيسربهن إليها^(٣) . أما عن كيفية دخوله ﷺ بها : فتحدثنا عائشة وتقول : " تزوجني النبي ﷺ ، وأنا بنت ست سنين ، فقدمنا المدينة ، فنزلنا في بني الحرب من الخزرج ، فوعكت ، وتمرق شعري ، فأتتني أمي أم رومان ، وإني لفي أرجوحة ، ومعى صواحب لي ، فصرخت بي ، فأتيته لا أدري ما تريد بي ، فأخذت بيدي حتى أوقفني على باب الدار ، وإني أنهج حتى سكن بعض نفسي ، ثم أخذت شيئاً من ماء ، فمسحت به وجهي ، ورأسي ، ثم أدخلتني الدار ، فإذا نسوة من الأنصار في البيت ، فقلن : على الخير ، والبركة ، وعلى خير طائر ، فأسلمتني إليهن ، فأصلحن من شأنى ، فلم يرعنى إلا رسول الله ﷺ ، فأسلمتني إليه ، وأنا يومئذ بنت تسع سنين " ^(٤) .

(١) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب تزوج النبي ﷺ خديجة ج ٦ ص ١٦٣ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب مناقب الأنصار . باب تزوج عائشة ج ٦ ص ٢٠١ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب فضائل الصحابة . باب فضل عائشة ج ١٥ ص ٢٠٤ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب البناء بالنهار ج ٨ ص ١٦٦ .

وزواج النبي ﷺ بعائشة تم بعد رؤيا رآها في المنام تكررت مرتين ، كما في البخارى^(١) ، أو ثلاث كما في مسلم^(٢) .

يقول ﷺ في حديثه معها : " جاعنى بك الملك فى سرقة من حرير . فقال لى : هذه امرأتك ، فكشفت عن وجهك الثوب ، فإذا أنت هى . فقلت : إن يك هذا من عند الله يمضه " ^(٣) .

وعائشة رضى الله عنها هى الوحيدة من بين أزواجه ﷺ التى تزوجها وهى بكر ، ولهذا كانت تظهر هذا الفضل ، وتقول للنبي ﷺ : " يا رسول الله ، أرايت لو نزلت وادياً ، وفيه شجرة قد أكل منها ، ووجدت شجرة لم يؤكل منها فى أيها كنت ترتع بعيرك ؟! قال : فى التى لم يرتع منه " . تعنى أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها^(٤) .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول لعائشة : " لم ينكح النبي ﷺ بكراً غيرك " .

مكثت عائشة رضى الله عنها مع النبي ﷺ تسع سنين ، ومات عنها النبي ﷺ ، وهى بنت ثمانى عشرة سنة .

وفى فضلها قال ﷺ : " فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام " ^(٥) .

وأخبرها النبي ﷺ : أن جبريل يقرئها السلام ^(٦) .

(١) صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب نكاح الإيثار ج ٨ ص ١٣١ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الفضائل . باب فضائل عائشة ج ١٥ ص ٢٠٢ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب البناء ج ٨ ص ١٦٥ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب نكاح الإيثار ج ٨ ص ١٣١ .

(٥) صحيح مسلم . كتاب الفضائل ج ١٥ ص ١٩٩ .

(٦) صحيح مسلم . كتاب الفضائل ج ١٥ ص ٢١٠ .

وقد اختصت من بين سائر زوجات النبي ﷺ بنزول الوحي عليه ، وهو في لحافها ، أخبر عن ذلك المصطفى ﷺ وهو يقول لأم سلمة : " يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة ، فإنه والله ما نزل على الوحي ، وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها " (١) .

ومحبة النبي ﷺ لعائشة لم تكن تخفى على المسلمين ، حتى لقد كانوا يتحرون بهداياهم اليوم الذي يكون فيه النبي ﷺ عند عائشة (٢) .
وعائشة رضى الله عنها هي التي قبض النبي ﷺ بين سحرها ، ونحرها . كما كانت تقول (٣) . لأنه ﷺ لقي ربه ، وهو في حجرها ، وكان آخر عهده معها أن بل ريقها ريقه رضى الله عنها .

(١) صحيح البخارى . كتاب المناقب ج ٦ ص ١٤٣ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الفضائل ج ١٥ ص ٢٠٥ .

(٣) المرجع السابق ج ١٥ ص ٢٠٨ .

- ثالثاً -

أم حبيبة بنت أبي سفيان "رضى الله عنها"

أم حبيبة هي رملة بنت أبي سفيان ، هاجرت رضى الله عنها إلى الحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش الأسدي ، وفارقتة بعدما تنصر ، وارتد ، فعقد عليها النبي ﷺ ، وهي بأرض الحبشة ، وأنكحها النجاشي للنبي ﷺ وأصدقها أربعمائه دينار ذهباً .

ودخل بها ﷺ في المدينة بعد أن عادت من هجرتها^(١) .
وهي التي عرضت على النبي ﷺ الزواج بأختها (عزة بنت أبي سفيان)
فعجب النبي ﷺ لذلك ، وقال : أو تحبين ذلك ؟!
قالت : نعم ... لست لك بمخلية ، وأحب من شاركني في الخير أختي .
فرد عليها ﷺ : إن ذلك لا يحل لي .
فرجعت عن عرضها ، وآثرت نفسها على أختها لتعيش في كنف رسول الله ﷺ .
وإنما عقد النبي ﷺ على أم حبيبة تكريماً لها ، وتقديراً لتمسكها بالإسلام ،
وعوضاً لها عن مفارقة زوجها .

(١) جوامع السيرة ص ٣٥ .

المبحث التاسع عشر

تتابع مجئ نصر الله تعالى

بذل النبي ﷺ جهده فى دعوة أهل الطائف ، وعرض نفسه على القبائل ، ومع ذلك لم يتحقق له ما يتمنى حيث رده أهل الطائف رداً قبيحاً ، ولم تؤمن القبائل بدعوته ، ورفضت إجارته خوفاً من عداء قريش ، وتأثراً بما كان أبو لهب ، وأبو جهل يذكران عنه وهما يسيران خلفه .

ويلاحظ هنا مدى الجهد الذى بذله رسول الله ﷺ لإيمان الناس ، فلقد ذهب إلى الطائف فى صحبة صحابى واحد هو مولاة زيد بن حارثة ؓ ، وقطع المسافة بين مكة والطائف سيراً على قدمه فى ذهابه وعودته .

وكان ﷺ يعرض على القبائل نفسه ودعوته ﷺ وحيداً محتسباً . وكانت معونة الله مع عبده ، ورسوله محمد ﷺ فرزقه قوة الصبر والتحمل ويسر له من أمره رشداً ، ولم يخرج من جهاده مع الناس خالى الوفاض ، فحقق له عدداً من الانتصارات التى ترضيه ، رحمة من الله ، وفضلاً . وأهم هذه الانتصارات ما يلى :

النصر الأول

إسلام عداس

ردت ثقيف رسول الله ﷺ رداً سيئاً ، وسلطت سفهاءها للعدوان عليه ﷺ ، وبعدها أخذ ﷺ فى مغادرة الطائف ، والعودة إلى مكة المكرمة بعدما قام بتبليغ دعوة الله إلى الطائف وثقيف .

وعندما وصل إلى بستان بنى ربيعة فى طريق عودته جلس تحت ظل شجرة

ليستريح ، وأخذ يدعو ربه ، ويستغيث به ... فاستجاب الله له ، وجاءه نصر الله حتى لا يعود لمكة خاوى الوفاض ، فكان إسلام (عداس) .

و(عداس) رجل من (نينوى) نصرانى يعمل فى بستان بنى ربيعة ، وهو باق على نصرانيته ، قدر الله أن يدخل فى الإسلام ، ويصير من أتباع محمد ﷺ .
وقصة إسلام عداس أنه ﷺ لما جلس تحت ظل الشجرة ليستريح رآه عتبة ، وعتيبة ابنا ربيعة ، وعلموا ما وقع له ، فتحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له (عداس) ليعطيه شيئاً من الفاكهة ، تعينه على هذه المتاعب ، وتشبعه من جوعه الذى هو فيه ، وصاحبه .

وقالا له : خذ قطعاً من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، ليأكل منه .

ففعل عداس ، ثم أقبل بالطبق حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ثم قال له : كل .

فلما وضع رسول الله ﷺ يده على العنب قال : بسم الله ، ثم أكل .
فنظر عداس فى وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقول به أهل هذه البلاد .

فقال له رسول الله ﷺ : ومن أى البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟
قال عداس : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى .
فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى .
فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟
فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخى كان نبياً ، وأنا نبى .
فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ، ويديه ، وقدميه ، وأسلم .
فقال له ابنا ربيعة : ويلك يا عداس ؟ مالك تقبل رأس هذا الرجل ، ويديه وقدميه ؟!

(٤٨٦)

فقال لهما : لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي^(١) .

وبذلك أسلم (عداس) قبل أن يغادر رسول الله ﷺ الطائف ، وتحقق أمل سعى إليه رسول الله ﷺ ، ولو بصورة جزئية تأييداً من الله تعالى لرسوله ﷺ .
وبذلك يكون (عداس) أول من أسلم من رحلة النبي ﷺ إلى الطائف ، وبدأ بزوغ الخير جوار البستان الذي يحرسه (عداس) .

(١) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٤٢١ .

النصر الثانى

إسلام الجن

حين انصرفه ﷺ من الطائف ، راجعاً إلى مكة بدأت تباشير عون الله له ، فأسلم (عداس) ، وعند واد فى طريق مكة يسمى وادى (نخلة) قام ﷺ فى جوف الليل يصلى ، فأتاه سبعة من جن نصيبين ، استمعوا لقراءته ﷺ ، وهو يصلى ، فلما فرغ من صلاته ، حدثوه ، وأعلنوا إيمانهم ، وإسلامهم ، ثم انصرفوا إلى قومهم دعاة ، يحملون الإسلام إليهم ، ويوضحون تعاليمه ، ومزاياه ، وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ ﴾ (١) قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۖ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ ﴾ (٢) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۗ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ ﴾ (٣) . وقد نزلت قصتهم كاملة فى سورة الجن ، وبدأ خلق آخر يدخلون فى الإسلام ، ويهتمون بالدعوة إليه ...

ومن سياق الآيات يتضح أن الرسول ﷺ لم يكن يعلم بحضور هذا النفر من الجن ... وإنما صرفهم الله إليه لسماع قراءته ، فلما استمعوا علموا ما فى القرآن من صدق ، وبلاغة فانصتوا ، وآمنوا به ، ورجعوا إلى قومهم دعاة له ، وبذلك بدأ الإسلام ينتشر بين الجن ، وهم عالم كعالم الأنس مكلفون ، محاسبون .

(١) سورة الأحقاف ، من الآية ٢٩ : ٣٢ .

لقد كان إيمان الجن نصراً آخر ، أمدّه الله به ، من كنوز غيبه المكنون ،
ولله جنود لا يعلمها إلا هو .

إن الجن عالم يوازي عالم الإنس فى التكليف ، والحساب ، والجزاء ، وإيمان
هذا النفر من الجن يعد نصراً كبيراً لرسول الله ﷺ ، لما يتمتع به الجن من قوة ،
وتأثير ، ولما سيقوم به هذا النفر من دعوة إخوانهم إلى الإيمان ، والإسلام .
ثم إن الآيات التى نزلت بصدد هذا الحادث تحمل فى طياتها بشارات نجاح
دعوة النبى ﷺ ، وتؤكد أن سائر قوى الكون لا تستطيع أن تحول بينها ، وبين
نجاحها يقول الله تعالى ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ
لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه: ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ (٢)
إنها تشير إلى هزيمة أعداء الله ، وتؤكد انتصار حزب الله فى النهاية .

(١) سورة الأحقاف ، الآية ٣٢ .

(٢) سورة الجن ، الآية ١٢ .

النصر الثالث

إجارة المطعم بن عدى

لما خرج محمد ﷺ إلى الطائف عزمت قريش على منعه من العودة إلى مكة ، حتى لا يجد مكاناً يأويه ، أو أناساً يحمونه ... ويبقى بعيداً عن مكة سائراً بين القبائل ، مهاناً بين الناس .

وتصوروا أن منعه من دخول مكة يظهر للقبائل ضعف الرسول ، وضعف اتباعه ، ومعاونته ، وفي هذا التصور دعاية عملية ضد الرسول ﷺ ، ودعوته .
تأمل الرسول ﷺ الموقف ، وأدرك خطورته ، لذلك نوى ﷺ العودة إلى مكة مهما كانت العقبات .

قال له زيد بن حارثة ؓ رفيقه في رحلة الطائف : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟

فقال ﷺ : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ، ومخرجاً ، وأن الله ناصر دينه ، ومظهر نبيه .

وسار رسول الله ﷺ صوب مكة ، وأمله في عون الله ، ونصره حتى وصل حراء ، (حراء مكة) ، فمكث بها ، وأخذ يبحث عن شخص يجيره ، وينصره ...

فأرسل رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره .

فقال الأخنس : أنا حليف ، والحليف لا يجير .

فبعث الرجل إلى سهيل بن عمرو .

فقال سهيل : إن بني عامر لا تجير على بني كعب .

فبعث الرجل إلى المطعم بن عدى .

فرد المطعم رداً جميلاً وقال : نعم .

(٤٩٠)

ثم تسلح ، ودعا بنيه ، وقومه ، وقال لهم : ألبسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت ، فإنى قد أجرت محمداً .

ثم بعث المطعم إلى رسول الله ﷺ : أن ادخل .

فدخل رسول الله ﷺ مكة ، ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام .

فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى المطعم : يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم .

وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته .

ومطعم بن عدى وولده محدقون به ، بالسلاح حتى دخل بيته .

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعماً : أمجير أنت أم متابع مسلم .

قال المطعم : بل مجير .

قال أبو جهل : قد أجرنا من أجرت ...

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنيع ، فقال فى أسارى بدر : لو كان

المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى فى هؤلاء الننتى لتركتهم له^(١) .

وعاد رسول الله ﷺ إلى مكة ، وخاب الكفار فى تخطيطهم ، وأخذ الرسول ﷺ

يباشر الدعوة ، ويبلغ الناس دين الله تعالى ، ويصون الحمية الدينية لدى المؤمنين

الصادقين ... ويعلم المسلمين ما ينزل عليه من وحى الله تعالى .

(١) صحيح البخارى . كتاب الجهاد . باب ما من النبى ﷺ به على الأسارى ج ٥ ص ٢٢٦ .

ط . الأوقاف .

النصر الرابع

أضواء وسط ظلام القبائل

ظلت القبائل على كفرها ، وردوا على رسول الله حين عرض نفسه عليهم ردوداً مختلفة ، وكان لموقف القبائل أثر مؤلم على نفس رسول الله ﷺ .

ويأبى الله إلا أن يكرم محمداً ﷺ ببعض الخير ، فتشرق عليه أضواء إيمان بين هذه القبائل ، وذلك بإسلام أفراد منهم ، ودخولهم في دين الله تعالى .

ولئن حاربت القبائل ، ورفضت دعوته إلا أن الله أكرمه بأناس من هذه القبائل انشقوا عن قبائلهم ، ودخلوا في دين الله تعالى مع محمد ﷺ ، ومثلوا طليعة الإيمان في هذه القبائل ، وعلى رأس الذين أسلموا :

- ١ -

سويد بن الصامت ؓ

وهو رجل من بنى عوف بن مالك من بنى الأوس ، جاء إلى مكة حاجاً ، أو معتمراً ، فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به ، فدعاه إلى الله ، وإلى الإسلام ، وكان ذلك قبل مجئ وفد الأوس إلى رسول الله ﷺ لمبايعته في العقبة .

فقال له سويد : **فلعل الذي معك هو الذي معي .**

فقال له رسول الله ﷺ : **وما الذي معك ؟**

قال : **معى مجلة لقمان . يعنى حكمة لقمان .**

فقال له رسول الله ﷺ : **أعرضها علىّ .**

فعرضها عليه .

فقال له ﷺ : **إن هذا الكلام حسن ، والذي معى أفضل من هذا ، معى قرآن أنزله الله تعالى علىّ ، هو هدى ونور .**

فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه .
وقال : إن هذا لقول حسن ، وأسلم ، ثم انصرف عنه^(١) .

- ٢ -

إياس بن معاذ

إياس بن معاذ من بنى عبد الأشهل ، وهم بطن من الأوس ، جاء وهو صغير مع قومه ، يلتمسون الحلف مع قريش لينتصروا بهم على الخزرج ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم ، وجلس معهم ، وقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا له : وما ذاك ؟

قال ﷺ : أنا رسول الله بعثنى إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئاً ، وانزل على الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .
فقال إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئنا له ، فأخذ أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس ، وقام رسول الله ﷺ عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، حيث وقعة بعاث بين الأوس ، والخزرج فى نهايتها .
ثم لم يلبس إياس بن معاذ أن مات بعد أن أسلم .

يقول محمود بن لبيد ، فأخبرنى من حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعون به يهلل لله تعالى ، ويكبره ، ويحمده ، ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون انه قد مات مسلماً ، لقد استشعر الإسلام فى ذلك المجلس ، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع^(٢) ، وآمن بمحمد ﷺ إلا أنه كتم إسلام ، ومات قبل أن يدخل قومه فى الإسلام أنصاراً لرسول الله ﷺ .

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ٤٢٧ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

أبو ذر الغفارى رضي الله عنه

لما بلغ يثرب خبر سويد بن الصامت ، وإياس بن معاذ رضى الله عنهما ، وعلموا إنهما سمعا محمداً ﷺ ، وآمناً بدعوته ، بدا أهلها فى التفكير فى أمر محمد وبخاصة أهل الرأى فيهم ، ومنهم أبو ذر الغفارى .

أخذ أبو ذر يفكر فى الإسلام ، وهو فى يثرب ، فقال لأخيه : اركب إلى هذا الوادى ، فاعلمنى علم هذا الرجل ، الذى يزعم أنه نبي ، يأتية الخبر من السماء ، واسمع من قوله ، ثم انتتى .

فانطلق أخوه حتى قدم مكة ، ولقى محمداً ﷺ ، وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبى ذر ، فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشعر .

فقال أبو ذر : ما شفيتنى مما أردت ، فتزود أبو ذر ، وحمل شنة له فيها ماء ، حتى قدم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمس النبى ﷺ ، وكان لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل ، فراه على ﷺ فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ .

فلما أصبح أبو ذر ، احتمل قرينته ، وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ينظر إلى النبى ﷺ ، والنبى لا يراه حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه .

مر به على فى مضجعه فقال له : أما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه عنده ، وذهب به معه ، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ .

حتى إذا كان اليوم الثالث ، عاد أبو ذر على مثل ما فعل ، فأقام معه على ، وقال له : ألا تحدثنى ما الذى أقدمك ؟

قال أبو ذر : إن أعطيتنى عهداً ، وميثاقاً لترشدنى فعلت ، فأعطاه على الموثق ، فأخبره أبو ذر خبره .

قال على : فإنه حق ، وهو رسول الله ﷺ ، فإذا أصبحت فاتبعنى ، فإنى إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأنى أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعنى ، حتى تدخل مدخلى ، ففعل ، فانطلق يقفوه ، حتى دخل على ﷺ على النبى ﷺ ، ودخل أبو ذر معه ، فسمع من قوله ﷺ ، وأسلم مكانه ، فقال له ﷺ : ارجع إلى قومك ، فأخبرهم حتى يأتيتك أمرى .

قال أبو ذر : والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرائهم ، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه .

وأتى العباس فأكب عليه ثم قال : ويلكم ! أستم تعلمون أنه من غفار ؟ وأن طريق تجارتكم إلى الشام عندهم ؟ فأنقذه منهم .

ثم عاد أبو ذر من الغد لمتلها ، فضربوه ، وثاروا عليه فأكب العباس عليه^(١) بمثل ما فعل فى اليوم السابق .

— ٤ —

الطفيل بن عمرو الدوسى

الطفيل شيخ من شيوخ قبيلة دوس ، إحدى قبائل اليمن ، قدم الطفيل مكة ، ورسول الله ﷺ بها بعد عودته من الطائف ، فمشى إليه رجال من قريش لصدده عن إتباع محمد ﷺ ، فقالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا فرق جماعتنا ، وشتت شملنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك ، وعلى قومك ، ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ، ولا تسمع منه شيئاً .

يقول الطفيل : فو الله ما زالوا بى حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ، ولا

(١) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب إسلام أبى ذر ج ٦ ص ١٨٢ .

(٤٩٥)

أكلمه ، وحشوت فى أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفاً خوفاً من أن يبلغنى شئ من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمع ، فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة ، فقامت منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاماً حسناً .

فقلت فى نفسى : واثكل أمى ، والله إنى لرجل لبيب ، شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ! فإن كان الذى يأتى به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته .
فمكث حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه .

فقلت : يا محمد ، إن قومك قالوا لى كذا وكذا ، للذى قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف لكى لا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك ، فسمعته قولاً حسناً ، فاعرض على أمرك ، فعرض على رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا على القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه : فأسلمت وشهدت شهادة الحق^(١) .

— ٥ —

ضماد الأزدي

ضماد رجل من اليمن ، كان يعمل بالرقيا من الجن ، قدم مكة ، فسمع أهلها يقولون : إن محمداً مجنون .

فقال : لو أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى .

فذهب إليه وقال له : يا محمد ، إنى أرقى من هذا الريح ، فهل لك ؟

فقال رسول الله ﷺ : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

له ، ومن يضلله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ... أما بعد .

فقال ضماد : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات .

فقال ضماد : لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغت قاموس البحر ، هات يدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه^(١) .

وهكذا ...

توالى نصر الله تعالى بإيمان هذه الصفوة الكريمة من خيرة الناس الذين مثلوا انتصار الأمل ، وكانوا قادة عشائهم إلى الله تعالى .
وبانت الحقيقة الكبرى وهى أن الله تعالى لن يخذل المخلصين من عباده ، وأن نصره سبحانه وتعالى قريب من الصادقين .

(١) الرحيق المختوم ص ١٥٢ .

- ٦ -

**ركائز دعوية
من إسلام الصفوة**

قام رسول الله ﷺ بأمر الدعوة كما أمره الله سبحانه وتعالى ، وأدى ما عليه ورأى من الناس عنثاً وقسوة ، ولم يضع جهده سدى فأكرمه الله بعون من عنده ، ونصره ، وفي هذا العون عبرة لأولى الألباب .
وأهم ما نستنبطه للدعوة من ركائز نذكره فيما يلي :

**الركيزة الأولى
التفاؤل وعدم اليأس**

لم ييأس رسول الله ﷺ من موقف الناس ، ورضى بما قام به من واجب ، وترك الأمر لله ، فعوضه ربه خيراً ... وفي ذلك درس يجب أن يعرفه الدعاة ، ويطبقوه في حياتهم ... عليهم أن يؤدوا الدعوة على وجهها الصحيح ، ويتركوا النتائج لله تعالى ، وبذلك تستمر مسيرة الدعوة .

إن الزمن ليس صورة واحدة ، والأمور متقلبة ، ودائماً تشرق الشمس ، ويطلع النهار ... وحين يكون الظلام ، والليل ، لا يصح أن نتصوره الديمومة المطلقة ، لأنه سينتهي حتماً بطلوع الفجر ، والنهار ، والأمور تحمل أضدادها معها ، ولا وحدانية إلا لله تعالى .

ولنا أن نعاود صورة رسول الله ﷺ ، وهو راجع من الطائف ، وهو جالس في ظل بستان بنى عمير ، وحين نبحت عن حاله ، وقراره لتتأسى ... سنجد ﷺ يشكو الأمر لله ، ويسلمه له ... ويقول بلسانه وقلبه : إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي .

لا ينبغي التفسير في شأن الدعوة إلى الله تعالى مهما كانت المبررات بعدما رأينا الرسول ﷺ يؤديها وسط الصعاب العديدة المتنوعة .
 إن الداعية المخلص يقوم بدعوته في المجال الذي يناسبه ، في إطار أسرته أو مع الجماعة التي يختلط بها ... أو مع الناس أجمعين ... المهم أن لا يتوقف ، وعليه أن يعيش مع دعوته بأقواله ، وأعماله ، وأحواله ، وصفاته جميعاً .

الركيزة الثانية

العبرة بالكيف لا بالكم

كفرت القبائل بدعوة محمد ﷺ ، ولم تستجب لدعوته ، وعوضه الله خيراً بإسلام أفراد قلائل من بين هذه القبائل ... وهذا فضل من الله تعالى يعلمنا ، إن العبرة في القيمة المستفادة ، وليست في كثرة العدد ، فلربما كانت كثرة العدد مناهجاً للتآمر ، والفساد .

إن الرأي العام يقوده رواده ، والجمهرة تخضع لأولى الرأي ... والشمس والقمر يسودان النجوم ، والكواكب ، ولذلك كان تركيز الدعاة على أناس مؤثرين ، عقلاء ، أولى من البحث عن كثرة كغناء السيل ، زبدها كثير ، ولا نفع فيها .
 قد يفرح إنسان بالكثرة ، وتظهر الأيام أن هذه الكثرة خسران ووبال ، ولذلك كان على الدعاة أن يركزوا على رواد الجماعات ، ومناقشة الخاصة فيهم لأن في إيمانهم إيمان من وراءهم ... وإيمانهم يبسر الطريق ، ويمكن الدعاة من الوصول إلى ما يريدون .

الركيزة الثالثة

الله ينصر من نصره

نصر الله رسوله ﷺ بأمور بدت شموساً وسط ظلام الكفر ، وهذا درس نأخذ منه أن نصر الله موجود ، يناله من يستحقه من الناس .

وكما نصر الله رسوله سينصر المؤمنين بعده إذا ساروا على طريقه ، والتزموا بمنهجه في الانقياد ، والطاعة .

إن رسول الله ﷺ جاء معلماً ، ومبشراً ... ورسالته باقية خالدة ، وعلى المسلمين أن يحددوا بها سلوكهم ، والدعاة خصوصاً عليهم أن يعملوا بشفافية ، وصدق ، ليتحقق لهم وعد الله ، ويأتيهم نصره في الدنيا والآخرة يقول الله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهُدُ ﴾ (١) .

(١) سورة غافر ، الآية ٥١ .

(٥٠٠)

المبحث العشرون

الإسراء والمعراج

دعا محمد ﷺ لدينه بكل طاقاته واستطاعته ، ولم يدخر شيئاً لنفسه ، وصبر ، وصابر ، واحتسب ... ولم يضعف أبداً بعد موت عمه أبي طالب ، وزوجته خديجة رضي الله عنها .

واشتدت الآلام حوله ، وزاد القرشيون من عنادهم وعدوانهم وتكالب عليه الأعداء من كل جانب .

وهنا ...

كانت رحلة الإسراء والمعراج تأييداً لمحمد ﷺ ليعرف قربه الدائم من ربه ، ويتأكد من مقامه لديه ، وليبقى على إيمانه بقدرة الله المطلقة ، ورعايته الشاملة ، وليرى من آيات ربه الكبرى ... وليعلم قرب النصر ، وثبوت الحق ، وانتشار الإسلام .

لقد كانت الإسراء والمعراج مرحلة جديدة في الدعوة إلى الله تعالى أخذت النبي ﷺ في رحلة أرضية ، سماوية ، رأى فيها مستقبل الإسلام ، وظهوره على الدين كله ...

لقد عاش محمد ﷺ الماضي ، والحاضر ، والمستقبل في هذه الرحلة الخالدة . رأى الماضي ، وقابل الأنبياء في إقامتهم عند الله ، وسمع منهم الترحيب به والسرور لمبعثه .

ورأى الحاضر حيث جاوز الأفق ، وشاهد الناس ، وهم يعاقبون على أفعالهم التي ينهاهم عنها .

ورأى المستقبل حيث انتصار الإسلام ، وفوز المسلمين بطاعتهم لشرع ربهم العظيم .

(٥٠١)

وباختصار لقد رأى من آيات ربه الكبرى. يقول الله تعالى ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾^(١).

والحديث عن الإسراء والمعراج يحتاج إلى تناول نقاط معينة . أهمها :

ـ ١ ـ

مفهوم الإسراء والمعراج

ضاق صدر النبي ﷺ بمواقف أهل مكة ، وصدهم الناس عن دين الله تعالى وزاد ضيقه من إجبار المسلمين على الهجرة إلى الحبشة ، ومحاولة حرمانه من الإقامة في مكة أحب البلاد إليه ، وضاعف من هذا الضيق وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة ، وسرى الله عنه بإحاطته بعونه ، ورد كيد أعدائه عنه ، فكان أن أمن به عدد من كبار القوم ، وأولى الرأي في القبائل ، ونفر من الجن .

وكانت ذروة العون الإلهي ما حدث للنبي ﷺ خلال انتقاله إلى بيت المقدس وإلى السموات العلا في رحلة الإسراء والمعراج .

ويراد بالإسراء تلك الرحلة التي صحب فيها جبريل عليه السلام محمداً ﷺ ليلاً من البيت الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ، ببيت المقدس ، وهي بيت (إيلياء) حيث ركباً معاً البراق خلال هذه الرحلة .

ويراد برحلة المعراج صعود جبريل بمحمد ﷺ من بيت المقدس إلى السماوات العلا ، في معراج حضره جبريل عليه السلام مع رسول الله ﷺ إلى ما قبل سدة المنتهى .

والبراق مخلوق أوجده الله تعالى لمحمد ﷺ ليركبه ، وخلفه جبريل ، وهو على هيئة حيوان بين الحمار والبغل مرفوع الرأس ، مستطيل الظهر ، واسع الخطى .

(١) سورة النجم ، الآية ١٨ .

ثبوت الإسراء والمعراج

ثبت حدوث الإسراء والمعراج لرسول الله ﷺ بالقرآن الكريم ، وبالسنة النبوية ، وبشهادة الصحابة رضوان الله عليهم . وهى :

١. شهادة القرآن الكريم :

أثبت القرآن الكريم وقوع الإسراء والمعراج فى سورتين من سور القرآن الكريم .
يقول- الله تعالى ﴿ سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢) . والآيات تتحدث عن رحلة الإسراء ، ورحلة المعراج ، حيث تضمنت آيات سورة الإسراء رحلة الإسراء ، وتضمنت آيات سورة

(١) سورة الإسراء ، الآية ١ .

(٢) سورة النجم ، من الآية ١ : ١٨ .

النجم رحلة المعراج .

وفى الرحلتين رأى رسول الله آيات من آيات ربه الكبرى ، وقابل الرسل ورأى الملائكة ، وشاهد حقائق الحياة ، وصور النماذج البشرية التى رآها ، أو سوف يراها ، وتأكد من قدرة الله ، وأنه سبحانه وتعالى سيجازى كل نفس بما كسبت بلا ظلم ، ولا نسيان .

٢ . شهادة السنة النبوية :

أخرج مسلم عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ قال أتيت بالبراق ، وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ، ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة التى يربط به الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فجاءنى جبريل ﷺ بإناء من خمر ، وإناء من لبن فاخترت اللبن ، فقال جبريل ﷺ اخترت الفطرة .

ثم عرج بنا إلى السماء الأولى فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بآدم ﷺ فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل ﷺ .

فقيل : من أنت ؟؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟

(٥٠٤)

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم ، ويحيى
بن زكريا صلوات الله عليهم فرحبا ، ودعوا لى بخير .
ثم عرج بى إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل .
ف قيل : من أنت .
قال : جبريل .
قيل : ومن معك ؟
قال : محمد ﷺ .
قيل : وقد بعث إليه ؟
قال : قد بعث إليه .
ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف الطوسي ، وقد أعطى شطر الحسن ، فرحب ، ودعا
لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام .
قيل : من هذا ؟
قال : جبريل .
قيل : ومن معك ؟
قال : محمد .
قال : وقد بعث إليه ؟
قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإدريس ، فرحب ، ودعا لى بخير ،
قال الله ﷻ ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (١) .
ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل : من هذا ؟
قال : جبريل .
قيل : ومن معك ؟

(١) سورة مريم ، الآية ٥٧ .

قيل : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ففتح لنا ، فإذا بهارون عليه السلام ، فرحب ، ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل عليه السلام .

قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى عليه السلام ، فرحب ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل .

فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد ﷺ .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت

المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون منه ، ثم ذهب بى

إلى سدة المنتهى ، وإذا ورقها كأذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال .

فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن

ينعتها من حسنها .

فأوحى الله إلى ما أوحى ، ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ،

فنزلت إلى موسى عليه السلام ، فقال : ما فرض ربك على أمتك .

قلت : خمسين صلاة .

قال موسى عليه السلام : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم .

فرجعت إلى ربي ، فقلت يا رب خفف على أمتي فحط عني خمسا .

فرجعت إلى موسى ، فقلت حط عني خمسا .

قال موسى عليه السلام : إن أمتك لا يطيقون ذلك .، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

يقول صلى الله عليه وسلم : فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى ، وبين موسى عليه السلام ، حتى قال الله تعالى : يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر ، فذلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة .
فنزلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه^(١) .
وقد روى حديث الإسراء والمعراج ثمانية وثلاثون صحابياً ، وصحابية ، بعضهم ذكره مطولاً ، وبعضهم ذكره مختصراً ، وبعضهم زاد جوانب لم تذكر عند الآخرين ... ووقعت بينهم اختلافات ، والقدر المجمع عليه هو أنه صلى الله عليه وسلم أسرى به من مكة إلى بيت المقدس ، راكباً البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ، ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين .

ثم أتى بالمعراج ، وهو كالسلم ، ذو درج يرقى فيها ، فصعد فيه ، إلى

(١) صحيح مسلم بشرح النووي . باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٢١٠ . ٢١٥ ، يقول القاضي عياض عن هذا الحديث : لم يأت أحد بأصوب من هذا الحديث (الشفاء ج ١ ص ١٧٩) .

السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السموات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها .
ثم سلم على الأنبياء الذين فى السموات ، بحسب منازلهم ، ودرجاتهم ، حتى
مر بموسى الكليم ، وإبراهيم الخليل فى السماء السادسة ، والسماء السابعة ثم جاوز
منزلتهما ﷺ ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، أى أقلام القدر
بما هو كائن .

ورأى سدرۃ المنتهى ، وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش
من ذهب ، وألوانه متعددة ، وغشيتها الملائكة .

ورأى هناك جبريل على صورته ، وله ستمائة جناح ، ورأى رفراً أخضر قد
سد الأفق ، ورأى البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ،
يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون منه إلى يوم القيامة .

ورأى الجنة والنار ، وفرض الله عليه هناك الصلوات خمسين ، ثم خففها إلى
خمس ، رحمة منه سبحانه ، ولطفاً بعباده ، وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة
، وعظمتها ، ثم هبط بعد ذلك إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه
، لما حانت الصلاة .

ويحتمل أنها الصبح من يومئذ ، بعد رجوعه إليه ، لأنه لما مر بهم فى
منازلهم ، جعل يسأل عنهم جبريل واحداً ، واحداً فعرفه بهم ، وكان الأنبياء أنفسهم
يسألون جبريل ﷺ عن المصاحب له ، وعن بعثته .

والقول بأن الصلاة بالأنبياء كانت بعد العودة من العروج هو اللائق ، لأنه
ﷺ كان أولاً مطلوباً إلى الجناب القدسى ليتشرف بالمقام العلوى ، وتعرف منزلته
عند ربه ، وحتى يفرض عليه ، وعلى أمته ما يشاء الله تعالى ، ثم لما فرغ من
الذى أريد به اجتماع به هو وإخوانه من النبيين ، وأظهر شرفه ، وفضله عليهم ،
بتقدمه فى الإمامة ، وأنتمهم جميعاً صلوات الله عليهم به ، وذلك بوحي جبريل
ﷺ لهم فى ذلك ، ثم خرج ﷺ من بيت المقدس فركب البراق ، وعاد إلى مكة

(٥٠٨)

بغلس ، والله سبحانه وتعالى أعلم^(١) .

٣. شهادة الصحابة :

شهد الصحابة بوقوع الإسراء والمعراج ، وظهرت هذه الشهادة فى روايتهم لأحداثها ، ولو كان عندهم أدنى إنكار لها لما رووا وقوعها ، ولأظهروا عقيدتهم فى كل ما يعلمون ، وكثرة الشواهد والمتابعات لأحاديث الإسراء والمعراج تؤكد صدق شهادة الصحابة فى الأحاديث التى رووها .

وقد بلغ عدد رواة حديث الإسراء من الصحابة ثمان وثلاثين صحابياً ،

وصحابة . وهم :

(١) أبى بن كعب رضي الله عنه	(٢) أبو ذر الغفارى رضي الله عنه
(٣) بريدة بن عبد الله رضي الله عنه	(٤) أسامة بن زيد رضي الله عنه
(٥) أنس بن مالك رضي الله عنه	(٦) جابر بن عبد الله رضي الله عنه
(٧) حذيفة بن اليمان رضي الله عنه	(٨) سمرة بن جندب رضي الله عنه
(٩) سهل بن سعد رضي الله عنه	(١٠) شداد بن أوس رضي الله عنه
(١١) صهيب بن سنان رضي الله عنه	(١٢) عبد الله بن عباس رضي الله عنه
(١٣) عبد الله بن عمر رضي الله عنه	(١٤) عبد الله بن الزبير رضي الله عنه
(١٥) عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه	(١٦) عبد الله بن سعد بن زرارة رضي الله عنه
(١٧) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه	(١٨) العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه
(١٩) عثمان بن عفان رضي الله عنه	(٢٠) على بن أبى طالب رضي الله عنه
(٢١) عمر بن الخطاب رضي الله عنه	(٢٢) مالك بن صعصعة رضي الله عنه
(٢٣) أبو بكر الصديق رضي الله عنه	(٢٤) أبو أيوب الأنصارى رضي الله عنه
(٢٥) أبو الحمراء رضي الله عنه	(٢٦) أبو الدرداء رضي الله عنه
(٢٧) أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه	(٢٨) زيد بن حكيم رضي الله عنه

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢ .

- (٢٩) أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه (٣٠) أبو سلمة بن دحية رضي الله عنه
 (٣١) أبو ليلي الأنصاري رضي الله عنه (٣٢) أبو سلمى راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم
 (٣٣) أبو هريرة رضي الله عنه (٣٤) أم المؤمنين عائشة (رضى الله عنها)
 (٣٥) أسماء بنت أبي بكر (رضى الله عنها) (٣٦) أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم
 (٣٧) أم سلمة أم المؤمنين (رضى الله عنها) (٣٨) أم هانئ (رضى الله عنها)^(١)
 وقد أورد. الميسوطى مختلف الروايات بأسانيدها فى كتابه (الخصائص الكبرى) ، ونقلها عنه العلامة الشيخ/ يوسف النبهانى فى كتابه (حجة الله على العالمين) ، فليرجع إلى أيهما من أراد الإطلاع عليها .

٤. مقارنة أحاديث الإسراء :

يعد الحديث السابق الذى رواه أنس بن مالك رضي الله عنه ، هو أصل أحاديث الإسراء ، وما عداه تابع له ، أو شاهد ، وقد وردت زيادات فى بعض الروايات عن رواية أنس بن مالك رضي الله عنه التى نقلتها من صحيح مسلم ، وجعلتها أساساً لسائر الروايات ، وسأحاول هنا ذكر هذه الزيادات ، وأعلل سبب زيادتها أملاً فى توضيح صورة الإسراء والمعراج كاملة . وهذه الزيادات هى :

- (أ) أخرج البخارى بسنده عن أنس قال : ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه بالإسراء ، وهو نائم فى المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟
 فقال أوسطهم : هو خيركم .
 فقال أحدهم : خذوا خيرهم ...

(١) أورد ابن كثير حصر هذه الأسماء فى تفسيره ج ٣ ص ٢٤ ، كما ذكرهم صاحب كتاب (حجة الله على العالمين) ص ٣٣٧ .

وفى ليلة أخرى أتوه ، وهو نائم فحملوه ، ووضعوه ، عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبريل ، فشق ما بين نجره إلى لبتة ، حتى فرغ من صدره ، وجوفه فغسله بماء زمزم بيده ، حتى ألقى جوفه ، ثم أتى بطشت من ذهب محشو إيماناً ، وحكمة ، فحشى به صدره ، ولغاديدته (عروق حلقه)^(١) .

(ب) وأخرج أحمد عن طريق أنس أن النبي أتى البراق ليلة أسرى به ، مسرجاً ملجماً ، ليركبه ، فاستصعب عليه ، فقال له جبريل : أيمحمد تفعل هذا ؟ فوالله ما ركبك خلق قط أكرم على الله منه ، فأرفض البراق عرقاً ، ثم قر وركبه ﷺ^(٢) .

(ج) وأخرج ابن عساكر ، والبيهقي بسندهما عن حديث أبي سعيد الخدري يقول النبي ﷺ : فإذا أنا بآدم كهينته يوم خلقه الله على صورته ، تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين ، فيقول : روح طيبة ، ونفس طيبة ، فاجعلوها فى عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار ، فيقول : روح خبيثة ، ونفس خبيثة ، اجعلوها فى سجين .

ثم مضت هنيهة فإذا أنا بأخونة عليها لحم ، قد أروح ، وأنتن ، عندها ناس يأكلون منها ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء من أمتك الذين يتركون الحلال ، ويأتون الحرام .

ثم مضيت هنيهة فإذا بأقوام بطونهم أمثال البيوت ، كلما نهص أحدهم خر وهو يقول : اللهم لا تقم الساعة ، وهم على سابلة آل فرعون ، فتجئ السابلة فتطوهم ، فسمعتهم يضجون إلى الله .

قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

(١) صحيح البخارى . باب المعراج ج ٦ ص ١٩٠ بمثله .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ
الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾^(١) .

ثم مضت هنيهة فإذا أنا بأقوام مشافرههم كمشافر الإبل ، فتفتح أفواههم ،
ويلقمون حجراً ، ثم يرضخ من أسافلهم ، فسمعتهم يضجون إلى الله .
قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء- من أمتك ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا
يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾^(٢) .

ثم مضت هنيهة فإذا أنا بنساء تعلقن بثديهن ، ونساء منكسات بأرجلهن ،
فسمعتهن يضجن إلى الله .

قلت : يا جبريل من هؤلاء النساء ؟

قال : هؤلاء اللاتي يزني ، ويقتلن أولادهن .

ثم مضت هنيهة ، فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم ، فيلقمون ، فيقال
له : كل كما كنت تأكل من لحم أخيك .

قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون^(٣) .

(د) وأخرج البيهقي ، وابن جرير بسندهما ، عن أبي هريرة ؓ قال : وسار

معه جبريل فأتى على قوم يزرعون في يوم ، ويحصدون في يوم ، كلما
حصدوا عاد كما كان .

فقال النبي ﷺ : يا جبريل ما هذا .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٧٥ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٠ .

(٣) حجة الله على العالمين ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٥١٢)

قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنه بسبعمائه ضعف ، وما أنفقوا من شئ فهو يخلفه .
ثم أتى على قوم ترضخ رؤسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شئ .
فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين تتناقل رؤسهم عن الصلاة المكتوبة .
ثم أتى على قوم على إقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الإبل ، وللمنعم ، ويأكلون المضيع ، وللقوم ، ورضف جنهم ، وحجارتها .

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟
قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله شيئاً .
ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ، ولحم آخر نبيئ خبيث ، فجعلوا يأكلون من النبيئ الخبيث ، ويدعون النضيج الطيب .

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟
قال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتي امرأة خبيثة ، فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت معه ، حتى تصبح .
ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شئ إلا خرقته .

فقال : ما هذا يا جبريل .
قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه .
ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يزيد عليها
فقال : ما هذا يا جبريل ؟

(٥١٣)

قال : هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يحمل عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم ، وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت لا . يفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج ، لا يستطيع .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها .

ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة ، وريح مسك ، وسمع صوتاً .

فقال : يا جبريل ما هذا ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول يا رب آتني ما وعدتني ، فقد كثرت غرفى ، وإستبرقى ، وحريرى ، وسندسى ، وعبقرتى ، ولؤلؤى ، ومرجانى ، وفضتى ، وزهيبى ، وأكوابى ، وصحافى ، وأبارقى ، ومراكبى ، وعسلى ومائى ، ولبنى ، وخمرى ، فآتني ما وعدتني .

فقال الله لها : لك كل مسلم ، ومسلمة ، ومؤمن ، ومؤمنة .

قالت : رضيت .

ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً ، ووجد ريحاً منتنة .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت جهنم تقول يا رب آتني ما وعدتني ، فلقد كثرت سلاسلى وأغلالى ، وسعيرى ، وحميمى ، وضريعى ، وغساقى ، وعذابى ، وقد بعد

(٥١٤)

قعرى ، واشتد حرى ، فأتنى ما وعدتنى .

قال : لك كل مشرك ، ومشركة ، وكافر ، وكافرة ، وكل خبيث ، وخبيثة
وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .
قالت : قد رضيت^(١) .

(هـ) وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ رأيت
ليلة أسرى بى لما انتهينا إلى السماء السابعة ، فنظرت فوق فإذا رعد ، وبرق
، وصواعق ، وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج
بطونهم .

فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء أكله الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى ، فإذا
أنا بوهج ، ودخان ، وأصوات .
فقلت : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم ، لئلا يتفكروا فى ملكوت
السموات ، والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب^(٢) .

(و) جاء فى حديث أبى هريرة ذكر كلام كل من إبراهيم ، وموسى ، وعيسى
وداود ، وسليمان عليهم السلام ، ثم ذكر كلام النبى ﷺ فقال : وإن محمداً
ﷺ أثنى على ربه ﷻ ، فقال : كلكم أثنى على ربه ، وأنا أثنى على ربي ،
والحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس ، بشيراً ، ونذيراً ،
وانزل على الفرقان فيه تبيان كل شئ ، وجعل أمتى خير أمة ، وجعل أمتى

(١) حجة الله على العالمين ص ٣٥٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٢ .

أمة وسطا ، وجعل أمتي هم الأولون ، وهم الآخرون ، وشرح صدرى ،
 ووضع عنى وزرى ، ورفع لى ذكرى ، وجعلنى فاتحاً وخاتماً .
 فقال إبراهيم : بهذا فضلكم محمد^(١) .

(ز) جاء فى حديث أبى هريرة من طريق الربيع بن أنس ، أن رسول الله ﷺ لما
 انتهى إلى سدرة المنتهى قال الله تعالى : سل ، فقال ﷺ : إنك اتخذت
 إبراهيم خليلاً ، وأعطيته ملكاً عظيماً ، وكلمت موسى تكليماً ، وأعطيت
 داود ملكاً عظيماً ، وألنت له الحديد ، وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان
 ملكاً عظيماً ، وسخرت له الجن ، والإنس ، والشياطين ، والرياح وأعطيته
 ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة ، والإنجيل وجعلته
 يبرئ الأكمه ، والأبرص ، وأعدته وأمه من الشيطان الرجيم ، فلم يكن له
 عليهما سبيل .

فقال له ربه تعالى : قد اتخذتك خليلاً ، وحبیباً ، فهو مكتوب فى التوراة
 محمد حبیب الرحمن ، وأرسلتك إلى الناس كافة ، وجعلت أمتك هم الأولون
 ، وهم الآخرون ، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى
 ورسولى ، وجعلتك أول النبيين خلقاً ، وأخرهم بعثاً ، وأعطيتك سبعاً من
 المثانى ، ولم أعطها نبياً قبلك ، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز
 عرشى لم أعطها نبياً قبلك ، وجعلتك فاتحاً ، وخاتماً^(٢) .

هذه الزيادات مع حديث أنس الذى أوردته ، تقدم صورة كاملة للإسراء
 والمعراج بدءاً من شق صدره ﷺ قبيل الإسراء به ، ومروراً بالإسراء ، والمعراج
 والصلاة بالأنبياء ، ورؤية صور الخلائق ، والحديث مع الأنبياء ، والصلاة بهم ،
 وانتهاء بالعودة إلى مكة .

(١) الشفا للقاضى عياض ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) الشفا للقاضى عياض ج ١ ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

٥. تأملات فى الأحاديث

بمراجعة روايات أحاديث الإسراء نلاحظ فيها المعارضات التالية :

- ١ . فى رواية أنس الأولى أنه ﷺ لقي إبراهيم عليه السلام فى السماء السابعة عند البيت المعمور . ، ولقى موسى عليه السلام فى السماء السادسة . ، وفى بعض الروايات أنه ﷺ رأى إبراهيم عليه السلام فى السماء السادسة ، ولقى موسى عليه السلام فى السماء السابعة^(١) .
- ٢ . فى رواية ابن إسحاق أن الرسول ﷺ أتى بثلاث أوان ، أحدهما ماء ، فقال قائل : إن أخذ الماء غرق ، وغرقت أمته ، وفى إحدى روايات البخارى : أنه أتى بثلاث أوان ، ولم يذكر فيها الماء^(٢) .
- ٣ . يقول الله تعالى ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾^(٣) ورؤية الفؤاد تشبه رواية أنس من أن الرؤية كانت قلبية ، وعين رسول ﷺ نائمة ، وفى الآية الثانية يقول الله تعالى ﴿ أَفْتُمِرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى ﴾^(٤) فجاءت الرؤية بصيغة المضارع ، ولم يقل على ما رأى كآلية الأولى ، فدل ذلك على الرؤية الثانية ليست هى الرؤية الأولى .
- ٤ . فى قوله تعالى ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾^(٥) دلالة على أنها رؤيا قلبية وفى قوله تعالى ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾^(٦) دلالة على أنها رؤيا بالعين ، ولذلك رأى فيها ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾^(١) أما

(١) أنظر صحيح مسلم فى حديث أبى ذر بشرح النووى ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) أنظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٩٧ ، وصحيح البخارى ج ٦ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) سورة النجم ، الآية ١١ .

(٤) سورة النجم ، الآية ١٢ .

(٥) سورة النجم ، الآية ١١ .

(٦) سورة النجم ، الآية ١٧ .

الآيات التى ترى أن الرؤية كانت فى النوم فليست بهذا القدر من العظمة ،
والفخامة .

٥ . فى تفسير قوله تعالى ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾^(١) قال المفسرون

فى رواية يغشاها فراش من ذهب ، وفى رواية أخرى قالوا ، ينتثر منها
الياقوت ، وثمرها مثل قلال هجر .

٦ . جاء فى أحاديث الإسراء ، أنه ﷺ رأى عند سدرة المنتهى نهريْن ظاهرين
ونهرين باطنين ، وأخبره جبريل عليه السلام بأن النهرين الظاهرين هما النيل
والفرات ... وذكر حديث أنس أن هذين النهرين فى السماء الدنيا ، وقال له
الملك : هما النيل ، والفرات ، أصلهما ، وعنصرهما .

٦. فك تعارض الأحاديث :

والسؤال هنا : كيف نفك هذا التعارض ؟ وكيف نجعل بين هذه الآراء ؟
نظر العلماء إلى هذا التعارض الظاهرى ، وذهبوا إلى أن الإسراء وقع مرتين
، مرة فى المنام ، ومرة ثانية فى اليقظة .

يقول الإمام/ محمد الشامى : ذهب جماعة منهم المهلب شارح البخارى إلى
هذا رأى ، وحكاه عن طائفة ، منهم أبو نصر القشيري ، والحافظ البغوى ،
والمحدث أبو القاسم عبد الرحمن الخنعمى ، المعروف بالسهيلى ، وبين أن النووى
جزم به فى فتاويه ، هؤلاء وغيرهم من العلماء ذهبوا إلى تكرار الإسراء مرتين ، مرة
فى المنام ، ومرة فى اليقظة ، وكانت مرة النوم توطئة لمرة اليقظة ، ليتدرب عليها ﷺ
، وتسهل عليه صورها ، كما كان فى بدء نبوته ﷺ من الرؤيا الصادقة ، ليسهل عليه
أمر النبوة ، لأن أمرها عظيم ، تضعف عنه القوى البشرية ، وكذلك الإسراء سهلها

(١) سورة النجم ، الآية ١٨ .

(٢) سورة النجم ، الآية ١٦ .

الله على رسوله بالرؤيا أولاً لأن هو لها عظيم ، فجاءت فى اليقظة بعد توطئة ،
وتقدمة ، رفقا من الله تعالى بعبده ، وتسهيلاً عليه^(١).

- ٣ -

كيفية وقوع الإسراء والمعراج

أورد العلماء عدة آراء فى كيفية وقوع الإسراء والمعراج ، حيث ذهبوا فى
تحديد كيفيتها إلى ثلاثة آراء :

الرأى الأول

الإسراء والمعراج كانا فى النوم وبالروح

يذهب أصحاب هذا الرأى إلى أن الإسراء والمعراج كانتا رؤيا لرسول الله ﷺ
رأها وهو نائم ، أو كانتا بالروح وهو غير نائم ، وكلا التوجيهين يقولان بالروح فقط ،
لأنها القوة المدركة أثناء النوم ، وفى اليقظة ما دام الجسد لم يتحرك .
وعلى رأس القائلين بهذا الرأى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ،
ومعاوية بن أبى سفيان ؓ ، ويستدلون على رأيهم بما يلى :

١ . رؤيا الأنبياء وحى ، لأن قلوبهم لا تنام ، يقول ﷺ : الأنبياء تنام أعينهم ،
ولا تنام قلوبهم^(٢) ، وبذلك يتحقق فى المنام ما يقصد فى اليقظة .

٢ . يقول الله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾^(١)
فقوله تعالى (الرؤيا) بالألف الممدودة دليل على أنها كانت مناماً ، لأنها لو
كانت يقظة لقال (رؤية) بالتاء المربوطة .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ١٠٦ .

(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البار . كتاب المناقب ج ٦ ص ٣٤ .

- ٣ . جاء فى حديث أنس فى رواية شريك عنه : " ... وهو ﷺ نائم بالمسجد الحرام ... واستيقظت من منامى ، وأنا فى المسجد الحرام " (٢) ، وذلك دليل على وقوع الإسراء فى أثناء نوم النبى ﷺ .
- ٤ . كان معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما إذا تحدث عن مسرى رسول الله ﷺ ، يقول : " كانت رؤيا من الله صادقة " (٣) .
- ٥ . يقول ابن إسحاق : " حدثنى بعض آل أبى بكر أن عائشة زوج النبى ﷺ كانت تقول : ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ، ولكن أسرى بروحه " (٤) .

الرأى الثانى

الإسراء كان بالجسد والمعراج كان بالروح

- يذهب أصحاب هذا الرأى إلى أن الإسراء كان بالجسد ، والروح معاً ، من المسجد الحرام بمكة إلى بيت المقدس بإيلياء ، وبعده كان المعراج من بيت المقدس إلى السماوات العلا بالروح فقط ، ويستدلون على ذلك بما يلى :
- ١ . يقول الله تعالى ﴿ سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ

(١) سورة الإسراء ، الآية ٦٠ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى - كتاب المناقب . باب الإسراء ج ٢ ص ٢١٧ .

(٣) سيرة النبى ﷺ ج ١ ص ٣٩٩ ، جاء فى زاد المعاد : ينبغى أن يعلم الفرق بين أن يقال : كان الإسراء مناماً وبين أن يقال كان بروحه دون جسده ، وبينهما فرق عظيم ، وعائشة ومعاوية لم يقولوا : كان مناماً ، وإنما قالوا : الإسراء بروحه ، ولم يفقد جسده ، و الفرق بين الأمرين ، فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم فى الصور المحسوسة ، فيرى كأنه عرج به إلى السماء ، أو ذهب به إلى مكة ، أو أقطار الأرض ، وروحه لم تصعد ، ولم تغب ، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثل ، ومع هذا الفرق فإن القول بأن الإسراء بالروح لا يبعد كثيراً فى أثره ، وتصوره عن الإسراء فى النوم ، لأن التوجه أثناء النوم هو للروح أيضاً .

(٤) سيرة النبى ج ١ ص ٤٠٠ .

هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ، حيث جعلت الآية المسجد الأقصى

نهاية

الإسراء تشريفاً لرسول الله ﷺ ، ولو كانت النهاية إلى مكان آخر غير المسجد الأقصى لذكره سبحانه وتعالى ، لأنه أبلغ في التشريف والمدح .
٢ . توجهت اعتراضات كفار مكة على انتقال رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، والعودة منها في ليلة واحدة ، ولم يرد على لسانهم اعتراض على العروج إلى السماء السابعة ، حتى سدرة المنتهى ، مع أنه أدعى لإنكار الكافرين لو كان بالجسد .

وعلى هذا يثبت أن الإسراء كان بالجسد والروح ، أما المعراج فكان بالروح فقط ، لأن كفار مكة لم يعترضوا عليه مع كثرة المشاهد التي حكاها الرسول ﷺ حين رؤيته لها في معراجه ، ولو كان المعراج بالجسد لكثير الاعتراض .

الرأى الثالث

الإسراء والمعراج بالجسد والروح

يذهب جمهور علماء السلف ، والخلف من الفقهاء ، والمفسرين ، والمحدثين إلى أن الإسراء والمعراج كانا يقظة بالجسد والروح ، ويستدلون على ذلك بما يلي:
١ . يقول الله تعالى ﴿ سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ، فقد ذكرت الآية أن الإسراء كان بعبدته المكون من الجسد والروح ، لأنهما حقيقة العبد ، وظاهر اللفظ يدل على هذه

(١) سورة الإسراء ، الآية ١ .

الحقيقة ، ومن المعلوم أنه لا يعدل عن الظاهر ، والحقيقة إلى التأويل إلا عند استحالة حقيقة الظاهر ، ولا استحالة في قدرة الله أن يسرى بعبده ، روحاً ، وجسداً ، فلزم أن يكون الإسراء بهما .

٢ . يقول الله تعالى ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ ^(١) ففي الآية إثبات واضح

على أن الرؤية كانت بالبصر ، وأسندها الله للبصر احترازاً عن رؤية القلب .

٣ . يقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ^(٢) ، ففي الآية

دلالة على الرؤية البصرية ، لأنها لو كانت مناماً ما كانت كبرى ، ولسلم بها من سمعها من كفار مكة .

٤ . يروى البخارى فى صحيحة عن ابن عبسة عند قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا

الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ ^(٣) وهى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ

ليلة الإسراء ^(٤) .

وقد رد الجمهور . ، وهم أصحاب الرأى الثالث .، المقائلون. بأن الإسراء والمعراج كان بالجسد والروح معاً على الرأيين السابقين بإبطال أدلتهم ، وردّها .

رد أدلة أصحاب الرأى الأول :

قال أصحاب الرأى الثالث إن رؤيا الأنبياء وحى ، وبها تثبت الحقائق والمعلومات ، والإعجاز فى الإسراء والمعراج لا يتم إلا إذا كان بالجسد والروح لأن المقصود إثبات ما شاهده النبى ﷺ بطريقة حسية ، حقيقية ...

وأيضاً فإن الرؤيا تأتى بمعنى الرؤية ، وتقيد الرؤية البصرية ، ومن ذلك

قول الشاعر :

(١) سورة النجم ، الآية ١٧ .

(٢) سورة النجم ، الآية ١٨ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٦٠ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب التفسير ج ٦ ص ١٦٠ .

وَكَبِّرَ لِلرُّؤْيَا وَهَشَّ فَوَادِهِ .: وَبَشَّرَ قَلْبًا كَانَ جَمًّا بِلَابِلِهِ

وما كانت الرؤيا فتنة للناس ، إلا لأنها رؤيا بالبصر .

وقد قال الكفار : يزعم محمد أنه أتى بيت المقدس ، ورجع إلى مكة في ليلته ، والعيبر ترد إليها شهراً مقبلة ، وشهراً مدبرة ، ولو كانت رؤيا نوم لم يستبعد أحد منهم هذا ، فمعلوم أن النائم قد يرى نفسه في السماء ، وفي المشرق وفي المغرب ، ولا يستبعد منه ذلك .

وأما استشهادهم بقوله ﷺ بين (النائم واليقظان) ، و (ثم استيقظت) ، فالظاهر أن تلك الأقوال كان في أول وصول الملك ، وبعد يقظته كان الإسراء .
وأيضاً فإن أحاديث الإسراء تتضمن ألفاظاً صريحة تؤكد أن الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح .

ومن الممكن أن نفهم رأى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، ورأى معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما جميعاً فى ضوء ما سبق ذكره من أن الإسراء والمعراج حدث لرسول الله ﷺ مرتين .
إحدهما تمت فى المنام تدريباً ، وتاليفاً .
والأخرى تمت فى اليقظة ...

وأنهما رضى الله عنهما بقولهما يقصدان المرة التى كانت بالروح مناماً ...
وبخاصة أنهما لم يعترضا على رأى الجمهور (١) .

رد أدلة أصحاب الرأى الثانى :

يرد الجمهور أدلة الرأى الثانى أيضاً ، ويرون أن آية الإسراء ذكرت الغاية بالمسجد الأقصى مراعاة لحال المستمعين ، حتى يؤمنوا بالإسراء لأنه الأقرب إلى عقولهم ، وأيسر لهم فى التصور ... ولأن التصديق بالإسراء أيسر من التصديق

(١) أنظر الروض الأتف ج ١ ص ١٥٠ .

بالمعراج ... لأنهم إذا صدقوا بالإسراء ، وسلموا بصدق محمد ﷺ في إسرائه سيصدقونه بعد ذلك فيما هو أعظم منه ، وهو (المعراج) ، ولذلك نزلت آيات المعراج في سورة النجم بعد آية الإسراء .
وهكذا يرد الجمهور أدلة مخالفيهم ، فيترجح رأيهم برجحان أدلتهم ، ويثبت وقوع الإسراء والمعراج بالجسد والروح .

التوفيق بين الآراء ورد الاختلاف :

ويجب أن أشير هنا إلى ما ذكرته سلفاً من أن الإسراء وقع لرسول الله ﷺ مرتين ، مرة في اليقظة ، ومرة في المنام ، لأنه يرفع التعارض الظاهر بين الأقوال الثلاثة .

يقول الحافظ ابن حجر : إن قيل بتكرر الإسراء فلا إشكال ، لأن المرة الأولى كانت مناماً لتسهيله ، وتخفيف وطأته ، وأن المرة الثانية كانت يقظة بعد التوطئة والتقديم ، رفقا من الله بعبده ، وتسهيلاً عليه ، كما حدث في أول الوحي إذ بدأ بالنبوة ، وثنى بالرسالة .

وعلى هذا تصدق الآراء الثلاثة .

فمن قال بالإسراء الروحاني ، أعتمد على وقوع الإسراء في المرة الأولى .
ومن قال بالإسراء الجسدي ، أعتمد على وقوع الإسراء في المرة الثانية .
ومن قال بالإسراء البدني ، والمعراج الروحي أخذ من المرة الأولى المعراج ، ومن المرة الثانية الإسراء^(١) .

ويقول السهيلي : وهذا القول هو الذي يصح ، وبه تتفق الأخبار ، فالرواية جميعاً ثقة عدول ، لا سبيل إلى تكذيب بعضهم أو توهينه^(٢) .

ويقول ابن كثير : ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء ، فيه صورة

(١) فتح الباري ج ٦ ص ١٦١ .

(٢) أنظر الروض الأنف ج ٢ ص ١٥٠ .

ما وقع بعد ذلك ، فإنه ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وقد تقدم
مثل ذلك من حديث بدء الوحي ، أنه رأى فى منامه مثل ما وقع له يقظة بعد ذلك
من باب الإرهاص ، والتوطئة ، والتثبيت ، والإيناس^(١) .

وهكذا كان الإسراء والمعراج رحلة أرضية ، علوية ، سامية ، خففت عن
رسول الله ﷺ ما كان يعانيه من انصراف الناس عن الإيمان ، واستهزائهم به وعلو
مقامه ، وقدره ، ومنزلته ، وهذا كاف فى عونه ﷺ على متاعب الناس ، وصموده
أمام عتوهم وظلمهم .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١١٤ .

ركائز دعوية

من معجزة الإسراء والمعراج

أكرم الله رسوله ﷺ بمعجزة الإسراء والمعراج حيث بين له منزلته بين الأنبياء بصورة عملية ، وقرية إليه حتى وصل إلى سدره المنتهى ، وأراه من آياته الكبرى.. وأمام هذا التكريم استصغر النبي ﷺ ملاقاه من الكفار ، وأعداء الله في الأرض .

ومعجزة الإسراء تقدم على طول الزمن دروساً ، وعبراً للمسلمين ، وفيها يمكن استنباط المرتكزات التالية :

الركيزة الأولى

ضرورة الثقة في معونة الله

اشتد الخطب على المسلمين ، ونشط الكفار في اضطهادهم لرسول الله وللمسلمين في مكة ، وضاعفوا عداوتهم له بعد وفاة أبي طالب ، وخديجة رضى الله عنهما ، وخططوا لقتل رسول الله ﷺ .

وكان لكل هذه الأحداث وقع مؤلم على رسول الله ﷺ ... وهنا جاءت معجزة الإسراء والمعراج لتؤكد لمحمد ﷺ أنه في معية الله ، وأن العناية الربانية تصونه وتحميه ، وأن الكفار لن ينالوا منه ، ولا من رسالته شيئاً ... وما يقوم به الكفار قدر من الله ليميز الله به الخبيث من الطيب .

والدعاة المعاصرون عليهم أن يمثلوا ثقة في الله الذين يدعون لدينه ، فهو العزيز الحكيم ، وليعلموا أن تمام الثقة يحتاج من الدعاة أن يقوموا بواجبهم الذي لزمهم .

عليهم أن يكونوا مؤمنين حق الإيمان ، متمكنين من معرفة دعوتهم ،
صادقين فى عملهم ، وأداء رسالتهم ، متحملين أى أذى يلحق بهم ، وهم فى سبيل
الله يعملون .

إن نصر الله يأتى لمن يستحق ، ويظهره الله لعباده المخلصين فى النهاية ﴿ حَتَّى
إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾^(١) ، ليعلم الدعاة
أن قدرة الله غالبية ... وجنوده كثر ... ونصره للحق أكيد ...

الركيزة الثانية

عقوبة الظالم لا مفر منها

رأى النبى ﷺ فى رحلة المعراج أقواماً ، وهم يعذبون على مظالمهم التى
ارتكبوها فى الدنيا ، وهى جرائم متنوعة تدور حول العرض ، والمال ، والضلال ،
والكذب ... الخ .

وفى ذلك درس يجب التنبيه له ، وهو أن الظلم لا ينتهى ، والظالم سينال
عقوبته حتماً ، وهو إن نجا فى الدنيا ، فلن يلفت من العقوبة الأخروية .

وهو أمر لا بد أن يعيه كل مسلم ، والدعاة فى المقدمة .

لا يصح أن يعمل الدعاة بغير ما يدعون إليه ، ولا يجوز أن يهمل أحد من
الدعاة القيام بالواجب الذى تحمله ، ولا عذر له فى أى تقصير يرتكبه .

ويجب أن تحدد مسئولية الدعوة إلى دين الله تعالى أمام كل مسلم ، سواء
كان حاكماً ، أو محكوماً ، صغيراً ، أو كبيراً ، غنياً ، أو فقيراً ، رجلاً ، أو امرأة
... ليعرف الكل أن الله سوف يحاسبه على موقفه من مسئوليته ... ولن يلفت
مقصر من العقاب ، لأن تقصيره ظلم لنفسه ، وعدوان على دين الله تعالى .

(١) سورة يوسف ، الآية ١١٠ .

الركيزة الثالثة

قيام الدعوة على الوضوح والبيان

أرى الله ورسوله عقوبة الظالمين فى صور عملية تمثيلية ، وهذا أوضح فى البيان ، والتفصيل لشدة العقوبة ، ومناسبتها للجرم الذى ارتكبه المعتدى .

وهذا درس يتعلم منه الدعاة ضرورة توضيح ما يقولونه للمدعوبين ، لأن الفكرة إذا لم تظهر وتتضح لا تكون شيئاً ، ولا يسئل عنها أحد ، لبقائها فى عالم المجهول الذى لا حقيقة له .

فى مجال التربية والتعليم يهتم المعلمون بالوسائل التعليمية لإيصال المعلومات إلى مستمعيهم واضحة بيينة .

والدعاة فى حاجة إلى هذا التوضيح ، وعليهم أن يستفيدوا فى هذا المجال بالصورة ، والحكاية ، وضرب المثل ... وغير ذلك من صور التوضيح .

المبحث الحادى والعشرون

إسلام الأنصار

اشتد عنت أهل مكة ، وزاد تعصبهم لضلالهم ، وأخذوا فى صد الناس عن الإسلام فى كل مكان ، وبكل ما أمكنهم من وسائل .

ومن هنا كانت ضرورة الدعوة إلى دين الله تعالى خارج مكة ، بعيداً عن أهلها الضالين ، الطغاة ... فقضى الله تعالى بأن يترك المسلمون مكة ، ويهاجروا منها إلى مكان آمن يعيشون فيه بتعاليم الإسلام ، ويدعون إليه ليكونوا قوة تحمى الحق ، وتدافع عنه ، وترد كيد المعتدين .

وبدأت تباشير الخروج بالدعوة من مكة بالهجرة إلى الحبشة ، وتتابع بدعوة القبائل البعيدة عن مكة ، والذهاب إلى الطائف .

ومع تحقق بعض الانتصارات كان الواضح أن الإسلام يحتاج إلى توسع أكبر ، وانتشار أعظم لينقذ العالم ، ويحقق العدل بشرع الله تعالى .

ولما أراد الله ذلك قضى سبحانه وتعالى بالنقاء أناس من (يثرب) بمحمد ﷺ وهو بعرض نفسه على القبائل خلال موسم الحج ، ومع هذا الالتقاء تلاقحت رغبات محمد ﷺ ، ورغبات قبائل المدينة ، وذلك فى العام العاشر من المبعث .

وقد وفق الله تعالى رسوله ، ووفق الأنصار معه فتلاقوا فى ثلاثة مواسم متتابة ، عند العقبة ، حيث كان اللقاء الأول تمهيداً لبيعته العقبة ، اللتين تمتا فى اللقاءين الثانى ، والثالث .

وبيان هذه اللقاءات فيما يلى :

اللقاء الأول

إسلام نفر من الأنصار

حين خرج الرسول ﷺ في العام العاشر للقاء القبائل لقي نفراً من الخزرج وهم :

- (١) أسعد بن زرارة ... من بنى النجار .
 - (٢) رافع بن مالك بن العجلان ... من بنى زريق .
 - (٣) عوف بن الحارث بن رفاعة ... من بنى النجار .
 - (٤) قطبة بن عامر بن حديدة ... من بنى سلمة .
 - (٥) عقبة بن عامر بن ناتى ... من بنى حرام بن كعب .
 - (٦) جابر بن عبد الله بن وثاب ... من بنى عبيد بن غنم .
- فلما لقيهم الرسول ﷺ قال لهم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال ﷺ : أمن موالى يهود ؟

قالوا : نعم .

قال ﷺ : أفلا تجلسون أكلمكم .

قالوا : بلى ، من أنت ؟

فانتسب لهم ، وأخبرهم خبره ، فجلسوا معه ، ودعاهم إلى الله ﷻ ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وكان مما حبيبهم في الإسلام أن اليهود كانوا معهم في بلادهم ، وكثيراً ما قالوا لهم : إن نبياً أظننا زمانه ، سنؤمن به ، ونقتلكم ، وهو معنا قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله أيقنوا به ، واطمأننت قلوبهم إلى ما سمعوا ، وعرفوا صدق ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب عن صفته .

فقال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود ،

(٥٣٠)

فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه إلى ما دعاهم بأن صدقوا ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وعلموا رغبته في ترك مكة ليعيش وسط جماعة مؤمنة تعمل لله ، وتدعو لدينه الحنيف .

ثم قالوا : قد علمت الذى بيننا **(يعنون الأوس والخزرج)** من الاختلاف ، وسفك الدماء ، ونحن حراص على ما أرسلك الله به ، مجتهدون لك بالنصيحة ، دعنا نشير عليك برأينا .

إن رأينا أن تمكث على رسلك باسم الله ، حتى نرجع إلى قومنا ، فنذكر لهم شأنك ، وندعوهم إلى الله ورسوله الذى آمننا به ، وصدقناك فى دعوتك لنا ، فلعل الله يصلح ذات بينهم ، ويجمع لك أمرهم فإننا اليوم متباغضون ، متباعدون ولكننا نواعدك الموسم من العام المقبل .

فرضى بذلك رسول الله ﷺ ، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا ، وصدقوا^(١) .

ويعد هذا الاتفاق عهداً بين رسول الله ﷺ ، وهؤلاء نفر وحدهم على أن يبذلوا جهدهم لإصلاح ذات البين ، بين الأوس والخزرج ، ليأتوا فى العام القادم سوياً ، ويشتركوا جميعاً فى عهد مع رسول الله ﷺ .

وكثير من المؤرخين ، وكتاب السيرة لا يعدون إيمان هؤلاء نفر بيعة ، ويعتبرونه مقدمة للبيعتين بعد ذلك ، إلا أن الشيخ/ محمد الشافعى عدها بيعة ، وتحدث عن ثلاث بيع لعهده اللقاء الأول هذا اتفاقاً متكاملأتم عند العقبة .

ويقول ابن إسحاق : قد كانت عقبة ، وعقبة ، إشارة إلى اللقاء الثانى والثالث ، لأنهما كانا فى مكان واحد ، بجوار العقبة التى نسبت البيع إليها . ومع جمال وجهة نظر الشيخ إلا أنى سأعتبر اللقاء الأول تمهيداً للبيعتين بعده تبعاً لجمهور مؤلفى السيرة والتاريخ .

(١) سيرة النبى ﷺ لابن هشام ج ١ ص ٤٢٩ .

اللقاء الثانى

بيعة العقبة الأولى

رجع النفر الذين قابلوا رسول الله ﷺ إلى يثرب ، وأحاطوا قومهم بخبر لقائهم ، وإسلامهم ، ودعوا أهل المدينة جميعاً من الأوس والخزرج إلى الإيمان ففشا الإسلام فى دور الأنصار جميعاً ، ولم يبق بيت من بيوت الأوس والخزرج إلا وفيه ذكر لرسول الله ﷺ .

ووضعت الحرب أوزارها ، وانتهى يوم بعث ، آخر أيام الأوس والخزرج والكل يتمنى أن لا يعود الأوس والخزرج إليها مرة ثانية ... ولذلك أقبلوا على الإيمان بدعوة محمد ﷺ ، ليتوحدوا بالإسلام ، وحتى لا يسبقهم اليهود إليه . يروى البخارى فى صحيحة بسنده أن عائشة رضى الله عنها قالت : " كان يوم بعث يوماً قدمه الله لرسوله ، فقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وقد أفترق ملؤهم ، وقتل سرواتهم ، وخرجوا فقدمه الله لرسوله ﷺ (وجعله سبباً) فى دخولهم الإسلام " (١) .

وذلك يشير إلى أنها كانت موقعة عظيمة ، احتاج أهل المدينة بعدها إلى وصل ما انقطع ، وتعويض ما فقدوه ، فوجدوا الإسلام ، فصدقوا به ، وآمنوا بمحمد ﷺ ، وكان كل من الأوس ، والخزرج ، يأنف من تسيد صاحبه عليه ، وأملوا فى أن يكون الرائد من غيرهم ، ولذلك كانت سعادتهم غامرة بمقدم مصعب بن عمير رضي الله عنه ليكون إماماً للجميع .

والذين حضروا اللقاء الثانى ، وبايعوا هذه البيعة اثنا عشر رجلاً هم :

(١) أسعد بن زرارة .

(١) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب مناقب الأنصار ج ٦ ص ١٤٤ .

(٢) عوف بن الحارث .

(٣) معاذ بن الحارث .

(٤) ذكوان بن قيس .

(٥) عبادة بن الصامت .

(٦) يزيد بن ثعلبة .

(٧) العباس بن عبادة .

(٨) أبا الهيثم بن التيهان .

(٩) عويس بن ساعدة .

(١٠) رافع بن مالك .

(١١) قطبة بن عامر .

(١٢) عقبة بن عامر .

وقد بايعهم رسول الله ﷺ بيعة عرفت ببيعة النساء ، لخلوها من النصره ،
والجهاد ، وأيضاً لأنها جاءت موافقة لما نزل القرآن الكريم لبيعة النساء بعد ذلك
وهو يشرع للنبي ﷺ ما يبايع النساء عليه ، وذلك في صلح الحديبية .
وبيعة النساء واضحة المعالم لورود بنودها في القرآن الكريم ، وفي السنة
النبوية .

يقول الله تعالى ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَّكَ عَلَى أَنْ لَا
يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ

يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْتَهُمْ وَأَسْتَغْفِرُ
هُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣﴾ (١) .

ويروى البخارى بسنده عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال وحوله
عصابة من أصحابه : "تعالوا بايعونى ، على أن لا تشركوا بالله شيئاً ،
ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم ،
وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب
من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً
فستره الله فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه " (٢) .

وتمت البيعة ، وهم القوم بالرجوع إلى المدينة ، وعندها طلب المبايعون من
رسول الله ﷺ أن يرسل معهم من يقرئهم القرآن ، ويعلمهم ما نزل من الإسلام ،
فأرسل ﷺ معهم مصعب بن عمير ؓ ، وأمره الرسول ﷺ أن يعلمهم الإسلام ،
ويقرئهم القرآن ، ويفقههم فى الدين ...

وكان اختيار مصعب بن عمير لهذه المهمة اختياراً موفقاً ، لأنه استطاع
بفضل الله أن يدخل الإسلام فى كل بيوت المدينة ، خلال عام واحد ، وصار
الجميع يهتمون بما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى ، حتى عرف مصعب ؓ فى
المدينة المنورة باسم القارئ ، والمقرئ .

وتلقى الأوس والخزرج مصعباً بالترحيب ليؤمهم ، وسعدوا بذلك حيث أبى
كل منهم أن يؤمه واحد من القبيلة الأخرى لسابق التتافس ، والحرب بينهم (٣) .

(١) سورة الممتحنة ، الآية ١٢ .

(٢) صحيح البخارى ج ٦ ص ٢٠٠ .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥١ .

(٥٣٤)

واشتهرت البيعة باسم " بيعة العقبة " لتمام البيعة فى شعب يجاور جمرة العقبة فى مكان يقع يسار القادم من مكة إلى منى ، وقد أقيم فيه مسجد يسمى " مسجد العقبة " ، أو " مسجد الأنصار " (١) .

اللقاء الثالث

بيعة العقبة الثانية

عاد أصحاب العقبة الأولى إلى المدينة ، ومعهم مصعب بن عمير ، ولم يقترب موعد الحج من العام القادم حتى تهيأت قلوب أهل المدينة للخير ، وانتشر الإسلام فيهم ، حتى لم تبق دار من دور يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين ، يظهرون إيمانهم ، ويلتزمون بما عاهدوا الله عليه .

وقد تعلقت قلوب أهل المدينة برسول الله ﷺ حباً ، وتقديراً ، وتألموا لموقف أهل مكة من الإسلام ، والرسول ، ولذلك اجتمعوا ، ودرسوا الموقف ، وقال بعضهم لبعض : إلى متى نذر رسول الله يطوف فى جبال مكة ؟ ويخاف ؟ ويعتدى عليه المشركون ؟!

فكان أن رحل عدد غفير من الأوس والخزرج إلى الحج تأدية للمنسك ، وحباً للقاء رسول الله ﷺ ، فلما وصلوا إلى منى ، واعدوا رسول الله على اللقاء فى الشعب المجاور للعقبة فى ثانى أيام التشريق .

يقول كعب بن مالك : ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ عند العقبة ، من أوسط أيام التشريق ، أن نوافيه فى الشعب الأيمن ، إذا انحدرنا من منى بأسفل العقبة ، على ألا ننهب نائماً ، ولا ننتظر غائباً .

(١) أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٦ . ١٦٧ .

فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا أخذناه معنا ، وكنا نكتم على من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه ، وقلنا له : يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون خطباً للنار غداً ، ثم دعواناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بمعياد رسول الله ﷺ إيانا في العقبة ، فأسلم ، وشهد معنا العقبة .

فمنما تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا ، مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب ، عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نساءنا نسبية بنت كعب . أم عمارة . إحدى نساء بنى مازن من بنى النجار ، وأسماء بنت عمرو بن عدي ، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له ، كما حضر معه ﷺ أبو بكر ، وعلى بن أبي طالب . فلما جلس كان . أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللاحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، وما نعوه ممن خالفه ، فأنتم ، وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه ، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، لأنه في عز ومنعة من قومه ، وبلده . وقال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم .

قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر ، والأسود من الناس ، فإن كنتم تريدون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل ، أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم تريدون أنكم وافون له بما عاهدتموه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

ثم تكلم رسول الله ﷺ فقال لهم : ليتكلم متكلمكم ، ولا يطيل ، فإن عليكم من المشركين عينا ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم ...

فقالوا : يا رسول الله ، قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، وخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ : فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم ، وأبناءكم .

فأخذ البراء ابن معرور بيده ، ثم قال : نعم فو الله الذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرننا ، فبايعنا يا رسول الله ، فحن والله أبناء الحرب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر .

فاعترض القوم أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حباً وإنا قاطعوها . يعنى اليهود . فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أشهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا .

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم . أى ذمتى ذمتكم ، وحرمتى حرمتكم . أنا منكم ، وأنتم منى ، أحارب من حاربتكم ، وأسالم من سالمتم^(١) .

ثم قال أبو أمامة : يا محمد : سل لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله ، وعليكم ، إذا فعلنا ذلك .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٥٣٧)

قال ﷺ : أسألكم لربي أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا ، وتتصرونا ، وتمنعونا ، مما تمنعون منه أنفسكم .

قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

قال ﷺ : لكم الجنة .

قالوا : فلك ذلك^(١) .

وهنا قال رسول الله ﷺ : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

فمن الخزرج :

(١) أبو أمامة أسعد بن زرارة نقيب بني النجار .

(٢) ورافع بن مالك بن العجلان نقيب بني زريق .

(٣) وسعد بن الربيع .

(٤) وعبد الله بن رواحة نقيب بني الحارث بن الخزرج .

(٥) وسعد بن عباد .

(٦) والمنذر بن عمرو نقيب بني ساعدة .

(٧) والبراء بن معرور .

(٨) وعبد الله بن عمرو بن حرام .

(٩) وعبادة بن الصامت .

ومن الأوس :

(١) أسيد بن خصير نقيب بني عبد الأشهل .

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ١٦٣ .

(٢) ورفاعة بن عبد المنذر .

(٣) وسعد بن خيثمة نقيب بنى عمرو بن عوف .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي . يعني المسلمين .

قالوا : نعم^(١) .

وقد روى البيهقي عن الإمام مالك ﷺ قال : حدثني شيخ من الأنصار أن جبريل كان يشير إلى رسول الله ﷺ إلى من يجعله نقيباً ليلة العقبة^(٢) .

وفى حديث كعب بن مالك قال : كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ، ثم بايع القوم^(٣) ، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الحباحب : هل لكم في مذمم والصباء معه ، قد اجتمعوا على حربكم ؟

فقال رسول الله ﷺ : هذا أذب العقبة ، هذا ابن أزيب ، استمع أي عدو الله أما والله لأفرغن لك .

ثم قال رسول الله ﷺ : ارجعوا إلى رحالكم .

فقال له العباس بن عباد بن نضلة : والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيفنا .

فقال رسول الله ﷺ : لم تؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم .

قال : فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا ... فلما علم أهل مكة جاءوا إلى الأنصار .

(١) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٢٨١ .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٦٣ .

فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا لتخرجوه من بين أظهرنا ، وتبايعوه على حربنا ، وأنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تتشب الحرب بيننا ، وبينهم منكم .

فانبعث من كان هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شئ وما علمناه ، وقد صدقوا ، لأنهم لم يبايعوا ، ولم يعلموا^(١) .

وكذلك أراد الله بالأنصار خيراً ، وأراد الله بدينه أن يظهره على أيدى هذا الحى من العرب ، وقضى سبحانه بأن يكون للأنصار اليد الطولى فى نصرته الإسلام ، بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة التوحيد ، والتوحد ، ومحا ما كان بينهم من العداء والتنافر ، فلطالما سالت الدماء غزيرة بين الأوس والخزرج ، وكان آخر يوم شهده هو يوم بعث الذى ذهب ضحيته العديد من رجالاتها ، وكان اليهود وراء هذه الدماء الغزيرة التى تسيل ضماناً لسيادتهم ، وابتزازاً لأموال المتحاربين ، عن طريق بيعهم الأسلحة ، وما تحتاج إليه الحروب .

لقد قامت هذه المبايعة على المصارحة ، فقد اشترط العباس للنبي ﷺ ، كما اشترط أبو الهيثم لقومه ، وعلم كل طرف ما له ، وما عليه ، وبذلك لم تكن بيعة قائمة على مجرد العاطفة فقط ، ولكنها قامت على التفهم للموقف ، والنظرة البعيدة للمستقبل .

وتجلت حكمة النبي ﷺ حين طلب من الأنصار أن يكتموا أمرهم ، حين يتوافدون إليه ، فى المكان الذى واعدتهم فيه ، وقد أطاعوه ، فلم يوقظوا نائماً ، ولم ينتظروا غائباً ، ذلك أنه كان يراقبهم فى هذا الموسم من لم يدخل نور الإسلام فى قلبه ، وأراد الله تعالى تضليل أهل مكة فتولى هؤلاء الذين لم يسلموا عبء الرد فيما

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ١٦٤ .

بعد على مشركى قريش حين عاتبوا اليثريين على مبايعتهم الرسول الله ﷺ ، وسلم الأنصار المبايعون من عناء مجادلة المشركين ، والتعرض للكذب إن أنكروا وبعد تمام البيعة الكبرى عاد الأنصار إلى مدينتهم ، وأخذ المشركون يشتدون فى أذى المسلمين ، ومنعهم من الخروج .

فشكا الصحابة أحوالهم إلى رسول الله ﷺ ، واستأذنوه فى الخروج من مكة ، فأذن لهم ، وقال لهم : " أريت دار هجرتكم ، أرض سبخة ذات نخل بين لابتين " (١) ثم مكث أياماً ، والمكان مشكل على المسلمين ، لأن هذه الأوصاف توجد فى بلاد هجر وفى غيرها ، والتصريح بالهجرة لم يسمعه صراحة ، إلا أن رسول الله ﷺ لم يمكث طويلاً حتى خرج لأصحابه مسروراً ، وقال لهم : " قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهى يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها " (٢) ، فأخذ الصحابة يخرجون متخافين ، مهاجرين إلى المدينة لتبدأ مرحلة جديدة فى سيرة رسول الله ﷺ ، وفى الدعوة الإسلامية .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٦٨ .

(٢) سيرة النبى ﷺ ج ١ ص ٤٦٨ .

الفصل الثالث

منهج النبي ﷺ

في الدعوة إلى الله تعالى

في مكة

(٥٤٢)

تمهيد :

تناولت فى الفصل السابق السيرة المحمدية ، وفى هذا الفصل سأحاول توضيح أركان الدعوة ، وإظهار حركة النبى ﷺ بالدعوة وسط الناس بلاغاً ، وإرشاداً ، وتعليماً .

وهنا أحب أن أشير إلى ملاحظة هامة ، وهى أن حياة النبى ﷺ الشخصية تلتصق بالدعوة المتصاقاً كلياً ، فهو ﷺ كواحد من الناس له حياته الخاصة ، ونشاطه العام ، ووظيفته بين الناس ، ولذلك وجدنا فى سيرته الشخصية صورة الإسلام بتوجيهاته ودعوته ، وكدت أجعل الفصل الثالث كالفصل الثانى ، وأعنون له بـ " الدعوة فى الحياة الشخصية لرسول الله ﷺ " ... إلا أنى آثرت ما انتويته أولاً حباً فى إظهار شخصية الرسول فى صفاتها ، وكمالها ، وتقانيها فيما وجدت له ، وما هيئت ، وصنعت من أجله .

وبذلك أحافظ على المنهجية البحثية ، حديثاً عن الدعوة فى حركة النبى ﷺ كما جعلت الفصل السابق عن سيرة النبى ﷺ وارتباطه بالدعوة .

لقد نزل الوحي على رسول الله ﷺ أولاً تعليماً ، وتهيئةً ، وتكليفاً بالنبوة ، وبعد مرور ستة أشهر نزل جبريل عليه السلام بأول سورة المدثر لينقل محمد ﷺ من مرحلة النبوة إلى مرحلة الرسالة ، كما هو واضح من قوله تعالى ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ فهو أمر بالقيام بأمر الدعوة بما يعنيه من الثبات والإخلاص ، والملازمة ، والاستقامة ، والشمول ، وحسن الطلب ، والتوجيه ... لأن القيام يشمل ذلك كله^(١) .

ولما نزل الأمر بـ ﴿ قُمْ ﴾ أخذ النبى ﷺ يتحرك بالدعوة ، لإيصالها إلى البشر أجمعين ، بطريقة منهجية تراعى أحوال الناس ، وبالحركة الممكنة ، وبقدر ما تسمح به الأحوال .

(١) بصائر ذوى التمييز ج ٣٠٧-٣١٣ بتصرف .

وقد اقتضت منهجية الحركة بالدعوة أن تمر بعدد من المراحل في مكة ، حيث تغاير التوجيه ، والبلاغ في صورته ، وأسلوبه ، في كل مرحلة عن سابقتها ، وعن ما يلحق بها .

هذا التغاير بين مراحل الدعوة ضرورة واقعية ليتعامل الرسول ﷺ ، والدعاة معه ، ومن بعده ، مع الواقع بما يناسبه ، وبما يحقق الغاية المقصودة منه .
إن هدف الدعوة معروف منذ اللحظة الأولى ، لكن تحقيق هذا الهدف يحتاج إلى وسائل عديدة تتعامل مع واقع الحياة ، والأحياء ، ويحتاج كذلك إلى أسلوب يلتقى مع أفهام المخاطبين ، ويتلاءم مع أفكارهم ، وثقافتهم ...
إن ثبات الغاية ، وتغيير الأسلوب ، والوسيلة مسألة تعطى الدعوة الحيوية والمرونة ، والتجديد .

ومن المعلوم أن جمود الوسيلة ، لا يتفق مع تطور الحياة ، وتقدم المدنية ، وطبائع الناس ، كما أن جمود الأسلوب تخلف يؤدي إلى وضع الأفكار في قوالب غامضة ، تضر الفكرة ، وتعجز عن إيصالها إلى عديد من الناس .
وقد تحرك الرسول ﷺ بالدعوة إلى الإسلام بوسائل متعددة ، وأساليب كثيرة من خلال تعامله مع عديد من البشر ، في بيئات مختلفة ، وبين أطر مذهبية كثيرة وفي هذا الفصل سيكون الحديث عن حركة النبي ﷺ بالدعوة ، في الفترة المكية ، ولذلك رأيت أن أقسم على عدد من المراحل لتمييز كل منها بخصائص معينة ، لا توجد في غيرها حيث هناك .

المرحلة السرية .

ومرحلة الجهر الخاص .

ومرحلة الجهر العام .

ومن خلال تناولى للفترة المكية بمراحلها أجدنى أتعامل مع مصطلحات عديدة من أهمها مصطلحات المنهج ، والوسيلة ، والأسلوب .

وحتى لا تتداخل المعانى ، أرى أهمية تحديد مفاهيم هذه المصطلحات بأسلوب العصر ، وبعدها سأتناول مراحل الدعوة فى الفترة المكية ليشمل الحديث كل مرحلة بمنهجها ، ووسائلها ، وأساليبها ، وبذلك يتضح الأمر ، ويفهم المقصود وبذلك سيتكون هذا الفصل من المباحث التالية :

- المبحث الأول : تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة .
- المبحث الثانى : حركة الرسول ﷺ بالدعوة فى المرحلة السرية .
- المبحث الثالث : الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية .
- المبحث الرابع : المسلمون خلال المرحلة السرية .
- المبحث الخامس : مرحلة الجهر الخاص بالدعوة فى مكة .
- المبحث السادس : مرحلة الجهر العام بالدعوة .
- المبحث السابع : الحركة بالدعوة خلال مرحلة الجهر العام .
- المبحث الثامن : استمرار الحركة بالدعوة .
- المبحث التاسع : المسلمون فى نهاية المرحلة المكية .

وذلك فيما يلى ...

المبحث الأول

تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة

يختلط الأمر على من يقرأ فى الدعوة الإسلامية حين يرى استعمال كلمات مكان كلمات أخرى ، ظناً من البعض أنها متحدة المعنى ، مع أنها ليست كذلك كوضع كلمة المنهج مكان كلمة الأسلوب . ، ولستعمال مصطلح الأسلوب فى موضع مصطلح الوسيلة ... وهذا الأمر هو الذى من أجله أعقد هذا المبحث لتحديد مفاهيم الحركة بالدعوة الإسلامية ، وبخاصة أن كل مصطلح صار علماً على علم خاص ، من علوم الدعوة العديدة ، التى يحتاجها الدعاة إلى الله تعالى فى العصر الحديث .

وأرى أن تحديد مفاهيم مصطلحات الدعوة له أهميته فى دراسة عصر النبى ﷺ لتعرف القضايا ، وتحدد معانى المصطلحات ، وتفهم بوجه يحقق الاستفادة الدقيقة بها ، ولتكون الأسوة برسول الله ﷺ حيث يريد الله تعالى .
وهذه المصطلحات هى :

- أولاً -

منهج الدعوة

تعتمد الدعوة على منهج يحدد مسائلها ، ويوضح طرقها ، ويعرف وسائلها ، ويضع القواعد العلمية التى تقنع المدعو ، وتحقق الغايات المقصودة من بعثة النبى محمد ﷺ بكل ما فيها من خير ، وأمن ، وسعادة للناس أجمعين ، فى الدنيا ، وفى الآخرة .

إن المنهج بصورة عامة هو الدستور العام لكل جانب من جوانب النشاط

البشرى . إذ به يظهر المنطلق ، ويحدد الطريق ، وتعرف غايات العمل ، وخلفيات التطبيق ، ولذلك نسمع ونقرأ عن منهج الدراسة ، ومنهج الحرب ، ومنهج التجارة ... وهكذا .

ومنهج الدعوة نظرية متكاملة تتناول كافة جوانب عملية الدعوة ، وتشرح مهام كل جانب ، وطريقة قيامه بدوره فى الدعوة إلى الله تعالى ، والحدود التى تحكم كل جانب .

إن الدعوة إلى الله تعالى تقوم على عدة جوانب هى :

(أ) مضمون فكرى هو الإسلام بما حوى من عقيدة ، وشريعة ، وأخلاق .

(ب) أسلوب يحتوى على المفكرة . ويتحرك بها . ويوصلها لمن يستقبلها من الناس ، وقد يكون الأسلوب قولاً ، أو عملاً ، أو حالة معبرة ، أو غير ذلك .

(ج) أدوات تحمل الأسلوب بمضمونه ، ومحتواه .

(د) شخصية عاقلة تجمع الأجزاء المذكورة فى صورة حسنة لتصل بها إلى المدعوين ، رجاء إيمانهم ، وهدايتهم .

(هـ) أناس يتوجه إليهم الدعاة بالمفكرة ، واضحة ، مقنعة ، بأسلوب مناسب ، وأدوات ملائمة ، رجاء تحقيق ما تريد الدعوة منهم .

(و) أخلاق ، وضوابط ترسم لسائر الأركان المسار الذى تلتزم به وتسير عليه .

إن هذه الجوانب علوم للدعوة إلى الله . ويجب أن يهتم العلماء بها ، بوضع القواعد ، وإعداد الدراسات التى يحتاجها كل علم منها .

ومنهج الدعوة هو الخطة الكلية ، والنظام العام الذى يحدد الإطار لكل هذه الجوانب ، ولكل هذه العلوم لتتربط ، وتتكامل .

إن منهج الدعوة بصورة عامة هو النظام الذى يجمع كافة جزئيات عملية الدعوة ، وينسق بينها ، لتتكامل ، وتحقق للدعوة ما يراد منها على وجه صحيح . وقد بين العلماء أن المنهج كمصطلح علمى يدل على ما ذكرت ...

تقول اللغة : إن المنهج يعنى الخطة المرسومة ، والنظام الموضوع ، والمحدد. للسير عليه .، ولتباعه لتحقيق هدف معين .، والموصول. إلى غاية محددة^(١) .

وعلماء التفسير ، والمحدثون يذهبون فى معنى المنهج إلى ما ذكرناه ، ويرون أن المنهج هو الطريق الواضح ، البين الذى يبدأ من نقطة معينة ، وينتهى عند غايات مقصودة^(٢) .

يقول الدكتور / أحمد بدر ، وهو يتحدث عن مفهوم مناهج العلوم : إن المنهج هو الطريق المؤدى إلى الكشف عن الحقيقة فى العلوم ، بواسطة طائفة من القواعد العامة التى تهيم على سير العقل ، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة^(٣) .

إن المنهج خطة كاملة ، ونظرته تامة ، تحدد الدعوة ومسارها ، وطرق الإقناع بها ، وأسلوب الخطاب لها ، وتحقيق أهدافها فى كافة جوانب الحياة . وعلى هذا فمنهج الدعوة كمصطلح ، أو كعلم كلى ، يشتمل على نظرية شاملة للدعوة. بكل جوانبها .، وحينئذ لا يصح إطلاق. مسمى المنهج على

(١) مناهج الدعوة إلى الله د/ جلال البشار ص ٢٩ ، وهذا المعنى استنباط من كتب اللغة ، وهى

تبين معنى نهج ومنهج " المدخل إلى علم الدعوة " د/ محمد البيانوتى ص ٤٥ .

(٢) أنظر معنى ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ فى تفسير الطبرى ، الرازى ، وفى كتب

السنة عند شرح قوله ﷺ : " ثم تكون خلافة على منهاج النبوة " فتح البارى ج ١ ص ١٠ ،

والفتح الربانى ج ٢٣ ص ١٠ .

(٣) أصول البحث ومناهجه ص ١٥ .

الأسلوب ، أو على الوسيلة ، أو على الموضوع ، أو غير ذلك ، إلا على وجه المجاز من باب تسمية الجزء باسم الكل ، ومع وجود قرينة تمنع من إرادة حقيقة المفهوم .

ومنهج الدعوة ربانى كله ، ويمكن أخذه من تعاليم الله تعالى ، من كافة جوانبه . لأن الجوانب الثابتة كموضوع الدعوة . وغايتها . وأخلاقيها ثابتة مفصلة .

أما الجوانب غير الثابتة كالوسائل ، والأساليب ، وصفات القائم بالدعوة ، وأحوال المدعوين . فإن تعاليم الله تعالى تضع الأسس ، والشروط مع ترك التفاصيل للاجتهاد والبحث .

ومنهج الدعوة ليس هو الحركة بالدعوة . لأن الحركة تعنى الصورة العملية التى تظهر حين يقوم الرسل ، والدعاة بتبليغ دين الله للناس ، والمنهج أعم من ذلك ، إنه المبادئ الكلية ، والقواعد الأساسية التى تعتمد عليها الدعوة بكل جوانبها .

والسيرة النبوية فى كل مراحلها تعتمد المنهج الكلى للدعوة ، وتحافظ على كل جوانب عملية الدعوة ... وهى أساس هذه الدراسة .

- ثانياً -

المضمون الفكرى لحركة الدعوة

الإسلام هو الموضوع الذى تتحرك به الدعوة ، وهو المضمون الفكرى الذى يحتويه الأسلوب ، ويحركه بوسائله ، وأدواته .

والإسلام أساسه العقيدة ، ولذلك تدور حركة الدعوة مع تبليغ العقيدة ، وتنشيتها فى القلوب ، وربطها بكافة أنشطة الإنسان ...

إن العقيدة الإسلامية تتمثل فى " شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمداً رسول الله " ... وهذه الشهادة تتكون من شطرين :

الشرط الأول : وهو شهادة أن لا إله إلا الله .، وبه تتحدد للإنسان عبوديته لله المعبود .، ليقر له بالوحدانية المطلقة .، ويتجه له وخدم سبحانه وتعالى بالعبادة كلها ، ويحصر التلقى منه سبحانه وتعالى .
فليس عبداً لله من لا يعتقد بوحدانيته سبحانه وتعالى .، بكل الميقين ، والإخلاص .

وليس عبداً لله وخدم من يخضع .، ويخضع .، ويتجه بالعبادة لغير الله تعالى !!

وليس عبداً لله من يرتضى لنفسه مصدراً غير وحى الله ، يأخذ منه النظام والتشريع !!

وليس عبداً لله من يعلن العبودية ظاهراً ، عند حاجته ، ويخالف لوازمها عند العمل والتطبيق !!

ويؤكد الشرط الثانى : وهو أشهد أن محمداً رسول الله ، أن محمداً هو طريق التلقى الوحيد عن الله تعالى .، فهو رسول الله ﷺ الذى نزل . عليه الوحي ، وبلغه للناس ، وهو الذى اختاره الله وأرسله للناس ليمدهم بكل

ما يحتاجون إليه في حياتهم ، وجميع أعمالهم ، وسائر أنشطتهم .
وليس مؤمناً من لا يضع الرسول ﷺ في موضعه الواجب ...
وليس مسلماً من يهمل ما جاء به رسول الله ﷺ . ويعمل بما جاء من
عند غيره !! ...

وليس مسلماً من يحب أعداء رسول الله ، أو يعينهم ، أو ينصرهم .
إن العقيدة الإلهية تقوم على كلمة الشهادة بركنيها ، لأن الشهادة تشمل
الإسلام كله ، ولذلك كان اهتمام الرسول ﷺ بها منذ البداية ...
إن القلب المؤمن المسلم يتمثل هذه القاعدة بشطريها ، بصدق ، وإخلاص
، وبذلك يكون مؤمناً . لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان . ولأركان
الإسلام ، يتحقق بهما ، فالإيمان بملائكة الله ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ،
والقدر ، خيره ، وشره ، يقوم على هذه القاعدة .

وكذلك الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج يعتمد عليها .
ثم الحدود ، والتعازير ، والحل ، والحرمة ، والمعاملات ، والتشريعات
والتوجيهات الإسلامية ، إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن
المرجع فيها كلها هو ما بلغه لنا رسول الله ﷺ عن ربه .
والمجتمع المسلم هو الذى تتمثل فيه تلك القاعدة ، ومقتضياتها جميعاً ،
تمثلاً علمياً ، وعملياً ، لأنه بغير تمثل تلك القاعدة ، ومقتضياتها فيه لا يكون
المجتمع مسلماً .

ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، قاعدة
لتصور كامل ، تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذاقها ، فلا تقوم هذه الحياة قبل
أن تقوم هذه القاعدة ، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه
القاعدة ، أو قامت على قاعدة أخرى معها ، أو عدة قواعد أجنبية بعيدة عنها .

يقول الله تعالى ﴿ * وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ۚ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِيتِيَّ فَارْهَبُونِ ﴾ (١).

يقول سبحانه ﴿ قُلْ إِنِّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢).

ويقول سبحانه ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣).

ويقول سبحانه ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٤).

من هذه الآيات وغيرها كثير في القرآن الكريم ، تعرف وحدانية الله تعالى ، وتتحدد واجبات العبودية ، وتتأكد ضرورة الأخذ ، والتلقى من الله تعالى .
لقد ركز رسول الله ﷺ دعوته في مكة على تثبيت العقيدة في القلوب ليعيش الناس الإسلام كله بعدما تمتلئ قلوبهم بالإيمان .
إن المجتمع المسلم ، والفرد المسلم ، يجعل الإسلام دستور الحياة على أساس إيماني خالص ، ويعيشه بكماله ، وتماحه ، على أساس أنه مطلب إيماني نابع من عقيدة " لا إله إلا الله " التي هيمنت على قلبه ، وعقله ، وعواطفه ، وأصبحت هي الموجه الوحيد لسلوكه عن طوعية ، واختيار .

(١) سورة النحل ، الآية ٥١ .

(٢) سورة الأنعام ، من الآية ١٦٢ : ١٦٣ .

(٣) سورة الشورى ، الآية ٢١ .

(٤) سورة الحشر ، الآية ٧ .

إن مقتضى شهادة التوحيد يشمل أركان الإيمان ، وسائر العبادات ، والتوجيهات التشريعية ، والأخلاقية ... وغيرها^(١) .

إن مقتضى هذا التوحيد يشمل الحياة كلها ، ولذلك كان البدء بتعليم العقيدة وكان الجهد المبذول فى تثبيتها ضخماً ليتلاءم مع أهميتها ، ودورها فى تطبيق الإسلام كله .

إن مقتضى التوحيد يؤدى إلى إيجاد الفرد المسلم ، والمجتمع المسلم فى عالم الواقع ، وبذلك يتحول الكون كله عابداً لله تعالى ، ويصير الناس ربانيين ، مخلصين ، صالحين ، أعمالهم كلها لله يتحرون بها طاعة الله ، والامتثال لأمره واجتتاب نواهيه .

وأمانيتهم كسب رضى الله ، ومن أجلها يتحرون مناط الرضى ، ويركزون على عوامل القربى ، ليتمتعوا برحمة الله ، ورضوانه ، وحبه .

وتجارتهم الرئيسية مع الله ، وأعلى أرباحهم ينتظرونها يوم أن يتجلى الله عليهم بعزته ، وهم فى النعيم ، فيرونه ، ويسعدون ببقياه ، ويعيشون فى الجناح خالدين لهم فيها ما يشاءون .

إن النطق بالشهادة ، يعبر عن حقيقة اليقين ، ويؤدى إلى التمسك بلوازمها ومقتضياتها ، ويوجد المؤمن السعيد ، ويحقق المجتمع العظيم ، فى عالم الناس .
ولقد صنع رسول الله ﷺ بالشهادة مجتمعاً متحرراً من سلطان الشهوة ، وسلطان الطغاة ، مجتمعاً قائماً على العدل ، وتقدير كرامة الإنسان ، مجتمعاً طاهر الخلق ، زكى الروح ، يقظ الضمير ، متألفاً ، متحاباً ، يوالى الفرد أخاه ، ويعمل للجماعة كما يعمل لنفسه .

لقد صنع رسول الله ﷺ هذا المجتمع السعيد ، لأن أفرادهم أقاموا هذا الدين

(١) أنظر كتاب لا إله إلا الله للأستاذ/ محمد قطب ، العقيدة أولاً للدكتور/ الشريف الهجاوى .

(٥٥٤)

(أولاً) فى قلوبهم ، وضماائرهم ، وطبقوه (ثانياً) فى حياتهم ، وأعمالهم ، وبعد ذلك كانوا رجالاً يحبون لغيرهم ما يحبونه لأنفسهم ، ويحافظون على حقوق الآخرين قبل أن ينالوا حقهم .

إن هذا المضمون هو الإسلام كله ، وهو الجزء الرئيسى فى منهج الدعوة ، لأن غاية المنهج هو خدمة الإسلام ، وتبليغه للناس . وتحقيقه فى عالم التطبيق ، والسلوك .

- ثالثاً -

أسلوب الدعوة

الفكرة فى حقيقتها معلومات عقلية لا تظهر للناس إلا فى قوالب لغوية ،
يؤلفها حامل المفكرة . أو. تؤلف له .، ويتمكن بواسطتها من إيصال فكرته ،
ومعارفه لغيره .

كما أن المستمع ، والمتلقى يفهم الفكرة ، ويتصورها ، ويتجاوب معها من
خلال الكلمات التى سمعها ، أو قرأها .

والقوالب اللغوية الحاملة للمضمون هى الأساليب البيانية ...

والأسلوب أحد أركان منهج الدعوة ، ويعرفه العلماء بأنه **المحتوى البيانى**
الذى يحمله الطريق لتصل الدعوة إلى المدعوين ، وقد يكون هذا المحتوى قولاً
منطوقاً ، أو مكتوباً ، أو صورة ، أو عملاً وهكذا ...

وللأسلوب أهميته فى إيصال المضمون للناس ، لأن الإنسان لا يستوعب
الفكرة ، ولا يفهمها جيداً إلا إذا وصلت إليه بأسلوب مفهوم ، مرتب على قواعد
علوم اللغة ، والبلاغة التى لا بد منها لدقة المعنى ، والتأثر به ، ولذلك دعا
الرسول عليهم السلام بلسان المدعوين ، ووجب تبليغ الدين على نحو بين ومفهوم
، ودقيق .

إن الخطاب الدينى يتجه إلى الإنسان .، ويعيش مع طاقاته العقلية ،
والموجدانية ، والسلوكية ووجب لذلك أن يتنوع مع دقة المعنى ، وجمال
العبارة ، وحلاوة الأسلوب على نمط القرآن الكريم الذى شهد له أعداؤه ، وقالوا
عنه : **إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة^(١)** .

(١) سيرة النبى ﷺ لابن هشام ج ١ ص ٢٩٣ .

إن الأسلوب القرآنى الكريم يتضمن الإقناع العقلى ، والتأثير الوجدانى ،
والجذب الروحى ، لأنه يخاطب فى الإنسان شعوره ، ومشاعره ، ويتحدث مع
عقله ، وعواطفه ، ويأخذ بالألباب ، والأرواح .

لقد كان كفار مكة ، وعلى رأسهم قاداتهم يتأثرون بالقرآن حين سماعه ،
ولذلك كانوا يأتون سراً لسماع محمد ﷺ فى الليل إعجاباً بأسلوب القرآن الكريم .

يروى ابن هشام عن ابن إسحاق أن محمداً بن شهاب الزهري قال : إن
أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو ابن
وهب الثقفى ، حليف بنى زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو
يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم
بمكان صاحبه . فباتوا يستمعون له . حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم
الطريق فتلاوموا .

وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى
أنفسهم شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية . عاد كل رجل منهم إلى مجلسه . فباتوا
يستمعون له . حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق . فقال بعضهم
لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون
له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح
حتى نتعاهد ألا نعود : فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، وخرج حتى أتى أبا سفيان فى
بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها
وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا الذى حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : تتازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، كنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ، ولا نصدقه .

فقام عنه الأخنس وتركه^(١) .

لقد كان لأسلوب القرآن الكريم التأثير العظيم فى عقول من يفهمه ، ووجدان من يسمعه ، حتى رأينا كفار مكة يتخفون للتمتع بالاستماع إليه ، وما صدهم عن الإيمان به إلا التعصب ، والحقد ، والحسد .

إن كثيراً من أهل الكتاب دخلوا فى الإسلام بسماعهم القرآن الكريم ، يقول تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾^(٢) ، وما ذلك إلا لما فيه من أصالة الموضوع ، وبساطة المعنى ، وجمال الأسلوب ، ولما فيهم من سلامة الفطرة ، وصدق التوجه ، وإتباع الحق ، والتسليم بالدليل ، وشأن القرآن الكريم دائماً أن يزداد به الإيمان ، وتخضع القلوب ، وتذرف العيون ، يقول تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾^(٣) .

(١) سيرة النبى ﷺ لابن هشام ج ١ ص ٣١٥ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٨٣ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٢ .

ويقول سبحانه ﴿ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾^(١)

يصف الله تعالى تأثير القرآن الكريم فى النفوس المؤمنة ، ويبين ما يصيب القلوب من خشية ولين ، وما يظهر على جلودهم من قشعريرة ، واضطراب يقول تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾^(٢) .

وحتى يقوم الأسلوب بدوره أرسل الله الرسل عليهم السلام بلغة أقوامهم ليتضح المعنى ، ويعرف المطلوب . يقول الله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٣) .

والأساليب تتنوع مراعاة لحال المدعوين ، لأن من الناس طائفة ذات نفوس مشرقة ، وعقول ذكية ، وإدراك سريع ، وهؤلاء تكفيهم الإشارة ، ويناسبهم الإيجاز ، وترضيهم الكلمات القليلة ذات الدلالات الموجزة ، والمعاني الدقيقة . ومن الناس طائفة ذات عقل ، وفهم ، لكنها محبة للجدل ، والحوار . كثيرة السؤال . ، وللاعتراض . ، مرة لفهم . ، ولأخرى لتظهر ذاتها فى حوار . ، ونقاش^(٤) .

وقد أدى تنوع الناس إلى تنوع الأساليب ، مع أن المعنى ، والمضمون واحد .

(١) سورة مريم ، الآية ٥٨ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٢٣ .

(٣) سورة إبراهيم ، الآية ٤ .

(٤) أنظر تفسير الرازى ج ٥ ص ٥١٥ بتصرف .

ولذلك رأى العلماء أن الأسلوب بصورة عامة يتنوع إلى ثلاث صور كلية وبعدها تأتي الأساليب الفرعية العديدة ، المناسبة للمدعوين ، تعبيراً عن إحدى هذه الصور الكلية .

والصور الكلية للأسلوب ثلاثة ، أمر الله بها في قوله تعالى ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١) . وبيانها فيما يلي :

الصورة الأولى : الحكمة

وهي مشتقة من الإحكام ، والإتقان ، ومرجعها إلى العلم الدقيق ، والحقيقة المجردة الخالية من الإطناب ، والتكرار .
وتطلق الحكمة على مسميات عديدة كالعقل ، والفهم ، والنبوة ، والحديث ، وعلى بعض أساليب الدعوة .
والحكمة في أساليب الدعوة تعنى اللفظ المحكم ، الدقيق ، الدال على معناه المقصود بلفظ موجز ، وعبرة جميلة ...

يقول أبو السعود : الحكمة هي الدليل الموضح للحق ، المزيل للشبهة ، المتجه إلى العقل مباشرة ، من غير إثارة وجدان ، أو تهيج انفعال (٢) .
ويقول الإمام النووي : الحكمة عبارة عن العلم المتصف بالإحكام ، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى ، المصحوب بنفاذ البصيرة ، وتهذيب النفس ، وتحقيق الحق ، والعمل به ، والصد عن إتباع الهوى والباطل ، والحكيم من له ذلك .

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٢٠٠ .

قال أبو بكر بن دريد : كل كلمة وعظتك ، وزجرتك ، أو دعتك إلى مكرمة ، أو نهتك عن قبيح فهي حكمة ، وحكم^(١) .
ويقول ابن القيم : الحكمة جامع مانع لأنها تشمل الإتيان ، والإحكام للأقوال ، وتضع جميع الأمور في مواضعها المناسبة ، وفي أوقاتها الملائمة للإفادة بها^(٢) .

الصورة الثانية : الموعظة الحسنة

والوعظ يعنى النصح ، والإرشاد ، ومخاطبة الوجدان ، وإثارة العواطف ، من خلال المتنوع البيانى الذى يعرض المعنى بأساليب مختلفة ، مع التذكير بالعواقب ، والترغيب فى الفعل ، والتخويف من الترك .
والوعظ يشمل الوصية الخيرة ، والأمر بالحسنى ...
وعلى الجملة فإن- الموعظة عبارة عن مجموعة من المعبر المنفعة ، والخطابات المقنعة ، والإرشادات المعبرة .
وإنما وصفت الموعظة بأنها حسنة للإرشاد إلى أن الموعظة تعنى الخير ، وتدور حول فعل المعروف ، وترك المنكر ، وتحاول إقناع العقل ، وإرضاء العاطفة ، وإن لا لم تكن حسنة ، وهى غير المرادة فى الدعوة .
إن- من الناس- من يجعل مواظبه لنشر المسوء .- ومساعدة الطغيان .
ومحاربة الخير فى حياة الناس . وهذه ليست الموعظة الحسنة التى أمر الله تعالى بها أسلوباً للدعوة .

الصورة الثالثة : المجادلة بالتي هى أحسن

المجادلة أدلة كلامية يوردها الداعى ليلزم الخصم ، ويفحمه ، ويجعله يؤمن

(١) منهج تربية النبى لأصحابه ص ٣١٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٢٠ .

بالمدعى ،. ولتصفت المجادلة بالحسنى إبعاداً. لها عن مفهوم المجادلة الاصطلاحية التى تتضمن المجادلة المنطقية ، والمكابرة ، والمعاندة ، لأنها ليست لإظهار الصواب ، بل لإلزام الخصم ، والتعالى ، وإثبات الذات .

إن حملة الدعوة يقصدون إظهار الصواب دائماً ، والوقوف على الحق باستمرار ، وإقناع الخصم بالحسنى ، ولذلك أمروا بالجدل الحسن الجميل .

يقول صاحب مختار الصحاح : جادل مجادلة جدالاً إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ، ووضح الصواب ، هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع فى مقابلة الأدلة لظهور أرجحها ، وهو محمود حسن إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم^(١) .

ويقول الرازى : الجدل المذموم محمول على الجدل فى تقرير الباطل ، وطلب المال ، والجاه ، والجدل الممدوح محمول على الجدل فى تقرير الحق ، ودعوة الخلق إلى سبيل الله ، والذب عن دين الله تعالى^(٢) .

وهكذا قيد الله الجدل بالذى هو أحسن حتى يكون هادفاً ، ومقنعاً ، ومناقشاً لشبه المدعويين .

والفرق بين الجدل والموعظة ، أن المجادلة منازعة بين طرفين متعارضين ، والخصم فيها ليس صامتاً ، وإنما يناقش ، ويرد بما رسخ فى نفسه من أوهام وشبه ، وما لديه من حجة ودليل .

بخلاف الموعظة ، فإن المدعو بها يستمع إليها ، ويستثار بها ، وينفعل معها ، بلا ضرورة المنازعة الكلامية ...

وقد أمر الله رسوله أن يدعو الناس بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالحسنى لتعم الفائدة سائر الخلائق المختلفين، مكاناً ، وزماناً، وفكراً، وطبيعة .

(١) مختار الصحاح مادة (جدل) .

(٢) مفاتيح الغيب ج ٢ ص ٢٥٢ .

وقد بين الرازى تنوع الناس ، وذكر أنهم بالنسبة لكمال الطبع ، طرفان وواسطة

فالطائفة الأولى التى تتجه إليها الحكمة هى طرف الكمال .

والطائفة الثانية المجادلة هى طرف النقصان .

والطائفة الثالثة صاحبة الموعظة هى الواسطة ، وهم الذين لم يبلغوا فى

الكمال إلى حد الحكماء المحققين ، كما لم يبلغوا فى النقصان ، والردالة إلى حد

المشاغبين المخاصمين . بل هم أقوام بقوا على المفطرة الأصلية ، وللسلامة الخلقية .

وتقسيم الناس إلى هذه الطوائف الثلاث تقسيم يتفق مع الواقع البشرى ، لأن

من الناس من يريد التعمق ، ويكره السطحية ، ولا يهدأ له بال إلا باليقين الحقيقى

القائم على الفكر والتدبر ، ومنهم من يستهويه موضوع مثير ، وفطرة طيبة ، فيقف

أمام اللفظة الجميلة ، والمثل النادر ، والقصة الشيقة ، والتكرار المؤكد ، ويسهر

لمنظر بأئس ورؤية مسكين ، ومنهم من يهوى اللحج ، ويعشقه وينازع ، ويجادل^(١)

لكن ليس معنى هذا التقسيم أن كل طائفة تغاير الأخرى تماماً ، وتتمايز

تمايزاً كلياً إذ من الناس من يجمع فى طبعه أكثر من صفة ، ولذا كان تنوع

الأسلوب ضرورة لمخاطبة كافة الناس ، ولإرضاء كافة عناصر الإنسان .

جاء فى الظلال : والدعوة بالحكمة تراعى أحوال المخاطبين ، وظروفهم

والقدر المختار لهم فى كل مرة حتى لا يتقل عليه ، ولا يشق عليهم بالتكاليف قبل

استعداد النفوس لها ، والطريقة التى يخاطبهم بها ، والتنويع فى هذه الطريقة حسب

مقتضياتها .

والدعوة بالموعظة الحسنة تدخل إلى القلوب برفق ، وتعمق المشاعر بلطف لا

بالزجر ، والتأنيب فى غير موجب ، ولا بفضح الأخطاء التى تقع عن جهل ،

(١) تفسير الرازى ج ٥ ص ٢٥٣ .

أو حسن نية ، فإن الرفق فى الموعظة كثيراً ما يهدى القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة ، ويأتى بخير أكثر من الزجر ، والتأنيب ، والتوبيخ .
والدعوة بالجدل بالتي هى أحسن تكون بلا تحامل ، على المخالف ، ولا ترذيل له وتقبيح ، حتى يطمئن إلى الداعى ، ويشعر أن ليس هدفه الغلبة فى الجدل ، فالنفس البشرية لها كبرياؤها ، وعنادها ، وهى لا تزول عن الرأى الذى تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تسرع بالهزيمة ، والجدل بالحسنى هو الذى يطمئن من هذه الكبرياء الحساسة.

ويلاحظ :

أن كلاً من صور الأسلوب الثلاث لا تنحصر فى شكل بيانى محدد ، لأن الصورة الواحدة تظهر فى صور فرعية عديدة ، فمن الحكمة الإيجاز ، والإشارة والتأكيد المجرد .

ومن الموعظة الاستفهام ، وضرب المثل ، والتشبيه ، وإيراد القصص ، والتأثير الصوتى .

ومن الجدل ، المحادثة ، وحلقات النقاش ، وعقد الاجتماعات ، والمناظرات .
ولذلك اعتبرت هذه الصور الثلاث أصولاً كلية للأساليب التى تتفرع منها صور عديدة قابلة للزيادة كلما تقدم الناس ، وتطورت العلوم ، وتنوعت الحضارات .
وهكذا ... يكون الأسلوب ، ويكون البلاغ والدعوة ...

- رابعاً -

وسائل الدعوة

وسائل الدعوة عديدة ، ووظيفتها حمل الأسلوب بمضمونة ، وتوصيله إلى المدعويين .

ويخلط كثير من الناس بين الوسيلة ، ولـلأسلوب .، ويرون المقالة ، والخطبة ، والدرس وسائل للدعوة ، مع أنها تشتمل على أساليب تنقل الفكرة إلى المستمعين بواسطة الاتصال الشفهي الذي هو الوسيلة .

ويرجع سبب الخلط إلى تداخل النظرة إلى هذه الموضوعات ، لأنها تكون وسائل ، أو أساليب باعتبار الجانب المنظور إليه .

إن الخطابة ، والكتابة وغيرها قد تكون وسائل للدعوة ، إذا نظر إليها من ناحية هيكلها العام .، وشكلها الفني .، وتكون أساليب إذا نظر إلى الكلمات المنقولة من خلالهما ، المتضمنة للمعاني المقصودة .

إن الأسلوب الواحد تنقله الوسائل العديدة ، كما أن الأسلوب يوجد في عالم الواقع بعد إعداده ، بينما الوسيلة توجد قبل الإعداد أو بعده ، وتظهر أهميتها وقت استخدامها ، فالخطابة وسيلة ، والخطبة أسلوب ... وهكذا .

إن القرآن الكريم أسلوب للدعوة .، ينقل إلى الناس بوسائل عديدة مثل المشافهة ، والكتابة ، وآلة تكبير الصوت ... وهكذا .

وأيضاً فإن القرآن الكريم ، وهو أسلوب للدعوة موجود قبل عملية توصيله للناس ، وقد تعطل الوسيلة ، وتنتهي ، ولا يتعطل القرآن الكريم ، لأنه محفوظ بأمر الله تعالى .

ولهذا كانت أهمية التمييز بين الوسيلة والأسلوب ...

وأهم أساليب الدعوة ما يلي :

وسائل المواجهة " المشافهة "

يعتمد هذا اللون من الاتصال ، على المواجهة المباشرة بين الداعى ، والمدعو ، وتنقل الرسالة ، بواسطة هذه الوسيلة .

والاتصال المواجهى أقدم أنواع الوسائل ، وأكثرها تأثيراً ، وهو يشمل الاتصال الذى يتم بين فرد وفرد ، أو بين فرد وجماعة ، أو بين جماعة وجماعة ، ما دام كل منها يتم بصور شفوية مباشرة .

ومن صور الاتصال المواجهى ما يلى :

أ . المحادثة البسيطة :

وتكون بين عدد قليل من الناس بينهم معرفة سابقة حيث يتحدث كل منهم مع الآخر سائلاً ، أو . مجيباً ، كأفراد . الأسر . وللعيران . ، وزملاء . الدراسة والعمل ... وهكذا .

ب . الإشارة :

قد يتفاهم البعض فيما بينهم بالإشارة . ، ويتخذونها أسلوباً كمحادثة الأخرس ، وتفاهم الجنود فى الميدان ، أو التعاملات البسيطة عن قرب ، أو بعد . وهكذا .

ج . المناقشة :

وهى فن من فنون التربية والدعوة ، وتتم مشافهة بين عدد من الأشخاص ، حيث يعرض كل منهم رأيه فى الموضوع محل النقاش ، وتختلف المناقشة عن المناظرة ، لأن المتناقشين قد يسيرون فى اتجاه واحد ، بينما المتناظرون يسيرون فى خطوط متعارضة ، كما أن المناقشة تتم أحياناً بلا إعداد ، بينما المناظرة تقوم على الإعداد دائماً .

د . الخطبة :

تتميز الخطبة بتأثيرها الواضح لأنها تخاطب العواطف ، وللموجدان . ، وتدور حول موضوعها ، وتقدم العديد من البراهين ، فى صور بيانية مؤثرة . والخطبة تلقى من جانب واحد فقط هو الخطيب ، ولذلك وجب على من يقوم بالخطبة أن يهتم بجوانبها الفنية ، وقواعدها العلمية لكى يحقق الهدف الذى يرجوه من وراء عمله .

هـ . الندوة :

وتقوم على الاتصال المباشر إلا أنها تختلف عن الخطبة بأن الاتصال فيها يتم بمشاركة عدد من الاتجاهات- تدور- حول- موضوع- واحد . وتحتاج الندوة إلى جمهور مثقف متمكن من المتابعة ، والمشاركة فى الحوار لأن- بعض المندولت- يفتح فيها للجمهور- باب- التعليق ليساهموا- بآرائهم مع المتحدثين الأساسيين فى الندوة .

و . المحاضرة :

وهى لون من الاتصال المواجهى يعتمد على التحليل العلمى ، والبراهين القوية ، وهى وسط بين الخطبة والندوة ، لأنها تأخذ من الخطبة أن المتحدث فيها واحد ، والمستمع جمهور عريض ، وتأخذ من الندوة فتح باب المناقشة حول موضوع المحاضرة .

ز . الدرس الدينى :

وهو لون من الاتصال الدينى يتم فى المساجد غالباً ، وهو اتصال يتسع الموضوع فيه ، ويفتح المجال أمام المستمع للسؤال ، والمناقشة ، وله أثره الكبير فى نشر الدين ، والتعريف بقضاياها .

الوسائل المكتوبة والمطبوعة

استعمل الإنسان هذا النوع قديماً ، ولكن بصورة بدائية ، فحينما اخترعت الكتابة كان الإنسان يكتب على الجلد ، وورق الشجر ، وورق البردى ، وما شاكل ذلك ، وبهذه الطريقة استفاد الإنسان منذ القديم بالكتابة حيث ضمنها ما أراد من آراء وأخبار ، وأوصلها إلى غيره ، أو تركها للأجيال المتعاقبة من بعده وهذه الوسيلة هي التي عرفت الناس بالحضارات القديمة ، وما وقع لها من حروب وأحداث ، وما كان فيها من ممالك ودول .

وفى عام ١٤٥٤م تمكن الإنسان من اختراع المطبعة ، الأمر الذى ساعد على إعطاء صور عديدة للرسالة الواحدة ، فى أشكال متعددة ، إذ يمكن إبراز الرسالة فى شكل كتاب ، أو فى نشرة ، أو فى صحيفة ، أو فى خريطة ... أو فى صورة تعبيرية ، أو لوحة مؤثرة ... وهكذا .

وتتميز الوسائل المطبوعة بما يلى :

(أ) تقوم على رأى المدروس ، لأن المصدر لا يكتب رسالته إلا بعد بحث وتأمل ، ويحاول أن يصوغها فى قالب بيانى مشوق ، دال على معناه ، ببسر وسهولة .

(ب) تسمح للقارئ بتكرار قراءتها ، وللتحكم فى ظروف المتعرض لها مكاناً وزماناً ، وبذلك يتمكن من فهمها ، واستيعاب المراد منها ، ولهذا نادى بعض الباحثين بأن تقدم الرسائل المعقدة فى صورة مطبوعة لتحقيق الهدف منها ، وبخاصة لمن يجدون الوقت الكافى من تتبع الرسالة دفعة واحدة ، أو تمنعهم ظروفهم الشخصية من استيعابها فى جلسة واحدة .

(ج) تتمكن الرسالة المطبوعة من الوصول إلى الجماهير ، وإلى الخاصة ، وتنتشر بلغات عديدة لقلّة تكلفتها إذا قورنت بالوسائل الأخرى .

(د) تساعد الرسالة المطبوعة على الإقناع ، لأنها لا تخترق السمع ولا تفاجئ العين ، ولا تأتي للمتلقى وهو غير مستعد لها ، وإنما يقدم المتلقى عليها مختاراً راضياً مما يجعله جزءاً من موضوعها فيتخيل ، ويفسر ، ويرضى ، أو يرفض ، وتلك هى مراحل الاقتناع ... وله فرصة تأجيل قراءتها إن شغل بأمر آخر .

(هـ) تؤدى الرسالة المطبوعة إلى الفهم الدقيق ، الهادئ ، لأن القارئ يمكنه أن يقرأها عدداً من المرات ، ويمكنه أن يجزئ قراءتها ، وله أن يتأكد من صدق ما جاء فيها بالبحث ، والتحرى ، والتأمل فى المصادر ، والمراجع وقد أدى التطور بالوسائل المطبوعة إلى قيام مؤسسات ضخمة ساعدت على اتساع المنشر ، وضخامة المتوزيع مما جعلها بحق وسيلة للاتصال الجماهيرى .

الوسائل المسموعة

ويقصد بها الوسائل التى توصل الكلمة إلى الجماهير العريضة عبر المسافات البعيدة وهى المذيع ، تلك الوسيلة العجيبة التى تحمل الكلمة المذاعة بمختلف أشكالها ، وفنونها إلى أى مكان فى العالم فى ثوان قليلة .

وتتميز هذه الوسيلة بما يلى :

- (أ) يتميز (المذيع) بقدرته على اختراق أى مكان فى الكرة الأرضية فى زمن وجيز بلا عائق ، أو حاجز .
 - (ب) يتميز (المذيع) بقدرته على مخاطبة كافة الفئات مهما اختلفت ثقافتهم ، وأعمارهم ، وأجناسهم .
 - (ج) لا يحتاج (المذيع) إلى المتفرغ المتام من المثقلى ، لأن من الممكن الاستماع إلى الراديو خلال الاشتغال بعمل آخر ، ومن الممكن أن يخدم المذيع جمهوراً نشطاً أثناء تناول الطعام ، أو أثناء القيام بالعمل ، أو خلال نهوضه من النوم ... وهكذا .
 - (د) تتميز الرسالة المرسله بالمذيع باهتمامها على المؤثرات الصوتية ، والحوار البناء ، وهذا يجذب المستمع ، ويربطه بالرسالة الإعلامية .
 - (هـ) يتميز المذيع بنقل رسائله فور وقوعها ، ولذلك فهو الوسيلة الأساسية فى وقت الأزمات ، وحين وقوع الحروب ، والصراعات ... والثورات .
 - (و) التكرار فى الرسالة الإعلامية بواسطة المذيع تكون مقبولة غير مملة ، لأنها تتخذ صوراً متعددة ، كل منها له جاذبيته الخاصة للمستمع .
- وقد أدى التطور الحضارى إلى قيام المذيع بالترفيه بجانب قيامه بالخبر والتثقيف .

الوسائل المسموعة المرئية

وتجمع هذه الوسيلة أهم العناصر المؤثر في المستمع وهي الصوت ، والحركة ، والصورة ، وبذلك تتمكن من جذب أكثر من حاسة لدى الجمهور ، ولولا ما في هذه الوسيلة من صور غير مشروعة ، وبرامج مثيرة للشهوة ، لقلنا إنها أعظم وسيلة إعلامية معاصرة ، وأكثرها فائدة للدعوة إلى الله تعالى .

والأمل معلق بالمسلمين أن يستفيدوا بكافة الوسائل ، ووضعها في الأطر الشرعية ، لتكون طريقاً لإيصال الإسلام ، كما نزل من عند الله إلى كل مكان في العالم أداء للأمانة ، وتحقيقاً للذات ، وتأسيساً للحضارة التي يعمل الإسلام لتحقيقها .

وليس من المقبول في عالم اليوم أن يعيش المسلمون . وهم مسلمون . تابعين لغيرهم مقلدين ، وهم يملكون الأصالة ، والحياة .

إن الرؤية تدفع المشاهد إلى المتنوع . وتقدم الحدث نابضاً بالحركة والحيوية .

- خامساً -**الداعى والمدعو**

الداعى والمدعو هما طرفان فى العملية الدعوية ، لأن الداعى هو حامل الدعوة ومبلغها ، والمدعوون هم غاية الدعوة ، والمقصودون بعملية الدعوة كلها ، وعلى الداعى أن يتصف ببعض المزايا التى تمكنه من القيام بواجباته ، ومنها أن يتعامل مع المدعوين بما يناسب واقعهم ، وأحوالهم ، ويؤدى إلى اقتناعهم بما يعرض لهم ، وهذه تحتاج إلى دراسات عديدة ، سوف نذكر بعضها حين نستنبط أهم ركائز الدعوة المستفادة من المرحلة المكية .

والرسول ﷺ هو إمام الدعاة ، ورأئدهم ، وهو أسوة الدعاة على الزمن كله^(١) .

إن تحديد المفاهيم المتصلة بحركة الدعوة النبوية عمل أرجو من ورائه متابعة حركة النبى ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى ، لنستفيد بها ، ونضع كل جانب فى موضعه ، ونحن نتحرك بالدعوة اقتداء برسول الله ﷺ .

(١) أنظر الإعلام فى القرآن الكريم ص ٢١٤ ، وما بعدها .

المبحث الثانى

حركة الرسول ﷺ بالدعوة

خلال المرحلة السرية

استمرت مرحلة النبوة ستة أشهر ، ألف النبي ﷺ خلالها ملاقاته جبريل عليه السلام ، وتهيأت نفسه للمحافظة على ما يوحى إليه ، والقيام بما يكلف به والقدرة على تبليغه ، والدعوة الله .

وهنا نزل- عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى ﴿ يَتَأْتِيَ الْمُدَّثِّرُ ﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ (١) حيث كلفه بالنهوض ، وبذل الجهد ، والإنذار ، والدعوة ، والقيام بواجبات الرسالة ، وبذلك بدأ النبي ﷺ أولى مراحل الدعوة التى استمرت حتى نزل قول الله تعالى ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) .

وقد استمرت هذه المرحلة عامين ونصف عام ، لتبدأ مرحلة الجهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات من بداية الوحي (٣) ، وقد عرفت هذه المرحلة بـ (مرحلة الدعوة السرية) لتمييزها بمواصفات خاصة .

ومفهوم السرية التى وصفت بها هذه المرحلة لا يعنى الكتمان ، لأن الدعوة بطبيعتها تعنى تبليغ الغير أمراً ليتبعه ، مع ترغيبه فى الإلتباع ، وتخوفه من الترك ، كما تفيد الدعوة الطلب المتكرر ، والنصح المؤكد ، وإظهار الخير ، والمصلحة للمدعوين ، بأساليب متعددة ، وبوسائل مختلفة .

(١) سورة المدثر ، من الآية ١ : ٢ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٩٤ .

(٣) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٦٢ ، وبذلك تكون فترة تهيئة النبي للرسالة ستة أشهر .

إن أبا بكر رضي الله عنه من السابقين الأول إلى الإسلام ، ومع ذلك سمع قبل إسلامه من قريش أعداء الإسلام حديثهم عن الدعوة التي ينادى بها محمد ، مما يؤكد أن الدعوة لم تكن سرّاً مكتوماً .

يروى ابن كثير أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لقي رسول الله ﷺ فقال: أحق ما تقول قريش يا محمد ؟ من تركك آلهتنا ، وتسفيهك عقولنا ، وتكفيرك آباءنا ؟

فقال رسول الله ﷺ : بلى إني رسول الله ونبيه ، بعثني لأبلغ رسالته ، وأدعوك إلى الله بالحق ، فو الله إنه للحق ، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له ، ولا تعبد غيره ، والموالاته على طاعته ، وقرأ عليه القرآن ، فلم يقر ، ولم ينكر ، فأسلم وكفر بالأصنام ، وخلع الأنداد ، وأقر بحق الإسلام ، ورجع أبو بكر ، وهو مؤمن مصدق ^(١) .

ولهذا فإن وصف الدعوة بالسرية خلال هذه المرحلة كان يعنى تخير أفراد معينين يتميزون بالهدوء ، وحب الصمت ، والتوجه إلى الإسلام بصورة فردية بلا صخب ، ومن غير إعلان مكان تجمعهم ، أو التعريف بأماكن الالتقاء بهم . وقد تميزت المرحلة السرية بما يلي :

- أولاً -

اقتصار الدعوة على العقيدة

دعا النبي ﷺ إلى الإيمان بالله تعالى ، والإيمان بالرسول ، والإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بهذه الأركان لا يتم إلا بترك الشرك ، ونبذ عبادة الأصنام . يقول ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته ، وأن تكفر باللات والعزى .

(١) البداية والنهاية ج ١ ص ٢٦ .

ويقول لأبى بكر رضي الله عنه : إني رسول الله ، ونبيه ، بعثني لأبلغ رسالته ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى ترك عبادة غيره ...
وكان رضي الله عنه يخرج متخفياً لعبادة الله مع علي في شعاب مكة ، لا يعلم أحد عنهما شيئاً إلا الله تعالى .

وذات يوم عثر عليهما أبو طالب وهما يصليان .
فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ : يا ابن أخي ! ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟

قال : أى عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا إبراهيم عليه السلام ، بعثني الله به رسولاً إلى العباد ، وأنت أى عم ، أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابني إليه ، وأعانني عليه .
فقال أبو طالب : أى ابن أخي ، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي ، وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك شئ تكرهه ما بقيت .

وذكروا أنه قال لعلي : أى بنى ، ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟
فقال علي رضي الله عنه : يا أبت ، آمنت بالله ، وبرسول الله ، وصدقته بما جاء به محمد ، وصليت معه لله ، واتبعته .

فذكروا أنه قال له : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه^(١) .
فنجده رضي الله عنه فى حوار مع عمه يورد الكلمات الموجزة ، الجامعة للمعانى الكثيرة ، مع التركيز على القضايا المسلمة عند العرب ، والانطلاق منها إلى ضرورة الإيمان بالله تعالى .

فالعرب جميعاً يعرفون الله تعالى ، ويسلمون له بالقدرة ، ومع ذلك يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى ... ويعتزون بأبيهم إبراهيم ، وإسماعيل عليهما السلام ... ولذلك وضع النبي ﷺ لعمه أنه يدعو لدين الله ، ودين إبراهيم عليه السلام ،

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٤٧ .

ودين الأنبياء السابقين .

ولم يغب عن رسول الله ﷺ مخاطبة عمه بالحسنى فيقول له : أى عم ، أنت أحق من بذلت له النصيحة ، ورجوت له الهداية .

ومع أن أبا طالب لم يستجب للدعوة إلا أنه طمأن محمداً ﷺ على حمايته ، ولم يعترض على إيمان ابنه على ﷺ .

وكان مجرد إعلان الصحابى (أى صحابى) الإيمان بدعوة رسول الله ﷺ بداية لتبدل حياته كلها ، ليظهر جديداً فى كل شئ ، ويتغير تغيراً تاماً ، وتلك إحدى العجائب التى صنعها محمد ﷺ فى الذين آمنوا بدعوته .

يقول سيد قطب : ولقد كنت ، وأنا أراجع سيرة الجماعة المسلمة الأولى أقف أمام شعور هذه الجماعة بوجود الله سبحانه ، وحضوره فى قلوبهم ، وفى حياتهم ، فلا أكاد أدرك كيف تم هذا ؟

كيف أصبحت حقيقة الألوهية حاضرة فى قلوبهم ، وفى حياتهم على هذا النحو العجيب ؟

كيف امتلأت قلوبهم ، وحياتهم بهذه الحقيقة هذا الامتلاء ؟
كيف أصبحت هذه الحقيقة تأخذ عليهم الفجاج ، والمسالك ، والاتجاهات ، والآفاق ، بحيث تواجههم حيثما اتجهوا ، وتكون معهم أينما كانوا ، وكيفما كانوا ؟
كنت أدرك طبيعة وجود هذه الحقيقة ، وحضورها فى قلوبهم ، وفى حياتهم ، ولكنى لم أكن أدرك كيف تم هذا ؟

عدت إلى القرآن على ضوء موضوعه الأصيل ، وعرفت منهج القرآن فى تجلية حقيقة الألوهية ، وتعبيد الناس لها وحدها بعد معرفتها ، وهنا فقط أدركت كيف تم هذا كله .

أدركت سر الصناعة ، عرفت أين صنع ذلك الجيل المتفرد فى تاريخ البشرية ، وكيف صنع ، إنهم صناعة قرآنية ، صنعوا فى هذا المنهج الربانى على يدى

رسول الله ﷺ الذى غرس فى نفوسهم معرفة أن الله هو الأول ، والآخر ، والله هو الظاهر والباطن ، والله هو الخالق والرازق ، والله هو المسيطر والمدبر ، والله هو الرافع والخافض ، والله هو المعز والمذل ، والله هو القابض والباسط ، والله هو المحيى والمميت ، والله هو النافع والضار ، والله هو المنتقم الجبار ، والله هو الغفور الودود ، والله هو العلى الكبير ، والله هو القريب المجيب ، والله هو الذى يحول بين المرء وقلبه ، والله هو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، والله هو العليم بذات الصدور ، وهو معهم أينما كانوا وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، وهو الذى ينزل الغيب من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وهو الذى يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، وما لهم من دونه من وال ، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً .

وهكذا ... وهكذا ...

جعلت هذه الحقيقة تملأ على الناس حياتهم ، وتواجههم فى كل درب ، وتترأى لهم فى كل صوب ، وتأخذ على أنفسهم أقطارها ، وتعايشهم فى كل مكان ، وتساكنهم بالليل والنهار ، وبالغدو ، والأسحار ، وحين يستغشون ثيابهم وحين تهجس سرائرهم ، وحين يستخفون من الناس ، بل حين يستخفون من نفوسهم التى بين جنوبهم ، حتى خرجت منهم أناساً يذكرون الله قياماً ، وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتيقنون بأن الدار الآخرة هى الحياة الصحيحة ، ويعيشون العبادة ، والعبودية فى خواطر النفس ، وهمسات الروح ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح .

- ثانياً -

قيام الدعوة على الاتصال الفردي^(١)

قام الرسول ﷺ بتوجيه الدعوة إلى الناس بصورة فردية ، فلقد ثبت أنه ﷺ دعا السابقين إلى الإسلام كلا على حدة ، وأحياناً كانت الدعوة تبدأ بسؤال موجه من الصحابي إلى رسول الله ﷺ ، وأحياناً آمن البعض به اقتناعاً بما كان يسمع ، ويرى ، وبذلك كانت الدعوة في أول أمرها فردية .

وخديجة رضى الله عنها أول من دخلت في الإسلام ، آمنت بالرسالة قبل أن يطلب الرسول ﷺ منها أن تؤمن ، لأنها كانت تبشر بالرسالة ، وتنتظرها ، فلما جاء جبريل بالوحي صدقت بما كانت تتوقعه ، وأخذت تعبد الله كما يتعبد رسول الله ﷺ ... فلما تعلم الرسول الوضوء ، وعاد لخديجة ، توضأت كوضوئه وصلت كصلاته .

فلما رآهما على بن أبي طالب ﷺ يصليان سألهما : ما هذا ؟ فقال له رسول الله ﷺ : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، وتكفر باللات والعزى ، وتبرأ من الأنداد ، ففعل على وأسلم ، ومكث يأتيه على خوف من أبي طالب ، وكنتم إسلامه ، ولم يظهره^(٢) .

(١) يسمى علماء الإعلام الاتصال الفردي بالشخصي ، ويذكرون أنه الاتصال المباشر الذي يتم مواجهة بين فردين ، أو بين فرد ، وجماعة صغيرة بين أعضائها علاقة ما . وهو يتم عادة بطريقة تلقائية كالتحية والرد عليها ، وإجابة سؤال ، والتحدث حول أمر ما .

ونمط هذا الاتصال المواجهة ، والاحتكاك المباشر ، ورد الفعل فيه يكون واضحاً . ويتميز هذا النوع بأنه يتم في اتجاهين بصورة مباشرة ، مما يؤدي إلى فهم كل طرف للآخر ، وهذا يساعد على الفهم ، وسرعة القضاء على المعوقات التي تظهر أثناء العملية .

(٢) حياة الصحابة ج ١ ص ٤٨ .

وكان سن علي عليه السلام عشر سنوات ، وكان من فضل الله على علي عليه السلام في إسلامه أن جعله سبحانه وتعالى ينشأ في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل الإسلام ، يكفله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويربيه كأنه ابنه .
وأسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصلى بصلاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأخذ يحفظ القرآن معه .

وأراد الله بأبي بكر خيراً ، فسمع عن دعوته محمد صلى الله عليه وآله وسلم فجاء إليه مسرعاً .
فأسلم ، وكفر بالأصنام ، وخلع الأنداد ، وأقر بحق الإسلام ، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق^(١) .

وهكذا أسلم أبو بكر ، وعلي ، وزيد ، وهم أول من دخل في الإسلام بعد خديجة ، والعلماء مختلفون في أسبق الثلاثة إلى الإسلام ، فمنهم من قال : أولهم أبو بكر ، ومنهم من قال : أولهم علي ، ومنهم من قال : أولهم زيد بن حارثة .
يجمع أبو حنيفة الآراء المذكورة ، ويؤكد صحتها جمعياً ، ويرى أن أول من أسلم من النساء خديجة ، وأول من آمن من العبيد الأرقاء زيد بن حارثة ، وأول من آمن من الصبيان علي بن أبي طالب ، وأول من آمن من الرجال الأحرار الكبار أبو بكر رضي الله عنهم جميعاً^(٢) .

ويروى ابن عساكر عن سعد بن أبي وقاص ومحمد بن الحنفية أن أبا بكر لم يكن أول المسلمين إسلاماً فقط ، بل كان أفضلهم ، وأكثرهم فائدة للدعوة إلى الإسلام^(٣) .

وعلى الجملة فإن إسلام هؤلاء السابقين إلى الإسلام تم بالدعوة الفردية ...

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٩ .

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٣١ .

- ثالثاً -

تخير المدعوين

لم يكن التوجه إلى الأفراد يتم مع الجميع بصورة مطلقة ، وإنما كان ﷺ يتخير من يدعوهم على أساس طباعهم ، وصفاتهم محافظة على السرية ، وحرصاً على حماية الدعوة من عدوان الطغاة ، واستبداد المغرورين .

وكان الرسول ﷺ يختار أناساً معينين ، وهم المتصفون بالهدوء ، وقلة الحديث ، وللتسامح ، وحب الخير ، لأن هؤلاء الأشخاص إن أسلموا لن يجاهروا بإسلامهم ، ولن يظهروه لصناديد مكة ، وشيوخها ، ولن يتحدثوا عنه إلا مع أفراد على نمطهم ، وصفاتهم ... وإن لم يسلموا ، فالصمت ديدنهم ، ولن يحاولوا إيذاء محمد ﷺ بالتحدث عنه ، والتكلم فيما دعاهم إليه ...

ولذلك نرى المسلمين الأول كانوا من أمثال أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف .

أما عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، فقد تركهم الرسول ، ولم يتعرض لدعوتهم إلى أن قوى المسلمين نسبياً ، وقدر الله أموراً دفعتهم إلى الإسلام ، وأخذت بيدهم إلى الطريق المستقيم في مرحلة تالية .

وهكذا بقيت الدعوة منحصرة بين أفراد معينين ، ولم يصل إلى أهل مكة عنها إلا معلومات قليلة لا تحرك فيهم عصبية ، ولا تنثير غضباً .

إن هذه التخير والاصطفاء للمدعوين إجراء حكيم قام به النبي ﷺ لضمان بداية سليمة ، وموفقة للدعوة ، حيث كان ﷺ يركز على المعرفة الشخصية لقابلية الأفراد ، ومدى استعدادهم للتجاوب مع الدعوة ، حتى لا يتسرب إلى الإسلام غيرهم .

- رابعاً -

تجنب ضلالات القوم

أخذ النبي ﷺ يدعو الله ، ويعلم أصحابه العقيدة المطلوبة منهم ، مع تجنب الحديث عن آلهة القوم ، وضلالهم مع الأصنام ، فلم يذم الآلهة ، ولم ينقد عبديتها ، وإنما أكتفى بعرض أركان العقيدة ، وبين مدى أحقيتها في ذاتها وأخذ يظهر للناس ما في أنفسهم ، وفي الكون من دلالات على وحدانية الله ، واستحقاقه وحده للعبادة ، مع الإشارة على أن الإله الحق لا يصح أن يكون إلا واحداً .

والآيات التي نزلت في هذه المرحلة شاهدة على مدى ابتعاد النبي ﷺ عن نقد ضلالات القوم ، والاكتفاء بتربية المسلمين ، وتقوية إيمانهم .

ومن هذه الآيات أوائل سورة المزمل ، وأوائل سورة القلم ، وهي آيات تحدد منهج التربية الإيمانية ، وبناء عقيدة قوية متصلة بالله تعالى عن طريق قيام الليل ، وقراءة القرآن ، حيث يتعود المسلم قراءة القرآن ، وقيام الليل مع يقظة القلب ، وقوة التأمل ، وتربية الإرادة ... وبذلك يتحول العبد إلى طاقة قوية تستفيد بما في الليل من فوائد ، وتستعد لما في النهار من عمل ، كل ذلك في عبودية ذاكرة ، وقلب مخبى منيب .

وتؤكد الآيات عظمة رسول الله ﷺ وهي تتحدث عن كمال عقله ، وكرم خلقه ، وعلو شأنه في الدنيا ، وفي الآخرة ، يقول تعالى ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ ^(١) ٥ : ١ ﴾ .

(١) سورة القلم ، من الآية ١ : ٥ .

- خامساً -**دعوة الأقربين الذين يعاشرهم ﷺ**

بدأ الرسول ﷺ يعرض الإسلام على الناس المختارين ، وكان فى تخيره لمن يدعوهم ، يكتفى بالأقرب إليه الذى يعايشه ، ويعاشره ، فدعا على بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة ، وأخذ يطبق تعاليم الوحي مع هؤلاء الأقربين تاركاً الآخرين لوقت يقدره الله تعالى ...

يقول- يحيى بن عفيف :- جئت زمن الجاهلية إلى مكة ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب ، فلما طلعت الشمس ، وحلقت فى السماء ، وأنا أنظر إلى الكعبة ، أقبل شاب. فرمى ببصره إلى السماء . ثم استقبل الكعبة ، فقام مستقبلها ، فلم يلبث حتى جاء. غلام. فقام. عن يمينه ، فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما ، فرقع الشاب. فرقع الغلام. والمرأة ، فرقع الشاب. فرقع الغلام والمرأة ، فخر الشاب ساجداً فسجدوا معه .

فقلت يا عباس : أمر عظيم !

فقال العباس : أتدرى من هذا ؟

فقلت : لا .

فقال العباس : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ابن أخى .

قال : أتدرى من الغلام ؟

قلت : لا .

قال : هذا على ابن أبى طالب ﷺ .

قال : أتدرى من هذه المرأة التى خلفهما ؟

قلت : لا .

قال : هذه خديجة بن خويلد زوجة ابن أخى

وقد حدثني محمد أن ربه رب السماء والأرض ، أمره بهذا الذي تراهم عليه ، وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة^(١) .

وهكذا ...

اكتفى الرسول ﷺ في المرحلة السرية بدعوة من يعاشرهم من الأقربين ، ولم يعرف أعمامه ، وعماته دينه إلا عرضاً ، ولم يناقش الغرباء الذين يأتون إلى مكة حاجاً ، ومعتمرين في أمر الدين الذي يدعو إليه ﷺ .

وبقيت الدعوة منحصرة في هذا العدد القليل حتى أسلم أبو بكر رضي الله عنه فأظهر الإسلام منفرداً ، ودعا أصحابه إليه ملتزماً بأهمية التخير في الدعوة كما تعلم من رسول ﷺ .

ولم يحدث الجهر العام إلا يعد إسلام عمر وحمزة رضي الله عنهما .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٥ .

- سادساً -**إسلام الضعفاء**

كان السابقون إلى الإسلام من الضعفاء الفقراء الذين لا جاه لهم في مكة ولا سطوة ، وهذا أمر جعل أشراف مكة لا يهتمون بالإسلام أول أمره ، استهانة بقلّة أتباعه ، وهوانهم بين الناس .

يروى البخارى بسنده عن همام قال : سمعت عماراً يقول : رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد ، وامرأتان ، وأبو بكر^(١) .

والعبيد هم : زيد بن حارثة ، وبلال بن رباح ، وعامر بن فهيرة ، وأبو فكيهة مولى صفوان بن أمية ، وعبيد بن زيد الحبشى ، والمرأتان هما : خديجة ، وأُمّ أيمن .، نظر أهل مكة إلى هؤلاء المضعفاء .، فاستصغروا. شأنهم ، وتصوروهم ظاهرة عارضة ، لا تلبث أن تنتهى وتزول .

وساعدهم على هذه النظرة أن العبيد من هؤلاء الضعفاء لم يقصروا فى أعمالهم ، ولم يرتكبوا خيانة لسادتهم ، مع أن السادة لم يسلموا .

وقد قضى الله تعالى بأن يكون أتباع الدعوة الأول من الضعفاء الفقراء لتنمو الدعوة على سنة المبشر فى المتطور. وللتقدم .، وليعلم المسلمون. دائماً حاجتهم الملحة للصبر ، والتحمل ، ومواجهة الطغيان بالعفو ، والتسامح .

إن هؤلاء الضعفاء هم القوة العملية فى مجتمعهم فمنهم العمال ، والأجراء ، والعبيد ، ولا بد أن يعملوا ليعيشوا فليس معهم المال الذى يدفعهم إلى الترفه ، والكسل .

وتلك خاصية أفادت الدعوة الإسلامية لأنهم لما آمنوا بها وضعوا طاقتهم

(١) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب فضل أبى بكر ج ٦ ص ٨١ .

(٥٨٤)

وإمكاناتهم فى خدمتها ، ولذلك هاجروا بها ، وواصلوا الدعوة إليها ، وتحملوا
فى سبيلها الكثير ، فقدموا بذلك النماذج الرائدة للمسلمين بعدهم .
ولو كانوا من المترفين المنعمين ما تحملوا أذى ، وما صبروا على مشقة
، ولعجزوا عن أداء ما كلفوا به .
وأحب أن أبين قضية لها أهميتها وهى أن ضعف هؤلاء كانت فى الجانب
المادى فقط ، أما فى الجانب المعنوى فكانوا هم الأقوياء ، وهم العقلاء ، فقد
دخلوا فى الإسلام مخالفين أسيادهم . ولم يعبأوا بأذى ينالهم وتحملوا
صابرين . كل ما أصابهم من ظلم وعدول . وصل أحياناً إلى حد القتل ،
والفناء .

ـ سابعاً ـ

الاكتفاء بدعوة من يأتيه ﷺ من خارج مكة

أكتفى الرسول ﷺ بالدعوة خلال هذه المرحلة على أفراد من الأقربين إليه في مكة ، ولم يخرج عن هذا الإطار في دعوته ، اللهم إلا من قصد رسول الله ﷺ من خارج مكة وجاء يبحث عن دين الله تعالى ، وعددهم قليل .

ولذلك بقيت الدعوة في نطاق محدود ، لم يؤمن بتعاليمها أحد خارج مكة ، ولم ينشغل كفار مكة بتتبعها ، ولم يحدث صدام بين المؤمنين وغيرهم . واستمر الأمر هكذا حتى قويت هذه الجماعة الأولى ، وأسلم أبو بكر رضي الله عنه فأعلن الأمر ، وجاهر به ، بعد إصرار منه على ذلك .

وكان ﷺ حريصاً في هذه المرحلة على عدم إثارة كفار مكة منعاً للتصادم معهم ، فكان إذا جاءه من يسلم بدعوته ، وهو من غير مكة يأمره بكتم إسلامه ، والامتنثال لأمر الله ، والعمل به بعيداً عن الناس .

وهذا من الحكمة في الدعوة ، لأن كفار مكة لو بدأوا يعملون ضد المسلمين في هذه المرحلة لتمكنوا منهم لقلة عددهم ، وضعف وجودهم ، وهذا قدر أراد الله للمؤمنين في هذه المرحلة لينصر دينه بهم .

يروى ابن سعد بسنده عن شداد بن عبد الله أن أبا أمامة سأل عمرو بن عبسة : بأي شيء تدعى أنك ربيع الإسلام ؟

قال عمرو : إني كنت في الجاهلية أرى الناس على ضلالة ، ولا أرى الأوثان بشيء ، ثم سمعت عن رجل يخبر أخباراً بمكة ، ويحدث بأحاديث ، فركبت راحلتي ، حتى قدمت مكة فإذا أنا برسول الله ﷺ ، مستخفياً ، وإذا قومه عليه جراء .

فتلطفت حتى دخلت عليه فقلت : من أنت ؟

قال : أنا نبي .

فقلت : وما نبي ؟

قال ﷺ : رسول الله .

قلت : آله أرسلك ؟

قال ﷺ : نعم .

قلت : فبأى شئ ؟

قال ﷺ : بأن يوحد الله ، ولا يشرك به شئ ، وتكسر الأوثان ، وتوصل

الأرحام .

فقلت له : من معك على هذا ؟

قال ﷺ : حر وعبد ، يقصد أبا بكر ، وبلال بن رباح .

فقلت له : إني متبعك .

قال ﷺ : إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ، ولكن أرجع إلى أهلك ، فإذا

سمعت بى قد ظهرت فالحق بى .

فرجعت إلى أهلى ، وخرج النبی ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، وقد أسلمت ،

فجعلت أتخير الأخبار ، وذهبت إلى يثرب فقلت : ما فعل هذا الرجل المكي

الذى أتاكم ؟

فقالوا : أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذاك ، وحيل بينهم وبينه .

وتركت الناس إليه سراحاً ، فركبت راحلتى ، حتى قدمت عليه .

فدخلت عليه فقلت : يا رسول الله أتعرفنى ؟

قال ﷺ : نعم ، ألسنت الذى أتيتنى بمكة ؟

فقلت : بلى ، يا رسول الله علمنى مما علمك الله وأجهله .

ثم ذكر الحديث بطوله ، وفيه تفصيل مواقيت الصلاة ، والوضوء ،

وغير ذلك^(١).

وهكذا وجه النبي ﷺ هذا الصحابي الجليل إلى عدم البقاء في مكة ، والرجوع إلى قومه ، وملازمة الصمت والسكوت حتى يظهر أمر الإسلام ، وبعدها يتمكن من الحركة ، والجهر ، والدعوة ، في ظلال حفظ الله ، ونصر إخوانه له .
وطبق عمرو بن عبسة نصيحة رسول الله ﷺ ، وعاش ﷺ :

. بإسلامه سرّاً لم يخبر به أحداً .

. وجاء إلى المدينة متخفياً ليستطلع الأمر .

. ولما رأى الرسول في المدينة بعد الهجرة أعلن إسلامه ، وبدأ يتعلمه ، ويدعو إليه .

ويبدو أن عمرو بن عبسة ﷺ كان من الحنفاء ، الذين أظهروا فساد آلهة القوم ، وأخذوا في البحث عن الدين الحق ، ولذلك كان توجيهه إلى التخفي أمراً ضرورياً في هذه المرحلة من مراحل الدعوة ، لأن الحنفاء تعودوا نقد ما عليه الناس ، واحتقار آلهتهم ، من غير تقديم دعوة جديدة ، تتضمن معالم دين صحيح فلو استمر عمرو بن عبسة في النقد مع إسلامه فإنه يمثل خطورة لأهل مكة تشعل غضبهم في هذه المرحلة التي لا تتحمل هذا .

(١) الطبقات الكبرى ج ٤ ص ٢١٦ .

- ثامناً -

التخفى فى العبادة والتوجيه

أخذ ﷺ يتخفى عن أعين أهل مكة ، وهو يوجه أتباعه ، ويطبق معهم تعاليم الإسلام .

وقد اختار ﷺ للتخفى أماكن لا تكتشف بسهولة ، ومن ذلك ذهابه إلى الشعاب البعيدة عن بيوت مكة ، فكان ﷺ يخرج إلى الشعاب ، ومعه على بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة للصلاة فيها بعيداً عن أعين الناس^(١) .

يقول ابن إسحاق : وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفياً من أبيه أبى طالب ، ومن جميع أعمامه ، وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسياً رجعاً ، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا^(٢) . ولما كثر عدد المسلمين كانوا يذهبون إلى الشعاب فرادى ، أو مثلى ، محافظة على السرية ، وعدم التصادم .

ومن طرق التخفى اتخاذ دار الأرقم بن أبى الأرقم مكاناً يجتمع فيه المسلمون مع رسول الله ﷺ للتعلم ، والعمل ... وكان اختيار دار الأرقم ملائماً للتخفى والاستتار لعدة أسباب :

(أ) تقع دار الأرقم عن الصفا ، وهو مكان يتجه إليه كثير من أبناء مكة ، وتوجه المسلمين إلى هذا المكان أمر عادى لا يثير تساؤلاً ، ولا يوقعهم فى شبهة لأن الكثير يسIRON أمامه .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٧ .

(٢) سيرة النبى ﷺ ج ١ ص ٢٤٦ .

(ب) لم يتوقع أحد من أهل مكة أن يجتمع محمد ﷺ مع أصحابه في دار الأرقم ، ولا يمكن لهم أن يتصوروا ذلك ، لأن الأرقم من بنى مخزوم وهى قبيلة تنافس بنى هاشم في السلم والحرب ، ولا يتصور أن تنشأ دعوة هاشمية في دار مخزومية .

(ج) أسلم الأرقم ، وهو صغير لم يبلغ السادسة عشرة ، وصبى في هذا العمر لا يجرؤ. أن. يجعل بيته مكاناً لتجمع المسلمين ،. فلقد جرت. عادة القرشيين أن. يكون. اجتماعهم في بيوت. كبار. المقوم. ،. وأغنيائهم ، وشيوخهم .

(د) إسلام. الأرقم نفسه كان. سراً. على قبيلته ،. وعلى غيرهم ،. ولا. يمكن تصور بيته حينئذ مكاناً لاجتماع المسلمين ، لأن صاحبه . لم يدخل في الإسلام . في نظرهم .

والحكمة في بدء الدعوة بالاستخفاء عديدة منها :

١ . التريث ريثما تتكون لبنات قوية المزج ، شديدة التماسك ، في جو بعيد عن إثارة المعوقات في طريق سير الدعوة ، لأن هذه اللبنة هي القوة الدافعة التي سيعتمد عليها بناء المجتمع الإيمانى الجديد ، في مواجهة قوى الظلم ، والبغى المتربصة بهذا الدين ، في صبر لا يعرف الوهن ، وجهاد لا يعرف اليأس .

٢ . ضرورة المسالمة في البداية ، لأن مهاجمة هذا المجتمع الغارق في شروره ، ومواجهته بضلاله ، وساق الدعوة لم يستو بعد ، يؤذن بتحريك دوافع المقاومة للدعوة في نفوس المستكبرين ، والدعوة لا تزال في أول خطواتها ، فتنعثر في سيرها ، وهى لا تزال وليدة طرية .
لذلك أثر النبى ﷺ الاستسرار بدعوته ، وتبليغ رسالته ، حرصاً منه

أن يكون سيرها مطرداً ، وثيداً هادئاً ، تسير إلى القلوب بخطى ثابتة ، حتى تتمكن من الإعلان عن نفسها في الوقت المناسب^(١) ، بعد أن يؤمن بها عدد من الناس يضحون في سبيلها بالغالى والنفيس ، مما يضمن استمرارها وبقائها .

٣ . المساهمة في تكوين قاعدة إيمانية صلبة ، ومثالية في هدوء ، وأناة لتقوم بدورها في المراحل التالية . ولتقدم أسوة راقية لمن بعدهم في الخلق ، والسلوك ، وأداء الواجب .

(١) محمد صادق عرجون . محمد رسول الله ﷺ ج ١ ص ٦٠٥ .

- تاسعاً -

تحمل المسلمين مسئولية الدعوة

قام الرسول ﷺ بأمر الدعوة إلى الله تعالى ، وتبعه نفر قليل ، فأخذ يعلمهم بتعاليم الله التي ينزل بها الوحي ... وأخذ المسلمون يعيشون حياة جديدة ، طيبة ، وتكون منهم أناس ربانيون خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، وتابع الرسول ﷺ تغذيتهم بالقرآن ، وتقويتهم بالإيمان حتى صاروا . بحق . عبيداً لله ، لا يريدون في الأرض علواً ، ولا فساداً ... ورأوا أن أعظم العمل هو الدعوة لدين الله ، والعمل به ... ولذلك رأينا أبا بكر ﷺ لم يكتف بإسلامه متخفياً ، وإنما أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله ، وإلى رسوله ، فأسلم بدعوته :

عثمان بن عفان .

والزبير بن العوام .

وعبد الرحمن بن عوف .

وسعد بن أبي وقاص .

وطلحة بن عبيد الله بن عثمان ... رضوان الله عليهم أجمعين .

فلما أسلم هؤلاء الخمسة ، قدم بهم أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ، فصلوا معه ، وصدقوا برسالته ، وبلغ عدد المسلمين بهم ثمانية^(١) وفي اليوم التالي جاء أبو بكر بنفر آخرين أسلموا بدعوته أيضاً وهم : عثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم .

ويرجع نجاح أبي بكر في الدعوة إلى عدة أسباب :

(أ) بساطة الدعوة إلى التوحيد كما هو ظاهر من قول رسول الله ﷺ

لأبي بكر : " وأدعوك إلى الله بالحق ، فوالله إنه للحق ، أدعوك

(١) تاريخ الطبري ج ١ ص ٣١٧ .

إلى الله وحده لا شريك له ، ولا تعبد غيره ، والموالاته على طاعته
 "(١)... وفى قوله ﷺ دلالة على أن الله واحد ، وحقه أن يعبد وحده ،
 ونبذ ما عداه من آلهة وشركاء أمر واجب .

وقد صدق أبو بكر بما سمع من رسول الله ﷺ ، وآمن به بلا تردد أو
 مراجعة ، يقول النبی ﷺ : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له
 عنه كبوة ، وتردد ، ونظر ، إلا أبا بكر ما تردد فيه(٢) .

(ب) اشتهار أبي بكر ﷺ فى مكة بحسن المخلق ، وسعة الأفق ، وتنوع
 الثقافة ، ودقة الأمانة ، يقول ابن كثير : وكان أبو بكر رائداً لقومه
 ، محباً ، سهلاً ، وكان أنسب قریش لقریش ، وأعلم قریش بما كان
 فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ، ومعروف ، وكان
 رجال قومه يأتونه ، ويألفونه ، لغير واحد من الأمر ، لعمله ،
 وتجارته ، وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به
 من قومه ممن يغشاه ، ويجلس إليه(٣) .

(ج) الاقتداء برسول الله ﷺ فى الاصطفاء ، وتخير من يدعوهم ، كما هو
 واضح من الصحابة الذين آمنوا بدعوته لهم .

وعلى مثال أبي بكر ﷺ كان سائر الصحابة الذين دخلوا فى الإسلام ،
 فكان الواحد منهم إذا توسم الخير فى إنسان دعاه برفق إلى الإسلام ، فإن
 استجاب وجهه إلى دار الأرقم ، وإن لا تركه وانصرف عنه .
 يروى ابن سعد فى الطبقات قصة إسلام عمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان ،
 ومجيئهما إلى دار الأرقم ، والتقائهما عند الباب ، والحوار الذى دار بينهما .

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٤٦ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ج ٢ ص ١٦٤ .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٩ .

يروى ابن سعد أن عمار بن ياسر قال : لقيت صهيب بن سنان على باب الأرقم ، ورسول الله ﷺ فيها ، فقلت له : ماذا تريد ؟
قال لي : ما تريد أنت ؟
فقلت : أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه .
قال : وأنا أريد ذلك .

فدخلنا عليه ، فعرض علينا الإسلام . ثم مكثنا يوماً على ذلك حتى أمسينا ، ثم خرجنا ونحن مستخفون^(١) .

وكان مجيئهما إلى دار الأرقم بتوجيه بعض الصحابة الذين وثقوا من إيمانهم وكان ﷺ ينظم الذين أسلموا في جماعات صغيرة ، لتلتقى كل مجموعة في بيت أحدهم ، يقرأون كلام الله ، ويتعاهدون الإسلام بالفهم ، والتطبيق ، وكان رسول الله ﷺ يرسل إلى هذه المجموعات أحد القراء ليحفظهم القرآن الكريم الذي نزل .

يروى ابن سعد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما ذهب إلى أخته مغاضباً وجد عندها خباب بن الأرت ، وكان يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرأها القرآن مع زوجها^(٢) .

وإذا كان أحد المسلمين يقرأ ، ويكتب فإن الرسول ﷺ يرسل له القرآن مكتوباً ليقراه على إخوانه .

وكان المسلمون الأوائل حريصين على حماية الإسلام ، وحماية رسول الله ﷺ .
من ذلك ما فعله نعيم بن عبد الله النجم ، وكان (مستخفياً بإسلامه) ، فإنه لما رأى عمر بن الخطاب متوشحاً شك في أمره ، وارتاب في مقصده ، مما دفعه إلى سؤاله فقال : أين تريد يا عمر ؟

(١) ابن سعد . الطبقات ج ٣ ص ٢٢٧ .

(٢) صحيح مسلم .

(٥٩٤)

فقال : أريد محمداً ، هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ،
وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

فقال نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف
تاركوك تمشى على الأرض ، وقد قتلت محمداً ، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم
أمرهم ؟!

قال : وأى أهل بيتى ؟

قال- : خنتك ولبن عمك سعيد بن زيد بن عمرو . وأختك فاطمة بنت
الخطاب^(١) .

وبهذا الحذر كان تصرف الصحابة حياً لرسول الله ﷺ ومحافظة عليه رضى
الله عنهم أجمعين .

(١) ابن هشام . السيرة ج ١ ص ٣٦٦ .

المبحث الثالث

الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية

قام الرسول ﷺ وأصحابه بدعوة الناس عن طريق الاتصال الشخصي ، والمواجهة المباشرة ، وهذه الوسيلة تحتاج إلى معرفة مسبقة بين الداعى ، والمدعو ، ليتمكن الداعى من تخير الوقت المناسب ، وللحالة المناسبة ، ولأسلوب المناسب ، كما يتمكن المدعو من السؤال ، والاعتراض ، والرد بهدوء وتعقل . وبمراجعة عدد المسلمين فى المرحلة السرية ، ومعرفة طرق إسلامهم نرى اتصال الدعاة بهم مباشرة على نحو ما سبق ذكره .

وأما أسلوب الدعوة فقد قام على عرض الأدلة الدقيقة ، المحكمة ، على صورة سؤال ، أو إجابة ، من ذلك ما روى فى قصة إسلام عمرو بن عبسة السلمى ﷺ ، السابق ذكرها ، حيث رأينا أن عمرو كان يبحث عن دين خال من الخرافات ، والأكاذيب الموجودة فى حياة العرب ، ولم يرض لنفسه أن يتخير حجراً ، ويجعله إلهاً ، فلما سمع برسول الله جاءه ، وأخذ فى سؤاله حتى تيقن من صدقه وآمن به ، وكان يقول ﷺ : لقد رأيتنى ، وأنا ربع الإسلام^(١) .

ويبدو أن النبى ﷺ لم يخبره بكل من أسلموا . ، حفاظاً على سلامتهم ، وسلامة إيمانهم ، ولذلك قال : لقد رأيتنى وأنا ربع الإسلام .

وعلى هذا يمكن فهم التضارب الذى ظهر على السنة الصحابة ، وهم يعدون السابقين إلى الإسلام ، لأن كلاً روى حسب علمه ، وسط جو الاستخفاء والسرية المذكورة ، يعضد ذلك ما قاله كل من أبى ذر وسعد بن أبى وقاص من أنه ثلث الإسلام^(٢) .

(١) صحيح مسلم .

(٢) صحيح البخارى .

المبحث الرابع

المسلمون خلال المرحلة السرية

استمرت مرحلة الدعوة السرية سنتين ونصفاً ، ودخل في الإسلام ستون مسلماً ، ومسلمة من كافة الطبقات ، وقبائل المجتمع المكي ، حتى أنه لا تخلو عشيرة مكية من شخص ، أو أكثر أسلموا من بينها .
وقد ورد ذكرهم بالتفصيل في كتب السيرة^(١) . وهم :

أولاً : بنو هشام

(١) على بن أبي طالب	(٢) جعفر بن أبي طالب
(٣) أم الفضل بنت الحارث	(٤) أسماء بن عميس (زوج جعفر)
(٥) خديجة بنت خويلد	

ثانياً : بنو أمية

(٦) عثمان بن عفان	(٧) خالد بن سعيد
(٨) أممية بنت خالد (زوج خالد)	(٩) حاطب بن عمرو
(١٠) عبد الله بن حنشل	(١١) أبو حمد بن حنشل
(١٢) امرأته فاطمة	

ثالثاً : بنو مخزوم

(١٣) أبو سلمة بن عبد الأسد	(١٤) عياش بن أبي بيعة
(١٥) عمار بن ياسر (حليف)	(١٦) أسماء زوجة عياش
(١٧) ياسر بن عامر (حليف)	(١٨) سمية بنت خياط (زوج ياسر)
(١٩) الأرقم بن أبي الأرقم	

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية ج ١ ص ٢٤ - ٢٧ .

رابعاً : بنو تيم

- (٢٠) أبو بكر الصديق
(٢١) طلحة بن عبيد الله
(٢٢) عامر بن فهيرة (مولى)
(٢٣) بلال بن رباح (مولى)

خامساً : بنو عدى

- (٢٤) سعيد بن زيد
(٢٦) عامر بن أبي ربيعة (حليف)
(٢٧) نعيم بن عبد الله
(٢٨) واقد بن عبد الله (حليف)
(٢٩) خالد بن البكير (حليف)
(٣٠) عامر بن البكير (حليف)
(٣١) اياس بن البكير (حليف)
(٢٥) فاطمة بنت الخطاب

سادساً : بنو زهرة

- (٣٢) سعد بن أبي وقاص
(٣٤) عمير بن أبي وقاص
(٣٦) المطلب بن أزهر
(٣٣) عبد الرحمن بن عوف
(٣٥) عبد الله بن مسعود (حليف)
(٣٧) خباب بن الأرت (حليف)

سابعاً : بنو سهم

- (٣٨) خنيس بن حذافة
(٣٩) حفصة بنت عمر (زوجه)

ثامناً : بنو جمح

- (٤٠) حاطب بن الحرث
(٤٢) خطاب بن الحارث
(٤٤) السائب بن عثمان
(٤١) امرأته فاطمة
(٤٣) امرأته فكهية

تاسعاً : بنو أسد

- (٤٥) الزبير بن العوام

عاشراً : بنو عامر

(٤٦) أبو عبيدة بن الحراج (٤٧) سليط بن عمرو

حادى عشر : قبائل متفرقة

(٤٨) صهيب بن سنان (رومى) (٤٩) مسعود بن ربيعة

(٥٠) معمر بن حبيب (٥١) زيد بن حارثة

(٥٢) عمرو بن عبسة (سلمى) (٥٣) عثمان بن مظعون

(٥٤) قدامة بن مظعون (٥٥) عبد الله بن مظعون

(٥٦) رملة زوجته

وهؤلاء السابقون إلى الإسلام نماذج فريدة ، عاشوا أخرج فترات البناء الإسلامى ، وواجهوا أصعب المواقف ، وكانوا بحق أمثلة عالية فى الفداء ، والتضحية ، والإخلاص ، والعبودية لله رب العالمين .

لقد خلعوا أنفسهم من مجتمعهم الجاهلى ، وكونوا جماعة الدعوة الأولى ، التى تميزت بخصائصها ، وصفاتها ، إذ كان إيمانها يعنى الخلوص التام من كل شرك ، والالتزام المطلق لأمر الله تعالى ، فلا مهادنة فى عقيدة ، ولا ضعف فى القيام بواجب مع تحمل أى ضغط ، والصبر على أى أذى ، وكان دخول أحدهم فى الإسلام يعنى البراءة التامة من الشرك وأهله ، والبعد عن موالاة غير المؤمنين ، ول كان من أقرب الناس إليه .

وكان المسلم يحب أخاه المسلم ، لا يحبه إلا الله ، ويلتزم بكل لوازم هذه المحبة من النصرة ، والنصيحة ، والمودة ، وحسن الأخلاق .

إن الإيمان يعنى عند هؤلاء هجراً كلياً لكافة صور الجاهلية ، وانتقال المؤمن إلى منهج الإسلام بكماله وتماحه ، وذلك هو الإيمان فى الحقيقة .

وقد قام هؤلاء المسلمون بواجبهم إزاء الدعوة إلى الله تعالى ، إذ حملوا الإسلام إلى زوجاتهم ، وأبنائهم ، وأهاليهم ، وإلى كل من يعاشرونهم ، وله معهم

ثقة ، ولهم به معرفة ، وبواسطة هؤلاء الصحابة دخل الإسلام بيوتهم ، وأسلم عدد من الزوجات والأبناء .

وساعد هؤلاء الصحابة فى تبليغ الإسلام حسن الإتياع ، وسلامة التطبيق والتخلق بأخلاق الإسلام ، لأن ذلك يعد فى ذاته دعوة عملية .

وساعدهم كذلك أنهم تيقنوا أن الإيمان يعنى العلم ، والعمل معاً ، فلم يقصروا فى تعلم ، ولم يتهاونوا فى تطبيق ، وكان إيمانهم قائماً على اليقين التام والافتناع الصادق ، فلما تعرضوا للابتلاء ، لم يتأثروا ، ولم يضعفوا .

لقد كانوا قوة انتصروا لدينهم ، وارتفعوا به إلى مصاف العلا فكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس ، واستحقوا أن يضعهم الرسول ﷺ فوق الناس أجمعين ، فعندما اختلف أحدهم ، وهو عبد الرحمن بن عوف مع خالد بن الوليد بعد إسلامه ، قال الرسول ﷺ : يا خالد ، دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقتَه فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ، أو روحته^(١) .

فبالرغم من أن خالداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، وبالرغم من أنه من الذين أسلموا ، وأنفقوا قبل الفتح ، بالرغم من ذلك كله ، فلقد قيل له هذا القول حين اختلف مع عبد الرحمن بن عوف ؓ ، أحد أفراد الطليعة السابقة ، والنواة الصلبة التى قام البناء الإسلامى على أكتافها ، ولا ننسى أبداً أن من بين هؤلاء النسوة خديجة رضى الله عنها إحدى الكاملات فى الدنيا ، وأسماء بنت عميس ، وأم الفضل بنت الحارث ، وغيرهن اللواتى كن النموذج الأعلى للنساء فى التاريخ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ٧٤ .

المبحث الخامس

خصائص المرحلة الأولى للجهر بالدعوة

” جهر رسول الله ﷺ ”

لم تبق الدعوة سرّاً مجهولاً على أهل مكة ، فلقد علموا كثيراً عن محمد ﷺ ، ودعوته لدين جديد ، ولم يتحركوا لذلك ، ولم يكثرثوا به ، لأن معلوماتهم عن الإسلام كانت عامة ، وبسيطة ، جعلت الدعوة في نظرهم أقل خطورة على معتقداتهم من الحنفاء الذين يجاهرون ببطلان عبادة الأصنام ، والأوثان .

ومما يدل على علمهم بالدعوة أن أحد تجار مكة جاء إلي أبي طالب فرأى محمداً ﷺ يصلي ، وخلفه علي ، وخديجة ، وعلم أنهم بذلك يعبدون الله الذي يدعو إليه محمد ﷺ .

وسبق ذكر علم أبي طالب بإيمان علي بالإسلام ، ودعوة رسول الله ﷺ له ليسلم .

ومع إتساع موجة المعرفة بدعوة محمد ﷺ بقي أهل مكة علي إهمالهم شأن محمد ومن معه فسكتوا عن دعوته ، ولم يتصوروا خطورة علي أديانهم وأوضاعهم .

وكان صمت أهل مكة عن المسلمين في هذه الفترة فضلاً من الله تعالى حيث تكونت النواة الصلبة التي يقوم عليها البناء ، ونشأ جيل القمة الذي حمل مسئلة الإسلام مع رسول الله ﷺ وبعده ، ويكفي أن نعرف أن تسعة من هؤلاء ، مبشرون بالجنة ، وعاشرهم هو عمر بن الخطاب ، وأن الرسول ﷺ اتخذ منهم أهل الشوري الستة ، ومات ﷺ وهو عنهم راض .

(٦٠١)

بعد هذا. بدأت. مراحل الجهر بالدعوة التي تعددت. تبعاً لاعتبارات مختلفة ...

وقد رأيت بعض العلماء يعدّها ثلاثاً باعتبار نوعية المدعوين ، وهي :

مرحلة الجهر للأقربين .

ومرحلة الجهر لأهل مكة .

ومرحلة الجهر للناس أجمعين^(١) ...

لكن هذا التقسيم لم يلاحظ تداخل صور الجهر بالدعوة لأن الرسول ﷺ وهو يجهر بالدعوة كان يدعوا أقرباءه الأذنين وأهل مكة ، وكلهم أقرباؤه ... وأيضاً كان يدعو من يأتي مكة من خارجها ... كما أن الرسول ﷺ أعلن من أول الدعوة أنها للناس أجمعين .

وهناك من يقسم المرحلة الجهرية إلى مرحلتين باعتبار الشخص الذي جهر بالدعوة ، ويرى هؤلاء أن الرسول ﷺ هو الذي جهر بالدعوة للناس في المرحلة الأولى ... وأن عمر بن الخطاب ؓ وحمزة بن عبد المطلب ؓ هما اللذان جهرا بالدعوة بعد المرحلة الأولى بعامين ونصف^(٢) ، وكان جهر هما بداية المرحلة الجهرية الثانية .

وأرى أن هذا التقسيم أكثر صواباً من التقسيم الأول ، ولذلك سأتناول الحديث عن المرحلة الأولى علي أساس هذا التقسيم .

ويلاحظ هنا أن مراحل الدعوة تقسيم منهجي لتسهيل المعرفة بالسيرة النبوية لأن المراحل كانت تتداخل أحياناً ، ففي المرحلة السرية جهر أبو بكر بالدعوة ، ومع جهر الرسول ﷺ كان الصحابة يباشرون الدعوة أيضاً .

وتعد المرحلة الجهرية الأولى وسطاً بين المرحلة السرية ، ومرحلة الجهر

(١) أنظر الدعوة الإسلامية في عهدها الملكي للدكتور رعوف شلبي ص ٣٠٤ . ٣٣٥ .

(٢) أنظر المنهج الحركي للسيرة النبوية ج ١ ص ٣٧ ، ٨٧ .

العام. ، لأن. المرحلة الجهرية الأولى قام. بالجهر خلالها رسول الله ﷺ مع المحافظة على سرية أماكن التجمع ، وسرية الحركة للمسلمين ، الأمر الذي يجعل هذه المرحلة وسطا بين المرحلة السرية ومرحلة الجهر العام ، وبذلك خلت الحركة بالدعوة من المفاجأة المدهشة والتغير الكلي دفعة واحدة .

وتبدأ مرحلة جهر الرسول ﷺ بالدعوة بنزول قوله تعالى ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١).

ويقوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢).

والآيات تأمر رسول الله ﷺ بالجهر بالدعوة ، وترك المشركين في غيهم ، وعدم إثارتهم ، مع التركيز على دعوة الأقربين ، وتقوية العلاقات الطيبة مع المؤمنين .

وكانت هذه المرحلة جهرية لرسول الله ﷺ فقط ، حيث أمره الله تعالى بالجهر ، أما أصحاب النبي ﷺ المؤمنون فقد ظلوا على صمتهم ، واستخفائهم ، لأن الأمر بالجهر جاء مقترناً بالدعوة إلى الصبر ، والتحمل ، وتجنب المشركين والبعد عن كل ما يؤدي إلى التصادم معهم .

ولأن حركة الصحابة كانت سرية بقي مكان تجمعهم في دار الأرقم سرّاً ، لم يعلمه كفار مكة إلا يوم أسلم عمر بن الخطاب ، وكانوا يخفون من أسلم حفاظاً عليهم ، ولذلك استمروا يؤدون مناسكهم ، وصلواتهم في الشعاب ، ولم يتجمعوا عند الكعبة إلا بعد إسلام عمر رضي الله عنه .

رغب المسلمون مرة في إسماع القرآن الكريم أهل مكة عسا هم يتأثرون

(١) سورة الحجر ، الآية ٩٤ .

(٢) سورة الشعراء ، من الآية ٢١٤ : ٢١٥ .

(٦٠٣)

ببلاغته ، ومعانيه ، فاجتمعوا لتدبير هذا الأمر .

فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ .

فقال عبد الله بن مسعود : أنا .

قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه .

قال : دعوني فإن الله سيمنعني .

فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، ثم قرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾^(١) ، رافعاً بها صوته ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿

﴾ .

فتأملوا ما سمعوا ، وأخذوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟

ثم قالوا : إنه ليتلوا بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه ، فجعلوا يضربونه فى وجهه ، وأخذ هو يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ .
ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا فى وجهه ، فقالوا له : هذا الذى خشينا عليك .

فقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً .

قالوا : لا ، حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون^(١) .

إن استضعاف المشركين لمن أسلم ، وإيذاء من يظهر منهم كان سبباً فى التدرج بالجهر بالدعوة ، ولذلك اتخذ الجهر مرحلتين .

إن موضوع الدعوة تحدد بدقة منذ اللحظة الأولى ، وهو الدعوة إلى وحدانية

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٣١٤ .

(٦٠٤)

الله ، وقصر العبادة له سبحانه وتعالى ، وكل ما جد في شأن الدعوة كان مع الوسائل ، والأساليب .

ومن خصائص مرحله الجهر الأولى ما يلي :

- أولاً -

ظهور الجماعة المؤمنة

ظهرت الجماعة الإسلامية الأولى في مكة ، وخرجت للعلن بعد أن جهر الرسول ﷺ بالدعوة ، وصارت تمثل كياناً له دينه ، ومرجعيته ، وعلمه ، وذاتيته .
إن العقيدة الصحيحة هي التي طهرتهم ، وصهرتهم نظرياً وعملياً ، وجعلتهم يكونون المجتمع الإيماني علي قاعدة ثابتة ، تحتم العمل والتطبيق مع العلم والفهم
إن التوحيد هو الحقيقة الكبرى في هذا الكون ، فالخالق تعالى واحد ، والكون بكامله يتجه إلي الله عز وجل اتجاهاً واحداً بالعبادة والطاعة ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾^(١) ، وينبغي للإنسان أن يتجه إلي نفس الغاية والهدف ، وإلا حصل التصادم ، والتمزق ، والضياح ، في مسيرة الحياة .
ولذلك نص القرآن الملكي علي قاعدة الوجود المكبري .، وغاية الوجود الإنساني في قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) .
حيث ترسم الآية الإطار العام للعقيدة ، والدائرة الشاملة للحياة البشرية ولعالم الجن ، وجعل كل الأعمال الظاهرة ، و الباطنة عبادة لله تعالى .
ولم يكن صدفة أن يبدأ رسول الله ﷺ بتربية المجموعة الأولى علي تجريد التوحيد ، فرسخ في قلبهم المعرفة الحققة بالله تعالى التي تقتضي الاستسلام التام

(١) سورة آل عمران ، الآية ٨٣ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .

له ، والطاعة المطلقة له ، وعدم التقديم بين يديه ، والرضا ، والتسليم بقضائه وقدره^(١) .

ومرجعية هذه الجماعة هي الوحي الإلهي ، والرسول ﷺ بينهم ، يعلمهم ، ويبين لهم طرق العمل به ، والهداية بمنهجه ...

وقد تعلمت هذه الجماعة من القرآن الكريم الذى نزل عليهم ، وعلمت أن هناك سنناً أرادها الله تعالى لمسيرة الحياة والأحياء ، لا بد من تقبلها ، والتعامل معها ...

ويجب أن يكون واضحاً أن الإسلام هو أعدل قضية ظهرت فى حياة الناس قديماً ، وحديثاً ... ومن المعلوم أن القضايا تحتاج إلى حماة ، يرفعونها ، ويدفعونها ، ويدافعون عنها ، ويردون الغوائل الموجهة إليها .

ولا يصح مطلقاً أن يكون لدعوات الباطل أنصار يتباهون بها ، ويتحمسون لها فى الوقت الذى نرى دعاة الحق ضعافاً متخاذلين .

إن الإسلام ينتصر بقدرة الله ، وبرجاله ، فلقد نصر الله رسوله ﷺ بذلك ... وقال له سبحانه ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) .

وحاجة الإسلام للجماعة المؤمنة ضرورة على الزمن كله لتقوم بالدور الذى قامت به مع رسول الله ﷺ .

(١) منهج النبى ﷺ فى تربية أصحابه ص ٣٢ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٦٢ .

- ثانياً -**الصبر وتحمل الابتلاء**

ابتلاء المؤمنين بالأذى ، والاضطهاد سنة إلهية فى الناس ، ليظهر الطيب والخبث ، ولذلك قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ : ما جاء رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى^(١) ، ويقول الله تعالى ﴿ اَلَمْۤ اَحْسِبْ اَلنَّاسُ اَنْ يُتْرَكُوْا اَنْ يَقُوْلُوْا ءَاْمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُوْنَ ۖ وَلَقَدْ فْتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ فَلْيَعْلَمَنَّ اَللّٰهُ الَّذِيْنَ صَدَقُوْا وَلْيَعْلَمَنَّ اَلْكٰذِبِيْنَ ۚ ﴾^(٢) .

وعلى هؤلاء المسلمين ، ومن يأتى بعدهم ضرورة تحمل الابتلاء ، والصبر على الأذى تمييزاً لهم ، وإظهاراً لصلابتهم ، يقول الله تعالى ﴿ مَا كَانَ اَللّٰهُ لِيَذَرَ اَلْمُؤْمِنِيْنَ عَلٰى مَا اُنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّٰى يَمِيْزَ اَلْخَبِيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾^(٣) . ليبين دور الابتلاء فى إظهار صلابة الرجال ، وبروز مزايا المؤمن الصادق ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اَللّٰهُ مَا فِيْ صُدُوْرِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِيْ قُلُوْبِكُمْ ۗ وَاللّٰهُ عَلِيْمٌ بِذٰتِ الصُّدُوْرِ ﴾^(٤) ، وقد فهم المسلمون هذه الحقيقة ، فتحملوا كل أذى وجه إليهم ، واحتسبوا صبرهم لله تعالى ، وقدموا فى هذا المجال دروساً ، وعبراً . وعاش المسلمون الأول مع رسول الله ﷺ ، ومع القرآن الكريم ينزل إليهم راضين بقدر الله معهم صابرين متحملين .

(١) صحيح البخارى . كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٣ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ١ : ٣ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٧٩ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٥٤ .

- ثالثاً -

التغيير يبدأ من الباطن

الإنسان عقل وجسد ، وباطن وظاهر ، وتعاليم الإسلام شاملة لعناصر الإنسان جميعاً ، ولذلك نرى الدعوة قد بدأت بالجزء الهام في الإنسان وهو الباطن أساس التغيير ، يقول الله تعالى ﴿ لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾^(١).

وإذا تغير الباطن تغير الظاهر ، ودائماً تأتي النتائج تبعاً لأسبابها ، وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً .

وأساس التغيير الباطني الالتزام بالعقيدة الصحيحة ، ولذا كان التركيز الأساسي في تربية الجماعة الإسلامية الأولى على تقوية عقيدتهم القائمة على التوحيد الخالص ، لأنها تحصنهم ضد الطغيان ، والفساد ، وتؤملهم في رضوان الله العظيم ، وتعرفهم بأن الدنيا ، لا تساوى عند الله جناح بعوضه ، ولذلك تراهم لا يقصرون همهم على كسبها ... فما عند الله خير ، وأبقى ، ونعيم الآخرة أعظم من متاع الدنيا .

إن العقيدة الصحيحة تنتج عملاً مستقيماً ، وخلقاً حسناً ، ولذلك كان اهتمام رسول الله ﷺ بإخراج الجماعة المسلمة الأولى بباطن طاهر ، وظاهر نظيف .

(١) سورة الرعد ، الآية ١١ .

- رابعاً -

مواصلة العمل للنجاح

يعتمد النجاح في أي مجال علي مقدمات لا بد منها ، ومن هذه المقدمات الاستعداد للعمل ، وإعداد العدة المكافئة له حتي لا يضيع المسلم في بيداء الحياة وصخبها ، وهذا الإعداد متنوع تبعاً للعمل المطلوب ، والغاية المقصودة ، وبعد تمام الإعداد يكون العمل ، ولذلك يقول الله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

إن سنة النصر في الظهور لا تتخلف فمتى استوفت الشروط ، وأتمت ، الإعداد ، وتحقق العمل ، ووجدت الطاعة ، وحدثت الاستقامة على منهج الله ، كان الفوز والفلاح . يقول الله تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ (٢) .

ويقول جل ذكره ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣) ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ (٤) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٥) .

وجاءت عوامل النصر جلية واضحة في قوله تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .

(٢) سورة محمد ، الآية ٧ .

(٣) سورة الصافات ، من الآية ١٧١ : ١٧٣ .

ءَامِنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٠٩﴾
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِسَالُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦١٠﴾ (١).

ولكن إذا تخلفت هذه الأسباب أو أحدها تخلف النصر بطبيعة الحال ، وربما
حلت الهزيمة ، لأن سنن الله تعالى لا تحابي ، ولا تجامل أحداً من الخلق ولا
تجارى أهواء البشر ، وإنما تسائر أعمالهم ، وتكافئها بما يستحقون .
إن الذين يرثون الكتاب وراثته بالاسم ، أو بشهادة الميلاد ، ولا يترجمون ما
فيه من الأوامر والنواهي عملاً سلوكياً ثم يقولون : سيغفر لنا !... لن يستجيب الله
عز وجل لهم ، حتي يعودوا إلي العمل بما أمرهم الله به في كتابه المنزل وسنته
الثابتة.

ومن هنا

وجدنا الجماعة الإسلامية تبذل جهدها في العمل وفق تعليمات الرسول ﷺ
لهم ، لقد أدركوا منذ اللحظة الأولى لإيمانهم أن الفوز لن يتأتى إلا إذا استعدوا ،
وأعدوا أنفسهم لمحبيته ... وحينئذ سيأتيهم نصر الله تعالى ... وقد أتاهم يوم أن
استحقوه رضى الله عنهم أجمعين .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٤٥ : ٤٦ .

ـ خامساً ـ

دعوة الأقرب فالأقرب

بعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالجهر بالدعوة ، وأمره أن ينذر عشيرته القريبة منه ، على أن يبدأ بالأقرب إليه ، أخذ ﷺ يعد للأمر عدته ، ورأى أن أفضل وسيلة لذلك هي المواجهة المباشرة سواء بصورة فردية ، أو جماعية ، أو عامة .

يروى ابن الأثير أن رسول الله ﷺ قال لعلی : يا على إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، فضقت ذرعاً ، وعلمت أني متي أبادرهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره^(١) .

ولما جاءته عماته يعدنه حين مرضه قال لهن : ما اشتكيت شيئاً ، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين .

فقلن له : فادعهم ولا تدع أبا لهاب فيهم ، فإنه غير مجيبك .

فنراه ﷺ يخبر علياً وعماته بدعوته بصورة فردية ... ويبدأ بهم .

ومرة يجمع أعمامه ، ونفراً من بنى المطلب بن عبد مناف ، ويدعوهم إلي طعام ، ويبلغهم دعوة الله تعالى .

جاء في الكامل لابن الأثير أنه لما أنزل الله على رسوله : ﴿ وَأَنْذِرْ

عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ اشتد ذلك عليه ﷺ وضاق به ذرعاً ، فجلس في بيته

كالمريض ، فأتته عماته يعدنه ، فقال : ما اشتكيت شيئاً ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين .

فقلن له : فادعهم ولا تدع أبا لهاب فيهم فإنه غير مجيبك ، فدعاهم ﷺ .

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٦١ .

فحضروا! ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف. ، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً .

فبادره أبو لهب وقال : هؤلاء هم عمومك ، وبنو عمك ، فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك في العرب قاطبة طاقة ، وأن أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك ، وإن أقمته على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يهب لك بطون قريش ، وتمدهم العرب ، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به . فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلي الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها الجنة أبداً ، أو النار أبداً .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنني أسرعهم إلي ما تحب ، فامض لما أمرت به ، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة ! خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم . فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا^(١) .

فقالت له أخته صفية . عمة رسول الله ﷺ رضى الله تعالى عنها : أى أخى ، أحسن بك خذلان ابن أخيك ، فو الله ما زال الناس يخبرون أنه يخرج من بني عبد المطلب نبي ، فهو هو .

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٦١ .

قال أبو لهب : هذا والله الباطل ، والأمانى وكلام النساء في الحجال ، إذا قامت بطون قريش ، وقامت معها العرب ، فما قوتنا بهم ، فو الله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس .

فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا^(١) .

وهكذا دعا النبي ﷺ عشيرته الأقربين في جو أسرى خالص ، قائم علي المودة ، وروح القرابة ... ودار نقاش في إطار هذا التجمع .
كما وجه لهم دعوة عامة بأن نادى عليهم جميعاً من فوق الصفا ، فلما تجمعوا دعاهم إلي الله تعالى .

يروى- المؤرخون- أنه ﷺ لما نزل- عليه قوله ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ ﴾ ﴿٢٧﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادى : يا بني فهر ، يا بني عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟

فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ .

قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً .

قال : إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

فقال- أبو لهب:- تباً لك سائر اليوم. ألهذا جمعتمنا ؟.. فنزل. قوله تعالى:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾^{(٢)(٣)} .

كما أن عدداً من أصحاب النبي ﷺ من الله عليهم بالإسلام ، وهدهم إلى الحق بإحدى طرق الهداية ، فمنهم من أسلم بعدما رأى من رسول الله ﷺ معجزة

(١) الدعوة الإسلامية في عهدهم المكي ص ٣١٥ .

(٢) سورة المسد ، من الآية ١ : ٢ .

(٣) فتح الباري ج ١ ص ١١٨ - ١٢٠ .

بهرته ، أو موقفاً حركه ، أو دعوة من الرسول ﷺ استجيبت ، كما حدث مع عبد الله بن مسعود ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وعمر بن الخطاب ، وأم أبي بكر ﷺ .

يقول عبد الله بن مسعود : كنت غلاماً يافعاً ، أربي غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة ، فأتى على رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ﷺ وقد فرا من المشركين .
فقالا : أعندك يا غلام لبن تسقيننا ؟
قلت : إني مؤتمن ، ولست بساقيكما .

فقال رسول الله ﷺ : هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد ؟
قلت : نعم ! فأنتيتهما بها ، فاعتقلها أبو بكر ، وأخذ رسول الله ﷺ الضرع ، ودعا فحفل الضرع ، وأتاه أبو بكر بصخرة متقعرة ، فحلب فيها ، ثم شرب هو ، وأبو بكر ، ثم سقياني ، ثم قال ﷺ للضرع : أقلص ... فقلص .
فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ فقلت : علمنى من هذا. القول الطيب يعني القرآن الكريم .

فقال له ﷺ : " إنك غلام معلم " .

يقول ابن مسعود : فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد^(١) .
وأما خالد بن سعيد بن العاص فلقد رأى فى المنام أنه وقف به على شفير النار فذكر من سعتها ما الله أعلم ، ورأى كأن آت أتاه ، يدفعه فيها ، ورأى رسول آخذاً بحقوقه لا يقع ، ففزع من نومه ، فقال : أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق ، فلقى أبا بكر ، وقص عليه ما رأى ، فقال له : أريد بك خير ... هذا رسول الله ﷺ فاتبعه ، فإنك ستتبعه وتدخل معه في الإسلام ، والإسلام يحجزك أن تدخل فيها ، وأبوك واقع فيها فلقى رسول الله ﷺ وهو بأجباد ، فقال يا رسول الله ، يا محمد إلي ما تدعو ؟

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٢ .

قال: .: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ،
سيدرى من عبده ممن لا يعبد .

قال خالد: .: فإننى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله . فسر
رسول الله ﷺ بإسلامه ، وتغيب خالد ، وعلم أبوه بإسلامه ، فأرسل فى طلبه
فأتى به ، فأنبه وضربه بمقرعة فى يده حتى كسرهما على رأسه .
وقال له : والله لأمنعك القوت .

فقال خالد : إن منعنى فإن الله يرزقنى ما أعيش به .

وانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يكرمه ، ويكون معه^(١) .

وهكذا تكاثر المسلمون ، وأخذ عددهم يزداد يوماً بعد يوم لدرجة أن أبا
بكر الصديق رضي الله عنه أخذ يلح على رسول الله ﷺ بإظهار الإسلام ، وتوسيع دائرة
التحرك به ، وإعداد المؤمنين لتحمل ما يصيبهم من الضرر والأذى .
ورؤية أبى بكر فى المجاهرة والمواجهة لها ما يبررها ، فلقد أحس من
كفار قريش قلقاً من زيادة عدد المسلمين دفعهم لتشديد الأذى ، والتعننت مع كل
من يسلم ... وهذا يحتاج لإبراز القوة ، وإظهار الصلابة ، والتحمل .
ومن المعلوم أن الطغاة يضاعفون عدوانهم كلما رأوا من خصومهم خنوعاً
، واستسلاماً ، فأراد أبو بكر رضي الله عنه أن يبرز لهم من نفسه قوة ، لمنعهم من العدوان
وتخويفهم من صلابة المسلمين .

وفى هذه الحالات تبرز أهمية المواجهة لأنها تحد من غلواء المعتدى ،
وتظهر رجالاً ، يتحمسون للحق ، ويدخلون فى الإسلام فينتصر الإسلام بهم .
إن المسلمين الأول لم يكونوا على مستوى واحد من المواجهة ، فمنهم من
كان تحميه قبيلته ، ومنهم المتميز بالجرأة ، والصلابة ، وقوة الشكيمة ، والقدرة
على المواجهة ... ولذلك ألح أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فى الظهور .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٢ .

وأراد الله للمسلمين قوة ، فجعل اشتداد أذى قريش للمسلمين سبباً في إسلام حمزة عم رسول الله ، وعمر بن الخطاب . وهما من فتيان مكة ، اللذين اشتهرا بالشجاعة ، و البأس ، وكان القرشيون يتباهون بهما لقوتهما .

إسلام حمزة :

يسوق ابن إسحاق قصة إسلام حمزة فيقول: إن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند المصفا ، فأذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من المعيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ ، ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك ، ثم انصرف أبو جهل عنه فعمد إلي ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب ﷺ أن أقبل متوشحاً قوسه ، راجعاً من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ، ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، ويتحدث مع القرشيين في ناديم ، و كان أعز فتى في قريش ، وأشدهم شكيمة ، فلما مر بالمولاة ، قالت له : يا أبا عمار ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام ، وجده ها هنا جالساً فأذاه ، وسبه ، وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد ﷺ .

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله كرامته ، فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد ، متوعداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس فضربه بها ، فشجه شجة منكرة ، ثم قال : انتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرد ذلك على إن استطعت .

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : " دعوا أبا عمار ، فإنني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً ، واستمر حمزة ﷺ على إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه ^(١) .

وزاد غير ابن إسحاق أن حمزة لما أسلم كان منفعلاً ، ومنافعاً ، وأدركه الندم ، على تسرعه .

يقول حمزة ؓ : أدركني الندم على فراق دين آبائي ، وقومي ، وبت من الشك في أمر عظيم ، لا أكتحل بنوم ، ثم أتيت الكعبة ، وتضرعت إلى الله سبحانه أن يشرح صدرى للحق ، ويذهب عني الريب ، فلما أتممت دعائي إنزاح عني الباطل ، وامتأ قلبى يقيناً ، فغدوت إلي رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من أمري ، فدعا لى بأن يثبتني الله ^(٢) .

إسلام عمر :

وأسلم عمر بن الخطاب ؓ أيضاً في وسط تشدده واضطهاده للمسلمين .
يروى ابن إسحاق بسنده قصة إسلام عمر فيقول : وكان إسلام عمر فيما بلغني أن- أخته فاطمة بنت الخطاب- ، زوجة سعيد بن زيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام ، رجل من قومه ، من بنى عدى بن كعب قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفى بإسلامه فرقاً من قومه ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوشحاً سفيه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه ، قد ذكروا له ، أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ، ما بين رجال ، ونساء ، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق ، وعلى بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين ؓ ، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة .

(١) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ١ ص ٢٩١ .

(٢) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ١ ص ٢٩٢ .

فلقيه نعيم بن عبد الله ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟
فقال : أريد محمداً هذا الصابىء ، الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ،
وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد
مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك
فتقيم أمرهم ؟

قال : وأى أهل بيتى ؟

قال. :.. خنتك ولبن عمك سعيد بن زيد بن عمرو. ، وأختك فاطمة بنت
الخطاب ، فقد و الله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .
فرجع عمر عامداً إلي أخته وخنته ، وعندهما خباب بن الأرت ، ومعه
صحيفة فيها ﴿ طه ﴾ يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حس عمر ، تغيب خباب فى
مخدع لهم ، فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها
تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما .
فلما دخل قال : ما هذه الهينة التى سمعت ؟
قالا له : ما سمعت شيئاً .

قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بخنته
سعيد ابن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضرىها
فشجها .

فلما فعل ذلك قالت له أخته وخنته : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله
فاصنع ما بدا لك .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى ، وراجع
نفسه ، وقال لأخته : أعطنى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون أنفا ، أنظر
ما هذا الذى جاء به محمد ؟! ، وكان عمر كاتباً .

فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها .

قال : لا تخافى ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها .

فلما قال ذلك ، طمعت فى إسلامه ، فقالت له : يا أخى ، إنك نجس ، على شركك ، . ولأنه لا . يمسها إلا . المظاهر . . فقام . عمر فاغتسل . . فأعطته الصحيفة ، وفيها ﴿ طه ﴾ فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا

الكلام وأكرمه !

فلما سمع ذلك خباب خرج ، وقال : يا عمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته ﷺ أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فإله يا عمر .

فقال له عند ذلك عمر : فدلنى يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم .

فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فضرب عليهم الباب فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله ﷺ : ائذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ حجزته ، أو بجمع رداءه ، ثم جبذه به جبذه شديدة . وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال عمر : يا رسول الله ، جئت لك لأؤمن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند

الله ، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم^(١) .

وبإسلام حمزة رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة ، لأنهما لم يرتضيا لدينهما هذا الاستتار ما دام هو الحق .

وقد سأل عمر عن أكثر الناس قولاً ، وأفشاهم للحديث ، وعلم أنه **جميل بن معمر الجمحي** فأتى إليه ، وأخبره بأنه أسلم ، فصاح جميل بأعلى صوته : إن ابن الخطاب صبا .

وذهب إلى أبي جهل وأخبره بإسلامه .

وأراد كفار مكة قتل عمر فأجاره العاص بن وائل السهمي .

يروى البخاري بسنده أنه بينما كان عمر بن الخطاب في الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمي . أبو عمرو ، وعليه حلة سبرة ، وقميص مكفوف بحريز ، وهو من بنى سهم وهم حلفاؤنا في الجاهلية ، فقال له : **ما لك يا عمر ؟** قال عمر : **زعم قومك أنهم سيقتلونى إن أسلمت .**

قال : **لا سبيل إليك ، وبعد أن قالها أمنت .**

فخرج العاص ، فلقى الناس قد سال بهم الوادى ، فقال : **أين تريدون ؟**

فقالوا : **هذا ابن الخطاب الذى قد صبا .**

قال : **لا سبيل ، فكر الناس^(٢) .**

وكان إسلام عمر بن الخطاب بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب بثلاثة

أيام ، وبذلك بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة إلى الله تعالى ...

لقد تم الانتقال إلى هذه المرحلة فى وقت كان كفار مكة يخططون للقضاء

على الإسلام والمسلمين بعدما شعروا بخطورة الإسلام على وضعيتهم فى مكة

(١) سيرة النبى ﷺ لابن هشام ج ١ ص ٣٤٣ . ٣٤٦ .

(٢) المنهج الحركى ج ١ ص ٨١ .

(٦٢٠)

• هل كان يتصور كفار مكة أن ينقلب حمزة عليهم بهذه الصورة المفاجئة

!!؟

• وهل توقعوا أن يتبعه عمر ، ويعلن إسلامه بعده بثلاثة أيام فقط ؟!

• وهل ظنوا مرة أن يجير العاص بن وائل عمر وينقذه منهم ، وقد كادوا أن

يفتكوا به !!؟

• وهل دار بخلداهم أسرار هذه المواقف المفاجئة ، وفي هذا الوقت بالذات

!!؟

لم يفكروا فى شىء من ذلك ، ولم يتوقعوه ، لأنهم لم يتصوروا القدر الإلهى ،
ونصره لعباده المؤمنين .

إن عقول البشر جميعاً تعجز عن تصور أى شىء من هذه القضايا ، ولا
تقدر على اكتشاف شىء من أسرارها ... كل ما تصوره أهل مكة ، عن محمد
ﷺ ودعوته وعن المؤمنين به عكس ما حدث ، لأن المواجهة وقتها تصاعدت
وتضخمت ، والتخطيط لقتل محمد ومن معه أمر موجود .

لكن إرادة الله غالبية ، وقدرته لا حدود لها ، ففي وسط الضعف تبرز قوة ،
ومن ثنايا الجبروت والطغيان يأتى العدل والحق ، و الله غالب على أمره ، ولكن
أكثر الناس لا يعلمون .

المبحث السادس

مرحلة الجهر العام بالدعوة

أكرم الله تعالى المسلمين في مكة بإسلام حمزة بن عبد المطلب ﷺ وعمر بن الخطاب ﷺ ، وأعز الله بهما الإسلام ، وقوى المسلمون يقول صهيب بن سنان ﷺ : لما أسلم عمر ظهر الإسلام ، ودعى إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقاً ، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا ممن غلظ علينا ورددنا عليه بعض ما يأتي به^(١) .

ويقول عبد الله بن مسعود ﷺ : مازلنا أعزة منذ أن أسلم عمر^(٢) . يروى- ابن إسحاق- أنه لما أسلم عمر نزل- جبريل وقال- : يا محمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر ، وهو الفاروق ، لأنه كان سبباً في التفريق بين عهدين .

لما أسلم عمر قال لرسول الله ﷺ : ألسنا على الحق ، وهم على الباطل ؟ قال ﷺ : بلى .

قال عمر : ففيم الاستخفاء^(٣) !؟

وأصر عمر ﷺ على أن يخرج المسلمون من دار الأرقم جهاراً ، معلنين إسلامهم ، فخرجوا في صفين في أول الصف الأول عمر ، وفي أول الصف الثاني حمزة ، وهم يهللون ، ويكبرون ، ولهم دوى كدوى الرحي ، حتى دخلوا المسجد الحرام بهذه الصورة الجهرية الجماعية ، ولذلك قال ﷺ : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه^(٤) .

(١) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) مناقب عمر لابن الجوزي ص ١٨ .

(٤) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٦ ص ٢٥٢ .

والفرق واضح بين إظهار أبى بكر للإسلام وبين إظهاره بعد إسلام عمر ،
لأن إظهار أبا بكر كان فردياً ، أما بعد إسلام عمر فكان إظهاراً جماعياً قام به
المسلمون ، وخرجوا من دار الأرقم يهللون ، ويكبرون .
وهكذا ...

بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة ، يصدع بها رسول الله ﷺ وصحابته
رضوان الله عليهم ، وينادون بها قولاً ، وعملاً ، فى بيوتهم ، وفى كل مكان ، وعند
البيت .

لقد حاول أبو بكر ﷺ إظهار الدعوة بالبيت قبل ذلك فأوذى إيذاء شديداً ،
فلما أسلم حمزة وعمر حقق المسلمون ما تمناه أبو بكر قبل ذلك .
وشعر كفار مكة بخطورة الإسلام لما رأوا من قوة أتباعه ، وكثرة معتنقيه ،
وشدة إخلاصهم لما يؤمنون به ، وحينئذ شددوا فى الاضطهاد ، والأذى .

والفرق بين الجهر الأول ، والجهر الثانى أن الجهر الأول كان خاصاً
بالدعوة يقوم بها رسول الله ﷺ علانية فى إطار الأقربين ، بلا تحد ، أو مواجهة .
بينما الجهر الثانى صار جهداً عاماً يقوم به الرسول ﷺ وأصحابه القادرون
على التبليغ ، فى مكة ، وفى غيرها .

كما أن السرية ظلت ملازمة لتحرك المسلمين فى المرحلة الأولى وهم
يتعلمون الإسلام من رسول الله ﷺ فى دار الأرقم ، وفى الشعب ، أو فى الأماكن
النائية ، أما فى المرحلة الثانية فقد أخذ المسلمون يظهرون مناسكهم فى الأماكن
العامة ، عند الكعبة ، وفى أماكن العمل ، وصاروا يجتهدون فى إبراز الإسلام فى
عملهم ، ونسكهم ، ونشاطهم كله .

المبحث السابع

خصائص الحركة بالدعوة

خلال مرحلة الجهر العام

أدت مرحلة الجهر العام بالدعوة إلى ظهور جديد للحركة بالدعوة ، منها القديم ، وفيها الجديد .

فلقد ثبت المضمون الفكرى للدعوة ، وتغيرت بقية الجوانب ...
فلقد تنوعت الوسائل ،. وأصبحت شاملة لكل وسيلة ممكنة ،. وتغيرت الأساليب ، وصارت ملائمة للمدعوين وقد تعددت مذاهبهم ، واختلفت أماكنهم وكثرت لهجاتهم .

اضطر رسول الله ﷺ والمسلمون معه إلى مواجهة الاضطهاد الذى كان يقع عليهم من أهل مكة بما أمكنهم فى إطار ما هم فيه من قلة ، وضعف .
وقد استفادت الدعوة خلال هذه المرحلة بطرق عديدة للوصول للناس ، وتبليغ الإسلام . وأهمها :

- أولاً -

الاتصال بصورة المختلفة

يرى علماء الاتصال فى العصر الحديث أن صور الاتصال التى يتم بها التوجيه والدعوة تنحصر فى ثلاث صور رئيسية هى :

أ . الاتصال الشخصى :

وهو الذى يحدث بين فرد وفرد ، أو بين فرد وعدد قليل ، وهذا الاتصال يتم بصورة تلقائية ، لما بين أفراد هذا الاتصال من معرفة مسبقة ، وتلاقى عادى ، كالرجل وبنيه ، والإنسان وجاره ، والعامل وزملائه ، والطالب وإخوانه ، وهكذا ويتميز هذا اللون بأنه اتصال هادىء ، يقوم على الثقة ، وتبادى الرأى فى وضوح ، وبساطة ، ورد الفعل واضح عند الطرفين ، لأنه يتم مباشرة بين الأطراف من غير واسطة ، وبلا سابق إعداد ، وفى موضوعات شتى .

والدعاة إلى الله تعالى يستفيدون بهذا الاتصال ، ويجعلونه طريقاً لدعوتهم التى يبرزونها لمعاشريهم بالقول ، أو بالعمل ، أو بالتأمل والتفكير المشترك ...

وهذا الاتصال يفيد فى نطاق المجتمع الصغير ، والبدائى ، كالأُسرة ، ورفاق المسجد ، والقرية ، وجماعة العمل ، وفريق اللعب ، وهكذا ...

وقد استفاد منه المسلمون فى الدعوة خلال المراحل السابقة

ب . الاتصال الجمعى :

وهو الاتصال الذى يتم بين القائم به وبين جماعة من الناس ، بعد إعداد وتنظيم يشمل المكان ، والزمان ، والموضوع .

ويتميز هذا النوع بأنه يتم مواجهة ، وبطريقة مباشرة . لأن الإعداد والتنظيم يجمع أفراداً تقاربت ثقافتهم ، واهتماماتهم ، ونشاطهم العام ، وكل هذا يساعد على وضوح الرؤية ، ومعرفة مدى استجابة الجماعة لتوجيهات القائم بالاتصال ... ومن أمثلة هذا الاتصال تجمع الناس لخطبة الجمعة ، أو لسماع درس ، أو لمناقشة قضية مثارة ، أو لحل مشكلة تهم المجتمعين .

ج . الاتصال الجماهيرى :

وهو الاتصال الذى يتم بين جمهور عريض غير محدد ، وبطريقة غير مباشرة . ويتميز هذا الاتصال بسعته ، وسرعة انتشاره . وبخطبه للحواجز

المادية ، ووصوله لكل الناس فى مختلف أحوالهم ، وأماكنهم ، وأعمالهم ، ومن صور هذا الاتصال ، النشرات التعليمية ، والكتب المؤلفة ، وتوجيهات الصحف وبرامج الإذاعة المسموعة والمرئية ، وأشرطة التسجيل ، وهكذا ... ومع تميز هذا الاتصال بالسعة والتنوع فإنه يحتاج لبذل مالى ، وعلمى فى إعداد رسائله . ومعرفة مدى استجابة الناس لما يطلب منهم ، والوقوف المباشر على تساؤلاتهم واستفساراتهم ، والتأكد من وصول الأفكار إليهم على الصورة المطلوبة .

تلك هي صور الاتصال الممكنة ، التى تحدث عنها علماء الإعلام فى العصر الحديث . وقد أحاطوها بهالة تفيد أنها من مستحدثات العصر ، ومخترعات الحضارة الحديثة ، برغم ذلك نقول .

وبكل وضوح إن رسول الله ﷺ استخدم هذه الصور الثلاث وهو يدعو الناس خلال مرحلة الجهر العام بالدعوة ...

فبالنسبة للصورة الأولى :

نرى أنه ﷺ استخدم وسيلة الاتصال الشخصي مع أهل بيته ، وأقربائه ، وأصحابه الذين أسلموا ، حيث كان يلتقى بهم بصورة تلقائية ، عدداً من المرات ، فى اليوم الواحد فى المسجد أو فى غيره من الأماكن ، وكان ﷺ يسألهم عن أحوالهم ، ويجيب لهم عن ما يعن لهم ، ويؤمهم فى الصلاة ، ويبلغهم ما نزل من وحى ، ويقرأ عليهم القرآن الكريم ، ويحثهم على الصبر والتحمل ، ويشد من أزرهم .

وكان ﷺ يقابل غير المسلمين المعروفين له ، يدعوهم إلى الله تعالى . وكان ﷺ يتبع الناس فى مجالسهم ، ومحافلهم ، وفى المواسم ، والأسواق ليدعوهم إلى الله تعالى بالحسنى ، وبالخلق الكريم .

وكان ﷺ يشرك من يدعوه فى تناول قضية الدعوة من أجل إقناعه بالحسنى ،. وذلك أمر مهم فى حركة الدعوة ،. لأن المدعوة ليست تسلطاً واستعلاءً ،. وليست احتقاراً. لعقل الناس ،. وليست استهانة بقدراتهم على التصور ، والحكم السليم .

أنظر إليه ﷺ وهو يدعو الحصين والد عمران ، حيث تراه يستدرجه إلى الحق ، ويضعه أمام اعتراف صريح بالإيمان .

أخرج ابن خزيمة عن عمران بن خالد بن طليق بن حصين قال : حدثنى أبى عن أبيه عن جده أن قريشاً جاءت إلى الحصين . وكانت تعظمه .

فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاءوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبى ﷺ .

فقال النبى ﷺ : أوسعوا للشيخ ، وعمران وأصحابه متوافرون .

فقال حصين : ما هذا الذى بلغنا عنك : إنك تشتم آلهتنا ، وتذكرهم بسوء ، وقد كان أبوك حصينة وخيراً ؟

فقال ﷺ : يا حصين ! إن أبى وأبوك فى النار ، يا حصين ! كم تعبد من إله ؟

قال : سبعة فى الأرض وواحداً فى السماء .

قال ﷺ : فإذا أصابك الضر من تدعوا ؟

قال : الذى فى السماء .

قال ﷺ : فإذا هلك المال من تدعو ؟

قال : الذى فى السماء .

قال ﷺ : فيستجيب لك وحده ، وتشركه معهم ، أرضيته فى الشكر ، أم تخاف أن يغلب عليك ؟

قال : ولا واحدة من هاتين ، وقد علمت أنى لم أكلم مثله .

قال ﷺ : يا حصين ! أسلم تسلم .

قال : إن لى قوماً وعشيرة فماذا أقول ؟

قال ﷺ : قل : اللهم أستهديك لأرشد امرى ، وزدنى علماً ينفعنى .

فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم .

فلما أراد حصين أن يخرج قال ﷺ لأصحابه : قوموا فشيّعوه إلى منزله

فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا : صبأ وتفرقوا عنه^(١) .

ونراه ﷺ يعيش مع واقع حصين ، ويسأله إلى أن تحقق لدعوته ما يريد .

إن الدعوة فى حد ذاتها تقدير للإنسان ، وتوجيه أمين للفكر والعقل ، وإيقاظ للفطرة ، وللإنسانية السليمة ، وبذلك يتم الإيمان بالافتتاح والفهم ، ويرتبط المسلم بدينه حباً ، وولاءً ، وطاعة .

وبالنسبة لصورة الاتصال الثانية :

وهى الاتصال الجمعى فقد استفاد بها ﷺ ، وكان ﷺ يتخير الجماعة

القليلة العدد ، المتفقة اتجاهها ، الموحدة اهتماماً ، ويعد لهم اجتماعاً منظماً ، فى جو من الود والمحبة لما بين الرسول ﷺ وبين هذا الجمع من صلات القربى ، والمعاشرة ، والقومية وغير ذلك ... كما حدث بعد أن أمر بالجهر بالدعوة فإنه ﷺ أمر علياً ابن عمه ، بأن يعد طعاماً ، وشراباً لأعمامه ، وعماته ، وقد تكرر هذا التجمع بين الرسول ﷺ وبين أعمامه ، وعماته .

ومن خلال هذا الاتصال اتضحت مواقف كل طرف ، وظهر خط كل فرد فقد أعلن أبو لهب عصيانه ، وتصديه للدعوة ، وأعلن أبو طالب وقوفه مع الرسول ﷺ وحمايته له غير أنه سيستمر على دين أبيه .

ومن هذا القبيل أن رسول الله ﷺ كان يعرض الإسلام على من يعرفهم ولو كانوا أعداء ، فلقد اجتمع عند ظهر الكعبة مع صناديد مكة ، وهم عتبة ،

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٥٥ .

وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، ورجل من بنى عبد الدار ، وأبو
البحترى أخو بنى الأسد ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، وزمعة بن
السود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن الله بن أبى أمية
، وأميه بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيه ، ومنبه ابنا الحاج السهميان .

والاتصال الجمعى :

وسيلة تحتاج إلى الإعداد الجيد ، لأن الرسول أو الداعية يعرف مقدماً
الهدف الذى من أجله كان تنظيم هذا الاتصال ، ولذلك لزم إعداد الموضوع ،
وعرضه بطريقة مقنعة ، ترضي المستمعين .

وعلى منظم هذا الاتصال أن يتوقع المعارضات. العديدة لموضوعه ،
ليستعد بالشرح ، والتفصيل ، وتنفيذ المزاعم التى قد تظهر فى اجتماعه ، أنظر
إلى رسول الله ﷺ وهو يدعو أبا جهل ومعه المغيرة بن شعبة ...

يقول المغيرة : إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ أنى كنت أمشى أنا
وأبو جهل بن هشام فى بعض أزقة مكة ، إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله
ﷺ لأبى جهل : يا أبا الحكم ، هلم إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله .

فقال أبو جهل : يا محمد ، هل أنت منته عن سب آلهمتنا ؟ ...

هل تريد إلا أن تشهد أنك قد بلغت ؟ ...

فنحن نشهد قد بلغت ، فوالله لو أنى أعلم أن ما تقول حق لا تتبعك .

فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل على أبى جهل فقال : والله إنى لأعلم أن ما
يقول حق ولكن يمنعنى شىء ، إن بنى قصى قالوا : فينا الحجابة ، فقلنا : نعم
، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم ، ثم اطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب
قالوا : منا نبى ، والله لا أفعل^(١) .

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٦٥ .

وبالنسبة للصورة الثالثة :

وهي التي تعرف بالاتصال الجماهيري ، فقد استعملها النبي ﷺ ، ورجا من ورائها أن يصل الإسلام إلى الجماهير الغفيرة من الناس .
لما جهر الرسول ﷺ بالدعوة ، ورغب في دعوة أهل مكة جميعاً واستعان بهذه الوسيلة الجماهيرية ، فصعد على الصفا ، وأخذ ينادي في الناس فعم ، وخص ، ونادى بطون قريش بطناً بطناً ، فجعل الواحد منهم إذا لم يجد وقتاً ، أرسل من يعرف له الخبر ... وهكذا تواجدت مكة كلها عند الصفا .

وخرج ﷺ عند المروة بعد نزول قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ثم قال : يا آل فهر ، فجاءته قريش .

فقال أبو لهب بن عبد المطلب : هذه فهر عندك ... فقل .
فقال ﷺ : يا آل غالب ... يا آل لؤى ... يا آل كعب ... يا آل مرة ...
يا آل كلاب ... يا آل قصي ... يا آل عبد مناف .

ثم قال رسول الله ﷺ : إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وأنتم الأقربون من قريش ، وإنني لا أملك لكم من الله حظاً ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : (لا إله إلا الله) فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم العرب وتذل لكم بها العجم ، فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا دعوتنا ؟ فأنزل الله ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (١) .

ووصلت الدعوة إلى كل أهل مكة .. ولذلك عدت هذه الطريقة اتصالاً جماهيرياً وكان ﷺ يوجه أصحابه إلى هذه الطريقة ويقول لهم : ليبلغ الشاهد منكم

الغائب

ـ ثانياً ـ

الدعوة بالحوار والمفاوضة

دعا الرسول ﷺ بهذه الوسيلة أملاً في إسلام من يفاوضهم ، ويحاورهم . وهذه الوسيلة تختلف عن الاتصال الجمعي في أنها قد تكون تلقائية ، وقد تكون بإعداد وتوجيه من المدعويين لا من رسول الله ﷺ ، وحينئذ يأتي الرسول أو الداعية للمفاوضة ، وهو لا يعرف موضوعها وكل ما في ذهنه ، وكل ما يأمله هو عرض الدعوة بتعاليمها ، وحقائقها ، أملاً في إيمان الناس بها . وكان رسول الله ﷺ يؤمل في المفاوضات . ويرجو أن تكون سبباً في إسلام أهل مكة ...

يروى ابن كثير صوراً لهذه المفاوضات .

منها أن أشرف مكة اجتمعوا عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه ، وخاصّموه حتى تعذروا فيه . فبعثوا إليه .

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً ، وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره شيئاً ، وكان حريصاً عليهم ، يحب رشدهم ، ويعز عليه عنّتهم ، حتى جلس إليهم . فقالوا : محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفّيت الأحلام ، وعبت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، وما بقي من قبيح إلا وقد جنته فيما بيننا وبينك^(١) .

ثم عرضوا. أن يحققوا له المال . أو الملك . أو المشرف . أو الزوجة الجميلة ، إن كان هو ما يعمل له ... فأجابهم ﷺ : ما بى ما تقولون ، ما جنتكم

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٥٠ .

بما جئتمكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل على كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .
فقالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس احد من الناس- أضيق بلاداً .- ولا أقل مالاً .- ولا أشد عيشاً منا^(١) ، وحاجتنا شديدة إلى المال ، والماء ، والعطاء ، وأخذوا يطلبون أموراً حسية لتأتيهم على وجه خارق للعادة ...

فمرة يقولون :

سل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به .- فليسير عنا هزمه الجبال- التي قد ضيقت علينا .- وليبسط لنا بلادنا .- وليبعث موتانا .- وليكن فيما يبعث لنا قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخاً صدوقاً ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ؟
فإن فعلت ما سألناك ، وصدقوك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولا كما تقول^(٢) .

ومرة ثانية يقولون :

سل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لنا جناناً .- وكنوزاً .- وقصوراً- من ذهب .- وفضة .- ويغنيك عما نراك تبتغي ، فإننا نراك تقوم في الأسواق ، وتلتمس المعاش ، كما نلتمسه ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم^(٣) .

ومرة ثالثة يقولون :

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٥٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٥١ .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٥١ .

أسقط السماء كسقا على رؤسنا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل .

وأستمر أهل مكة فى هذه العروض لا يقصدون من ورائها سوى السخرية ، وإضاعة الوقت .

والرسول يقول لهم فى كل مرة :

ما بهذا. جئت .، إنما جئتك من عند الله بما بعثنى به .، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم^(١).

ورغم مقصد أهل مكة من هذا الحوار ، إلا أنه كان يعتمد على أسلوب بياني له فوائده ...

فهم يعرضون- قضيتهم .- ومزا-عمهم .- مع شبههم .- ووجهة نظرهم ، والرسول ﷺ يسمع ، ويرد عليهم فى حلم ، ورفق بما يرد طلبهم ، ويحدد لهم ما يدعوهم إليه .

إن وسيلة المفاوضة تتميز بإظهار مراد كل طرف منها .، ونظرته إلى الطرف الثانى ، ومنهجه فى العرض والرد ...

ولذلك اتخذها الرسول ﷺ وسيلة لعرض الإسلام .

ويبدو أن هذه المفاوضات تعددت مع النبى ﷺ ، وقام بها غير واحد من القرشيين ، وكلها تتجه وجهة معينة .

فقرش تبرز ما حل بها بسبب الدعوة ، وتحاول صرف النبى ﷺ عنها بإغرائه بكافة ألوان الإغراء ، مع تهديده ، وتخويفه ، إن لم يتفق معهم . والنبى ﷺ يرد بالوحي المنزل عليه ، ويقرأ عليهم من القرآن ما يناسب

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٥٠ ، ٥١ .

المقام ، ليبين لهم حقيقة الدين الإلهي ، فى أنه مترل من الله ، وحقيقة القرآن العربى المبين ، وحقيقة الرسول الداعية ، مع إنذارهم بالويل ، والثبور إن لم يؤمنوا بالإسلام ، وتذكيرهم بما حل بمن سبقهم ، وهم على علم به .

لقد قام الرسول ﷺ خلال هذه اللقاءات بالدعوة إلى دينه ، حيث كان يسمع لمقالة القوم ، وشبههم ، ومزاعمهم ، ثم يكر بالنقض والرد .

إنه رسول يحمل رسالة ، وكتاب ربه معه يهديه من ضلال ، وينقذه من خبال ، وإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا ، ويستغفروا فمحمد الرسول عبد بشر ، وهو أول من يستقيم لربه ، ويستغفر ، إنه لا يحتاج لمال ولا لملك ، ولا لجاه ، فقد استبان له الطريق ، ووضحت أمامه معالم الهدى ، وتيقن من كل ما نزل عليه .

إنه ﷺ متمسك برسالته ، ومستمر فى الدعوة لها بالحسنى ، وللملين ، والحجة ، والبرهان ، والبصيرة ، والوضوح .

وهكذا كانت المفاوضات وسيلة للدعوة إلى الله تعالى .

يقول الإمام ابن كثير : اعترض المشركون على رسول الله وتعنتوا فى أسئلتهم له ، حيث طلبوا أنواعاً من الآيات ، وخوارق العادات على وجه العناد ، لا على وجه الطلب والإرشاد ، وكان الرسول يسمع منهم ، ويرد عليهم ، بالرفق واللين ، ويبين لهم خطأ جدلهم وعنتهم^(١) .

(١) أنظر البداية والنهاية ج ٣ ص ٤٩ . ٥٣ .

- ثالثاً -

الدعوة بمقابلة القبائل ودعوتهم

وكان رسول الله يذهب إلى قبائل العرب ، ويطونهم ، يدعوهم إلى الله بالحكمة واللين . وكان ينتهز المواسم ، والأسواق ، ويذهب إلى القبائل في اجتماعهم ويدعوهم .

يقول الزهري : كان رسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض دعوته على قبائل العرب في كل موسم ، ويكلم شريف كل قوم ، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤووه ويسمعوا له ويقول : لا أكره أحداً منكم على شيء ، من رضى بالذى أدعوكم إليه فذلك ، ومن كرهه لم أكرهه ... فلم يقبل أحد منهم ، وما بات أحد من تلك القبائل إلا قال : قوم الرجل أعرف به ، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ، ولفظوه^(١) .

وقد ذكر الواقدي البطون والأفراد الذين ذهب إليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام ، وعددهم واحداً واحداً ، موضحاً مواقفهم .

وأهم هذه الانتقالات من أجل الدعوة ذهاب النبي ﷺ إلى الطائف لدعوة بنى ثقيف إلى الإسلام حيث عرض عليهم أن يأوى إليهم ، ويكون معهم إذا أسلموا ، لكنهم ردوه من ديارهم وحيداً لا يجد لنفسه نصيراً من الناس ، ولا مأوى في ديارهم .

فاتجه إلى الله قائلاً : " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ... أنت أرحم الراحمين ، وأنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟! إلى بعيد يتجهمني ! أم إلى عدو ملكته أمرى ؟!

إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي !

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ١٤٠ .

أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل على غضبك ، أو أن ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ^(١) .

وكان نصر الله مع رسول فى هذه الشدة فاستجاب له الدعاء ، وأسلم له (عداس) ، وآمن به الجن ، ولما اتجه إلى مكة أجاره (المطعم بن عدى) ، فدخل مكة فى جواره .

إن الانتقال بالفكرة برهان على أهميتها ، واهتمام صاحبها بها ، وهذا فى حد ذاته يدفع العقلاء إلى الاستماع ، والمعرفة ، والفهم .

وهكذا استعمل رسول الله ﷺ وسيلة الانتقال من أجل الدعوة ، وتبليغ الرسالة لما لها من أهمية فى مباشرة التوجيه ، ومعرفة موقف المدعوين ، والرد على تساؤلاتهم واستفساراتهم ، وكان النبى لا يفرق بين قوم وقوم ، ولا بين مكان و مكان ، بل كان يتجه كلما أمكنه ذلك ... ولعل ذهابه إلى الطائف سيراً على قدمه ذهاباً ورجوعاً ، دليل على ذلك ، وعلى مدى ما تحمله الرسول للدعوة بهذه الوسيلة .

- رابعاً -

الدعوة بمقابلة الوفود

استقبال الوفود ، لا حاطتهم بالأمر التي وفدوا من أجلها ، ودعوتهم إلى الإسلام ، أسلوب انتشر بعد صلح الحديبية لكثرة الوافدين ، حتى ظن كثير من الناس أن هذه الوسيلة لم تظهر قبل صلح الحديبية .

لكن ذلك ليس صحيحاً ، فلقد ظهرت هذه الوسيلة قبل الهجرة ...

وأهمية هذه الوسيلة تبرز في أنها تعامل قوماً جاءوا يبحثون عن الحقيقة ، ولديهم رغبة في الاستمتاع إليها ، كما أن هؤلاء الوافدين يشكون فيما لديهم من مذهب ، أو خبر ، ويريدون أن يسمعو الحقيقة من مصدرها ، وبخاصة أن أهل مكة ، وأعداء الدعوة أخذوا في ترويج الإشاعات ، ونشر الأكاذيب حول محمد ودعوته ...

ولذا جاءت الوفود للرسول نفسه بعيدة عن قالة السوء ، ومروجى الإشاعات ، وناقلى الأخبار الكاذبة .

ومجىء الوفد دليل على رجحان عقل أصحابه ومن وراءهم ، فهم من أجل الوصول للحق والصواب جاءوا متحمليين للمشاق ، باذلين من وقتهم وجهدهم ومالهم الكثير في سبيله .

إن الغالبية العظمى للوفد التي وفدت على رسول الله ﷺ ، في مكة أو في المدينة ، كانت خيراً لأصحابها ، إذ دخلوا في الإسلام بعد أن عرفوه ، وعلموا حقيقته .

وأول وفد جاء للنبي ﷺ وهو في مكة ، وفد نصارى الحبشة ، حيث قدم على رسول الله ﷺ عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك فكلموه ، وسألوه ، وتحدثوا معه (ورجال من قريش يرقبونهم) ، فلما فرغوا من أسئلتهم ، واستفساراتهم ، استمعوا

لرسول الله يحدثهم فيما أردوا ، ويدعوهم إلى الإسلام ، ويقرأ عليهم القرآن ، حتى فاضت أعينهم من الدمع ، وآمنوا ، وصدقوا ، ودخلوا في دين الله تعالى ، فلما قاموا من عنده ﷺ اعترضهم أبو جهل ونفر من قوئش .

وقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ، ترتادون لهم ، فتأتونهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم ، وصدقتموه فيما قال لكم ، ما نعلم ركباً أحمق منكم .

فردوا عليهم : لا نجاهلكم ، سلام عليكم ، لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، لا نألو أنفسنا خيراً^(١) .

ومن الوفود التي قدمت إلى مكة وفد الأوس والخزرج الذين جاءوا إلى رسول الله وقابلوه عدداً من المرات وبايعوه بيعتين عند " شعب العقبة " ، تعرفان ببيعة العقبة الأولى ، وبيعة العقبة الثانية ، حيث اتفق النبي ﷺ في البيعة الثانية على أن يهاجر و المسلمون إلى المدينة ، على أن يمنعه أهلها بما يمنعون به نساءهم ، وأبناءهم ، وأموالهم ، واختار منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس يكونون على قومهم بما بايعوا عليه^(٢) .

ويعد وفد الأنصار هذا من أكثر الوفود تأثيراً في مسار حركة الدعوة ، فبه نشأت قوة الإسلام في المدينة ، وكانت الهجرة ، وكانت الدولة الإسلامية .

إن استقبال الباحث عن الحقيقة يحتاج لداعية كفء يفهم قضيته ، ويعرف طرق عرضها الحسن ، ويجيد التعامل مع الوافد ذي الثقافة المعينة ، والبيئة الخاصة ، والتقاليد المتنوعة .

ولقد كان رسول الله ﷺ بمعونة الله له يتعامل مع الوفود بطريقة حكيمة حسنة ، تؤدي إلى النتائج التي يريجوها المخلصون ، والبحث عن الحقيقة موجود دائماً ،

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٢ .

(٢) أنظر تفصيلات وفود الأنصار من ص ١٤٩ . ١٧٠ .

وتصورات العقول يشوبها الشك كثيراً وهي تريد الوصول لليقين ، والمشكلة تكمن في عدم وجود أشخاص يتعاملون مع الواقع ، ويطوعون القضايا ، ويوجهونها نحو الصواب ، ويجيدون فهم الدعوة ، وحسن عرضها على الأفهام .

ولقد كان ﷺ نموجاً عالياً في الاستفادة بهذه الوسيلة ، لأن القبائل كانت تتخير أعلم أبنائها ، وأعقلهم ، وتحدد لهم الهدف المقصود ، وكان الرسول ﷺ يقابلهم ، وهو يرجوهم للإيمان ، ويدعوهم للإسلام ، مراعيّاً واقعهم ، ومذهبهم ، ومدى تقبلهم للحق والصواب .

علم النبي ﷺ أنه لابد من معرفة دوافع الوفد للحضور ، وكشف خصائص أفرادهم ، ومعرفة من وراءه ، ولذلك فالاستماع لأفراده ابتداء ضرورة لابد منها وكان ﷺ يستمع للوفد ، ويجيب على تساؤلات أعضائه ، ويكرم وفادتهم ويقدم لهم النصيحة ويدعوهم بالحسنى والهدوء ، ولذلك كان أعضاء الوفود يتأثرون بكرم الخلق ، ويندهشون لجلاء الحق ، ويؤمنون بدين الله رب العالمين .

- خامساً -

الدعوة بإرسال الرسائل والدعاة

من الوسائل التي دعا بها رسول الله ﷺ في مرحلة ما قبل الهجرة إرسال الدعاة ، والرسائل ، وبخاصة إلى الأماكن البعيدة .

ومن الرسائل ما كتبه النبي ﷺ وأرسله إلى النجاشي وحمله عمرو بن أمية الضمري وجاء فيه :

من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة .
سلام عليك .

فإني أحمد إليك الله الملك ، القدوس ، المؤمن ، المهين ، وأشهد أن عيسى روح الله ، وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة ، الطيبة ، الحصينة فحملت بعيسى ﷺ فخلقه من روحه ، ونفخته ، كما خلق آدم بيده ونفخته ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاتة على طاعته ، وأن تتبغنى ، فتؤمن بي ، والذي جأني ، فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ، ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فأقرهم ، ودع التجبر فإني أدعوك ، وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى^(١) .

وقد أسلم النجاشي الأصحم ، وأرسل إلى النبي يخبره بذلك ، ويعرفه أنه لا يملك إلا نفسه ، وهو النجاشي الذي أكرم وفادة المسلمين إليه ، وصلى عليه رسول الله ﷺ حينما علم بوفاته .

وكما أرسل النبي ﷺ رسائله خلال هذه المرحلة بعث بعض الدعاة متميزين

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٣ ، وفي المرجع تفصيلات واسعة عن أعمال المسلمين في الحبشة .

بالخصائص التي تؤهلهم للدعوة ، ومن هؤلاء (مصعب بن عمير) فلقد أرسله النبي ﷺ إلى المدينة عقب بيعة العقبة الأولى ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ... فنزل مصعب على (أسعد بن زرارة) .
فكان يصلى بمن أسلم ، ويدعو إلى الله تعالى ، وسمى ﷺ في المدينة بالقارئ والمقرئ .

وبسبب مصعب دخل الإسلام كل بيوت المدينة ، وعلى يديه أسلم زعيما الأوس والخزرج ، وخيرة رجال الأنصار .
ولما هاجر المسلمون إلى الحبشة الثانية كان معهم جعفر بن أبي طالب أميراً مقدماً عليهم ، ومتحدثاً نيابة عنهم ، وقد قام جعفر بدوره كداعية مسلم ، يفهم دينه ، ويوضحه بالحسنى والحكمة .
ذلك أن قريشاً أرسلت وفداً من قبلها إلى النجاشي ليعيد المهاجرين إلى ديارهم .

حاول أعضاء وفد قريش إحداث وقعة بين النجاشي وبين المسلمين المهاجرين إلى الحبشة إلا أنها قوبلت بحكمة جعفر الداعية .
يروى ابن إسحاق بروايته عن أبي موسى قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن ننطلق مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي فبلغ ذلك قريشاً ، فبعثوا عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد ، وجمعوا للنجاشي هدية ، وقدموا عليه ، وأتياه بالهدية فقبلها ، وسجدا له ، ثم قال عمرو بن العاص : إن ناساً من أرضنا رغبوا عن ديننا ، وهم في أرضك ، ولا يسجدون لك .
قال النجاشي : في أرضي ؟ ! .
قالا : نعم ...

فبعث النجاشي إلينا ، فقال لنا جعفر : لا يتكلم منكم أحد ، أنا خطيبكم اليوم فانتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه ، وعمرو عن يمينه ، وعمارة عن

يساره ، والقسس جلوس معه .

فلما انتهينا بدأنا من عنده من الرهبان قائلين : اسجدوا للملك .

فقال جعفر : إنا لا نسجد إلا لله عز وجل .

فلما انتهينا إلى النجاشي قال : ما منعك أن تسجد ؟!

قال جعفر : لا نسجد إلا لله .

فقال له النجاشي : وما ذاك ؟

قال جعفر : إن الله بعث فينا رسولاً ، وهو الذي بشر به عيسى بن مريم

عليه السلام من بعده اسمه أحمد ، فأمرنا أن نعبد الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ونقيم الصلاة

، ونؤتي الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ، ونهانا عن المنكر .

فأعجب النجاشي بقول جعفر .

فقال عمرو بن العاص : أصلح الله الملك إنهم يخالفونك في عيسى بن مريم!

فقال النجاشي لجعفر : ما يقول صاحبكم في ابن مريم ؟

قال جعفر : يقول بقول الله فيه : هو روح الله وكلمته أخرجته من العذراء

البتول التي لم يقربها بشر ، ولم يفرضها ولد .

فتناول النجاشي عوداً من الأرض ورفعها وقال : يا معشر القسيسين والرهبان

ما يزيد هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ولا وزن هذه ... مرحباً بكم وبمن جنتم

من عنده ، فأنا أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذي بشر به عيسى ، امكثوا في أرضي

ما شئتم ، ثم رد هدية قريش^(١) .

وتعد الهجرة إلى الحبشة عملاً إسلامياً رائداً ، يدخل في إطار التبليغ العام

للدعوة ، لأن الإسلام بهذه الهجرة وصل إلى خارج الجزيرة العربية ، وبدأ انتشاره

عملياً في العالم .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٧٠ .

ويخطيء من يتصور الهجرة إلى الحبشة فراراً من الأذى ، لأنها كانت في

الأصل هجرة للدعوة إلى الله تعالى ، وفي نفس الوقت راحة من عدوان قريش .

يدل على أنها كانت هجرة للدعوة إلى الله في الأساس أن أغلب الذين

هاجروا كانوا من ذوى البأس في مكة ، ولهم من عصبتهم من يدافعون عنهم وعلى

رأسهم جعفر بن أبى طالب ، وله من أبيه وقومه قوة ومنعة ، وفي نفس الوقت بقى

الموالى ، والمستضعفون في مكة ، ولم يهاجروا .

وأيضاً فلقد هاجر نسوة من أشراف مكة ، والنسوة لا يتعرضن للأذى كما هو

عرف العرب في الجاهلية ...

ويلاحظ أن هذه الهجرة ضمت رجالاً من اليمن كذلك .

وهؤلاء لا صلة لهم بما يجرى في مكة ، لأنهم ليسوا منها ، وعلى رأس هؤلاء

اليمنيين أبو موسى الأشعرى ، الذى هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين إليها .

ولو كانت الهجرة إلى الحبشة هروباً ، وفراراً بسبب الضعف ما حاول أهل

مكة أن يستعيدوا هؤلاء المهاجرين الفارين ، لأنهم بفرارهم قد تخلصوا منهم .

ولو كانت الهجرة فراراً وخوفاً لعاد المهاجرون عقب الهجرة إلى المدينة

مباشرة بعد زوال سبب الخوف ، ولكنهم لم يرجعوا إلى المدينة إلا فى العام السابع

بعد الهجرة .

إن الهجرة إلى الحبشة كانت دعوة ناجحة ، وكان أفرادها خير ممثلين

للإسلام ، وخير دعاة إليه ، ولذلك حملوا رسالة النبى ﷺ إلى النجاشى ، وسلموها

إليه بمجرد وصولهم إلى بلاده .

وهكذا كان دعاة الإسلام الذين أرسلهم رسول الله وهو فى مكة إلى المدينة

وإلى الحبشة ، كانوا قوة فى الحق ، وصبراً على البلاء ، وحكمة فى الدعوة ، وأفقاً

واسعاً ، ودقة عالية فى فهم الموقف ، والتعامل معه بما يفيد الدعوة ،

ويؤدى إلى الإيمان ...

(٦٤٣)

لم يعرف مصعب رضي الله عنه الانفعال في مواجهة التعنت والإيذاء ، وإنما كان رقة في السلوك ، وسمواً في الأخلاق ، وصبراً جميلاً في قضيته على الناس .
ولم يفقد جعفر رضي الله عنه رباطة جأشه حينما رأى وفد قريش يجلسون مع النجاشي ، ويوجهون له الأسئلة في تحد واستفزاز ، وإنما كان متخففاً بخلق الإسلام ، يرد بما علمه الله ، ويجيب وفق ما سمع من رسول الله ، واثقاً في علو الحق وانتصاره ، وقد كان له ما تمنى .

ومن هنا ...

احتاج الإسلام إلى رسل يحملونه إلى الأماكن البعيدة متميزين بالعلم ، فاهمين للواقع ، قادرين على مخاطبة الناس ، ودعوتهم بما يناسب أوضاعهم ، وأحوالهم .
إن الدعوة في المجتمعات غير الإسلامية المعاصرة تحتاج إلى مثل هذه النماذج الرائدة من الدعاة المخلصين .

— سادساً —

الدعوة بالعمل والتطبيق

حافظ الرسول ﷺ على تطبيق ما يدعو إليه ، والالتزام به على وجه دقيق وبذلك قدم دعوته للناس بمنهج علمي .

ولذا كان ﷺ من أوائل الذين عذبوا وأوذوا ، وحين دعا المؤمنين إلى الصبر والتحمل كان من أوائل الصابرين ، وبقي ﷺ مع قومه محاصراً في الشعب حتى أتاهم الفرج ، وحين عرض عليه قومه الملك ، والمال ، والجاه ، رفض عرضهم ، وبين لهم أنه رسول الله إليهم ، وإلى الناس كافة ، يحمل لهم دين الله تعالى . واستمر يقيم في مكة مع كفارها في الوقت الذي وجه أصحابه " رضوان الله عليهم " بالهجرة إلى الحبشة حيث الأمن والهدوء .

لقد كان رسول الله ﷺ مثالا عملياً في التأسي ، والقُدوة ولذلك جعله الله تعالى مناط الأسوة والاتباع ، يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ ﴾ (١) .

إن حياة الرسول العملية كانت دعوة حكيمة ناجحة ، لأن النفوس تتأثر بالأعمال أكثر من تأثيرها بالأقوال ، ودلالة العمل على الصدق أوضح من دلالة القول المجرد فلربما كان القول لكسب شخصي ، أو لغاية قاصرة ، أما عمل الرسول والدعاة فهو دليل على إيمانهم اليقيني بما يدعون إليه ، وينادون به .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

ـ سابعا ـ

الاستفادة من عادات المجتمع الجاهلى

أقام المجتمع القرشى قبل الإسلام عادة جاهلية ، وحافظ عليها ، وهى عادة الحماية والجوار ، ومعناها أن الضعيف إذا لجأ لقوى أجاره ، وأعلن حمايته ، وحينئذ لا يجروا أحد على التعدى عليه ، وإن لا قامت الحرب .
ولذلك كان المجير قوى الشكيمة ، عزيزاً فى قومه ، متمكناً من حماية من يجير .

وهذه العادة لا صلة لها بفكر المستجير ، أو ثقافته ، ولذلك استفاد منها رسول الله ﷺ وهو يتحرك بالدعوة فى مكة .

وقد عاش الرسول ﷺ فى حماية عمه أبى طالب ، يقول ابن إسحاق : وحذب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهراً لأمره لا يردده عنه شىء فلما رأت قريش أن رسول الله لا يتبعهم من شىء أنكروه عليه ، من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه ، وقام دونه فلم يسلمه لهم^(١) .

وقد حاول كفار مكة عدة مرات صرف أبى طالب عن حماية محمد فلم يتمكنوا ، وكان لحماية أبى طالب أثر فعال فى خدمة الدعوة حيث بقى رسول الله يدعو إلى دين الله تعالى وهو يقيم فى مكة .

ومن صور الحماية والجوار التى استفاد بها المسلمون ما روته السيدة عائشة ؓ ، قالت : لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا ويأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار ، بكرة وعيشة ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً إلى أرض الحبشة ، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٨٤ .

ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟

فقال أبو بكر : أخرجني قومي ، فأنا أريد أن أسبح في الأرض ، فأعبد ربي
فقال ابن الدغنة : إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، وقال لأهل مكة :
أخرجون رجلاً يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيق ،
ويعين على نوائب الحق ؟ ... وأعلن لهم أنه في جواره .

فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة : فلتأمر أبا بكر ،
فليعبد ربه في داره ، فليصل فيها ، وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن ،
فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا .

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر .

فطفق أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء
داره ، وبرز فكان يصلى فيه ، ويقرأ القرآن ، فتتقصص عليه نساء المشركين ،
وأبناءؤهم يعجبون منه ، وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً ، لا يملك عينيه
إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة
فقدم عليهم .

فقالوا : إنا كنا أجرين أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، وقد جاوز
ذلك ، وابتنى مسجداً بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقرآن فيه ، وإنا قد خشينا أن
يفتن أبناءنا ونساءنا ، فأنه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل
، وإن أباي إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإننا قد كرهنا أن نخفر ذمتك
، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان .

قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر ، فقال : قد علمت الذي عاقدت
لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتي ، فإنني لا أحب أن
تسمع العرب أنني خفرت في رجل عقدت له .

فقال أبو بكر : فإننى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله^(١) .
ومن صور الإجارة ما سبق ذكره حين عودة النبي ﷺ من الطائف فلقد دخل مكة فى جوار المطعم بن عدى على نحو ما سبق ذكره .
ومن المعلوم أن الاستفادة بالواقع الاجتماعى فى نجاح الدعوة أمر مباح ما دام لا يمس جوهر الدعوة بصورة ما ، أو يؤدى لعمل غير مشروع ... أما إذا أدى إلى مساس ضار بالدعوة فإنه لا يجوز ، ولذلك صاح الرسول ﷺ فى وجه عمه باكياً حينما طلب منه أن يبقى الدعوة على نفسه ، قال له : يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه^(٢) .
وكما فعل أبو بكر ﷺ فإنه رد جوار ابن الدغنة حين وجده قيداً عليه فى الدعوة ، واكتفى بحماية الله له .

(١) صحيح البخارى . باب الكفالة . باب جوار أبى بكر . ج ٤ ص ١٣٠ . ط . الأوقاف .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٥ .

المبحث الثامن

استمرار الحركة بالدعوة

ومع الاضطهاد والمواجهة كان الرسول يتحرك بالدعوة فى اتجاهات متعددة ، باذلاً ما أمكنه من جهد ، وفكر ، وتوجيه .

فقد عرض الإسلام على القبائل ، وعلى جميع الوافدين إلى مكة فى مواسم الحج و التجارة ، وواجه كفار مكة بدعوتهم إلى الله ، وتلاوة القرآن الكريم عليهم ، وأبدى لهم ما بدعوتة من صدق ، وحق ... وبين لهم أن ما منعهم من الإسلام إلا الجحود ، والتعصب ، يدل على ذلك أقوال وأفعال نطق بها الكفار .

يقول أبو جهل : يا محمد إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِقَايَسَاتِ اللَّهِ يَتَحَدَّوْنَ ﴾^(١) .

وغمزه الكفار يوماً ثلاث مرات ، فقال لهم فى الثالثة : يا معشر قريش : جئكم بالذبح ، فأخذتهم تلك الكلمة ، حتى أن أشدهم عداوة يرفؤه بأحسن ما يجد عنده . ولما ألقوا عليه سلا جذور وهو ساجد دعا عليهم ، فذهب عنهم الضحك ، وساورهم الهم والقلق ، وأيقنوا أنهم هالكون .

ودعا على عتبية بن أبى لهب فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه ، حتى أنه حين رأى الأسد قال : قتلنى والله . محمد . وهو بمكة .

وكان أبى بن خلف يتوعده بالقتل .

فقال : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما طعن أبيا فى عنقه يوم أحد . وكان خدش غير كبير . قال : إن محمداً قال : أنا أقتلك ، فوالله لو بصق على لقتلنى . وقال سعد بن معاذ . وهو بمكة . لأمية بن خلف : لقد سمعت رسول

(١) سورة الأنعام ، الآية ٣٣ .

الله ﷺ يقول : إنهم . أى المسلمين . قاتلوك .

ففزع أمية فزعا شديدا ، وعهد أن لا يخرج من مكة .

ولما ألجأه أبو جهل أمية على الخروج يوم بدر اشترى أجود بعير بمكة ليهرب به .

فقال له امرأته : يا أبا صفوان ، أنسيت ما قال لك أخوك اليثري ؟

قال لها : لا والله ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبا .

وكان ﷺ يعيش مع المسلمين يمدهم بالوحي ، ويعلمهم الإسلام ، ويملاً قلوبهم باليقين ، ويعمل على سلامتهم ، وتحقيق الخير لهم بكل ما أمكنه .

من ذلك أنه ﷺ لما اكتشف المشركون وجود بعض الصحابة فى شعاب مكة ، وهم يصلون . مستخفين ، . ناكروهم ، . ولصطدموا . معهم ، . أمر ﷺ أصحابه بالاجتماع فى دار الأرقم ليعبدوا الله بعيداً عن الأنظار ، ويتعلموا ما ينزل من القرآن الكريم ^(١) .

وحين أسلم غير المكيين كعمرو بن عبسة ، وأبى ذر الغفارى ، أمرهم النبى ﷺ بالرجوع إلى قومهم ، لينشروا الإسلام فى قبائلهم ، وليحافظوا على أنفسهم من الكفار الذين يفتنون الضعيف ، الذى لا ناصر له ^(٢) .

حرص ﷺ على متابعة شؤون أصحابه بتقوية همهم ، وتنشيتهم عند حلول الشدائد والمحن بهم ، فكان يزور الذين يعذبون منهم فى أماكن تعذيبهم ، فيواسيهم بالصبر والثبات ، ويبشرهم بالجنة ، كما فى قوله لآل ياسر وهم يعذبون : " صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة " ^(٣) .

وهو ﷺ هو الذى وجه أبا بكر الصديق لشراء العبيد وإعتاقهم ، حسبة الله تعالى .

(١) سيرة ابن هشام . ج ١ ص ٢٧٥ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب مناقب الأنصار . باب إسلام أبى ذر ج ٤ ص ٢٤١ .

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرک ، وصححه ج ٣ ص ٣٨٨ .

وكان عليه الصلاة والسلام يقوم بزيارة منتظمة لأبى بكر رضي الله عنه كما جاء فى حديث عائشة رضي الله عنها : " لم يمر علينا يوم إلا و يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار بكرة و عشياً " .

وكان رسول الله ﷺ يتعامل مع الواقع فى حركته بالدعوة وهو فى مكة ، وجعل حركته محاطة بالسرية ليحقق ما يريد ، ولذلك لم يوجه دعوته لعمر بن الخطاب لشدته ، ولم يطلب من عمه حمزة الإيمان لقوته ، وإنما تركهما وأمثالهما لوقت مناسب لهما ، رغم أن الخير للدعوة كان فى إيمان عمر وحمزة رضى الله عنهما .

لقد كان ﷺ يدور على الناس فى منازلهم ، ومساكنهم ، ويستفيد بحضورهم المواسم والأعياد ، ويقابل المفكرين ، والشعراء ليقتنعهم بدين الله تعالى . وكان ﷺ يحتاط لدعوته ، ولنفسه وهو يتحرك بالإسلام ، فلقد خرج ﷺ إلى الطائف راجلاً ليلاً مع زيد بن ثابت ، حتى لا يعلم أحد من قريش بوجهته ، فعملوا على منعه ومعاكسته^(١) .

وعندما كان يتصل بالقبائل فى مواسم الحج لطلب النصرة ، كان يخرج فى ظلام الليل^(٢) ، ولا يعلن ذلك لأحد .

وعندما التقى عليه الصلاة والسلام بوفد الأنصار فى السنة الثالثة عشرة من البعثة لمبايعته على الحماية ، والنصرة ، اتخذ سلسلة من التدابير الأمنية حتى لا يعلم به أحد من أهل مكة .

فكان أول إجراء أمنى اتخذه هو ضبط الموعد مكاناً ، وزماناً ، بدقة متناهية ، فكان المكان شعب العقبة الأيمن .

(١) الرحيق المختوم ص ١٤٨ .

(٢) تاريخ الإسلام ج ١ ص ١٢٩ .

وكان الزمان أوسط أيام التشريق ، حيث يكون الناس فى زحمة الانشغال بتهيئة أنفسهم للعودة إلى ديارهم ، وأولادهم .

وكان الوقت نهاية الثلث الأول من الليل حين يستسلم الناس للنوم^(١) .

وثانى إجراء كان هو الكتمان الصارم للأمر ، وخروج المجتمعين مثنى وأفراداً مستخفين ، دون انتظار غائب ، أو إيقاظ نائم^(٢) .

وثالث إجراء كان حضوره بعد اكتمال العدد ومعه عمه العباس ، ووضعه عليه الصلاة والسلام حراسة قوية وأمنية فى مداخل الشعب^(٣) حيث كلف أبا بكر بالوقوف على فم الطريق ، وكلف علياً بالوقوف على فم الشعب .

ورابع إجراء هو طلبه عليه الصلاة والسلام من كل متكلم أن يوجز فى كلامه^(٤) وأن يخفض صوته ، حتى لا يطول اللقاء ، ولا يشعر به أحد .

وبعد ذلك قام ﷺ باختيار اثني عشر نقيباً . تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس . لتحمل المسئولية وقال لهم : أنتم على قومكم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي ...

قالوا : نعم .

وبهذا الاختيار بدأت ملامح القيادة الجديدة فى المدينة المنورة ، وبدأت أنظار المسلمين تتجه نحوها ليعيشوا عصر التمكين ، والقوة ، وليؤدوا واجبهم مع دين الله تعالى .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٩ .

(٢) الطبقات ج ١ ص ٢٢١ .

(٣) منهج النبى ﷺ فى حماية الدعوة ص ٤١٧ .

(٤) السيرة النبوية لابن كثير . ج ٢ ص ٢٠٢ .

المبحث التاسع

المسلمون فى نهاية المرحلة الحكية

اتسع نطاق الإسلام ، وكثر عدد الداخلين فيه ، ووصل خبره إلى قبائل العرب جميعاً ، وانتقل المسلمون بالإسلام إلى خارج مكة ، والجزيرة العربية فذهب المسلمون إلى الحبشة ، وذهب مصعب إلى المدينة ، وعاد من أسلم من القبائل إلى أهلهم وذويهم .

وزاد عدد المسلمين فى مكة ، فهاجر منهم إلى الحبشة ما يقرب من مائة ، وهاجر منهم إلى المدينة ما يقرب من خمسمائة صحابى وصحابية ، بالإضافة إلى عدد غير قليل آمن سراً فى مكة ، وفى غيرها ، وهم المؤمنون والمؤمنات المشار إليهم بقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ (١) والمقصود بهم المؤمنون الذين بقوا فى مكة ، ولم يهاجروا ، وأخفوا عن كفار مكة إسلامهم .

لقد أدى هذا الانتشار الواسع للإسلام إلى ضرورة الهجرة من مكة ، لأن الكفار أخذوا يبذلون جهدهم لصد الناس عن الإسلام بوسائل عديدة ، ولم يعد مقبولاً أن يبقى المسلمون مستسلمين للطغاة ، وحقهم واضح ، فى الوقت الذى أخذ الناس فيه ينظرون إلى ما بين المسلمين وأهل مكة ، لينبؤا عليه موقفاً ، ويتخذوا قرارهم فى الإيمان .

الأمر الذى دعا إلى ضرورة وجود دولة للإسلام ترفع رايته ، وتحمى أتباعه ، وهو الذى أراده الله تعالى ، وحققه بالهجرة إلى المدينة المنورة . وبدأ المسلمون يخرجون من مكة إلى جهة لا يعلمها أهل مكة ، وبقي

(١) سورة الفتح ، الآية ٢٥ .

(٦٥٣)

رسول الله ﷺ فى مكة ، فظن كفار مكة أن هذه الهجرة تشبه الهجرة إلى الحبشة وسوف يعيش المسلمون هذه المرة لاجئين مستضعفين فى كنف سلطان دولة أخرى ... ولذلك وجهوا هجرة المسلمين ، وهم هادئون ... وكل ما حرصوا عليه هو منع محمد من اللحاق بإخوانه حتى لا يصنع بهم قوة ، ويقاثل بها بعد ذلك ، ولما توقعوا هجرة رسول الله ﷺ حاولوا قتله ، وتآمروا على ذلك فكان أن خيب الله مكرهم ، وتدريبهم ، وتمكن رسول الله ﷺ من الهجرة ، واللاحق بمن سبقه إلى المدينة المنورة .

وانتصر الإسلام بالهجرة ، وظهرت للمسلمين دولة ، وبدأت مرحلة الدعوة فى المدينة المنورة .

(٦٥٤)



الفصل الرابع
ركائز الدعوة
المستفادة من المرحلة المكية

(٦٥٦)

تمهيد :

لقد امتدت المرحلة المكية من المبعث حتى الهجرة إلى المدينة المنورة وبلغت ثلاث عشرة سنة ، ووقعت خلالها أحداث عظيمة ، وظهرت أعمال ضخمة ، وآمن من آمن ، وكفر من كفر .

وخلال المرحلة المكية برزت أضواء عالية في حركة الدعوة إلى الله تعالى ، وبانت مواقف مليئة بالعبر ، والدروس ، وتكشفت الطبائع والنفوس وصارت المرحلة منارة هادية للدعاة على مر العصور .

وتعود أهمية معرفة هذه المرحلة للدعوة إلى إنها تعيش مع المسلمين في أيام قلنتهم وضعفهم ، وتصور كيف عاش المسلمون بالإسلام صادقين ، حتى تم انتقالهم من الضعف إلى القوة ، ومن الهوان إلى العزة والانتصار ، وهي أمور يحتاجها المسلمون المعاصرون .

كما أن أحوال الدعوة في العصر الحديث ، ومدى ارتباط المسلمين بالإسلام ، يحتاج إلى مراجعة ضرورية لقياس الأحوال على عصر التأسيس الأول ، لنعرف الداء ، ويظهر الدواء .

وفي المرحلة الملكية حدد النبي ﷺ الإسلام بجلاء ، ودعا إليه بوضوح وتلقاه الصحابة منه نقياً ، صافياً ، وعاشوا به ، وعملوا له ، وتحركوا من أجله ، لأنهم تحملوه ، عقيدة ، وأمانة ، ومسئولية ، وحاجة شخصية .

إن المسلمين في كل زمان ومكان عليهم أن يرتبطوا برسول الله ﷺ في أقوالهم ، وأعمالهم ، وأحوالهم ، وكافة شئونهم ، وهذا يحتم عليهم ضرورة العودة إلى السيرة النبوية ، وأحداثها ، فهي الصورة العملية ، التطبيقية لتعاليم الله تعالى ، وهي القرآن متحركاً في السلوك والطاعة .

إن السيرة النبوية هي الوحي المنزل في صورة تطبيقية ، ولذا كانت مدارسها تصويراً حياً للإسلام ، وكان فهمها هو البداية الصحيحة للعمل

بالإسلام ، وللإسلام .

والمسلم الصادق يدرك تماماً أن السيرة النبوية ثقافة روحية ، وفهم للدين ، وإحاطة بالإسلام ناصعاً ، جميلاً .

يحتاج المسلمون في العصر الحاضر أن يعودوا لإسلامهم ليحققوا نصراً ، ويتمكنوا من النجاح .

ولا يليق أبداً أن يعيش المسلمون في ضعف ، وهوان ، ودينهم يدعو إلى العزة ، والكرامة ، والقوة .

لهذا ولغيره عقدت هذا الفصل لأطوف مع أهم الركائز المستفادة خلال المرحلة المكية .

لقد عاش ﷺ طوال بعثته في مكة يدعو الناس إلى معرفة الله تعالى ، والإيمان بكافة صفاته ، مع التصديق بكل ما يستتبع ذلك من أركان العقيدة كلها .

وكان ﷺ يتعامل مع من يدعوهم بواقعه كأنه يعيش معه ، ويختار لخطابه الطريقة الحسنة في رفق ولين ، وحسن شامل للقول ، والعمل ، والتعامل .

وقد قدم النبي ﷺ عدداً من الركائز خلال المرحلة المكية قدمت كثيراً منها خلال الدراسة ، وهنا أقدم أهم الركائز في الموضوع ، أو في الطريق إليه .

وذلك فيما يلي :

الركيزة الأولى

المعرفة التامة بالله تعالى

الدعاة اليوم هم المبشرون المنذرون ، الحاملون صوت النبوة ، المكلفون بالوصول بها إلى كل مكان في الوجود ... وقدّر الله للدعوة أن تظل باقية في كتبها ، محفوظة بأمره سبحانه وتعالى ، لكن الذي يجب أن يكون اليوم هو وجود الداعية الكفاء الذي يتخذ الرسول أسوته ، ويحاول أن يستجمع ما أتصف به على قدر طاقته يقول الله تعالى ﴿ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

ولابد في تكوين الداعية أن يكتسب بعض الصفات الضرورية التي تجعله ذا صلة قوية بالله تعالى ، الذي يحمل رسالته ، ويبلغ دينه ، ويعيش مع وحيه سبحانه وتعالى .

الداعية مرشد إلى الخير ، وموجه نحو الهدى ، وكل هدفه أن يعرف الناس بربهم الخالق ليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

وعليه هو أولاً أن يمتن صلته بالله في يقين وقوة ، ويجعل إيمانه قائماً على تفرغ القلب الكامل لمولاه ، والارتباط المطلق به ، والتوكل الراسخ عليه ، والتسليم التام لكل ما يأتي به من غير ارتياب ، أو حرج ، لتكون الدعوة بذلك نابعة من قوله وفعله ، وكل ذلك سهل ميسور .

إن معرفة الله يلمسها من القرآن الكريم ، كتاب الدعوة الذي هو دستور هدايته ، ومن آياته يعلم أن الله واحد ، منزه عن الشريك في ذاته وصفاته وأفعاله .

وآيات القرآن واضحة في مفهومها ، ودلالاتها ، أنظر قوله تعالى ﴿ إِنَّ

إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ ^(١) ، حيث يتضمن الأسلوب عدداً من المؤكدات البلاغية

(١) سورة الصفات ، الآية ٤ .

المتبته لما تدل عليه الآية ، وهى وحدانية الله تعالى .

وكما يثبت القرآن الكريم الوحدانية يدافع عنها ، ويدعو إلى ترك ما عداها
فيقول سبحانه وتعالى ﴿ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾^(١).

ويتجه بالدليل العقلى لإبطال تعدد الآلهة فيقول تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا
إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾^(٢).

ولا تقف الآيات عند الحديث عن وحدانية الذات بل تتكلم عن كل كمالاتها
بإثبات الصفات والآثار ، ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ
وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾^(٣).

وقوله سبحانه ﴿ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾^(٤).

فتجد هذه الآيات وغيرها تعرف بأن الله موجود ، قديم ، حى ، باق ، عليم
مريد ، قادر ، سميع ، بصير ، متكلم ، وبإثبات هذه الصفات تنتفى أصدادها ،
والصفات وإن تشابهت ألفاظها مع مسميات صفات البشر إلا أنها ليست هى فى
الحقيقة لأن الله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٥).

والقرآن الكريم لا يترك الإنسان يبحث وحده عن الدليل ، الدافع إلى الإيمان
بل يوجه نظره إلى الآثار الإلهية فى المخلوقات ، ليتم إيمانه ، ويحس بطمأنينة
خاصة تمر بين جوانبه ، فلا يرى بعد ذلك إلا الخير المطلق يسرى فى داخل
النفس وخارجها ، والمخلوقات عديدة ، والنظر فيها يبين الدقة الإلهية ، والعناية

(١) سورة النحل ، الآية ٥١ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٢٢ .

(٣) سورة الحديد ، الآية ٣ .

(٤) سورة الرعد ، الآية ١٦ .

(٥) سورة الشورى ، الآية ١١ .

الربانية ، ويؤدى إلى الإيمان المطلوب ، فنفس الإنسان المركبة من باطن فيه جهاز هضمى ، وآخر للتنفس ، ومن ظاهر به حواس وجوارح ، هذه النفس بكل أجزائها تقوم بوظيفتها بطريقة تلقائية .

وقد وزعت الأعمال فى براعة ودقة على كافة الأجهزة ، ليقوم كل بدوره فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتكلم ، والرجل تمشى ، والأسنان تمضغ والمعدة تهضم ، والرئة تستنشق .

وهذا كله يشير إلى **العناية والدقة** الموجودة فى خلق الله تعالى ، وهو الأمر الذى جعل العلماء يرون فى القرآن الكريم أدلة خاصة به سموها :

١ - أدلة العناية والدقة .

٢ - أدلة الحسن والجمال .

٣ - أدلة الغاية والقصد .

وهذه أدلة تجعل الإنسان يؤمن بلا تردد بعد رؤيته لها ونظره فيها ، وهى أدلة تختلف عن جمود أدلة الفلاسفة ، وطنطنة أناشيد البلغاء .

إنها أدلة تربط السمع بالقلب ، وتجعل العين وسيلة الروح للإدراك .

وقد حث الله الإنسان على النظر إلى النفس ، فقال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ۚ

أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ^(١) ، ليرى فيها العقل دلالة واضحة على وجود الصانع ،

وحكمته ، وتديبره ، ويكفى أن ينظر الإنسان إلى نفسه ، ليرى كما قال الزمخشري فى ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال ، وفى بواطنها وظواهرها عجائب الفطر وبدائع الخلق ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول . وخصت به من أصناف المعانى ، وبالألسن ، والنطق ، ومخارج الحروف ، وما فى تركيبها

(١) سورة الذاريات ، الآية ٢١ .

وترتيبها ، ولطائفها من الآيات الساطعة ، والبيّنات القاطعة ، على حكمة المدبر ، دع الأسماع ، والأبصار ، والأطراف ، وسائر الجوارح ، وتأتيها لما خلقت له ، وما فى الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنى ، فإنه إذا جسا شىء منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل^(١) .

وكما يجب النظر إلى النفس فإن هناك العالم المفسح المملوء بالآيات البيّنات والعجائب الرائعة التى يجب النظر فيها ، يقول تعالى ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٢) .

إن الداعية وهو يلزم الدعوة عليه أن يفكر فى هذا ، وفى غيره ، ليؤمن بالإيمان الواجب ، ويعلم من غير تردد حق الله الذى آمن به فيؤديه .

وقد حصر الله سبب خلقه للجن والإنس فى أداء هذا الحق فقال تعالى ﴿ وَمَا

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٣) .

يقول الزمخشري : أن معنى الآية ما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة ولم أريد من جميعهم إلا إياها^(٤) .

ولذا دعيت كل الأمم إلى واجبها ، يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾^(٥) وكان النداء الأول فى دعوة كل رسول هى ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾^(٦) ، لأن الإيمان بالله الخالق ، والتسليم له يقتضى حتماً ، وبالضرورة أن تكون العبادة له وحده .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦ .

(٢) سورة يونس ، الآية ١٠١ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢١ .

(٤) سورة النحل ، الآية ٣٦ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية ٦٥ .

إن العبادة هي الحبل الوثيق الذى يربط الإنسان بالله ، وليس هناك سبيل سواها ، والله قريب من عباده قريباً لا واسطة فيه ، والداعية يعلم ذلك فيعبد الله مخلصاً له الدين ، ويتفرغ بكليته فى عبادته ، ولذلك فعبادته غذاء روحى ، ترقى به ذاته ، وتذكره بالسلطان المطلق ، وتسمه بحسن الخلق ، وكريم المعاملة ، وذلك كله سر العبادة وحقيقتها فمثلاً عن الصلاة . كعبادة . قد أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها لأن إقامة الشيء يعنى الإتيان به مقوماً ، كاملاً ، يصدر عن علته ، وتصدر عنه آثاره ، ومن المعلوم أن الغاية من الصلاة ذكر الله كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾^(١) .

وآثارها تظهر على المصلى ذاته لأنها ﴿ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾^(٢) . وهى بالإقامة عبادة حقه ، فيها خضوع كامل ، ناشئ عن إحساس يقينى بعظمة الرب القادر سبحانه وتعالى ، ويتبعها أثرها المراد الذى يظهر فى البعد عن كل باطل ، والتخلق بكل حسن جميل ، وهكذا كل عبادة تعطى للنفس جرعة من الذكر ، وجزءاً من السعادة .

ولا يرى الداعية من عبادته هذه المنزلة إلا إذا أداها مخلصاً كما أمر ، فإن القوم جميعاً ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾^(٣) ، وقد قال لهم الرسول ﷺ ﴿ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾^(٤) ، ولذلك فهم بسبب هذا الإخلاص يشعرون بالمعية الإلهية دائماً ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا

(١) سورة طه ، الآية ١٤ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥ .

(٣) سورة البينة ، الآية ٥ .

(٤) سورة الزمر ، الآية ١١ .

أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴿١﴾ . أنظر إليهم تجدهم ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ
 اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ ﴿٢﴾ . لا يفارقون ذكره فى لحظة من لحظات
 الحياة ، وكذلك يذكرهم ربهم . فى الحديث القدسى : " أنا عند ظن عبدي بى
 ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى
 ملا ذكرته فى ملا خير منه " ﴿٣﴾ ، وهم فى ذكرهم الدائم يتقلبون بين الخوف
 والرجاء ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ﴿٤﴾ .

والداعية كما هو الواقع يعلم أن العبادة لا تقتصر عن نوعها الخاص الذى
 رسم الدين إطارها ، وحدد شعائرها ، كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، بل
 إنه فى كل حياته عابد كما أراد الله بالمعنى العام ، والخاص معاً فاجتماعياته
 عبادة يفعلها لله رب العالمين ، والسعى فى معاشه ، والتعاون مع أهله عبادة
 يؤديها ، ويلتزم بها لأنها من حقيقة دينه .

والقرآن الكريم يقرن من خرج مجاهداً فى سبيل الله بمن خرج سعيّاً على
 المعاش . فيقول تعالى ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ^٥
 وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿٥﴾ .

إن هذا الفهم الأصيل للدين يجعل الداعية فى علاقة خيرة مع الناس ،
 فيعود المريض ، ويطعم الجائع ، ويسقى العطشان ، ويرفع الأذى من طريق

(١) سورة المجادلة ، الآية ٧ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٩١ .

(٣) صحيح البخارى ج ٩ ص ١٣٩ .

(٤) سورة السجدة ، الآية ١٦ .

(٥) سورة المزمل ، الآية ٢٠ .

الناس ، ويدفع إلى السعى ، والضرب فى الأرض ، يؤديها الداعية بهذا الفهم وبتلك النية ، ويسلمها لله رب العالمين .

وعبادة الداعية كما هو المطلوب استغراق كامل فى عالم الروح ، لأنها عنده لذاتها فتربطه تلقائياً بالله ، وتبرزه كحقيقته خاضعاً لربه ، محباً هائماً فى تعلقه به ، لأنه بإيمانه أشد حباً لأنه كما عرفه ربه بقوله ﴿ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾^(١) ، وللدعاة عباد الله بحق ﴿ تُحِبُّهُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ ﴾^(٢) ، لأن الله يحب المتقين ، والمحسنين الصابرين .

ومع هذه العاطفة الصادقة من الداعية لا يملك أمام أمر الله إلا السمع ، والطاعة . يبحث عن المعروف ليفعله . ويأمر به . وعن المنكر ليجتنبه ، وينهى عنه ، وبسبب استغراق الداعية فى ذكر ربه الحبيب إليه كانت العبادة أعظم علاج لراحة نفسه ، ونسيان آلامها ، كما أنها أعظم وسائل الشكر تحقق المهدوء. المتام . ألا. تراها كانت علاجاً لرسول الله ﷺ يوم. أن. أكثر القوم. من أكاذيبهم ومفترياتهم حتى ضاق صدره بما يقال ، فوجهه الله إليها علاجاً له فقال ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾^(٣) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾^(٤) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾^(٥) .

ووجهه إليها كذلك إذا أحس بالنصر والفوز شكراً ورضى ، فقال تعالى ﴿

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾^(٦) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾^(٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾^(٨) .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٤ .

(٣) سورة الحجر ، من الآية ٩٧ : ٩٩ .

(٤) سورة النصر .

والعبادة بدورها لا تجد عسراً في القيام بمهمتها في الشدة ، أو الرخاء لأنها تعيش إنساناً منفعلاً بها ، ومسلماً بأنه مخلوق يتصرف بإرادة الخالق ويؤمن أنه ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾^(١) .

إن هذا الإيمان الراسخ (من الداعية) الذي استتبع عبادة مخلصه صادقة وحباً هائماً شاملاً ، يؤدي بصاحبه حتماً إلى المتوكل المدائم على الله ، والاستسلام له بلا تردد ، لأنه ما دام قد ثبت في نفسه ثبوتاً جازماً أنه لا فاعل إلا الله ، واعتقد فيه تمام العلم وتمام القدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العناية والرحمة بجملة العباد وآحادهم ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته ، وعلمه ، ورحمته ، قدرة ، ولا علم ، ولا رحمة ، فإنه متكل لا محالة على الله ، مستمر في انفعاله الروحي الصادق ، لأن الله معه في كل آن وحال ، ولتمام توكله نجده يسلم أمر رزقه إلى الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾^(٢) ، ويترك كل شئ لإرادة الله لأن المسألة هي ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾^(٣) ، ويشكر المنعم ويصبر على المكروه ﴿ وَلَتَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذِيْتُمُونَا ۚ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾^(٤) .

وعلى الجملة فإن المرء كما يقول الحكيم الترمذى : من نور الله قلبه بالإيمان- قويت معرفته ، ولستتارت- بصيرته بنور- الميقين ، فاستقام- قلبه ،

(١) سورة الحديد ، الآية ٢٢ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٥٨ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٦٧ .

(٤) سورة إبراهيم ، الآية ١٢ .

واطمأنت نفسه ، وسكنت ، ووثقت ، وأيقنت ، وسعدت بربها الخالق ، وأتتمنته على نفسها ، فرضيت به وكيلاً ، وتركت التدبير عليه ، فإن وسوس له عدوه بالرزق ، والمعاش لم يضطرب قلبه ، ولم يتحير لأنه قد عرف أن ربه قريب ، وأنه لا يغفل ، ولا ينسى ، وأنه رؤوف رحيم ، وأنه حلیم ودود وأنه رب عفو غفور ، وأنه عدل لا يجور ، وأنه عزيز لا تمتنع منه الأشياء وأنه يجير ، ولا يجار^(١) .

وبهذه الصلة الصادقة مع الله تكتمل عقيدة الداعية فيكون خيراً في كافة الجوانب ، ويملك القدرة على الدعوة والبلاغ ، وحينئذ يمكنه أن يفيض على الناس بما امتلأ به ، فكل إناء بما فيه ينضح ، والظل في استقامته ، وامتداده يشبه أصله .

إن داعية متمتعاً بهذا اليقين يخدم الدعوة أكثر من آلاف ضعف إيمانهم وهذلت عقيدتهم ، لأن هؤلاء الآلاف يضررون ، ولا يفيدون ، وقد أتى الإسلام من قبلهم .

وبوجود هذا الداعية تصل الدعوة حياة نابضة للناس ، وبذلك تقوى العقيدة ، ويتحقق الإيمان ، واليقين في حياة المدعوين .

(١) الرياضة وأدب النفس ص ٩٣ .

الركيزة الثانية

المعرفة الشاملة للمدعوين

من أساسيات النجاح فى تبليغ الدعوة على وجهها الصحيح معرفة المدعوين والإحاطة بالواقع النفسى ، والفكرى ، والإجتماعى لهم ، لأن ذلك ييسر عملية الدعوة ، ويمكن القائمين على شئونها من وضع الخطط الملائمة للمدعوين ، ومراعاة ما هم عليه من فكر ، ودين ، واتجاه .

إن المعرفة بالمدعوين تمكن الدعاة من مخاطبة القوم بلغتهم ، والدخول إلى عقولهم من الجوانب المؤثرة التى تدفعها إلى النظر و التفكير .

إن كل جماعة لها خصائصها النفسية ، واتجاهاتها العقلية ، ونشاطها العلمى ، وفى هذه الجوانب توجد مفاتيح الولوج لشخصية الجماعة ، وذاتية الفرد مع غيره من الناس .

والمقصود بالجماعة المطائفة من الناس. التى تكون. مجتمعاً متماسكاً ، مترابطاً بواسطة انتماءات خاصة كالوطن ، أو الدين ، أو التحزب ، مما يؤلف من أفرادها وحدة لها ولاء عام واحد .

إن. أى. جماعة تعيش مدة ما فى إطار. انتماء. معين .، تكسب صفات خاصة ، وتعيش اتجاهات مشتركة ، وآمالاً واحدة .

إن. الفرد. يكتسب من الجماعة شعوراً. بقدرة. لا. تقهر .، بينما الفرد. وحده يردع غرائزه ، ويخضعها لعقله ، ويحس بالمسئولية .

إن الفرد وسط الجماعة يذعن لغرائزه طوعاً ، وإذا عاش وحده عاد لعقله ، وقيد غرائزه بالعقل والمسئولية .

لهذا كان فهم المدعو من أساسيات تكوين الدعاة ، ليتخيروا المنهج الذى يتبعونه حين الدعوة ، لأن أملهم النجاح ، وتحقيق ما يرجون من غايات .

ولقد كان ﷺ يعرف كل شئ عن من يتوجه لهم بالدعوة ، وكان يسأل عن المدعو قبل أن يدعوه إن لم يكن يعرفه .

ولعل الحادثة التالية أوضح دلالة على ما نحن بصدد من تأثير الجماعة فصاحبها اتخذ موقفاً من الدعوة ، بعد أن كاد يؤمن عندما احتكم إلى طبيعته الخاصة ،. لكنه لحظه المعثر قدر. له أن يضع نفسه مرة أخرى في غمار الجماعة ، ووقع تحت تأثيرها .

ذلكم هو الوليد ابن المغيرة الذي سبق ذكر قصته مع رسول الله ﷺ .

لابد من تثبيت الإيمان في القلوب ، ومنحه القدرة على مغالبة الموانع النفسية ، ولا يصح أن نكتفى بجعله إيماناً عقلياً بارداً ، لابد أن يتحول الإيمان إلى يقين قوى مسيطر على حياة صاحبه ، ولن يتهيأ ذلك إلا بأن نتوجه إلى كل منافذ التأثير في الإنسان ، وهو وحده ، أو وهو في جماعة ، لنصل من خلالها إلى ما نريده من جعل الدعوة في قرار مكين ، وأن نغير بها النفوس قبل أن نغير بها السلوك .

يقول الدكتور/ محمد رجب البيومي : إذا كان القرآن الكريم قد أوتي الإقناع المنطقي الملزم ، فإنه لا يتجه بحديثه إلى الفكر وحده ، فيلزمه الحجة مكتفياً به عن سواه ، إذ أن فاطر السموات والأرض يعلم أن المعرفة العلمية وحدها لا تكفي في الجذب و التأثير ، فلا بد معها من غزو مناطق الشعور ، وبعث كوامن العواطف ، حتى يتهيأ السامع ، والقارئ ، إلى انجذاب نفسي يدفعه إلى أشرف المبادئ ، وأحكم المثل .

ولو كانت المعرفة وحدها كافية للهداية لكانت كتب العلوم الأرضية دليل المهتدي ، إذا قرئت ودرست ، ولكنك تشاهد أناساً يقرأونها مقتنعين ، ثم يحيدون عن أكثر ما تهدي إليه ، إذ أن العلم شئ ، والسلوك الإنساني شئ آخر ، لذلك اتجه القرآن إلى التأثير الوجداني مع إيراد الحجة والبرهان ، ليغزو مناطق

الشعور الإنساني بتصويره ، كما غزا مناطق التفكير العقلى بحججه ، فجاء التصوير البيانى فى القرآن الكريم آية الآيات فى الروعة والإعجاز^(١) .

والإنسان سواء أكان منفرداً أم فى جماعة ، يجمع فى طبيعته من الملكات المتعددة ما يجعل إهمال بعضها إهداراً لجانب من الطبيعة الإنسانية التى خلق الله تعالى الإنسان عليها ليقوم بدوره ، ويؤدى وظيفته .

وحين اتجه علماء الكلام إلى العقل وحده ، ماذا كانت الثمرة التى جناها الإسلام من وراء جهودهم الخارقة التى ظلت قروناً تبتدىء ، وتعيد ، فى حجج عقلية ، باردة لا تثير وجداناً ، ولا تدفع إلى عمل !!؟

إن علينا أن نلتقى بالإنسان فى قواه المختلفة ، وأن نتعامل معها جميعاً نتعامل مع العقل بماله من قوة الإدراك والتميز ، ونتعامل مع الوجدان باعتباره وعاء الأحاسيس ، والمشاعر ، ونتعامل مع الإرادة باعتبار ما تتخذه من قرارات ذلك أن الصفات النفسية للإنسان مرتبط بعضها ببعض ، ويؤثر بعضها فى بعض .

يقول الدكتور/ محمود حب الله : فالعقائد الدينية لا تعتمد على جانب واحد من جوانب الحياة النفسية للإنسان . الوجدانية والإدارية والعقلية . ولكنها تتصل بها كلها اتصالاً وثيقاً ، ولا ترضى نفس المرء ، ولا تكتمل شخصيته إلا إذا تضامنت شخصيته ، ونواحيه النفسية كلها، وعملت معاً على تقبل كل عقيدة من عقائده ، فلا يوجد شئ من التضارب بين قواه المتعددة ، حول عقيدة من العقائد ، بل انسجام ووثام ، فيوجد قبول عقلى ، واطمئنان قلبى والنقاء مع الإرادة ، وذلك هو كمال الشخصية وكمال العقيدة .

ثم يقول: .. وما دامت العقائد الدينية متصلة بكل من العقل والوجدان والإرادة احتاجت فى وسائل نشرها ، إلى الاعتماد على كل هذه القوى^(١) .

(١) البيان القرأنى ص ٨٧ .

وما دام هذا شأن من توجه له الدعوة وطبيعته ، فلا بد لنا كي نصل إلى التأثير فيه أن نلاحظ طبيعته بكل جوانبها ، لأن الفرد في جماعة يواجه واقعاً يحدث في طبيعته بعض التعديل عنه وهو وحده ، حيث ينشط جانبه الوجداني ، بسبب تفاعله مع الجماعة ، واستهوائها له ، وسيطرة روحها العامة على ملكاته الخاصة .

وقد سبق أن رأينا أن رسول الله ﷺ بعث إلى العالم كله ، ولذلك عرفه الله بطبائع الناس ، وواقع المجتمعات المختلفة عن طريق القصص القرآني الذي نزل أغلبه في مكة قبل الهجرة .

وقد احتوى القصص القرآني على نماذج من المجتمعات البشرية ووضح خصائصهم ، وحدد أساليب مخاطبتهم حيث نراه يصور الملاء ، والضعفاء ، ويجلي حقيقة المنافقين والمشركين ، ويبين دور السفهاء والمترفين بين الناس ... إلخ .

وبذلك قدم القصص القرآني تحليلاً صحيحاً للنفوس والعقول للناس أجمعين إن الهيكل العام للقصة القرآنية يأخذ صورة واحدة ، فهو قائم على دعوة الله يقدمها الرسول إلى قومه ، وإلى من أرسل إليهم ، فيقف المدعوون موقف المعارضة والإنكار ، فيأخذ الرسول في محاورتهم ، والرد عليهم ، ويناقشهم في شبههم ومعارضاتهم ، ويبين لهم الصدق بأدلتهم ، ويحدد لهم بطلان ما هم عليه ببراهينه ، ويطوف بهم خلال الحوار مع طبيعة النفوس ، واتجاهات العقول ، وميول الوجدان .

إن القصص القرآني يبرز ملامح أشخاصه ، ومنهجهم في الجدل والحوار وموقفهم من الحق ، وبذلك يقدم للدعوة والدعاة صورة حقيقية للمدعوين .

وينتهي القصص القرآنى دائماً ببيان عاقبة المؤمنين، ومصائر الضالين المكذبين .

إن معرفة المدعويين ، والوقوف على المثيرات الوجدانية ، وإدراك المؤثرات العقلية ضرورة للدعوة حتى لا يحدث انفصال بين الداعية والناس .
لقد كان رسول الله ﷺ يحدث كل قوم بلغتهم . وفى كل أمر يهمهم ، وحين يقدم لهم الآيات الدالة على صدق الدعوة اختار الأدلة المناسبة ، فإن كانوا من أهل الزرع خاطبهم بالماء ، والسفن ، واللؤلؤ والمرجان ... وهكذا
إن خطاب العالم يختلف عن خطاب العامى بالضرورة ، كما أن الحديث مع الكبير ليس كالحديث مع الصغير ، والقضايا التى تحرك الرجل ليس هى التى تحرك المرأة .

والإنسان كما يتأثر بالجماعة يتأثر بالبيئة، والثقافة، والتوجه العام للمجتمع.
فالإنسان الشرقى يختلف عن الإنسان الغربى ، والعربى ليس هو العجمى ، ومن ثقافته علمية ليس كمن ثقافته فنية أدبية ... والإنسان فى مجتمع مستقر يفكر بطريقة تغاير الإنسان فى مجتمع مضطرب قلق .
وهذه نماذج لمدى تنوع الناس .، وتعدد بؤر التأثير فيهم .، مما يؤكد ضرورة تفاعل الدعاة مع المخاطبين ، ومخاطبتهم بما يناسبهم^(١) .
وفى العصر الحديث رأينا مدى تأثير الدعاة فى أقوام يتفاعلون معهم ، وما كان ذلك إلا بسبب المعرفة الشاملة بواقع المدعويين وطبائعهم ... الأمر الذى مكنهم من مخاطبتهم بالحسنى ، ومناقشتهم بالدليل المقنع ، والبرهان السديد .

(١) لقد عاصرت مجموعة من الدعاة أرسلهم الأزهر الشريف . مشكوراً . للدعوة فى بعض البلدان الإفريقية لكنهم لعدم معرفة لغة وأحوال الناس ظلوا مدة طويلة يعلمونهم مبادئ اللغة العربية ، ولم يتمكنوا من تبليغهم دين الله تعالى .

الركيزة الثالثة

الاتصال القوى بالناس

لا يقف أمر الداعية عند تحسين صلته بالله على نحو ما سبق فإن ذلك يفيد شخصه أولاً ، وهو مستوى يحتاج إليه كل من أسلم وجهه لله ، وهو محسن ، وإنما على الداعية أن يحسن صلته بالناس فمعهم تكون دعوته ، ولهم ينشرها ، وبهم يحقق نصرها ، وفوزها ، وهذه الصلة الاجتماعية ضرورية للداعية لأنه :
أولاً : أخ استظهر عليهم بالنصح والتوجيه .

ثانياً : محل الثقة والنظر لما له من صفات ، ولما ينادى من مبدأ .
ثالثاً : رائد الجماعة ، وزعيمهم ، ولذلك وجب أن يتحلى بصفات تجعله يعيش وسط الناس في فهم وتقدير ، ويتألف معهم في مودة ، ويتحلى بما يضعه في الريادة من غير منازعة وشكوك .

وللناس جميعاً إخوة . ومردهم جميعاً إلى عنصر واحد . هو آدم . أب البشر أجمعين ، وعلى الداعية أن يتيقن ذلك ، ويعمل على أساس أنه لا فرق بين إنسان . . وإنسان . . بسبب لونه . أو طبيعته . أو عنصره . وإنما يكون التفاوت بشئ خارج عن ذات الشخص . وعنصره كإيمان . أو عمل . أو إخلاص ، وهو تفاوت لا يمس الإنسانية في شئ ، وقد وضع الله هذه الحقيقة بقوله تعالى ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

يقول الزمخشري : إن معنى الآية ، فما منكم من أحد إلا وهو يدلى

بما يدلى به الآخر سواء بسواء. ، فلا وجه للتفاخر ^(١) ، يقول الله تعالى
﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ^(٢) ، وذلك شئ طبيعي لأن
الإنسان خلق مكرماً كما قال تعالى

يقول الألوسي : أى جعلناهم قاطبة برهم ، وفاجرهم ، ذوى كرم أى شرف
، ومحاسن ^(٣) ، ولهذه الكرامة الإنسانية جاءت النداءات فى القرآن الكريم مصدره
ب ﴿ يَبْنَى آدَمَ ﴾ ، و ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ تنويها بهذه الصفة العامة التى يأخذ
منها أى إنسان بقدر ما يأخذ الآخرون سواء بسواء .

إن هذا الفهم عند الداعية يجعله لا يفرق بين إنسان ، وإنسان فى دعوته
ولا يفرق بينهم بسبب غنى ، أو حسب ، أو ما شاكل ذلك ، فلا يدعو القوى
تاركاً الضعيف ، أو يخص غنياً مهملاً الفقير ، أو يقصر دعوته على الرجال
دون غيرهم ، وذلك لأن دعوته عامة للجميع ، وهو المكلف بنشر هداية الله
بينهم ، والكل محتاج إليها ، بل إن الضعيف الضال أحوج إليها من سواه ،
ولذلك فالإعراض عنه ليس من صفات الداعية المثالى .

ولقد أودع الله للدعاة درساً فى هذا الباب بما حدث من النبى ﷺ مع (عبد الله
ابن أم مكتوم رضي الله عنه) ، فرغم أن (عبد الله) كان أعمى مما جعله لا يتحقق من
عمل النبى ﷺ فى مجلسه ، إذ دخل عليه طالباً التعليم ، فى الوقت الذى كان
النبى ﷺ مشغولاً فيه بتعليم غيره من صناديد قريش ، وكونه أعمى يعطيه العذر
فى عدم تقدير الوقت المناسب للسؤال ، وسبق القرشيين فى الحضور يعطى

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٦٩ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٧٠ .

(٣) روح المعانى ج ١٥ ص ١١٧ .

النبي ﷺ عذراً في إمهال (عبد الله) ، خاصة وأن (عبد الله) أسلم من قبل ،
والقرشيون لم يسلموا بعد ، وفي إسلامهم إسلام غيرهم .

رغم ذلك فقد عوتب النبي ﷺ في هذا الموقف حتى لا يقال أنه أهمل
(عبد الله) لفقره وعماه ، واهتم بغيره لجأه وغناه ، ولا يبقى هذا القول بعد ذلك
بداية سيئة يهتم فيها الدعاة بالأشياء الظاهرة . ويفرقون بين بعض الخلق
وبعض آخر ، بما ليس لهم به سبب فقال تعالى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ أَنْ جَاءَهُ
الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ۚ أَوْ يَذْكُرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ أَمَّا مَنِ
اسْتَغْنَى ۚ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ۚ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ
يَسْعَى ۚ وَهُوَ كَخَشَى ۚ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ ﴾ (١) .

إن النبي ﷺ في هذا الموقف كله يعمل للدعوة ، ويسعى إلى إسلام القوم
وتركيتهم ، باذلاً من نفسه جهداً ، وعملاً ، كما تفيد التاء في (تصدى) ، والقوم
الذين تصدى لهم النبي ﷺ هم عتبة ، وشيبة ، ولدا ربيعة ، وأبو جهل والعباس
ابن عبد المطلب . وأمية بن خلف . وللوليد بن المغيرة . وهم قادة مكة ،
ورؤساؤها ، مما جعل الرسول يرجو من إسلامهم إسلام غيرهم (٢) ، وبقي الدرس
مستمراً مطلقاً ، يجب الاتعاظ به ، والعمل بموجبه .

(١) سورة عبس ، من الآية ١ : ١٠ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢١٨ .

الركيزة الرابعة

الملاءمة بين الدعوة والواقع

مرت الدعوة فى مكة بمراحل متعددة تدور بين السرية فى الدعوة ،
والجهر الخاص ، والجهر العام ، وكان لكل مرحلة ظروفها الذى حتم صوراً فى
أساليب ، ووسائل الدعوة .

وحين ننظر إلى الدعوة فى العصر الحديث .، ونتأمل واقع العالم
المعاصر نرى أنفسنا أمام مجموعة من الحقائق . وأهمها :

أولاً :

يموج العالم بموجات عديدة . ومتعارضة من المذاهب ، والفكر ،
والسلوك .

فمن الناحية الفكرية ، والمذهبية نرى فى كل دين أقلية تلتزم به ، وأكثرية
تدعيه ، وتطبق ما يعارضه ، وتكتفى بمسميات لا مضمون لها .
والذين يتمسكون بدينهم منقسمون إلى جماعات مختلفة كل منها يدعى
الحق لنفسه فقط ، ويرى أن ما عداه باطل ، ولو كان هذا الانقسام فى الفروع
لهذا الأمر ، لكنه كثيراً ما يكون فى الأصول مع أنها واحدة لا تتنوع .

ثانياً :

تكتفى الدول الإسلامية برموز إسلامية على أساس أنها الإسلام فتحافظ
على الشعائر الدينية كالصلاة ، والصوم ، والحج ، وتنظم الأحوال الشخصية
كالزواج ، والطلاق ، والميراث وفق شرع الله تعالى ، وتترك ما عدا ذلك لقوانين
البشر التى وضعها الناس ، لأنها تتصور أن تطبيق كافة أحكام الشريعة أمر
مستحيل ، أو يذهبون إلى عدم تقبل الناس لها ، أو يرون فيها

شدة لا تلائم العصر .

ثالثاً :

سيطرت صورة الحياة الغربية القائمة على الفكر الوضعى على الاتجاهات الثقافية ، والفنية ، ومختلف جوانب الحياة الاجتماعية ، وتقبل الجمهور ذلك ، وإن خالف تعاليم الإسلام مخالفة ظاهرة .

رابعاً :

تعمل أجهزة التوجيه ، والتنقيف بعيداً عن قيم الإسلام غالباً ، حيث ترى فى أجهزة الإعلام الصور الخليعة ، والمسلسلات الهابطة ، والقصص ، والأفلام بمحتواها الضار ، ولذلك أثره السئ فى التوجيه .

خامساً :

برزت طبقات فى المجتمع الإسلامى تنسلخ عن الإسلام باسم المنتوير والتجديد ، وأصبح لهذه الطبقات صوت وأتباع ، وهى ترحب بالفكر الوضعى وتدافع عنه .

سادساً :

تمكن الغرب المسيحي القوى ، والغنى من فرض أنماطه الحياتية على العالم الإسلامى الضعيف ، ولم يجد المسلمون أمامهم إلا الخضوع للقوة التى تملك المال ، والصوت ، وكل ما يحتاجه الضعفاء .
وكل مخلص لإسلامه يجد نفسه أمام قوة ترقب عمله ، وتحاول هدمه بأساليبها ، ودهائها .

سابعاً :

يجد الدعاة أنفسهم تحت المراقبة الدقيقة لقوى العالم المختلفة ، حيث تحلل كلماتهم ، وتقرأ كتبهم ، وتتابع حركاتهم ، وأعمالهم ، بحيث لو رأوا خطراً فى

(٦٧٨)

دعوتهم ، وعملهم ، فإن التصدى لهم يأتى سريعاً تحت مسميات عديدة تجعلهم فى مصاف الذين يعتدون على حرية الآخرين .

ثامناً :

ألف العامة فى المجتمع الإسلامى المبعد عن تعاليم الإسلام . ، وجعلوا الإسلام كله ، وصار علمهم بالأفلام ، والأغاني ، والأزياء ، والألعاب الرياضية هو اهتمامهم ، وهو ثقافتهم .

لقد راعى شباب وجدتهم يعرفون أسماء ، ومراكز اللاعبين فى الأندية الأوربية وغيرها ، وفى نفس الوقت لا يعرفون عن الإسلام إلا قليلاً ... وربما لم يعرفوا شيئاً أصلاً ، ووجدتهم فخورين بهذه المعرفة ، غير عابئين بجهلهم أمور دينهم .

هذا هو الواقع ...

بينما الدعوة حقيقة ربانية ، حفظها الوحي ، وصانتها قلوب قلة مؤمنة ، وتحتاج إلى من يتحرك بها .، ويبلغها للناس بالحسنى .، وبصورة محببة ، وبمنهج يجعلها تفتح العقول والقلوب ، بعيداً عن التصادم ، والعنف ، والعدوان .

فهل يا ترى ؟!

يطبق الدعاة منهج المرحلة السرية بما فيها من التخير والانتقاء ، وترك العلن ، والاكتفاء بالاتصالات الفردية ، حتى لا يحدث تعارض ، ومخالفة .

هذا رأى

أم يتبع الدعاة منهج الدعوة الجهرية الأولى بما فيها من الدعوة العلنية مع بقاء جمهور المسلمين فى صمته ، كل فى عمله ، لا يشعر بمسئوليته المباشرة تجاه الآخرين مع الحذر فى الحركة ، والتوجيه .

وهذا رأى آخر

أم نتبع منهج الجهر العام ليقوم كل مسلم بإعلان الإسلام ، والدعوة إليه

وتحمل مسئولية تجاه دين الله تعالى مع نفسه ، ومع أهله ، ومع كل من يمكنه أن يتصل به .

وهذا رأى ثالث

إن الأمر ليس بهذه البساطة التي يتصورها بعض الناس ، لأنه يحتاج إلى دقة النظر ، والتأمل في النتائج ، وتحليل المواقف لتكون الدعوة إلى الله متلائمة مع الواقع ، وليتخذ الدعاة لكل حالة منهجها المناسب .
فهناك حالات تحتاج إلى السرية ، وأخرى يناسبها الجهر الخاص ، وثالثة تحتاج إلى الجهر العام .

والداعية هو صاحب القرار في ذلك ...
ولو صدقت الجماعة مع دينها فعلها أن تكون عوناً للدعاة في التخطيط والتدريب ، والإعانة ، والتوجيه .
وليكن قرار الداعية واضحاً ، وهو يتخير الموضوع ، والوسيلة ، والأسلوب

...

فمن ناحية اختيار موضوع الدعوة عليه تحديد ما يريد ، مع التركيز على العقيدة ، لأنها أساس الدعوة ، وعليه أن يكون مع العقيدة ملتزماً يقول الله تعالى ﴿ وَلَا تُجَدِّدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ^٥ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَخَنُ لَهُ ^٦ مُسْلِمُونَ ﴿٥٦﴾ ^(١) .

ويقول الله تعالى ﴿ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٦ .

دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ .

وحين يتكلم فى العقيدة ، فإن من الأولى أن يبدأ بالأهم ، ثم المهم بعده ، على ضوء ما يراه مناسباً لدينه ، ولمن يدعوهم .
إن غرس التوحيد فى القلوب هو أساس العقيدة ، وبعده إثبات الرسالة ، وأركان العقيدة كلها .
وإذا ما اعتقد الإنسان أطاع كل ما يتفق مع عقيدته ، لأن أساس البناء هو العقيدة .

ولتكن الصورة البيانية الحسنى هى لباس العرض ، وأسلوب الدعوة ...
وعلى الداعية أن يدرك أن الدعوة السليمة لا تحتاج إلى السب ، واللعن ، وليس منها العدوان ، وسوء الخلق ... مع كافة المدعويين .
وحين يختار الوسيلة فعليه أن يجعلها مناسبة للناس ، فمع العلماء يكون الكتاب ، والمحاضرة ، والندوة ...
ومع متوسطى الثقافة تكون الصحيفة ، والبرامج التوجيهية ، ومع العامة يكون الجدل ، والحوار ، والمقارنة ... وهكذا .
ومع الأسلوب عليه أن يعود للقرآن الكريم يأخذ منه ، فلقد كان القرآن الكريم يخاطب بأسلوبه الكفار ، والمنافقين ، والمؤمنين ، ويناقش الملأ والفقراء ، ويتحدث إلى الرجال ، والنساء ، والكبار ، والصغار ... وهكذا .
ولذلك كانت الملاءمة بين الدعوة ، والواقع ضرورة أساسية لنجاح الدعوة
إن العقيدة أساس البناء ، وغرسها فى القلوب مهمة الدعاة ... وليكن معلوماً للجميع أن الشريعة تأتى تابعة للعقيدة الصحيحة بصورة تلقائية .

الركيزة الخامسة

إدراك مسئولية الدعوة

بمراجعة تاريخ الدعوات الإلهية منذ آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ نلمس ضخامة الجهد المبذول ، والمعاناة التي بذلها الأنبياء لأداء الأمانة التي تحملوها في سبيل الله تعالى .

ولذلك نشير إلى ضرورة إدراك هذه الحقيقة ليقوم الجميع بما يجب عليه إزاء الدعوة .

إن الدعوة إلى الله تحتاج إلى إخلاص المسلمين جميعاً ، وخير للدعوة أن تتكاتف الأمة كلها في هذا المجال .

لقد رأينا رسول الله ﷺ يقوم بالدعوة ، ويقوم معه كل من يدخل في الإسلام ، ولذلك أخذت الدعوة الصورة الجماعية منذ الجهر بها ، ولم يحدث مرة أن الرسول ﷺ كان في اتجاه ، وكان المسلمون في اتجاه آخر .
ورأينا . كذلك . المسلمين ، وهم يدعون إلى الله في صورة تقرب الناس إليهم ، وتعرفهم بالإسلام برفق ، وهدوء ، وتدعو إلى الله بالحسنى ، والخلق الجميل .

ورأينا أصحاب رسول الله ﷺ رغم الضعف ، والقلّة يقومون بالدعوة ، ويضيفون للإسلام أتباعاً ، مؤمنين ، صادقين ، فلقد أدخل (مصعب بن عمير) الإسلام في كل بيوت المدينة ... وعاش (جعفر بن أبي طالب) في الحبشة داعياً محبوباً بين غير المسلمين .

وليس من فقه الدعوة أن يخاطب الناس بما ينفرهم من دين الله تعالى ،

فلقد علمنا الله أن نقول لأهل الكتاب ﴿وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُكُم وَاحِدٌ﴾^(١) ، ونقول لهم ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢) .

وليس من فقه الدعوة أن يصطدم المدعاة مع المسؤولين ، عن طريق التشهير ، ونشر النقد بصوت مسموع ، لأن كثيراً من المسؤولين يحتاجون إلى النصح الهادئ ، والكلمة الصادقة يسمعونها بخلق الإسلام ، وسلوك المؤمنين . وليس من فقه الدعوة أن يتفرق الدعاة إلى شيع ، وفرق ، لأن ضرر هذا أكثر من نفعه ، وكيف يتصور الدعاة أنهم ينادون للتوحيد ، وهم ينقسمون حتى يتخيل الناس أن لكل جماعة دعوة ، وأن لكل فريق إله .

إن أصحاب الهوى ، والغرض أفسدوا ما بين الدعاة ، والحكام ، فانقسم العالم الإسلامي على نفسه ، وأصبح صراعه مع ذاته ، وخير للإسلام أن يكون الأمر على غير هذا النمط .

إن من فقه الدعوة أن يكون العلماء ، والأمراء معاً في طريق واحد ، لغاية واحدة ، وبخاصة أنهم جميعاً في الأمة الإسلامية يعملون لله ورسوله . وإنى لعلى يقين من أن العلماء إذا تمكنوا من عرض الإسلام بصورته النقية الصحيحة ، بعيداً عن التشنجات المذهبية ، والعصبية الفكرية ، فإنهم سيحققون به ، ومعه نهضة إسلامية تفيد العالم كله .

إن ملامح الخطاب الدينى الإسلامى يقوم على الأسس التالية :

أولاً: أن يكون محدد الموضوع ، واضح الهدف فى إطار المشروعية الإسلامية .

ثانياً: الالتزام بشرف الوسيلة ، وحسن الأسلوب ، وجمال الطلب .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٦ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٢٤ .

(٦٨٣)

ثالثاً : مراعاة حق المخاطب فى الفهم ، والمناقشة ، وحرية اتخاذ ما يرى .

رابعاً : ضرورة الالتزام بالمرجعية الإسلامية بمصادرها المعروفة فى كل جوانب عملية الدعوة .

خامساً : وضع الخطاب فى إطاره الصحيح ، فليس ما يقوله المتحدث هو كل الحقيقة ، وليس موضوعه هو كل الإسلام .

سادساً : يجب التزام الدعاة جميعاً بشمول الإسلام لكافة جوانب الحياة ، ولا معنى أن يقصر البعض نشاطه على جانب إسلامى واحد ، ويتهم من يتخطى هذا القصور بالخطأ ، وبدل أن يعينه يحاربه ، ويعارضه .

ولكل هذا كان إدراك مسئولية الدعوة ، والوقوف على أبعاد هذه المسئولية ضرورة هامة لنجاح الدعوة إلى الله تعالى .

الركيزة السادسة

دور المرأة المسلمة فى الدعوة

المرأة نصف المجتمع أكرمها الله تعالى ، وجعلها من الرجل ، ومعه فتحقق لها بالإسلام الحقوق التى كانت محرومة منها .

وقد كلف الله تعالى المرأة بالإسلام ، وحدد لها دورها فى إطار أسرة كريمة ، وفى حركة مجتمع طاهر ، ولعل ما نشير إليه هنا دورها فى حركة الدعوة إلى الله تعالى فالمرأة هى أم الرسول ﷺ ، وهى التى أرضعته ، ونشأته ، وأشرفت على تربيته .

وهى زوجة الرسول . ، أمنت به ، وصدقت برسالته ، ولأغنته بمالها ، ويسرت له الطريق بأمر الله تعالى فكانت خير عون على تبليغ الرسالة .

لقد كانت خديجة رضى الله عنها بأمر الله خير معين لرسول الله ﷺ تتبع خبره ، وتطمئن عليه ، وتسعى لتعرف حقيقة ما كان يراه الرسول ﷺ فى مبدأ بعثته ﷺ .

ولقد شاركت المرأة العربية فى مكة فى حركة الدعوة منذ البداية ... وها هى زوجة عمار ، تتحمل الأذى فى سبيل الله تعالى ، وتتقبل الموت راضية مرضية ، لتصير أول شهيدة فى الإسلام .

وهناك عدد من السابقات إلى الإسلام ، منهن من هاجرت إلى الحبشة ، ومنهن من هاجرت إلى المدينة ، ومنهن من بقيت صامدة فى مكة .

وقد اشتركت امرأتان فى بيعة الثانية ، وبايعتا رسول الله ﷺ بيعة الحرب ، وصدقنا فى بيعتهما ، فلقد سقطت أم عمار جريحة فى غزوة أحد ، وفى جسدها اثنا عشر جرحاً .

وتلك إشارات تؤكد دور المرأة في حركة الدعوة إلى الله تعالى ، ويجب على المسلمين تنشئة بناتهم على الإيمان الصادق ، وحب الدعوة إلى الله ، ومداومة الأمر بالمعروف . ، وللنهي عن المنكر لتكون المرأة هي المدرسة الصالحة لتخريج جيل صالح ، مؤمن .

والمرأة في العصر الحديث يمكنها أن تؤدي للدعوة خدمات جليلة عن طريق أبنائها ، وبناتها ، ويمكن أن تحيط أسرتها بسياج يحميها من أى فساد في الخلق ، والسلوك .

ويمكن للمرأة المسلمة أن تحول بيتها إلى مركز للإشعاع . ، وللخير لأولادها ، ولجاراتها ، وصديقاتها ، فتستفيد بأوقات الفراغ في مدارس فكرة دينية ، أو حفظ آية قرآنية ، أو قراءة حديث نبوي شريف .

إن المرأة المسلمة يمكنها عن طريق الاشتراك في الجمعيات الخيرية ، والوطنية من تقديم الإسلام عملياً لأخواتها ، وبذلك تكون سبباً في تعليم الإسلام للناس .

إن الفراغ عند المرأة كثير . ، وبديل أن يضيع في متابعة الأفلام ، والمسلسلات . ، والجلوس الطويل أمام التليفزيون يمكنها أن تحول بيتها إلى مدرسة صغيرة ، تتلى فيه آيات الله ، والحكمة ، وذلك فضل يوفق الله من يشاء من عباده له .

إن الإسلام لم يقف حائلاً أمام المرأة أبداً ، فهي نصف المجتمع ، وأمها وأخواتها ، وبناتها ، وصديقاتها ، وجيرانها في حاجة إليها .
ويوم أن تقوم المرأة المسلمة بواجبها فإنها تقدم عملاً عظيماً للمجتمع وللناس .

ولم يبخل الإسلام على المرأة بعلم . ، أو تعليم . فطلبها العلم فريضة كطلب الرجل له ، وقيامها بالتدريس ، والدعوة أمر مقرر في دين الله تعالى ،

(٦٨٦)

وها هي السيدة عائشة رضى الله عنها تروى الأحاديث لأصحاب رسول الله ﷺ ولتباعه ، وكانت مصدر فتوى للمسلمين ، ولقد شاركت في الحياة العامة ، والأنشطة العملية .

ومن هنا نؤكد على ضرورة اشتراك المرأة المسلمة في حركة الدعوة استنباطاً من سيرة رسول الله ﷺ ، وحركته بالدعوة إلى الله تعالى .



(788)

الخاتمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وبعد ،،

فلقد انتهيت من كتابة المرحلة المكية ، ووقفت بها عند بدايات الهجرة لإننى أرى الهجرة بداية المرحلة المدنية .

وحاولت أن أكتب السيرة النبوية بالتفصيل لأعيش مع رسول الله ﷺ فى حياته وأوصافه ، وشماله لأحقق أملاً عشته طويلاً ، وعشت مع حركة الرسول ﷺ بالدعوة ، وهو ينتقل بها بين القبائل ، والأماكن العديدة ، لأرى منهجية العمل لخدمة الإسلام ، ونفع الناس أجمعين .

ثم كانت أهم الركائز التى استنبطتها من السيرة النبوية ، والحركة بالدعوة خلال هذه الفترة .

وآمل ...

أن يكون كتابى هذا مفيداً فى السيرة والدعوة ، ومرجعاً للمسلم العادى ، وللدارس المثقف ، والعالم المجتهد .

وآعتذر عن كل تقصير وقع منى ، لأن التقصير من لوازم أى عمل بشرى ...

وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه سبحانه وتعالى ، وأن يجعله لى فى الدنيا ذكرى ، وفى الآخرة نوراً ، وذخراً ، وأن ينفعنى به يوم لا ينفع فيه مال ، ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

(79.)

فهرس الموضوعات

(٦٩٢)

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة الطبعة الثانية
١٣	مقدمة الطبعة الأولى

الفصل الأول

الواقع العالمى قبيل مجئ الإسلام

٣٥	التمهيد
٣٧	المبحث الأول : " العرب "
٣٧	(١) الموطن الجغرافى
٤١	(٢) الأوضاع الاجتماعية والسياسية
٥٠	(٣) الأوضاع الدينية
٦٧	المبحث الثانى : " الروم "
٦٧	(١) الموطن الجغرافى
٧٠	(٢) الأوضاع الاجتماعية والسياسية
٧٧	(٣) الأوضاع الدينية
٨٣	المبحث الثالث : " الفرس "
٨٣	(١) الموطن الجغرافى
٨٤	(٢) الأوضاع الاجتماعية والسياسية
٨٧	(٣) الأوضاع الدينية

٩١	المبحث الرابع : " الهنود "
٩١	(١) الموطن الجغرافى
٩٣	(٢) الأوضاع الاجتماعية والسياسية
٩٧	(٣) الأوضاع الدينية
١٠١	المبحث الخامس : ملائمة الواقع لظهور الإسلام
١٠١	أولاً : شيوع الضلال الدينى
١٠٧	ثانياً : هوان الإنسان
١٠٨	ثالثاً : سهولة التواصل
١١٠	رابعاً : تعدد الصراع
١١٣	خامساً : النضج الفكرى
١١٩	سادساً : انتظار رسول جديد
١٢٤	المبحث السادس : ركائز الدعوة من دراسة الواقع
١٢٤	الركيزة الأولى : ضرورة فهم الواقع
١٢٦	الركيزة الثانية : تقديم القضايا المناسبة للواقع
١٢٨	الركيزة الثالثة : اختيار الأسلوب المناسب للواقع

الفصل الثانى

السيرة النبوية من الميلاد حتى الهجرة

١٣٣	التهميد
١٣٦	المبحث الأول : علو نسبه ﷺ وصلته بقبائل مكة
١٣٦	(١) شرف النسب
١٥٢	(٢) طهارة النسب

١٥٨	 (٣) بعد آبائه ﷺ عن الشرك
١٧٠	 (٤) صلة بنى هاشم ببطون العرب
١٨٢	 (٥) ركائز دعوية فى اختيار الدعاة
١٨٢	 الركيزة الأولى : صيانة مكانة الدعاة
١٨٤	 الركيزة الثانية : تقوية الصلة بالمدعوين
١٨٥	 المبحث الثانى : " الإرهاصات "
١٨٥	 (١) التعريف بالإرهاصات
١٨٧	 (٢) صور من الإرهاصات
١٩٠	 (٣) موقف العلماء من الإرهاصات
١٩٤	 (٤) الرأى فى الإرهاصات
٢٠٩	 (٥) ركائز دعوية من الإرهاصات
٢١٢	 المبحث الثالث : ميلاد محمد ﷺ
٢١٢	 (١) الميلاد
٢١٥	 (٢) الحكمة فى يتم محمد ﷺ
٢٢٢	 (٣) تجليات ربانية فى مولده ﷺ
٢٢٢	 أولاً : فى الأشخاص حوله
٢٢٣	 ثانياً : فى تسميته
٢٢٥	 ثالثاً : فى ولادته يوم الاثنين وفى شهر ربيع الأول...
٢٢٦	 رابعاً : فى ولادته عام الفيل

٢٢٨	المبحث الرابع : محمد فى ديار بنى سعد
٢٢٨	(١) اضطرار حليلة لاصطحاب محمد
٢٣١	(٢) بركات محمد ﷺ على حليلة
٢٣٤	(٣) مزايا التنشئة فى البادية
٢٣٥	(٤) وفاء النبى لأمه حليلة
٢٣٨	(٥) ركائز دعوية فى التربية
٢٣٨	أولاً : تهيئة البيئة للدعاة
٢٤٠	ثانياً : العناية بالدعاة
٢٤١	المبحث الخامس : شق صدر محمد ﷺ
٢٤١	(١) الروايات المثبتة لشق الصدر
٢٤٦	(٢) الحكمة فى شق الصدر
٢٤٩	(٣) الرأى الحق فى شق الصدر
٢٥٢	المبحث السادس : التنشئة الاجتماعية لمحمد ﷺ
٢٥٢	(١) تربية أمه له ﷺ
٢٥٥	(٢) عناية عبد المطلب بتربيته ﷺ
٢٥٨	(٣) عناية أبى طالب به ﷺ
٢٥٩	المبحث السابع : التربية العملية لمحمد ﷺ
٢٦٠	(١) رحلة محمد الأولى إلى الشام
٢٦٨	(٢) رعى محمد ﷺ الغنم
٢٧٥	(٣) اشتراكه ﷺ فى حرب الفجار
٢٨٢	(٤) مشاهدته ﷺ حلف الفضول

٢٨٨	 (٥) رحلة محمد ﷺ الثانية إلى الشام
٢٩٢	 (٦) ركائز دعوية في تنشئة الدعاة
٢٩٦	المبحث الثامن : زواج محمد ﷺ خديجة (رضى الله عنها)
٣٠٣	 ركائز دعوية حول استقرار الدعاة
٣٠٥	المبحث التاسع : اشتراك محمد في بناء الكعبة
٣١٩	المبحث العاشر : الكعبة والمسجد الحرام
٣٢٤	المبحث الحادى عشر : المقدمات العملية للبعثة النبوية
٣٢٤	أولاً : كثرة المبشرات
٣٣٣	 ثانياً : انتشار العلم بخاتم النبوة
٣٣٧	 ثالثاً : منع الجن من الاستماع
٣٤٤	 رابعاً : تكامل شخصية محمد ﷺ
٣٦٤	 خامساً : تحبيب الخلاء لمحمد ﷺ
٣٧٤	 سادساً : ركائز دعوية من مقدمات النبوة
٣٧٥	
٣٧٨	المبحث الثانى عشر : بدايات الوحي
٣٨١	 (١) الرؤيا الصادقة
٣٨٥	 (٢) نداءات الملائكة
٣٨٦	 (٣) كلام الشجر والحجر
٣٨٨	 (٤) لقاء الملائكة
٣٩٤	 (٥) مجئ جبريل بالقرآن
٣٩٦	 (٦) فتور الوحي
٣٩٦	 (٧) ركائز دعوية من صور بدايات الوحي

- ٣٩٧ الركيزة الأولى : الاهتمام بالعلم
- ٣٩٨ الركيزة الثانية : ضرورة التهيئة والتدريب
- الركيزة الثالثة : الاستعانة بالعقلاء المخلصين
- ٣٩٩ المبحث الثالث عشر : صور الوحي

المبحث الرابع عشر :

- أحداث السيرة المحمدية بعد التكليف بالرسالة
- ٤١٠ أولاً : تهيئة بيت النبي للإسلام
- ٤١١ ثانياً : المرحلة السرية للدعوة
- ٤١٥ ثالثاً : صلته ﷺ بأعمامه
- ٤١٦ رابعاً : أعمال القرشيين للقضاء على الإسلام
- ٤١٩ (١) محاولة التشكيك في صدق محمد ﷺ
- ٤١٩ (٢) عداة أبي لهب لمحمد ﷺ
- ٤٢١ (٣) السخرية والاستهزاء بمحمد ﷺ
- ٤٢٢ (٤) بث الدعايات الكاذبة
- ٤٢٤ (٥) اللجوء إلى المساومة
- ٤٢٨ (٦) الاضطهاد البدني
- ٤٢٩ (٧) محاولة قتل محمد ﷺ
- ٤٣٢ (٨) العودة إلى المساومة
- ٤٣٥ (٩) أبو طالب يحتاط للأمر
- ٤٣٩

- ٤٤٠ (١٠) المقاطعة العامة
- المبحث الخامس عشر :
- ٤٤١ عدوان أهل مكة ومواجهة المسلمين له
- ٤٤١ (١) عدوان أهل مكة
- ٤٤٨ (٢) مواجهة المسلمين للاضطهاد
- ٤٦٠ المبحث السادس عشر : عام الحزن
- ٤٦٣ المبحث السابع عشر : الدعوة في غير مكة
- ٤٦٣ (١) عرض ﷺ نفسه على قبيلة ثقيف
- ٤٦٦ (٢) عرض ﷺ نفسه على القبائل
- ٤٧٢ (٣) الاتصال بقبائل المدينة " يثرب "
- ٤٧٤ المبحث الثامن عشر : زواج النبي ﷺ بعد وفاة خديجة
- ٤٧٤ أولاً : سودة بنت زمعة (رضى الله عنها)
- ٤٧٨ ثانياً : عائشة بنت أبي بكر (رضى الله عنها)
- ٤٨١ ثالثاً : أم حبيبة بنت أبي سفيان (رضى الله عنها)
- ٤٨٢ المبحث التاسع عشر : تتابع مجئ نصر الله تعالى
- ٤٨٢ النصر الأول : إسلام عداس
- ٤٨٥ النصر الثاني : إسلام الجن
- ٤٨٧ النصر الثالث : إجارة المطعم بن عدى
- ٤٨٩ النصر الرابع : أضواء وسط ظلام القبائل
- ٤٨٩ (١) إسلام سويد بن الصامت ﷺ

- ٤٩٠ (٢) إسلام إياس بن معاذ رضي الله عنه
- ٤٩١ (٣) إسلام أبو ذر الغفاري رضي الله عنه
- ٤٩٢ (٤) إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه
- ٤٩٣ (٥) إسلام ضماد الأزدي رضي الله عنه
- ٤٩٥ (٦) ركائز دعوية من إسلام الصفوة
- ٤٩٥ الركيزة الأولى : التفاؤل وعدم اليأس
- ٤٩٦ الركيزة الثانية : العبرة بالكم لا بالكيف
- ٤٩٧ الركيزة الثالثة : الله ينصره من ينصرة
-
- ٤٩٨ المبحث العشرون : الإسراء والمعراج
- ٤٩٩ (١) مفهوم الإسراء والمعراج
- ٥٠٠ (٢) ثبوت الإسراء والمعراج
- ٥١٦ (٣) كيفية وقوع الإسراء والمعراج
- ٥٢٣ (٤) ركائز دعوية من معجزة الإسراء والمعراج
- ٥٢٣ الركيزة الأولى : ضرورة الثقة بالله
- ٥٢٤ الركيزة الثانية : عقوبة الظالم لا مفر منها
- ٥٢٥ الركيزة الثالثة : قيام الدعوة على الوضوح
- ٥٢٦ المبحث الحادي والعشرون : إسلام الأنصار
- ٥٢٧ اللقاء الأول : إسلام نفر من الأنصار
- ٥٢٩ اللقاء الثاني : بيعة العقبة الأولى
- ٥٣٢ اللقاء الثالث : بيعة العقبة الثانية

الفصل الثالث

منهج النبي ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى في مكة

٥٤١	التمهيد
٥٤٤	المبحث الأول : تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة
٥٤٤	أولاً : منهج الدعوة
٥٤٨	ثانياً : المضمون الفكري لحركة الدعوة
٥٥٣	ثالثاً : أسلوب الدعوة
٥٦٢	رابعاً : وسائل الدعوة
٥٦٩	خامساً : الداعي والمدعو
	المبحث الثاني :
٥٧٠	حركة الرسول ﷺ بالدعوة خلال المرحلة السرية ...
٥٧١	أولاً : اقتصار الدعوة على العقيدة
٥٧٥	ثانياً : قيام الدعوة على الاتصال الفردي
٥٧٧	ثالثاً : تخير المدعوين
٥٧٨	رابعاً : تجنب ضلالات القوم
٥٧٩	خامساً : دعوة الأقربين الذين يعاشرهم ﷺ
٥٨١	سادساً : إسلام الضعفاء
٥٨٣	سابعاً : الاكتفاء بدعوة من يأتيه ﷺ من خارج مكة ..
٥٨٦	ثامناً : التخفي في العبادة والتوجيه
٥٨٩	تاسعاً : تحمل المسلمين مسئولية الدعوة
٥٩٣	المبحث الثالث : الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية ...

٥٩٤	المبحث الرابع : المسلمون خلال المرحلة السرية
٥٩٨	المبحث الخامس : خصائص المرحلة الأولى للجهر بالدعوة
٦٠٢	أولاً : ظهور الجماعة المؤمنة
٦٠٤	ثانياً : الصبر وتحمل الابتلاء
٦٠٥	ثالثاً : التغيير يبدأ من الباطن
٦٠٦	رابعاً : مواصلة العمل للنجاح
٦٠٨	خامساً : دعوة الأقرب فالأقرب
٦١٩	المبحث السادس : مرحلة الجهر العام بالدعوة

المبحث السابع :

٦٢١	خصائص الحركة بالدعوة خلال مرحلة الجهر العام
٦٢١	أولاً : الاتصال بصوره المختلفة
٦٢٨	ثانياً : الدعوة بالحوار والمفاوضة
٦٣٢	ثالثاً : الدعوة بمقابلة القبائل ودعوتهم
٦٣٤	رابعاً : الدعوة بمقابلة الوفود
٦٣٧	خامساً : الدعوة بإرسال الرسائل والدعاة
٦٤٢	سادساً : الدعوة بالعمل والتطبيق
٦٤٣	سابعاً : الاستفادة من عادات المجتمع الجاهلى
٦٤٦	المبحث الثامن : استمرار الحركة بالدعوة
٦٥٠	المبحث التاسع : المسلمون فى نهاية المرحلة المكية

الفصل الرابع

ركائز الدعوة المستفادة من المرحلة الحكية

٦٥٥	 التمهيد
٦٥٧	 الركيزة الأولى : المعرفة التامة بالله تعالى
٦٦٦	 الركيزة الثانية : المعرفة الشاملة للمدعوين
٦٧١	 الركيزة الثالثة : الاتصال القوى بالناس
٦٧٤	 الركيزة الرابعة : الملازمة بين الدعوة والواقع
٦٧٩	 الركيزة الخامسة : إدراك مسئولية الدعوة
٦٨٢	 الركيزة السادسة : دور المرأة المسلمة فى الدعوة
٦٨٧	 الخاتمة
٦٩١	 الفهرس